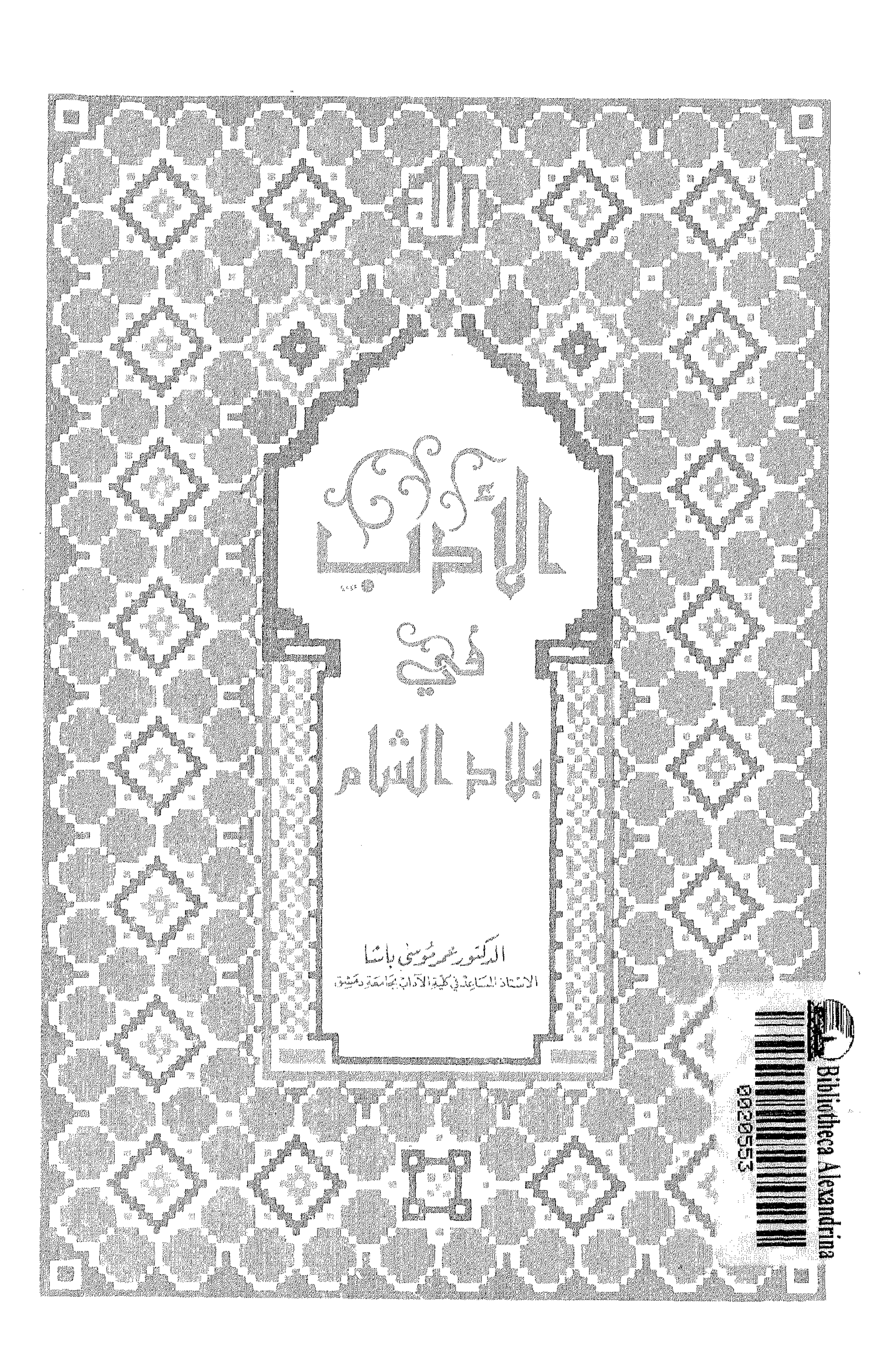

الأدب
في
بلاد الشام
الدكتور عمر موسى باشا
الأستاذ المساعد في كلية الآداب بجامعة دمشق



الأدب في بلاد الشام

عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك

الطبعة الثانية

١٣٩١ - ١٩٧٢

الأدب في بلاد الشام

عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك

الدكتور عمر موسى باشا
الأستاذ المساعد في كلية الآداب
بجامعة دمشق

المكتبة العباسية
دمشق



هـذا الكتاب رسالة نال بهـا المؤلف درجة الدكتوراه في الآداب

بمرتبـة الشرف الثانيه من كليـه الاداب بجامعة القـاهره في الثالث

من شـهر حـزيران (يونيه) سـنة ١٩٦٤ .

اما لجنـة المناقشه فكانت مؤلفـة مـن الاستاذ الدكتور عبـد

العـزيز الأهـواني المشرف على البحث ، والاستاذ الدكتور شـوقي

ضيف ، والأستاذة الدكتورة سـهير القلماوي .


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

ان الاقبال الكبير على هذا الكتاب من القراء حفزني على تجديد طبعه ، وآية ذلك انه كان من أوائل الدراسات العلمية الجادة والبحوث المنهجية المسهبة لعصر هام جداً امتد قرنين من الزمن شهد أعظم الملاحم والاحداث التي مرت في بلاد الشام بدءاً من دخول الصليبيين وانتهاء من خروج التتار .

وقد أشار علي بعضهم بضرورة اختصار هذا الكتاب تسهيلاً للشداة من الباحثين ، ولم تكن هذه الفكرة لتلقى مني قبولاً ، ذلك لان الثقافة الخصبة لا تكون في دراسة المختصرات ولكنها نجد مرعاها المربع في البحث المستفيض الذي اكتملت أصوله وتشعبت فنونه .

مثلي في ذلك مثل القدماء فقد حكي عن الجاحظ أنه صنف كتاباً وبوبه أبواباً ، فأخذه بعض أهل عصره ، فحذف منه أشياء ، وجعله أشلاء ، فأحضره وقال له : « يا هذا ان المصنّف كالمصور ، واني قد صورت في تصنيفي صوره كانت لها عينان فعوّرتهما ، أعمى الله عينيك ، وكان لها أذنان فصلّمتهما صلّم الله أذنيك ، وكان لها يدان فقطعتهما ، قطع الله يديك » حتى عدّ أعضاء الصورة ، فاعتذر اليه الرجل بجهله هذا المقدار ، وتاب عن المعاودة الى مثله .

وحكي أيضاً عن ياقوت مثل هذا فقال : « وقد التمس مني الطلاب اختصار هذا الكتاب مراراً ، ولم أجد لي على قصر هممهم أولياء ولا أنصاراً ، فما انقدت لهم ولا ارعويت ، ولي على ناقل هذا الكتاب والمستفيد منه أن لا يضيع نصبي ، ونصب نفسي له وتعبي ، بتبديد ما جمعت ، وتشتيت ما لفّقت ، وتفريق ملتئم محاسنه ، ونفي كل علق نفيس عن معادنه ومكامنه ، باقتضابه واختصاره ، وتعطيل جيده من حليّه وأنواره ، وغصبه اعلان

فضله وأسـراره ، فرب راغب عن كلمـة غره متهالك عليها وزاهد عن نكتة غيره مشغوف بها ، يمضـي الركاب اليهـا ، فان أجبتني بررتني جعلـك الله من الابرار ، وان خالفتني فقد عففتني والله حسيبك في عقبى الـدار .

ثم اعلم ان المختصر لكتاب كمن أقـدم على خلق سوي فقطع أطرافه فتركه أشل اليدين ، أبتر الرجلين ، أعمى العينين ، أصلم الأذنين ، أو كمن سلب امرأة حليها فتركها عاطـلاً ، أو كان كالذي سلب الكمي سلاحه فتركه أعـزل راجلا » (١) .

لـن أقـدم على فعـل أمـر أنكره الجاحظ وياقوت وغيرهما من القدماء ، فهـذا الكتـاب وحـدة متكاملة ، ومن العبث أن يختصر المرء شـيئاً لأنه يكون قد شـوّه الصورة الحقيقية ، وقطّع أوصال الجسد الواحـد ، فيغـدو جثة لا حـراك فيها ، والأدب صورة تفيض بالنـور وجسد ينبض بالحيـاة ، ولا أدب بغير النور والحيـاة .

وعوداً على بـدء ، فان كان الاختصار يشوه الأصل فان تغيير عنوان الكتاب يفقده كثيرا من حقيقته ، ذلك أن هذا الكتاب طبع باسم « أدب الدول المتتابعة » لاعتبارات تدريسية خاصة ، ولكني آثرت أن يعـود العنوان الاصلي كما كان وكما بـدأ وهو « الأدب في بـلاد الشـام » وقد اشتمل على عصور الزنكيين والايوبيين وجزء من العصر المملوكي الاول ، وبهذا تبقى الصورة دون تشويه ويبقى العنوان وفـق الصورة الحقيقية الاولى للكتـاب .

هـذا هـو الكتاب في طبعتـه الثانية بين يـدي القارىء الكريم نرجـو أن يفيـد منـه والله حسبنا ونعـم الوكيـل .

---

(١) معجم البـلدان لياقوت ج ١ ص ١٢ ، ١٤ .

مَدْخَل البَحث

جدير بنا ونحن فى عتبة هذا البحث أن نحدد مفهومنا عن (الأدب في بلاد الشام) في القرنين السادس والسابع الهجريين الموافق للقرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، ثم نبين بعد ذلك سبب اختياره ، ونعرض للمشكلات والصعوبات التي اكتنفت عملنا الأدبي .

عرّف النقاد العرب القدماء الأدب ، وذكروا أنه هو ما يحسن من الأخلاق وفعل المكارم والفضائل ، كما هو معروف في العصر الجاهلي .

تحدث الشعراء الجاهليون وحكماؤهم كثيراً عن هذه المعاني ، ونوهوا بالفضائل الكريمة التى هى موضع فخرهم واعتزازهم ، حتى إذا جاء الإسلام ونشر تعاليمه السمحه ، اتسع بالضرورة نطاق هذا المفهوم ، فشمل كثيراً من المعانى الجديدة ، كما يفهم ذلك من الحوار الذي جرى بين على وابن عمه محمد صلى الله عليه وسلم . قال له وقد سمعه يخاطب وفد بني نهد : « يا رسول الله نحن بنو اب واحد ، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره » . فقال عليه الصلاة والسلام : « أدبنى ربى فأحسن تأديبي » .

وسئل أيضاً : « فيم الجمال ؟ » فقال : « في اللسان » يريد البيان (١) .

---

(١) ابن رشيق : العمدة ، ج ١ ص ٢٤١ .

هــذا مفهوم الإسلام عن الأدب ، وقــد تطور هــذا المفهوم أيضاً بعــد الإسلام بمــدة طــويلة ، وتغيرت المفاهيم تغيراً مبايناً ، واصطلح المولدون والمحدثون والمتأخرون على تسمية العالم بالشعر أديباً وعلوم العربية أدباً(١) ، وشملت هذه التسمية فأصبح لفظ الأدب يطلق على هــذه العلوم وغــيرها . يؤكد هــذه النظرة قول المبرد في كامله أن كتــابه يجمــع ضروبا من الآداب ما بين كلام منثور ، وشعر مرصوف ، ومثل سائر ، وموعظة بالغة ، واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة (٢) .

أما مفهوم النقــاد والأدباء في القرنين السادس والسابع الهجريين ، فلا يختلف كثيراً عما رأينــاه بعــد الإسلام ، ونستطيع من خــلال ذلك أن نتبين المفهومين معــاً : المفهوم التقليدي وهــو أن الأدب أدب النفس ، والمفهــوم الجــديد وهو أن الأدب أدب الدرس ، والأدب الحقيقي الحى ما كان صورة معبرة عــن النفس الإنسانية في كل زمــان ومكان ، وغايته الخلق والإبداع ، وما أصدق قول ابن الأثير الكاتب : شيئان لا نهــاية لهما البيان والجمال(٣) ، فإذا فصلنا بينهما ، نكون قد جردناه من أقدس ما فيه من روح الحياة .

نخلص من ذلك الى أن نعرض قصة الأدب في بلاد الشام ، في عصور الدول المتتابعة ، موضوع هذا البحث ، ونشير باديء ذي بدء إلى أن لفظة سورية(٤) يختلف مدلولها الآن عما كانت تعرف به فهي في حقيقة وضعها تدل على رقعة ضيقة من الأرض لا تتجاوز في مداها ما بين مدينتي خناصرة وسلمية . وقد

---

(١) الخفاجي : شــفاء الغليل ، ص ٢٧ .

(٢) المبرد : الكامل في اللغــة والادب ، ص ٢ .

(٣) ابن الاثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .

(٤) المعروف عند القدماء أن لفظــة سورية تقتصر على موضع محدد ما بين خــاصرة . وهي بليدة من أعمال حلب تحاذي قنسرين نحو البادية ، وسلمية الواقعة شرقي حماة والقريبة منهــا . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ص ٢٨٠) .

أستخدم القدماء لفظة بلاد الشام (١) فهي نطلق على رقعة فسيحة من الارض نمتد ما بين العريش وأقاصى ضفاف الفرات والجزيرة ، وتضم في بقاعها أقطارا شتى .

قصرت دراسة (الأدب في بلاد الشام) على القرنين السادس والسابع الهجريين وذلك لأهمية هذه الفترة الزمنية في التاريخ الاسلامي ، فهي قد شهدت أحداثاً كبرى ، أهمها سقوط بيت المقدس ، ووقوع الطراز الأخضر (٢) بيد الفرنجة ، وخراب بغداد وعراقها بيد التتار ، وتهديد الفرنجة الثغور المصرية بالاحتلال ، وقيام دول متتابعة ثلاث في الشام ومصر وغيرهما ، فتوحدت البلاد ، وتحرر بيت المقدس وطرد الصليبيون ودحر التتار ، وبذلك أنقذت البلاد من هذا الخطر الجاثم .

وطبيعي جداً أن يخرج هذه الأحداث الكبرى الأدب العربي في هذا العصر من عقمه وجموده ليسلم بما دهم البلاد وأصاب العباد من مصائب وكوارث . وغريب حقاً الا يدرس حتى الآن هذا العصر دراسة جدية ، والا يعطى حقه وقدره ، وإنما نشهد إهمالا وإعراضاً من الباحثين والنقاد ، في الوقت الذي نشهد عناية المستشرقين والمستعربين وتهافتهم على بحثه ممن يهمهم الدراسات الشرقية والأبحاث الإسلامية .

وعسير على الباحث في هذا العصر أن يدرس أدب قطر معين ، وذلك لقيام وحدة سياسية شاملة تصدت للخطر الخارجي الداهم . وفضت

---

(١) عرف ياقوت بلاد الشام . وذكر أن حدها من الفرات الى العريش المتاخم للديار المصرية وأما عرضها فمن جبلي طي من نحو القبلة الى بحر الروم : وما بشأمة ذلك من البلاد . وبها من امهات المدن : منبج وحلب وحماة وحمص ودمشق والبيت المقدس والمعرة . وفي الساحل : أنطاكية وطرابلس وعكا وصور وعسقلان وغير ذلك ويعد في الشام ايضاً الثغور وهي : المصيصة وطرطوس واذنه وأنطاكيه . وجميع العواصم من مرعش والحدث وبغراس والبلقاء وغير ذلك . (ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٣١١ - ٣١٥) .

(٢) ذكر أبو شامه أن المعنيّ بالطراز الأخضر بلاد الساحل المطلة على بلاد البحر من الداروم وغزة وعسقلان وعكا وصيدا وبيروت وجبيل وغير ذلك . (أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ١٠٤) .

على خطـر العزلة الجاثم . وكانت الدول المتتابعة الثلاث : الزنكية والأيوبية والملوكية تحـكم معظم هـذه الأقطار ، وكانت مصر والشام قـلة العـالم الإسلامى في هـذا العصر .

كما اننا نشاهد معظم الأدباء ، ينشأ أحـدهم في قطر ، ويتلقى علومه في ثان ، وينبه أمره في ثالث ، وقليل منهم من ارتضى لنفسه العزلة الأدبية في بلده ، إذ لا قـرار ولا استقرار في عصـر ممـلوء بالخطوب الجسام والأحداث الكبار ، وإنما نشهد رحلات أدبية طلبـاً للعلم والإجازة وسعياً وراء المجـد والشهرة ، فالمأثور عن ملوك هـذا العصر وسلاطينه وأمرائه أنهم كانوا يساعدون طلبة العلم والفقهاء ، ويوفرون لهم أسباب معاشهم ، ويبذلون لهـم كل تشجيع .

تلك هي حـال أدباء هـذا العصر ، وتلك هي نشأتهم وثقافتهم ، ينتقلون في حواضر العـالم المنتشرة في كل مكان هنـا وهناك . وما كان الأدب العربي قط في يوم من أيامه مطبوعاً بالطابع القطري أو الإقليمي ، ومـرد ذلك الى اللغـة والدين والتاريخ والثقافة المشتركة إذ تجعل من المستحيل علينـا إبراز كيان أدب منفصل لقطر معين مـن الأقطار العربية ، زد على ذلك أن الثقافة الإسلامية في هذا العصر كانت تجمع شمل العناصر المتباينة في إطار واحد من الثقافة المتشابهة والتوجيه الديني الخاص .

هذه كتب الأدب شاهدة على هـذه الوحـدة الثقافية الشاملة ، فهي لم تميز بين الأدباء عامة ، وإنما كانت تورد أخبارهم وآثارهم ، سواء أكانوا في الشام أم في مصر أم في غيرهما من البلاد .

توضحت هـذه النظرة الأدبية الشاملة في ادبنا العـربى خـلال هـذا العصر ، ولم اقنع بهـا الا بعد أن هدتني أبحاثي المتعلقة بهـذا الموضوع ، وخلصت منها الى الاعتقاد أن الأدب في الشام ما كان له أن يكـون منفصلاً عن قافلة الأدب العـربي في عصور الدول المتتابعة ، وإنما كان مظهـراً أغرّ ، وصورة واقعية من أدب هـذا العصر . ويؤلف مـع الآداب العربية في شتى

الاقطـار والأمصـار الإسلامية صورة كامـلة ، قلّ أن تختلف معانيهـا ، أو تتباين مبانيهـا .

بقي عليّ أن أذكـر أن الفضل في اختيار هـذا البحث الهـام يرجع إلى أستاذي المرحوم الدكتور محمد كامل حسين الـذي اقترحه عليّ قبيل وفاته ، وذكـر لي أن هـذا الموضوع واسـع جـداً ، ومتشعب جـداً ، تكثر فيه الاتجاهات الأدبية المختلفـة ، والمدارس الفنيـة المتباينة . وقـد مضى إلى بارئه راضياً مرضياً ، طيّب الله ثراه ، ونفعنا بذكراه ، وأسـكنه فسيح جنـاته .

كان هذا الموضوع حقـاً كما تنبأ لي ، يضاف الى ذلك أن امهات المصادر التى أحتاج إليها مخطوطة نادرة أو بعيدة المنال ، وقد بذلت أقصى جهدي لتصوير بعضها والحصول عليه من البلاد الأجنبية .

كما واجهتني صعوبات جمة في بدء العمل ، لأن الدراسات حـول هـذا الموضوع نزره محدوده النطاق ضيقة الآفاق ، ولولا العون والتوجيه اللذان حباني بهما أستاذي الكريم المشرف الدكتور عبد العزيز الأهواني لما استطعت المضي قدماً في مسالك هذا البحث الشائك ، فقد أفسح أمامي محجة البحث العلمى الموضوعى ، وأوصاني بالمنهجية العلمية في النقـد ، وبالدقة المتناهية في التحري عن الحقائق الأدبية وكشفها ، كما أخص بالذكر الأستاذ الدكتور شوقى ضيف ، فقد زودني بإرشاداته وقدم لى كل ما أحتـاج إليه ، حتى استقام لى هـذا السفر وخرج بعـد هذا العمل المتواصل والجهد الدائب على هـذا الشكل . ولقد بذلت له معظم وقتي وصحتي ، واستنفدت لأجله كل جهـدى ودأبى ، واستغرقت في عملى المتواصل لبـل نهـار خلال أربعة أعـوام متواليات ، ليكون هـذا البحث كما أرجوه عميقا ودقيقـاً ، فإن كتب لي التوفيق فذلك بغيتى وحسبى ، وإلا فما قصدت إلا العمـل الخيّر ، والله شهيد على ما أقـول ، وهو وحـده ولي الأمـر والتدبير ، إنـه على كل شيء قـدير .

القاهرة ١٤ تموز (يوليو) سنة ١٩٦٣



الباب الأول

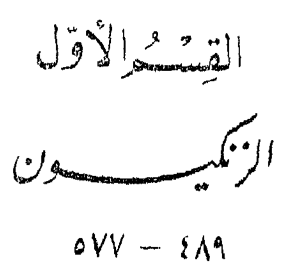
إلمامة عامة



الفصل الأول

التطورات السياسية والوحدة العربية

نحاول في هذا الفصل أن نعرض للتطورات السياسية العامة في بلاد الشام . فنتحدث عن الدول المتتابعة الثلاث التى ظهرت فى هذه المرحلة الخطيرة من التاريخ الإسلامى ؛ وقد استطاعت أن تجمع أمورها ، وتطهر البلاد ، وترد الغازين القادمين من الشرق والغرب على السواء ، وتقيم صرح وحدة عربية كبرى .



نقتصر من ملوك هذه الأسرة التركية على الذين حكموا بلاد الشام ، وهم قسيم الدولة آق سنقر ؛ وعماد الدين زنكي ، ونور الدين محمود ، والصالح إسماعيل .

(١)
قسيم الدولة آق سنقر

كان في بدء أمره مملوكاً تركياً لدى السلطان السلجوقي الب أرسلان ، فدرج في كنفه وترعرع ، وربى مع ابنه جلال الدولة ملكشاه ، واستمرت صحبته له حتى ولي السلطنة بعد وفاة سيده ، فارتفعت منزلته ، وسمت مكانته ، ونبه شأنه فلقّب بقسيم الدولة (١) .

لم يرض الوزير نظام الدين الملك عن وجود منافس خطير على مركزه ، ورأى بثاقب بصره أن يبعده عن السلطان ليخلو له الأمر وينفرد بالحكم فلما تسلم مدينة حلب سنة ٤٨٠ هـ اهتبل الفرصة المناسبة واقترح عليه أن يقطعه إياها مع أعمالها ، وزاده حماة واللاذقية ومنبج (٢) .

لم يكتف قسيم الدولة بما أفاء الله عليه ، بل طمحت نفسه إلى توسيع رقعة ملكه ، وتولدت في ذهنه فكرة جمع شتات الشام كله ، فوضع يده على شيزر وأفامية وحمص والرحبة (٣) ، وشرع ينشر لواء الأمن بين ربوعها ، ففتك بالمفسدين والعابثين ، فكان كلما سمع بمفسد عاث أو قاطع طريق أمر بالقبض عليه ، وصلبه على أبواب المدينة ليكون عبرة لغيره (٤) .

ذكر ابن الأثير أنه شرط على كل أهل قرية في بلاده أنه متى أخذ عند أحدهم قفل أو أحد من الناس غرم أهلها جميع ما يؤخذ من المال من قليل أو كثير ، فكانت السيارة إذا بلغت قرية من بلاده القوا رحالهم وناموا آمنين ، وقام أهل البلد يحرسونهم الى أن يرحلوا (٥) .

لم يطل حكم آق سنقر ، فلقد توفي السلطان جلال الدولة ملكشاه

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٤ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١١ .
(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٥ ، وابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٩ .
(٣) أبو شامه : الروضتين ، ج ١ ص ٢٥ .
(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٩ .
(٥) أبو شامه : الروضتين ، ج ١ ص ٢٦ و ٢٧ .

ببغداد سنة ٥٤٨ هـ . وطمع أخوه تاج الدولة تتش صاحب دمشق ، في السلطنة بعده . وشرع يوسع فسحة ملكه . فملك ميافارقين وديار بكر . ثم اتجه الى أذربيجان ، لكن السلطان الجديد ركن الدين بركيارق ، نجل ملكشاه . لم يرض عن اتساع ملك عمه ؛ فجمع جنوده ، وسار إليه ليمنعه من البلاد .

وطبيعي جداً أن يقف آق سنقر في هذا الصراع مع ابن ملكشاه . وفاء لحقه عليه وصحبته له . وسرعان ما عاد تاج الدولة الى بلاد الشام من فتوحه في أذربيجان واتجه صوب حلب سنة ٤٨٧ هـ ، والتقى الجمعان في تل السلطان قرب نهر السبعين واحتدم القتال بينهما وأسفر عن وقوع آق سنقر أسيراً . فلما أحضر بين يدي تاج الدولة قال له « لو ظفرت بي ما كنت صنعت بي ؟ » فأجابه : « كنت أرى قتلك » قال : « أحكم عليك بما كنت تحكم علي » ، فقتله صبراً (١) .

(٢)

عماد الدين زنكي

لم يخلف قسيم الدولة بعد مقتله غير ولد صغير هو عماد الدين ، وكان إذ ذاك في العاشرة من عمره (٢) ، ولقد رعى مماليك والده شأنه ، وهو طفل يتيم ، حتى خرج الأمير كربوقا من سجنه في حمص بعد مقتل تاج الدولة تتش ، وكان زميل والده في الكفاح .

استطاع هذا الأمير الأسير أن يستعيد بعض ما كان بيد صديقه قسيم الدولة ؛ فملك حران وماردين ونصيبين والموصل ثم أمر مماليكه بإحضار عماد الدين ، وقال : « هو ابن أخي ، وأنا أولى الناس به وبتربيته (٣) » .

ظل عماد الدين في رعاية أمراء الموصل حتى ولي أمرها شمس الدين جكرمش ، وهو أحد مماليك السلطان جلال الدولة ملكشاه ، فأحب عماد

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٦ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٢٨ .
(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٩٤ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٢٥ ؛
(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٩٦ ، ٩٧ . (٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٩٧ .

الدين وأدناه ، وتبناه وبقي أثيراً عنده حتى مقتله سنة ٥٠٠ هـ .

بدأت أمارات النجابة والشجاعة تلوح عليه ، فقد أبلى خير بلاء في حروبه مع الفرنجة في بلاد الشام ، فأقض مضجعهم : وتحدثت بشجاعته الركبان ، وكان يعرف في عساكر العجم بزنكى الشامي (١) .

كانت البلاد بدداً ، تتلاعب بها رياح الأعداء الغرباء من كل جانب وساء عماد الدين ما لقيه من تناحر الأمراء حول السلطنة والإقطاعات ، فوقف بعيداً عن هذه المشاحنات ، ولعله كان يبيت في نفسه أمراً ما ، فنسمعه يقول لأصحابه : « قد ضجرنا مما نحن فيه ، كل يوم يملك البلد أمير : ويؤمر بالتصرف على اختياره وإرادته ، فتارة نحن بالعراق ، وتارة بالشام ، وتارة بالموصل ، وتارة بالجزيرة (٢) » .

ترك البصرة ومدينة واسط اللتين كان يتولى أمرهما ، والتحق بخدمة السلطان محمود ، فكان أثيراً لديه لمكانة والده عنده ، وقد حفظ له السلطان ذلك ، فكان الوحيد الذي رشحه ليلي أمر بلاد الشام الممزقة بعد أن شعر سلاطين السلاجقة بالخطر الماحق الذي يتهددها ، وأنهم لا قبل لهم على حفظ ثغورها .

لعل من الخير أن أقف عند هذا الأمر فأورد ما قاله صلاح الدين محمد الباغسياني ونصر الدين جقر للقاضي بهاء الدين الشهرزوري وللوزير شرف الدين أنوشروان بن خالد : « إنه قد علمت أنت والسلطان أن ديار الجزيرة والشام قد تمكن الفرنج منها وقد قويت شوكتهم فاستولوا على أكثرها ، وقد أصبحت ولايتهم من ماردين الى عريش مصر ، ما عدا البلاد الباقية بيد المسلمين (٣) » .

وافق السلطان على تولية عماد الدين لما يعرفه من شجاعته وكفايته فكتب منشوراً بذلك الى الأقطار ، وبعث معه ابنه ألب أرسلان ، وجعل واليه

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٨ .
(٢) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٢٩ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٣٠ .
(٣) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٣٠ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٣٣ .

الجديد زنكي أتابكه ، ومن هنا اقترن أسم هذه الأسرة التركية الحاكمة بهذا اللقب الذي أطلق عليها فتسمل السابقين منهم واللاحقين .

يبدو لي أن عماد الدين لقب بالأتابكي من قبل منذ كان في الموصل (١) إذ كان في حقيقة أمره أتابك ابن السلطان السلجوقي محمود بن محمد بن ملكشاه، ويفهم من معنى هـذا اللفظ أنه يحكم باسم مولاه الصغير ؛ لكن الحكم كان في حقيقة الأمر بيده وحـده

ابتهج الناس بتولي عماد الدين ، وعلموا « أن ذلك بداية سعادة ، وأن أمر هذه الدولة عظيم (٢) » وكأنهم كانوا ينتظرون البطل الموعود ، تجـود به الأقدار ، فينقذ بلاد الشام من براثن الفوضى والاضطراب ، ويدفع عنهـا عادية الصليبيين الذين كانوا يحتلون معظم المناطق القريبة من الطراز الأخضر الشامي .

غادر عماد الدين العراق ، وتوجه صوب الشام ففتح جزيرة ابن عمـر ونصيبين وسنجار وحران وعبر الفرات ، ودخل حلب الشهباء . فخـرج أهلها للقائه ، واستبشروا خيرا بقدومه ، كما وصلت في الوقت ذاته رسـل السلطان ، ومعهم توقيع سلطاني لعماد الدين بالموصل والجزيرة والشام (٣) . وأضاف سنة ٥٢٥ هـ إليه أمر العراق (٤) . وهكذا أصبح أمـل الناس لينقذ البـلاد مما هي فيه .

شرع يوحد البلاد في الداخل قبل تطهيرها من الفرنجة ، ورأي بثاقب بصره أن يهادن جوسلين ، صاحب الرها ، ليثبت أقدامه ، ويجمع الأجناد ، ويهيىء البعوث ، فنازل دمشق مدة من الزمن ، غير أنه صرف النظر عنهـا عنـدما وردت رسل الخليفة العباسي الراشد تطلب نجـدته على السلطان السلجوقي مسعود ويأمره بمصالحة صاحب دمشق .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٩٥ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٦٥ .
(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٠ .
(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٣ .

فتح بارين ٥٣١ هـ

كان هــذا التصدع في بلاد الشام بسبب الخلاف المستحكم بين الخلفاء والسلاطين والأمراء في بغداد والأطراف كافياً ليلم الفرنجة شعثهم ، ويجتمعوا على حرب عماد الدين ، لكنه فاجأهم بالحرب ، وبدأ يطهر البلاد ، وتوجه نحو قلعة بارين وحصرها ، وشعر الفرنجة بالخطـر المحدق بهم ، فتسلل القسوس والرهبان منهم الى بلاد الروم والفرنجة يستنصرونهم على المسلمين، وأعلموهم « أن زنكى إن أخـذ حصن بارين ومن فيها من الفرنج ملك جميع بلادهم في أسرع وقت لعـدم وجود المحامى عنها ، وأن همة المسلمين مصروفة الى فتح بيت المقدس (١) » .

اجتمع ملوك الفرنجة على حربه من جديد ، وتوجهوا نحو قلعة بارين ، وكان بينهم ملك القدس ، فدارت رحى معـركة حامية الوطيس فروا على أثرها ، ولاذوا بحصن بارين ، فضيق عليهم عماد الدين الخناق ، ومنع عنهم كل شيء ، فطلبوا منه الأمان وسلموه الحصن ونجوا بأرواحهم وتابع عماد الدين فتوحه خلال الحصار ، فاسترد منهم المعرة وكفر طاب وغيرهما (٢) . وقد خلد الشعراء هذه الهزيمة المنكرة وهذا الفتح الأغر ، فأكثروا من مدح عماد الدين ، البطل الموعود ، بغر القصائد .

تتالت الأحداث على غير ما يشتهي ، فخلع الخليفة الراشد ، وقام مقامه المقتفى بالله ، فاضطر الى ايفاد القاضى كمال الدين الشهرزوري لمبايعة الخليفة الجـديد .

أوجس الغرب خيفة من ظهور مثل هـذا البطل في بلاد الشام ، وأخافته بوادر وحدة العرب والمسلمين تحت راية واحدة ، وتوالت صيحات الفرنجة هنا وهنـاك ، وخافوا على إماراتهم وممالكهم في الشرق فخرج ملك الروم لمساعدتهم سنة ٥٣٢ هـ ، وفتح ما وجده في طريقه ، وعزم على اكتساح مدينة حماة . لكنها صمدت أمام الهجمات ، فرأى أن يتحول عنهـا ويفتح حصن شيزر وهو على بعد مرحلة واحـدة منها ، فاستنجد صاحبها أبو العساكر

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٧٢ ، ٧٣ ، وابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص٢٠.
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٧٢ ، ٧٣ ، وأبو شامة : الروضتين، ج١ص٣٤.

سلطان بن منقذ بعماد الدين بعدما اجتمعت الفرنجة والروم على حربه ، واستمر الحصار أربعة وعشرين يوماً ، استخدمت فيه مختلف الأسلحة المعروفة آنذاك ، غير أن عماد الدين استطاع أن يقهر جموعهم ، ويأخذهم عن آخرهم ، وظفر بقسم آخر حملهم معه أسرى وهم يولون الأدبار .

حاول عماد الدين ، بعد هذا النصر الأغر منازلة دمشق وفتحها للمرة الثانية قبل متابعة حرب الفرنجة ، فحاصرها سنة ٥٣٤ هـ وبقي مده على حصارها ، وفي خلال ذلك توفي ملكها جمال الدين محمد بن بوري ، ونصب خلفاً له ابنه مجير الدين آبق بن محمد ، وقام بتدبير أمور دولة معين الدين أنر .

ولما طال الحصار بعث ملك دمشق يستدعي الفرنجة لحرب عماد الدين وبذل لهم مدينة بانياس ، ان هبوا لنجدته ، وقال لهم في مراسلة : « إنَّ مَلِكَ دمشق يملك البيت المقدس ولا يترك لهم بلداً بالساحل (١) » .

كانت هذه الإشارة في رسالته كافية لتؤلب الفرنجة جميعاً على حرب عماد الدين ، فهبوا فوراً لنجدته ، وتوجه صاحب أنطاكية الى دمشق ، والتحمت المعركة بين الفريقين ، وكانت الواقعة على المسلمين ، فبر معين الدين بوعده ، فدخل بانياس وقتل عاملها من قبل عماد الدين ، وسلمها للفرنجة وفاء لهم (٢) .

فتح الرها ٥٣٩ هـ

لم يفت في عضد عماد الدين ما حدث له بعد تحالف ملك دمشق مع الفرنجة ، وقد اشتد ساعدهم بعد هزيمته ، فشرع جوسلين ، صاحب الرها ، يهدد المسلمين في شمال بلاد الشام ، وامتدت غاراته فبلغت آمد ورأس عين والرقة ونصيبين ، بله البلاد التي أصبحت تحت حكمه كالبيرة وسروج وغيرهما . ولقد توخى عماد الدين من فتح الرها البدء بتطهير البلاد

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٨٨ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٨ ، ٨٩ .

نهائياً من احتلال الفرنجة ، كما أن هذه المدينة العظيمة تعتبر مقرهم المقدس بعد القدس وأنطاكية وروميه والقسطنطينية (١) .

حاصرها ثمانية وعشرين يوماً وملكها عنوة وقهرا ، وحرر الجزيرة وشمال الشام كله ، وكان هـذا الحدث الهام كسابقه خلده الشعراء في قصائد كثيرة نظمت في هـذه المناسبة .

حاول عماد الدين بعد فتوحه المظفرة تطهير البلاد في الداخل ، وقـرر الا يبقي في وسط بلاده ما هو لغيره من الأمراء ، فاتجه صوب قلعة جعبر ، وحاصر صاحبها الأمير سالم بن مالك العقيلي ، كما حاصر قلعة فنك ، فبينا هو نائم هاجمه جماعة من خدامه ، وكان على رأسهم غلام ، افرنجي اسـمه برتقش ، فطعنه ولم يجهز عليه ، وفر مع جماعته الى قلعة جعبر . فما كاد هذا النبأ يسري بين أصحابه ، ويهرعون اليه حتى لفظ آخر أنفاسه ، فحمل الى الرقة ، ودفن في أرض صفين .

من الخير أن نذكر هنا العمل الجبار الذي قـام به عماد الدين ذلك انه وحد البلاد من أقصاها الى أدناها لحرب الفرنجة الغزاة ، واستردمنهم أمنع حصونهم ، فلا غرابة إن حاول الفرنجة اغتياله عن طريق غلام منهم . يضاف الى ما ذكرت أنه نشر الأمن في البلاد ، ورفع بين ربوعها لواء العـدل بعـد أن ران عليها الفساد أمـداً طويلا .

(٣)

نور الدين محمود

لن نقف عنـد أبنـاء عماد الدين جميعاً ، فنترجم لهم ، وانما سنكتفي بالتحدث عن ولده الثاني نور الدين ، فهو الذي يهمنا لأنه الملك الذي وحـد جل بلاد الشام ، واستعاد معظم خططها من الفرنجة .

ولد سنة ٥١١ هـ ، ولما قتل والده غيلة تملك أخوه الأكبر سيف الدين غازي الموصل ، واكتفى بأخذ خاتم والده ، وكان حاضراً معـه ، فسار الى

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٣٦ ، ٣٧ ، وابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٩٤ ، وابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٣٨ .

حلب وتملكها بمساعدة أسد الدين شيركوه (١) ، وكان قد قصد خدمته ، وقال له : « وقد رأيت أن أصبرك الى حلب وتجعلها كرسي ملكك ، وتجتمع في خدمتك عساكر الشام ، وأنا أعلم أن الأمر يصير جميعه اليك ، لأن ملك الشام يحصل بحلب ، ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشرق (٢) » .

هكذا شطرت مملكة عماد الدين شطرين ، وكادت تقع الواقعة بين الأخوين ، حين بلغ نور الدين قدوم أخيه الى الشام : فلما وصله اتفقا على الاجتماع خارج العسكر لبحث الأمر . تلاقيا وتعانقا وبكيا ، وقال سيف الدين : « لم امتنعت من المجيء إليّ ؟ كنت تخافني على نفسك . والله ما خطر ببالي ما تكره : فلمن أريد البلاد ، ومع من أعيش ، وبمن أعتضد اذا فعلت السوء مع أخي وأحب الناس إليّ ؟ » .

استحيا نور الدين من أخيه ، وعاد الى خدمته ، فأمره أخوه بالعودة ، وقال له : « لا غرض لي في مقامك عندي ، وانما غرضي أن تعلم الملوك والفرنج اتفاقنا (١) » .

لم تكن مهمة نور الدين سهلة فلقد بدأت الرها بالعصيان بعد أن راسل جوسلين أهلها من الأرمن ، لكنه لم يمهلها بل هرع اليها فقضى على العصيان في مهده (٢) .

اوجس الغرب خيفة من ظهور هذا البطل الجديد ، فسير حملة صليبية ثانية سنة ٥٤٣ هـ . وقف نور الدين أمام أطماعه بحزم وعزم ، ونازل ملك الألمان كونراد الثالث Conrd III ، وقد اشترك معه في الحملة ملك فرانسا لويس السابع Louis VII . أما معين الدين انر فقد خشي باس نور الدين فاستنجد بأخيه سيف الدين غازي ، وهكذا فشلت هذه

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٤٢ .
(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٤٦ ، ٤٧ .
(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٤٣ ، وأبو شامه : الروضتين ، ج ١ ص ٤٩ .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١١١ ، ١١٢ ، وأبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٤٩ .

الحملة ، وعاد ملك الألمان ومن معه الى بلادهم خائبين (١) .

تابع نور الدين جهاده فتوجه الى حصن حـارم وكان بيـد الفرنجة ، فحدثت موقعة عظيمة انتهت بقتل البرنس صاحب أنطاكية سنة ٥٤٤ هـ ، وحمـل رأسه الى حلب ، وقـد أكثر الشعراء من القصائد في تخليد هـذا الحديث الهـام .

لم يكن موقف ملك دمشق فيما مر معنا من أحداث ليساعد نور الدين على جمع شمل بلاد الشام وبستعد لمحاربة الفرنجة ، فيطهر بذلك البـلاد نهائياً من هؤلاء المحتلين الطامعين الذين أقاموا لهم فيها عروش خمس ممالك لاتينية في الشرق الاسلامي .

أزمع أمـره على القضاء على آخر ملوكها مجير الدين آبق ، الضعيف ، المستضعف الذي كان دمية بيد المتسلط على أمرهـا معين الدين أنر مملوك جـده طغتكين .

ولعل سبب عزمه القضاء عليه وقوفه حائلاً دون نجدة عسقلان حنما داهمها العدو ، يضاف إلى ذلك عجـز دمشق عـن الدفاع عن نفسها أمـام الصليبيين الذين هاجموها أكثر من مرة ، وفرضوا عليها إتاوة سنوية ، فكان رسولهم يدخـل دمشق في موعد محدد ، ويجبيها من البـلاد ، كما كانوا يختارون ما شاءوا من عبيدهم وإمائهم الذين نهبوا من شتى البـلاد النصرانية خلال الحروب وغيرها ، فمن أحب المقام تركوه ، ومن أحب العودة سـار الى وطنـه طليقاً (٢) .

يمّم نور الدين شطره قبلة دمشق سنة ٥٤٩ هـ وحصرها ، فبعث ملكها مجير الدين الى الإفرنج يستنجد بهم ، وبذل لهم الأموال الكثيرة ، ووعدهم بتسليمهم بعلبك إن هم أنجدوه ، غير أن نور الدين استطاع أن يدخل البـلد

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٥٢ ، ٥٣ ، وابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١١٢ ، ١١٣ ، وابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٤٩ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٩٤ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٢٥ ، ١٢٦ ، وابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٧٤ .

ويتسلمه ، ويقضي على ملك أسرة طغتكين التركية ، وبذلك حقق وحدة بلاد الشام في الداخل ، وهي الأمل الذي ضحى من أجله أبوه وجده ، وأصبح ملكها بغير منازع .

وكان أول عمل قام به لتؤلف القلوب حوله أنه جمع سروات القوم من أهل دمشق ، من فقهاء وقضاة وتجار ، فشاورهم في أمر بلدهم ، وأعلن أمامهم إبطال حقوق دار ، وسوق البقل ، وضمان الأنهار ، وكتب منشوراً بذلك ، وقرىء على المنابر بعد صلاة الجمعة (١) .

يقول أبو شامة المقدسي بصدد هذا الحدث الهام : « وألقى الإسلام جرانه بدمشق وثبتت أوتاده ، وأيقن الكفار بالبوار ، ووهنوا واستكانوا ، وصار جميع ما بالشام من البلاد الاسلامية بيد نور الدين (٢) »

تابع جهاده ليطهر سائر ثغور الشام من الاحتلال ، ورأى بثاقب بصره أن يهيء خطه لاسترجاع بيت المقدس ، ورسخت هذه الفكرة جدياً في نفسه ، وأيقن أن لا سبيل الى ذلك الا بتوحيد شمل الأمة العربية في شطريها الكبيرين مصر والشام .

كان القدر أسرع من نور الدين فيحدث في مصر أمر ، ويهرع أمير الجيوش فيها أبو شجاع شاور بن مجير السعدي الى دمشق ، ويستنصر بنور الدين على منافسه ضرغام بن سوار الذي تغلب على الوزارة مكانه . وقتل ابنه في عهد الخليفة الفاطمي العاضد سنة ٥٥٨ هـ .

وسرعان ما تم الاتفاق بين نور الدين وشاور . وشرط عليه أن تكون له في البلاد حصة ، ويكون متصرفاً تحت أمره . وقد سير بالفعل أسد الدين شيركوه الى مصر بالعساكر التركية سنة ٥٥٩ هـ ، واستطاع بسرعة أن يخلع

---

(١) أبو شامه : الروضتين ، ج ١ ص ٩٦ ، ٩٧ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٩٧ .

ضرغاماً ويعيد الوزارة الى صاحبها شاور ، غير أنه أحس بالخطر على مركزه وعلى مصير الخلافة الفاطمية كلها ، فتنكر له وانقلب عليه وحنث بوعوده ، فلما سار اسد الدين الى مصر للمرة الثانية سنة ٥٦٢ هـ راسل شاور الإفرنج فهرعوا لنجدته ، واجتمعوا معه على حـربه ، وخاف بعض عساكره مـن الهزيمة وهم لا يزيد عددهم على ألفي رجل ، لكن شرف الدين برغش ، وهو من المماليك النورية قال لهم عندما رآهم يفكرون في العودة الى بلاد الشام : « من خاف القتل والجراح فلا يخدم الملوك بل يكون فلاحاً ، أو مع النساء في بيته . والله لئن عدتم الى الملك من غير غلبة وبلاء تعذرون فيه ليأخذَنّ إقطاعاتكم ، وليعودَنّ عليكم بجميع ما أخذتموه الى يومنا هذا ويقول لكم : أتأخذون أموال المسلمين ، وتفرون من عدوهم ، وتسلمون مثل هـذه الديار المصرية يتصرف بهـا الكفار (١) » .

استطاع اسـد الدين بمن معه أن يقف أمـام جموع شاور والفرنجة ، وعجب ابن الأثير عندما أرخ هذه الحادثة من « أن ألفى فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل (٢) » .

لم يجد شاور بداً من طلب الصلح ، وبذل له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد فأجابه الى طلبه ، وشرط عليه أن الفرنج لا يقيمون بمصر ولا يتسلمون قرية واحدة ، وعاد بعد ذلك الى بلاد الشام .

كان لا بد لشاور لكي يحافظ على مركزه ، ولا سيما أنه رأى ميل الخليفة العاضد لأسد الدين ، من الاستعانة بالفرنجة ، وبالفعل عقـد معهم الصلح سنة ٥٦٢ هـ بعد خروج اسد الدين من مصر مباشرة ، واستقر الصلح على أن يكون لهم بالقاهرة شحنة ، وتكون أبوابها مع فرسانهم بأيديهم ، ليمتنع نور الدين من إنفاذ عسكر إليهم ، وثمة نص آخر في المعـاهدة وهو أن يكون

---

(١) ابو شامة : الروضتين : ج ١ ص ١٤٣ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٤٨ ، وابن الأثير : الكامل : ج ١١ ص ١٤٣ .

(٢) المصادر السابقة .

لهم من دخل مصر كل سنة مئه الف دينار (١) .

وحد الفرنجة الفرصة سانحه لاحتلال مصر . فراسلوا ملك بيت المقدس(٢) مرى Amalric I واستدعوه لتملكها ، فتوجهت جيوشهم اليها أما شاور فقد أسقط بيده فأمر بإحراق القاهره . وبقيت النار تعمل فيها أربعة وخمسين يوما حاول خلالها استمالة ملك الفرنجة فما أفلح إلى ذلك سبيلا .

ضاق الخليفة العاضد بخيانة وزيره شاور ، فبعث إلى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع خطر الفرنجة على مصر ، وأرسل في الكتب شعور النساء لاستثارة حميته ، وطلب منه أن ينقذهن من العدو المحتل(٣) .

وافت رسل الخليفة ووفود أهل القاهرة نور الدين وهو بحلب فاستدعى أسد الدين من حمص بالحال ، وأمره أن يتجهز للمسير لأن الأمر خطير لا يحتمل التأخير . وطلب إلى صلاح الدين يوسف أن يرافق عمه .

سار أسد الدين إلى مصر للمرة الثانية ، ودخل القاهرة سنة ٥٦٤ هـ ، فرحل الفرنج عنها خائبين واجتمع بعد وصوله بالخليفة العاضد وخلع عليه وعاد إلى خيامه بالخلعة العاضدية وفرح أهل مصر بقدومه .

رأى شاور هوى الخليفة معه فأوجس منه خيفة ، وسرعان ما تتالت الأحداث ، فاتفق صلاح الدين مع عز الدين جرديك على قتله ، وتم لهما ما اراداه ، وحمل رأسه إلى الخليفة العاضد ، وأصبح أسد الدين وزيراً مكانه . أما صلاح الدين فقد أصبح مباشراً للأمور ومقرراً لها ، وبيده زمام الأمر والنهي .

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٤٣ . وابن الاثير : الكامل : ج ١١ ص ١٢٢ :

(٢) هو آملريك الاول ، واسمه في المراجع العربية (مرى) و (عموري) وقد ولي الملك بعد وفاة اخيه بلدوين الثالث . Baldwin III

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٥٥ . وابن الأثير : الكامل : ج ١١ ص ١٢٦ .

لم يطل عهد أسد الدين في الوزارة ، فلقد توفي في العام نفسه وخلفه ابن أخيه صلاح الدين ، وكانت الخطبة بمصر أولاً للخليفة الفاطمي العاضد ، فالملك العادل نور الدين .

لم يرض ببقاء الخلافة الفاطمية ، فبعث إلى عامله يأمره بقطع الخطبة فوراً للعاضد ، وطلب منه إعلان الخلافة العباسية من جديد ، فاعتذر بادىء الأمر لأنه خاف من الثورة عليه إن أقدم على هذه الخطوة الخطيرة ، لكن نور الدين لم يقبل منه ذلك ، وأرسل إليه يلزمه في ذلك إلزاماً لا فسحة فيه .

تحين صلاح الدين فرصة مرض العاضد فقطعت الخطبة له سنة ٥٦٧ هـ وأقيمت شعائر الدعوة العباسية ، وقام رجل يعرف بالأمير العالم(١) في يوم الجمعة ، ودعا في خطبته للخليفة العباسي المستضيء بنور الله(٢) ، وقيل إن أول من خطب للعباسيين بمصر هو شمس الدين بن أبي مضاء البعلبكي(٣) .

ابتهج نور الدين بهذا الكسب السياسي للخلافة العباسية ، وطلب إلى كاتبه عماد الدين إنشاء بشارة عامة تقرأ في العالم الاسلامي كله وبشارة خاصة تقرأ بحضرة الخليفة في بغداد ، وسرعان ما عادت البشارة بجوابها ، وهو في الحقيقة جوهر وحدة مصر والشام ، فقد وصل من بغداد أستاذ الدار العزيزة ، رسول الخليفة عماد الدين صندل المقتفوي ، وورد صحبته التشريف الشريف لنور الدين مكللاً بالأهبة السود والحلل الموشية ، والطوق المذهب الثقيل ، واللواء الجليل . تخصص الرسول المذكور لدى نور الدين ، وحضر أكابر الدولة والخواص ، وكان يوماً مشهوداً ، فقام موفق الدين خالد بن محمد بن صغير القيسراني وقرأ كتاب الديوان على مسمع الناس

---

(١) الأمير العالم هو اليسع بن عيسى بن اليسع الاندلسي ، وهو أول من خطب على منابر الفاطميين عند نقل الدعوة العباسية ، وقد تجاسر على ذلك حين تهيبه سواه ، وله تاريخ سماه « المعرب في آداب المغرب » قدمه لصلاح الدين . توفي سنة ٥٧٥ هـ .

(٢) أبو شامة : الروضتين : ١ ص ١٩٤ ، وابن واصل : مفرج الكروب : ج ١ ص ٢٠٠ ، وابن الأثير : الكامل : ج ١١ ص ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة : ج ٥ ص ٣٤٣ ، وأبو شامة : الروضتين : ج ١ ص ١٩٣ ، ١٩٥ .

عامة ، ثم لبس نور الدين الفرَجية(١) ، وتقلد السيفين ، ووضع الطوق في عنقه وخرج راكباً من داخل القلعة ، واللواء الأسود منشور على رأسه ، وقدم له مركوبان : أحدهما لركوبه ، والآخر كان جنيباً بين يديه محلى بحليته . وجمع له بين تقليد السيفين الإشعار بتقليده الإقليمين مصر والشام ، وخرج إلى ظاهر دمشق ونثر عليه الذهب ، وانتهى في سيره إلى الميدان الأخضر ، ثم عاد إلى القلعة(٢) .

عجب الناس من تقليد الخليفة سيفين لنور الدين ، وقد روى صاحب الروضتين نقلاً عن برق العماد قوله ، « وسألت عن معنى تقلد السيفين فقيل هما للشام ومصر ، وللجمع له بين البلادين(٣) » .

كان أمل نور الدين من هذه الوحدة العربية التى جمعها له الخليفة العباسى بتقليده السيفين القضاء على الصليبيين واستعادة بيت المقدس ، أمنيته القديمة منذ أمر بصنع منبر خشبى جميل تحمله جيوشه الفاتحة إلى البيت المقدس . يؤكد هذه الفكرة ما جاء في جوابه للخليفة العاضد حين بعث إليه يهنئه برحيل الفرنج عن دمياط ، وكان قد ورد منه كتاب بتنفيله من جنوده الأتراك ، فكتب إليه يعلمه : « أنه ما أرسلهم واعتمد عليهم إلا لعلمه بأن قنطاريات(٤) الفرنج ليس لها إلا سهام الأتراك ، وأن الفرنج لا يخافون إلا منهم ، ولولاهم لزاد طمعهم في الديار المصرية ، ولعل الله سبحانه وتعالى ييسر بهم فتح بيت المقدس(٥) » .

---

(١) نوع من الرداء المسترسل ، يصنع غالباً اليوم من الجوخ ، وله أكمام واسعة تتعدى أطراف الأصابع وهي غير مفتوحة أو مشقوقة ذكرها دوزى فى معجمه الخاص بالثياب (ص ٢٢٧ ، ٣٣٤) .

(٢) أبو شامة : الروضتين : ج ١ ص ١٩٩ ، وابن واصل : مفرج الكروب : ج ١ ص ٢١٨ ، ٢١٩ ، وابن الأثير : الكامل : ج ١١ ص ١٣٩ .

(٣) أبو شامة : الروضتين : ج ١ ص ١٩٩ .

(٤) القنطاريات : نوع من الرماح ، وهي لفظة معربة عن اليونانية ذكرها دوزى في معجمه (ملحق المعاجم العربية ج ٢ ص ٤١٣) .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب : ج ١ ص ١٨٣ .

بعث إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر ولقائه عند الكرك ، فاعتذر إليه ، وذكر له أنه لا يمكنه مفارقة مصر ؛ إذ لم يستتب الأمر له بعد ، فرجع نور الدين غاضباً محنقاً ، وصرف نظره عن حصار الكرك .

يظهر انه بيّت أمره ، وعزم على دخول مصر وطرد عامله صلاح الدين منها لأنه خشى ان يتملكها ، ولا سيما أن معظم أفراد أسرته التحفوا به وفي مقدمتهم ابوه نجم الدين ايوب .

اما صلاح الدين فقد جمع أهله ومعهم أبوه وخاله شهاب الدين الحارمى وسائر الأمراء عندما بلغه عزم نور الدين على قصده ، وبحث المجتمعون هذا الامر الهام ، وكل واحد منهم ادلى برايه واجمعوا امرهم على حربه إذا جاء ، لكن والده خالفهم جميعاً ، وطلب من ابنه الإذعان لأمره وعدم إفشاء سره . وشاء القدر ان يراب هذا الصدع في صرح الوحدة العربية ، فقضى نور الدين بعلة الخوانيق سنة ٥٦٩ هـ ، وانتهى النزاع بوفاته(١) .

(٤)

الصالح إسماعيل

كان الصالح إسماعيل حين وفاة والده صغير السن لا يتجاوز سن الحلم ، فاتفق أمراء أبيه على تمليكه ، وأحضروا كتاب الله واجتمع القاضى كمال الدين الشهرزوري ، والأمير شمس الدين بن المقدم ، والطواشي جمال الدين ريحان أكبر الخدم ، والعدل شهاب الدين بن العجمي أمين الأعمال ، والشيخ إسماعيل خازن بيت المال ، واتفقوا جميعهم على وحدة الكلمة وجعلوا شمس الدين بن المقدم مقدم العسكر ، وإليه المرجع في الأمور كلها .

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانيه ، ص ٣٧ .

كونب ولاة الأطراف بما حدث ؛ وطلبوا إليهم الحلف للملك الصالح وإقامة الخطبة باسمه . أما صلاح الدين فقد جلس بمصر للعزاء ثلاثة ايام وأمر بإقامة الخطبة فيها للملك الصالح ؛ وضرب باسمه السكة .

طمع سيف الدين غازى بن مودود ببعض ما بيد ابن أخيه . فاستولى على الجزيرة ؛ وهرب الأمير سعد الدين بن كمشتكين الخادم النائب بقلعة الموصل فوصل إلى حلب ؛ واجتمع بالأمير شمس الدين على بن الداية وإخوته . وتآمروا فيما بينهم على المسير إلى دمشق وإحضار الملك الصالح إلى حلب ؛ واصبح كمشتكين مستبدا بأمور الملك الصغير .

اما شمس الدين بن المقدم فأقام بدمشق وإليه إمرة العساكر ؛ وانفرد جمال الدين ريحان بالقلعة ؛ وبقى القاضي كمال الدين مدبراً لأمور الدولة .

طمعت الفرنجة بالبلاد من جديد ؛ فحاصروا بانياس . غير أن شمس الدين لم يقو على دفعهم ؛ فعقد معهم هدنة بعد أن قطعوا على المسلمين قطيعة ، فعجل إليهم حملها ؛ وتم الأمر بعد ذلك سنة ٥٧٠ هـ(١) .

كان هذا الحدث بدء الانقسام والضعف في بلاد الشام ؛ ورأى صلاح الدين ضرورة تدارك هذا الأمر الخطير قبل استفحاله ؛ فكتب الى القاضي كمال الدين يقول : « لو أن نور الدين يعلم أن بينكم من يقوم مقامي لسلم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته ؛ ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيري ؛ وأراكم قد تفردتم بمولاي وابن مولاي دوني ؛ وسوف أصل إلى خدمتكم ؛ وأجازي إنعام والده بخدمة يظهر أثرها ؛ وأجازي كلا منكم على سوء صنيعه في ترك الذب عن بلاده(٢) » .

توجه إلى دمشق بعد أن استدعاه أصحاب الأمر في دمشق ليملكوه وأظهر حين وصوله انه يريد خدمة الملك الصالح ؛ لكن مدبري أمره بحلب

---

(١) أبو شامه : الروضتين : ج ١ ص ٢٣٣ ؛ وابن الأثير : الكامل : ج ١١ ص ١٥٣ .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب : ج ٢ ص ٧ ؛ وابن الأثير : الكامل : ج ١١ ص ١٥٢ .

بعثوا إلى الموصل سيف الدين غازي يستنجدون بـه ، وبعثوا إليه برسالة مع قطب الدين ينال بن حسان ، صاحب منبج ، فبها عنف وغلظ .

وصلت عساكر سيف الدين بقيادة أخيه عز الدين ، وانضم إليهم عسكر حلب ، وسارت هذه الجموع كلها لحرب صلاح الدين ، والتحم الفريقان عند قرون حماة ، لكن الهزيمة حاقت بهم ، فولوا الأدبار وعادوا إلى حلب ، فلحقهم صلاح الدين ، وحاصرهم مدة مديدة .

حانت الفرصة لقطع خطبة الملك الصالح واعلان قيام الدولة الايوبية في مصر والشام وغيرهما من البلاد ، فأزيل اسمه عن السكة في بلاده . ولما طال الحصار راسله مدبرو أمر الملك الصالح بعقد الصلح ، على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام ، ولهم ما بأيديهم ، فأجابهم الى طلبهم وارتحل عن حلب .

تلك هي آخر أيام الدولة الزنكية ، وقد حاول ملوكها أن يطهروا البلاد، فحرروا كثيراً منها ، وبقي بعضها الآخر ينتظر التحرير ، وقامت الوحدة بين الاقاليم العربية التى وحدتها الآمال المشتركة والتاريخ الواحد ، اذ استطاع قواد نور الدين أن يفتتحوا اليمن البلاد العربية السعيدة، كما نعتها اليونانيون، وهكذا اتسعت الدولة الزنكية فكان يخطب لملوكها في الشام ومصر واليمن والحرمين ، وكانوا يستمدون سلطتهم من الخليفة العباسي في بغداد (١) ، ويحرصون على ذلك ، على الرغم من استقلالهم في دولهم .

---

(١) غريب جداً ماذكره صاحب (ادباء العرب) بطرس البستاني (ج ٢ ص ٣٤٢) في حديثه عن الدولة الايوبية قائلا : ان « السلطان نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام من قبل الفاطميين » ، وان الخليفة الفاطمي العاضد استنجد : « بعامله السلطان نور الدين بن زنكي ... » . وهذا غير صحيح البتة ، فلم يكن نور الدين عاملا من عمال الفاطميين في بلاد الشام اطلاقاً ، وانما كان يستمد سلطته من خليفة بغداد العباسي .

القسم الثاني

الأيوبيون

٥٧٨ ـ ٦٤٨

ينتسب الايوبيون إلى شاذي ، ولا يعرف عنه اكثر من ذلك ، وأصلهم من الأكراد الرواذية ، وهذا القبيل فخذ من الهذبانية . وهم من اشرف الأكراد واقدم سكان العراق (١) .

أنكر فريق من ملوك الايوبيين كردبتهم ، وقالوا : إنما نحن عرب نزلنا عند الأكراد ونزوجنا منهم ، وأدعى بعضهم النسب إلى بني أمية ، وأن جدهم شاذي بن مروان بن محمد ، فيكونون بذلك أحفاد آخر الخلفاء الامويين .

لاعجب إن رأينا سيف الاسلام أبا الفداء اسماعيل يخطب لنفسه بالخلافة في اليمن في عهد عمه العادل ، ويلقب نفسه بالامام الهادي المعز لدين الله امير المؤمنين . لكن عمه انكر عليه دعوته ، وقال : « كذب اسماعيل ، ما نحن من بني أمية أصلا(٢) » .

أما بدء ظهور شأنهم فقد سبق ظهور دولتهم بزمن ، كما يتضح لنا ذلك في حياة الاخوين نجم الدين أيوب ، وأسد الدين شيركوه .

---

(١) أبو شامة : الروضتين : ج ١ ص ١٢٨ ، ٢١٠ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٣ ـ ٦ وابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٢٩ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٣ .

(١)

نجم الدين أيوب

ولد نجم الدين ايوب بن شاذي والد الملوك الأيوبيين ، ببلد شبختان (١) ، وأقام في بادىء امره مع أخيه أسد الدين شيركوه في دوين ، وهي في ادنى بلاد اذربيجان مما يلي الروم ، وخدم السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه ، فولاه قلعة تكريت ، وقام في ولايتها أحسن قيام . ولما ولي السلطان مسعود الملك اقطع تكريت لمجاهد الدين بهروز شحنة بغداد ، فأقر عليها واليها السابق نجم الدين .

اتفق السلطان مسعود سنة ٥٢٦ هـ مع عماد الدين زنكي على مساعدته للحصول على السلطنة والاستيلاء على مقر الخلافة ببغداد ، ولما تلاقيا مع قراجه الساقي ، وهو اتابك نجل السلطان محمود ، انهزم زنكي ، وقتل جماعة من أصحابه والتجأ وهو جريح الى سوق تكريت ، فحمل مع اخيه الى أعلى سورها ، وأقاما عنده خمسة عشر يوماً ، ثم ارتحلا الى الموصل .

حفظ زنكي لنجم الدين وأخيه هذا الصنيع الحميد ، فلما نشب الخلاف بينهما وبين بهروز بسبب مقتل كاتبه النصراني تركا خدمته ، وسارا الى الموصل فلقيهما عماد الدين ، واكرمهما اكراماً عظيماً ، واقطعهما في شهرزور إقطاعاً حسناً .

رافق هذان الأخوان عماد الدين ، وصحباه في حروبه ببلاد الشام ، وشهدوا معه كثيراً من المعارك التي وقعت بينه وبين الصليبيين ، وقد ابلى اسد الدين خير البلاء في هذه الوقائع المشهورة .

ولما اصبحت بعلبك في حوزة عماد الدين ولاه عليها ، حتى اذا قتل كاتبه مجير الدين آبق صاحب دمشق ، وطلب إليه تسليمها ووعده بإقطاعه قرى كثيرة بدمشق عوضاً عنها ، وبذل له الأموال الكثيرة : فوافق نجم الدين على طلبه ، وعاد الى دمشق ، واصبح كبير أمرائها سنة ٥٤١ هـ .

---

(١) ابو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ٢١٠ ، ٢١١ .

(٢)

أسد الدين شيركوه

اتصل أسد الدين شيركوه بعد مقتل الشهيد عماد الدين بابنه نور الدين ، وكان يخدمه في حماة أبيه ، فأدناه وجعله من خاصته لما عرفه عن شجاعته ووفائه ، وأغدق عليه العطاء وأقطعه قلعة حمص والرحبة ولما حاصر نور الدين دمشق طلب اليه أن يكاتب أخاه نجم الدين ليساعده على فتحها ، فأجابه الى مبتغاه وتم له الامر وفتحت دمشق ، وصار أعظم أمراء الدولة الزنكية .

لا غرابة ان رأينا نور الدين يختاره ليذهب الى مصر ، وبالفعل توجه اليها كما رأينا ثلاث مرات ، واستطاع في آخر مره طرد الفرنجة من مصر سنة ٥٦٤ هـ ، وخلع العاضد عليه خلع الوزارة بعد مقتل شاور ولقب بالملك المنصور أمير الجيوش ، وكتب له منشوراً ، ووقع الخليفة بخطه على ظهره : « هذا عهد لم يعهد لوزير بمثله ، فتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلا لحملها ، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة ، واسحب ذيل الافتخار بأن اعتزت خدمتك الى بيت النبوة (١) » .

لم تطل وزارته ، فلقد أدركته فجأة منيته ، ولم يمض على توليه أكثر من شهرين ، وكأنما عجلت الأقدار بموته لتفسح المجال أمام البطل المرتقب الناصر صلاح الدين ، فيحرر البلاد نهائياً من احتلال الفرنجة ويتم توحيد أقاليم البلاد العربية كلها بعد أن تم توحيد معظمها في عهد مولاه نور الدين .

(٣)

صلاح الدين يوسف

تشاءم نجم الدين من ولادة أبنه صلاح الدين سنة ٥٣٢ هـ عندما خرج طريداً شريداً من قلعة تكريت بعد اختلافه مع صاحبها بهروز بسبب كاتبها النصراني على يد أخيه أسد الدين شيركوه .

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٥٨ .

نبه امره منذ سار اول مرة الى مصر مع عمه ، وصحبه أيضاً خلال مسيره الثانى ، وقد اظهر شجاعة منقطعة النظير حينما حوصر في الاسكندرية سنة ٥٦٢ هـ ، كما صحبه مكرها خلال مسيره الثالث سنة ٥٦٤ هـ .

رأى صلاح الدين أن الامر لن يستتب قبل انقضاء على شاور ، ويقال ان الخليفة العاضد زاره متنكرا في خيمته ، وأسر اليه قتله ، فبيت الأمر مع عز الدين جرديك ونفذا ذلك كما رأينا ، وطبيعي جداً أن يكون صلاح الدين الوزير المنتظر بعد وفاة عمه ، على الرغم من معارضة الامراء الذين كانوا صحبته في مصر ، فاستدعاه العاضد من القصر ، وخلع عليه خلعة الوزارة ، وبذلك بدات طلائع الدولة العربية الايوبية بالظهور ، فاستبشر الناس خيراً بيوسف الجديد .

اخلص صلاح الدين وده لمولاه نور الدين بادىء الأمر ، لكنه صار يخشاه لئلا يسلبه مابيده ، مادام نائبه وما دامت الخطبة والدعاء باسم سيده . تردد ـ كما رأينا ـ كثيرا في قطع الخطبة والدعاء للخليفة العاضد الذي ائتمنه ، ولكن نور الدين الح عليه في قطعها واصر على ذلك لان هذا العمل يكسبه زلفى الخليفة العباسي ببغداد . وتعود سلطة الخلافة من جديد الى مصر ، ويحاول صلاح الدين ان يدعم موقفه فيها فيستدعي أهله وعشيرته الاقربين .

احس امراء القصر وعلى رأسهم الخصي مؤتمن الخلافة جوهر بخطورة الحال ، فكاتبوا الفرنجة وعرف صلاح الدين المكيدة التى تحاك حوله ، فبعث بجماعة من جنده ، واغتالوا جوهراً في قصره فثار عبيده من السودان ، فانهض إليهم أبا الهيجاء السمين ، واحرق دورهم بباب زويلة ، ففروا إلى الجزيرة ، فعبر اليهم الملك المعظم توران شاه ، وأبادهم عن بكرة ابيهم (١).

بدات الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين ، وكان وقوعها محتماً كما رأينا ، لان هذا الملك العظيم الذي بيده يبهر الانظار ، وبخاصة عندما كانت طلائع جيوشه على ابواب النوبة تحاصرها بقيادة اخيه المعظم توران

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٧٤ ـ ١٧٧ .

شاه ، فاحتل أقصى حصن لهم في الجنوب وهو أبريم سنة ٥٦٨ هـ ، ثم توجهت طلائع جند هذا الفاتح الايوبى نحو البلاد العربية السعيدة سنة ٥٦٩ هـ . ويظهر انه تم فتحها خوفاً من نور الدين لتكون للأيوبيين مقراً ان أخرجهم من مصر . غير أنه لم يسرع في فتحها قبل أن يستأذنه فأقره على ذلك ليخلص اليمن من حكم عبد النبي أحد الخوارج ، وكان قد تغلب عليها وخطب لنفسه بعد قطع الخطبة العباسية .

سارت جنوده ، فوصلت مكة ، وتوجه منها الى زبيد فاحتلها ، ثم تغلب على اليمن كلها ، ووقع حاكمها أسيرا بين يديه وانتهى به المطاف في عدن جنوباً (١) .

كما توجهت عساكر صلاح الدين إلى المغرب بقيادة قراقوش ، غلام الملك المظفر تقى الدين عمر ، واشترك في هذا الفتح الترك وقبائل من العرب، فاستولوا على طرابلس الغرب وكثير من بلاد شمال افريقية .

أشار نور الدين الى أهمية فتوح قواده في كتاب بعث به الى الخليفة عندما التجأ اليه مقدم الارمن ابن لاون (ليون الثانى) (٢) ، ومما جاء فيه قوله : « ومن جملة حسنات هذه الايام الزاهرة ما تيسر في هذه النوبة من افتتاح بعض بلاد النوبة ، والوصول الى مواضع لم تطرقها سنابك الخيل الاسلامية في العصور الخالية ، وكذلك استولت عساكر مصر على برقة حتى حدود المغرب ، فظفروا من السؤال بعنقاء مغرب(٣) » .

لم يصف الحكم تماما لصلاح الدين ، فدبرت مؤامرة كبرى لاعادة الخلافة الفاطمية واشترك فيها الشاعر عمارة اليمني ، والكاتب عبد الصمد والقاضى العويرس ، وداعى الدعاة ابن عبد القوي وجماعة من السودان ورجال القصر ، وتم الاتفاق على استدعاء الفرنجة من الشام وصقلية خلال تغيب

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٢) هكذا تسميه المراجع العربية ، وهو ليون الثاني صاحب أرمينية .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٢٣٥ .

توران شاه في اليمن ، ومما هو جدير بالذكر أن الطائفة الاسماعيلية ببلاد الشام اشتركت في تدبير هذه المؤامرة ، ذلك أن المتآمرين اتصلوا بصاحبهم سنان المقيم بقلعة مصياف ، وذكروا له أن الدعوة واحدة والكلمة جامعة ، وأنه ما بين أهلها خلاف يجب به قعود عن نصرة ، واستدعوا منه من يقوم على الملوك غيلة ويتب عليه مكيدة وحيلة(١) .

افتضح أمرهم ، فألقى القبض عليهم وصلبوا بين القصرين بالقاهرة ، وقضي على المؤامرة في مهدها .

مضى نور الدين الى ربه كما مر معنا ، ورأينا ابنه القاصر الملك الصالح أصبح دمية في أيدي أوصيائه في دمشق وحلب ، وان الفرنج شرعوا يهددون البلاد من جديد ، ولا بد لهذا الامر من مخرج يصون للبلاد وحدتها .

سار صلاح الدين الى دمشق ، وتسلم قلعتها ، وفرق ما فيها من الكنوز والأموال على الناس تأليفاً لقلوبهم . غير أنه لا بد له من مراسلة الخليفة العباسي المستضيء بنور الله ليبعث له تقليداً يقره على مابيده من ملك مولاه نور الدين بعد موته ، ويطلق يده فيها ، كما ذكر في مراسلته جهاده ، وحدثه عن تشتيت بلاد الشام شيعاً وأحزاباً ، واستقلال كل صاحب بلد ، واعرب له عن أسفه على حال بيت المقدس ومما قاله : « وعرفنا ان البيت المقدس إن لم تتيسر الاسباب لفتحه ، وأمر الكفار إن لم نجرد العزم لقلمه وإلا نبتت عروقه واتسعت على المسلمين خروقه .. وإذا شد رأينا حسن الرأي ضربنا بسيف يقطع في غمده ، وبلغنا المنى بمشيئة الله ، ويد كل مسلم تحت برده ، واستنقذنا أسيراً من المسجد الاقصى الذي أسرى إليه بعبده(٢) » .

كما أخبره أنه قدم الشام لاصلاح أموره ، وكفالة ابن نور الدين وخدمته وتخليصه من قوم يأكلون الدنيا باسمه ، ويبالغون في ظلمه . وطلب في ختام مراسلته تقليداً جامعا بمصر والشام واليمن والمغرب ، وكل ما يشمل

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ .
(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٥ — ٢٩ .

عليه الولاية النورية ، وكل ما يفتحه الله للدولة العباسية بسيوفه وسيوف عساكره ، ولمن يقيمه بعده من أخ أو ولد تقليدا يتضمن للنعمة تخليداً والدعوة تجديداً[١] .

وتحدثنا عن الحرب بين صلاح الدين وأنصار الصالح اسماعيل ، وأسفرت كما رأينا عن انقسام بلاد الشام بعد قيام الصلح بين الفريقين ، وبموجبه تكون دمشق وحمص وحماة وكفر طاب والمعرة وبارين لصلاح الدين ، ولم يبق للملك الصالح غير مدينة حلب .

عاد صلاح الدين الى دمشق ، ووصلته خلع الخليفة من بغداد ، ومرسومه بولاية مصر والشام وغيرهما ، وبذلك تم اعتراف الخليفة الرسمي بحكمه خلفاً شرعياً لنور الدين .

لم يستطع توحيد الشام نهائياً تحت حكمه حتى بعد وصول تقليد الخليفة له ، ورأى أن يرجىء ذلك لوقت آخر مناسب ، فقفل راجعاً الى القاهرة . انتهز المواصلة رحيله عن بلاد الشام فكاتبوا الفرنجة ليشغلوه عن قصده ، ورأى أنه لابد من العودة لتوحيد الشام نهائياً والقضاء على معارضيه . وصل الى البيرة سنة ٥٧٨ هـ ، وكاتب ملوك الاطراف ، وأعلن لهم انه « من جاء مستسلماً سلمت بلاده ، على أن يكون من أجناد السلطان وأتباعه ومساعديه على جهاد الكفرة[٢] » .

دانت له بلاد الشام كلها بعد أن نازل حلب ، واتفق مع صاحبها عماد الدين على اعطائه بلاد سنجار بدلا من حلب ، وزاده الخابور ونصيبين وسروج والرقه . وهكذا دخل السلطان حلب وأطلق المكوس والضرائب كما فعل في دمشق ووزع الاموال على أهلها ، وجلس للهناء بفتح حلب . فقصدته الشعراء ، ومدحته بالقصائد الكثيرة .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٢٥ — ٢٦ .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١١٥ - ١١٧

تحرير بيت المقدس

كان صلاح الدين يعمل على جمع شمل الامة العربية كلها ليحرر بيت المقدس جريا على الخطة التى سلكها أسلافه ، واتماماً للرسالة السامية التى عمل لهـا عمـاد الدين من قبل ونور الدين من بعـد ، وهـو في كفـاحـه وجهاده انما يحاول أن يحقق الامـل الكبـير الذي جعـل نور الدين يأمـر الاخترينى أمهـر النجـارين في حلب بصنـع منبر جميـل يليق بالمسجـد الاقصى لينقل اليـه يوم فتحـه ، وقـد أوصاه أن يأتي على أحسن نعت يمكـن (١) . وجدير بالذكر أن هذا الفنان أشرف على عـدد كبير من عماله الصناع الذين استغرقوا في إنجازه بضع سنين .

مضى نور الدين الى ربه والمنبر ما زال في حلب ينتظر اليـوم الموعود ، حتى اذا جـاء صلاح الدين اجتمعت الملوك والأمراء تحت رايته ، فوحـدهم الهدف المشترك وهو الجهاد الأكبر .

عرف الصليبيون وحدة العرب واجتماع شملهم في هـذه المرة ، فانحاز ريموند صاحب طرابلس الى صـلاح الدين ، وأدركوا ضرورة تكتلهم أمـام طلائع المسلمين . استهل حربه بفتح طبرية ، ثم تابع تقدمه فانهزم الصليبيون أمامه ، ولاذوا بتل حطين ، فأحاط بهم مـن كل جانب ، وهزمهم مجتمعين سنة ٥٨٣ ، فبكى صلاح الدين فرحاً بعـد معركة حطين الخالدة ، وسجد لله شكراً ، وكان من جملة الأسرى الملك كي ، وأمير الكرك ارناط ، وأخـو الملك جفـري ، وصاحب جبيل أوك (٢) ، وهنفري بن هنفـري (٣) ، وابن صاحب إسكندرونة ، وصاحب مرقية ، كما أسر قسماً عظيماً من فرسان الداوية (٤) ، والإستبارية (٥) والبارونية ، ومقدميهم (٦) .

---

(١) ابـن الأثـير : الكامـل ، ج١١ ص ٢٠٩ ، وابن واصل : مفـرج الكـروب ج ٢ ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

(٢) اسـمه : Hugh II Embriaca , Lord of Jebail

(٣) اسـمه : Hunphrey IV , Lord of Taron

(٤) الداوية : هم فرسان المعبـد Templars

(٥) الاسبتارية : هم جماعة من الصليبيين يطلق عليهم باللغة الفرنسـية Hospitaliers

(٦) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٦٣ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١٣٢ ، وأبو شـامة : الروضـين ، ج ٢ ص ٧٥ ــ ٨٠ ، وابن الأثـير : الكامـل ، ج ١١ ص ٢٠١ ــ ٢٠٣ .

آذنت هـذه المعركة بفتح بيت المقدس ، لأنهـا كانت نقطة تحول كبرى في التاريخ الاسلامى ذكـر ابن الأثير أهميتها وخطورتها ، وأشاد بها قائلاً : « وما اصيب الفرنج منذ خرجوا الى الساحل سنة إحدى وتسعين وأربعمائة الى الآن بمثل هـذه الوقعة (١) » .

يؤكد ذلك أنه لم يمض الا بعض الوقت حتى فتح بيت المقدس ونقـل المنبر النوري من حـلب ليقام في المسجد الأقصى ، وقد نوه ابن الأثير بأهمية فتحه فذكر بأن هذه المكرمة من فتح بيت المقدس لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب غير صلاح الدين (٢) .

هكذا بدأ الحلم العربي يتحقق ، فقامت دولة عربية كبرى واسعة الأرجاء وممتدة الأطراف شملت الشام ومصر واليمن والحجاز وغيرها .

لم يكتف بما حققه قادته من فتوحات وانتصارات . فعزم على اكتساح الأقطار المجاورة لها وإضعافها كيلا تقوى على مهاجمتها ، فتكون مصدر خطر يهـدد أمنها وكيانها .

وضع خطة هـذا الأمر سراً خلال رحلة صيد مع أخيه العادل أبى بكـر وابنه الأكبر والأفضل على وشاورهمـا في الأمـر ، وقال : « قد تفرغنـا من الفرنج وليس لنا في هـذه البلاد شاغل ، فأي جهـة نقصـد ؟ فأشار عليـه أخوه العادل بقصد خلاط ، وأشار عليه ولده الأفضل بقصد الروم ، فقـال : كلاكما مقصر ناقص الهمة ، بل أقصد أنا بلد الروم ، وقال لأخيه : تأخذ أنت بعض أولادي وبعض العسكر وتقصد خلاط ، فإذا فرغت أنا من بلـد الروم جئت اليـكم ، وندخل منهـا أذربيجان ، ونتصل ببلاد العجم فما فيها مـن يمنـع عنهـا (٣) » .

لم تكن نفسه لتقف في طموحها عند هـذا المدى ، بل كان يريد أن يجدد سيرة الفاتحين العرب ، فيطبّق الآفاق برجاله ، ويحكم العـالم كله . أسـرّ بذلك لقاضيه بهاء الدين بن شداد عندما كان يودع أخاه العادل قرب عسقلان،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٢٠٢ . (٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٢٠٩ .
(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٣٧، وابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ص ٣٦٢.

وهو عـائد الى مصر ، فقال له : « في نفسي انه متى يسّر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد ، واوصيت ، وودعت ، وركبت هـذا البحر إلى جزائره ، واتبعهم فيها حتى لا القى على وجـه الأرض من يكفر بالله او اموت (١) » . بيد أن المنية عاجلته سنة ٥٨٩ هـ ، فقضى نحبه بدمشق دون ان يحقق هـذه الأمنية الكبرى وهى فتح العـالم كله .

خلفـاء صـلاح الدين

كان موته بدء تشتت الوحدة الكبرى التي أقامهـا بكفاحه المستمر طوال عشرات السنين ، وكان ذلك إيذاناً بانقسام ملكه بعـده بين ورثته ، فالديار المصرية لابنه العزيز عمـاد الدين عثمان ، والشام لابنه الأكبر الأفضل نور الدين علي ، وحلب لابنه الظاهر غياث الدين غازي ، والكرك والشوبك وجعبر لأخيه الملك العـادل سيف الدين محمد ، وحمـاة وتوابعهـا للملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر ، وحمص والرحبة لأسد الدين شيركوه الصغير (٢) ، وأما اقليم اليمن فمستقر للملك ظهير الدين سيف الإسـلام طغتكين بن أيوب أخي السلطان (٣) .

دب الخلاف بين ملكي مصر والشام : الأفضل والعـزيز . فالأفضل أكبر أبنـاء صلاح الدين وهو المعهود اليه بالملك من بعـده ، وكان قـد استوزر ضياء الدين بن الأثير الكاتب ، مصنف المثل السائر ، فأغراه بطرد أمراء أبيه ، ففارقوه الى أخويه العـزيز والظاهر . وأما في مصر فقد اجتمعت أكابر الأمراء وحسّنوا للملك العزيز الاستقلال بالسلطة ، وحرضوه على عزل أخيه ملك الشام ، ووافقه عمـه الملك العادل عـلى ذلك ، واستطاعا أن ينزعاه عنـه سـنة ٥٧٢ هـ .

---

(١) ابن شـداد : النوادر السلطانية، ص ١٧، وابن واصل : مفرج الكروب، ج ٢ ص ٤٣٢ ، ٤٣٣ .

(٢) أبو شامة : الروضتين : ج ٢ ص ٢٣٨ ، وابن كثير : البداية والنهاية، ج ١٣ ص ٧.

(٣) أبو شـامة : الروضتين ، ج ٢ ص ٢٦٦ .

هكذا دب النزاع ، واستشرى الخلاف ، لكن تربص العدو بهم في الثغور جعلهم يوحدون جهودهم ، فأجمعوا أمرهم على الملك العادل حسماً لكل خلاف ، غير أن الصراع ظهر من جديد بعد موته بين أولاده أنفسهم ، وزاد في حدته اتساع البلاد كثيراً ، فبلغت الفتوح الأيوبية في عهده أقصى همذان (١) .

طمع الفرنجة بالبلاد من جديد ، وحلموا بالعودة الى الشرق الإسلامي فاقتحموا ثغور هذه المملكة الكبيرة التي دب فيها الانقسام بعد موت بطلها الناصر صلاح الدين . هاجموا عكا سنة ٥٩٤ ه ، وتدفقت سفنهم فامتلأ بها الساحل ، وقصدوا بيروت وبها عاملها عز الدين سامة ، فلما سمع بوصولهم الى صيدا آثر السلامة ، وتركها وسار بجماعته الى مكان آخر (٢) .

زاد طمعهم بالمسلمين بعدما لمسوا تفرقهم ، فشرعوا يتسللون الى داخل البلاد ، حتى إنهم هاجموا حماة سنة ٦٠١ ه ، وأخذوا النساء الغسالات من باب البلد ، ولولا شجاعة ملكها المنصور لما أبقوا من أهلها أحداً ، كما هاجموا ثغر دمياط سنة ٦١٦ ه ، بيد أنهم هزموا أيضاً شر هزيمة .

تفاقم الخلاف كما قلنا بين أولاد العادل ، فتوجه الملك الكامل محمد صاحب مصر الى الشام لينزعه من أخيه الملك المعظم عيسى ، لكنه امتنع عن قصده بعد استنجاده بأخيه الملك الاشرف موسى صاحب ميافارقين والبلاد الجزرية .

توجه الملك الكامل مرة ثانية الى دمشق بعد وفاة أخيه لينزع ملكها من ابنه الناصر صلاح الدين داود ، فاستنجد بعمه الأشرف ؛ لكن الفرنجة انتهزوا هذا الخلاف ، وطمعوا بالعودة الى بلاد الشام بعد موت صاحبها وظهور الضعف على ابنه ؛ فاحتلوا بلدة صور . والمؤسف أن يتفق عمّا الملك الناصر على خلع ابن أخيهما ويتهادنا مع ملك الفرنجة . « على أن يسلموا

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٦ .
(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ٢٣٣ .

إليه بيت المقدس ومعه مواضع يسيرة من بلاده ، ويكون باقى البلاد مثل الخليل ونابلس والغور وطبرية وغير ذلك بيد المسلمين (١) » . هكذا تشرد سكان بيت المقدس من المسلمين فبعضهم توجه الى دمشق وبعضهم الى مصر ، وبعضهم الآخر الى الكرك (٢) .

عرف أمراء الناصر داود هـذه المؤامرة على حيـاة الملك ، وذلك بتسليم بيت المقدس للفرنج ، فدخل أكبر الأمراء عـز الدين أيبك على داود ، وكان مجتمعا مـع الأشرف في خيمة ، فأخرجه لأنه عرف أنه يريد خداعه والتآمر عليه لأخـذ دمشق . صح ما توقعه فقد وصلت من مصر عساكر الملك الكامل لنجدة الأشرف ، ووصل بعدها الملك نفسه ، فنازلا دمشق ، وحاصراها مدة اربعة اشـهر استسلمت بعـدها فعزل الناصر داود ، وتولى ملكها الأشرف سنة ٦٢٦ هـ . أقام داود بالكرك ، فحارب المحتلين الذين وضعوا أيديهم على بيت المقدس سلماً من عميه ، واستطاع أن يهزمهم نهائيا (٣) .

اتسم عهد الملوك الأيوبيين المتأخرين بالتنابذ والتنازع فيما بينهم ، يهاجم بعضهم بعضاً ، وينزع أحدهم ملك أخيه أو ابن أخيه ، واصدق وصف لهـم قول القاضي الفاضل : « أما هـذا البيت فإن الآباء منه اتفقوا فملكوا ، وإن الأبنـاء منهم اختلفوا فهلكوا (٤) » .

غرب نجم هذه الدولة الأيوبية التى أتمت رسالة سابقتها الزنكية في تحرير البلاد وتوحيدها في ظل دولة عربية كبرى على يد الناصر صلاح الدين ، لكن خلفاءه لم يستطيعوا حفظها ، فأضاعوها وذهبت ريحهم ، وخلفهم مواليهم من المماليك فأنقذوا البلاد ، وأوصلوها الى شاطىء الأمان .

---

(١) ابن الاثير : الكامـل ، ج ١٢ ، ص ٨٧ .
(٢) ابو شامـة : ذيل الروضتين : ص ١١٦ .
(٣) ابن تغري بردي : المنهـل الصافي (مخطوط) ج ٢ ، و ٨٤ .
(٤) ابو شـامة : الروضتين ، ج ٢ ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

القسم الثالث

المماليك

٦٤٨ - ٧٠٠

رأينا ان الحقبة الأخيرة من عصر الأيوبيين مشحونة بالأحقاد والضغائن ويذكر المؤرخون ان الملك المعظم توران شاه ، نجل الملك الصالح نجم الدين أيوب ملك مصر والشـام ، اختلف مـع مماليك أبيه ، فعاملهـم بقسوة واخذهم بالعنف ، كمـا أساء من طرف آخر لأرملة ابيـه شجرة الدر التي قدمـت له مـن قبل مساعدة كبرى كي يتسـلم السلطنة بعـد أبيه ، فقد اخفت عـن الأمراء نبـأ موته لتحفظ له حقـه في وراثة الملك عندمـا كان بعيداً عنه في حصن كيفـا .

ذكر المقريزي انـه لما مـات أحضرت زوجـه شجرة الدر الأمـير فخر الدين ابن شيخ الشيـوخ ، والطواشي جمال الدين محسن ، واعلمتهما وفاة الملك الصالح ، وأوصتهما بكتمان موته خوفاً مـن الفرنج ، وأما أمور الملك فقد صرفها الطواشي محسن حتى عودة توران شـاه من حصنه في الموصل (١) .

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٩٤ .

استفحل خطر الفرنج في هذه الفترة ، وبخاصة بعد احتلالهم دمياط . فاستهل الملك المعظم حياته بمحاربتهم « وأبلى فيها خير بلاء . فهزمهم هزيمة منكرة في فارسكور والمنصورة سنة ٦٤٨ هـ ، وقبض على الملك لويس التاسع ، واقتاده أسيراً ، وسجنه في دار القاضي ابن لقمان بالمنصورة بعد أن كبل بقيد من الذهب ووكل أمره إلى الطواشي صبيح المعظمي . تحفظ مكرماً غاية الاكرام (١) .

كما أسر مع الملك الفرنسي أخوه وجماعة من خواصه كانوا في منيه عبد الله ، فأخذوا جميعا برقابهم . أما عدد الأسرى الآخرين من الجنود فقد بلغ ثلاثين ألفاً(٢) .

ابتهجت دمشق بهذا النصر . وجدير بالذكر أن الملك المعظم أخبر نائبه بدمشق جمال الدين موسى بن يغمور ، وبعث إليه بغفارة الملك الأسير لويس التاسع ، فلبسها احتفالاً بيوم النصر ، وبتألف من اسكرلاط أحمر ، وتحته سنجاب ، وفيها بكلة ذهب(٣) .

لم يطل حكم الملك المعظم توران شاه ، فقد روي عنه أنه توعد زوج أبيه شجرة الدر بالسوء ، فبعثت للأمراء والمماليك البحرية تحرضهم على قتله ، وتعدهم بإرضائهم بكل ما يمكن(٤) .

قتل الملك شر قتلة دون شفقة أو رحمة ، ومات حريقاً غريقاً ، ومكثت جثته ملقاة في العراء ثلاثة أيام ، تنهشها الجوارح ، حتى تشفع رسول الخليفة في دفنه(٥) .

دالت دولة الأيوبيين ، ولما يمض على قيامها قرن من الزمن ، وانتقل الملك إلى مماليكهم ، وعلى رأسهم شجرة الدر التى كانت أول من حكم

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٣٦٦ .
(٢) أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ١٨٤ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٨٤ .
(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ٨٨ .
(٥) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٢ .

بعد ان اجمع الأمراء على تولهــا أمر الملك على أن يكون الأمــير المملوكي عز الدين بن أيبك مدبر المملكة معهــا(١) .

تلك هي أول ملكــة في مصر والشــام في التــاريخ الإسلامي • وما عرف مثل ذلك من قبل في تاريخ العرب إلا في عهد زنوبيا قديما • وكانت الخطباء تدعو باسم الملكة الجــديدة ولهــا • وتقول بعــد الدعاء للخليفة العباسي : « واحفظ اللهم الجهة الصالحية • ملكــه المسلمين • عصمة الدنيا والدين ؛ ذات الحجاب الجميــل ؛ والستر الجليــل • والدة المرحوم خليل ؛ زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب(٢) » .

كما نقش اسمهــا على النقود ؛ وكانت توقع في مكاتباتهــا باسم « والدة خليــل(٣) » .

بلغ الخليفة المستنصر بأمر الله مبايعــة شجرة الــدر بالملك ؛ فغضب على الأمراء المماليــك ؛ وكتب إليهــم يقــول : « أعلمونا إن كــان ما بقي عندكم في مصر مــن الرجال من يصــلح للسلطنة ؛ فنحــن نرسل لكم من يصلح لهــا . أما سمعتم في الحديث عن رســول الله (ص) أنه قــال : لا أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة(٤) » .

كمــا بحث هذا الموضوع الشيخ عز الــدين بن عبد السلام في معرض حديثه إذا ما ابتلي المسلمون بولاية امرأة ؛ فولايتها في نظره بلاء وشر .

اجتمــع القضاة والأمراء ؛ وأشــاروا على الملكة أن تتزوج مــدبر أمر ملكها ؛ فخلعت نفسها ؛ وبايعت زوجهــا الجديد ؛ غــير انها عندما رأته

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ٨٩ ؛ وابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ص ١٩٩

(٢) ابن تغرى بردي : النجوم الزاهرة ؛ ج ٦ ص ٣٧٢ • وابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٩٩ ؛ والسيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٣٤ ؛ وابن إياس : بدائع الزهور ؛ ج ١ ص ٨٩ •

(٣) السيوطي : حسن المحاضرة ؛ ج ٢ ص ٣٤ •

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ؛ ج ١ ص ٨٩ ؛ والسيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٤

يهوى غيرها تآمرت عليه ، وخنقته وهو في الحمام بمساعدة بعض مماليكها .

انتقل الملك بعد ذلك إلى سيف الدين قطز لأن ابن الملك السابق كان صغير السن .

تجري كل هذه الحوادث والبلاد تجابه خطرين في آن واحد ، خطر الفرنجة الذين يريدون الانتقام واسترجاع ما كان لهم من ممالك لاتينية ، وخطر التتار الطامعين الجدد الذين يريدون أن يطمسوا ما تبقى قائماً من معالم الحضارة الإسلامية في مصر والشام بعد أن دمروا بغداد وقضوا على كل ما فيها من عمران وحضارة .

في مثل هذه الحال تسلم المماليك زمام الحكم ، واستطاعوا على الرغم من تنازعهم ، أن يحفظوا البلاد من شر الطامعين القادمين من الشرق والغرب على السواء .

لن نتحدث عن كل سلاطين المماليك وسنكتفي بذكر أشهر من عاش في العصر الذي يهمنا تأريخه وبحثه .

(١)

المظفر قطز

الملك المظفر سيف الدين قطز بن عبد الله المعزّي (١) ، وهو ثالث سلاطين المماليك بعد المعز والمنصور ، ولي السلطنة سنة ٦٥٧ هـ في الوقت الذي سار فيه التتار إلى بلاد الشام ، ودخلوا حلب ودمشق ، وبعثوا برسلهم الى قطز فقتلهم وحاربهم حرباً صادقة كسروا فيها شر كسرة في المعركة المشهورة في عين جالوت . كان يكر مع جنده صائحاً : « واإسلاماه » ثلاث مرات ، ويدعو ربه قائلا : « ياالله ، انصر عبدك قطز على التتار (٢) » .

---

(١) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٤٨٠ ، وابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٤ .

هزم هولاكو شر هزيمة سنة ٦٥٨ هـ ، فدخل السلطان دمشق مظفراً ، وطهر بلاد الشام كلها من فلولهم ، ووحدها من جديد ، وأصبحت الدولة تمتد من النيل الى الفرات .

تهيأ لدخول مصر دخول الابطال الظافرين ، فازدادت القاهرة ابتهاجاً بقدومه ، ولما طلع اليوم الذي يصل فيه نادى المنادي : ترحموا على الملك المظفر ، وادعوا لسلطانكم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس (١) .

أما قتله فقد حدث غيلة على يد بيبرس احد قواده لانه رفض توليته نيابة حلب ، وتربع على السلطنة من بعده .

جمع التتار أمرهم من جديد بعد أن بلغتهم انباء مقتل قطز قاهرهم ليغسلوا عن أنفسهم عار الهزيمة النكراء التى منوا بها ، فدخلوا حلب ووضعوا السيف في رقاب أهلها ، وأحدثوا فيهم مقتلة عظيمة . ثم وصلوا الى حماة فغلقت أبوابها في وجوههم ، غير أنهم غادروها الى حمص حيث اجتمعت جيوش الجو كندار حسام الدين ، والملك المنصور صاحب حماة ، والملك الاشرف صاحب حمص ، فنشبت معركة ضارية هرب على أثرها بيدرا احد قواد هولاكو (٢) .

لاحظ بيبرس بعد عودته ألى مصر أن الرأي العام كان حانقاً عليه لقتله مولاه ، فأراد أن يعيد ثقة الناس به ، ورأى أن يعيد الخلافة الاسلامية ويجعل القاهرة مقرها .

(٢)

الظاهر بيبرس

رابع سلاطين المماليك واكبرهم ، عرف بحسن بلائه في معركة المنصورة

(١) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٤٣٧ ، وابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٢٢٢ .
(٢) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ، ج ١ و ٣٧٦ ، ٣٧٧ .

التي هزم فيها الفرنجة في عهد الملك الايوبي توران شاه ، كما أظهر منتهى الشجاعة في حرب التتار بجانب مولاه قطز .

استطاع الظاهر بعد ان تفرد بالسلطان أن يسهم بدوره في دعم الوحدة العربية حتى عادت الشام ومصر والحجاز وغيرها من الاقاليم والثغور كما كانت في أيام صلاح الدين . واستطاع من ناحية أخرى أن يخضع بعض الامراء الذين شقوا عليه عصا الطاعة ، نذكر منهم سنجر الحلبي الذي نصب نفسه سلطاناً ، وتلقب بالملك المجاهد ، لكنه أخضعه وواصل كفاحه شرقا وغربا لرد عادية الفرنجة والتتار .

تواردت الاخبار الى الظاهر وهو بدمشق عن زحف جديد قامت به طلائع التتار الى بلاد الشام ، فتوجه أولا الى الرحبة ، ومنها الى حمص فمنبج ، لكنهم فروا من لقائه . كما توجه بعد ذلك الى الفرات ليصد طائفة أخرى منهم نيف عددها على ثلاثة آلاف فارس ، نزلوا في الجزيرة على ضفاف الفرات ، فتقدم الظاهر لمهاجمتهم ، وخاضت عساكره الفرات ، وكان على رأسهم الامير سيف الدين بن قلاوون الالفي ، والامير بدر الدين بيبري ، ثم لحق بهما الظاهر نفسه . وحدثت معركة عظيمة سنة ٦٧١ هـ فلم ينج منهم إلا نفر قليل (١) .

كما سجل للظاهر انتصار آخر عليهم سنة ٦٧٥ هـ في افجادر بنـد ، فحمل عليهم حملة رجل واحد ، فقتل معظمهم وأسر جماعة منهم ، ووجد بين الاسرى جماعة من أعيان الروم (٢) وقد مدحه الشهاب محمود في هذه المناسبة بقصيدة مشهورة .

خلف الظاهر بيبرس ابنه الملك السعيد محمد سنة ٦٧٦ هـ ، غير أنه خلع بعد عامين وولي مكانه أخوه الملك العادل سلامش سنة ٦٧٨ هـ ، وكان في السابعة من عمره ، فاستبد بأمره المنصور قلاوون ، وخلعه بعد مائة يوم ونفاه الى الكرك .

---

(١) ابن تغري بردى : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٢ و ٧٤ ، ٧٧ .
(٢) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ، ج ١ و ٣٦١ .

(٣)

المنصور قلاوون

مؤسس هذه الاسرة الحاكمة ومن عظماء سلاطينها ، وقد أسهم فى توطيد وحدة البلاد . خرج عليه نائبه بدمشق الامير شمس الدين سنقر الاسقر ، وأعلن نفسه ملكاً على دمشق ، لكنه تمكن من القضاء عليه بارساله مملوكه طرنطاي ، فدانت له بلاد الشام من جديد . كما أسهم في الدفاع عن البلاد ، فصد جحافل الفرنجة والتتار الذين أعادوا الكرة على حلب فدخلوها وخربوها ، فأسرع الى لقائهم وهزمهم قرب حمص . أما الفرنجة فقد دهمهم في الساحل ، وحصر طرابلس أربعة وثلاثين يوماً ، فانتزعها من ايديهم مع حصن المرقب ، وخربها عن آخرها وبنى قربها طرابلس الحالية .

(٤)

الاشرف خليل

تولى السلطة بعد أبيه سنة ٦٨٩ هـ ، واستهل ملكه بحرب الفرنجة ، فحاصر عكا وافتتحها (١) ، وأزال كل ما بقي لهم من ثغور وقلاع وممالك في الطراز الاخضر من بلاد الشام ، وأخرجهم من صيدا وانطرسوس وبيروت وعيليب وصور وجزيرة أرواد ، ولم يبق أمامه غير الروم في الشمال ، فنازلهم في عقر دارهم ، وحاصر قلعتهم الحصينه سنة ٦٩١ هـ ، وكان يصحبه في هذه الفتوح صاحب حماة الملك المظفر الايوبي ، وتم له أخيرا فتح قلعة الروم بعد أن جد في حصارها . وجدير بالذكر ان أحد كتاب سر السلطان عبد الله بن عبد الظاهر أرخ حياته ، وسجل فتوحه الرائعة في كتاب سماه (الالطاف الخفية) .

---

(١) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٢ و ٧٦ ، ٧٧ .

(٥)
الناصر محمد

ناصر الدين محمد بن قلاوون بن المنصور سيف الدين الصالحي (١) ، وهو آخر من نترجم لهم في عصر سلاطين المماليك وليس بآخرهم لاننا نؤرخ حتى نهاية القرن السابع الهجري .

بويع بالسلطنة للمرة الاولى بعد مقتل اخيه وهو في التاسعة من عمره ، وناب عنه في تدبير اموره نائب السلطنة كتبغا ، لكن الخلاف دب بينه وبين الامير سنجر الشجاعي وانتهى بمقتل الاخير ، ثم خلع الناصر بعد أربعة عشر شهرا من مبايعته . تولى كتبغا السلطنة ، ورحل الى الشام لينظم امورها فانتهز الامراء المماليك هذه الفرصة ، واجمعوا كلمتهم على خلعه سنة ٦٩٦ هـ ، وتولى حسام الدين لاجين السلطة حتى سنة ٦٩٨ هـ ، وقتل مع مملوكه منكوتمر في ليلة واحدة .

تداول الامراء امرهم فيما بينهم ، واجمعوا رأيهم على عودة الناصر محمد للملك بعد أن أقصي عنه أربع سنوات .

نقف عند هذه المرحلة من ولايته لنتحدث عن حربه مع التتار ، إذ لم يستقر غير عام واحد حتى توالت عليه الانباء تحدثه عن ظهور غازان (٢) وقدومه الى بلاد الشام بعد أن استنهضته أمراء التتار انتقاماً لهزائمها الماضية .

كان غازان قد جمع جنوده من المغل والكرج والعجم ، ولم يكن هدف هذه الحملة الكبيرة بلاد الشام فقط ، وأنما أعدت عدتها لقصد الديار المصرية ذاتها (٢) .

---

(١) الصفدي : أعيان العصر (مخطوط) ج ٢ و ٢٢٥ — ٢٤٠ .

(٢) محمود بن أرغون بن أبغا بن هولاكو بن طولو بن جنكيز خان ، تولى الملك سنة ٦٩٤ هـ عوضا عن القان بيدو بن هولاكو ، وكان وزيره ومدبر ملكه زوج عمته الامير نوروز التركي ، فحببه بالاسلام ، فاسلم عند توليه الملك بخراسان على يد الشيخ المحدث صدر الدين ابراهيم بن سعد الله بن حموية الجويني وعمره اذ ذاك بضع وعشرون سنة (ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٢ و ٥٠٠ ، ٥٠١) .

(٣) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٢ و ٥٠٠ ، ٥٠١ ، والصفدي : أعيان العصر (مخطوط) ، ج ٢ و ٢٣١ .

وصل مقدم التتار غازان على رأس جموعه الى حمص ، وخيم على واد اسمه (مجموع الروج) . اقبل الملك الناصر من مصر فدخل دمشق ، وتوجه على النو" لمقابلة التتار ، فهزموه هزيمة منكرة وقتلوا جماعة من كبراء امرائه المماليك . ولحقوا بالمسلمين ، فدخلوا دمشق فاتحين سنة ٦٩٩ هـ ، وخطب فيها لغازان في المساجد . ورفع في القابه ، وولى قبجق الحكم نيابة عنه ، والزم بعض الرؤساء بالوزاره كالرئيس الصاحب فخر الدين .

لم تستسلم قلعة دمشق لانها كانت معقلا حصيناً ، ولم يقو غازان على فتحها ، وانما اكتفى بجبي الاموال الكثرة من اهلها ، فحملت الى خزائنه ، وأخذ كل ما وجده من الغلال والخيل والبغال ، وأحرق جامع النوبة بالعقيبة، وهدم كل ما حول المدينة من قصور ومنزهات كالدهشة وصفة بقراط ، وصفة العافية ، وناصرية الجبل ، وبيمارستان القلعة ، وقتل من حي الصالحية أربعة آلاف نسمة ، وأسر أكثر من أربعة آلاف (١) .

تابع التتار تقدمهم الى شمال البلاد بعد هرب الناصر محمد الى العريش . فدخلوا حلب وكان أهلها قد لاذوا ببيوت الله يقرؤون البخاري أملا في السلامة والنجاة .

عاد غازان الى دمشق ، فانجفل الناس ، واقسموا أماكنهم في القلعة التي بقيت صامدة لان نائبها أرغواش المنصوري حفظها من شره ، ونودي في الاسواق بضرورة الرحيل الى مصر لمن أراد السلامة والنجاة .

أما غازان فقد عسكر في غوطة دمشق مخيماً حتى الثاني عشر من جمادى الاولى ، ثم ارتحل الى بلاده ، وخلفه نائبه قطلوشاه ، وعسكر بالقصير في فرقة من المغول .

أما الناصر محمد فقد جهز جيشه بمصر وسار صحبة الأمير سلار والأمير ركن الدين بيبرس ، كما استصحب معه الخليفة والقضاة الاربعة : فلموا

(١) الصفدي : أعيان العصر (مخطوط) ج ٦ و ٢٢٣ ا وابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٢ و ٥٠٠ .

شعث البلاد وأشاعوا الاطمئنان في نفوس الشعب بعد أن بلغ الخوف منهم مبلغه ، ولا سيما أن غازان توعد الناس بعودة ثانية قريبة (١) .

قطعت الخطبة لغازان وأعيدت للناصر محمد يوم الجمعة السابع عشر من رجب بعد إبطالها طوال مائة يوم (٢) .

أهلت سنة سبعمائة، وشرع غازان يجمع جموعه لغزوة جديدة، فوصلت طلائعه الى حلب وحاصرتها ، لكن قلعتها صمدت امامه ، فلما بلغت مسامع الناصر أنباء هذا الزحف الجديد هب من مصر لنجدتها غير أن التتار رحلوا عندما سمعوا نبأ قدومه .

جمع غازان جمعاً عظيماً سنة ٧٠٢ هـ ونزل قريباً من الفرات وعبره . فالتحم القتال بعد وصول النجدات المصرية ، فهزم شر هزيمة وأسر مقدم عساكره وقتل منهم خلق عظيم .

غضب غازان لما سمع نبأ هذه الهزائم ، فندب نائبه قطلوشاه وأمره بالتوجه الى دمشق فنزل قرب شقحب ، وتلاقى الفريقان بمرج الصفر ، واستمر القتال من العصر حتى غداة اليوم التالي ، وقد ركن التتار بعدها الى الفرار . والطريف أن غازان بعث بكتاب الى اهل الشام يقول فيه : « ماجئنا هذه المرة الا للفرجة في الشام (٣) » .

هدأت الحروب بعد ذلك في أيام الناصر محمد وبدأت علاقات المودة بين المسلمين والتتار تظهر بعد موت غازان ، فكانت الرسائل لاتنقطع بينه وبين ملكهم أبي سعيد ، وكان كل منهما يسمي الآخر اخا وسارت الكلمتان واحدة، ومراسيم السلطان تنفذ في ديارهم ، ورسله تدخل بالاطلاب والطبلخاناه (٤)

---

(١) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٢ و ٥٠٠ .
(٢) الصفدي : أعيان العصر (مخطوط) ج ٦ و ٢٢٣ .
(٣) المصدر السابق : ج ٦ و ٢٣٨ — ٢٤٠ .
(٤) الطبلخاناه : معناه بيت الطبل ، ويشتمل على الطبول والابواق وتوابعها من الالات ، ويحكم على ذلك أمير من أمراء العشرات ، يعرف بأمير علم ، يقف عليها عند ضربها في كل ليلة ، ويتولى أمرها في السفر ، وله رجال منهم المهتار ، والدبندار والنفر والكوسي (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ص ١٢) .

والاعلام المنشورة (١)

نكتفى بهذا القدر من التحدث عن الناصر محمد ، ونحن ما نزال في اوائل ولايته للمره الثانية ، وبذلك نكون قد استوفينا دراسة مشاهير سلاطين المماليك ممن يعنينا بحثهم .

ننتهي من هذا العرض التاريخي السريع لنقرر أن الحياة السياسية فى هذا العصر شهدت تتابع ثلاث دول خلال قرنين من الزمن تقريباً ، وأنها استطاعت على الرغم من كل الاختلافات الداخلية ، والتنازع حول الملك والسلطان ، أن تؤدي واجبها كاملا في هذا الصراع الجبار مع الفرنجة والتتار ، حتى اذا جاء عصر المماليك رأينا البلاد قد تطهرت نهائياً من الطامعين المحتلين الذين قدموا من الغرب والشرق على السواء لاحتلال البلاد العربية واخضاعها لنفوذهم . والفضل كل الفضل في ذلك يعود لامر واحد ، وهو سعى ملوك الدول الثلاث المتتابعة لتوحيد شمل الأقاليم المجزأة في وحدة عربية كبرى ، رسخت جذورها في مصر والشام منذ أقدم العصور .

---

(١) الصفدي : أعيان العصر (مخطوط) ج ٦ و ٢٤٨ .

الفصل الثاني

المظاهر الاجتماعية العامة

نحاول أن نحدد مجال البحث في دراسة الحياة الاجتماعية العامة (١) ، قبل أن نشرع في تبيان مظاهرها بمختلف صورها واتجاهاتها ، ذلك أن دراستها تتطلب منا أن نوضحها بالتفصيل ، وليس هذا بمستطاع مادامت طبيعة بحثنا الادبي تقتضي منا أن نعرضها عرضاً شاملا يحددها ، ويبرز معالمها العامة .

يجمع علماء الاجتماع على أن المقصود بها مختلف نواحي النشاط الانساني من الدين والعمل والاسرة والتعليم ، وما فيها من اعياد ومآتم وأفراح واتراح وشتى الامراض الاجتماعية وعللها .

لن نستطيع الالمام بدراسة كل هذه المظاهر الاجتماعية العامة ، ونكتفي منها هنا بالتحدث عن الطبقات الاجتماعية والحياة الدينية ، ونختم حديثنا بالتحدث عن الاخلاق في هذا العصر وما يتعلق بها من علل خلقية متفشية بين الطبقات الاجتماعية والفئات الشعبية .

---

(١) اعتمدنا في هذا الفصل على بعض ما أوردناه في كتابنا « ابن نباتة المصري » ص ٣٢ ، وقد أصدرته دار المعارف في سلسلتها (مكتبة الدراسات الادبية) رقم ٣١ ، سنة ١٩٦٣

القسم الأول

فئات المجتمع

ليس النظام الطبقي السائد في هذا العصر بجديد ، ذلك أن أصوله الاولى صاعدة مع التاريخ القديم ، وفروعه منحدرة مع تطوره المستديم ، وعسير على الباحث أن يفسر هذه الصورة الاجتماعية المعقدة .

لاغرابة ان اختلف العلماء قديماً وحديثا في تصنيف طوائف المجتمع ، فمنهم من لا يرى غير طبقتين ، كما هو الحال عند ابن خلدون ، وقد أشار الى ذلك في مقدمته المشهورة . فذكر أن الملك سلطان ورعية « فالسلطان من له رعية : والرعية من لها سلطان » (١) .

نحا هذا المنحى المؤرخ المحدث لين بول ، فأشار الى طبقتين كبيرتين : أولاهما طبقة المماليك وهى أقلية عسكرية ممتازة ، وثانيهما طبقة تمثل سائر فئات الشعب ، وهي محرومة من كل نفوذ وبعيدة عن الحكم ، وليس بيدها غير بعض الوظائف الدينية أو القضائية ، وعليها واجب العمل في فلاحة الارض ودفع الضرائب الباهظة (٢) .

ومنهم من قسم المجتمع الى عدة طوائف، نشير بشكل خاص الى المقريزي الذي صنف في المجتمع سبع طوائف : الاولى أهل الدولة من المماليك، والثانية أهل اليسار من التجار ، والثالثة متوسطو الحال من السوقة والباعة ، والرابعة أهل الفلح ، والخامسة الفقهاء وطلاب العلم ، والسادسة أرباب الصنائع وأصحاب المهن ، والسابعة ذوو الحاجة والمسكنة (٣) .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٨٨ .

(٢) عاشور : دراسات في الحياة الاجتماعية ، ص ١٠ .

(٣) المقريزي : اغاثة الامة بكشف الغمة ، ص ٧٢ .

أمـا معاصر المقريزي بيلوتي الكريتي pilote de Crète فقد قسم المجتمع الى ثلاث طوائف : طائفة المماليـك ، وطائفـة الشعب ، وطائفـة الاعراب (١) ، وجدير بالذكر أن المقريزي أهمل الاخيرة منها .

يحسن بنا أن نتبنى تصنيف المقريزي على أن نضيف اليه طوائف أخرى أهملها المؤلف المذكور ، وهي طائفة الاعراب التي تداركها بيلوتي ، وأرباب الملل والنحل من الطوائف الاخرى ، وأهل الذمة من اليهود والنصارى .

(١)

الطبقة الحاكمة

تناوبت الحكم وتداولته في هذين القرنين ثلاث دول ، وكان توالي الحكم مصـدر قوة لا ضعف ، كما أثبتت ذلك الاحداث الكبرى التي عرضنـا لها من قبـل .

قام الزنكيون فحكموا البلاد بعد أن ضعفت أمام هجمات الفرنجـة الذين احتلوا معظـم الطراز الاخضـر من بـلاد الشـام ، وأسسوا فيـه أربـع ممالك لاتينية ، هي : الرها وانطاكية وطرابلس والقـدس ، ولم يكن غرضهم استخلاص الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين وانمـا كانوا يهدفون الى استعمار الشرق الاسلامي كلـه : وقـد تبين ذلك في الخطاب الذي ألقـاه البابا أوربانوس في مدينـة كليرمونت الفرنسية سـنة ١٠٩٥ م ، وجـاء فيه : « أنها ليست لاكتساب مدينـة واحدة ، بل لامتـلاك أقاليم آسيا بجملتهـا مع غناها وخزائنها التي لا تحصى ، فاتخذوا حجة البيت المقدس ، وخلصوا الأراضي المقدسة من أيـدي المختلسين ، وامتلكوها أنتم خالصة لـكم من دون أولئك الكفـار ، فهـذه الأرض ــ كمـا قالت التوراة ــ تفيض لبنـاً وعسلاً (٢) » .

اعتمـد الزنكيون الأتراك على أبنـاء جلدتهم ، وهم صنيعة السلاجقة

(١) دراسات في الحياة الاجتماعية ص ١٠ .
(٢) بيلي : حيـاة صلاح الدين ، ص ٥٢ .

الأتراك أيضاً ؛ فنحن نعلم أن آق سنقر جد نور الدين كان مملوك السلطان السلجوقى عضد الدولة ألب أرسلان فهم إذن مماليك السلاجقة الذين كان بيدهم أمر الخلفاء العباسيين : ويتولون السلطة الفعلية في الحكم نيابة عنهم .

كان أمرهم يسير الى انحطاط عندما بدأ أمر الزنكيين يستفحل في بلاد الشام ، واستطاع هؤلاء الحكام أن يعيدوا الاطمئنان الى المسلمين بعد تفاقم خطر الفرنجة وتهديدهم الشرق الاسلامى كله ، بثلثه الاراضى المقدسة فى الحجاز . وكان أكبر نصر أحرزه عماد الدين هو فتح الرها .

وتبلغ البلاد أوج قوتها في عهد نور الدين ، وتتهيأ لفتح ما تبقى من البلاد بأيديهم .

اعتمد الزنكيون على الأتراك كما رأينا لأن « قنطاريات الفرنج ليس لها الا سهام الاتراك ، وان الفرنج لا يخافون الا منهم (١) » .

كادت هذه الدولة تنعسر من جديد ، ولما يتحقق حلمها الاكبر في النصر ، فتسلم القيادة بطل جديد قامت بقيامه دولة أيوبية ، هى من عنصر كردى ، ينتسب للعرق الآري ، ولغة الاكراد فارسية مشوبة بألفاظ عربية وخادبة (أي عراقبة قديمة) ، وفي كل قرية من قراهم (ملتى) ، وهو عندهم العالم الخبير بلغتهم .

حكم الايوبيون الاكراد البلاد ردحاً من الزمن ، ووزعت أقاليمها كما رأينا بين خلفاء صلاح الدين . وهؤلاء لم يكونوا أرقاء موالي كسابقيهم ، بل كانوا أحرارا يعتمدون في دعم ملكهم على أبناء جلدتهم وعلى غيرهم من المماليك .

أما الحكام الجدد الذين تغلبوا على الامور بعدهم فهم ينتمون الى أصول مختلفة ، منهم الاتراك والجركس والروم والارمن وغيرهم ؛ فالسلطان قطز مثلاهو ابن أخت ملك (مانجو بردي) الذي قضت عليه جيوش جنكيزخان،

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٨٣ .

والسلطان قلاوون قفجاقي تركي من قبيلة (برج أوغلي) ببلاد القفجاق، والسلطان كتبغا مغولي الاصل ، جاء الى مصر أسيراً بعد موقعة حمص ٦٥٨ هـ ، والسلطان لاجين أصله من البلاد الواقعة على ضفاف البلطيق .

تلك هي حال بعض سلاطينهم ، فما بالك بأتباعهم من الارقاء . لقد كان السلطان يشتري عدداً كبيرا ويسلمهم الى الطواشي المشرف على طبقة جنسهم، ويصبح بعد ذلك في عداد الذين يؤهلون لخدمة الامراء أو السلاطين(١).

ينال المملوك ثقافة خاصة منذ نعومة اظفاره ، فيربى تربية دينية على يد فقيه خاص يعلمه القرآن والحديث ، ويشرح له أحكام الاسلام ، ويزوده بآداب الشريعة ، وعندما يتجاوز هذه المرحلة يربى تربية عسكرية خاصة ، « والعادة كانت اقامة أولاد السلاطين وذريتهم بالقلعة ، لايتجاوز احدهم بابها ، ودام ذلك الى أن اطلقهم الملك الاشرف برسباي ، ورسم لهم بالنزول الى القاهرة (٢) » .

ان المؤهلات الشخصية هي التي تهيء صاحبها ليتدرج في معارج الرقي من قن رقيق حتى يصل الى مرتبة الامراء . أما الوظائف التي يليها هؤلاء فكثيرة ، منها نيابة السلطنة أو الأتابكية ، أو غيرهما من المناصب التي قصرت على أمراء المماليك دون غيرهم من الطوائف الاجتماعية الاخرى . واذا ما اسعفت الظروف احدهم وثب على مولاه فقتله — وهذا في الاكثر — أو خلعه وحل محله في الملك . استبد الامراء بأمور السلطان في بعض الاحيان ، وكانوا مصدر السلطة ، وهم الطبقة الحاكمة التي تهيمن على شؤون البلاد ، وقد ساءت امورهم فيما بعد ، فتخلوا عن كثير من صفاتهم الحربية والخلقية ، وانغمسوا في المفاسد والفتن ، وتمادوا في الاعتداء على طوائف الشعب المختلفة .

هكذا كان المماليك ، والى هذا صار حالهم ، وعلى الرغم من كل مساوئهم فقد دافعوا بشجاعة منقطعة النظير ، وطهروا البلاد من احتلال

(١) المقريزي : الخطط ، ج ٢ ص ٢١٨ .

(٢) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٦ و ٦٧ ؛

الفرنجة وصدوا عنها جحافل التتار القادمين من قلب آسيا ، واستردوا عكا وغيرها من قلاع الشام مما تبقى بأيدي الفرنجة الصليبيين وطردوهم الى ما وراء البحر .

(٣)

رجال الدين

لقبهم المؤرخون بأهل العمامة ، وهم طائفة متميزة من الشعب ، فقهت امور الدين وتعاليمه وتضلعت من أحكامه ، ونالت ـ بالاضافة الى ذلك ـ حظاً وافراً من العلم والثقافة ، فكسبت حب الطبقة الحاكمة واحترامها في معظم الأحيان .

نستطيع أن نتبين في هذه الطائفة فئتين : أولاهما وليت الوظائف العامة التابعة للحكام كأمانة السر وكتابة التوقيع وتولي ديوان الانشاء ، والاشراف على الدواوين السلطانية الاخرى ، وثانيهما عكفت على عبادتها وديانتها ، وشغلت وظائف التدريس والقضاء والخطابة ، غير أن كثيرين منهم كانوا يعزفون عن تولي القضاء لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قاض في الجنة وقاضيان في النار » . وكان بعض من تولاه يشترط على السلطان شروطاً معينة ، وكثيرا ما كانوا يعرضون بالحكام اذا آنسوا منهم خروجاً على الدين وتجاوزاً على المصلحة العامة .

نقف قليلا عند نور الدين لنقرر انضواءه تحت راية العدل حتى إن قاضيه كمال الدين الشهرزوري كان يقاضيه كأي فرد من أفراد الرعية ، فيقف امامه الى جانب خصمه لئلا يظن أنه ظلمه (١) .

كما أمر ببناء دار العدل ، وجلس فيها ليفصل في الحكومات والخصومات وكان يحضر في الاسبوع مرتين ، وعنده القاضي والفقهاء (٢) .

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٨ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٢٦٩ .
(٢) المصدران السابقان .

ولا يعدم القضاء نصيراً آخر يشد به أزره ، فيحذو صلاح الدين حذو مولاه ، غير أن العلاقة لم تكن طيبة مع القاضي كمال الدين منذ كان يتولى شحنكية دمشق في عهد نور الدين لانه كان يعكس مقاصده ، ويكسر أغراضه ، ويعترض عليه في أموره لتوخي الاحكام الشرعية (١) .

كان يقاوم عمه أسد الدين . ويرفع مظالمه لنور الدين الذي أمر ببناء دار العدل بعد ما كثرت الشكاوى حوله ، وسميت بدار الكشف أيضا . ولعل المقصود من هذه التسمية الكشف عن المظالم .

مهما يكن من أمر هذا الخلاف فلقد قدم كمال الدين لصلاح الدين كل المساعدة لتمكينه من الاستيلاء على دمشق بعد أن تبين له أن الامراء عاجزون عن دفع العدو . فلم يمنعه خلافه معه من الاستنجاد به لحفظ للبلاد تغورها ويصون أمنها ووحدتها . أشار على الامير شمس الدين بن المقدم ، وهو القيم على تربية الملك الصالح ، وعلى جماعة الامراء بالانقياد الى طاعة صلاح الدين صاحب مصر والرجوع الى رأيه لانه أقوى منهم جميعاً لانفراده بملك أكبر اقليم في المملكة .

أقر صلاح الدين القاضي المذكور على القضاء كما كان من قبل ، وكان يستشيره أحياناً حتى أدركه أجله ، فأوصى خلال مرضه بالقضاء لابن أخيه فجلس في مكانه ، وناب عنه في الحكم .

لم يكن صلاح الدين راضياً عن ذلك ، مع العلم أن القاضي الجديد كان أثيراً لديه ، وكان قد خدمه في مصر ، وأنعم عليه وأقطعه اقطاعات سنية هناك وكان يصحبه أيضاً في بلاد الشام .

ولعل سبب ذلك رغبته في اسناد القضاء لرئيس الشافعية في زمانه الشيخ شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون الذي هاجر من حلب الى السلطان ، فأنزله عنده في دمشق ، وحار فيما يفعله . شاور وزيره القاضي الفاضل ، فاجتمع بضياء الدين ، واعرب له عن رغبة السلطان وأشار عليه بالاستعفاء ففعل ما أمر به وأعفي من منصبه ، وأبقيت عليه الوكالة الشرعية عن السلطان في بيع الاملاك .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٤٩ .

كان كثير من رجال الدين يندّدون بالباطل عندما يرون السلطان يرضى بالمنكر أو يسير في طريق الفساد . عرف عن سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام أنه ترك الدعاء على المنبر لسلطان دمشق الملك الصالح اسماعيل بسبب تحالفه مع الصليبيين واستعانته بهم ليعضدوه على ابن أخيه صاحب مصر . وقد سمح لهم بدخول دمشق وابتياع السلاح منها واتفق معهم على تسليمهم صيدا والسقيف(١) وغيرهما من ثغور الساحل سنة ٦٣٨ هـ .

عزله الملك الصالح من الخطابة في الجامع الاموي ، وسجنه في قلعة دمشق وضيق عليه ، لكن جماعة العلماء أسخطهم ما يلقاه مجتهد العصر فتشفعوا له ، فأفرج عنه خوفاً من نقمة الناس عليه .

ترك دمشق صحبة شيخ المالكية الذي سجن معه جمال الدين أبي عمرو بن الحاجب وتوجها معاً الى الكرك ، فتلقاهما صاحبها الناصر داود فأكرمهما غاية الاكرام ، وطلب اليهما البقاء عنده ، فأجابه الشيخ عز الدين : « هذا بلد ضيق عن علمي (٢) » .

ولما وصل القاهرة تلقاه الصالح ايوب وفوض اليه الخطابة في الجامع العمري ، وولاه قضاء مصر والوجه القبلي بعد وفاة ابن عين الدولة (١) ولم يلبث أن اختلف معه ، ولامه مرة على وجود حانة تباع فيها الخمور ويرتكب الناس فيها المنكرات (٣)

استمر على هذه الطريقة في معارضة السلطان حتى أقصي عن جميع مناصبه في القضاء وغيره . أما سبب عزله فيرجع الى خلافه مع الوزير معين الدين ، فغضب منه وعزل نفسه لكن السلطان رأى ان يعزله من الخطابة أيضاً لانه خاف أن يقول فيه ما قاله في الصالح اسماعيل (٤) ولم يبق له من وظائفه كلها غير التدريس في المدرسة الصالحية .

---

(١) ابن حجر : رفع الاصر (مخطوط) و ١٦٨ ، وابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٢ و ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، وابن الوردي : تتمه المختصر ، ج ٢ ص ١٧١ ، والسبكي : طبقات الشافعية ، ج ٥ ص ٨٠ — ٨٣ .

(٢) ابن حجر : رفع الاصر (مخطوط) و ١٦٨ .

(٣) أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ١٧٠ ، ١٧١ .

(٤) ابن حجر : رفع الاصر (مخطوط) و ١٦٩ .

اما في عصر سلاطين المماليك فكان موقفـه من مبايعة الظـاهر بيبرس مخالفاً لانه لم يثبت لديه عتقه ، وكان موقفـه أيضاً من بيـع الامراء معروفاً نكتفي هنا بالاشارة اليه (١) .

كان معظم رجال الدين يعلنون كلمـة الحق امـام الملوك والسلاطـين دون خوف في خطبهم ودروسهـم ومواعظهـم . ذكـر أن مجـد الديـن اسماعيـل الواسطى خطب مرة ، والظـاهر بيبرس حاضر ، فقـال لـه : « انك لن تدعى يوم القيامة بأيهـا السلطـان ، لكن تدعى باسمك ، وكـل منهم يسأل عن نفسـه إلا انت فانك تسأل عن رعاياك ، فاجعـل كبيرهم أباً ، واوسطهم أخاً ، وصغيرهم ولداً(٢) » .

وذكر عن ابن دقيق العيد أن السلطان لاجين لقيـه مرة ، فقـام وقبل يده، فلم يزد على قوله : « أرجوها لك بين يدي الله تعالى(٣) » وقد رفض تولي القضاء في عهد كتبغا ، ولم يقبل ذلك الا مكرها .

يضاف الى ما ذكر ان بعضهم رفض تناول أجر ، منهم القاضي عبـد الرحيم البارزي الذي حكم نيابة حماة ، فلم يتناول للقضاء رزقاً(٤) .

ادت هذه الطائفة من رجال الدين أكبر خدمة للامة ، اذ كانت تدافـع عن مصالح الشعب وحقوقه لانها خرجت منه .

(٣)

طوائف الشعب

حاولت ان اجمع في هذه الطبقة طوائف الشعب المختلفة من الفلاحـين والتجار والصناع وسائر العوام .

---

(١) ابن حجر : رفع الاصر (مخطوط) و ١٦٩ ، وابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج ١ ص ٣٦٦ ، والسيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٨٨ .

(٢) ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٢٢٥ .

(٣) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ١٠١ .

(٤) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ، ج ٢ و ٣٢٥ .

ويظهر أن هذه الطوائف كانت تعامل معاملة واحدة لان أي فرد منها مهما ارتفعت منزلته ، أو نال حظا وافرا من العلم أو المال فانه ينظر اليه نظرة ازدراء واحتقار من الطبقة الحاكمة . يؤكد هذه الفكره المثل المعروف في هذا العصر على ألسنة الناس وهو قولهم : « ما أنت الا من العوام ، ولو كنت ابن عبد السلام(١) » .

يشكل الفلاحون السواد الاعظم من الشعب ، لكن الطبقة الحاكمة كانت تحتقرهم ، لأن الفلاح في نظرها قن ملحق بالأرض ، يورث مع الاقطاع الذي يعمل فبه لدى سيده ، وكان في كل عهد تابعاً لاي متسلط أقطع الارض أو القرية أو المدينة التى يقطن فيها .

ساد نظام الاقطاع في ظل الدولتين الزنكية والايوبية . واستمر قائماً في عصر سلاطين المماليك ، وقد حافظ نور الدين على ما كان يقطعه جنده ، فاذا قتل أحدهم ، وخلف ولداً ذكراً ، أقر الاقطاع عليه ، وان كان قاصراً جعل عليه وصياً حتى يدرك سن الرشد(٢) .

تحدث المقريزي عن الفلاحين الاقنان المحرومين حتى من البيع أو العتق، ومما قاله : « لا يعرف هذه (الأبذة) التى يقال لها الفلاحة ، ويسمى المزارع بالبلد فلاحاً قرارا ، فيصير عبداً لمن أقطع تلك الناحية ، الا أنه لا يرجو قط أن يباع ، ولا أن يعتق بل قن ما بقي ، ومن ولد له كذلك (٣) » .

يؤكد حقارة الفلاحة في هذا العصر ماذكره أسامة بن منقذ عن والدته التي فضلت أن تقتل أخته الكبرى ، ولا تراها « مع الفلاحين والحلاجين(٤) » .

ليس فيما ذكرناه عن الفلاحة والفلاحين بحاجة لمزيد من البيان ، ففيه الغناء لنستدل على حياة هؤلاء المستضعفين في الارض كما دعاهم ابن خلدون في مقدمته ، فذكر أن الفلاحة معاش المستضعفين ، ويختص منتحلها بالذل

(١) ابن شاكر : فوات الوفيات ، ج ١ ص ٣٦٧ .
(٢) ابن وصل : مفرج الكروب ، ح ١ ص ٢٨٠ .
(٣) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ص ١٣٨ .
(٤) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٢٥ .

والمسكنة(١) واذا أراد أحدهم أن يشتم الآخر نعتـه بكلمـة فلاح ، وبذلك تطورت هذه اللفظة فأصبحت خاصة بالشتم والسبـاب . كمـا ان سادتهم أصحاب الاقطاع من الامراء والاجناد والاتراك والاكراد كانوا يستخدمونهم في اقطاعاتهم عنوة وقهراً . وصف تاج الدين السبكي هـذه الحـال وقـال قولته المشهورة : « ومن قبائح ديوان الجيش الزامهم الفلاحين في الاقطاعات بالفلاحة ، والفـلاح حر لابد لآدمي عليـه وهو أمير نفسـه . وقـد جرت عادة الشام بأن من نزح من دون ثلاث سنين يلزم ويعاد الى القرية قهراً ويلزم بشد الفلاحة . والحال في غير الشام أشد منه فيها (٢) » . كما أنهم لم يكونوا يسمحون لهم بالتمتع حتى بأبسط مبادىء الحرية ؛ فقد روى المقريزي أن احداً من الفلاحين لم يكن يجرؤ في أيامه أن يلبس مئزراً أسود ، ولا يركب فرساً ولا يتقلد سيفاً ، ولا يحمل عصا مجلبة بحديد .

اما الغلال التي سقاها الفلاح بعرق جبينه فيذهب نصفها أو معظمهـا لاهل الدولة اولي الجاه والسلطان ، يؤكد ذلك مارواه أسـامة بن منقـذ على لسان بستاني من اهل معرة النعمان : « أن هذا البستان نصفـه لي بحق عملي ، ولمحمد بن مسعر نصفه بالملك(٣) » . يأخـذ المالك النصف ، والنصف الآخر موزع بين الدولة والفلاح،وقد ادى هذا النظام الى خراب القرى وتشرد ابنائها من الفلاحين في المدن ، فانتشرت بسبب ذلك فئات مختلفة من شياطين اللصـوص(٤) ، وعبيد حرامية يقطعون الطريق ، ويدخلون العدو متسللين ، فيسرقون منهم الرجال ، ذلك أنه كان للمسلمين لصوص يدخلون خيام العدو فيسرقون منهم الرجال(٥) ، يضاف الى ذلك طوائف أخرى من الصعاليك وغيرهم . ومن الطريف أن نسمع نعتهم بأفواههم كما أورده أسامة ، فهذا احدهم يقول : « أنا رجل صعلوك وحيد ، أستسقي جوفي ، وكبرت حتى عجزت عن التصرف ، وبرمت بالحياة(٦) » . وهذا آخر يقول : « انا رجل صعلوك ، ما لي شيء ، ولا لي من يدور بي سوى والدتي عجوز ضعيفة(٧) » .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٩٤ .

(٢) السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٣٤ .

(٣) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٧٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٤ .

(٥) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٤٥ ، وأسـامـة بن منقـذ : ص ٧٩ ، ١٥٣ ، ٢٢٠ .

(٦) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١٤٧ .

(٧) المصدر السابق ص ١٨٣ .

تلك هى حال هؤلاء المتشردين الذين يتسكعون في البلاد ، فلا عجب اذا رأينا النساء العجائز تعولهم .

* * *

ثمة فئة أخرى من الشعب ، لعلها أحسن حالا من غيرها وهى أرباب الصناعات والمهن الحرة . وكانوا يؤلفون فيما بينهم نقابات خاصة ، تضم أعضاءها العاملين ، ولهم شيخهم الذي يدافع عن مصالحهم لدى تناة (١) المدينة أو الطبقة الحاكمة .

تحدث الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف في مقالة طويلة عن صناعات الشام ودمشق في العصور الوسطى (٢) .

نترك هاتين الفئتين لنلتقي مع فئة شعبية أخرى أحسن حالا من سائر الفئات ، وهي طبقة التجار . أو كما يسميهم أسامة (البرجاسية)(٣) وقد وصف حالهم على لسان صديقه الافرنجي : « هذا رجل برجاسي (أي تاجر) لا يقاتل ولا يحضر القتال(٤) » .

قرب السلاطين هذه الطبقة الغنية لتمدهم بالمال حين الحاجة ، واتخذوا منهم أصحابهم وندماهم ، وأنعموا على سروانهم بأمرة طبلخاناه لكن غالبهم كانوا يعاملون كسائر أبناء الشعب فكانت الضرائب تفرض بكثرة عليهم غير أن بعض السلاطين كانوا يعفون الناس منها في بعض الأحيان تأليفاً لقلوبهم ، فقد اكتفى نور الدين وصلاح الدين من بعده بالخراج والجزية ، ورفعا عن الناس المكوس والمغارم . أما الملك العادل والملك الأفضل فقد خلفا سبعمائة ألف ألف وسبعمائة الف ألف دينار على

---

(١) مفردها تانىء ، وهو صاحب الاملاك الواسعة . وقد استخدم هذه اللفظة اسامة في الاعتبار ص ١٧٩ .

(٢) محاضرات المجتمع العلمي العربي ، ص ٢٨٠ - ٣١٣ .

(٣) اصلها من اللغة الفرنسية ، عرفها العرب عن طريق الحروب الصليبية اي : Bourgeoisie

(٤) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٤١ .

التوالي . كما عرف عن الملك المعظم عيسى بن العادل انه ظلم الرعية بالمكوس ولما اعترض عليه فخر الدين بن عساكر عاقبه بانتزاع المدرسة التقوية والصلاحية بدمشق منه(١) .

يضاف إلى ما ذكر أن التجار كانوا يتولون إقراض الدولة للجهاد ، وكان ذلك بكفالة الخليفة ببغداد بموجب توقيع خاص كما جرى لصلاح الدين عندما طلب مساعدة الخليفة ليدرأ عن البلاد هجوم الفرنجة(٢) وكما كان بعض السلاطين يعمدون الى مصادرة الاموال في ساعات المحنة وكان التجار في الغالب الضحايا الذين تؤخذ منهم أموالهم ، وقد ذكر أنه استخرج من غالب الأغنياء ثلث أموالهم لاستخدام المقاتلة في الشام ومصر سنة ٧٠٠ هـ لصد جحافل التتار(٣) . يضاف الى ذلك أن سلاطين المماليك فرضوا المكوس الكثيرة على الخمر وغيرها .

(٤)

الاعراب

أفردناها في طائفة مستقلة لان نمط حياتها خاص بها ، وهي منتشرة في بادية الشام تحيط بأطراف الهلال الخصيب ، وتفتش عن المرعى ، ولعلها كانت تشعر بالعزلة بالنسبة للحواضر ، كما يظهر أن هذه العزلة جعلتهم مصدر خطر يهدد الحواضر في بعض الاحيان ، بله طبيعة حياتهم التي تقتضي منهم حفظ بقائهم في السنين العجاف عندما تنحبس السماء ويجف المرعى ، وينعدم الكلأ فيتسلطون على قطع الطرقات وسفك الدماء(٤) .

يحسن بنا أن نشير الى أشهر القبائل العربية التي تعيش في بلاد الشام ، نذكر منها الغساسنة وقضاعة وتنوخ واسد وآل مرة ، وآل عقبة، ونكتفي

---

(١) محاضرات المجتمع العلمي العربي ، مقالة الاستاذ محمد كرد علي عن الجباية في الشام ص ٣٨ — ٧٤ .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٠٢ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٢١٤ .

(٣) ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٢٤٩ .

(٤) السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٥٤ .

بالوقوف عند الاخرة منها لما لها من أهمية في هذا العصر وعلاقتها بسلاطين المماليك .

آل فضل

عرب الشام وهم قبائل رحالة ما بين الشام والجزيرة ونجد ، ينتسبون الى قبيلة طى ومعهم أحياء من زبيد وكلب ومذحج وغيرهم .

أورد العماد الكاتب في كتابه « البرق الشامى » أخبار آل فضل ، وقد رأينا أن نورد بالتفصيل قصة هؤلاء الامراء ، ونوضح علاقتهم بالطبقة الحاكمة . كما أن الزعامة على عرب الشام في بادىء الامر لم تكن لقبيلة دون أخرى ، فكان آل فضل في صراع دائم مع آل مرة ولم يصرح لاحد من أهل هذا البيت بامرة على العرب بتقلد من السلطان الا من أيام العادل أخي السلطان صلاح الدين (١) . ويظهر ان آل فضل قدموا للحكام الايوبيين مساعدات كبيرة حتى تمت لهم الزعامة والغلبة على سائر قبائل الشام . كما أنه من الثابت لدينا أن أمير آل فضل الشيخ عيسى بن ربيعة كان يصحب الملك العادل بجموعه الكثيرة ، وقد نزل معه بمرج دمشق ، واستمر على ولائه للايوبيين مدى حياته .

خلفه ابنه حسام الدين مانع ، وبقي حتى توفي سنة ٦٣٠ هـ فقام ابنه مهنا بن مانع . ويظهر ان اعراب الشام وعلى رأسهم آل فضل أسهموا في طرد التتار وكسرهم في عين جالوت ، ولذلك نرى قطز ينتزع سلمية من المنصور بن المظفر صاحب حماة ، ويقطعها لمهنا اعترافاً له بفضله .

ولى الظاهر بيبرس بعد موته ابنه عيسى ليكون خلفاً له حتى وفاته ٦٨٤ هـ . كما عين المنصور قلاوون ابنه مهنا بن عيسى ، وبقى أميراً على آل فضل حتى سنة ٧٣٤ هـ (٢) .

---

(١) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٢ و ٣٦٩ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ و ١٦٠ ، ١٦١ .

آل مرة

كانوا ينازعون آل فضل الزعامة على العرب غير ان آل فضل استظهروا بالايوبيين عليهم ، فولوهم على أحياء العرب جميعاً . ترك آل مرة مشاتيهم ، وانتقلوا الى حدود الشام قريباً من الجبال والتلال ، « وكان بينهم من تفاريق العرب مندرجون في لفيفهم وخلفهم من مذحج وعامر وزبيد » . غير أن أكثر من كان مع آل مرة من أولئك الاحياء ، وأوفرهم عدداً بنو حارثة ، وهؤلاء كانوا يتنقلون في هذا العهد في تلال الشام لا يتجاوزونها الى القفار (١) .

آل عقبة

وهم عرب من البلقاء وحسبان والكرك إلى تخوم الحجاز ، وأشهر رؤسائهم الأمير بدر الدين شطي بن عبية ، وكان أثيراً لدى السلاطين ومقدماً عندهم ، حتى إن الملك الناصر كان يخلع عليه الأطلس الأحمر والطراز المزركش(٢) .

لم تكن حياة الأعراب مستقرة لأنها صورة خالدة عن الرحيل الدائم للتفتيش عن مساقط الغيث ، وكثيراً ما كانت تحدث عندهم المجاعات في السنين الجدب ، وتقذف بهم في غزوات دائمة حفظاً لبقائهم . وصف أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار في معرض حديثه عن مهمة حربية قام بها لدى نور الدين من قبل وزير الخليفة الفاطمي الظاهر الملقب بالملك العادل سيف الدين على بن السلار ، إحدى القبائل الطائية من بني أبي شاهدها في طريقه و « قد يبست جلودهم على عظامهم لا يأكلون إلا الميتة(٣) » . ذكر السبكي أن كثيراً منهم لا يتزوج بعقد شرعي ، « ومن قبائحهم أنهم لا يورثون البنات ولا يمنعون الزنى(٤) » .

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ و ١٦٠ .
(٢) الصفدي : أعيان العصر (مخطوط) ج ٣ و ٧٢ .
(٣) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٢ .
(٤) السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٥٥ .

(٥)

أهـل الذمـة

أهل الكتاب المعاهدون ، مـن نصارى ويهود ، ولكل منهمـا فئاتـه الدينية الخاصة ، وكانوا يعيشون مع المسلمين في حصونهم وقلاعهم ، يحتمون بهم من غارات الأعداء ، وعليهم تأدية الجزية . استدللت على هذا مما ذكره ابن واصـل عن نور الدين : « وكان برسم نفقته الخاصـة في كل شهر مـن جزية أهل الذمـة مبلغ ألفي قرطاس مصريـة(١) » ، لكنهـم في بعض الأحيان كانوا يفضلون التجمع في أحيـاء خاصة لكونهم أقلية بـين المسلمين ، أو كانوا يقيمون في قرى خاصة بهم .

أشار ابن جبير إلى ذلك في القرن السادس الهجري في معرض حديثـه عن مدينة دنيسر ، فـذكر بعـد مغادرته لهـا مروره على قريـة كبـيرة « تعرف بتل عقاب هي للنصارى المعاهدين الذميين(٢) » .

عامـل الزنكيون أهـل الذمة خير معاملة ، ولم يعرف عنهم أنهم أساؤوا معاملتهم إلا ما عرف عن القائد التركي صـلاح الدين الباغسياني الذي كان يظلم الناس جميعاً مسلمين وغيرهم ، فقد اثر عنه أنه سبى النصارى واليهود نساء وصبياناً في بعض الحصون التي استعادها جنده بعد أن أجهز على من فيه من المسلمين(٣) .

كما كانت الفتوح عاملاً هامـاً من عوامل دخول كثـير منهم في الحـكم الإسلامي ووقوع كثير من بلادهم تحت حمايتهم .

نهج السلاطين الأيوبيون نهج اسلافهم في التسامـح ، فعرف عن صلاح الدين أنه أدخل كثيرا من أهل الذمة في خدمته ، واتبـع خلفاؤه مـن بعده

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٢٨٤ .

(٢) رحله ابن جبير ، ص ١٩٤ .

(٣) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٥٨ .

سبيله ، ذكر أن الصالح إسماعيل سير وزيره السامري الغالب على الذي أسلم إلى الخليفة ببغداد ليشفع له في الصلح بينه وبين ابن أخيه سنة ٦٤٣ هـ غير أن الخليفة رفض سفارته(١) .

تمتع أهل الذمة بحريتهم الدينية الكاملة ، فكانوا يؤدون صلواتهم ، ويقومون بإجراء الطقوس الدينية في أعيادهم الخاصة(٢) .

تحدث ابن واصل عن سبت النور ، وذكر أنه كان للمسلمين أيام الملك المعظم شرف الدين عيسى ديوان خاص على باب كنيسة القيامة يجبي من كل زائر القطيعة المقررة(٣) .

أما في عصر سلاطين المماليك فقد لقي المعاهدون تضييقاً عليهم ، وسوءاً في معاملتهم فحرم عليهم العمل في الدواوين ، وصرفوا عنها بمرسوم السلطان المنصور قلاوون سنة ٦٨٩ هـ . كما أمروا بتصغير عمائمهم ، فلا تتجاوز سبعة أذرع أو عشرة ، على أن تكون عمائم النصارى زرقاً ، وعمائم اليهود صفرا ، وعمائم السامريين حمراً .

يضاف إلى ذلك أنهم منعوا من ركوب الخيل والبغال ، ومن قرع النواقيس ، وسبب ما حل بهم أن أحد المغاربة المتعصبين جلس بباب القلعة ، فدخل بعض كتاب الديوان بعمائمهم البيض فأكثر المغربي من توقيرهم واحترامهم ظناً منه أنهم من المسلمين ، وعندما علم أنهم من أهل الذمة دخل على الناصر محمد ، وارتأى عليه تغيير زيهم ليتميزوا عن المسلمين(٤) .

أحدثت هذه المعاملة رد فعل لديهم وبخاصة في عهد بعض السلاطين المتعصبين . رُوي عن الظاهر أنه عندما كان على الطور أرسل عسكراً ،

---

(١) ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ١٧٥ .

(٢) أسامة بن منقذ : العصا ، وهو منشور في الكتاب الذي ألفه المستشرق هارتويغ درنبورغ عن أسامة في مجلدين (ج ٢ ص ٤٩٨) .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ، ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

(٤) الصفدي : أعيان العصر (مخطوط) ج ٦ و ٢٣٥ ، وابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ١٤٣ ، والسيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ١٧٩ .

فهـــدموا كنســة الناصرة(١) ، وفي دمشـــق هدمت في درب الفواخير حى اليهود . كنيسة القرابـين ، على الرغـم من أنهم اعترضـــوا لدى القضاة لأنها قديمة لا يجوز هدمها (٢) .

قابل أهل الذمة ذلك بالكيد للمسلمين ، فأحرقوا خفية بعض الأمكنـــة المقدسة ، واختطف نصــارى قارا بعض المسلمين ، وباعـوهم للفرنجة سراً ، فبلغ الظـــاهر فعلهم ، فنزل قارا ، وأخـــذ صبيانهم مماليك ، وبعث بهم إلى مصر ليربوا هناك ، فصار منهم أمراء وأجناد(٣) .

ابتهــج أهل الذمـــة بدخول التــــار إلى بلاد الشام ٦٥٨ هـ ، فلما احتل هولاكو حلب ، وأمعن فيها قتلاً ونخريباً ، نادى بالأمان ، ولم يسلـم منهم إلا من التجأ الى ستة أماكن أحدها كنيس اليهود(٤) .

أمــا في دمشق فقــد رحبوا بقدومهم ، وشرعوا يدقون النواقيس ، وأدخلوا الخمر إلى المسجد الجامع(٥) ، فلما خرجوا منها ، وأقبلت النجدات من مصر أوقع المسلمون بهم وخربوا كنيسة اليعاقبة ، وأحرقوا كنيسة مريم وهي كبرى كنائسهم .

أما اليهود فلم يؤذوا المسلمين خلال هذه المحنة ولم يظاهروا التتارعليهم .

فضل بعض أهل الذمة في عصر سلاطين المماليك اعتناق الإسلام رغبة في العودة إلى مناصبهم في الدواوين ، وتخلصاً من هذا التضييق . نـــذكر منهم ديان اليهود الطبيب الكحال عبد السيد بن المهذب (٦) .

مهما يكن من أمر هذه الحوادث العارضـــة فمما لا شك فيه أن المسلمين كانوا يحسنون معاملتهم ، ويدافعون عنهم ، وقد ورد في الرسالة القبرصية التى بعث بها ابن تيمية إلى سرجواز ملك قبرص ما يؤكد ذلك وقد أشـــار فيها إلى أنه خاطب قائد التتار غازان ونائبه قطلوشاه في إطلاق سراح جميع من معهم من اليهود والنصارى ، وبين له رحمة المسلمين لما في أيديهم مـــن السبى ، كما أوصى النبى الكريم(٧) .

---

(١) ابن الوردى : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٢١٦ .

(٢) ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٢١٨ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢١٨ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٠٣ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٠٦ .

(٦) الصفدي : أعيان العصر (مخطوط) ج ٢ و ٢٦٣ .

(٧) البيطار : حياة شيخ الاسلام ابن تيمية ، ص ١٩١ .

القسم الثاني

الحياة الدينية

لا شك أن الديانات تحتل مكانتها الرئيسية في حياة الأمم والجماعات الإنسانية منذ أقدم العصور ، ولكل أمة عقائدها الخاصة ، تتفاعل مع الأيام والأقوام بين مد وجزر وتضييق . وكلما أخذت نصيباً أوفى من الحضارة كثر التفاعل الديني ، واحتدم الجدال مع أرباب الحكمة والفلسفات ، وذلك إما سعياً وراء الجمع بينهما ، وهذا بالطبع أمر مستحيل ، وإما لتكييف العقائد الدينية مع المظاهر الحضارية المستجدة . ويبقى هذا الصراع الأزلي مع جماعة المصلحين والمتحررين ، بله صراعها مع الإلحاد والزنادقة الذين يبدؤون حيث ينتهي دور الدين في هذا المجال .

وعلى ضوء ما قدمناه نجد في بلاد الشام مظاهر دينية متباينة الاتجاهات ، تتوضح لنا في المذاهب السنية الأربعة ، والمذاهب الشيعية المختلفة . ومن خلال ذلك يتدفق تيار جارف من التصوف . فلا عجب إن رأينا في هذا البحران الديني طائفة من رجال الدين المصلحين ، هم الثمرات اليانعة التي أبدعها هذا العصر .

(١)

المذاهب السنيـة

حكم السلاجقة بلاد الشـام في أواخر القرن الخامس ومستهل القرن السادس الهجريين . وكانوا في الحقيقة يمثلون سلطة الخلافة العباسية ، إذ كان الدعاء والخطبة للخليفة الذي « حصل له خلافة الله في ارضه(١) » .

لم يستطع السلاجقة حفظ البلاد ، فتخلى تنس عن بيت المقدس ، وأقطعه للأمير أرتق ، ومن بعده اولديه إيلغازي وسقمان ، واستطاع الفاطميون أخذه منه بالأمان سنة ٤٨٩ هـ .

طمع الفرنج ببيت المقدس حلمهم القديم ، فحاصروه خمسة وأربعين يوماً ، وملكوه في الشهر المبارك لسبع بقين من شعبان سنة ٤٩٢ هـ ، واستحر القتال ، أسبوعا كاملا ، فاحتمى الناس بالمسجد الأقصى الذي بارك الله حوله . فقتلوا فيه نيّفا وسبعين الفا من الذين اعتصموا ببيت الله الحرام فلم يرعوا حرمة إنسان ، وفتكوا بالأئمة والعلماء والزهاد ممن احب المجاورة لشرف الموضع(٢) .

تلك هى حال الدين في جنوب الشام ، واما في شماله فليس الأمر بأحسن ، إذ أن الملك السلجوقى رضوان بن تتش صاحب حلب ، اعتمد على الشيعة في توطيد حكمه وتسيير أموره . استمر هذا الوضع طوال حياته ، فلما توفي ملك بعده أبنه ألب أرسلان ، وهو في السادسة عشرة من عمره فتحكم لؤلؤ الخادم فأبعد السيعة عن الحكم وأمر بنهب بيوتهم وبذلك تعود الأمور سيرتها الأولى .

هكذا كان الوضع الدينى في هذه الفترة صراعاً بين العقائد المختلفة فالشيعة يزدادون عدداً ، أكثر من السنيين(٣) الذين كانوا يحاولون الإبقاء على وجودهم أمام هذا التيار الجارف من التشيع بمختلف مذاهبه .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٧٠ .
(٢) ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ١١ .
(٣) رحلة ابن جبير ، ص ٢٢٩ .

قام الزنكيون بعـد ذلك ، واستطاعوا تطهير معظم البلاد المحتلة مـن الفرنجة ، واحيوا المذاهب السنيـة بعامة ونصروا المذهب الحنفي بخـاصة وجعلوه مذهب دولتهم الرسمى ، فلما تسلم عماد الدين المعرة مـن الفرنجة سنة ٥٣٩ هـ بعد احتـلال دام نصف قرن مـن الزمن ، جـاءه المعريون يطلبون إليـه تسليم أملاكهـم ، فاستفتى عماد الدين الفقهاء ، فأفتوه بمـا نص عليه المذهب الحنفي : وهو أن الكفار إذا استولوا على بلد وفيـه أملاك للمسلمين ، خرجت تلك الأملاك من ملك أصحـابها ، بصيرورة البـلد دار حرب ، فإذا عـاد البلد بعد ذلك إلى المسـلمين كانت تلك الأملاك لبيت المـال(١) .

رفض عمـاد الدين فتوى الفقهـاء ، وارجع كل أرض إلى صاحبها إذا اتى بكتـاب يثبت انـه مالك الأرض . واستفتى مرة أخرى الفقهـاء في الغدر ببهاء الدين سونج صاحب حماة والقبض عليه عندما حسن له ذلك صمصام الدولة خترخان بن قراجا صاحب حمص ، فأفتوه بذلك لكن ابن واصل انتقد هذه الفتوى وذكر أن من أفتاه لا دين له(٢) .

أمـا ابنه نور الدين فقـد عرف عنـه أنه كان ضليعا في الفقه على المذهب الحنفي ، وكان ملـوك الزنكيين جميعاً يدينون بهـذا المذهب إلا واحـداً منهم ، كان على المذهب الشافعي وهو نور الدين أرسلان شاه(٣) .

يظهر لنـا أنهم فضلوا وجود قاضي قضـاة واحـد في بـلاد الشـام ، فاختـاروا كمال الدين الشهرزوري لتولي هذا المنصب ، كمـا اسندت إليه بالإضافة إلى ذلك أمور الديوان والوزارة ، وعلق عليه تنفيذ الأحكام .

ناب عنـه في القضـاء بحلب ابنـه القاضي محيي الدين أبو حامد محمد ، وأسندت إليه أيضاً أمور النظر في الديـوان . وناب عنـه في حماة وحمص قاضيان من بني الشهرزوري ، هما حاكمان متحكمان .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٧٤ ، ٧٥ .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٧٤ ، ٧٥ .
(٣) ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ١٣٠ ، ١٣١ .

يتبين لنا مما سبق ذكره أن للدولة مذهباً واحداً ، يمثله قاضي القضاة الأعلى يقوم بأمور القضاء والديوان معاً ، ويمثله نواب في باقي البلاد .

أما في العصر الأيوبي فقد سيطر المذهب الشافعي ، فالمعروف عن صلاح الدين ، أنه شافعي متعصب ، وكان الملوك الأيوبيون جميعاً شافعية إلا الملك المعظم عيسى فكان حنفياً(١) ، وأول عمل قام به صلاح الدين هو تطهير البلاد من طوائف الشيعة الفاطميين وغيرهم بعد المؤامرة الكبرى التي حيكت ضده سنة ٥٦٩ هـ المار ذكرها . وقد قتل القاضي العويرس والقاضي عبد الله بن هبة وغيرهما من الفاطميين(٢) . ثم رتب بعد ذلك قضاة شافعية ، واشترى ابن أخيه تقي الدين منازل العز ، وجعلها مدرسة للشافعية .

اصبح المذهب الشافعي مذهب الدولة الرسمي بعد القضاء على المذهب الفاطمي ، وقد تميز القاضي الشافعي بمميزات خاصة ، فكان يلبس الطرحة في المواكب الرسمية والدينية كما أنه كان القاضي الوحيد الموكل بالخطابة والصلاة بالسلطان(٣) .

أما في بلاد الشام فقد أبقى كل شيء على وضعه ، فأقر كمال الدين قاضي القضاة الحنفي على عمله لأنه لم يشأ سلبه المنزلة التي كان عليها أيام مولاه نور الدين ، ولا سيما أنه قدم له المساعدة للعودة إلى بلاد الشام وحكمها بعد اختلال امر الملك الصالح .

يمضي كمال الدين إلى ربه ويقع صلاح الدين في مأزق حرج بعد أن ولى ابن أخيه ضياء الدين القضاء قبيل موته ، وأوصى له به ، كان في نفس السلطان أمر ، فهو شافعي يريد أن يوحد مذهب الدولة في إقليميها الكبيرين على السواء . أفضى بسره إلى قاضيه الفاضل واستشاره في أمره

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ١٤٤ .

(٢) ابن حجر : رفع الاصر (مخطوط) و ١٣٦ .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٢ ص ٢٦٥ .

فوافقه على ذلك ، واشـار على القاضي ضياء الدين بالاستعفاء مـن منصبه بناء على رغبـة السلطـان ، وابقيت له الوكالـة الشرعية عنـه في بيـع املاكـه(١) .

اما نواب كمال الدين مـن آل الشهرزوري وغيرهم فلم يبق منهم غـير القاضي الأوحـد داود ، فاقره السلطان على عملـه ، وطلب مـن شرف الدين قاضي القضاة الجديد الذي عينه ان يستنيب عنه نائباً آخر يرغبـه هو القاضي محيي الدين محمد بن الزكى ، وكتب لهذين النائبين توقيعـاً سلطانيـاً(٢) .

استمر شرف الدين عـلى قضاء الشام حتى سنة ٥٧٢ هـ ، فلما عاد من مصر في هـذا العام ، سمع حديث النـاس عن ذهاب بصره ، ورأى النقاش محتدماً بين الفقهاء حول جواز قضاء الأعمى أو عدمه ، ذلـك أن بعضهـم يذهب إلى أن الأعمى لا يصلح إطلاقاً لولاية القضاء .

دافع شرف الدين عـن نفسه وصنف جزءاً في جواز قضـاء الأعمى ، ورد فيه على اعتراض الفقهاء ، إذ لا يمتنع أن يعتمد على تعريف عدلين بمن يحضر من الخصوم ، كما في المترجمين بالنسبة للقاضي الأصم .

كان السلطان في حيرة من أمره ، فالفقهاء كلهم في جـانب لا يجوزون قضاء شرف الديـن وهـو في طرف آخر يفتي مجيزاً قضاءه ، ورأى أن يستشير القاضي الفاضل ، وهـو بمصر ، فأعلمه خبر قاضي قضاته ، وذكر له لغط فقهـاء الشام بما حصل له من العمى ، وطلب منه أن يجتمـع بالشيخ ابي طاهر بن عوف الإسكندراني ، ويسأله عما ورد من الأحاديث في قضـاء الأعمى ، وهل يجوز أم لا(٣) ؟

ارتـأى القاضي الفاضل عليه حلاً وسطـاً ، ففوض القضاء إلى ولده محيي الدين أبي حامد محمد ، ويكون هو الحاكم الفعلي في الحقيقة ، ويظهر انه نائب عـن ابيـه ، بحيث لا يظهر للنـاس صرفـه عن القضاء . أخـذ

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٥٠ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥١ .

السلطان برأي قاضيه ، فأبقي في منصبه حتى سنة ٥٨٧ هـ وصرف عنه بنائبه محيى الدين بن زكى الدين الذي استمر عليه إلى آخر أيام صلاح الدين(١) .

وقد مر معنا انه حرر بيت المقدس واقام المنبر النوري في المسجد الأقصى في يوم أغرّ مشهود أقيمت فيه الخطبة والدعوة للخليفة العباسي بعد انقطاعها إحدى وتسعين سنة .

لم يكتف بما حققه . بل راسل ملك الروم وطلب منه اقامة الخطبة في جامع القسطنطينية وهو الجامع الذي شيد أركانه في العصر الاموي ، فلبى طلبه وسمح للمراكب الاسلامية الابحار حاملة معها منبر الخطبة ، وبضم هذا الموكب الخطيب والقراء والمؤذنين ، فوصلوها ودخلوها وكان ذلك يوماً مشهوداً عند المسلمين هناك ، إذ اجتمع كثيرون من تجارهم والمقيمين منهم ، فرقي الخطب المنبر ، وأقام الدعوة العباسية سنة ٥٨٥ هـ بعد إبطالها زمناً (٢) .

احتل التتار بغداد وقتل الخليفة العباسي ، وقد حاول سلاطين المماليك إحياء الخلافة العباسية في القاهرة ليستمدوا منها سلطتهم ويدعموا بها حكمهم .

حدث ذلك مرتين : المرة الاولى كانت عندما دخل مصر جماعة من العرب سنة ٦٥٩ هـ ، ومعهم شخص أسود اللون اسمه احمد ، ذكر انه خرج من دار الخلافة حين ملكها التتار ، فعقد له الظاهر مجلساً ضم الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، والقاضي تاج الدين عبد الوهاب المعروف بابن بنت الاعز ، وشهد من معه من العرب أنه ابن الامام الظاهر محمد بن الناصر ، فيكون على هذا النسب عم الخليفة المستعصم . اثبت القاضي صحة هذا النسب وبويع صاحبه بالخلافة ، ولقب بالمستنصر بالله أبي القاسم احمد ابن الظاهر بالله محمد . بايعه الناس بعد مبايعة السلطان الظاهر بيبرس ،

---

(١) المصدر السابق، ج ٢ ص ٥١ .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١١٥، ١١٦ ، وابن واصل: مفرج الكروب ج ٢ ص ٣١٨ .

وجهز له ما يحتاج اليه وانشأ له عسكراً ، وأنفق عليه مبلغاً كبيراً من المال .
غادر الخليفة والظاهر القاهرة ، وتوجها معاً إلى دمشق ، فنزل الظاهر بالقلعة ، والخليفة بجبل الصالحية ، غير أنه أبدى رغبته في التوجه الى بغداد واسترجاعها من أيدي التتار فودعه الظاهر ، وما هى الا فترة قصيرة من الزمن حتى وافت وفود الخليفة وكتبه تبشر بفتح عانة والحديثة ، وتشير إلى بدء توجهه الى بغداد . برزت اليه جيوش التتار ، فقتلته وأبادت أصحابه ونهبت ما معه (١) .

وأما المرة الثانية فكانت بعد عام واحد إذ حضر إلى القاهرة شخص آخر من احفاد خلفاء العباسيين ، اسمه ايضا احمد ، فأثبت صحة نسبه وبايعه الظاهر ايضاً بالخلافة وتبعه القضاة والامراء ، ولقب بالحاكم بأمر الله امير المؤمنين .

لم يسمح في هذه المرة للخليفة الجديد بمغادرة القاهرة كما حصل لسابقه وإنما ابقي في برج خاص محترزاً عليه ، لم يترك له من السلطة غير الخطبة باسمه والدعاء له .

أوضح السيوطي أهمية بعث الخلافة العباسية ، فذكر أن مصر حين صارت دار الخلافة عظم أمرها ، وكثرت شعائر الاسلام فيها ، وعلت فيها السنة وعفت فيها البدعة ، وصارت محل سكن العلماء ومحط الرجال الفضلاء (٢) .

لم يعتمد المماليك بعد بعث الخلافة على المذهب الشافعى كما كان الحال ، فلقد ساءهم استفحال نفوذ قضاته على كثير من أمورهم ، ووقوفهم امام رغائبهم وأغراضهم .

حدث ذلك سنة ٦٦٥ هـ عندما عزل الظاهر قاضي القضاة الشافعي برهان الدين السنجاري ، وأعاد القاضى عبد الوهاب ابن بنت الاعز ، وطلب منه أن يستنيب عنه ثلاثة قضاة من المذاهب الثلاثة الاخرى ، اولهم يمثل

---

(١) ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٢١٣ .
(٢) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٦٥ .

المذهب الحنفى ، وهو صدر الدين بن سليمان ، وثانيهم يمثل المذهب المالكي ، وهو شرف الدين عمر بن السبكي ، وثالثهم يمثل المذهب الحنبلى ، وهو شمس الدين محمد بن ابراهيم (١) .

شفع الظاهر هذه الخطوة بأخرى ، توخى فيهـا أن يجعل للمذاهب السنية الثلاثة كياناً خاصاً بها ، فادى هذا الامر الى تعدد القضاة بالاضافه الى القاضى الشافعي .

كانت العداوة مستحكمة بين الامير جمال الدين ايدغدي العزيزي ، والقاضى تاج الدين ابن بنت الاعز ، وكان هذا الامير يحط من قدر القاضي لتشدده في الاحكام ، وتوقفه في كثير من القضايا التى لا توافق مذهبه ، أو تتنافى مع الشرع . حدث ذات مرة في مجلس السلطان نقاش حاد ، وتنافر بين الامير والقاضي بسبب قصة ظلامة رفعتها بنات الملك الناصر ، وفي ختام المجلس أعلن الامير أن القاضي يمثل المذهب الشافعي فقط وطلب أن يعين من كل مذهب قاضياً . تبنى السلطان رأي الامير ، فجعل من كانوا نواباً للقاضي الشافعي قضاة مستقلين (٢) .

أما في بلاد الشام فقد صحب الظاهر معه القاضي شمس الدين بن خلكان سنة ٦٥٩ هـ وولاه قضاء البلاد بعد عزل ابن سني الدولة الذي عينه من قبل مولاه قطز ،وبقى في بدء ولايته القضاء منفرداً ، فلما صدرت مراسيم السلطان فيما بعد باستنابة ثلاثة قضاة من المذاهب الاخرى ، ثم باستقلال كل قاض ، طبق الامر نفسه بعد عام واحد في دمشق (٣) ، حينما وردت مراسيم السلطان ، ونصت على ان يكون بدمشق اربعة قضاة يمثلون المذاهب الاربعة وصدرت ثلاثة تقاليد لشمس الدين عبد الله بن محمد بن عطاء الحنفي،

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٤٧١ ، والسيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٩٩ .

(٢) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، والسيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٩٩ ،١٠٠ ، وابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٢١ ، ١٢٢ ، ٢١٨ .

(٣) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج٢ ص١١ ، وابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٢١٧ .

ولزين الدين عبد السلام الزواوي المالكي ، ولشمس الدين عبد الرحمن الحنبلي ، وكانوا من قبل نواباً لقاضي القضاة الشافعي شمس الدين بن خلكـان .

امتنع القاضي المالكي عن ولاية القضاء ، فألزم حتى قبل ، عزل نفسه ، فألزم بها ثانية : فقبل بشرط الا يباشر أوقافاً ، ولا يأخذ جامكية على الحكم فأجيب الى طلبه . وامتنع كذلك القاضي الحنبلي شمس الدين عبد الرحمن عن قبول أجر على احكامه ، فأعفي من ذلك(١) .

حاول الظاهر بيبرس بعد هذه الخطوة الجريئة القضاء على كل الطوائف الدينيـة الاخرى عدا المذاهب الاربعة المذكورة ، فأمر سنة ٦٦٥ هـ الا يوَلى قاض ، ولا تقبل شهادة احد ، ولا يرشح للخطابة او الامامـة من لم يكـن مقلدا لاحد هذه المذاهب (٢) .

اشتد الصراع بين المذاهب المذكورةللحد منهيمنة أرباب المذهبالشافعي على القضاء ، وسلبهم زعامتهم الدينية التي كانت لهم في دولة الايوبيين اذ كانوا يعتقدون ان الحكم في مصر والشام لا يستقيم اذا كان السلطان غـير شافعي . وضح السيوطي ذلك وذكر انّ أهل التجربـة من أتبـاع المذهب الشافعي يعتقدون أن الاقاليم الشامية والمصرية والحجازية متى كان البلد فيها لغيرهم خرب ودثر ، ومتى قدم سلطانها غير اصحاب الشافعي زالت دولته سريعاً ، وكأن هذا السر جعله الله في هذه البلاد كما جعله لمالك فيالمغرب ولابي حنيفة فيما وراء النهر (٣) . يعتقد أهـل التجربة منهم أيضاً أن كـل حاكم يتولى العرش ولا يكون شافعياً فانه سيقتل سريعاً ، ويستدلون على ذلك أن كل سلاطين المماليك كانوا من أتباع المذهب الشافعي إلا قطز فكان حنفياً ، ومكث يسيراً وقتل بعد ذلك ، غير أن الواقع التاريخي يثبت أن جل

---

(١) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ٢ ص ١١ ، ١٢ ، وابو شامـة : ذيـل الروضتين ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

(٢) المقريزي : الخطط ، ج٢ ص١٠٠ .

(٣) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٤ ص ١٦٦ .

سلاطينهم قتلوا أو خنقوا أو أغرقوا أو أحرقوا ، وندر منهم من مات حتف أنفه . ويرون أن من سعادتهم أن تكون جميع المبعوثين على رأس كل مائـة سنة ممن يجدد دين الاسلام هم من الشافعية ؛ رأسهم عمر بن عبد العزيز في القرن الاول . وهو ليس بشافعي . وخاتمهم تقي الدين بن دقيق العيـد في القرن السابع (١) .

هكذا تتبعنا مذاهب الطبقة الحاكمـة وموقفهـا من المذاهب الاخرى ، ولعلنا نستطيع توضيح انتشارها عن طريق المدارس ففي دمشق في عهـد صلاح الدين كان عدد مدارس القرآن الشريف سبعاً والحديث ثماني عشرة والشافعية سبعاً وخمسين ، والحنفية إحدى وخمسين ، والحنابلة عشرا ، والمالكية أربعا ، والطبيه ثلاثاً (٢) .

(١)

طوائف الشيعة

عرف الاقدمون الشيعة أنهم الذين شايعوا علياً على وجـه الخصوص ، وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصية ، واعتقدوا أن الخلافة لا تخرج عـن أولاده إلا لظـلم أو تقيـة من عنـده . غير أنهم اختلفوا في تعدية الامـامة بعد وفاة زين العابدين علي بن الحسين لاختلاف ولديه زيـد ومحمد الباقر .

رفض شيعة الكوفة إمامة زيـد وسموا رافضة ، ودعواهم في ذلك أنـه تتلمذ على واصل بن عطـاء إمام المعتزلة الذي كان يعتقـد أن أحد الفريقين علياً أو معاوية كان على خطـأ ، فهم لا يجوزون أخـذه العـلم ممن يجوّز الخطأ على جـده .

أما الشيعة الامامية فقد ساقوا الامامة إلى جعفر الصـادق بعد أبيـه محمد الباقر غير أن خلافاً خطيراً وانقساماً كبـيرا وقع بعد موت جعفر إذا

---

(١) الصفدي : أعيان العصر (مخطوط) ج٦ و٨٢، ٨٣ .

(٢) انظر حقائق تاريخية عن دمشق في محاضرات المجمع العلمي العربي ص١٤٠ – ١٦٧.

خلف ستة أولاد ، اشتهر اسماعيل وهو أكبرهم وموسى الكاظم ، فالذين ساقوا الامامة في أبناء اسماعيل سموا الاسماعيلية السبعية ، والذين ساقوها في أبناء موسى سموا الامامية الاثنى عشرية .

ظهرت الشيعة في بعض بلاد الشام كغيرها من العالم الاسلامي ففي كتاب (الروضة والفضائل) لتساذان بن جبرائيل القمي رواية مسندة الى عمار بن ياسر وزيد بن أرقم تدل على أنه كان في زمن الخليفة علي قرية في الشام عند جبل الشيخ تسمى (اسعار) ، وأهلها من الشيعة (١) .

يؤكد هذه الرواية كثرة الشيعة في جبل عامل ، وهم يعتقدون أن الذي هداهم إلى ذلك هو أبو ذر الغفاري صاحب علي ، حينما سيره إلى بلاد الشام ، وحجتهم في ذلك أن هذا الامر متواتر بينهم سلفاً عن خلف . ومما يجعلنا نؤمن بذلك وجود مزارين لابي ذر في المكان نفسه . ففي قرية (الصرفند) بين صيدا وصور مقام معروف باسمه ، وفي قرية (ميس) له مقام آخر .

لم يستطع الامويون الحيلولة دون انتشار التشيع ، ولعل هذه الكثرة الغريبة من مشاهد أهل البيت دلالة واضحة على ما نذهب اليه ، وقد وصف لنا ابن جبير بعض هذه المعالم ، فذكر لنا أنهم احتفلوا في البناء عليها، ووقفوا لها الأوقاف الوفيرة ، وقد ذكر هذا المشهد المنسوب إلى علي في دمشق وقد بني عليه مسجد جميل رائق البناء ، وفي محرابه حجر عظيم ، شق نصفين ، وقد زعم الشيعة أنه انشق لعلي إما لأمر من الأمور الالهية ، وإما لضربة بسيفه . وذكر منها ايضاً المشهد المنسوب الى أم كلثوم ، ويقع هذا المشهد على بعد فرسخ من قرية تدعى راوية ، وقد بني عليه مسجد كبير . وذكر منها أيضاً مسجداً لسكينة بنت الحسين ، وقيل إنه لسكينة أخرى من أهل البيت . وذكر أنه توجد مقبرة خاصة بقبورهم ، تقع غربى البلد ، وفيها مسجد ضم قبرين لاثنين من ولد الحسن والحسين (٢) .

---

(١) كرد علي : خطط الشام ، ج ٦ ص ٢٥٢ .
(٢) رحلة ابن جبير ، ص٢٢٩ ، ٢٣٠ .

لا عجب بعـد كل ذلك إن اتخذت بلاد الشام دار دعوة ، وكان وجودها فيها عاملا من عوامل بقائها واستمرارها بعيداً عن أعين الخلفاء ، ولا سيما في دور الستر للائمة الاسماعيلية . وجدير بالذكر أن الامام المستور محمد ابن اسماعيل هرب من دماوند ، واختفى في تدمر سنة ١٩١ هـ ، فأصبحت هذه المدينة المنعزلة في قلب بادية الشام مركزاً هاماً للدعوة الشيعية ، وشرع يبعث بدعاته إلى الاطراف المختلفة ، نذكر منهم الداعيين المشهورين أبا سفيان والحلواني اللذين أرسلهما إلى المغرب .

ومما هو ثابت أيضاً أن امامين مستورين آخرين من أئمة الدعوة كانا يقيمان في سلمية من أعمال حماة ببلاد الشام ، ويوجهان الدعوة منها إلى كل مكان ، وهما الامام المستور عبد الله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الملقب بالرضي ، وابنه الامام المستور احمد بن عبد الله الملقب بالنقي ، وقد توفيا وقبرا فيها . فلما ظهر أمر الخلافة الفاطمية بمصر تم نقل قبريهما إلى القاهرة (١) .

نخلص من كل ما مر بنا إلى أن نذكر أن الشيعة كانت منتشرة في بلاد الشام منذ عهود الاسلام الأولى ، وكانت في صراع مع المذاهب السنية لتحفظ بقاءها . فالمعروف أن المذهب الحنفي كان سائداً في حلب ، والشيعة فيها قلة ، فلما قدم الشريف أبو ابراهيم نقيب الوضع ، فازدادت الشيعة عددا ، وحصلت لها الغلبة بعد ذلك عندما قامت الدولة الحمدانية في حلب ودمشق والموصل والعواصم ، فتأصلت جذورها وبسقت فروعها ، فكان الآذان بـ « حيَّ على خير العمل » ، وكانت الدعوة للائمة الاثنى عشرية ، وكانت أسماؤهم منقوشة على جدار صحن المدفن في سفح جبل جوشن بحلب الشهباء (٢) .

حاول السلاجقة استئصال شأفتهم ، لكنهم أخفقوا في مسعاهم ، في وقت كانت البلاد تجابه أخطاراً كبرى تهدد وجودها . وما لبث الفاطميون

---

(١) كتاب الأزهار للداعي حسن بن نوح الهندي البهروجي ، وقد نشره الدكتور عادل عوا في (منتخبات إسماعيلية) ص ٢٢٥ .

(٢) كرد علي : خطط الشام ، ج ٦ ص ٢٥٢ .

ان حلوا محل السلاجقة ، فعين الحاكم بأمره ولي عهده على بلاد الشام .

لا عجب إن انتشرت الطوائف الشيعية انتشاراً أقلق الرحالة ابن جبير حبنما زارها سنة ٥٨٠ هـ ، فلما دخل منبج شعر بالاطمئنان لان أهلها « سنيون شافعيون ، وهي مطهرة بهم من أهل المذاهب المنحرفة والعقائد الفاسدة ، كما تجده في الاكثر من هذه البلاد (١) » .

أما هذه المذاهب التى الح اليها والمنتشرة في الاكثر من هذه البلاد فقد ذكرها في معرض حديثه عن مشاهد آل البيت : « وللشيعة في هذه البلاد أمور عجيبة ، وهم أكثر من السنيين بها ، وقد عموا البلاد بمذاهبهم وهم فرق شتى : منهم الرافضة،ومنهم الامامية والزيدية،ومنهم الاسماعيلية والنصيرية ، ومنهم الغرابية ، إلى فرق كثيرة يضيق عنهم الاحصاء (٢) » .

تلك هي صورة عابرة عن التشيع في بلاد الشام ، ونكتفي بالاشارة هنا إلى الطوائف الثلاث الاسماعيلية والنصيرية والدرزية ، فقد كان لها أثر في الحياة السياسية والدينية والفكرية .

فرق المتصوفة

ازدهر التصوف في هذين القرنين ، وتطور تطوراً خطيراً أخرجه عن حدود الدين وما دمنا في معرض الحديث عن الحياة الدينية ، فحري بنا أن نجلي هذا المظهر الديني الهام ، ولا سيما أننا نلمح في أدبنا ما يشعرنا بطغيان هذه الموجة العارمة من التصوف الذي شمل حتى بعض السلاطين وكثيراً من العلماء الذين أيدوه ، ونظروا إلى فقرائه نظرة إجلال واحترام ، ونسبوا إليهم الخوارق مما لا يقبله عقل أو يقره دين . وقد أعجب بهم

(١) المصدر السابق ، ج ٦ ص ٢٥٨ .
(٢) رحلة ابن جبير ، ص ٢٢٩ .

تاج الدين السبكي وقال : « حياهم وبياهم وجمعنا في الجنة نحن وإياهم (١) » .

يحسن بنا أن نعرض لاهم العوامل التى جعلت التصوف ينتشر انتشاراً سريعاً بين مختلف طوائف الشعب . ولو امعنا النظر في الاخطار الخارجية الكبرى التي أحاقت ببلاد الشام لكان لنا منها ما يجعلنا نعتقد أنها كانت من العوامل الرئيسية في نموه . فالصليبيون القادمون من الغرب مضى عليهم حين من الدهر ، وهم يعثون فسادا في الشام ومصر بعد أن احتلوا الطراز الاخضر الشامي وثغوره المنيعة ، وهتكوا حرمة أولى القبلتين وثاني الحرمين . أما التتار القادمون من الشرق فشأنهم أدهى وأمر ، فلقد قوضوا معالم الحضارة الاسلامية ، فصوحت أزهارها الفيح في بغداد والبصرة والكوفة ، وقتلوا الخليفة والفقهاء والعلماء ، وانتقلوا الى بلاد الشام يصبون الموت والدمار عليها كأنهم كانوا مع الصليبيين على موعد .

يضاف الى هذا الوقر الجاثم على البلاد ما انتشر فيها من كوارث طبيعية ومما أصابها من أوباء وطواعين ، وما تخللها من غلاء ومجاعات . كل ذلك دفع المستضعفين من فقراء ومعوزين إلى اتخاذ التصوف سبيلا ، والانخراط في تياره الجارف ليكون لهم ملجأ يعصمهم من قسوة الحياة .

لا عجب ان رأينا نور الدين يبنى بيتاً خشبياً منعزلا إزاء صفة بداره في أعوام الزلازل يمسي فيه ويصبح ويخلو لعبادته وتهجده ، وفعل صلاح الدين مثل نور الدين عندما كان في حماة (٢) .

لقي التصوف كل تشجيع ، وقد أثر عن نور الدين أنه كان يحبهم فبنى لهم الربط والخوانق في جميع البلاد ، وكان يقربهم من مجالسه ، ويتواضع لهم ، ويدر عليهم الادرارات الجليلة ، حتى أصبحت أماكنهم موضع اعجاب

(١) السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ١١٩ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

الناس وهي «قصور مزخرفة يطرد في جميعها الماء على أحسن منظر يبصر(١)».

وصف لنا ابن جبير أيضا مكانا لهم يعرف بالقصر، وهو صرح عظيم مستقل في الهواء ، في أعلاه مساكن لم ير أجمل منها اشراقاً ، وهو من البلد بنصف ميل ، له بستان عظيم يتصل به ، وكان في الأصل متنزها لأحد الملوك الاتراك ، فيقال إنه كان فيه إحدى الليالى على راحة ، فاجتاز به قوم من الصوفية ، فهريق عليهم من النبيذ الذي كانوا يشربونه في القصر ، فرفعوا الأمر لنور الدين فلم يزل حتى استوهبه من صاحبه برسم الصوفية مؤبدا لهم(٢) . وروى ايضا أنه أهدي له من مصر عمامة مذهبة من القصب الرفيع ، فلم يقبلها ، وإنما أمر بها لصوفي جاءه آنئذ .

عجب ابن جبير كل العجب من الصوفية في بلاد الشام عندما زارها في عهد صلاح الدين في القرن السادس الهجري ، فوصفهم بقوله : « وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها ، وفرغ خواطرهم لعبادته من الكفرة في أسباب المعايش ، وأسكنهم في قصور تذكرهم قصور الجنان ، فالسعداء الموفقون منهم قد حصل لهم بفضله تعالى نعيم الدنيا والآخرة . وهم على طريقة شريفة وسنة في المعاشرة عجيبة ، وسيرتهم في التزام رتب الخدمة غريبة ، وعوائدهم من الاجتماع للسماع جميلة ، وربما فارق منهم الدنيا رقة وشوقا ، وبالجملة فأحوالهم كلها بديعة ، وهم يرجون عيشا طيبا هنيئا(٣) » .

نعتهم الناس بالفقراء(٤) ، إما لأن الفقر أنبتهم ، وإما لأنهم زهدوا في هذه القصور التى يعيشون فيها . فبعد أن كانوا يخشون العدم والإملاق في بدء تشردهم نراهم اليوم في رغد من العيش يرغبون في الفقر، ويتكلفونه في معاشهم ومظهرهم ويلبسون خرقة الزاهدين .

وصف أسامة بن منقذ في كتاب (العصا) رباطاً للصوفية عند دار الطواويس ، زاره صحبة معين الدين أنر ، وذكر أحوالهم، وعجب من سكينتهم

(١) رحلة ابن جبير : ص ٣٢٣ .
(٢) المصدر السابق : ص ٣٢٤ .
(٣) المصدر السابق : ص ٣٢٣ ، ٣٢٤
(٤) المقريزي : الخطط ، ج ٤ ص ٣٢٩ .

وخشوعهم ؛ وأبدى سروره بما رأى لأنه لم يطلع من قبل على حياتهم الخاصة وطريقتهم في التصوف (١) .

استمد التصوف عناصره الاولى من الإسلام ، وكان المتصوفة الأقدمون يقتصرون في زهدهم على العبادة والتفكر في آلاء الله ، كما كانوا يكبتون شهواتهم ورغائبهم ؛ ويرضون من العيش بما يسد الرمق ويقيم الأود .

حاول الفاطميون ان يطبعوا التصوف بطابعهم ، فأدخلوا فيه كثيرا من عقائدهم واتجاهاتهم . ذكر ابن خلدون أن كثيرا من العقائد الأساسية في التصوف مأخوذ من كلام الشيعة والرافضة ومذاهبهم في كتبهم كذلك فان المتأخرين منهم آمنوا بالكشف ، وفيما وراء الحس ، وتوغل في ذلك كثير منهم ، فذهب الايمان بالوحده والحلول (٢) .

حاول صلاح الدين بدوره أن ينشر التصوف السنى بعد طغيان مذاهب الطوائف الشيعية والفاطمية في بلاد الشام ، وكان يحضر مجالس المتصوفه ، ويستمع الى أقوالهم وأناشيدهم . روى قاضيه ابن شداد أنه لما سار من حلب قاصداً دمشق اعترضه ابن أخيه المظفر تقى الدين ، فأصعده الى قلعة حماه . واصطنع له طعاماً حسناً ، وأحضر له سماع الصوفية (٣) .

نستنتج من عناية نور الدين بهم ، ورعاية صلاح الدين من بعده لهم واهتمام المماليك بهم أيضاً أنهم كان لهم شأن عظيم في الحروب الصليبية من قبل والحروب التترية من بعد ، إذ كانوا يستثيرون الناس والرأي العام ويحرضونهم على الجهاد في سبيل الله ، وهم ، كما نرى، الذين نشروا الاسلام بين التتار أنفسهم .

لم يستطع صلاح الدين الحيلولة دون تسرب العقائد المختلفة والفلسفات الدخيلة الى التصوف ، فتطور من شكله البسيط الى أسلوب خاص في الحياة الدينية ، له أماكنه الخاصة ونظمه وطرقه المختلفة . ساعد سلاطين المماليك

---

(١) أسامة بن منقذ : العصا ، وهو منشور في الكتاب الذى ألفه المستشرق هارتويغ درنبورغ عن حياة أسامة في مجلدين . ج ٢ ص ٤٩٨ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٧٣ . (٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٧٧ .

على نشر التصوف ، واعترفوا به كطائفة دينية مستقلة ، فكان شيخ كل طريقة يعين بمرسوم من قبل السلطان ، ويخلع عليه ، وينزل من القلعة في حفل كبير تحيط به جمهرة من فقراء طائفته (١) . كما احترموهم ، فقربوا شيوخهم من مجالسهم الخاصة ، وفتحوا أمامهم أبواب قصورهم ، واستمعوا الى مناظراتهم مع كبار علماء العصر في مسائل شتى من أمور الدين . روي أن شيخ الفقراء الرفاعية صالح الأحمدي الرفاعي (المتوفى سنة ٧٠٧ هـ) قدم القاهرة من دمشق ، وحضر مجلس السلطان مرارا عديدة ، وناظر الشيخ تقي الدين بن تيمية ، فأحنقه ، فقال له : « نحن ما ينفق حالنا إلا عند التتار ، أما قدام الشرع فلا (٢) » . يعني كلامه أن للتتار فيهم اعتقاداً كبيراً ، وأن طريقتهم كانت رائجة عندهم ، وأن أقوالهم كانت مخالفة للشرع ، فعندما هاجم هولاكو حلب ، واستحر فيها القتل والنهب ، وأريقت الدماء لم يسلم من أبنائها بعدما نودي بالامان الا من التجأ الى الخانقاه الذي يقيم في زين الدين الصوفي (٣) .

نفق حالهم عندهم وبخاصة منهم هولاكو ، فلا عجب ان رأينا الإسلام ينتشر بينهم على يد الطائفة الأحمدية ، وثابت أن (لانو كدار) أسلم في حياة والده على يد هذه الطائفة وقد روي عنهم انهم دخلوا به النار وأخرجوه منها سالما فوهبه لهم وسماه باسم مؤسس طائفتهم أحمد ، وكانت محاولته نشر الاسلام طوعا أو كرهاً بين أمراء أبيه من أسباب قتله فيما بعد .

ولما هاجم قطلوشاه التتري دمشق واحتلها توجه لزيارة شيخ الصوفية الرفاعية صالح الأحمدي المار ذكره ، وأظهر له من المحبة ما لا يوصف ، ونفع الناس بذلك (٤) .

لن نطيل الوقوف عند التصوف السني الذي لم يخرج عن الاسلام ، وانما يحسن بنا الوقوف عند الطوائف الأخرى التي تطرفت في سلوكها وعقائدها وآرائها ، فاستمدت كثيراً من عقائد النصرانية وغيرها . ذكر نيكلسون أن كثيراً من نصوص الإنجيل ومن الأقوال المنسوبة إلى السيد المسيح عليه السلام

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ٨٧ .
(٢) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٢ و ٢١٢ ، ٢١٣ .
(٣) ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٢٠٣ .
(٤) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج و ١ ١٦٨ .

مقتبس في أقدم تراجم الصوفية (١) . كما أنهم استمدوا من الغنوصية بعض مبادئها في المعرفه ، ومن البوذية كثيرا من العادات التى لا تزال منتشره بيننا ، منها استعمال السبح التي عرفها الاقدمون لدى الأحبار البوذيين من الهنود في ساعات الخلوة والدعاء (٢) .

أدى هذا التطرف الى ظهور جماعات من الصوفية ، أطلق عليها اسم المجاذيب أو الدراويش أو الحرافيش ، وقد ذاع أمرهم . واشتهروا بأفعالهم الغريبة وأزيائهم العجيبة وأقوالهم التى ينفوهون بها . وفيها منتهى الكفر والإلحاد .

رسم الصفدي صورة صوفي في هذا العصر خلال ترجمته لعبد الله الفاتولة الحلبي الدمشقي (المتوفى سنة ٧٠٠ هـ) فذكر انه «شيخ قد أسن، فقير حرفوش، مكشوف الراس منفوس ، عليه دلق رفيق ، بالى الخرقة دقيق ، قد تمكن منه الوسخ، ونبت فيه ورسخ قد جمعه من عدة رقاع، والتقطه من متباعد البقاع، يعبث به الأطفال فيزط ، وينهض لمناوشتهم وينط، له مجمرة يستدفىء بنارها ويرتضى لبابها وعارها . وكان عاقلا الا أنه عن الصلاة لا يزال غافلا ، والناس مع ذلك يذكرون له كرامات . ويشهدون أنه يشاهد في الملكوت مقامات (٣) » .

لم يكن أمرهم قاصرا على ترك الصلاة والفرائض الدينية ، وانما تطرفوا في أحوالهم وأفوالهم . ذكر عن الشيخ على الحريرى أنه تزهد في دمشق وصدرت عنه في سلوكه أحوال وكشف ، وشاع أمره بين الناس ، فأقبلوا عليه كثيراً وكان بقول : « لو دخل مريدي بلد الروم وتنصر ، وأكل لحم الخنزير ، وشرب الخمر ، كان في شغلي [٤] » . كما أثر عنه أنه قال : « ذبحت بيدي سبعين نبياً وما اعتقدت أني مخطىء [٥] .

كفر رجال الدين هذه الطائفة المتطرفة من الدراويش واعتقدوا أن الخوارق التي يدعونها إن هي إلا أضغاث أحلام من كشف الشيطان وقد أثروا كثيراً في عقائد بعض معاصريهم ، حتى إن الباجريقي كبير متصوفيهم أضل جماعة من

---

(١) نيكلسون : الصوفية في الاسلام ، ص ٢٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٢ . (٣) الصفدي : أعيان العصر (مخطوط) ج ٣ و ٢٦٠ .

(٤) ابن الوردي : تتمة المختصر : ج ٢ ص ١٧٨ . (٥) المصدر السابق ، ج ٢ ١٧٨

العلماء وغيرهم . نذكر منهم صدر الدين بن الوكيل ، ومجد الدين التونسي ، فاجتمع العلماء برئاسة القاضي جمال المالكي ، فكفروه وحكموا باراقة دمه ، ففر الى مصر وانقطع في الأزهر الشريف (١) .

لم تقف هذه الفئة المتطرفة عند هذا الحد، وانما حاولت ان تحيي المتصوفة الكبار أصحاب الطرق في قبورهم ، فذكروا عن الشيخ حياة ابن قيس الحراني انه احد الاربعة الذين يتصرفون في قبورهم كتصرف الأحياء ، وهم الشيخ عبد القادر الجيلي ، والشيخ عدي ، والشيخ أحمد بن الرفاعي ، ونسبوا اليه طي المسافات البعيدة كلمح البصر (٢) .

قد يهون الأمر لو وقفت الصوفية عند هذا الحد لكنها أفسدت الناس معها حين أدخلت الحشيش في حياتها، فقرنت بها وسميت حشيشة الفقراء(٣)، فهي اول من اكتشفها واستعملها حتى غدت بحق داء العصر .

اما اكتشافها فقد ذكر المقريزي أن الشيخ حيدر الذي كان يقيم في نشاور من بلاد خراسان أول من عرفها وأدرك خصائصها ، وأوصى جماعته بصيانة هذا النبات الذي يدخل النشاط والسرور في أنفسهم ، وأخذ على طائفة الفقراء الإيمان ألا يعلم به احد من عوام الناس ، وطلب منهم عدم إخفائه عن كل متصوف ، كما أوصى أن يزرع حول ضريحه بعد موته ، ولما وافته منيته سنة ٦٠٨ هـ في مكانه بزاوية الجبل سمح لهم ان يوقفوا ظرفاء الناس وكبارهم عليه (٤) .

انتقل هذا النبات من فارس الى العراق سنة ٦٢٨ هـ عن طريق ملوك البحرين ، ومنه انتقل الى الشام فمصر ، وعم انتشاره بعد ذلك في كل قطر ومصر ، وغدا موضوعا شعرياً طرقه المتصوفة في غزلهم الروحي وفضلوه على الخمر .

---

(١) الصفدي : أعيان العصر (مخطوط) ج ٦ و ٢٥ ، ٢٦ .
(٢) ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٦٥ ، ٩٥ .
(٣) المقريزي : الخطط ، ج ٤ ص ٣٢٩ .
(٤) المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

انقسمت المتصوفة الى طوائف كثيرة ، ولكل منها شعارها المميز وطريقتها الخاصة، فالرفاعيه شعارهااللون الاسود والأحمدية شعارها اللون الاحمر ..

لن نتحدث عن الطوائف الصوفية كلهـا وانما نذكر طائفتين منهما ، وهما القلندرية والعدوية فقد كان لهما أثر كبير في الحياة الاجتماعية والسياسية في هذا العصر . أما القلندرية فلكونها أدخلت حسبشة الفقراء الى سائر الطوائف الصوفية ، فعم انتشاره بين مختلف الطبقات الاجتماعية في بلاد الشام . وأما العدوية فلكونها أساس المذهب اليزيدي الذي اعتنقه أكراد الشام ، وكاد يودي بحكم سلاطين المماليك .

الطائفة القلندرية

تنتسب هذه الطائفة الصوفية الى عربى أندلسي اسمه قلندر يوسف ، ظهر في دمشق سنة ٦١٠ هـ ، وكانت كغيرها من فرق المتصوفة ، غير أنها تطرفت في سلوكها بعدئذ على يد شيخها جمال الدين محمد بن يونس الساوجي الذي قدم دمشق ، وقرأ القرآن ، وتفقه في الدين ، وسكن جبل قاسيون في زاوية الشيخ عثمان الرومى ، فأعرض عن مباهج الحياة ، وبالغ في زهده وتقشفه حتى ترك زاويته ، وأقام في مقبرة يتعبد ربه . ثم انتقل الى قبة زينب بنت زين العابدين وتبعه جماعة من أصحابه كالشيخ عثمان كوهى وجلال الدركزينى .

تطرف الساوجي في سلوكه فحلق وجهه ورأسه ، ولبس دلق شعر سنة ٦٢٠ هـ فأنكر الناس عليه هذه الحال ودخل عليه أصحاب الشيخ عثمان، فوجدوه في القبة ، فشتموه وقبحوا عليه فعله ، فلم ينبس ببنت شفة ، وانما ترك بلاد الشام وارتحل الى مصر ، وأقام في دمياط . غير أن أهلها أنكروا عليه بادىء الامر غرابة زيه ، بيد أنهم اعتقدوا صلاحه ، وأصبح قبره بعد موته مزاراً للمتصوفة(١) .

---

(١) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ٢ ص ٢١٢ .

اما في الشام فقد خلفه في المشيخة القلندرية الدركزيني ، وجاء بعده محمد البلخي ، وكان للظاهر بيبرس فيه اعتقاد كبير . فلما تسلطن طلبه فلم يحضر اليه ، فبنى له من مال الجامع قبة خاصة بالطائفة القلندرية وهى المعروفة باسم الزاوية القلندرية الدركزينية (١) ، وكان اذا قدم الشام بعطيهم الف درهم وشقني بسط ، ورتب لهم ايضا تلاثين غرارة قمح في السنة ، وفي اليوم عشرة دراهم لتصرف في شؤون معاشهم (٢) .

ثمة طائفة صوفية أخرى دخلت الشام سنة ٦٥٥ هـ وهي الطائفة الحيدرية . وكان شعارها لبس الفراجي والطراطير خلافاً السنة النبوبة وقد عرف عنهم ايضا انهم كانوا يقصون لحاهم ، لكنهم يتركون شواربهم على خلاف السنة ، وذلك متابعة لشيخهم حيدر حين اسرته الاسماعيلية ، فقصوا لحيته ، وتركوا شواربه ، فاقتدى به جماعته .

لقبت هذه الطائفة بالقلندرية الحيدرية لأنها فعلت بعض ما فعلته سابقتها ويظهر أنها كانت تخالفها في طريقتها لان لها زاوية خاصة بها في ظاهر دمشق قريباً من العونية (٣) .

مهما يكن من أمر فقد انتشرت القلندرية بسرعة في الشام ومصر ، وسمت نفسها الملامتية . وحقيقة القلندرية أن أتباعها قوم طرحوا التقيد بالآداب الاجتماعية في المجالسات والمخاطبات ، وتهاونوا بأمر الصلاة والصوم والزكاة الا الفرائض ، ولم يبالوا بتناول شيء من الملذات المباحة واقتصروا على رعاية الرخصة ، واعتزموا الا يدخروا شيئا وتركوا الجمع والاستكثار من الدنيا ، ولم يتقشفوا ، زاهدين متعبدين ، وانما قنعوا بطيب قلوبهم مع الله تعالى ، واقتصروا على ذلك ، وليس عندهم تطلع الى طلب مزيد سوى ما هم عليه من طيب القلوب (٤) .

---

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص٢١٠ .
(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢١١ .
(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢١٢ .
(٤) المقريزي : الخطط ، ج ٣ ص ٣٠١ .

أما الفرق بين القلندرية وربيبتها الملامتيّة من حيث الاتجاه الصوفي فقد وضح المقريزي ، وذكر أن الملامتي يتمسك بكل أبواب البر والخير ويرى الفضل فيها ، الا أنه يخفي أحواله وأعماله ، ويوقف نفسه موقف العوام في هيئته وملبسه سترا للحال حتى لا يفطن له(١) ، وهو مع ذلك يتطلع الى المزيد من العبادات .

أما القلندري فلا يتقيد بهيئة، ولا يبالي بما يعرف من حاله، وبما لا يعرف، ولا ينعطف الا على طيب القلوب ، وهو رأس ماله(٢) .

لا غرابة بعدما تبين لنا من اختلاف فيما بينهم إن رأينا تطرف القلندرية في سلوكها حتى صاروا يحلقون شعرهم ولحاهم وحواجبهم واهداب أجفانهم ، واستمروا على هذا الشكل المستشنع طوال القرن السابع الهجري .

انتقلت هذه الطريقة الى مصر وأسس اتباعها الزاوية القلندرية ، وتقربوا من الناصر حسن، ولكن ساءه ماشهده من اشكالهم وأفعالهم، فطلب إليهم التزام السنة في سلوكهم، وأمر « بإلزامهم بزي المسلمين وترك زي الأعاجم والمجوس، فلا يمكن أحد منهم من الدخول الى بلاد السلطان حتى يترك هذا الزي المبتدع واللباس المستشنع . ومن لم يلزم بذلك يعذر شرعا ويقلع من قراره قلعاً(٣)» .

يظهر ان هذه الفرقة كانت أول من نقل حشيشة الفقراء واستعملته حتى دعي باسمها ، وليس من باب الصدفة انتقاد ابن كثير للسلطان عندما أمرهم بترك ما هم عليه « وكان من اللائق أن يؤمروا بترك الحشيشة وإقامة الحد على مدمنها (٤) » .

---

(١) ابن الجوزي : تبليس ابليس ، ص ٣٦٣ .
(٢) المقريزي : الخطط ، ج ٣ ص ٣١٠ .
(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١١ ص ٥٧٤ ، والمقريزي : الخطط ، ج ٤ ص ٣٠٢ .
انظر كتاب الدكتور ابي العلا عفيفي عن الملامتية .
(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٥٧٤ .

الطائفة العدوية

أسس هذه الطائفة الشيخ شرف الدين أبو الفضائل عدي بن مسافر بن إسماعيل بن موسى بن مروان بن الحكم الأموي القرشي . ولد هذا القطب الصوفي في قرية (بيت الفار) من اعمال بعلبك ببلاد الشام سنة ٤٦٨ هـ تقريبا، وصحب بادىء أمره كبار المتصوفة في عصره : أمثال عقيل المنبجي ، وحماد الدباس ، وعبد القادر السهروردي ، وعبد القادر الجيلي ، وأبى الوفاء الحلوانى وغيرهم . اعتكف بعد ذلك في الكهوف والجبال والصحارى مجرداً سائحا يأخذ نفسه بأنواع المجاهدات ، فأقبل الناس عليه وكثر مريدوه . وفي اواخر عمره توجه الى (لالش) في جبال الهكارية(١) ، فأقبل عليه الأكراد الذين يسكنون هذه المنطقة ، ومالوا إليه ميلا لم يعرف لصوفي قبله ، فهو أول من قصد بالزيارات وتربية المريدين ببلاد الشرق ، وقصدته الناس من سائر أقطار العالم الاسلامي . ويظهر أن هذا الاقبال الشديد عليه يرجع إلى انه كان صوفيا حقاً ، إذ أبعد البدع التي غلبت على سلوك طوائف المتصوفة في هذا العصر كما رأينا . يؤيد ذلك ما ورد في الرسالة العدوية التي كتبها ابن تيمية المعروف بتشدده في أحكام الدين ، فأثنى عليه ولم يذكره الا بالخير والصلاح .

لم يخلف الشيخ عدي ذرية لعزوفه عن الزواج ، فخلفه أخوه في طريقته وهو صخر بن مسافر ، وكان مقيما في بيت فار من بلاد الشام ولم يثبت عنه انه هاجر الى أخيه عدي . تفرق أولاد صخر في بلاد الشام ، فأقبل عليهم الناس ، ونزل بعضهم في الموصل ، وكان بينهم الشيخ شمس الدين الحسن بن عدي ، وقد لقب بتاج العارفين وكان معروفا بالعلم والدهاء .

يعتبر شرف الدين الحسن نقطة التحول في الطائفة العدوية من أهداب السنة الى مذهب جديد ، وضعت أصوله ، وبرزت عقائده ، وانقلب أخيرا الى طريق الوصول الى الملك وطرد سلاطين المماليك ، واعادة الخلافة الاموية العربية باسم الدعوة لخليفة أموي جديد من نسل مروان بن الحكم .

---

(١) بلدة وناحية وقرى في جزيرة ابن عمر يسكنها اكراد يقال لهم الهكارية .

ذكر ان شرف الدين اختلى ست سنوات صنف خلالهـا كتابين دينيين : وهما (الجلوة لارباب الخلوة) و (مصحف رش) ، أي الكتاب الأسود . ومن مطالعة ما في هذين الكتابين يتبـين لنا أن هـذه الفرقة الصوفية خرجت عن الاسلام تماما(١) .

امران هامان لا بد من الوقوف عندهما لأنهما يؤلفان ركنين أساسيين في عقيدة اليزيدية ، أولهما اعتقادهم بيزيد بن معاوية الذي شغل حيزاً كبيراً من عقائدهم ، وسموا باسمه بعدئذ ، وثانيهما اعتقادهـم بالشيطان فلقد أجلّوه وعظموه لأنه في نظرهم أول الموحدين اذ لم يسجد لآدم من دون الله .

هكذا آل شأن الطائفة العدوية . فأصبحت مذهبا دينيا خاصا فكثر اتباعه كثرة غريبة وسموا أنفسهم اليزيدية ، وهددوا الناس ، فخشي بـدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل بأسهم ، فقاتلهم وهزمهم ، وأسر كثيرين منهـم وصلب منهم مائة ، وذبح مائة ، وأمر بتقطيع اعضائهم وعلقها علـى أبواب الموصل ، وأرسل من نبش قبر الشيخ عدي الكبير ، فأخرجت عظام جثته وأحرقت .

لم يعتقد اليزيدية بموت الشيخ حسن ، ولا بد أن يرجع وهـم ينتظرون خروجه من جديد ليوفوا نذورهم ، ويقدموا زكواتهم المتجمعة لديهم .

سببت هذه الكارثة هجرة آل عدي من الموصل الى الشام ومصر ، نذكر منهم زين الدين ابن أخي شرف الدين بن الحسن وابنه عز الدين أميران . أما زين الدين فقد وفد الى دمشق فأنعم عليه بإمرة كبيرة ، وأكرم غاية الاكرام ، لكنه عزف عن الامارة فتركها وانقطع في القرية التي نشأ فيها جده الاول عدي الكبير على هيئة الملوك ، فاقتنى الخيول المسومة واشترى الجواري الحسان ، وأكثر من الخدم والحشم وتأنق في الملبس والمشرب .

خلف عز الدين أباه بعد رحيله، فأصبح أميرا بدمشق ثم بصفد ثم عاد الى دمشق ثانية ، وبيّت في نفسه امرا فآثر العمل خفية ، وانسحب الى المزة بعد تركه الامرة لينظم جماعته الأكراد ، فوفدوا عليه من كل انحاء البلاد يحملون

(١) تيمور : اليزيدية ، ص ٥٩ .

اليه صفايا أموالهم غير ان معظمهم اخذ يبيع ما يملك بثمـن بخس ليشتري الخيل والسلاح وآلات الحرب استعدادا لليوم الموعود . أتم كل شيء ووعد سروات الاكراد بالنيابات الكبار وطلب الـى جماعته التجمع في أرض اللجون لئلا ُيكتشف أمرهم وُيفشى سرهم .

علم السلطان بأمرهم ، فأمسك الصوفية العدوية الذين كانوا في زاويتهم بالقاهرة(١) ، وطلب من تنكز نائبه ان يكشف أحوالهم ويبـين سبب تجمعهم هناك ، فقبض على عز الدين ، واودع الاعتقال حتى مات(٢) وقد اعترف له ان جماعته « يريدون ان ينفردوا بالمملكة(٣) » .

هكذا انقلبت الصوفية العدوية الى مذهب ديني ثم الى جماعة سياسية ولو نجح امرها لاحدثت انقلابا خطيرا في مجرى الحياة السياسية ، اذ تعود بذلك الخلافة الاموية لاحد أحفاد مروان بن الحكـم بتأييد القبائل الكردية . وغريب جدا ان يهمل مؤلف خطط الشام أمر اليزيدية ،وقـد اتضح لنا أنها كانت ذات أثر كبير في الحياة الدينية والسياسية على السواء .

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ١ ص ٤١٤ .
(٢) المقريزي : الخطط ، ج ٤ ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ .
(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ١ ص ٤١٤ .

القسم الثالث

أخلاق العصر

اختتم في حديثي عن أخلاق العصر المظاهر العامة للحياة الاجتماعية ولعلي قادر على تبيان الصورة العابثة للحياة العامة بعد أن رأينا صورتها الجدية . كان عماد الدين شديداً في حكمه لا يتهاون في أمر المنكرات فقد عرف أنه كان شديد الغيرة على نساء الأجناد ، وكان التعرض لهن من الذنوب التى لا تغتفر .

بدأ بعامله البرنطي الذي ولاه قلعة الجزيرة ، فبلغه عنه أنه يتعرض للحرم ، فأمر حاجبه صلاح الدين الباغسباني صاحب حماة ، ان ينهد اليه بفتنة ويعاقبه على فعله بقطع ذكره وقلع عينيه عقوبة له لنظره إلى الحرم ثم بصلبه ، ففعل صلاح الدين ما أمره به وكان ذلك عبرة للناس جميعاً (١) .

خلفه ابنه نور الدين ، وكان أشد تمسكاً من أبيه ، ويأمر بتحريم الخمر في جميع أنحاء البلاد ، ويمنع إدخالها ، وكان يحد شاربها الحد الشرعي لا يستثنى من الناس أحدا(٢) ، لكنه كان يشجع اللهو البريء الذي يهدف إلى القوه والصحة كالفتوة والرياضة والرمى وغير ذلك .

أما صلاح الدين فقد ذكر عنه أنه كان يشرب الخمر قبل أن يتولى الوزارة خلفاً لعمه أسد الدين شيركوه ، وقد اعترف بذلك قاضيه ابن

---

(١) ابن واصل : معرج الكروب ، ج ١ ص ١٠٥ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٦٤ .

شداد ، وأكد أنه تاب عن شرب الخمر بعد ان فوض الأمر اليه (١) ، وتسلطن واعرض عن أسباب اللهو والمجـون (٢) .

هـذه سيرة مشـاهير الملوك ، أمـا الناس فكانوا على ديـن ملوكهم ، يجهرون باللهو والمجـون إن آنسوا منهـم هوى في ذلك ؛ وكانوا يستترون إن وجـدوا شدة وقسـوة . وهكذا نجـد الخمـارات والمواخـير تنتشر في عهد ملك ثم تمنـع وتهدم في عهد آخر .

يضاف إلى ذلك أن فقراء المتصوفـة في بـلاد الشـام نشروا تعـاطى الحشيش بين النـاس ، وهال الظـاهر بيبرس ما رآه مـن انحلال خلقى بعد انتشـاره ، وما تبعـه من مفاسد اجتماعية في البلاد فأصدر أمراً في كل الأقاليم بهدم المواخير وإغلاق الحـانات وإهراق الخمور وحرق الحشيش ، طبق أمر الظـاهر بشـدة متناهيـة ؛ ويروي ابن إيـاس أنه أحضر ابن الكازروني وهـو سكران ، فـأمر السلطـان بصلبـه وعلق الجرة والقـدح في عنقـه(٣) .

لم تمنـع هذه الشدة المتناهية انتشار الحشيش وفضله كثير من الناس على الخمر لرخص أثمـانه ، وتغنى به الأدباء والشعراء ، ونسبوه إلى مكتشفه الشيخ حيـدر .

وجدير بالـذكر أن الـذي زاد من سرعـة انتشاره عـدم ورود نص صريح عن تحريمه ، فـلا عجب ان رأينا بعض القضاة المتأخرين يجيز أكل الحشيش كما أفتى بذلك القاضي جمال الدين الحلبي (٤)

شهدنـا في هـذا العصر المناظرات الدينية التي كانت تجري بين المسلمين والنصـارى ، وكان صاحب أرنـون يشترك في هـذه المناظرات ، ويروي ابن شداد في كتابه النوادر السلطانية بعض هذه المناظرات (٥)

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٥ وابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص١٦٨ .
(٢) الذهبي : سير النبلاء (مصورة) ، ج ١٣ ، ل ٦٣ .
(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ١٠٥ .
(٤) ابن حجر : رفع الاصر (مخطوط) و ٢٧٩ .
(٥) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٨٠ .

ثمـة مظهر آخر مـن مظاهر الأخـلاق وهو أنتشـار الزندقـة بسبب الاحـتكاك بـين الدين والفلسفـات الأخرى . وقد تأثرت بها الفرق الإسلامية المختلفة ، السنة منها والشيعية . فادت بالتالي الى ظهور جيل من الحكماء الذين فسـدت عقائدهم ، وتهاونوا بالأديـان السماوية ، وكانوا في حرب شعواء معهـا . تهاون بعض السلاطين بأمر الزندقـة ، فتركوا الناس حرية الرأي والاعتقـاد ، وشدد بعضهم الآخر ، ومن هؤلاء صلاح الدين الـذى كان يبغض الفلاسفـة والمعطلـة ، فقد ظهر في عصره الفيلسوف السهروردي وكان على خلاف مع رجال الدين ، فشـددوا النكير عليـه ، وأفتوا بإباحة دمـه ، غير أن صاحب حلب الظاهر غازي أبى قتلـه ، فبعث إليه والده صلاح الدين يأمره بذلك ، ويلومـه على إبطائه ، فأمر بخنقه في قلعـة حلب سنة ٥٨٧ هـ (١)

لا بـد لنا من بيـان سبب قتلـه ، فقـد قال له العلماء : إنك قلت في بعض كتبك : إن الله قادر على أن يبعث نبياً ، وهذا مستحيل ، فقـال : « وما وجه استحالته ؟ إن الله لا يمتنع عليه شيء » (٢) .

كثر مريدوه وتبعـه جماعة كثيرة ، وخاف الفقهـاء الفتنة بين الناس ، ولا سيمـا أن البلاد تجابه أخطارا خارجية كبرى ، فأفتوا بقتله مخافة أن يدعى النبـوة ، إذ كـان يقول لا بد أن أملـك الأرض ، وهـو صـاحب القصيـدة :

أبدا تحـنُّ إليـكمُ الأرواحُ	ووصالكم ريحـانها والراحُ
وقلوب أهل ودادكم تشتاقكم	وإلى كمـال جمالكم ترتاحُ

يضـاف الى ذلـك انتشار الاباحيـة . بشكل واسـع إذ لم نعهـد لهـا مثيلاً مـن قبل ، على الرغم من تشـدد رجال الدين ومحاولة السلاطين القضاء على هذه الظاهرة الاجتماعيـة الخطيرة بفرض عقوبـة الموت ، ولهذا السبب كان الإباحيون يتخـذون التصوف جنة ، ويتسترون في مجونهم بلبوسـه .

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٨ .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ١١٤ .

وقد اشار إلى ذلك ابن الجوزي في معرض حديثه عن الصوفية الملامتية السابق ذكرها ، فذكر أنه « قد اندس في الصوفية أهل الإباحة ، فتشبهوا بهم حفظاً لدمائهم »(١) .

* * *

يبقى علينا بعد هذا العرض لمظاهر الحياة الدينية العامة أن نختتمها بذكر الأعياد التي كانت تقام في مختلف المناسبات الدينية والاجتماعية ، كعيدي الفطر والأضحى ، والابتهاج بإقامة الموالد النبوية ، وكانت هذه الاحتفالات تفوق حد الوصف والتصوير ، إذ كان السلاطين يبذلون في سبيل إحيائها الأموال الكثيرة ، ويمدون فيها الأسمطة للفقراء والمساكين ويوزعون عليهم الحلوى وغيرها ، وينثرون فيها الدراهم والدنانير .

نضيف إلى هذه الأعياد مشاركة الناس الطوائف الدينية الأخرى في أعيادها ، فقد ذكر أسامة في اعتباره أن بني منقذ كانوا ينزلون من حصن شيزر للتفرج على النصارى في عيد الفصح(٢) .

يضاف إلى ما تقدم احتفال بعض الناس بعيد النيروز ، وهو عيد تحتفل به الطائفة النصيرية العلوية ، وقد أخذته من الأعياد الفارسية ، وأصبح أحد أعيادها الدينية .

---

(١) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ، ص ٣٦٣ .
(٢) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٢٥ .

الفصل الثالث

التيارات الفكرية والعقلية

يبقى علينا الآن أن نعرض لبواعث النهضة العلمية والتيارات الفكرية والعقلية في هذا العصر الذي نؤرخه ، ونتحدث عن إنشاء المدارس وإقامة دور العلم ، ثم نلقي بعض الضوء على اتجاهات الثقافة العامة ، ونختم هذا الفصل بالتحدث عن المشاهير الأعلام في كل ناحية من نواحيها وأبرز آثارهم التي خلفوها .

..

القسم الأول

ازدهار النهضة العلمية

ازدهرت النهضة العلمية في بلاد الشام منذ العصور الإسلامية الأولى ، وقد قدمت أرض الأنبياء أعلام الدين ونوابغ الفكر وأساطين العلم في ظل الحضارة الاسلامية والثقافة العربية ، لكنها ما لبثت بعد ذلك حتى خيم عليها ركود موقت في أواخر القرن الخامس الهجري ، ولكن لم يطل ليله حتى تبلجت انوار نهضة كبرى على الرغم من الصراع الضاري مع الغرب الصليبي والشرق التتري .

زار ابن جبير بلاد الشام في طريق عودته إلى الأندلس بعد أداء

فريضة الحج في أواخر القرن السادس الهجري سنة ٥٨٠ هـ ، فشكا من كثرة فرقها الدينية المنتشرة آنئذ ، غير أنه أعجب كل الإعجاب عندما دخل دمشق ، فتحدث عن نهضتها العلمية ، ودهش من كثرة مساجدها ودور العلم فيها ، وفضلها على بلاد المشرق عامة ، وأوصى نشأة المغرب قصدها والنهل من علومها ومعارفها ، ومما قاله : « ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الإحصاء ، ولا سيما لحفاظ كتاب الله عز وجل ، والمنتمين للطلب فالشأن بهذه البلدة أكثر ، والاتساع أجود ، فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرجع إلى هذه البلاد ويتغرب في طلب العلم ، فيجد الأمور المعينات كثيرة(١) » .

ازدهرت هذه النهضة في عصر الزنكيين ، ولا سيما في دولة نور الدين الذي كان أول من أنشأ داراً للحديث في الإسلام ، وكان أول من عمم المدارس في أمهات بلاد الشام وعواصمه الثلاث : حلب في الشمال ، ودمشق في الوسط ، والقدس في الجنوب ، بَلْهَ الحواضر الاخرى كحماة وحمص وبعلبك وطرابلس وغيرها .

هذه صورة عابرة تمثل النهضة العلمية في إطاري زمانها ومكانها . اما عوامل بعثها فكثيرة يمكن حصرها في سبيلين اثنين : عوامل خارجية وعوامل داخلية .

اما العوامل الخارجية فقد بدأت عندما نكبت الحضارة الإسلامية في بغداد ، وطغى عليها سيل التتار الجارف ، فأتى على مشرق العالم الإسلامي ، فنكبت دار الخلافة ، ودخلها هولاكو ، واستباحها خلال بضعة وثلاثين يوماً سنة ٦٥٦ هـ وكثر عدد الضحايا ، فما احصاهم عد . لم يكتف بذلك ، بل جمع العلماء والفقهاء والأعيان زاعماً انه يريد عقد قران ابنة الخليفة ، فقتلهم عن آخرهم . نذكر منهم الأستادار محيي الدين ابن الجوزي الذي صرع مع أولاده الثلاثة والشيخ يحيى بن يوسف الصرصري

---

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

الضرير الشاعر وغيرهم كثير(١) .

لم يكتف التتار بما ارتكبوا من جرائم بل تطاولوا إلى قصور الخلفاء ، فأحرقوا ما فيها من كتب نفيسة ، وروى عنهم أنهم بنوا بها بأمر هولاكو نفسه جسراً من الماء والطين عوضاً عن الآجر(٢) .

أما فلول العلماء المهاجرين الذين نجوا بأرواحهم فولوا وجوههم شطر مصر والشام ليسهموا في النهضة العلمية المقبلة .

وهنالك في المغرب كارثة أخرى بدأت تحل بالعرب ، ذلك أن الأندلس العربية انقسمت الى دويلات ، وضعف أمرها ، فاحتل العدو كثيراً من بلدانها . وفي كل مره تهاجر أفواج جديدة من العلماء إلى دمشق والقاهرة ، نذكر منهم مثلا ابن مالك وابن دحية وابن حيان .

نخلص إلى القول إن العلماء المهاجرين من مشرق العالم الإسلامى ومغربه وجدوا في الشام ومصر الملاذ الأمين ، فأقاموا فيهما يستفيدون ويفيدون ، فنبه شأن بعضهم ، وأصبحوا كعبة القصاد ، نذكر منهم مثلاً قاضي قضاة دمشق ابن خلكان ، وإمام المحدثين بمصر صدر الدين البكري . كما أشار ابن جبير حينما زار المسجد الجامع بدمشق إلى أنه رأى فقيهاً مشهوراً من أهل إشبيلية يعرف بالمرادي ، كان يستند إلى سارية من سواريه ، لها وقف معلوم يأخذه المستند إليها للتدريس والمذاكرة(٣) .

وأما العوامل الداخلية التي أسهمت بدورها في هذه النهضة العلمية فنذكر منها بصورة خاصة تشجيع الطبقة الحاكمة من الملوك والأمراء .

شجع الزنكيون العلم والعلماء . فلم نعرف في التاريخ العربي ببلاد الشام عصرا كثرت فيه المساجد ودور العلم كهذا العصر ، ولم نعرف في التاريخ الاسلامي من سبق نور الدين بإنشاء دار خاصة لدراسة الحديث النبوي الشريف .

---

(١) ابن تغرى بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٥١ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) رحلة ابن جبير ، ص ٢٢٢ .

كـان أهل العلم عنـده بمنزلة ساميـة ، يكرمهم ويحسن إليهم ، ويمنع أذى النـاس عنهم . تحدث ابن واصل فذكر أنهم كانوا عنده في محـل عظيـم ، وأنه كان يجمعهم عنـده للبحث والنظـر ، واستقدمهم إليـه من البلاد الشاسعة(١) . كمـا أنه كفاهم مؤنـة عيشهم فأجرى عليهم الإدرارات الكثيرة والصلات العظيمة(٢) .

شجـع الأيوبيون كأسلافهم العلم والعلماء أيضاً ، فلم يكن صـلاح الدين بأقل من سابقه حدباً عليهم . ذكر قـاضي عسكره بهـاء الدين بن شـداد انه كـان يكرم من يرد عليـه من المشايـخ وأرباب العلم والفضـل وذوي الأقدار ، وكان يوصينـا بأن لا نغفل عمن يجتـاز بالخيم من المشايخ المعروفين حتى يحضرهم عنده ، وينالهم إحسانه(٣) .

يوضح هذا الأمر أيضـا ما جـاء في كتـاب بعث بـه إليـه القـاضي الفاضل : « ومـا يجب أن يعلم المولى أن أرزاق أرباب العمائم في دولتـه إقطاعـاً وراتباً يتجاوز مائتي ألف دينـار بشهادة الله ، وربما كانت ثلاثمائة ألف دينـار(٤) » .

لم يكن اهتمام سائر ملوك الأيوبيين دون صلاح الدين . فقـد عرف عن الملك المنصور الأول صاحب حماة انه كان من كبـار العلمـاء ، وكان في خدمته من العلماء والفقهاء والنحاة وغيرهم قريب من مائتي متعمم (٥) .

وجاء سـلاطين المماليـك ، فأظهروا عطفاً كبيراً على الـدين وغيرة على رجاله . كما كانوا يبـالغون في الاكثـار من انشاء المـدارس ودور العـلم ، ويتوخون من إقامتها جعلها مثوى لهم بعد موتهم .

هكذا كانت بلاد الشـام في هذا العصر تنشر من مسجدهـا الجامع مع الجامع الأزهر في القاهرة أنوار المعرفة على العالم قاطبـة في وقت كان الجهل يخيم على العالم الغربي كله .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٣٦ .
(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٥ .
(٤) كرد علي : خطط الشام ، ج ٤ ص ٣٩ .
(٥) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

القسم الثاني

دور العلم والمساجد

لا شك أن المساجد كانت دور المعرفة والعلم منذ فجر الإسلام في بلاد الشام والعالم الإسلامى كله ، واستمرت تسهم بنصيب وافر في ازدهار النهضة الفكرية حتى نهاية القرن الرابع الهجري تقريباً ، وبدأت تقوم إلى جانبها أو بعيدا عنها مدارس خاصة لها نظامها وأوقافها وفقهاؤها ومدرسوها ومعيدوها .

كان السلاجقة والفاطميين فضل السبق في إنشائها فقد عرف عن قاضي طرابلس الفاطمى الحسن بن عمار أنه أنشأ مدرسة جامعة على مثال دار الحكمة التي أنشأها الحاكم بأمر الله الفاطمي في القاهرة سنة ٤٠٠ هـ .

كما ان السلاجقة بدورهم ساروا من قبل على سنة وزيرهم نظام الملك فبنوا أيضاً المدارس ، وقد عرف عن الملك ألب أرسلان أنه اذا وجد عالماً جليلا شيد له مدرسة تقديراً لعلمه ، وأجرى عليها وقفاً لسد خلة المدرسين والمنتمين للطلب . حتى إذا جاء القرن الخامس رأينا رشأ بن نظيف بن ما شاء الله أبا الحسن الدمشقى يقيم مدرسة خاصة لتعليم القرآن الكريم سنة ٤٤٤ هـ أسماها المدرسة الرشائية (١) .

حكم الزنكيون بلاد الشام ، فكثرت فيها دور العلم ، وقد عرف نور

---

(١) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ص ١١ .

الدين أنه كان لا يتصرف في شيء من هدايا الملوك الكثيرة ، بل كان إذا اجتمع منها شيء يصرفه ويخرجه إلى مجلس القاضي ، فيحصل ثمنه وينفق في عمارة المساجد المهجورة (١) .

لم يقتصر اهتمامه على بيوت الله وإنما تجاوزه الى إنشاء المدارس المنظمة التي كثرت في هذا العصر كثرة غريبة ، فاستدعى من سنجار شرف الدين بن أبي عصرون ، أحد أعيان عصره ، وبنى له المدارس بحلب وحماة وحمص وبعلبك (٢) ، وفوض إليه أن يولي فيها التدريس من يشاء ولم يكتف شرف الدين بما شيده نور الدين ، وإنما أنشأ أيضاً مدرستين اولاهمابحلب، واخراهما في دمشق (٣) .

كما اهتم نور الدين بالحديث الشريف ، فانشأ مدارس خاصة به ، ولم يعرف التاريخ من سبقه إلى ذلك ، وسميت باسمه ، نذكر منها النورية الكبرى والنورية الصغرى .

اما النورية الكبرى فقد وقف عليها وعلى من بها من المشتغلين بالحديث وقوفاً كثيرة ، وولى مشيختها إمام المحدثين في زمانه الحافظ ابا القاسم علي بن عساكر .

وصف ابن جبير هذه المدرسة خلال زيارته دمشق فذكر أنها قصر من القصور الأنيقة ، ومن أحسن مدارس الدنيا منظراً (٤) .

وأما النورية الصغرى (٥) فكانت خاصة بالحنفية ، وتقع بجانب القلعة ، وقد درس فيها بهاء الدين عياك .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٢٨١ .
(٢) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ص ٤٠١ .
(٣) المصدر السابق : ج ١ ص ١١ .
(٤) رحلة ابن جبير ، ص ٣٣٣ .
(٥) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ص ٦٤٨ .

وفي حماة أنشأ مدرستين : الأولى للحنفية والأخرى للشافعية (١) ، كما بنى فيها جامعا على ضفة العاصي . والحق به بيمارستانا خاصاً . وجدير بالذكر أن الداخل فيه شاهد في أعلى بابه قطعة حجرية ضخمة نقش عليها أن أحد الملوك وقف على طلبة العلم خمسة عشر ألف درهم في كل عام استجلاباً لأدعيتهم وإعانة لهم على طلب العلم (٢) .

اسهم نواب الزنكيين أيضا في بناء المدارس ، فقد عرف عن اتابك عسكر دمشق أمين الدين كمشتكين ، ونائب قلعة بصرى وقلعة صرخد انه انشأ المدرسة الأمينية وهى أول مدرسة للشافعية في دمشق (٣) .

اسهم الأيوبيون بدورهم في الاهتمام بدور العلم ، وقد أشار إلى ذلك الرحالة الأندلسي ابن جبير فذكر انه رأى بدمشق عندما زارها عشرين مدرسة ومارستانين ، بله المساجد الكثيرة ، تقوم بالإنفاق على من يؤمها طلباً للعلم من الأوقاف الكبيرة .

كما ذكر الرحالة المذكور أنه كان « للصبيان على قراءتهم جراية معلومة ، فأهل الجده من آبائهم ينزهون أبناءهم عن أخذها، وسائرهم يأخذونها ، وهذا من المفاخر الإسلامية (٤) » .

اسس صلاح الدين المدارس الكثيرة في الشام ومصر ، نذكر مثلا المدرسة الصلاحية التي انشأها في القدس الشريف ، وهي غير المدرسة الصلاحية القاهرية التى أنشأها بجوار ضريح الإمام الشافعي ، وقد سماها السيوطى بتاج المدارس .

وأسس أيضاً أخوه أسد الدين شيركوه مدرسة في دمشق للحنفية

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٢٨٢ .
(٢) كرد علي : خطط الشام ، ج ٦ ص ١٢٧ .
(٣) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ص ١٧٨ .
(٤) رحلة ابن جبير ، ص ٢٢٢ .

والشافعية ، وهي في الشرف القبلي ظاهر دمشق (١). كما أن المظفر تقي الدين عمر أسهم في إنشاء دور العلم ، فقد عرف عنه أنه عندما كان في القاهرة اشترى منازل المعز وجعلها مدارس للشافعية كما رأينا ، وفعل مثل ذلك لما عاد إلى الشام فأنشأ المدرسة التقوية ، وهي من أجمل مدارس دمشق داخل باب الفراديس ، وكانت تسمى نظامية الشام (٢) ، وله في حماة مدرسة هائلة ــ كما يقول النعيمي ــ دعيت باسم المدرسة المظفرية (٣) ، وقد تم بناؤها بعد أن أصبح ملكاً عليها .

سار خلفاء صلاح الدين على سنته ، فعرف عن ابنه الملك الظاهر صاحب حلب أنه عمرت في أيامه المدارس الكثيرة ، منها الظاهرية البرانية (٤) التي أنشأها بدمشق سنة ٦١٣ هـ . وجدير بالذكر أنه سمع بالإسكندرية من ابن عوف ، وبمصر من ابن برّي وبدمشق من الفضل البانياسي ، وحدث بحلب قبل أن يلي سلطنتها ثلاثين عاماً .

أجرى الظاهر الأوقاف الكثيرة على المدارس ، فعندما أنشأ قاضيه ابن شداد المدرسة الصاحبية قرر لها إقطاعاً جيداً ، واستدعى الفقهاء من كل الأمصار ليجعل حلب الشهباء كعبة العلم والعلماء .

وجاء الملك العادل فأسس المدارس الكثيرة ، نذكر منها العادلية الكبرى والعادلية الصغرى . أما العادلية الكبرى فيذكر ابن شداد أن نور الدين أول من أنشأها ، وتوفي ولم تتم ، ثم بنى بعضها الملك العادل سيف الدين ، وتوفي ولم تتم ، فأتمها ولده الملك المعظم ، وأوقف عليها الأوقاف . غير ان النعيمي يخالف رأي ابن شداد ، ويقول : « رأيت أنا ما كان بناه نور الدين وما بعده منها ، وهو موضع المسجد والمحراب الآن ، ثم لما بناه الملك العادل أزال تلك العمارة ، وبناها هذا البناء المتقن

---

(١) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ص ١٥٢ ، ٢٧٣ .
(٢) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ص ٢١٦ .
(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢١٦ .
(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٤٠ .

المحكم الذي لا نظير له في بنيـان المدارس (١) » . ويعلق النعيمي بعـد ذلك مشيراً إلى مكان جمعه كتابه (الدارس في تاريخ المدارس) (٢) .

أما العادلية الصغرى فقد أنشأها ابنته زهرة خانون ، وشرطت للمدرسة مدرساً ومعيداً وإماما ومؤذناً وبواباً وقيما وعشـرين فقيهـا ، ووقفت الجهات المذكورة . . . منها ما هو على مصالح المدرسة ومصارفها (٣) .

انشأ الملك المعظم ابن الملك العادل للحنفية المدرسة المعظميـة (٤) لأنـه يشتغل على مذهب ابى حنيفة وهو اديب فقيـه ، يحفظ القرآن . وقـد سمع المسند كله لابن حنبل ، وشرح الجامع الكبير في عـدة مجلدات ، وأول من درس في هذه المدرسة مجد الدين قاضي الطور .

وإذا كان نور الدين رائد المهتمين بالحديث النبوي في العصر الزنكى فإن الأشرف موسى بن العادل رائدهم في العصر الأيوبى ، إذ اسس مدرستـين كبيرتين خاصتين بدراسة الحديث النبوي وهما دار الحـديث الأشرفيـة الجوانية ، ودار الحديث الأشرفية البرانية .

أما الأولى فكانت في الأصـل دار الامير صـارم الدين قايمـاز بن عبـد الله النجمي ، فاشتراها الملك الأشرف وجعلها دار حديث ، وكان إلى جانبها حمام ، فخربه وبنـاه مسكناً للشيخ المدرس بها . وتم بناؤهـا . سنـة ٦٣٠ هـ وافتتحت ليـلة النصف من شعبـان ، وأملى بها الشيخ تقي الدين ابن الصلاح الحديث ، وقد جعل بها نعل النبي صلى الله عليه وسلم ، وجلس في هذه السنة يسمع صحيح البخاري .

درس في هذه المدرسة كبار علماء الشـام من محدثين وغيرهم مثل ابن الحرستاني ، وأبي شـامة المقدسي ، والنواوي ، وابن الوكيـل ، وابـن

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٥٩ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٥٩ .
(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٦٨ .
(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٥٨٥ .

الزملكاني ، والحافظ المزي ، والسبكي ، وابن كثير (١) .

وأما الثانية فكانت بسفح جبل قاسيون على حافة نهر يزيد . بناها أيضاً الملك الأشرف للحافظ جمال الدين المقدسي المتوفى سنة ٦٥٩ هـ ، وجعله شيخها ، وقرر له معلوما ، فمات قبل الفراغ من بنائها وأول من درس بها القاضي شمس الدين بن أبي عمر (٢) .

وجاء الملك الناصر يوسف بن العزيز ، وملك دمشق وحلب ، وقد اسس دار الحديث الناصرية (٣) ، والمدرسة الناصرية الجوانية ، وهي داخل باب الفراديس شمال الجامع الاموي . تم الفراغ من بنائها سنة ٦٥٣ هـ ، وأول من درس بها قاضي القضاة صدر الدين بن سني الدولة ، ثم ابنه نجم الدين ، ثم القاضي شمس الدين بن خلكان ، ثم الشيخ شمس الدين الفارقي (٤) .

لم يقتصر الاهتمام ببناء المدارس ودور الحديث على الملوك الأيوبيين ، وإنما تعداهم إلى نسائهم من الأميرات الخواتين . ذكر الرحالة الأندلسي ابن جبير ذلك فقال : « ومن الخواتين ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة ، وتنفق فيها الأموال الواسعة ، وتعين لها من مالها الأوقاف (٥) » .

نذكر من الخواتين الأيوبيات ست الشام الخاتون اخت الناصر صلاح الدين التي أنشأت مدرستين للشافعية ، وهى الشامية البرانية والشامية الجوانية .

وأما الشامية الجوانية ففيها توفيت ست الشام ونقلت إلى تربتها في

---

(١) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ص ١٩ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٩ .
(٣) المصدر السابق ح ١ ص ١١٥ .
(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٥٩ .
(٥) رحلة ابن جبير ، ص ٢٢٥ .

وأكثرها أوقافاً (١) ، وقد شرطت في وقفها الا يجمع المدرس بينها وبين غيرها ، وكان أول من درس فيها سنة ٦١٥ هـ شرف الدين عبد الله بن على القرشي الدمشقي .

وأما الشامية الجوانية ففيها بوفيت ست الشام ونقلت الى تربتها في الشامية البرانية ، وكانت قد وقفت بعض أوقافها على الفقهاء المنتفلين بها ، وعلى المدرسين فيها ، وشرطت أن يكونوا من أهل الخير والعفاف والسنة ، غير منسوبين إلى شر أو بدعة (٢) ، وشرطت ألا يزيد عدد الفقهاء والمتفقهة بهذه المدرسة على عشرين رجلا من جملتهم معيدها وإمامها ، وذلك خارج عن المدرس والمؤذن والقيم (٣) .

نذكر من هؤلاء الخواتين ايضا من غير الأيوبيات زمرد خاتون ابنة الأمير جاولي وزوج تاج الملوك بوري ، وكانت تحفظ القرآن ، وتروي الحديث ، وتنسخ الكتب . وقد بنت المدرسة الخاتونية البرانية للحنفية بصنعاء الشام ، وهو مكان يطل على وادى الشقراء ، وهي من كبار مدارسهم وأجودها معلوماً (٤) .

اما المدرسة الخاتونية الجوانية ، فهى بمحلة حجر الذهب ، أنشأنها الخاتون عصمة الدين بنت الأمير معين الدين أنر زوج نور الدين ثم صلاح الدين من بعده ، وكانت مدرستها خاصة بالحنفية كسابقتها (٥) .

أما رابعة الأميرات الخوأتين فهى مؤنسة خاتون بنت الملك المظفر صاحب حماة ، وقد أنشأت فيها مدرستها الخاصة بها ، ووقفت عليها وقفاً جيداً وكتباً كثيرة (٦) .

---

(١) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ص ٢٧٧ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٠٢ .
(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٠٣ .
(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٥٠٣ .
(٥) المصدر السابق ، ج ١ ص ٥٠٧ .
(٦) كرد علي : خطط الشام ، ج ١ ص ٢٦٥ ـ ٢٦٧ .

نترك الملوك الأيوبيين لنقف قليلا عند بعض العلماء والتجار الذين أسهموا بدورهم في بناء المدارس ، ونذكر منهم زكي الدين بن رواحة الحموى التاجر المعدل ، وقد أنشأ مدرستين كبيرتين للشافعية : إحداهما في دمشق والاخرى في حلب، وشرط الا يدخل مدرسته يهودي ولا نصراني ولا حنبلي حشوي(١)، وأول من درس فيها القاضي شرف الدين أبو طالب عبد الله بن أبي بكر القرشي الدمشقي .

جاء عصر سلاطين المماليك ، وتنافسوا كسابقيهم في إنشاء المدارس في دمشق فازدادت زيادة كبيرة ، حتى إن الرحالة ابن بطوطة عجب من وفرتها ، وذكر انه لا يحيط أحد بحصرها لكثرتها (٢) ، وقال القلقشندي : إن هؤلاء السلاطين بنوا من المدارس ما ملأ الأخطاط وشحنها (٣) » .

نذكر منهم الظاهر بيبرس الذي انشأ المدرسة الظاهرية الجوانية لتكون تربة له ، وكانت من قبل دار العقيقي مسكن نجم الدين أيوب والد الملوك الأيوبيين ، فاشتراها وبناها مدرسة ودار حديث سنة ٦٧٠ هـ ، واستغرق بناؤها سبع سنين ولم تتم ، وابتدأ التدريس فيها قبل تمامه للحنفية والشافعية ،وحضر درسها الاول يوم افتتاحها نائب السلطنة في دمشق أيدمر الظاهري ، ومعه العلماء والقضاة . وأول من درس فيها من الحنفية الشيخ صدر الدين بن سليمان ، ومن الشافعية الشيخ رشيد الدين الفارقي . امر باكمال هذه المدرسة بعد وفاة مؤسسها الظاهر المنصور قلاوون (٤) .

اكتفينا في حديثنا عن المدارس في العصر الايوبي بذكر التاجر الحموي المعدل ابن رواحه ، ونكتفي في حديثا عن العصر المملوكي بذكر العالم المحدث الأمير علم الدين سنجر ، أحد نجباء الأتراك وأمرائهم ، وله مشاركة

---

(١) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ص ٢٦٥ — ٢٦٧ .
(٢) رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ص ٧٠ .
(٣) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٣ ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ .
(٤) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ص ٣٥١ ، ٥٤٣ .

جبدة في الفقه والحدبث ، وقد وقف رواقه داخل باب الفرج دار حـديث ومدرسة . وولى مشيختهـا علاء الدبن بن العطار ، وعند افتتاحها حضـر عنده القضاة والأعيان وعمل لهم ضيافة (١) .

امتاز هذا العصر بظهور مدارس للطب ، وقـد سبقت بلاد الشـام غيرها في هذا المضمار ، نذكر منها مثلا المدرسة الدخوارية (٢) ، الواقعة قبلي الجامع الاموي . أنشأها مهذب الدبن عبد الرحيم بن حامد المعروف بالدخوار سنة ٦٣١ هـ ، والمدرسة اللبودية النجمية (٣) ، وقـد أنشأها نجم الدبن يحيى بن محمد بن اللبودي سنة ٦٤٤ هـ ، والمدرسة الدنيسرية (٤) الواقعـة غربي البيمارستان النوري ، وقد أنشأهـا عماد الدين أبو عبـد الله محمد بن عباس الربعي الرئيس الطبيب الحاذق ، وقد سميت هذه المدرسـة باسم المدينة التى ولد فيها وهى دنيسر .

نلاحظ أن الفضل في إنشـاء المدارس الطبية يرجع إلى الأطباء أنفسهم ، وكانت تمد البيمارستانات الكثرة بمن تخرجه من طلبتهـا ، أما السلاطين فقد أكثروا بدورهم من هذه المشافي العامة ، نخص بالذكر منهم نور الدين والمنصور قلاوون وغيرهما .

* * *

يحسن بنا بعـد هذا العرض المسهب لدور العلم أن نتحدث عن النظام المتبع فيها ، وكان كثير منها لا يقل عن الجامعـات المعروفة في عصرنا من حيث نظام الدراسة وهيئة التدريس ، فان لكل مدرسة مدرسيها ومعيديها وإمامها ومؤذنها وخادمها وقيمها بالإضافة إلى طلابها الذين كانوا يدعون بالمتفقهـة . وقد رأينا تفصيل ذلك في وقف المدرسة العادلية الصغرى ، ورأينا طريقـة توزيع الوقف على المستحقين .

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٦٥ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٦٥ .
(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٣٥ .
(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٣٢ .

أما رأس هذه المدرسة فكان الشيخ الذي رسم السلطـان أو من ينوب عنـه بتعيينـه ، وكان عـادة من اقـدم المدرسـين وارسخهـم في العـلم والدين .

قد يكون من المناسب هنـا أن نذكـر الفرق بين المـدرس والمعيـد ، ولكن تاج الدين السبكـي كفـانا مؤنة الحديث عن المدارس فقال : « وحق عليه أن يحسن إلقـاء الدروس وتفهيمه للحاضرين ، ثم إن كانوا مبتدئـين فلا يلقى عليهم ما لا يناسبهم من المشكلات ، بل يدرسهم ويأخذهم بالأهون فالأهون ، إلى أن ينتهوا إلى درجة التحقيق (١) .

ثم تطرق الى المعيد فقـال : « المعيد عليه قدر زائد من سماع الدرس : من تفهيم بعض الطلبة ، ونفعهم ، وعمل ما يقتضيه لفظ الإعادة وإلا فهـو والفقيه سواء (٢) » .

أما الطلبة المتفقهة فكان عددهم في معظم الاحيان محدودا بحسب شرط الواقف ، كما مر معنا في المدرسة العادلية الصغرى . وينقسـم الطلاب الى اقسام بحسب قدمهم في الدراسة والاختصاص ، فمنهم الفقيه المفيد ، وعليه أن يعتمد ما يحصل فيه بالدرس فائدة من بحث زائد علـى بحث الجماعة ، ولعله يعادل في نظمنا طالب الماجستير ، ومنهم الفقيه المنتهى ، وعليه من البحث والمناظرة فوق ما على من دونه كطالب الدكتوراه الآن .

أما سائر الطلاب فهم الجماعة العامة ، وهم فوق بعض درجات ، يتلقون مختلف العلوم الدينية وغيرها من العلوم اللغوية والتاريخية والجدلية .

ننتقل الى طريقة تعليم الصبيان المبتدئين ، وهي تختلف في المشرق عنها في المغرب ، كما لاحظ ذلك الرحالة الاندلسي ابن جبير ، فتحدث عنها بالتفصيل خلال زيارته الجامع الاموي ، ورؤيته الحلقات الكثيرة فيـه ، لا تنقطع ليل نهار ، ومما قاله : « وفي هذا الجامع مجتمع عظيم كل يوم إثر صـلاة الصبح

---

(١) السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ١٠٥ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٥ .

لقراءة القرآن دائما ، ومثله إثر صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية . يقرؤون فيها من سورة الكوثر الى الخاتمة . ويحضر في هذا المجتمع الكوثري كل من لا يجيد حفظ القرآن وللمجتمعين على ذلك إجراء كل يوم ، يعيش فيه أكثر من خمسمائة إنسان . وعند فراغ المجتمع السبعى من القراءة صباحا يستند كل إنسان منهم الى ساريه . ويجلس أمامه صبى يلقنه القرآن ، وللصبيان على قراءتهم جراية معلومة . وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها إنما هو تلقين ، ويعلّمون الخط في الاشعار وغيرها ، تنزيها لكتاب الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالاثبات والمحو . وقد يكون في أكثر البلاد الملقن على حدة ، فينفصل من التلقين الى التكتيب ، لهم في ذلك سيره حسنة . ولذلك ما يتأتى لهم حسن الخط ، لأن المعلم له لا يشتغل بغيره ، فهو يستفرغ جهده في التعليم ، والصبى في التعلم كذلك ، ويسهل عليه لأنه بتصوير يحذو حذوه(١) » .

هذا القول غنى عن كل بيان ، ففيه الغناء ، والقول الوافي ، إذ يعرض لنا طرق أهل المشرق بعامه ، والشام بخاصة في التعليم . يبدؤون بالقرآن تلاوة وبالشعر حفظا وخطا .

تلك هي الثقافة العامة في هذا العصر ، يتدرج الطالب في مراحل تعلمه حتى يصبح فيها منتهيا ، ويختص بعلم من العلوم التي يؤثرها ، وينال إجازته العلمية ويشهد المدرس لطالبه أنه أتم دراسته ، وأصبح أهلا للتدريس والفتوى ، ويمنحه الاجازة العلمية ، فيذكر فيها اسم الطالب وشيخه المجيز ومذهبه وتاريخ الإجازة وغير ذلك .

نشير الى أنواع أخرى من الإجازات العلمية عرفها أبناء هذا العصر منها الإجازة بعراضة الكتب(٢) ، فيحفظ الطالب كتابا في الفقه أو الحديث او الادب أو النحو أو التاريخ ، ثم يعرضه على مدرسه فيختبره فيه في عدة أماكن من الكتاب ، فاذا أحسن الاجابة ولم يخطىء فيه كتب له الإجازة في ذلك ، وقال فيها : « عرض علي فلان .... » ، أو « عرض على وكتبه فلان » ، وتتوقف قيمة الإجازة على شهرة الأستاذ المجيز .

---

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٢٢٢ .

(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٤ ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

القسم الثالث

نواحي الثقافة العامة

نشطت الحركة الثقافية في هذا العصر نشاطاً ملحوظاً ، ويضيق بنا البحث لو حاولنا الإلمام بكل الاتجاهات العامة . ولا نعرف في تاريخ الحضارة الإسلامية عصر خصب ثقافي ، ونضج فكري ، وغزارة في التأليف والتصنيف كمثل ما نشاهده في هذا العصر الذي نؤرخه .

والغريب حقا أن تبقى الدراسات الأدبية حوله نزرة ، والمؤسف أن تهمل آثاره المخطوطة ، إذ لا يزال معظمها في زوايا النسيان ينتظر الحانية التى تنفض عنه الغبار المتراكم على توالي السنين .

ظهر التخصص في التأليف عند الكتاب ، ومرد ذلك النضج في التفكير ، والتعمق في الأبحاث ، مما دفع السيوطى الى تصنيف العلماء ضمن زمر خاصة بحسب العلوم التي يغلب عليهم فيها التأليف . ذكر فقهاء المذاهب الأربعة ، وخص كل مذهب بجماعة ، وذكر المحدثين ونقاد الحديث ، وائمة القراءات وائمة اللغة والنحو والصرف ، وأرباب المعقولات وأشهر المؤرخين والنابهين من الأدباء والشعراء .

سنحاول في هذه الدراسة أن نلم بشتى نواحي الثقافة العامة ، ونذكر أبرز

ما ألف في علوم اللغة العربية ، والعلوم الاجتماعية والتاريخية ، والعلوم العقلية والعلميـــة .

(١)
علوم الدين

لقيت العلوم الدينية كل الاهتمام في هذا العصر لـــا لمسه العلماء والفقهاء من تأييد وتشجيع مـــن قبل السلاطين والأمراء . فلا غرابـــة ان رأينا حركة نشيطة تناولت إحياء علوم الدين في الأصول والفروع،وكان نتيجة ذلك حدوث ثورة دينية كان على رأسها إمام العصر الأكبر ابـــن تيمية . يؤيده جماعة من تلامذته دعاة الاصلاح، وقد ظهر أثر ذلك في حركة التأليف التي شملت القرآن الكريم والحديث الشريف والفقه .

القرآن الكريم

ما عرف العالم كله كتاباً دينياً حظي بالعناية والدرس والبحث ما حظي به القرآن الكريم ، فهو أول كتاب يتناول التأليف فيـــه تفسيره وقراءاته وغريبه ومجازه وأمثاله ومفرداته وغير ذلك .

تميز هذا العصر بأن البحث في القرآن لم يكن تقليداً للمفسرين السابقين، وإنما كان يغايره قليلا أو كثيرا تبعا للمذاهب الدينية أولا ، والمفسرين أنفسهم ثانياً .أما الذين صنفوا في التفسير فهم كثيرون،نذكر منهم سليم بن أيوب(المتوفى سنة ٥٤٧ هـ) الذي صنف مجلدا كبيراً في تفسير القرآن(١) ، ومحمد بن ظفر

---

(١) كرد علي : خطط الشام ، ج ٤ ص ٤١ .

(المتوفى سنة ٥٦٥ هـ) الذي صنف ـ وهو في حماة ـ تفسيره « ينبوع الحياة(١) » « والتفسير الكبير » ، و « إكسير كيمياء التفسير » ، وعز الدين بن عبد السلام الذي صنف « التفسير والمجاز في القرآن » ، وعالي بن إبراهيم الفزنوني(٢) ، وهو تلميذ الزمخشري ، وقد فرغ من تفسيره للقرآن الذي سماه « تفسير التفسير » في حلب سنة ٥٧٢ هـ . وسبط ابن الجوزي (المتوفى سنة ٦٥٤هـ) الذي صنف تفسيره « معادن الابريز » في تسعة وعشرين مجلدا(٣) ، وشرف الدين هبة الله بن البارزي (المتوفى سنة ٧٢٨ هـ) الذي صنف تفسيرين : أحدهما « البستان » (٤) في ست مجلدات ، وله « الناسخ والمنسوخ » و « بدائع القرآن »(٥) ، وتقي الدين أحمد بن تيمية (المتوفى سنة ٧٢٨ هـ) الذي أقبل على التفسير إقبالا منقطع النظير ، فكان يأخذ في تفسير القرآن أيام الجمعة على كرسي معتمدا على حفظه دون أن يستعين في الإلقاء بشيء . ومن المفسرين أخيراً : قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة ، وقد قال عنه السبكي في طبقاته : « حاكم الإقليمين مصراً وشاماً ، وناظم عقد الفخار الذي لا يسامى(٦) » ، وكان قد وضع تفسيراً سماه « كشف المعاني » .

أما قراءات القرآن ، فقد عني بها المسلمون منذ أنزل على محمد (ص) ، وقرأه المسلمون على أحرفه السبعة ، لم تكن القراءات السبع متميزة حتى قام الإمام أبو بكر أحمد بن مجاهد وكان على رأس المائة الثالثة ببغداد ، فجمع قراءات سبعاً من مشهوري أئمة الشام والحرمين والعراقين ، وهم أبو عبد الله نافع إمام قراء المدينة بعد التابعين (المتوفى سنة ١٦٩ هـ) ، وعبد الله بن كثير إمامهم في مكة (المتوفى سنة ١٢٠هـ) ، وأبو عمر زبان بن العلاء امامهم بالبصرة

---

(١) ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٨٧ .
(٢) السبكي : طبقات الشافعية ج ٥ ص ١٥٣ ، وابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٤٤ .
(٣) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ٤٦١ .
(٤) الصفدي : اعيان العصر (مخطوط) ج ٧ و ٢٥٤ .
(٥) المصدر السابق ، ج ٧ و ٢٥٤ .
(٦) الصابوني : تاريخ حماة ، ص ١٣٩ .

والكوفة (المتوفى سنة ١٢٧ هـ) ، وأبو عمارة حمزة بن حبيب الكوفي (المتوفى بحلوان سنة ٢٥٧ هـ) ، وعلى بن حمزة الكسائي (المتوفى سنة ١٨٩ هـ) ، وابو عمران عبد الله بن عامر الحصبي الحميرى ، إمام أهل الشام في القراءة ، وقد ولد في البلقاء بقرية رحاب سنة ٨ هـ ، ودخل دمشق بعد فتحها ، وتوفي فيها سنة ١١٨ هـ .

يتضح مما تقدم عناية المسلمين بعلم القراءات منذ فجر الإسلام وكان لكل قارىء من القراء السبعة رواة يأخذون عنه أصول القراءة . حتى اذا جاء القرن السادس الهجرى ظهر في الاندلس القاسم بن فبره الشاطبى المقرىء الضرير(١) (المتوفى سنة ٥٩٠ هـ) ، ونظم في القراءات ورسم المصحف قصيدتين : هما « حرز الأماني » و « الرائية »، وقد وفد هذا المقرىء على مصر ، ودرس فيها، فذاع صيته وانتهت اليه رئاسة الاقراء بمصر .

تناول علماء مصر والشام القصيدتين الشاطبيتين بالتقليد والشرح . فمن الذين قلدوها ابن مالك،إذ نظم قصيدة دالية في القراءات على طريقة الشاطبي(٢) وهى « قصيدة مرموزة في مقدار الشاطبية » (٣) ، غير أنها لم تشتهر شهرة سابقتها . ومن الذين شرحوها شهاب الدين أبو شامه المقدسي (المتوفى سنة ٦٥٥ هـ) ، وأحمد بن يوسف الحلبي (المتوفى سنة ٧٥٦ هـ) ، وهبة الله بن البارزي في كتابه « السرعة في القراءات السبعة (٤) » ، وعلم الدين السخاوى (المتوفى سنة ٦٤٣ هـ) ، وكان قد قرأ الشاطبية على ناظمها ، وصنف شرح الشاطبية (٥) .

وأما أشهر القراء فهم علم الدين القاسم بن أحمد المرسي شيخ القراء (المتوفى سنة ٦٦١ هـ) ، وكمال الدين إبراهيم بن فارس التميمي شيخ قراء

---

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٢١٢ .
(٢) ابن تعري بردي : المنهل الصافى (مخطوط) ح ٣ و ١٩٠ .
(٣) ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ح ٧ ص ٢٤٤ .
(٤) الصفدي : أعيان العصر (مخطوط) ج ٤ ، ق ٢ ، و ٢٥٤ .
(٥) ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ١٧٢ .

دمشق (المتوفى سنة ٦٧٦ هـ) ، وأمين الدين القاسم بن أبي بكر الإربلي (المتوفى سنة ٦٨٠ هـ) .

الحديث الشريف

لن نبالغ ان قلنا ان هذا العصر هو عصر الحديث النبوي الذهبي ، ففيه أنشئت أول دار حديث في التاريخ الإسلامي ، وفيه نشهد المرأة تشترك في إتقان علم الحديث رواية ودراية ، وبلغ الأمر أن بعض النسوة انفردن بروايات لم تسمع من غيرهن .

ولعل اهتمام السلاطين كان عاملا من عوامل هذه النهضة الحديثة ، نشير منهم بصورة خاصة الى نور الدين وصلاح الدين . أما الاول فقد اثر عنه أنه سمع الحديث واسمعه طلبا للأجر (١) ، وذكر عنه أنه حدث بحلب ودمشق عن جماعة من العلماء اجازوا له : منهم ابو عبد الله بن رفاعة بن عذير السعدي المصري وهو محدث رحلة ، روى عنه جماعة من فضلاء الشيوخ مثل أبى الفضل احمد ، وابى البركات الحسن ، وأبي منصور عبد الرحمن بن هبة الشافعي(٢) .

اشار ابن واصل الى اهتمام نور الدين بالحديث وتلاوته حتى في وقت انشغاله بالحروب ، وحدث ذات مرة أنه قرىء بين يديه حديث مسلسل بالتبسم فطلب منه بعض طلبة أن يبتسم لتتم السلسلة على ما عرف من عادات رواة الحديث ، فغضب من ذلك ، وقال : « اني لأستحيي من الله أن يراني مبتسماً والمسلمون محاصرون بالفرنج(٣) » .

كما ذكر ابو شامة ان الشيخ ابا البركات الحسن بن هبة الله لما حضر مع عمه الحافظ أبي القاسم مجلس نور الدين لسماع شيء من الحديث مر في أثناء الحديث ان النبى (ص) خرج متقلداً سيفاً ، فاستفاد نور الدين امراً لم يكن يعرفه وقال: « كان رسول الله (ص) يتقلد السيف!(٤) » ، ويشير الى التعجب

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٦ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٢ .
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٨١ ، ١٨٢ .
(٤) أبو شامة ، الروضتين ، ج ١ ص ١١ .

من عادة الجند ، اذ هم على خلاف ذلك لأنهم كانوا يربطونه بأوساطهم . وفي الغد اجتمع الناس تحت القلعة ينتظرون ركوب السلطان ، فخرج نورالدين ، وهو متقلد السيف ، وجميع جنده كذلك .

لاعجب ان رأيناه بعدكل هذا الاهتمام ينشىء دورالحديث في بلاد الشام، وتلتها مصر بعد ذلك فانشأ في القاهرة الملك الكامل الأيوبي أول دار للحديث .

وأما صلاح الدين فكان أيضا كثير السماع للحديث النبوي(١) . ذكر قاضيه ابن شداد أنه كان يتلو الحديث بنفسه ، وأنه كان يستحضره في خلوته، ويحضر شيئا من كتب الحديث ، ويقرؤها ، فاذا مر بحديث فيه عظة وعبرة رق قلبه ودمعت عينه(١) .

كما ذكر ابن واصل انه سافر الى الاسكندرية سنة ٥٧٧ هـ ، وقال لأولاده : « نغتنم حياة الشيخ أبى طاهر بن عوف(٢) » ، فحضر عنده مع أولاده ، وسمع عليه موطأ مالك بن أنس بروايته عن الطرطوشي في العشر الأخير من شوال ، وتم له ولأولاده السماع .

كذلك كان شأنه في أيام السلم النزرة في حياته الحافلة بالجهاد ، يختلسها طلبا للأجر والثواب ، وكذلك كان شأنه في ليالي الحرب المتواصلة ، فقد ذكر ابن شداد أنه ليلة فتح صفد سنة ٥٨٥ هـ كان يحرس مع جنده ، فروي له الحديث المشهور في الصحاح : « عينان لا تمسهما النار ، عين باتت تحرس في سبيل الله ، وعين بكت من خشية الله (٤) » ، فدمعت عيناه وبكى من خشية الله .

كثر المحدثون في هذا العصر كثرة غريبة، وما جئنا في هذه الدراسة لنحيط بهم جميعاً ، غير اننا نقف عند مشاهيرهم ممن كانوا رحلة المحدثين من كل

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٨ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٨ .
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١١٢ .
(٤) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٠ .

قطر. منهم محدث الشام ومؤرخها الحافظ ابو القاسم علي بن عساكر الدمشقي (المتوفى سنة ٥٧١ هـ) ، وكان من أعيان الشافعية ، وشيخ ائمة الحديث . ذكر أبو شامة أنه حضر مجلس صلاح الدين لما تملك دمشق ، فرأى فيه من اللغط وسوء الادب من الجلوس فيه ما لاحد عليه ، فشرع يحدث صلاح الدين ، كما كان يحدث سلفه نور الدين ، فلم يتمكن من القول لكثرة الاختلاف من المحدثين وقلة استماعهم . فقام وبقي مدة يمتنع فيها عن حضور المجلس الصلاحي ، وتكرر من السلطان طلبه فحضر ، فعاتبه صلاح الدين على انقطاعه عنه فقال : « نزهت نفسي عن مجلسك ، كنا بالامس نحضر مجلس نور الدين ، تعلونا الهيبة والوقار فاذا تكلم انصتنا ، واذا تكلمنا استمع لنا(١) » ، فطلب صلاح الدين الى اصحابه ألا يكون منهم ما جرت به عادتهم اذا حضر الحافظ .

لم يقصر هذا المحدث اهتمامه على حفظ الاحاديث ، بل كان حسن الكلام عليها(٢) ، الف فيها جملة كتب تتعلق بروايتها . منها ما كتبه في روايات أهل داريا ، وكفرسوسة ، وصنعاء دمشق ، والربوة ، والنيرب ، ومن حدث بها ، وأهل الحميريين ، وقبية ، ونذايا ، وبيت أرانس ، وبيت قوفا ، والبلاط ، وبيت سوا ، ودومة ، ومسرابا ، وحرستا ، وكفر بطنا ، ولاقانية ، وحجيرة ، وعين شرماء ، وجديا ، وطرميس ، وبيت لهيا ، وبرزة ، وذكر أيضا المحدثين من اهل منين وبعلبك(٣) .

وهذا يدلنا على تقدم علم الحديث والعناية بـه في القرن السادس ببلاد الشام وغيرها في عصور الدول المتتابعة .

اوصى ابن عساكر طلبة الحديث بقصيدة له ، شرح لهم فيها أهمية علم الحديث وأنه أجل علم ، وطلب اليهم الرحلة في سبيله ، وسماعه من افواه

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٠ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٢ ص ٢٣٥ .
(٣) كرد علي : خطط الشام ، ج ٤ ص ٤٨ .

الرجال لأن ذلك أجدى عليهم من الصحف ، فقد ترمى وتضيع ، وقد تمزق وتصحف(١) .

ومن محدثي هذا العصر أيضا تقى الدين عثمان بن الصلاح (المتوفى سنة ٦٤٣ هـ) وكان أبوه من جلة مشايخ الافراد المشار اليهم ، اشتغل ببغداد على شرف الدين عبد الله بن أبى عصرون ، وتولى بعدئذ التدريس في المدرسة الأسدية بحلب . أما ابنه تقى الدين فقد قرأ المذهب على عمر بن الوردي ، وكرره عليه في صغره ، وتولى الإعادة لعماد الدين بن يونس بالموصل ، ثم ارتحل في طلب الحديث الى خراسان ، وعاد بعد استكمال إجازاته ، فتولى التدريس في المدرسة الناصرية بالقدس،ثم تولى التدريس في المدرسة الرواحية بدمشق ، فذاع أمره وانتشر ذكره . فبنى له الملك الأشرف دار الحديث الأشرفية بدمشق كما مر معنا ، وولاه التدريس فيها ، كما درس أيضا في المدرسة التي بنتها ست الشام زمرد خاتون . ومن مصنفاته « مناسك الحج» و « إشكالات » وغيرها . وقد جمع فتاويه بعض تلامذته(٢) .

ومنهم أيضا محيى الدين شرف الدين النووي ، ولد بقرية نوى من قرى دمشق ، وبها نشأ . ولما صار في التاسعة عشرة من عمره قدم به أبوه الى دمشق ، فسكن بالمدرسة الرواحية ، وكان معاشه من جراية المدرسة الموقوفة كمعظم مدارس دمشق على طلبتها . حفظ التنبيه وقرأ الصحيحين والسنن الأربع ، وولي بعدئذ مشيخة دار الحديث بدمشق ، فأبى ان يتناول من وقفها شيئا . كما كان يملي على المشايخ شرحاً وتصحيحاً اثني عشر درساً في اصلاح المنطق ، وربما في أصول الدين (٣) .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ١ ص ٢٣٥ ، وابن الوردى : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٧٨ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ١ ص ٣١٢ ، ٣١٣ ، وابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٣) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ، ج ٣ و ٤٥٠ .

اشتهرت تصانيفه كثيراً في حياته ، نخص بالذكر منها « متن الاربعين حديثا النووية في الاحاديث الصحيحة النبوية » و « شرح مسلم » و « الارشاد في علوم الحديث » وغيرها من التصانيف .

ومن المحدثين اخيراً الحافظ جمال الدين يوسف بن أبي الزهر المزي محدث الشام ومصر ، وقد تضلع من علم الحديث رواية ودراية ، وولي دار الحديث الأشرفية . وكان عارفا بتراجم رجال الحديث ، واليه تشد الرحال قال عنه ابن تيمية : « لم يل هذه المدرسة حين بنائها والى الآن أحق بشرط الواقف منه ، لأن الواقف قال : فإن اجتمع من فيه الرواية ، ومن فيه الدراية قدم من فيه الرواية (١) » .

اما طريقته في الرواية فذكر عنه أنه كان يترخص في الأداء من غير أصول ، ويصلح كثيرا من حفظه ، ويتسامح في دمج القارىء ولفظ السامعين ويتوسع ، فكان يرى ان العمدة على إجازة السمع للجماعة . وله في ذلك مذاهب عجيبة وكان يتمثل بقول ابن منك : « ويكفيك من الحديث شمه (٢) » .

ومن المحدثين القطب اليونيني ، وقد عرف عنه انه جمع الأصول التى قابل عليها صحيح البخاري بحضرة أبن مالك ، وأمامه جماعة من العلماء بيد كل منهم نسخة معتمدة ، وعمل ابن مالك الضبط والتصويب في أحدوسبعين مجلساً .

نذكر بالاضافة الى هؤلاء الاعلام محدثين آخرين : منهم هبة الله بن أحمد الأكفاني الأمين المحدث (المتوفى سنة ٥٢٤ هـ) ، ومسند دمشق الحسين الأسد (المتوفى سنة ٥٥١ هـ) ، والحسن بن هبة بن صصري التغلبي (المتوفى سنة ٥٨٦ هـ) ، وأبو طاهر بركات الخشوعي (ألمتوفى سنة ٥٧٨ هـ) ، وتقي الدين اسماعيل بن عبد الله الأنماطي (المتوفى سنة ٦١٩ هـ) ، ومحمد

---

(١) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ٤٥٨ .
(٢) المصدر السابق .

بن عبد الوهاب السعدي (المتوفى سنة ٦٦٣ هـ) ومحمد بن جعوان (المتوفى سنة ٦٨٢ هـ) . ومسند دمشق موسى عبد القادر الجيلي (المتوفى سنة ٦١٨ هـ)

* * *

انصرفت النساء الى رواية الحديث انصرافا كليا . لم نعهد له مثيلا في تاريخ الدراسات الاسلامية ، ولن نبالغ ان قلنا ان هذه الدراسة تضيق عن استيعاب أسماء المحدثات اللواتى عرفن في هذا العصر . نذكر منهن مسندة الشام أم الفضل كريمة بنت عبد الوهاب بن علي القرشية الزبيرية المعروفة بـ (بنت الحبقبق) المحدثة (المتوفاة سنة ٦٤١ هـ) ، وفاطمة بنت عساكر (المتوفاة سنة ٦٨٣ هـ) . وفاطمة بنت احمد بن صلاح الدين يوسف (المتوفاة سنة ٦٧٨ هـ) ، وزينب بنت علي احمد بن فضل الصالحية ، وعائشة بنت عيسى بن الموفق القدسي (المتوفاه سنة ٦٩٧ هـ) ، وخانون بنت يونس بن محمد بن العادل (المتوفاة سنة ٦٩٧ هـ)(١) ، وست الشام أم محمد صفية بنت الشيخ المحدث مجد الدين احمد بن ميسرة الأزدي (المتوفاة سنة ٧٠٤ هـ)(٢) ، والسيدة الجليلة أم محمد شهدة ابنة الصاحب كمال الدين بن العديم (المتوفاة سنة ٧٠٩ هـ) ، وقد سمعت بحلب من الكاشفري حضورا ، واجازها جماعة من المحدثين(٣) وقد انصرفت هذه المحدثة الى الرواية بعد ان تزهدت ، فتركت اللباس الفاخر ، وانفردت بالرواية عن الشيخ ضياء الدين عمر بن سعيد الموصلي حضورا ، ولم يرو عنه سواها(٤) .

ومن المحدثات أخيرا ست الوزراء الشيخة المسندة رفيقة الحجار أم عبد الله بنت القاضي شمس الدين عمر بن المنجا التنوخية الدمشقية الحنبلية

---

(١) الصفدي : أعيان العصر (مخطوط) ج ٣ ق ١ ، و ٢٢٧ .
(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ق ١ ، و ٩٨ .
(٣) المصدر السابق ، ج ٣ ، ق ١ ، و ٧٩ .
(٤) المصدر السابق ، ج ٣ ، ق ١ ، و ٧٩ .

(المتوفاة سنة ٧١٧ هـ) ، وقد سمعت صحيح البخاري ومسند الشافعي من ابي عبد الله الزبيدي ، وسمعت من والدها جزءين ، وعمرت طويلا وروت الكثير ، وحجت مرتين وقصدت بعد ذلك الديار المصرية . روت بدمشق والقاهرة الصحيح مرات كثيرة ، وقرأ عليها الحافظ أبو عبد الله الذهبي مسند الشافعي ، وهي آخر من حدث بالكتاب ، وسمع منها خلق كثير (١) .

الفقه الاسلامي

أسهم علماء هذا العصر بنصيب وافر في التأليف الديني ، لا فرق في ذلك بين تفسير أو حديث أو فقه ، وقد ظهر التخصص لدى بعضهم في موضوعات معينة من العلوم الدينية .

وقفنا عند العلماء الذين غلب عليهم التفسير أو أخذوا منه بأوفر نصيب وعند العلماء الذين غلب عليهم الحديث رواية ودراية ، ولا يعنى هذا أنهم لم يؤلفوا في الفقه الاسلامى ، فلقد كان لهم بعض الآثار لأن فكرة الاحاطة في التأليف موجودة إلى جانب التخصص .

هكذا نجد من العلماء من ألف في فقه المذاهب الأربعة ، واختص جماعة منهم بالتأليف في مذهب معين منها ، فتناولوا دراسة مختلف الأمور التى عرفت من قبل ، وقاسوا عليها أمورا كثيرة كما هو الشأن في أمر حشيشة الفقراء ، إذ قيست على الخمر لأنهما مسكران ، نص في القرآن على تحريم أحدهما وقيس الآخر عليه .

كما ساروا شوطاً بعيداً في شرح الأصول والمتون القديمة وفروعها ، ثم وقفوا عند الشروح نفسها ، فوضحوها وذيلوها بما فات الشراح من مسائل وتعليقات اقتضاها المذهب ، واضطرتهم إليها الظروف الطارئة .

---

(١) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ، ج ٢ و ١٠٦ ، ١٠٧ .

كان للجامعات الدينية أثر كبير في ظهور هذا الفن من التأليف ، فكان التلخيص والاعادة وغير ذلك من السمات التي اقتضتها التطورات العلمية في هذا العصر . فكنا مثلا نشهد البحث على ثلاث درجات : أولاها بحث واسع ، وثانيتها بحث متوسط وثالثها بحث موجز . ولكل فئة من الفقهاء والمتفقهة وضع هذا النوع من البحث . اذ ليس من قبيل الجمود والتكرار ، كما يذهب بعض النقاد ، وإنما كان أسلوباً علمياً من أساليب البحث والدراسة في الجامعات الدينية والعلمية في هذا العصر .

نذكر من مشاهير العلماء الأئمة المجتهدين مثل قطب الدين مسعود النيسابوري (المتوفى سنة ٥٧٨ هـ) ، وكان إماماً في العلوم الدينية ، وقد صنف عقيدة لصلاح الدين ليقرئها أولاده الصغار (١) .

ونذكر من العلماء عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء ، وكان في صراع دائم مع السلاطين والأمراء في الشام ومصر على السواء . انصرف إلى التدريس والتأليف ، ومن تصانيفه : « قواعد الاسلام » و « القواعد الصغرى » و « الأمالي » و « الفتاوي الموصلية » وغيرها .

ومنهم تقي الدين أحمد بن تيمية (٢) الحنبلي المصلح الثائر الذي بقي عدة سنين يأبى أن يفتي بمذهب معين ، وإنما كان يعتمد على ما قام عليه الدليل عنده ، وهو الذي وقف وحده تجاه جمود علماء الدين ويجادلهم ، وتعقد من أجله المجالس في مصر والشام ، ويصرح بآرائه واجتهاداته دون لبس أو غموض ، ويؤيده الشعب في ثورته ويندفع في نصرته ، ويلقى بسبب كل ذلك السجن والمحن على الرغم من أن الحق كان معه ، وقد وقف موقفه الجبار هذا في مسائل : منها الطلاق بالثلاث ، وشد الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين .

---

(١) ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٩٢ .

(٢) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ١ و ٨٥ ، ٨٦ ، وابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ – ٢٨٩ .

أما الطلاق فقد كفر من يحلف به ، ويرى أن الطلاق بالثلاث لا يقع إلا بواحدة ، وأن الطلاق في الحيض باطل لا يقع .

وأما مسألة السفر وشد الرحال الى قبور الأنبياء والصالحين فكانت محنته الكبرى التي حبس من أجلها في سجن القلعة بدمشق ، واستفحل أمرها حتى منع من المطالعة والتأليف ، وما ترك له في سجنه كراسة ولا دواة ، فعكف على العبادة والتهجد حتى وافته منيته بعد بضعة اشهر وشيعته الألوف من الناس من أبواب البلد الأربعة .

تبلغ تصانيفه في الفقه وغيره خمسمائة مجلد ، وقد احكم احوال الفقه وصنف فيه وحده المجلدات الكثيرة ، وذكر أن تلامذته جمعوا من فتاويه ست مجلدات كبار ، وله باع طويل في معرفة مذاهب الصحابة والتابعين فلا يتكلم عن مسألة إلا ويورد منها أقوال المذاهب الاربعة فيها ، لكنه لم يقف عندها ، بل كان يخالفها في كثير من المسائل المعروفة ، ويحتج لها بالكتاب والسنة . نذكر من مصنفاته « رفع الملام عن الأئمة الأعلام » و « السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية » و « الفتاوي الموصلية » ، وغيرها كثير .

ومن مشاهير العلماء شرف الدين هبة الله بن البارزي قاضي حماة ، وهو من اسرة معروفة بالعلم ، اشتهر أمره ، وطلب مرات عديدة ليتولى قضاء الديار المصرية فأبى وقنع ببلده ، وانتهت إليه رئاسة المذهب ببلاد الشام . ومن تصانيفه الكثيرة « إظهار الفتاوى » و « تمييز المعجيز » و « شرح الحاوي » وغيرها .

ومنهم تلميذ الغزالي على بن مسلم (المتوفى سنة ٥٣٣ هـ) (١) ، والشهرزوري (المتوفى سنة ٥٧٢ هـ) (٢) ، وموفق الدين بن قدامة (المتوفى سنة ٦٢٠ هـ) (٣) ، ومجد الدين بن العديم (المتوفى سنة ٦٧٧ هـ) (٤) .

---

(١) السبكي : طبقات الشافعية ، ج ٤ ص ٢٨٣ .
(٢) كرد علي : خطط الشام ، ج ٤ ص ٤٢ .
(٣) السبكي : طبقات الشافعية ، ج ٤ ص ٥٤ .
(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٧٩ .

(٢)

علوم اللغــة العربيــة

اهـم علماء العصر بدراسة علوم اللغة العربية كوسيلة من وسائل دراسة القرآن الكريم الذى أنزله الله على عبده بلسان عربى مبين ، وتناولوا التأليف أيضاً في اللغــة والصرف والبلاغــة والعروض .

اللغة ومعاجمهـا

اتخذ ياقوت الرومى ، بعد أن أعتقــه مولاه عسكر الحموي ، حلب موطناً له وكثيراً ماتردد اليها خلال رحلته التجارية، ثم انتقل منها واستقر بعض الوقت في خوارزم . فلما أغار عليها جنكيز خان سنة ٦١٦ هـ تحول عنها ، وعــاد إلى حلب مسـفره الأول في بلاد الشام بعد عتقه ، فعكف فيهـا على وضـع تصنيفه المشهور (معجم البلدان)، وانتهى من مسودته سنة ٦٢١ هـ ، وشرع في تبييضه سنه ٦٢٥ هـ ، وقدمه للوزير القاضى جمال الدين علي بن عبـد الوهاب السمبانى ، وقد رتبه على الحروف الأبجدية ومن غير نظر إلى أصول الكلمة وزوائدها ، لأن جميع ما يرد إنما هي أعلام لمسميات مفردة ، وأكثرها اعجمية ومرتجلة لا مساغ للاشتقاق فيها (١) .

عرف ياقوت أهمية معجمه ، فذكر في فاتحته وخاتمته القول نفسه وهو « وعلى ذلك فانني أقول ولا أحتشم ، وأدعو الى النزال كل عـلم في العـلم ولا انهزم : إن كتابى أوحـد في بابه ، مؤمـر على اضرابه ، لا يقـوم بإبراز مثله إلا من ايد بالتوفيق ، وركب في طلب فوائـده كل طريق ، فغـار تارة وأنجد ، وطوح بنفسه فأبعد ، وتفرغ له في عصر الشبيبة وحرارته ، وساعده العمر بامتداده وكفايته وظهرت منه أمارات الحرص وحركته (٢) » .

---

(١) ياقوت : معجم البـلدان ، ج ١ ص ١٥ .
(٢) ياقوت : معجم البـلدان ، ج ١ ص ١٥ .

التمس منه طلابه في الشام اختصاره مراراً ، فأجابهم أن المختصر لكتاب كمن اقدم على خلق سويّ ، فقطع أطرافه ، فركه اشل اليدين ، أبتر الرجلين أعمى العينين اصلم الاذنين (١) .

هذا في فاتحته ، وأما في خاتمته فكان حديثه مؤثراً جداً ، إذ وصف نفسيته ، وهو يودع بقايا أيامه في الحياة ، ويتمنى لو خرج كتابه ليرى النور ، فيسعد به ، ويقر عيناً قبل دنو منيته (٢) . يضاف الى معجمه هذا كتابه « المشترك وضعا والمختلف صقعاً » .

ثمة عالم آخر كان شأنه في اللغة عجباً ، وهو ابن مالك إمام العربية فيعصره ، فكان فيها اليه المنتهى كما يقول الحافظ الذهبى وغيره (٣) يؤكد ذلك مارواه الصفدي في حديثه عن أحد أموره المعجزة التى أدهشت الشهاب محموداً بعد أن ذكر له ماانفرد به ابن سيدا صاحب المحكم عن الأزهري ، وقال : « هذا أمر معجز لأنه يريد أن ينقل كتابين (٤) » .

صنف ابن مالك في اللغة عدة تصانيف ، منها كتابه « المثلث في اللغة »(٥) ، وهو كتاب هام يدلنا على سعة اطلاع مؤلفه ، إذ يذكر لنا مجموعة كبيرة من الألفاظ التي تختلف معانيها باختلاف حركات حروفها الثلاث .

نظم المؤلف كتابه نظماً حسناً في أرجوزة مؤلفة من ثلاثة آلاف بيت ، سماها « إكمال الأعلام بمثلث الكلام » (٦) . كما نظم الكلمات المهموزة فيقصيدة أسماها « النظم الأوجز فيما يهمز » . ومن مصنفاته أخيراً كتابه « الاعتقاد في الظاء والضاد » .

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٤ .
(٢) المصدر السابق ، ج ٥ ص ٤٥٧ .
(٣) ابن تغري بردى : المنهل الصافي ، (مخطوط) ح ٣ و ١٩٠ ، وابن شاكر : فوات الوفيات ج ٢ ص ٢١٤ .
(٤) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ١٩٠ .
(٥) ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٢٢٢ .
(٦) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ١٩١ .

ومن مشاهير لغويى هذا العصر حجة الدين بن ظفر الصقلى اللغوي النحوي (١) الذى وضع مصنفات لغوية كثيرة ، منها « التنقيب على ما في المقامات من الغريب » و « ملح اللغة » ، وهو فيما اتفق لفظه واختلف معناه ، و « الاستنباط المعنوى » و « الاشتراك اللغوي (٢) » .

لم تقتصر التأليف اللغوي على العلماء المار ذكرهم ؛ فهناك آخرون ممن لهم تصانيف مفردة نذكر منهم مجد الدين المبارك بن الأثير الذي صنف « النهاية في غريب الحديث » ، ويقع في خمسة عشر مجلداً ؛ وجمال الدين بن واصل الحموي الذي صنف مختصرا لكتاب ابن البيطار « الأدوية المفردة » .

النحو والصرف

اهتم علماء الشام كغيرهم من علماء العصر بالأبحاث النحوية ؛ وكان لمبادىء المنطق ودراساته أكبر الأثر على المشتغلين بالنحو والصرف .

يمكننا القول إن فلسفة النحو العربي بدأت تتضح في التصانيف الجديدة بعد أن وضعت المتون وشرحت قواعدها ؛ ونوقشت مسائلها ؛ وتعددت مذاهبها وأوجهها ؛ لاختلاف العلماء أولا ، وتباين الأقطار ثانياً ؛ بين بصرى وكوفي ؛ وبغدادي واندلسى ، وشامى ومصرى .

ساد في بلاد الشام قبل هذا العصر في النحو المذهبان المعروفان « فهذه حلب تضم عالمين في زمن واحد : ابن جنى رأس مدرسة القياس الذي كان لمدرسة البصرة إمامها الأعظم ؛ وابن خالوية الكوفي المنزع ، صاحب كتاب « ليس في كلام العرب » الذي اتبع فيه السماع نافياً من اللغة ماجوزه

---

(١) السيوطي : بغية الوعاة ، ج ٢ ص ٥٩ .
(٢) ياقوت : معجم الأدباء ، ج ٧ ص ١٠٢ .

نحاة البصرة (١) .

وجاء من بعدهما أبو العلاء ، وعرف عنه أنه « وإن كان على الغالب سماعي النزعة ، كوفي الميل ، فانه كان كثيراً ما يضرب عن قدسية السماع صفحاً محاولا أن يحكم فكره في كثير من القضايا التى يتورع سواه من تحكيم الفكر فيها (٢) » .

يتضح أن المذهبين ازدهرا في بلاد الشام ، أما الاتجاه الكوفي فكان من ثمراته تطور علم القراءات وظهور مدارس خاصة به ، وقفها مؤسسوها لتعليم التلاوة ، بله الحركة النشيطة لتعليم القرآن في الجامع الأموي كما مر معنا .

وكان من ثمرات ذلك أيضاً العناية بالحديث الشريف وإنشاء مدارس خاصة به عرفت لأول مرة في التاريخ الاسلامى ، كما لاحظنا إسهام المرأة في العناية به وتبريزها في روايته ودرايته . وأما الاتجاه البصري فكان من ثمرات تطور فلسفة النحو والصرف ، ونشوء مدرسة مستقلة أخذت من المدرستين مارأته مقبولا ومعقولا ، فكانت تسير متعاضدة مع المدرسة النحوية الأندلسية والمدرسة النحوية المصرية .

ظهر في القرن السادس نحاة عدة ، منهم أبو عبد الله الطليطلي الذي كان في النحو سيبويه زمانه كما نعته تلميذه أسامة ، وكان قد قرأ النحو عليه نحواً من عشر سنين ، في قلعة شيزر ، وكان من قبل متولي دار العلم التى أنشأها الفاطميون بطرابلس ، فلما أخذها الفرنج أنفذ ابوه وعمه من جاء به مكرماً معززاً إلى شيزر ليتولى تأديب أمراء بني منقذ . أورد أسامة تلميذه في أعتباره قصة أستاذه ، وذكر أنها جملة اعتراضية لا موضع لها من

---

(١) الافغاني : في أصول النحو ، ص ١٨٣ .

(٢) الطرابلسي : النقد واللغة ، ص ٢٠٩ .

سباقة الحديث (١) .

ومن نحاة هذا القرن أيضاً أبونزار حسن بن نزار (المتوفى سنة ٥٦٨ هـ) وكان معجبا بنفسه . ويسخط على كل من يخاطبه بغير لقبه ملك النحاة . كان بارعا في النحو ، وقد سافر إلى خراسان وكرمان لطلبه ، وآب من رحلته العلمية ، فاستوطن دمشق يقرىء فيها النحو حتى تسنم فيها عرش النحاة ، فكان حقاً كما دعي ملك النحاة (٢) .

ومنهم أيضاً تاج الدين زيد بن الحسن الكندي (المتوفى سنة ٦١٣ هـ) وهو بغدادى المولد ، ترعرع في دمشق وأقام بها .

ذلك عرض عابر لبعض نحاة القرن السادس ، حتى إذا أهلت بوادر القرن السابع توضحت أمامنا معالم المذهب الشامى على يد النحوي الكبير جمال الدين محمد بن مالك الطائي الجيانى . ولد في الأندلس في العام الأول من القرن السابع ، ودخل بلاد الشام سعيا وراء العلم في عهد الظاهر بيبرس وكأنما قد سار على هدي ابن جبير الرحالة الأندلسي ، وافتن بما كتبه عند زيارته لبلاد الشام : « فهذا الشرق بابه مفتوح لذلك ، فادخل أيها المجتهد بسلام ، وتغنم الفراغ والانفراد قبل علق الأهل والأولاد ، ويقرع سن الندم على زمن التضييع ، والله يوفق ويرشد (٣) » .

دخل هذا المجتهد بلاد الشام ، فوجد كل شيء ميسوراً أمامه ، فانصرف لتحصيل العلم ، وسمع بدمشق من مكرم وأبى صادق الحسن بن وضاح ، وأبي الحسن السخاوى وغيرهم . ثم استكمل ثقافته ونال الإجازة في علوم الدين ، وتخصص في علوم العربية ، فكان في اللغة إليه المنتهى . وأما في النحو والصرف فكان فيهما بحراً لا يشق لجحه(٤) . انتقل إلى حلب وجالس ابن يعيش وابن عمرون وغيرهما . والمعروف أنه نزلها في أول رحلته إلى

---

(١) أسامه : الاعتبار ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .
(٢) ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٨٢ .
(٣) رحلة ابن جبير ، ص ٢٣٥ .
(٤) ابن شاكر : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ٢٨٤ .

الشام . وقد تصدر بعد ذلك للتدريس في دمشق بالمدرسة العادلية ، فاشتهر أمره وسار ذكره ودلف إليه الطلاب من كل حدب ، فكان موضع الحب والاحترام ، حتى إنه كان إذا صلى في العادلية شيعه قاضي القضاة شمس الدين خلكان الى بيته (١) . كان امة وحده في علوم العربية ، أتقنها كما رأينا وعارض الشاطبية واهتم بعلوم اللغة فوضع فيها تصانيف عدة ، ثم نظم بعضها غير أنه فاق أقرانه جميعاً في النحو والصرف .

حار أئمة العصر في أمره لكثرة اطلاعه وشدة حفظه ، وسرعة استحضاره. فلم تكن شهرته في الحقيقة قائمة على تبحره في العلم وحده وإنما نعتقد انه صاحب مدرسة نحوية جديدة ، كان فيها مجدداً لا مقلدا ، إذ كان لايتقيد بمذهب معين ، ولكنه يختار ما يراه حسناً ومناسباً ، فكان يتوسع في قواعد النحو ، ويؤثر أن يدعم آراءه بما يؤيدها من شواهد القرآن أو الحديث أو المأثور من كلام العرب . لكنه كان اكثر ما يستشهد بالقرآن ، فان لم يكن فبالحديث ، فإن لم يكن عدل إلى شعر العرب (٢) .

تخرج من مدرسة ابن مالك النحوية جماعة من أعلام النحاة في بلاد الشام ، منهم ولده بدر الدين محمد ، وشمس الدين بن جعوان ، وشمس الدين بن أبى الفتح ، وابن العطار ، وزين الدين أبو بكر المزي ، والشيخ ابو الحسن اليونينى ، وابو عبد الله الصيرفي ، وقاضى القضاة بدر الدين بن جماعة ، والعلامة شهاب الدين بن غانم ، وناصر الدين شافع وغيرهم .

أسف الناس كثيراً حين وفاته سنة ٦٧٢ هـ ، فلقد أحدث فراغاً كبيراً

---

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٨٤ .

(٢) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ١٩٠ وابن شاكر : فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٨٤ .

في بلاد الشام لأنه كان في النحو عند أهلها مثل الشافعى في الفقه (١) .

أهم تصانيفه بلا شك كتابه المشهور « تسهيل الفوائد » (٢) ، وهو يحتوى على قواعد نحوية كثيرة وفوائد هامة ، رأى أن يشرحها لطلابه ليوضح لهم مذهبه ، بيد أنه توفي قبل استكمال شرحه ، فأتم عمله من بعده أثير الدين بن حيان المغربى .

يظهر ان ابن مالك لمس صعوبة سيبويه في « الكتاب » ، فحاول تبسيطه وتيسيره واختصاره للمعلمين مع استيعاب كل أبحاثه(٣)، ورأى بثاقب بصره أن يجمع قواعد اللغة العربية بكاملها ، فصنف أرجوزتيه المشهورتين : الكبرى والصغرى ، أما الكبرى فهى « الكافية الشافية » ، في ثلاثة آلاف بيت ، وشفعها بشرح خاص بها ، وأما الصغرى فكانت اختصاراً لسابقتها ، وهي في ألف بيت سماها « الخلاصة الألفية (٤) » .

أمران لا بد من الإشارة إليهما : أولهما أن الخلاصة الألفية استنفدت منه جهدا كبيراً حتى تيسر له فيها أن يستوعب بإيجاز كل ما أورده في ارجوزته الكبرى ، وكان ابنه بدر الدين قد لمس ذلك خلال شرحه لألفية أبيه ، فقال : « مازال أبى يخبط حتى نظم الألفية (٥) » . وثانى الامرين أن قاضي القضاة شرف الدين هبة الله بن البارزي قال : « نظم الشيخ جمال الدين الخلاصة الألفية بحماة عندنا برسم اشتغالي فيها ، وكنت شاباً وخدمته ، ولقد رأيت بركة خدمتي له (٦) .

---

(١) ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٢٢٢ .
(٢) ابن تغري بردى : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ١٩١ .
(٣) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٥٤٧ .
(٤) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ٩٩١ ، وابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٢٢٢ .
(٥) ابن الوردي : تتمة ، ج ٢ ص ٢٢٢ .
(٦) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٢٢ .

ثمة تصانيف أخرى لابن مالك ، منها « لامية الأفعال » وشرحها ، و « سبك المنظوم وفك المختوم » و « فعل فاعل » (١) و « المقدمة الأسدية » وضعها باسم ولده الأسد ، و « إعراب مشكل البخاري » و « عدة اللافظ وعمدة الحافظ (٢) » وغيرها .

ومن نحاة هذا العصر المشهورين الشيخ موفق الدين أبو البقاء بن يعيش ابن علي الحلبي المعروف بابن الصائغ (المتوفى سنة ٦٤٣ هـ) ؛ وله تصانيف مختلفة في النحو : أهمها « شرح المفصل » للزمخشري ، وشرح « تصريف الملوكي » لابن جنى (٣) ، وكان أستاذ ابن مالك المار ذكره ، فقد عرف عنه أنه نزل حلب في أول رحلته ، وتتلمذ له ؛ كما أخذ عن تلميذه ابن عمرون .

ومنهم أيضاً الشيخ علم الدين بن على السخاوي (المتوفى سنة ٦٤٣ هـ) ، ومن تصانيفه « المفصل في شرح المفصل » و «سفر السعادة وسفير الإفادة»، وهو يعرض فيه لكثير من المشكلات النحوية وأبيات المعاني وبعض الفوائد اللغوية المختلفة وغير ذلك .

كما ذكر ابن الوردى أنه رآه بدمشق ، والناس يزدحمون عليه في الجامع للقراءة ، ولا يصح لأحد منهم نوبة إلا بعد زمن طويل . يقول : « رأيته مرارا ، وهو راكب بهيمة ، يصعد إلى جبل الصالحية ، وحوله اثنان أو ثلاثة، وكل واحد يقرأ ميعاده في موضع غير الآخر ، والكل في دفعة واحدة ، وهو يرد على الجميع (٤) » .

نضيف إلى هؤلاء النحاة المختصين علماء آخرين صنفوا في النحو ، نذكر منهم الملك المؤيد أبا الفداء الذي وضع « الكناش » ، وهو موسوعة كبرى

---

(١) ورد اسم هذا المؤلف في فوات الوفيات كما يلي : (فعل وافعل) .

(٢) ذكر ابن الوردي أنها جيدة ، وأنه شرحها فأجاد ، لكنها تنقص أبوابا (ج٢ص٢٢٢) .

(٣) ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ١٧٦ .

(٤) ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ١٧٦ .

في مجلدات كثيره ، جمع فيها قواعد النحو والصرف والمنطق واللغة وغير ذلك (١) . وأما شامة المقدسي . وقد وضع « المقدمة » في النحو ، ونظم مفصل الزمخشري ، وابن ظفر الصقلي الذي وضع كتابه « القواعد والبيان » .

البلاغة والعروض

وصل عبد القاهر الجرجاني (المتوفى سنة ٤٧١ هـ) بعلوم البلاغة إلى الذروة في كتابيه المشهورين : « أسرار البلاغة » و « دلائل الإعجاز » فلما جاء السكاكي (المتوفى سنه ٦٢٦ هـ) وضع كتابه المشهور « مفتاح العلوم » في النحو والصرف والبيان ، وأصبح فن البيان المحور الذي يدور حوله التأليف البلاغي في هذا العصر . قام بدر الدين بن مالك (المتوفى سنة ٦٨٦ هـ) ووضع كتابه « المصباح » في البلاغة ، وجاء بعده جلال الدين القزويني (المتوفى سنة ٧٣٩ هـ) فلخص مفتاح السكاكي ، وسماه « تلخيص المفتاح »، ثم شرح هذا الكتاب الذي لخصه ، وسماه « الايضاح » أو « إيضاح التلخيص » .

نهج البلاغيون نهج الجرجاني والسكاكي وابن مالك والقزويني ؛ ويظهر أن البديع ، أحد فروع البلاغة الثلاثة ، بدأ يستقل كعلم خاص ، وكمذهب فني استحوز على أساليب ادباء هذا العصر ، فاهتم به الجيل الناشىء من الكتاب والشعراء اهتماماً منقطع النظير ؛ إذ ليس من قبيل المصادفة والعبث بالألفاظ قول ابن حجة في خزانته : « إن لكل زمان بديعاً » (٢) .

نسجل لابن المعتز (المتوفى سنة ٢٩٧ هـ) فضل السبق في استقلال البديع من علوم البلاغة ، فجعله في سفر خاص سماه « البديع » ، وجمع فيه سبعة من أنواعه ، وخلفه آخرون من علماء البلاغة ، نذكر منهم العسكري صاحب « الصناعتين » وابن رشيق صاحب « العمده » ، وابن الأثير صاحب « المثل السائر » ، واسامة بن منقذ صاحب كتاب « البديع » في نقد الشعر ، وقد جعله في خمسة وتسعين باباً .

---

(١) الصابوني : تاريخ حماة ، ص ١٢٦ .

(٢) ابن حجة : الخزانة ، ص ٥ .

ازدادت الأنواع تدريجياً ، وجاء الشعراء بدورهم فنظموا البديعيات ، وهي قصائد نبوية ، بحرها البسيط ورويها الميم ، ولعل سبب اختيارهم حرف الميم هو اقتداؤهم بالبوصيري في بردته المشهورة .

هكذا ابتدأ عصر البديعيات فنظم زكي الدين بن أبى الإصبع بديعية ، فأوصل عدد ما أورده من الأنواع البديعية إلى السبعين . وجاء صفي الدين الحلي بعده فأوصلها إلى مائة وأربعين نوعاً .

اما علم العروض فقد أسهم معظم علماء العربية فيه تدريساً وتصنيفاً ، نذكر منهم ابن مالك في كتابه « العروض » ، وهبة الله بن البارزي الذي صنف كتاب عروض أيضاً ، وجمال الدين بن واصل الذي شرح قصيدة ابن الحاجب في العروض والقوافي .

(٣)

العلوم التاريخية والاجتماعية

شهدت بلاد الشام حركة نشيطة في العلوم التاريخية والاجتماعية ، وكان للتطورات السياسية المعاصرة ، والأحداث الحربية المتتابعة أثرها الفعال في العالم كله . فلا بدع إن رأينا طرق بحثه تبلغ ذروتها في العصر لأننا اصبحنا نشاهد المؤرخين لايروون خبراً ، ولا ينقلون أثراً إذا لم تكن الرواية موثوقة ، وإذا لم يكن الراوي نفسه صحيحاً معدلا ، شهد الحادثة نفسها أو رواها عن طريق رجال صدق ، إن لم يتمكن من رؤية ذلك عياناً .

عرفنا ذلك واضحاً لدى مشاهير مؤرخي العصر ، وتبياناً لذلك نقف عند اثنين منهم : أما الأول فهو بهاء الدين يوسف بن شداد مؤرخ حياة صلاح الدين ، ومما قاله فيه : « وكان الله قد أوقع في قلبى محبته وحبه للجهاد ، فأحببته لذلك وخدمته من تاريخ مستهل جمادى الأولى سنة اربع وثمانين ، وهو يوم دخوله الساحل ، وجميع ماحكيته إنما هو روايتي عمن أثق به ممن

شاهده . ومن هذا التاريخ ماسطرت إلا ما شاهدته ، أو أخبرني به من أثق بخبره تقارب العيان (١) » .

يظهر في هذا الأسلوب أثر علم الحديث في تطور البحث التاريخي وكذلك الأمر في ظهور فن التراجم والطبقات الذي عرف في هذا العصر .

وأما المؤرخ الثاني الذي نقف عنده قليلا فهو أبو شامة المقدسي الذي كان يدرس التاريخ في حلقة خاصة في الجامع الأموي بدمشق . ذكر في مقدمة كتاب الروضتين المصادر التي اعتمد عليها في تأليفه ، ومن جملتها بعض ما سمعه من : « أفواه الرجال الثقات ، ومن المدركين لتلك الأوقات (٢) » .

لم يقتصر علم التاريخ على المؤرخين ، بل شمل الطبقة المثقفة كلها ، إذ غدا أحد العلوم الرئيسية التي لابد لكل مثقف من الاطلاع عليه لعلاقته الوثيقة بالدراسات الإسلامية والثقافة العامة في هذا العصر .

حاول أبو شامة أن يبسط بعض الكتب التاريخية التي امتازت بالتطويل في إيراد الأخبار ، واستخدام الأسلوب المسجع في عرضها لكي « يفهم الكلام الخاص والعام » (٣) ، فحذف منها بعض الأسجاع ، وأبقى ما استحسنه في مواضعه « ولم تك خارجة عن الغرض المقصود من التعريف بالحوادث والوقائع (٤) » .

ذلك هو أسلوب البحث التاريخي كما رآه بعض مؤرخي العصر بالاعتماد على الروايات الموثوقة ، والرواة المصححين ، وبخاصة منهم الذين شهدوا الحوادث بأم العين .

ومن ناحية أخرى فان الاتجاه امتد إلى الفئات الشعبية ، وصار الناس يستمعون في الحلقات المسجدية للمؤرخين الذين يعرضون عليهم أحداث الماضي البعيد والقريب ، بله الأحداث المعاصرة .

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٧١ .
(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٥ .

نستطيع ان نحدد البحث التاريخي في ثلاثة مجالات : فمن المؤرخين من انصرف إلى بحث التاريخ الخاص ومنهم من انصرف إلى جمع التراجم وتأريخها وتصنيف الطبقات على اختلافها .

التاريخ العام

انصرف قسم من المؤرخين إلى التاريخ العام جرياً على أسلوب محمد بن جرير الطبري (المتوفى سنة ٣١٠ هـ) إذ كانوا يؤرخون الأخبار بحسب توالي السنين . ولهذه الطريقة محاسنها ومساوئها : فمن محاسنها أنها تمد الباحث بكثير من الحقائق والوثائق التي تعينه على أبحاثه ، بيد أنها تشتتت الوحدة التاريخية ، وتلك سيئة ، ولاسيما إذا امتد الخبر اكثر من عام واحد وفي اكثر من مكان .

نهج هذا المنهج بعض مؤرخي عصرنا ، منهم عز الدين علي بن الأثير في تصنيفه « الكامل في التاريخ » ، وابن العبري في كتابه «تاريخ مختصر الدول»، وابن ابى طى (المتوفى سنة ٦٣٠ هـ) صاحب التاريخ و « طبقات العلماء » ، وسبط ابن الجوزي (المتوفى سنة ٦٥٤ هـ) صاحب « مرآة الزمان (١) » . ومن هؤلاء المؤرخين أيضاً صاحب حماة الملك المنصور ، وقد خلف عدة مؤلفات تاريخية ، منها « المضمار في التاريخ » ، وصاحبها أيضاً الملك المؤيد أبو الفداء المؤرخ المشهور صاحب « المختصر في أخبار البشر » ، وقاضي قضاتها شهاب الدين إبراهيم بن أبي الدم (المتوفى سنة ٦٤٢ هـ) ، وقد صنف للملك المظفر « التاريخ الكبير المظفري » في تاريخ الملة الإسلامية .

---

(١) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ٤٦٢ .

التـاريخ الخاص

تخصص فريق من المؤرخين بالتأليف في التاريخ الخاص ، ويلاحظ ان هذا الاتجاه لقى إقبالا كبيراً عليه . ولعل سبب ازدهاره يرجع إلى ضعف الخلافة العباسية . ونشوء دول الأطراف . والدول المتتابعة في مصر والشام .

من المؤرخين من تحدث عن تاريخ دولة عاصرها أو ادرك بعض أيامها ، أو شهد زوالها لأن عمر بعض دول هذا العصر لا يزيد على عمر الأفراد . ومنهم من تحدث عن تاريخ مدينة كانت حاضرة مملكة أو إمارة أو نيابة في بعض عصورها الذهبية .

نذكر من هؤلاء المؤرخين أحمد بن الأزرق الفارقى (المتوفى سنة ٦٦٠ هـ)، وقد صنف كتابه « تاريخ الفارقى » (١) ، وهو يضم تاريخ مدينتى آمد وميافارقين . ومنهم كمال الدين بن العديم ، وقد صنف « تاريخ حلب ».

ومن الذين تحدثوا عن تاريخ دولة معينة من الدول المعاصرة أو عن حرب من الحروب ، أو شخصية من الشخصيات المشهورة ، المؤرخ السابق ذكره ابن الأثير ، وقد صنف تاريخاً في الدولة الأتابكية الزنكية ، وعرض فيه لكثير من أخبار صلاح الدين .

كما صنف أيضاً العماد الكاتب (المتوفى سنة ٥٩٧ هـ) ، كتابين مسجوعين : احدهما « الفتح القسي في الفتح القدسى » ، وقد تحدث فيه عن حروب صلاح الدين وسيرته ، واستهله بسنة ثلاث وثمانين وخمسمائة. والثانى « البرق الشامى » ، وقد تحدث فيه أيضاً عن حروب صلاح الدين منذ دخوله دمشق ، وانتهى بوفاته .

يرى أبو شامة « أن العماد في كتابيه طويل النفس في السجع والوصف يمل الناظر فيه ، ويذهل طالب معرفة الوقائع عما سبق من القول وينسيه » (٢) .

---

(١) توجد من هذا التاريخ نسختان في مكتبة المتحف البريطاني : كتبت الأولى سنة ٥٦٠ هـ أي في حياة مؤلفها ، والثانية سنة ٥٧٢ هـ . طبع هذا الكتاب بالقاهرة سنة ١٩٥٩ م بتحقيق الدكتور بدوي عبد اللطيف عوض .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٤ ، ٥ .

ومن تصانيفه أيضاً : «العتبى والعقبى» و «خطفة البارق وعطفة الشارق».

كما صنف بهاء الدين يوسف بن شداد (المتوفى سنة ٦٣٢ هـ) سيرة مولاه صلاح الدين في كتابه « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » وفيه يتحدث عن حروبه بالتفصيل مع الصليبيين ، واستهله بفصل هام جداً، يتضمن سيرته والتحدث عن صفاته ومناقبه .

وصنف أبو شامة المقدسي كتاب « الروضتين في أخبار الدولتين » واعتمد فيه على مادونه من قبله من المؤرخين كالحافظ أبي القاسم على ، والرئيس أبي يعلى حمزة بن أسد التميمي ، وابن الأثير ، وابن شداد ، والعماد الكاتب ، ثم تحدث عن طريقته في التاريخ ، كما شرحناها من قبل (١) . لم يكتف بذلك بل وضع ذيلا لتاريخ دمشق واختصره مرتين (٢) .

نقف أخيراً عند مؤرخ مشهور « هو من بقايا أهل العلم الذي ختمت به المائة السابعة » (٣) . قاضي قضاة حماة جمال الدين بن واصل (المتوفى سنة ٦٩٧ هـ) وقد قيل « إنه كان يشتغل في حلقته في ثلاثين علماً وأكثر » (٤) . اتصل بالظاهر بيبرس ، وارسل سفيراً عنه إلى ملك الصقليتين وامبراطور الرومانية المقدسة منفرد بن فريديك ، فصنف له « الأنبرورية » في المنطق ، وكان قد أقام في مصر بضع سنوات ، شهد فيها بأم عينه زوال الدولة الأيوبية في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وكأنما قد أحزنه مصير الدولة المذكورة التى قهرت الصليبيين ، واستردت منهم بيت المقدس، فوضع كتابه المشهور « مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب » (٥) . أشار ابن واصل في هذا الكتاب إلى كتاب تاريخي آخر له ، هو « التاريخ الكبير » (٦) ،

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤ ، ٥ .

(٢) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٢ و ٥٨٧ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ و ٥٧٨ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٣ و ١٥٨ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٣ و ١٥٨ .

(٦) في مفرج الكروب إشارتان الى اسم هذا التاريخ : (ج ١ ص ٢٠٤ ص ٢٣٦) .

وهو تاريخ عام ، أرخ فيه للعالم الاسلامي منذ عهد الرسول (ص) إلى السنة التي تولى فيها الصالح عرش مصر .

التراجم والطبقات

صنف قدماء المؤرخين تراجم رجال الصحابة ورواة الأحاديث ، وتطور الأمر بعدئذ فشملت تراجم أخرى في أعيان مدينة أو قطر في عصر معين وتراجم جامعة تضم مشاهير الأعلام بصورة شاملة .

أما في هذا العصر فقد ظهر أبو القاسم علي بن عساكر (المتوفى سنة ٥٧١ هـ) ، وألف « تاريخ دمشق » ، وهو كتاب جامع لتراجم علماء دمشق وقد رتبت فيه بحسب الحروف الأبجدية . وألف ابن أبى طى (المتوفى سنة ٦٣٠ هـ) كتابه « طبقات العلماء » ، وابن أبى أصيبعة الدمشقى الطبيب (المتوفى سنة ٦٦٨ هـ) كتابه « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » ، وعلي بن يونس القفطي ، المعروف بالقاضى الأكرم (المتوفى سنة ٦٤٦ هـ) كتابه « تاريخ الحكماء » .

والف اخيراً ابن خلكان (المتوفى سنة ٦٨١ هـ) كتابه المشهور « وفيات الأعيان » ، وهو مجموع لتراجم الأعيان في العلم والادب والسياسة والقضاء ، وهو مرتب على الحروف الأبجدية . يمتاز هذا الكتاب بأن مؤلفه بذل أقصى جهده لتحقيق وفاة من يترجم له ، إذ ليس من قبيل المصادفة اختياره لفظة الوفيات في عنوانه . ومما يلفت النظر حقاً أن مؤلفه أهمل تراجم الصحابة والتابعين لكثرة ما قيل أو ألف حولها ، ولعل هذا يؤكد لنا الاتجاه الشعبي في التأليف عند مؤرخي العصر وعلمائه وأدبائه .

الجغرافية والفلك

لا بد لنا من الوقوف أخيراً عند العلوم الجغرافية والفلكية ، والإشارة إلى ازدهار علم تقاويم البلدان والأقاليم ، فنشط في هذا العصر نشاطاً ملحوظاً ، وكثرت فيها المصنفات .

ننوه بشكل خاص بالمؤيد أبي الفداء ملك حماة ، فقد وضع كتابه المشهور « تقويم البلدان » ، وهو مؤلف فريد في نوعه ، تناول فيه بحث الجغرافية العامة ، فوصف الأرض وما عليها ، وصنف الأقاليم ، وتحدث عن خطوط الطول والعرض .

وتناول هذا الموضوع بالبحث أيضا ياقوت الحموي ، فتحدث في مقدمة معجم البلدان عن صفة الأرض ، وذكر ما فيها من الجبال والبحار ، ثم وصف الأقاليم السبعة واشتقاقها واختلاف بقاعها ؛ وأنهى حديثه بذكر ما يتبع كلا من البروج الاثنى عشرية من البلدان . نلاحظ هنا العلاقة بين الجغرافية والفلك عند العرب ، وهم — كما هو معروف — شديدو الاهتمام بالنجوم وبروجها منذ أقدم عصورهم .

روى اسامة بن منقذ ان لوالده اليد الطولى في علم الفلك ، وكان يحرضه على معرفة منازل النجوم واشكالها ويريه إياها ويعرفه اسماءها ويأمره بمعرفة « ما يطلع منها ويغرب » (١) .

نذكر من الفلكيين أبا الفضل بن ياسين الحلبي (المتوفى سنة ٦٠٤ هـ) وكان ضليعاً في علم الزيج ، ومؤيد الدين العرضي الدمشقي الذي تولى مهمة الإرصاد في مرصد مراغة . نبغ من بعده ابنه شمس الدين بن محمد وكان احد العلماء الفلكيين الذين استدعاهم نصير الدين الطوسي لبناء المرصد الايلجانى . كما اقام نصير الدين أيضا مرصدا فلكيا بدمشق ، وزوده شمس الدين بكرة جغرافية لا تزال حتى الآن محفوظة بمتحف درسدن في المانيا .

نشط علم الفلك في رعاية الملوك الأيوبيين في حماه ، وكان الملك المظفر تقي الدين محمود قد استدعى علم الدين قيصر ، المعروف بتعاسيف المهندس الرياضي (المتوفى سنة ٦٤٢ هـ) ، فبنى له أبراجاً فلكية ، وأقام طواحين مائية ما زالت قائمة ، وعمل له كرة خشبية مدهونة رسم عليها خارطة كبيرة ، وعين عليها جميع الكواكب المرصودة ، وقد ساعده في وضعها جمال الدين بن واصل المار ذكره (٢) .

---

(١) أسامة : الاعتبار ، ص ٥٦ .

(٢) ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ١٧٤ .

نذكر أخيرا عبد الله الجماعيلي (المتوفى سنة ٦٢٠ هـ) المختص بعلوم النجوم السيارة ، ومعرفة منازلها الخاصة بها ، وعلي محمود اليشكري (المتوفى سنة ٦٧٠ هـ) وله اليد الطولى في علم الفلك وحل التقاويم .

(٤)

العلوم العقلية والعملية

صدف كثير من العلماء عن الاشتغال بالعلوم العقلية من فلسفة ومنطق لأنها لقيت مقاومة شديدة من رجال الدين وإعراضا من السلاطين في معظم الأحيان . غير أن العلوم العملية لقيت كل تشجيع ، فكثر الإقبال عليها ، وأخذ العلماء منها بحظ وافر .

الفلسفة والمنطق

حاول بعض علماء هذا العصر دراسة الفلسفة اليونانية جرياً على سنة من سبقهم من فلاسفة العرب القدماء ، وعلى رأسهم الفارابي المعلم الثاني بعد أرسطو المعلم الأول وكان قد عاش في بلاط سيف الدولة الحمداني .

ازدهرت العلوم العقلية في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، فترجمت فيهما الآثار الفلسفية القديمة ، وكانوا أمناء عليها لأنهم يعتقدون أن الحكمة أخت الشريعة ، ولا يمكن لحق أن يضاد حقاً آخر .

أما في هذا العصر فقد ازدهرت الفلسفة في أقطار معينة من العالم الإسلامي ، فظهر مثل ابن الطفيل (المتوفى سنة ٥٨١ هـ) صاحب القصة الرمزية المشهورة « حي بن يقظان » ، وابن رشد (المتوفى سنة ٥٩٥ هـ) صاحب كتاب « فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » و « تهافت التهافت » في الرد على كتاب الغزالي « تهافت الفلاسفة » .

لقيت الفلسفة في بلاد الشام كارثتها الكبرى لأن الطبقة الحاكمة حالت بين الناس وما يشتهونه من مائدة الحكمة التي بسطها أمامهم قدماء الفلاسفة من معاصريهم .

لم تزدهر الفلسفة كثيرا في القرن السادس الهجري ، أما في القرن السابع فقد ظهر نابغة العصر سيف الدين علي الثعلبى الآمدي (المتوفى سنة ٦٣١ هـ)، وكان أكثر العلماء معرفة بالعلوم الفلسفية والمبادىء المنطقية . وما كاد يشتهر أمره حتى قام رجال الدين ونسبوه إلى الانحلال والزندقة، وأفتوا بقتله، فآثر السلامة . وأعرض عن الحلقات العلمية والمناقشات الفلسفية ، وترك تدريسها واختفى فيمدينة حماة ، لا يجرؤ على متابعة دراساته ، وقد صنف تصانيف عدة ، منها كتاب « الإحكام في أصول الأحكام » .

وظهر أيضاً اللبودي ، وكان « قدوة في العلوم الحكيمة »(١)، وله مصنفات كثيرة في الحكمة والطب ، وقد جعله الملك الصالح نجم الدين أيوب ناظرا على الدواوين في جميع الأعمال الشامية .

عزلت هذه المحن الفلاسفة عن حلقاتهم العلمية في بلاد الشام ، فعاشوا منعزلين يصنفون آثارهم طي الكتمان ، ويخفونها عن العوام ، ويطلعون عليها الخاصة من أصدقائهم لأنهم كانوا يخشون على حياتهم .

نذكر على سبيل المثال اثنين من حكماء هذا العصر ، عاشا في قريتين من صرخد بعيدين عن الحواضر والحلقات العلمية : احدهما نجم الدين القمراوي، وثانيهما شرف الدين المتاني ، وكانا قد ذهبا الى الموصل للقاء الفيلسوف كمال الدين بن يونس ، وحلا لغزه في الحكمة دون أن يعرفهما ، فلما سألهما عن موطنهما، وعرف منهما انه الشام قال:« لا أشك أن أحدكما النجم القمراوي، والآخر الشرف المتاني (٢) » .

هكذا عاش فلاسفة الشام في هذا العصر ، آثروا السلامة لأنفسهم .. وقد نعى ابن المطران الفيلسوف الطبيب على أهل زمانه فتورهم وزهدهم في العلوم وقلة مضائهم ورغبتهم في الكتب والآثار وتطير بتفاقم الخطب في هذا الشأن(٣).

---

(١) ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ، ج ٢ ، ص ١٨٥ — ١٨٦ .
(٢) كرد علي : خطط الشام ، ج ٤ ص ٤٧ .
(٣) المصدر السابق ، ج ٤ ص ٤٠ .

وعلى الرغم من كل هذا التضييق عليهم فقد كانت الفلسفة تروج أحياناً حينما تلقى بعض التشجيع من السلطان ، كما حدث خلال حكم الناصر داود، إذ نشطت في عهده الفلسفة كثيرا لأنه أظهر ميلا لها وعطفاً على العاملين فيها.

ظهر في عصر هذا الملك الأيوبى عز الدين الحسن بن نجا الإربلي الرافضي(١) (المتوفى سنة ٦٦٠ هـ) ، وكان رأسا في علوم الأوائل ، جمع شمل الفلاسفة، واتخذ من بيته مجتمعاً فلسفياً يجتمع فيه الفلاسفة من المسلمين وغيرهم ، ويتناقشون فيما بينهم ، حتى إنه كان يجهر بترك الصلاة ، ويعلن تفضيل علي على أبي بكر وعثمان .

يتضح لنا من تراجم أرباب المعقولات في هذا العصر شدة اهتمامهم بالمنطق والجدل ، لحاجتهم اليهما في المناقشات الدينية والمناظرات العلميــة ، وفي البراهين والقواعد النحوية التي دفعتهم لإتقان هذا العلم وجعله أحــد العلوم الرئيسية التي يجب أن يلم بها طالب المعرفة .

ومن العلماء من أخذ من ذلك بنصيب وافر ، نذكر منهم جمال الدين بن واصل ، وكان يدرس المنطق في حلقته كعلم خاص ، وذكر أن أحد المناطقة ، وهو نجم الدين الكاتبي المعروف بدبيران المنطقي ، أورد عليه اشكالاً في المنطق. صنف ابن واصل « هداية الألباب في المنطق » و « الأنبرورية »(٢) : صنفها ــ كما رأينا ــ للامبراطور صاحب الصقليتين ، حينما أرسله إليها الظاهر بيبرس سفيرا عنه ، وذكر أنه حضر مجالسه الخاصة وكان يسأله عن مسائل من علم المناظرة ، فأجابه عليها وأعجب بعلمه وسعة اطلاعه .

الطب والهندسة

إن كانت المعقولات قد تضاءل شأنها في هــذا العصر ، فإن العلوم العملية

(١) ابن تغري : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٢ و ٣٤ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٣ و ١٥٨ .

لقيت رواجاً كبيراً لشدة حاجة المجتمع إليها وبخاصة ماله علاقة بحياة الإنسان أو بأساليب الحرب أو غير ذلك .

ظهرت في القرن السادس مدارس طبية بجانب البيمارستانات العامة التى انتشرت في هذا العصر . نذكر من الأطباء علي بن هبة الله المعروف بابن النقاش (المتوفى سنة ٥٤٥ هـ) وكان أوحد زمانه في هذا العلم وله مجلس عام من المشتغلين به ، وتلميذه أبا زكريا يحيى البياسى من أطباء صلاح الدين ، وعمر بن على البذوخ الدمشقي (المتوفى سنة ٥٧٦ هـ) ، وموفق الدين بن المطران (المتوفى سنة ٥٨٧ هـ)، ورشيد الصوري، والطبيب المشهور يوحنا بن بطلان .

وظهر في القرن السابع نجم الدين بن يحيى اللبودي (المتوفى سنة ٦٢١ هـ) صاحب المدرسة الطبية ودار الهندسة ، وقد اتصل بالملك الصالح نجم الدين أيوب ، وكان « أوحد في الصناعة الطبية ، قدوة في العلوم الحكمية »(١) ، ومهذب الدين يوسف بن أبي سعيد السامري (المتوفى سنة ٦٢٤ هـ) ، والصاحب أمين الدولة أبو الحسن بن غزال (المتوفى سنة ٦٤٣ هـ)، والدخوار مهذب الدين عبد الرحيم بن على صاحب المدرسة الطبية الثانية ، وابن البيطار ضياء الدين عبد الله بن أحمد المالقى (المتوفى سنة ٦٤٦ هـ) صاحب كتاب «الأدوية المفردة»، وكان هذا الطبيب متصلاً بالملك الكامل ثم بابنه الملك الصالح .

ومن أطباء هذا القرن أيضاً ابن أبي أصيبعة موفق الدين احمد بن خليفة (المتوفى سنة ٦٦١ هـ) صاحب كتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»، وابن النفيس علاء الدين بن ابي الحسن القرشي الدمشقي شيخ الأطباء بمصر ، ويعقوب الحكيم (المتوفى سنة ٦٨٥ هـ) ، وهو من نصارى الكرك . صنف كتاب « الشافي في الطب » في أربع مجلدات ، وكتاب « العمدة في صناعة

---

(١) ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ، ج ٢ ص ١٨٥ .

الجراح » ، وهو مؤلف من عشرين مقالة علم ، وعشر عمل ، جمع فيه ما يحتاج إليه الجراح بحيث يغنيه عن غيره من الكتب (١).

أما علم العقاقير فما كان لينفصل عن علم الطب ، ويظهر أن هناك من تفرد بهذا العلم ، واختص بمعرفتها ليسهم بذلك في الحرب والتغلب على الأعداء .

أورد ابن واصل قصة عالم شاب يسمى علياً ، وهو ابن عريف النحاسين وكان مولعاً بجمع آلات الزراقين وتحصيل عقاقيرهم ،وقد اتصل بصلاح الدين خلال حصار عكا سنة ٥٨٦ هـ ، ووعده بكل جميل . دخل إلى عكا بعد أن استحضر من الأدوية التي يعرفها ، ثم طبخها في قدور خاصة من النحاس حتى صار ما فيها كأنه جمرة النار ، ورمى أحد الأبراج فاشتعل من ساعته ، وصار كالجبل العظيم من النار . ضج المسلمون بالتكبير والتهليل ، ثم رمى الثاني بالقدر الثانية ، والثالث بالقدر الثالثة ، فأحرق بذلك الأبراج جميعاً(٢) .

قدم صلاح الدين للزراق المال الكثير ، فرفض عطاءه ، وقال له : « فعلته لله ، فما أريد من سواه جزاء(٣)» . لكنه أوقف عليه قرية من خيار قرى دمشق .

وبرع في الهندسة ــ كما رأينا ــ اللبودي ، وأنشأ دار الهندسة . ومن مشاهير المهندسين إبراهيم بن غنائم باني المدرسة الظاهرية الجوانية بدمشق ، ولا يزال اسمه منقوشاً على يسار الداخل إليها في زاوية المدخل ، وهو نفسه الذي هندس القصر الأبلق الذي قامت على أنقاضه التكية السليمانية في القرن العاشر الهجري .

ومنهم أبو الفضل عبد الكريم الحارثي المهندس الدمشقي (المتوفى سنة ٥٩٩ هـ) وهو الذي أصلح الساعة التي بجامع دمشق وهندس أبواب البيمارستان النوري .

---

(١) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ٤٢٧ .
(٢) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ٤٢٧ .
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٣١٦ .

ونذكر أخيرا علم الدين قيصر الذي هندس للملك المظفـر الأبراج الفلكية والطواحين المائية التى أقيمت على نهر العاصي في حماة حاضرة ملكه .

* * *

تلك هي إلمامة عامة حاولنا مـن خلالها دراسـة مختلف مظاهـر الحياه السياسية والاجتماعية والفكرية ، وقد تبين لنا من خلالها أن هذا العصر كان عصر وحدة عربية كبرى ، شملت مصر والشام وغيرهما من الأقاليم في مختلف الدول المتتابعة الثلاث ألتي تداولت الحكم .

كما اتضح لنا خلال دراسة الحياة الاجتماعية العامة وجود طوائف شعبية متباينة بالإضافة إلى الطبقة الحاكمة من السلاطين والأمراء . ولاحظنا أيضاً وجود مذاهب دينية متعددة وأشرنا الى الصراع بينها حول العقائد وغيرها .

يضاف الى ما تقدم ما مر ذكره من التصوف والزندقة والاباحية ، وكان لها أثرها الهام في الحياة الاجتماعية .

وخلصنا أخيراً إلى بحث الحياة الفكرية ، وقـد استرعى انتباهنا وجود كثير من المدارس ودور العلم ، مما أدى الى ازدهار الثقافة في هـذا العصر ، فكثرت العلماء ، وشهدت البلاد حركة نشيطة في التأليف والتصنيف في مختلف النواحى الدينية والفكرية . كما تأكد لنا أن الحياة الفكرية لم تكن منفصلة عن سائر الأقاليم العربية الأخرى ، وإنما كانت مظهراً متمماً مـن مظاهر الوحدة الفكرية بين مصر والشام ، وقد لاحظنا تبادل العلماء وتنقلهم بينهما ، وسوف نزداد يقيناً فيمعرفة ذلك خلال دراسة (الأدب فيبلاد الشام) فيعصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك .

الباب الثاني

الشعر والشعراء في بلاد الشام



الفصل الأول

أعلام الشعراء

لا شك أن الشعر كان ديوان العرب(١) ، وأنهم اتخذوه سبيلهم لتصوير شتى مناحي حياتهم القبلية والاجتماعية والخاصة . ذكر الجاحظ أن العرب في جاهليتها تحتال في تخلدها بالاعتماد على الشعر ، لأنه يفيد فضيلة البيان على الشاعر الراغب والمادح، وفضيلة المأثرة على السيد المرغوب إليه والممدوح به(٢) . وقد لمسنا اهتمامهم به وإقبالهم على جمعه وروايته وتدوينه أكثر مما فعلوا بالنثر . ولهذا السبب قدمنا دراسته ، واستهللنا به هذا البحث .

وضح ابن الأثير أهمية الشعر العربي ، ونوه بذكره، وبين العوامل المختلفة التي جعلته في طليعة أدبنا العربي ، إذ إن الأشعار أكثر ، والمعاني فيها أغزر ، وسبب ذلك أن العرب الذين هم أهل الفصاحة جل كلامهم شعر ، فأودعوا أشعارهم كل المعاني . ثم جاء الطراز الأول من المخضرمين ، فلم يكن لهم إلا الشعر ، ثم استمرت الحال على ذلك ، فكان الشعر هو الأكثر (٣)

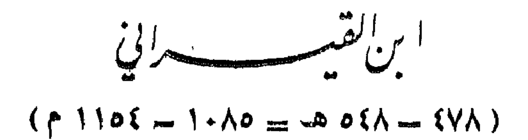
ولما كان الشعر هو الأكثر والأفضل ، رأينا أن نتحدث عن أعلام الشعراء في هذا العصر ، وقد اخترنا أحد عشر شاعرا مشهوراً : خمسة منهم في القرن السادس الهجري ، وستة في القرن السابع ، واستوفينا دراستهم وحاولنا في بحثنا أن يكون الشاعر المختار ممثلاً لمذهب شعريّ معين في هذا العصر أو أحد رواده التابعين من الأعلام المشهورين .

---

(١) الجاحظ : الحيوان ، ج ١ ص ٧٢ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٧٢ .

(٣) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٨٥ .



(٤٧٨ ـ ٥٤٨ هـ = ١٠٨٥ ـ ١١٥٤ م)

القسم الأول

حياته وآثاره

(١)

مراحل حياته

ولد الشاعر أبو عبد الله ، شرف الدين ، محمد بن نصر بن صغير[١] المعروف بـ « ابن القيسراني » في مدينة عكا سنة ٤٧٨ هـ[٢] ، وقد اختلف القدماء حول نسبه ، فأهل بيته وبعض أخوانه يرفعونه إلى الصحابي خالد بن الوليد ، بيد أن الجلّة من المؤرخين والنسابين يعتقدون أن نسله انقطع منذ

---

(١) وكامل نسبه : محمد بن نصر بن صغير بن داغر بن محمد بن حالد بن نصر داغر بن عبد الرحمن بن المهاجر بن خالد بن الوليد المخزومي .

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٢ ص ١٦ ، وياقوت : ارشاد الاريب ، ج ٧ ص ١١٢ ، وابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٣٠٢ ، والعماد الكاتب : الخريدة، قسم شعراء الشام ، ج ١ ص ٩٦ ، والنعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ٢ ص ٣٨٨ ، وابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢٢ ، وابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ١ ص ٥٤ ، وأبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٩١ ، والطباخ : أعلام النبلاء ، ج ٤ ص ٢٣٧ ، وابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٤ ص ١٥٠ ، والزركلي : الأعلام ، ج ٢ ص ٣٤٧ .

زمن بعيد(١) . ومهما يكن من أمره ، فلا يستطيع الباحث الحديث أن يجزم فيه بشيء ، لكن رجلاً ينسب نفسه إلى خالد بن الوليد في عصر ساد فيه الأعاجم ، له بغير شك دلالته الخاصة وأثره العميق في نفسيته ، وبالتالي في شعره .

كانت عكا في ظل الحكم الفاطمي ، وكان أمير جيوشهم بدرا الجمالي قد ولى زهر الدولة الجيوشي عاملا عليها ليدبّر أمورها ، ولم يطل أمد حكمه ، بل انحسر عنها عندما قصدها بلدوين(٢) ، صاحب بيت المقدس سنة ٤٩٧ هـ ، فهاجمها براً وبحرا وقتل من أهلها خلقاً كثيرا ، وسبى منهم جماعة أخرى ، واقتادهم أسرى إلى ما وراء البحر .

انتقل الشاعر إلى قيسارية الساحل القريبة من عكا بعد أخذ الفرنجة لها(٣) ، فنشأ فيها ونسب إليها . لم يطل بقاؤه فيها ، فهاجر إلى داخل البلاد بعد استيلاء الفرنجة على الطراز الاخضر الشامي ، فانتقلت أسرته إلى حلب(٤) ، واتخذها دار مقام (٥) .

استقر بادىء أمره في دمشق ، فقرأ الأدب على توفيق بن محمد الدمشقي ، واتصل بشاعر الشام في عصره ابن الخيّاط ، وتأدّب عليه ، وتوثقت علاقته به ، ويبدو أنه لمس عنده موهبته الشعرية فعُني به وشجعه ، وبصّره بمذهبه الفني ، واعتمد عليه وحده في رواية شعره ، كما صرح بذلك في ختام ديوانه بقوله : « إن كل ما رواه عني فهو ما سمعه مني وقرأه علي ، وما رواه غيره فلا يعتد به (٦) » .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٢ ص ١٧ .

(٢) بلدوين ، كما سماه العرب ، وهو بودوين Baudouin وقد فتح عكا سنة ١١٠٤ م.

(٣) ابن كثير البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٣١ .

(٤) المصدر السابق : ج ١٤ ص ٣١ .

(٥) أشار عز الدين بن شداد الى « دور بني القيسراني » في معرض حديثه عن مسجد بحلب تجاه القسطل قريبا منها ، وأشار أيضا الى مسجد آخر تجاه دار شهاب بن القيسراني (الأعلاق الخطيرة ص ٦٠) .

(٦) ديوان ابن الخياط ، ص ٣٣١ .

تابع الشاعر رحلته العلمية كعادة طلبة العلم في هذا العصر ، فسمع بحلب من هاشم بن أحمد ، وأبى طاهر الخطيب ، فاستكمل ثقافته ، وراح يطوف أرجاء البلاد متنقلاً بين الملوك والأمراء في دمشق وحلب وشيزر والموصل وغيرها .

تولى إدارة الساعات على باب الجامع الأموي بدمشق في عهد تاج الملوك بوري بن طغتكين ، ولم أجد له في مخطوطة ديوانه مدائح قالها فيه . وسبب ذلك أنه كان شاعرا مغموراً آنذاك . وطبيعي جدا أن يتجه لمدح امراء شيزر من آل منقذ ، إذ إن أقدم مدحه المعروفة قالها في ملك شيزر عز الدولة أبى مرهف نصر بن على (المتوفى سنة ٤٩٢ هـ) وهو دون الرابعة عشرة من عمره ، وكان قد مدحه يهنئه بالسلامة من كلم أصابه ، ومما جاء فيها قوله :

كلُّ دعوى شجاعةٍ لم تؤيدْ ... بكلامِ الكلام دعوى مُحالِ
لايَرُعْكَ الصقالُ في السيفِ حتى ... يَنطِقَ الفلُّ شاهدا للصقّالِ
لو تكونُ السهامُ تُحسِنُ قصدا ... عرّجَتْ عن مقاصدِ الآمالِ
غادرَ البأسُ في جبينِكَ منه ... أثراً لاحَ في جبينِ الهلالِ
لايُجلّي دُجى الحوادثِ إلاّ ... غُرَرُ الحرب فى وجوهِ الرّجالِ
في مقادِيمها (١) تُصابُ المقاديـ ... ـمُ ، وتُرمى الأكفال (٢) في الأكفالِ (٣)

لم تطل إقامة الشاعر في دمشق ، لأنه كان على خلاف مع الأسرة الحاكمة التركية من آل طغتكين ، ولا يعرف على الضبط سبب هذا الخلاف ، وكل ما وصلنا أنه هجا تاج الملوك بوري بن طغتكين هجاء مراً (٤) ، والمعروف أن الملك المذكور تولى دمشق من سنة ٥٢٣ هـ إلى ٥٢٦ هـ فبلغه ذلك ، فتنكر له ، وبعث يطلبه ، فلم يجد بدآ من الهرب . فيمم شطره نحو الشمال والشرق إلى حلب والموصل ليجد الأمان لدى الملوك الزنكيين الذين بسطوا حكمهم على القسم الأعظم من البلاد .

---

(١) المقاديم الاولى جمع مقدم مُقدم ، وهو ماتستقبله من الوجه والمقاديم الثانية جمع مِقدام ومقدامة ، وهو الكثير الاقدام .

(٢) الاكفال الاولى : جمع كِفل ، وهو من لايثبت على الخيل والاكفال الثانية : جمع كَفَل ، وهو العجز .

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١٣١ ، ١٣٢ .

اتجه الشاعر في هذه المرحلة من حياته إلى مدح أعيان دار الخلافة ، فمدح جلال الدين بن صدقة وزير الخليفة المسترشد (١) ، وابن الأنباري سديد كاتب الإنشاء بديوان العزيز (٢) . كانت هذه المدح زلفى اقتضتها صلته بالملوك الزنكيين ، وكان عماد الدين أول من مدحه من ملوكهم ، وكان بالطبع وزيره جمال الدين الأصفهاني السبيل الذي أوصله إليه . ويتحتم علينا كذلك أن نتحدث عن نور الدين خليفة أبيه بعد مقتله وهو على حصار قلعة جعبر ، ولابد له من مدح وزيره الآخر كمال الدين الشهرزوري.

وصل ابن القيسراني إلى الموصل ليحظى بعطايا عماد الدين ، ورأى بثاقب بصره أن يتقرب أولاً من وزيره الجواد جمال الدين ، فنظم فيه القصائد ، ومدحه بمدح غُرٌ كانت ــ كما يقول العماد ــ أجود ما سمع من منظومه في الأفاضل (٣) ، واختار له منها ثلاثاً ، لم يرد منها في الديوان غيرُ واحدة ، ويحسن بنا الوقوف منها على ما يوضح لنا نفسيته ويبرز فنه . ولعل اقدمها قصيدته الدالية التي استهلها بنسيب تجاوز الثلاثة عشر بيتاً ، وانتقل بعدها إلى ممدوحه ، ومما قاله :

وإذا الوفودُ إلى الملوكِ تبادرتْ	فعلى جمالِ الدّين وفدُ محامدي
ياحبّذا همٌ إليك أصارني	وعزيمةٌ تقفو رياضةَ قائدِ
أنا روضةٌ تزهى بكلّ غريبةٍ	افرائدي مَن لم يفزْ بفرائدي ؟
إنْ ساقني طلبُ الغِنى أو شاقني	حبُّ العُلا ، فلقدْ وردتْ مواردي
ومتى عددتُ إلى نداك وسائلي	أعددتُ قصدي من أجلّ مقاصدي
حتى أعودَ من امتداحكَ حالياً	وكأنني قلّدتُ بعضَ قلائدي (٤)

أورد العماد الكاتب قصيدة ثانية ، ذكر أنها من « جمالياته الفائقة الرائعة الرائقة » (٥) . وهي التي وردت في الديوان ، يحسن الوقوف عندها

---

(١) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١٢٨ .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١٢٩ ــ ١٣١ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٠٣ .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٠٤ ــ ١٠٦ .

(٥) المصدر السابق ج ١ ص ١٠٦ .

لأن الشاعر يصور فيها بعض حاله ، وينوه فيها بشعره ، ويتحدث عن مكانته بعد ان أستهلها بنسيب كان كسابقه في عدد أبياته ، ومما قاله :

ومروّعٍ سَكَنَتْ خوافقُ أمنِه | اولا جمالُ الدّين عزّ أمانُهُ
امحمدُ بنَ عليّ اعتنقَ الأسى | فكري فضاق بفارسٍ ميدانُهُ
مابالُ حادى المجدِ مغبرّ المدى | وأخو الهُوَيني روضةٌ أعطانُهُ
وأنا الذي لاعَيْبَ فيه لقائلٍ | مالم يَقلْ هذا الزمانُ زمانُهُ
فهلِ المحامدُ ضامناتٌ عنكَ لي | معنىً على هذا البيانِ بيانُه ؟
وهي القوافي ما تناظر بالندى | إلا وقام بفضلها برهانُهُ
ماكان بيتُ فضيلةٍ في فارس | إلا ومن عربيَّتى سلمانُهُ(٥)

صحب الشاعر الوزير بعد أن أصبح أثيراً لديه خلال فتوح عماد الدين في بلاد الشام ، فهو ابنها البار ، وحريٌ به أن يكون رائده في بلده فأنشده وهو في الرقة جماليته الثالثة (١) ، وكان للملك العادل فيها نصيب لأنه بطل الفتح .

خلد الشاعر انتصاراته في بلاد الشام ، وشهد بأم عينيه البطولة الإسلامية في هذا العصر الذي تميز بتوالي الحروب بين الشرق والغرب . وطبيعي جداً ان تظهر قومية إسلامية تجابه الصليبيين حفظاً لبقائها ، وكان عماد الدين قد أزمع امره على تخليص البلاد منهم ، فسار إلى الفرنجة سنة ٥٣٤ هـ وحاصر ـ كما رأينا ـ بارين أمنع حصونهم التي كانوا يحتلونها لأنها واقعة في داخل البلاد قرب حماة ، وكانت مصدر خطر يتهدد سكانها .

خلد ابن القيسراني هذه المعركة في رائية مشهورة ، مطلعها قوله :

حذارِ منّا ، وانّى ينفع الحذر ؟ | وهي الصّوارم، لاتبقي ولاتذرُ(٢)

ويشفع عماد الدين هذا النصر بآخر في أقصى الشمال سنة ٥٣٩ هـ ، فيفتح الرها البلد المقدس الخامس ، ويستشير هذا الفتح الشاعر، فيخلده بقصيدة ثانية ، مطلعها قوله :

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٠٩ ـ ١١١ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٣٤ ، ٣٥ .

هو السيفُ لايُغنيكَ إلا جِلادُهُ   وهل طوّق الأملاكَ إلا نجادهُ ؟ (١)

هكذا كان مبلغ إعجاب الشاعر بالبطل عماد الدين ، وكان يأمل أن يتحرر البيت المقدس على يديه ، لكن الأقدار كانت له بالمرصاد فاغتيل وهو على حصار جعبر .

شُطِرتْ مملكةُ العماد ، وقُسِّمتْ بين ولديه ، فاستقر ابنه الأكبر سيف الدين بالموصل ، وابنه نور الدين في بلاد الشام . وكان من المحتم على الشاعر أن يتصل به ، فلقد كانت هذه الفترة من التاريخ الإسلامي نقطة تحول وانطلاق لظهور القومية الإسلامية التى كانت نتاج العصبية الصليبية . وأكد هذه الحقيقة الهامة الشاعر في كتاب بعث به إلى نور الدين وجاء فيه قوله : « سلامُ اللهِ وحنانُهُ ، ورأفتُهُ وامتنانُه ، وروحُه وريحانُه ، على من عَصَمَ بعزّه العواصمَ ، وخَصَمَ بحُجَّتِهِ الدهر المخاصِمَ ، وألجمَ بهيبتِهِ العائبَ والواصمَ ، الذي انتَضى في سبيلِ اللهِ سيوفَ الجهادِ وارتضى بعزّ سلطانه شعارَ العبّادِ والزُّهادِ ، واهتدى إلى طاعة الله ، وليس غير الله من هادٍ ، ومن أصبحت أطراف البلاد أطواداً لمملكته ، ومعاقلُ الكفار في عقال مملكته ، ومركزُ الشكر مراكزَ أعلامه وألويته ، ومن عادت به ثغورُ الشام ضاحكةً عن نفور النَّصر ، ، وممالكُ الإسلام متوجةٌ بتيجان الفخر ، وصعابُ الأمور منقادةً إليه بأزمة القهر ، ومن رأى الحكمَ دارسة فبنى مدارسها ، والهمم يابسةً فسقى منابتها ومغارسها ، والمنابر شامسة فأمكن من صهواتها فوارسها ، ومن عمر ربعَ السنين بعد ما عفا ، وأنقذ من الفتن من كان منها على شفا ، ومن نشَر أعلامَ الفضلِ ، وأنشر بعد الوفاة أيام العدلِ ، ومن أنار بوجهه الإيمانَ وأخذ الناسَ به من الزّمان توقيع الأمان (٢) .

---

(١) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٨ . ويجدر بالملاحظة هنا أنه اطلع عليها في ديوانه ، واختار بعض ما قاله فيه من شعر . لكن الديوان الذي بين أيدينا لا يحتوي على الرسالة المذكورة آنفا ، فآثرنا إيرادها كاملة ، ولنا حولها رأي سنعرضه في حديثنا عن ديوان الشاعر .

يتضح من هذه الرسالة ان الشاعر كان معجباً بنور الدين لأنه أنقذ الدين ، وذاد عن العرين ، واستطاع ان يطهر بعض بلاد الشام ، ولم يبق أمامه غير بقايا من ملوكهم وأمرائهم وها هو ذا المنبر يعدّه الأختريني كأحسن ما يكون لنقله إلى بيت المقدس عند تحريره .

سجل الشاعر فتوحه ، فلم يغادر من الوقائع صغيرة ولا كبيرة إلا وصفها، فشعره الذي قاله فيه خلال سبع سنوات سجل صادق وتاريخ ناطق ، يؤرخ فيه هذه الفتوح ويعبر عن شعوره وعواطفه .

ولعل أشد المعارك التي ابلى فيها نور الدين خير بلاء تلك التي حدثت سنة ٥٤٤ هـ ، فحرر حصن حارم ، ولقي صاحب أنطاكية البرنس عند إنّب ، فقتله وحمل رأسه إلى حلب ، فأنشده ابن القيسراني مع الشعراء بباب الحديد قصيدة سجل فيها هذا الفتح ، ومطلعها قوله :

هذي العزائم ، لا تدّعي القضُب وذي المكارمُ لاماقالت الكتُب (١)

كما مدح الشاعر نور الدين في العام نفسه بقصيدة استحسنها العماد الكاتب « في فنها لسلاستها في نظمها ورويها ووزنها (٢) » ، ومدحه سنة ٥٤٥ هـ عندما وقع جوسلين في أسره ، وخلص البلاد من شره ، وحمله معه إلى حلب ، وكحل عينيه واهلكه . دلفت إليه الشعراء ، وعلى رأسهم ابن القيسراني ، فمدحه بقصيدة ، استهلها بقوله :

دعا ما ادّعى مَن غرّه النهيُ والأمرُ فما الملك إلا ما حباكَ به الأمر (٣)

نكتفي بهذا القدر من علاقة نور الدين بالشاعر ، فقصائده فيه كثيرة ، ونقف أخيراً عند وزيره كمال الدين ، فلقد كان مضطراً بحكم صلته بالملك العادل ان يمدحه ايضاً . ويظهر انه كان في هذه الفترة مستقراً في حلب ، فاتخذها دار إقامة لأنها كانت حاضرة البلاد قبل فتح دمشق ، ومما قاله يمدحه :

---

(١) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١١٢ ـ ١١٤ ، وياقوت : إرشاد الأريب ج ص ١٢٠ ، وأبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٠

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١١١ .

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ١٥٧ ـ ١٥٩ ، وياقوت : إرشاد الأريب ، ج ٧ ص ١١٢ ـ ١١٦ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٢٤ ، ١٢٥

ألم تر أن الشيبَ بين جوانحي أقام مقام الفضل عند أبي الفضلِ
إليك انتضى شوقي إليك عزيمةً هي النصلُ تحت الليل أو سلة النصلِ
أبا الفضلِ كم لي في مساعيك نِحلةً ألذّ على الأفواهِ من ضَرَبِ النحلِ
فريدةُ لفظٍ في فريدِ محاسنٍ فتلك بلا مثلٍ ، وأنت بلا مثلِ (١)

ومن حلب كان يتردد إلى العراق ، وقد اختار لنا الشاعر في ديوانه مقاطيع عملها عند قفوله من العراق إلى الشام يتشوق فيهما السكن والوطن (٢) وذلك سنة ٥٢٩ هـ ، ومنها قوله :

مررنا في ديارِ بني عديٍّ يجاذبُ لوعتي شرقٌ وغربُ
يتيّمني بأرضِ الشامِ حبٌّ ويعطفني على بغدادَ حبُّ
غرامٌ طارفٌ وهوى تليد لكلِّ صَبابةٍ في القلبِ شعبُ
ولا وأبيك ما هوَّمت (٣) إلا سرى لهما خيالٌ لا يغبُّ
فكلٌّ هوىً يطالبني بقلبٍ وهل لي غيرَ هذا القلبِ قلبُ (٤)

ننتهي مما تقدم معنا لنقرر ان الشاعر مدح زنكي سنة ٥٣٤ هـ حين انتصر على الصليبيين في بعض المواقع ، وكذلك في سنة ٥٣٩ هـ حين استولى على الرها ، ومعنى ذلك أنه أقام عنده وعند ابنه محمود منذ أوائل العقد الرابع من القرن السادس الهجري . ومما هو جدير بالذكر هنا أن الشاعر استطاع تصوير سياسة نور الدين التي كان ينتهجها لتوحيد كلمة العرب ضد الصليبيين من مثل قوله يتحدث عن أن استيلاء نور الدين على دمشق بمثابة إنذار للفرنج بإبادة ملكهم :

---

(١) ديوان ابن القيسراني (مخطوط) ورقة ٢٨ — ٣٢ ، وفي الديوان قصيدتان اخريان : إحداهما بعث بها من حلب ، وثانيهما مدحه بها . كما أورد ياقوت مختارات من هذه القصيدة في إرشاد الأريب .

(٢) ديوان ابن القيسراني (مخطوط) و ٥٩ .

(٣) هوّم : هز رأسه من النعاس ونام قليلاً .

(٤) ديوان ابن القيسراني (مخطوط) ، و ٥٩ ، ٦٥ .

إذا ما دمشقُ ملَكتَكَ عِنانَها تيقَّن مَنْ في إيليا (١) أنه الذَّبحُ

كما كان يتردد إلى أنطاكية ، ويطلع على أحوال البلاد المحتلة ، ويعجب كل الإعجاب بالنساء هناك ، ويخلّد لنا أجمل المواضيع التي استرعت انتباهه ، فسماها في ديوانه الثغريات (٢) ، وهي من أجمل قصائده الشعرية.

تلك هي لمحات خاطفة من حياة الشاعر في رحاب نور الدين بعد استقراره في حلب ، ولم يكن من السهل عليه أن يحظى بحبه وحده ، فلقد كان معاصره ابن منير الطرابلسي منافساً خطيراً على مكانته لأنه كان مقرباً أيضاً من الزنكيين ، وكان يوكل إليه في بعض الأحيان مهمات السفارة بين ملوك حلب وملوك دمشق من آل طغتكين .

ويظهر أن ابن القيسراني هو الذي بداه العداوة ، لأنه ، كما يرى العماد ، « وقع في مباراته ومجاراته في مضمار القريض ومناقضته ، فكأنهما جريرُ العصر وفرزدقه ، وهما مطلع النظم ومشرقه ، ، وشى بالشام عَرفهما ، ونشا عِرقهما ، وكثر رياشُهما ، وتوفّر معاشهما ، وعاشا في غبطةٍ ورفعةٍ وبسطة (٣) » .

جرت محاولات لإصلاح ذات البين بين الشاعرين من قِبل بعض معاصريهما ، وما كان ذلك ليتم ، ويظهر أن الشاعر لم يقو على رد هجائه ، وحرص مع ذلك على الإصلاح فما تهيأ له ذلك (٤) ، فاكتفى في الرد على ما قاله في هجائه بهذين البيتين :

ابنُ منيرٍ هجوتَ مني خَيْراً أفاد الورى صوابَه
ولِمْ يضيقُ بذاك صدري ؟ فإن لي أسوةَ الصحابهْ (٥)

---

(١) ايلياء : قصرها الشاعر لضرورة شعرية ، وهي اسم مدينة بيت القدس ، قيل معناه بيت الله (ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٢٩٢) .

(٢) المصدر السابق ، و ٦٣ .

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٧٩ .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢٢ .

(٥) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ١ ص ١٧ ، وابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ١ ص ٥٤ .

هذان البيتان هما كل ما وصلنا من نقائض الشاعرين ، وذلك أمرٌ يؤسف له حقاً لأنه يمثل مظهراً هاماً من مظاهر النشاط الأدبي في هذا العصر .

لم تكن خاتمة الشاعر كما كنا نتوقع لها أن تكون ، فيقضي أواخر أيامه في رحاب نور الدين ولاسيما أنه كان من المعجبين به والمشيدين ببطولته. وسرعان ما تضطرب الأمور ، وتتغير الأحوال ، فيتوجه الشاعر إلى ملوك دمشق من آل طغتكين الذين حرموه من قبل ، وكنا قد أشرنا من قبل إلى هجائه جد هذه الأسرة التركية تاج الملوك وفراره من دمشق خوفاً من القتل . أغلب الظن عندنا أن خلافاً كبيراً نشب بينه وبين نور الدين ، لا يُعرف على الضبط سببه ، ولم يشر الأقدمون من قريب أو بعيد إلى كنه هذا التحول المفاجيء ، فهل كان نتيجةً لعلو منزلة خصمه ابن منير على الرغم مما عرف عنه من التشيع المتطرف ، أو كان هذا بسبب آخر نجهله ؟ أغلب الظن أن هذه الفرقة كانت لأمر لم يكن للشاعر فيه يد ، وإنما كانت نتيجة لغضب نور الدين على شاعره لأنه مدح جماعة من ألدّ أعدائه ، ومنهم ملك جعبر علي الذي خلف والده مالك بن سالم العقيلي الذي كان مؤامرة أدت إلى مقتل والد نور الدين كما رأينا . أورد ياقوت مدح الشاعر لعلي في معرض حديثه عن دير حافر :

ألا كم ترامتْ بالسٌ (١) بمسافرٍ وكم حافرٍ أدميتَ ياديرُ حافرِ(٢)

وعند الفراتِ من يمينِ ابنِ مالكٍ فـراتُ ندىً لا تُختطى بالمعابرِ

إذا أوجهُ الفتيانِ غارتْ مياهها فوجـهُ عليٍّ ماؤهُ غـيرُ غائرِ(٣)

وأورد العماد مطلع نسيب مدحة لم يذكر اسم الممدوح الذي قيلت فيه ، وإنما وقف فيها عند بيت التخلص .

ملاحـةٌ دانتِ القلوبُ لـه طوعاً كما دانتِ العُلا لعلي (٤)

---

(١) بالس : بلدة بالشام بين حلب والرقة وهي قرب ضفة الفرات الغربية (ياقوت معجم البلدان ج ١ ص ٣٢٨)

(٢) دير حافر : قرية بين حلب وبالس (ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٥٠٤)

(٣) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ص ٥٠٤ .

(٤) العماد الكاتب :الخريدة ج ١ ص ١٥٣ .

تضافرت كل هذه العوامل فادت به إلى هجر الزنكيين ليعـود إلى الطفتكيين عزيزاً مكرماً ، وانصرف إلى آخر ملوكها مجير الـدين آبـق ، وبين ملوك حلب ودمشق من العداء المستحكم ما يجعل مكانة الشاعر عالية إذا ما التجأ إلى دمشق وآب الى موطن شبابه .

لعبت السياسة دورها في هذا العصر حتى عند الاعلام من مؤرخي الأدب، إذ نلاحظ انمدائح مجير الدينالتيأوردها العماد اكثر عدداً منمدائح نورالدين، والأمر ما في نفسه يلاحظ انه أورد مطالع النسيب ، وأهمل نعت الممدوح ، فلم تسلم إلا مدحـة واحـدة مـن المـدح الست بتمامها ، وفيهـا اشار الشاعر إلـى حسـاده :

كثُر حسـادي حتى لقـد تنبَّه الهـاجـدُ والغـافلُ (١)

ويظهر أن الشاعر كان يتردد على ملوك دمشق خلال إقامته بحلب ، ولما تفاقم الخلاف بينه وبين الزنكيين في أواخر حياته ، انتهز هـذه الفرصة ملك دمشق مجير الدين واستدعاه من حلب (٢) ، ولعل الشاعر لبـاه برغبة نور الدين نفسه ، لأننا سنراه يفتحهـا سريعاً ، ومهما يكن من أمر فقـد قبـل الدعوة ، وآب لموطن شبابه ، وحظي بلقاء الملك وانشده قصيدة نالت إعجابه واستحسنها السامعون ، واستزاده من الشعر فانشده مدحة ثانية في المجلس نفسه ووصله احسن صلة ، وعـاد إلى منزله فعرضت له حمى شديدة لم تمهله غير عشرة أيام ، فقضى نحبـه ليلـة الاربعاء في الحـادي والعشرين من شهر شعبان سنة ٥٤٨ هـ ، وشيع إلى مثواه الأخير في مقبرة بـاب الفـراديس .

(٢)

آثـاره الأدبيـة

أورد الذين ترجموا له طائفة مختارة من شعره ، ولا سيما العماد الكاتب في خريدته وياقوت في إرشاده .

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ١١٧ .

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢٢ ، وياقوت : إرشـاد الاريب : ج ٧ ص ١٢٢ .

أشار الأقدمون إلى ديوان الشاعر (١) ، فذكر العماد أنه اطلع عليه ونظر فيه ، واختار منه ما راقه ، وحلى به أوراق خريدته (٢) ، وذكر ابن خلكان انه ظفر به وهو بحلب ، وجميعه بخطه ، ونقل منه أشياء حسنة رائقة (٣) ، وذكر أبو شامة أنه قرأ فيه ، ونقل منه رسالة كتبها الشاعر إلى نور الدين ، واختار بعض القصائد التي مدحه بها (٤) .

لا نعرف شيئاً عن هذا الديوان الكبير المشهور الذي يجمع معظم شعره وبعض رسائله ، غير أن للشاعر ديواناً آخر صغيراً (٥) ، اختاره من شعره ، وقصره على الثغريات ، وعلى مقطعات متفرقة عملها عند قفوله من العراق إلى الشام ، يتشوق فيها السكن والوطن بالإضافة إلى بعض المدح الأخرى ، وذكر في ختامه قوله « هذا آخر ما اختاره محمد بن نصر بن صغير القيسراني من شعره » (٦) . والغريب أن الشاعر أهمل إيراد قصائده الطنانة في مدح نور الدين (٧) وغيره ، واقتصر على بعض المدح التي قالها .

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٣٠٢ ، وابن كثير : البداية والنهاية ج ١٤ ص ٣١ .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١٢٦ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٢ ص ١٧

(٤) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٨ .

(٥) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ١ ص ٧٦٨ ، وبروكلمان : Brock : SI , 455 والزركلي : الأعلام ، ج ٧ ٣٤٧ .

(٦) ديوان ابن القيسراني (مخطوط) ص ٨٤

(٧) ياقوت : إرشاد الأريب ، ج ٧ ص ١٦٢

القسم الثاني

شعره ومذهبه الفني

(١)

أغراض شعره

نلمح في شعره اتجاهات عامة ثلاثة : تصوير الأحداث الكبرى في بلاد الشام ، والاتجاه التقليدي في المدح ، والتجديد في معاني الغزل والنسيب .

احداث كبرى

صور الشاعر الأحداث الكبرى في عصره خير تصوير ، ووصف من خلال المدح الابطال المسلمين وحروبهم ، ورسمها بدقة ، فكانت لنا صورة حقيقية عن الملاحم المشتجرة بين المسلمين والفرنجة .

نستطيع القول إن المدح التقليدي المعروف خرج عن طوقه الآسر ، وتطرق إلى وصف هذه الأحداث خلال فترة مديدة من الزمن ولم يبق الشاعر كما كان كثير من سابقيه اسير المعاني التقليدية المعروفة : جود ، وبأس ، وحلم ، وجد نفسه أمام صراع مرير تسترخص فيه المهج وتبذل له الأرواح في سبيل عقيدة وصوناً لوطن وطرداً لمغتصب .

أدى الشاعر مهمته خير اداء ، فصور هذه الأحداث الجسام ، ونظمها في شعره ، وخلدها على توالي الأيام ، شأنه في ذلك كأي مؤرخ . فلا عجب إن رأينا كتب التاريخ المعاصرة تتحدث عنها .

أشرنا إلى هذه الأحداث كما نقلها إلينا الشاعر بأمانة عندما عرضنا مراحل حياته ، بيد اننا نحب أن نعرض هنا للبطل الذي كان يلوح في خيال الشاعر ويظن ان تحرير بيت المقدس سيتم على يديه . ظهر عماد الدين ، وحارب الفرنجة حرباً مريرة ، فخاطبه الشاعر قائلا :

فقـل للملوك الكفر تسلم بعـدها ممالكهـا إن البـلاد بـلاده
كذا عن طريق الصبح فلينته الدجا فيا طالما غـال الظلام امتداده
ولله عـزم مـاء سيحان ورده وروضة قسطنطينة مستراده(١)

لكن هذا البطل الموعود ما لبث أن قتل ، وخلفه ابنه نور الدين ، ويعاود الشاعر أمله ويضع فيه ثقته ، ويتمثله المهدي المنتظر :

وأظـن أن الناس لمـا لم يروا عدلاً كعدلك أرجفوا بالقائـم(٢)

وينتظر الخلاص على يديه بعد توالي فتوحه المظفرة ، ويروي ان هـذا المهدي المنقذ سيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً :

كأني بهـذا العـزم لافل حـده . وأقصاه بالأقصى وقد قضي الأمر
وقد أصبح البيت المقدس طاهراً وليس سوى جاري الدماء له طهر
وصلت بمعـراج النبي صوارم مساجدها شفع وساجدها وتر(٣)

قلد الشاعر في بعض قصائده السابقين من الشعراء ، واقتبس منهم كثيراً من معانيهم ، وهذا متعارف عليه في الشعر العربي إذ إن العبـرة عنـد النقاد ليست في الأخذ والسرقة الشعرية ، وإنما هي في حسن الأخذ وذلك بالزيادة على المعنى بنكتة تحسنه وتجعلـه ملائمـا للغرض المطلوب . ولا يعني ذلك أن الشاعر لم يأت بجديد ، وإنما هو كأي شاعر آخر يقلد ويجدد ، تحدوه في ذلك ظروفه الخاصة والحياة العامة . كان هذا الاتجاه التقليدي وما تبعه من تجديد في الأغراض والمعاني تطوراً ملحوظاً في مـدح الشاعر ، وهو لم يقتصر بحكم ظروفه الخاصة على مدح أبطال الأحداث الكبرى ، وإنما

(١) العماد الكاتب : الخريدة : ج ١ ص ١٥٤ ، ١٥٥ ، وأبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٣٧ ، ٣٨ .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ١١٢ — ١١٤ ، وياقوت : إرشاد الاريب ، ج ٧ ص ١٢٠ ، وأبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٠ .

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١٥٧ — ١٥٩ ، وياقوت : إرشاد الاريب : ج ٧ ص ١١٢ — ١١٦ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

مدح غيرهم كمجير الدين آبق، وابن صدقة وزير الخليفة المسترشد، وسديد الدولة الانباري، والوزير الجواد جمال الدين وبعض أمراء بني منقذ كعز الدولة، ومجد الدين مرشد، وابنه مؤيد الدولة أسامة.

التجديد في معاني الغزل والنسيب

درج الشعراء في معظم الأحيان على استهلال قصائدهم بالنسيب، إذ تتفتح النفوس لدى سماعه، فتقبل عليه، وعلى هذه السنة جرى ابن القيسراني في مطالع بعض قصائده كما في هذه البائية التي احب العماد الكاتب ان تحصل له بعد سماعه بيتين منها، أعجز فيهما واعجب، وأبدع واغرب (١)، ومما جاء فيها:

سقى الله بالزوراء من جانب الغرب	مها وردت عين الحياة من القلب
عفائف إلا عن معاقرة الهوى	ضعائف إلا في مغالبة الصب
عقائل تخشاها عقيل بن عامر	كواعب لا تعطي الذمام على كعب
إذا جاذبتهن البوادي مزية	من الحسن شبهن البراقع بالنقب
تظلمت من أجفانهن إلى النوى	سفاها وهل يعدي البعاد على القرب
ولما دنا التوديع قلت لصاحبي :	حنانيك، سر بي عن ملاحظة السرب
إذا كانت الاحداق نوعاً من الظبا	فلا شك أن اللحظ ضرب من الضرب
هبوني تعشقت الفراق ضلالة	فأصبحت في شعب وقلبي في شعب
فمالي إذا ناديت يا صبر منجداً	خذلت، ولبى إن دعا حرقة لبي
تقضى زماني بين بين وهجرة	فحتام لا يصحو فؤادي من حب

---

(١) العماد الكاتب : الخريدة، ج ١ ص ١٢٤، وديوان ابن القيسراني (مخطوط) و ٢٣ - ٢٥.

(٢) الزوراء : اي مدينة الزوراء، وسميت دجلة بغداد الزوراء، ونقل ياقوت ان الزوراء مدينة ابي جعفر المنصور، وهي في الجانب الغربي (معجم البلدان ج ٣ ص ١٥٥، ١٥٦) وفي المحيط الزوراء دجلة وبغداد لان ابوابها الداخلة جعلت مزورة عن الخارجة (مادة زور).

واهوى الذي يهوي له البدر ساجداً ألست ترى في وجهه أثر الترب
وأعجب ما في خمر عينيه أنها تضاعف سكري كلما قللت شربي
إذا لم يكن في الحب عندي زيادة ترجّى فما فضل الزيارة عن غبّ
فصرت إذا ماهزني الشوق نحوهم أحلت عذولي في الغرام على صحبي

تتسم هذه القصيدة ، وبخاصة منها مطلع النسيب ، بسمات يظهر فيها جهد الشاعر في تصنعه البديعي ، ليتحلل من إطار التقليد ، ظناً منه أنه يستطيع عن هذا السبيل أن يتفوق على غيره في أساليب الابتكار والتجديد .

تحدث الشاعر عن نساء الحي وشبههن بمها الزوراء من جانب الغرب ، ووصف بعد ذلك ساعة الوداع ، وهذا معنى مألوف في الشعر العربي . ثم انتقل ليحدثنا عن سكره من خمر عينيه ، وعن صحبه وعواده وعذاله ، ويختتم كل ذلك ليصف لنا هزة الشوق إلى أحبابه .

وقف بعض النقاد الأقدمين من معاصريه معجبين ، ومنهم العماد الكاتب الذي تحدث عن قوله :

واهوى الذي يهوي له البدر ساجداً ألست ترى في وجهه أثر الترب

وقد ذكر أن الشاعر ألم فيه ببيت المعري :

وما كلفة البدر القديم قديمة ولكنها في وجهه أثر اللطم

فأخذه وشبهه بأثر الترب ، وقد أحسن في المعنى والصنعة . ووقف الفقيه علي الخيمي عند قوله :

إذا كانت الأحداق ضرباً من الظبا فلا شك أن اللحظ ضرب من الضرب

فذكر أنه أعجب به ، واستدل به على معرفة الشاعر بالمنطق وكلام الأوائل (١) . وعلق العماد على كلام الفقيه فقال : « ضرب من الضرب ضرب من الضرب ، بل أحلى منه عند أهل الأدب ، ونوع محدثات الطرب ، والقاضيات بالعجب ، وما أحسن وقوع هذا التجنيس موقعه ، ووضع المعنى فيه موضعه ، حتى قلت في هذا البيت ما أصنعه ! (٢) » .

---

(١) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٩٧ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٩٧ ، ٩٨ .

نستطيع من خلال هذه القصيدة ، ومن خلال هذا البيت بالذات ، أن نتبين صفة هامة تطبع غزله ونسيبه بطابع خاص ، فهو قد تحدث عن ظبا الأحداق وكثيراً ما نرى في شعره مثل هذه الصور التي استخدم فيها خياله تنافر الأضداد، وكأن الحرب قائمة أبداً بين حبيب ظالم ومحب مظلوم :

لا يغُـرَّنْـكَ بالسُّيوفِ المضـاءُ فالظُّبا ما نظرتَهُ منه الظِّباءُ
حَـدَقٌ صحتهـا علتهـا ربمـا كان من الـداء الـدواءُ
مرهفـاتُ الحـدِّ أمهاهـا المهـا وقضـاهـا للمحبـينَ القضـاءُ
خَلِّ ما بيـن دُماهـا ودمـي فعلى تلك الدُّمى تجـري الدماءُ
في لقـاء البيضِ البيضِ والسُّمرِ منـيٌّ دونهـا للبيضِ والسُّمرِ لقـاءُ(١)

لعب التصنيع دوره في هذه المعاني التي تصور لنا حبيب الشاعر الظالم وكأنه في حرب ضروس مع المحبوب المظلوم . تكررت امثال هذه المعاني الحربية في غزله ، فاللواحظ تطاعن ، والأعين تنوب عن الثغر (٢) ولا قلب إلا بالنواظر مقصود (٣) .

ثمة معان أخرى وضحت لنا كثيراً من الأشياء في صميم حياة الشاعر ، وقد ظهرت جلية في حديثه عن الشيب الذي وخط عارضيه :

أما الشبابُ فطيفٌ زارني ومضى لما تبلَّجَ صبحُ الشيب معترضا
وما وجدتُ الصِّبا في طول صحبته إلا لبسُ الجفنُ الكرى ونضا
فالآن صرَّحَ شيبُ الرأس عن عذل محض، ولم يزو عنكَ النصح من محضا
فإن تبتْ سحبُ الأجفان هامية فعن سنا بارقٍ في عارضٍ ومضا(٤)

وفي قصيدة أخرى يخاطب الشاعر هنداً ، ويحدثها عن الزمان الذي اشعل رأسه شيباً :

---

(١) ديوان ابن القيسراني (مخطوط) و ٣٠ ، والعماد الكاتب : خريدة القصر ج ١ ص ٩٨ .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ١٤٢ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٥٠ .

(٤) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١٥١ .

ياهندُ ، مَنْ لأخي غرامٍ ، ما جرى   برقُ الثغورِ لطرفـه إلا جـرى
أبكته شيبته وهـل مِنْ عارضٍ   شِمْتَ البـوارق فيـه إلا أمطرا
لاتنكري وَضَحـاً لبستُ قتيرَهُ   ركضُ الزمانِ أثار هذا العثيرا (١)

إن هذه الصورة تبرز لنا بعض صور التصنع البديعي ، وقد وضحت لنا شغف الشاعر بحسن التعليل ، فجعل الدموع مطراً للشيب الـذي جعله برقاً ، وتمثل في الشيب غبار الركض خـلال العمر .

لا ينسى الشاعر ذكر الخمر جرياً على عادة الشعراء ، فأتى علـى وصفها مقلداً غيره ، واستعاض عنها في شعره بخمر الشفاه والعيون :

يا معشـرَ الفتيـانِ ما عنـدكم   في حـائمٍ ذيـدَ عـن الـورْدِ
آلى عـلى الخمـرة لا ذاقهـا   مـا عـاشَ إلا زمـنَ الـوَرْدِ
وقد مضى الوردُ فهـل رخصـةٌ   في أن يكون الوردُ من خـدٍّ (٢)

لقد استعاض عن الخمر بصرف معتقة في جفني الحبيب :

رنـا وكأنّ البـابليَّ المصفّقـا   ترقرقَ في جفنيه صِرْفاً معتقَـاً
وردَّ يداً عن ذي حَبَـاب مُرتّـق   وحيّا بـه مِنْ وجنتيـهِ مُروّقا
وباتَ وشمسُ الكأسِ في غسقِ الدّجا   تقابلُ منه البدرَ في بانةِ النّقا (٣)

ينادي ساقيه أن يحبس عنه الكأس ، فقد عافها ، ويطلب إليه أن يسقيه من خمر الألحاظ فتوناً :

قـلْ لمـنْ أطلـعَ شمس الـ   ـكاسِ مِـن أفـقِ اليمـينِ
احبسِ الـكأسَ فقـد عِفـ   ـتُ سُـلافَ الـزَّرَجـونِ (٤)
واسقنـي مـن خمـر الحـا   ظِـكَ كأساً مِـنْ فتـونِ
أنا لا أشـرَبهـا ! .... لاَ   بـكاسـاتِ الجـفُـونِ

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٤١ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٤٠ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٣٥ .

(٤) الزَّرَجُون : الخمر والكرم أو قضبانه ، وهي معربة .

لا تلمنـــي ، أيـنَ سكــرُ الـ خمـر مِـن سكـر العيـونِ (١)

تلك هي بعض المعاني الطارئة على نسيب الشاعر وغزله وخمرياته، بيد أن هناك غيرها أخذ منها الشاعر بنصيب قليل أو كثير . عرف شعراء هـذا العصر التغزل بالعنصر التركي وغيره ، وقد ظهرت هذه البادرة وأضحـة في شعرهم ، وطبيعي جداً أن تتسرب إلى شعره ، فظهرت واضحة في أماكن عـدة (٢) ، ولكنه لن يتخذها تكأة له في كل أغزاله كما سنرى ذلك عند غيره وإنما عرض لها عرضاً عابراً تقليداً لمذهب شعراء العصر .

الثغريــات

لانعدو الحقيقـة إن قلنا إن الثغريات أجمل مـا في شعره ، وأغلب الظن أن هـذه التسمية من اختراع الشاعر نفسه ، أو مـن تلامذته الذين طلب إليهم أن يرووا عنه ما اختاره لهم مـن ديوانه الكبـير ، وقـد وردت هـذه التسمية في مختاره ، وذكر فيه أنه قالها خـلال مروره بالعواصم ، ووصف بهـا مواضع استحسنها « وهي الثغريات » (٣) . ولكننا نحب أن نذكر أن هذه التسمية لـم يكن سببها مـا مر ذكره ، وانما هـو التصنع البديعي في معنى الثغر ، وذلك بدليـل أن الشاعر في هـذه المجموعة مـن شعره جانس بشكل لانظير له في معاني الثغر المعروفة نذكر منها مثلاً قوله :

واحـرَبا في الثغـورِ مِنْ بلـدٍ   يضحكُ حسناً كأنّـهُ ثغـرُ (٤)

وقـولـه :

مـــاذا بأطـــرافِ الثغـــورِ   مِـنْ بـارقٍ عـلـى ثغـرِ (٥)

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٦٠ .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ١٤٨ ، ١٥٣ .

(٣) ديوان ابن القيسراني (مخطوط) و ٦٠ .

(٤) المصدر السابق و ٦٣ .

(٥) المصـدر السابق و ٦٥ .

وقـولـه :

أبرقٌ في الثغـور مِنَ الثغـورِ   وفي نَحْر العدوِّ مِن النحورِ؟(١)

وقـولـه :

ياغـزالَ الثغـورِ بالقسّـانِ   أنتَ مَنْ غـال ذكـرُهُ نسياني
أسـألُ السّانحاتِ عنكَ نهـاراً   فإذا الليلُ جَنَّ جُنَّ جَناني(٢)

اتخذ الشاعر مـن هـذه المعاني المستحدثة ، ومـا فيها من تصنيع بديعي ، وتكلف جناسي وغيره موضوعاً خاصاً ، سبق فيه غيره ، وأكثر من ذكره ، وهو وصف الفرنجيات والروميات والتحدث من خلالها عن الثغور الإسلامية التي كانت تحت حكم الفرنجة ، ووصف بعض معالمها وكنائسها وحياتها الاجتماعية والسياسية خلال زيارته أنطاكية عام ٥٤٠ هـ .

لانعرف على الضبط سبب هذه الرحلة في أواخر حياته، وكل مانعلمه أنه ارتحل إلى الشمال قاصد انطاكية « لحاجة عرضت له (٣) » ، ويفتن الشاعربما يراه فيها من نساء فرنجيات ، ويسحر بالعيون الزرق والشعور الشقر . والغريب أنه كان يتصيد لقاءهن في الكنائس والأديرة ، ولذلك سوف نرى وصفه الرائع لهن من خلال حديثه عند مروره بها خلال رحلته الفريدة .

مر على عزاز ، وهـو في طريقـه إلى أنطاكية ، فوصف بنـات الأصفر ، وممـا قـالـه :

أين عِزّي مـن رَوْحتـي بعَزاز   وجَوازي على الظباءِ الجوازي؟(٤)

---

(١) المصدر السابق و ٦٥ .

(٢) المصدر السابق و ٦٧ .

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٩٩ .

(٤) الجوازي : مفردها جازئة ، وهي الظبية لتجزئها بالرطب عن الماء ، أو بالعشب عن المـاء .

واليعافيرُ (١) ساحباتُ المعافيـ ـرِ (٢) علينا كالربربِ (٣) المجتاز
بعيونٍ كالمرهفاتِ المواضي وقدودٍ مثلِ القنا الهزّاز
ونحورٍ تقلّدتْ بثغورٍ ريقُها ذوبُ سكّرِ الأهوازِ (٤)
ووجوهٍ لها نبوّةُ حُسنٍ غير أن الإعجازَ في الأعجازِ
ذاتِ خَصْرٍ يكادُ يخفى على الفا رسِ منهُ مواقعُ المِهمَازِ (٦)
لاحظتْني فانقضَّ منها على قلـ ـبيَ طرفٌ لهُ قوادمُ بازِ
وسَبَتْني لها ذوائبُ شَعرٍ عَقَدَتْها تاجاً على أبرواز (٧)
مَن مُعيني على بناتِ بني الأصـ ـفرِ غزواً فإنني اليوم غازِ (٨)

يتحدث الشاعر عن ذكرياته في عزاز ، وجوازه على نسوة من بنات الأصفر ، وتستعبده بعض المعاني التقليدية والتصنع البديعي في حديثه عن عيون كالمرهفات المواضي ، وعن قدود كالقنا الهزاز ، وعن الثغور والنحور ، وعن حسن الوجوه ، وعن إعجاز الأعجاز . ثم ينفرد بعد هذا الوصف العام بذكر رومية لاحظته ، فأصابت قلبه بطرف انقض عليه ، له قوادم باز ، وسبته بسحرها وشعرها . وينتهي أخيراً ليتحدث عن هذا الجهاد الفريد في حب بنات بني الأصفر . أهمل الشاعر في ديوانه المختار جهاد الملوك في حروب الفرنجة ، وخلد جهاده في حبه لأن الجهاد الأول كان — كما يظهر — زلفى إلى الأبطال لنيل العطاء . أما هذا الجهاد فكان بين المحب المسلم والحبيبة الرومية .

(١) اليعافير : مفردها يعفور وهو الظبي .

(٢) المعافير في التاج يرد معافري منسوب الى معافر اليمن ثم صار اسماً للثياب بغير نسبة فيقال : معافر .

(٣) الربرب : القطيع من بقر الوحش .

(٤) الاهواز تسع كور بين البصرة وفارس ، لكل كورة منها اسم خاص ويجمعن على أهواز ولا تفرد الواحدة منهن هوز .

(٥) خمصانة : ضامرة البطن .

(٦) المهماز : حديدة في مؤخر خف الرائض .

(٧) أبرويز : بفتح الواو وكسرها ، وابرواز ملك من ملوك الفرس .

(٨) ديوان ابن القيسراني (مخطوط) ٧٨ و ٧٩ .

ويدخل الشاعر انطاكية ، فيتحدث عن معالمها ، إذ هي أكبر ممالك الصليبيين في بلاد المشرق ، ويصف كنائسها ، ومن خلال ذلك يشبب بمن رآهن من الفرنجيات ، ويتغنى بجمالهن الرائع . نقف مع الشاعر أولاً في وصف انطاكية ، ونستمع إليه يصفها لنا قائلاً :

واحَرَبا في الثغورِ من بَلَدٍ ... يَضْنُك حُسْناً كأنه ثَغر (١)

ترى قصوراً كأنها بِيَعٌ ... ناطقةٌ في خلالها الصورُ

هالاتُ طاقاتهن آهلةٌ ... يبسم في كل هالةٍ قمرُ

سوافرٌ كلما شعرْنَ بنا ... برقعهنّ الحياءُ والخَفَرُ

مِنْ كلّ وجهٍ كأنّ صورتَه ... بدرٌ ، ولكنّ ليلَه شَعَرُ

فهو إذا ما السلوُّ حاربه ... كانَ لتلكَ الضفائرِ الظَفَرُ

فيا عذولي فيهن دعْ كلفي ... وانظر الى الشمس هل لها طُرُرُ

سرْتُ وخلَّفْتُ في ديارهمُ ... قلباً تمنيتُ انه بصر

ولم أزلْ اغبطُ المقيمَ بها ... للقرب،حتى غَبَطْتُ من أُسروا(٢)

نلاحظ أن الشاعر تحلل قليلاً من تصنعه البديعي ومن بعض ما رأيناه من صور تقليدية ومعان متداولة ، ولعل هذه التجربة العاطفية الجديدة في أواخر حياته اكرهته على التخلي قليلاً عما نعرفه من تكلف وتصنع ، لأن شعوره المتوثب ، وعاطفته المتقدة ، وقلبه المنفعل جعلته يعبر بصدق عما في نفسه من إحساس كإنسان ، وذلك أن هذا التعبير الصادق لا يستقيم أبداً مع التكلف والتصنع . فلا بدع إن رأينا الشاعر يتمنى في ختام قصيدته أن يقع أسيراً في هذه الثغور ليحظى بقرب الحسناوات الفرنجيات ولقائهن في كنائسهن .

أعجب الشاعر بكنائس أنطاكية وبيعها ، فشبه بها قصورها المتسعة ، وميز بين كنائس النصارى من أهلها العرب ، وكنائس الفرنجة التي بنيت

---

(١) واحربا : يقال حربته أي دله على ما يحربه ، واحربته أي دللته على ما يغنمه من عدو يغير عليه . وقولهم : واحربا انما هو مأخوذ من هذا . قال ثعلب لما مات حرب بن أمية بالمدينة قالوا : (واحَرَبا) ، ثم نقلوها وقالوا : (واحَرَبا) . وقيل هي مأخوذة من حربه أي سلبه .

(٢) ديوان ابن القيسراني (مخطوط) و ٦٣ ، ٦٤ .

بعد الاحتلال . تحدث عن كنيسة السيدة « وهي قبة شاهقة البنيان عجيبة الوضع لنصارى أنطاكية خاصة دون الإفرنج » (١) ، ووصفها في قصيدتين من ثغرياته . يقول في إحداهما :

متى عُجْتَ يا صاح السيده   فسلْ عن فؤاديَ في الأفئده
وقلبَك حذّرْه عنْ أنْ يُصاد   فإن بها للهوى مصيده
وجوهٌ تباهي قناديلها   ببهجة نيرانها الموقده
ترى كلّ مُستضعفِ خصره   إذا مادعا طرفه أنجده
وذاتِ روادفَ عند القيا   مِ تحسَبُها أنها مُقعَدَه
فيالي من ذلك الزّبر قانِ   إذا زرفنَ الليل أو جعّدَه (٢)
به كلُّ نشوانةٍ لحظها   يُطلقُ بين يدي عربده
صوارمُ قاطعةٌ في الجفو   نِ فهي مجردةٌ مغمده
فها أنا منْ في سبيل الغرا   مِ أوردَه الحبُّ ما أورده
فهل لدمٍ فاتَ من طالب   وهيهاتَ أعجز يومٌ غدَه
وكيف يجازى بقتل النفو   س من لم يمد إليها يده (٣)

وتحدث الشاعر عن كنيسة أخرى ، وهي للافرنج خاصة ، فقال :

بدينكَ يا قسّ بربارةٍ   وما بتّ تتلوه في الحندس
أجرْني من الصُّورِ الناطقاتِ   متى قمْن حولكَ في مِدْرسِ (٤)
إذا هن أقبلْنَ وقتَ الصلا   ةِ في كلّ لونٍ من الأطلس
ترى كلّ فاتنةٍ وجهُها   معرّى بشمس الضحى مكتَس (٥)

ولم يكتف بالكنائس التي رآها في أنطاكية ، وإنما وصف الأديار المنعزلة ،

---

(١) ديوان ابن القيسراني (مخطوط) و ٦٨ .

(٢) الزبرقان : القمر في ليلة التم ، وزرفن شعره : جعله كالزرافين ، وهي الحلق الصغيرة .

(٣) ديوان ابن القيسراني (مخطوط) و ٦٩ .

(٤) المِدرس والمدراس . هو في الأصل الموضع الذي يقرأ فيه القرآن . ومنه مِدراس اليهود ، وهو بيت تدرس فيه التوراة .

(٥) ديوان بن القيسراني (مخطوط) و ٧٠ ، ٧١ .

كدير النصارى ، ودير سمعان (١) ، وهو على بعد فرسخين من انطاكية ، ومما قاله في وصفه :

يا هلْ سمعتم بدير سمعانِ   وما به للعيونِ مِنْ عانِ
أموقفٌ للصلاةِ هيكلُهُ   أم منبت مِنْ منابتِ البانِ
في كلِّ غصنٍ تفاحتا خجلٍ   تلقاكَ مِنْ مثلها ببستانِ
مِن ذاتِ بشرٍ تلوحُ في بشرٍ   وذات جانٍ منها على جانِ
تسجدُ للشمسِ وهي معرضةٌ   في الأفق عنه بوجهِ غيران
وانصرفوا والفؤادُ أفئدةٌ   مع كلِّ نصرانةٍ ونصرانِ
يا حسنَ عيدِ الصليبِ لو أنْ كا   ن الدهرُ فيهمْ أعيادَ صلبانِ (٢)

فتن الشاعر بهذا الدير ، وطار لبه في عيد الصليب ، وما أكثر ماتحدث في تغرباته عن الصليب ومعظمته :

أمعظمةَ الصليبِ وددْتُ أني   ودينِ اللهِ عندكُمُ صليبُ
إذا أقبلتُ قبَّلني حبيبٌ   أُسرُّ به وعانقني حبيبُ
وهل بيني وبينَ العودِ فرقٌ   يُرى إلا التفجُّعُ والنحيبُ
هبيني صورةً نحيا عليها   أُجيبُ إذا دُعيتُ ولا يُجيبُ
فلم يَسمعْ بأطرَفَ مَنْ فتاةٍ   مِنِ الرهبانِ قونتُها (٣) أديبُ
فلو قدّيسُها ناجاهُ لفظي   لأمسى والنَّسيبُ له نسيبُ (٤)

نلاحظ أن الشاعر كان يتعمد دخول الكنائس ليمتع بصره بالراهبات المتبتلات وبغيرهن من النساء المصليات اللواتي يلقاهن هناك ، فيعجب بجمالهن الساحر ، ويرى فيه ضرباً جديداً من السحر الغربي . فهو في القصيدة السابقة يتحدث عن معظمة الصليب ، ويختتمها بالحديث عن قديسها ، ومن خلال ذلك نلاحظ تشخيصه الرائع للصليب ، وهو في ذلك يبدع لنا صورة شعرية في غاية الجمال الفني .

---

(١) المصدر السابق و ٧١ ، ٧٢ .

(٢) ديوان ابن القيسراني (مخطوط) و ٧٣ ، ٧٤ .

(٣) نظن أن الشاعر أراد (الأيقونة) .

(٤) المصدر السابق و ٦٤ .

ويعجب الشاعر بالغواني النصرانيات اللواتي كن يترددن على الكنائس ويصف منهن القديسات ، ويتحدث عن إعراضهن عن مباهج الحياة الدنيا وانصرافهن إلى إقامة الصلوات :

كمْ بالكنائسِ مِنْ مبتّلةٍ ... مثلِ المهاةِ يزينُها الخفرُ(٢)
مِنْ كلِّ ساجدةٍ لصورتِها ... لو أنصفتْ سجدتْ لها الصورُ
قديسةٌ في حبلِ عاتِقِها ... طُولٌ وفي زُنّارِها قِصرُ
غرسَ الحياءُ بصحنِ وجنتِها ... ورداً سقى أغصانَه النظرُ
وتكلمتْ عنها الجفونُ فلو ... حاورتَها لأجابكَ الحوَرُ
وحكتْ مدارِعُها غدائرَها (١) ... فأراكَ ضعفيْ ليلةٍ قمرُ (٣)

لم ينشد الشاعر الحب والجمال في الكنائس وحسب ، وإنما كان يسعى وراءهما حيثما كانا ، ويلاحظ أن جمال العيون الزرق قد استهواه بعد أن ملّ التغزل بعيون الأتراك الضيقة التي شاع كثيراً التحدث عنها في هذا العصر ، كما تذكر في زرقتها سنان القنا الأزرق :

لقد فتنتْني فِرنجيةٌ ... نسيمُ العبيرِ بها يَعبَقُ
ففي ثوبِها غصنٌ ناعمٌ ... وفي تاجِها قمرٌ مُشرقُ
وإن تكُ في عينِها زرقةٌ ... فإنَّ سنانَ القنا أزرقُ (٤)

ويقع الشاعر في حب جارية رومية حسناء تغني بالدف اسمها ماريّا وهي من مولدات إنطاكية ، وكانت « خفيفة الروح في نهاية اللطف » (٥) ومن أصواتها التي كانت تغايظ بها النصارى من ملتها ، وتستميل بها قلوب المسلمين هذا اللحن :

---

(١) المبتلة : بتل وتبتل أى انقطع عن الدنيا الى الله وترك الزواج . والمبتلة أيضا الجميلة كأنما بتل حسنها على اعضائها اي قطع . والمقصود بالطبع هنا المعنى الاول .

(٢) المدارع : جمع مدرعة ، وهي هنا ثوب من الكتان يلبسه رجال الدين عند اليهود والنصارى .

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١٢٠ .

(٤) ديوان ابن القيسراني (مخطوط) و ٦٣ ، ٦٤ .

(٥) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١٠١ .

علقتُ بحبلٍ مِنْ حبالِ محمَّدٍ أمنتُ به من طارقِ الحدثان (١)

لكنه ما ابتعد عنها حتى حن إلى لقائها ، فبعث إليها يقول :

ألا ياغزال الثغر هل انت منشدي : علقتُ بحبلٍ مِنْ حبالِ محمدِ
وياهل لذاك اليومِ في الدهر ليلةٌ تعودُ ولو عادت عقيماً بلا غدِ
فألقاك فيها هاديَ الكأسِ حادياً وحسبك مِن ساعٍ بها ومغرِّدِ
ألا حبذا عاري المحاسنِ عاطلٌ محلىً بأثوابِ الملاحةِ مُرتدِ
إذا ما الأماني ما طلتني بوعدِها ذكرتَ له وصلاً على غيرِ موعدِ
وعهدي بماريا ، سقى الله عهدها بما عندها منْ حاجة الهائم الصدي
وفي ذلك الزنار تمثالُ فضةٍ تنقّطُ خديه العيونُ بعسجد
فياليَ مِن وجهٍ كقنديلِ هيكلٍ عليه من الصُدغين محرابُ مسجد
لقد أسرتْني حيث لا أبتغي الفدا فقلْ في أسيرٍ لا يُسرُّ بمفتد (٢)

ينادي الشاعر حبيبته ماريا ، وهي بعيدة عنه ، ويود لو يسمع لحنها المشهور ، ويتمنى أن يعيد الدهر لذلك اليوم ليلة العمر ، ولن يأسى بعدها إن جاءته عميقاً بلا غد ، ويكفيه من الحياة أن يلقاها ، وقد حملت إليه الكأس دهاقا ، وأسمعته صوتها الساحر . وينتقل ليتحدث عن محاسنها وملاحتها ، فيصف لنا مفاتن جسدها ، وقد تمثله في حلقة زنارها كتمثال من اللجين ، تنقط خديه العيون بعسجد ثم يتغنى بعد هذا الوصف كله بوجهها المشرق في جنح ليل مجعد . وبذكر إعراضه أخيراً عن زجاجة الخمر لأن ماريا سقته رضا بها من إناء مورد، وتأخذه النشوة، ويرسم لنا صورة الوجه والصدغين ، كان لحسن التعليل فيها أوفر نصيب في تصنعه البديعي : صورة وجه ماريا المشرق ، وعلى طرفيه صدغاها الساحران ، وقد تمثل الشاعر كل ذلك في صورة أحاطها بإطار ديني موفق ، يظهر من خلاله قنديل هيكل بيعة متألق في حندس الليل ، وعليه محراب مسجد مزخرف ، نمنمته الصنعة العريقة الأنيقة .

جمع الشاعر في هذه الصورة المبتكرة بين المعاني الإسلامية والنصرانية

---

(١) ديوان ابن القيسراني (مخطوط) و ٧٤ .

(٢) ديوان ابن القيسراني (مخطوط) و ٧٤ ، ٧٥ .

على حد سواء ، وقد لاحظنا مثل هذا الجمع كثيراً في شعر المتصوفين والزهاد كابن عربي وغيره .

أكثر الشاعر من هذه المعاني في شعره ، ولسنا بمبالغين إن قلنا إنه يلغ من ذلك مبلغاً لم يدرك شأوه فيها أحد من شعراء هذا العصر . من ذلك قوله في وصف حبيبته ماريا :

إذا ما زُرْتَ ماريّا ... فما سُعدى ، وما ريّا
فتاةٌ كقضيبِ البا ... نِ يَثنيها الصّبا طيّا
تلوّى ، كالمواعيدِ ... أطالتْ عمرَها ، ليّا
لها وجهٌ مسيحيٌّ ... ترَى الميْتَ بهِ حَيّا
إذا ما قابلتْه الشمـ ... سُ لم تبصرْ به فيّا
فيا أحسنَ مَن أعرَ ... ضَ إدلالاً ومَن حيّا
أتنسَينَ وحبَّاكِ ... فتىً قلتِ له : هيّا
فلو نظهرُ وسْم(١) الحـ ... بّ أبصرتِ له كيّا(٢)

تؤكد هذه القصيدة تأثر الشاعر بالمعاني المسيحية ، وتوضح لنا إعراضه عن المعاني التقليدية في الغزل والنسيب ، وذلك أنه لا يطرب لذكر سعدى وريا ، وإنما كل همه مغنية رومية من مولدات انطاكية .

لاحظنا في عرض شعره مذهبه الفني ، كما عرفه معاصروه ، وكما نحاول أن نتعرف الآن في ختام هذا البحث .

تتلمذ ابن القيسراني على شاعر عصره ابن الخياط ، وهو الذي اعتمده في رواية ديوانه لأنه آنس فيه التلميذ العبقري الذي ائتمنه على التقيد بالمذهب الشعري المعروف ، وهو مذهب تصنّع التطبيق والتجنيس .

وجدير بالذكر هنا أن هذا المذهب الشعري تطور حتمي للمدرسة الشعرية المعروفة في بلاد الشام من قبل ، وهي التي بدأت بأبي تمام وتلميذه البحتري من بعده ، وقد سئل عن نفسه وعن أستاذه فقال : « أغوص على

(١) الوسم : العلامة وأثر الكي .

(٢) المصدر السابق ، ١٧٦ .

المعاني ، وأنا أقوم بعمود الشعر (١). علق الآمدي على جوابه بقوله : « وهذا الخبر هو الذي يعرفه الشاميون دون غيره (٢) » .

عرف النقاد الأقدمون في شعره هذا المذهب الذي كان منتشراً في بلاد الشام ، ولاحظوا إكثاره في قصائده من التصنع البديعي وبخاصة منه : الجناس والطباق ، وقد ذكر العماد الكاتب في وصف إحدى قصائده أنها « قطعة مجنسة في لطافة الهواء ، مالكة رق الأهواء ، خلصت من كلفة التكلف ، وصفا مشربها عن قذى التعسف ، فالأشعار المتكلفة المصنوعة قلما يتفق فيها الأبيات المطبوعة ، إلا أن يخص الله من يشاء بالخاطر العاطر ، والفكر الحاضر ، والقريحة الصافية ، والآداب الوافرة الوافية ، وربما يندر للناظم مقطعات يرزق فيها القبول ، كهذه القطعة التي تسلب العقول (٣) » .

أصاب العماد في بعض هذا القول الحقيقة ، فالأشعار المصنوعة قلما يتفق فيها الأبيات المطبوعة ، وقد لاحظنا أن الشاعر كان يتخذ في بعض قصائده هذا المذهب ، ويظهر فيه التصنع والتكلف ، بيد أنه كان يقتصد في الصنعة أحياناً كما في تغرياته ، لأنه كان يستجيب لنداء العاطفة الصادقة . هكذا كان الشاعر في صنعته ، مطبوعاً تارةً ومتصنعاً تارة أخرى ، وعلى ذلك ذاع صيته بين معاصريه فكان رائداً من رواد مذهب التصنع البديعي في هذا العصر .

---

(١) الآمدي : الموازنة ، ص ٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥ .

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٩٨ .

ابن منير الطرابلسي

(٤٣٧ ـ ٤٥٨ هـ = ١٠٨٠ ـ ١١٥٣ م)

القسم الأول

حياته وآثاره

(١)

مراحل حياته

انتشرت الدعوة الفاطمية في بلاد الشام في القرن الخامس الهجري كما رأينا ، وكانت طرابلس الشام الثغر الذي اتخذه دعاة الإسماعيلية منطلقاً لبث تعاليمهم ، وبسط سيطرتهم على هذه الرقعة التي حفظت لهم دعوتهم حيناً من الدهر ، وكانت الطريق التي أمد الدعاة الأوائل بالعون والأيد ، وكانت أيضاً المقر الذي اتخذوه لهم جنة في تدمر وسلمية اللتين كانتا مركز إشعاع للشيعة الإسماعيلية .

أنشأ الفاطميون المدارس الكثيرة ، وكانت طرابلس الشام مقر دار الحكمة ، وقد أنشؤوها على غرار مثيلتها في القاهرة .

في هذه المدينة ، ولد الأديب الشاعر ، عين الزمان ، مهذب الدين ، أبو الحسين أحمد بن منير بن مفلح الطرابلسي (١) سنة ٤٧٣ هـ ، ذكر

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٤٩ ، وابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج ٢ ص ٩٨ ، ٩٩ وابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ١ ص ٥٣ ، وابن العماد : شذرات الذهب : ج ٤ ص ١٤٦ ، وابن كثير : البداية والنهاية : ج ١٠ ص ٢٣١ ، وابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٢٩٩ ، وراغب الطباخ : أعلام النبلاء ، ج ٤ ص ٢٣١ ، وأبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٤٩ ، والدلجي : الفلاكة والمفلكون : ص ١١٢ ، والزركلي : الاعلام ج ١ ص ٢٤٥ ، وسبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ١٣٢ ، والسيوطي : بغية الوعاة ، ج ٢ ص ٩٧ ـ ٩٩ .

المؤرخون أنه من أسرة فقيرة، وأن أباه كان ينشد القصائد في أسواق طرابلس، ويغني أشعار العوني ، ولا نعرف على الضبط مذهبه ، وأغلب الظن أنه كان متشيعاً ، وأنه أحد الدعاة الذين كانوا ينشرون الدعوة عن طريق التقرب من العامة ، وسبيلهم الأفضل نشر القصائد المذهبية والأغاني العامية بين الناس .

مهما يكن من أمر طفولة الشاعر التي لا نعرف كثيراً من أخبارها ، فقد ترعرع في هذا الثغر المرابط المهدد بالأعداء من البر والبحر ، وفي هذا البحران الديني ، فحفظ كتاب الله ، وتفقه أحكامه ، ونال قسطاً وافراً من علوم اللغة والنحو والعروض والقوافي ، وتفوق في الأدب ، فنظم الشعر الفائق ، واكتملت له عناصر الكمال والإبداع .

كان الشاعر يلقب ب « الرفّاء (٢) » ومعنى ذلك أنه احترف في مطلع حياته الرفو وإصلاح الثياب .

أجمع الأقدمون على أنه كان شيعياً مغالياً ، وقالوا عنه إنه كان رافضياً (٢) خبيث اللسان كثير الهجاء ، فخافه الناس ورهبوه ، واستمر على هذا النمط من الحياة في أوائل حياته حتى آن وقت ارتحاله .

عادة معظم الشعراء أن يرتحلوا في غلواء الشبيبة سعياً وراء الشهرة ، وأملاً في اكتساب المعرفة والاستزادة من الثقافة ، ولم يثبت لدينا ان الشاعر ارتحل قبيل الثلاثين من عمره .

والمعروف لدينا تاريخياً أن طرابلس بقيت محاصرة سبع سنوات من قبل الفرنجة حتى افتتاحها سنة ٥٠٣ هـ ، وكان صاحبها يومئذ عمار بن محمد ، فنزح أهلها إلى داخل الشام ، وكان ابن منير أحد هؤلاء المهاجرين بيد أننا لا نعرف مصير والده وأسرته إن كان قد تزوج في هذه المرحلة في حياته .

---

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ١٣٢ ، والسيوطي : بغية الوعاة ج ٢ ص ٩٧ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٤٩ ، وابن عساكر ، تاريخ دمشق ج ٢ ص ٩٨

غادر وطنه آسفاً عليه ، فدخل دمشق بادئاً رحلته التي أكره عليها واتصل بتاج الملوك بوري بن طغتكين ، فمدحه وحظي لديه ، لكنه اتخذ من مكانته عنده سبيلا يهجو به أكابر الدولة وكرام أهلها ، فأحفظهم عليه ، وأثار سخطهم بهجائه المقذع وشعره الفاحش . نتساءل عن السبب الذي جعل علاقته سيئة مع مجتمعه الجديد بدمشق . قد يكون تشيعه من عوامل سوء الخلاف وقد يكون تقريب تاج الملوك له أول وفوده على دمشق من الأسباب التي ألبت عليه غيره من شعراء دمشق . مهما يكن من أمر ذلك فان ممدوحه تغير عليه ، وأفلح أعداؤه في الكيد له ، فقبض عليه ، وألقي في السجن وأمر تاج الملوك بتعذيبه وقطع لسانه ، فتشفع به الحاجب يوسف ابن فيروز ، واستوهبه لحرمه ، وأمر أن يطلق سراحه واكتفى بنفيه من دمشق .

بقي الشاعر بعيدا عن حاضرة ملك آل طغتكين حتى وفاة تاج الملوك سنة ٥٢٦ هـ ، فلما ولي ابنه إسماعيل عاد ثانية إلى دمشق ، واستقر فيها مدة من الزمن ، لكن صاحبها الجديد سرعان ما تغير عليه فجأة أيضا لشيء بلغه عنه أغلب الظن أنه من كيد حساده ، فاستدعاه ، وجد في طلبه بعد أن أصدر أمره بصلبه (١) ، بيد أنه عرف ما بيّت له ، فهرب من بيته ، واختفى في مسجد الوزير أياماً ، وكان خلال اختفائه يتردد على بيت صديقه إبراهيم بن محمد القيسي ، لئلا تدركه عيون الملك حتى تمكن من الخروج من دمشق ، ولحق بالبلاد الشمالية وتنقل بين حماة وشيزر وحلب ينتجع مراد الملوك والأمراء من الزنكيين والمنقذيين .

تلك فترة غامضة في حياة الشاعر ، فها هو ذا ينفى للمرة الثانية لأنه بلغ مسامع الملك إسماعيل ، ويحكم عليه بعقوبة الموت صلباً ، لكن أصدقاءه ساعدوه على الفرار والنجاة بروحه . ولا نكون مغالين إن قلنا إن شيعيته المتطرفة ، وجهره برافضيته أمام الخواص والعوام أثارت عليه نقمة الناس وأحنقتهم ، بله إقذاعه في هجائه الذي أرهب به ذوي السلطان في الدولة ، فاتهم بالزندقة ، وعقوبتها الصلب ، وغيره ممن لقي محنته

---

(١) ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج ٢ ص ٩٨ .

من الفلاسفة والإباحية والمتصوفة كثيرون جداً في هذا العصر .

عاد إلى دمشق أيضاً بيد أننا لا نعرف على الضبط تاريخ عودته ، فهل كانت في زمن إسماعيل نفسه أو في زمن خليفته محمود المقتول سنة ٥٣٣ هـ أو في زمن جمال الدين محمد بن بوري والد آبق ؟؟؟

المؤكد أنه عاد ، لكننا لا نملك البينة لتحديد هذا التاريخ الهام من حياتــه .

ويفر أيضاً للمرة الثالثة في عهد رابع ملوك آل طغتكين المظفر مجير الدين آبق بسبب خوفه من وزيره مؤيد الدولة بن الصوفي ، وقد عرف عنه أنه كان غشوماً ظلوماً ، فأقام في هذه المرة عند امراء شيزر من آل منقذ .

وترددت إليه الرسل لتقنعــه بالعودة إلى دمشق ، فوصل زين الدين ابن حليم رسولاً إليه ، ولقيه في شيزر ، ورغبه في العودة وخدمة المتحكم بأمر دمشق مقدم جيشها معين الدين أنر الذي كان بيده أمر كل شيء بالبلاد، وهو الذي نصب نفسه وصياً على الملك لصغر سنه .

رفض الشاعر العودة وهو أشد ما يكون حرصاً عليها ، فلما فارقه الرسول بعث إليه ثانيــة يستنهض همته للرجوع ، ويذكر له مصلحته فيه ، ويقول له ، « لعلّي أكون في إحضارك كآصف في إحضار عرش بلقيس (١) » .

اعتذر الشاعر ، وبعث كتاباً إلى صديقه زين الدين رسول الملك ، وذكر له فيــه كثرة أعدائه وتآمرهم عليه ، وحمل حملة شعواء على حساده الذين كانوا يفضلون عليه ابن القيسراني ، وذكر في ختام الرسالة خوفه من الأعداء المتربصين به في الطريق إلى دمشق ، وهو لا يمانع في العودة إن ضمن له السلامة من اغتيال عدو دون خدمة المولى (٢) .

نمضي قدماً مع الشاعر ، فنقضي في حماة وشيزر المرحلة الثالثة من حياته ، ونتتهز هذه الفرصة لنتحدث عن شيعيتــه التي سببت له عــدم الاستقرار والخوف الدائم . كانت علاقته مع الناس مضطربة ، فهو شيعي مغــال ، وكان يجتشم نفسه عناء الرحلة إلى بغــداد ليلقى نقيب الأشراف

---

(١) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٩١ .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٩٥ .

الشريف الموسوي ، وقد جهز إليه هدية بعث بها مع مملوكه تتر ، فقبل الشريف هديته واستحسن المملوك ، فأدخله في جملة الهدية ، وقصد أن يعوضه ذلك بأضعافه ، غير ان ابن منير لم يرض بالتخلي عنه « وهو معشوقه الذي اشتهر في الخافقين غرامه » (١) .

فكتب إليه على الفور قصيدة بعث بها إلى الشريف وقد تغزل في مستهلها بمملوكه تتر ، ويعرض في ختامها به قائلاً :

إنَّ الشريفَ الموسوي . . . ابنَ الشريفِ أبي مُضَرْ
أبدَى الجحود ولم يَرُدَّ . . . إليَّ مملوكي تَتَرْ
واليتَ آلَ أميةَ . . . الطُّهرَ الميامينَ الغُرَرْ
وجَحَدْتَ بيعةَ حيدرٍ ورَجَعْتَ عنهُ إلى عُمَرْ
وإذا جرَى ذكرُ الصحا بةِ بينَ جَمْعٍ واشتَهرْ
قلتَ : المقدَّمُ شيخُ تَيْـ ـمٍ ثم صاحِبُه عُمَرْ
هذا الشَّريفُ أضلَّني بعدَ الهدايةِ والنَّظَرْ
فاخشَنَّ الإلهَ بسوءِ فِعـ ـلِكَ واحتذِرْ كلَّ الحَذَرْ (٢)

نلاحظ في هذه القصيدة أن الشاعر على الرغم من تهديده الشريف الموسوي بموالاته لغير طائفته إن أصر على أخذ مملوكه ، كان يرى في أعماق نفسه أن التشيع هو (الهداية والنظر) .

كما كان الشاعر احد سروات الشعر في عصره ، وكان على خلاف كبير مع ابن القيسراني السابق ذكره وغيره من الشعراء ، وجرت بينهما « مكاتبات وأجوبة ومهاجاة (٣) » ، وشبههما معاصروهما ب « جرير العصر وفرزدقه » (٤) .

لجأ ابن منير إلى هجاء الشعراء الآخرين والناس ، لا رغبة في ذلك ، وإنما كان يقصد ترهيبهم وتخويفهم ، لأنه كان شيعياً ، وبهذا السلاح

(١) ابن حجة : الخزانة ، ص ٤٤٦ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٤٩ .

(٤) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٧٩ .

استطاع أن يأمن شرهم ، ولكنه لم يسلم من كيدهم ، وكاد هجاؤه يكلفه حياته ، فنفي من دمشق مراراً ، وأمر بقطع لسانه ، وقضي عليه صلباً .

يظهر أنه رأى في أخريات حياته أن يخفف شيئاً من شدة تعصبه لشيعيته ويلجأ إلى التقية ، إذ لم ينتفع بالجهر في علويته ، فأشهد عليه ابن يحيى أنه حموي . يؤيد ما نذهب إليه الرسالة الشعرية التي بعث بها إلى الشيخ تقي الدين أبي الخير أمين الملك سلامة بن يحيى البقفي :

قل لابن يحيى مقالَ غير غَوِ ... اشهدْ من الآن أنني حَمَوي
لا رافضيٌّ غثٌ أُقيمُ على الـ ... شيخين سوقَ البُهتان بل أُموي
لم أنتفعْ مذْ اقمتُ في حلب ... طرفة عين بأنني علوي
وأن قلبي جَو لأيامِ صِفّـ ... ـين ودائي من كربلاءَ دَوِ
يصنعُ بي كهلُها ويافعُها ... ما يصنع الحنبليُّ بالثنوي
كأنما عاينوا معاويةً ... يلوحُ من نقشِ فصّيَ الفرَوي
لا أدبٌ عاطف علي أدبي ... بل كلُّ وجه دنوتُ منه زَوِ
فالرزقُ لا مُصقبٌ ولا أمَم ... حتى كأني خَلِيتُ غيرَ سَوِ (١)

تؤكد هذه القصيدة أنه رافضي ، وأنه مغال في علويته ، وأنه لقي في سبيل عقيدته السوء من معاصريه ، وها هو ذا يتقرب من ابن يحيى كبير شيوخ حماة في عصره ، ويشهد على نفسه ليعلن أمام الناس أنه غدا حمويّ المذهب ، وما كانت الحموية مذهباً يتخذ ، يعني هذا أنه يرغب في الحماية ليبعد عن نفسه أذى المعاصرين ، ويتخلص من هذا الإعراض وهذه العزلة النفسية .

انتشرت هذه القصيدة ، ولقيت السخرية والإعراض من معاصريه ، فهم يعرفون تمسكه الشديد بعلويته على الرغم مما يلقاه منهم ، ويكتب جوابها صديقه الشاعر ابن قسيم الحموي قائلا :

يا شاعراً أودعتْ أناملُهُ ... درَّ القوافي كتابه النَبَوي
ولو كشفناكَ لم تكن حلبيـ ... ـاً في مذهبٍ ولا حموي

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٧٨ ، ٤٧٩ .

لو كان إبليس قبلُ لاحَ لـهُ   آدمُ من نقشِ فصِّكَ الغرَوي
لخَرَّ ما شئتَ ساجداً وعنا   للهِ طوعاً ، وكان غيرَ غو
فأيُّ وجهٍ رآكَ ناظرُهُ   فازورَّ ، لا مقبلٌ بهِ وزُوي
والدَّهرُ قد ماتَ حادثُهُ   خوفاً ، فأنّى يكونُ غيرَ سوِ (١)

يتضح من جواب ابن قسيم على قصيدته انه لم يكن صادق النية في دعواه النبوية ، وانه لو اظهر ما في مكنون صدره لعرف الناس حقيقته .

لم يتخذ ابن منير حماة دار إقامة وإنما اختار شيزر إحدى ضواحيها لتكون المنفى الذي اختاره لنفسه بعد فراره من دمشق .

نتساءل عن سبب اختيار هذا الحصن بالذات ليكون المعقل الذي يأوي إليه ، وبلاد الشام امامه فسيحة الأرجاء ممتدة الأطراف ، إذ في كل مدينة ملك أو أمير .

أغلب الظن أن قربها من جبل العلويين ، وأن معظم الفلاحين فيها كانوا من سكان جبل المعبّد — كما يقول أسامة في اعتباره — كان السبب الذي جعله يفضل الإقامة عند امراء شيزر بين جماعة من طائفته يعطف عليهم ويعطفون عليه .

مدح الشاعر من أمراء بني المنقذ أبا العساكر سلطان عم أسامة ، وقد روي ابنه أبو الفضل إسماعيل أن اباه أوصى بعمل طست من اللجين ، وأمر أن يكتب عليه بعض أبيات من شعره (١) .

صور خير تصوير طبع الناس وقدرهم ، وتحدث عن الأصدقاء وتقلبهم وود لو قيض الله له صديقاً يصطفيه ، وتمنى لو عدم الدهر الذي ولد فيه :

عَدِمتُ دَهراً ولدتُ فيهِ   كمْ أشربُ المرَّ منْ بنيهِ
ما تعتريني الهمومُ إلاّ   منْ صاحبٍ كنتُ أصطفيهِ
فهلْ صديقٌ يُباعُ حتى   بمُهجتي كنتُ أشتريهِ
يكونُ في قلبِهِ مِثالٌ   يُشبِهُ ما صاغَ ليَ فيهِ
وكمْ صديقٍ رَغِبْتُ عنهُ   قدْ عِشْتُ حتى رغبْتُ فيهِ (٢)

---

(١) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٤٧٩ .

(١) ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج ١ ص ٦٩ .

عاش واحداً بغير صديق ، وشرب المر من ابناء زمنه ، وما أحلى الصورة التي رسمها وهو في منفاه في شيزر للإنسان العظيم الذي رأى الخمول نزيله ، فترحل في فلوات الأرض ، وأبى أن يقيم بين قوم ، ذنب الفضيلة عندهم أن تكمل :

أخلى فصدّ عن الحميم وما اختلى ... ورأى الحِمامَ يغصّه فتوسّلا
ما كانَ واديه بأوّلِ مرتعٍ ... ذَعرتْ طلاوتَه طلاهُ فأجفلا
وإذا الكريمُ رأى الخمولَ نزيلَه ... في منزلٍ فالحزمُ أن يترحّلا
كالبدرِ لما أنْ تضاءل نورُهُ ... طلبَ الكمالَ فحازهُ متنقّلا
ساهمتَ عيسكَ مرّ عيشك قاعداً ... أفلا فَلَيتَ بهنّ ناصيةَ الفَلا
فارقْ ترَقْ كالسيف سلّ فبان في ... متنيه ما أخفى القرابَ وأخملا
لاترضَ منْ دنياكَ ما أدناكَ من ... دنسٍ وكنْ طيفاً حلا ثم انجلى
وَصِلِ الهجيرَ بهجرِ قومٍ كلّما ... أمطرتهم عسلاً جنوا لكَ حنظلا
منْ غادرٍ خبثتْ مغارسُ ودّه ... فإذا مَحضْتَ لهُ الولاءَ تأوّلا
للهِ علمي بالزمانِ وأهلِه ... ذنبُ الفضيلةِ عندَهم أن تكملا
طُبعوا على لؤمِ الطّباع فخيرهُمْ ... إن قلتَ قالَ ، وإنْ سكتّ تقوّلا
أنا مَن إذا ما الدّهرُ همّ بخفضِه ... سامَتْه همّتُه السّماكَ الأعزلا
واعٍ خطابَ الخطبِ وهو مُجمجمٌ ... راعٍ أكلّ العيسَ من عدمِ الكلا
زعمٌ كمنبلجِ الصّباحِ وراءه ... عزمٌ كحدّ السّيفِ صادفَ مقتلا(١)

كان الشاعر خلال مقامه في شيزر يتردد إلى حلب ، يمدح الملوك الزنكيين وأمراءهم ، وفضل الاستقرار فيها أخيراً ، فكانت نهاية مطافه الطويل بعد هجرته من أول مرتع له ، إذ وجد في رعاية ملكها عماد الدين وابنه نور الدين من بعده ما صرفه عن كل ممدوح غيرهما ، فخصهما بغر قصائده ، وخلد الفتوح الكبرى التى أفاءها الله على يديهما .

---

(١) ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج ١ ص ٩٨ ، ٩٩ والعماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٨٩ .

صورت مدحه الزنكية الصراع البطولي في هذا العصر فلم تقتصر على نعته صدقاً أو كذباً ، وإنما اتخذها ذريعة أرخ فيها كفاح المسلمين ، وصور معاركهم مع الصليبيين خير تصوير .

يكفي هنا أن نشير إلى القصائد التي نظمها الشاعر خلال حدثين هامين شهدهما الشاعر عند فتح بارين وفتح الرها لندلل على أهميتها من الناحية التاريخية .

مدح الشاعر عماد الدين كغيره من الشعراء بعد موقعة بارين ، وصور هذه المعركة بقصيدة مطلعها قوله :

فَدَتكَ الملوكُ وأيامها ودامَ لنقضِكَ إبرامُها (١)

ومدحه بعد موقعة الرها وفتحها ، وصور أيضاً هذه المعركة الهامة بقصيدة ، مطلعها قوله :

أيا مَلِكاً ألقى على الشركِ كلكلاً أناخَ على أماته كَلكَل الثكل (٢)

ومدحه بقصيدة ثانية في المعركة نفسها ، وفيها يقارن الشاعر بينها وبين عمورية ومعتصمها ، ويفضل الرها وعمادها . ومطلعها قوله :

صفاتُ مجدكَ لفظ جلَّ معناهُ فلا استردَّ الذي أعطاكهُ اللهُ (٣)

ومدحه بقصيدة ثالثة في فتح الرها وفيها يبالغ في تصنعه البياني والبديعي ، فيعبث بالأعلام من اسماء ملوك الفرنجة وأمرائهم ، ويشتق الأفعال التي تتجانس معها والتي تصور هزيمتهم المنكرة أمام جند عماد الدين ومطلعها قوله :

بعمادِ الدين أضحَت عُروةُ الدِّ ين معصوباً بها الفتحُ المُبينُ (٤)

نبه اسم الشاعر ، وذاع صيته في حلب الشهباء ، ونافسه ابن القيسراني و « وقع في مباراته ومعارضته ، ومجاراته في مضمار القريض ومناقضته (٥) » فقد روى قاضي السويداء أبو المجد أن ابن منير كان يبكت

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٣٩ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٣ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٩ .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٩ – ٤٠ .

(٥) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٧٩ .

منافسه ، ويذكر له أنه ماصحب أحداً قط إلا نكب بسبب سوء طالعه . وقد اتفق أن عماد الدين غناه مغن على قلعة جعبر وهو يحاصرها قول الشاعر :

ويلي من المعرض الغضبان إذ نقل الـ واشي إليه حديثاً كله زور
سلمت فازور يزوي قوس حاجبه كأنني كأس خمر وهو مخمور (١)

فاستحسنها زنكي وسأل عن صاحبها ، فقيل لابن منير ، فكتب إلى والي حلب ليسيره سريعاً ، فبعث به إليه ، ولما وصل وجد عماد الدين مقتولاً فاضطر أن يعود إلى حلب صحبة صاحب حمص أسد الدين شيركوه وابنه نور الدين ، فلما دخل المدينة رآه ابن القيسراني فقال له شامتاً : « هذه بجميع ما كنت تبكتني به » (٢) .

اختص الشاعر بالملك الجديد نور الدين وخلد أيضاً في شعره ومدحه الصراع الديني المرير بين المسلمين والفرنجة . استهل صلته به بعد معركة الرها التي أعلنت العصيان عليه ، فمدحه بقصيدة مطلعها قوله :

ملك ما أذل بالفتح أرضاً قط إلا أعزها إغلاقه (٣)

ومدحه بقصيدة أخرى مطلعها قوله :

أبداً ينكب عن ضلال سادراً بتقوب زندك أو تدل على هدى (٤)

ومدحه بقصيدة ثالثة ، وهو يشهد رأس البرنس صاحب أنطاكية محمولاً قرب جسر الحديد بحلب الشهباء ، ومطلعها قوله :

أقوى الضلال وأقفرت عرصاته وعلا الهدى وتبلجت قسماته (٥)

توثقت صلة الشاعر بالملك الجديد ، فخصه بمدحه الكثيرة ، واتخذ من حاضرة ملكه مقامه ومستقره بعد النفي والتشرد ، بله إعراض الناس

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٤٩ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٩ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٤٩ .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢١ — ٢٢ .

(٥) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٥٨ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٢٢ : وابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٥٤ — ٥٥ .

وسوء معاملتهم له . اما مكان مسكنه فيقع في درب الفاخوري على باب الجامع الكبير الشمالي (١) .

يظهر انه انيط به عمل في خدمة الملك ، إذ كان يصاحبه في غزواته الكثيرة ، وكان يسفر أحياناً بينه وبين بعض ملوك عصره . ومن ذلك أنه قدم صحبته سنة ٥٤٧ هـ عندما حاصر دمشق الحصار الثاني ، وكان أبوه عماد الدين قد حاصرها من قبل سنة ٥٣٤ هـ في عهد ملكها جمال الدين محمد ابن بوري : أما في هذه المرة فكان ملكها مجير الدين آبق بن محمد ، وكان الخطر يتهدد البلاد من قبل الفرنجة الذين استولوا على عسقلان وهي لمصر ، وهددوا دمشق التي حالت بين نور الدين ونجدة مصر للدفاع عنها ، فطمعوا بها واستضعفوا اهلها وفرضوا عليهم الإتاوة السنوية واستردوا منهم أسراهم ، وكان رسولهم يجول كما يشاء في ربوع دمشق .

كان ابن منير رسولاً مبعوثاً من قبل نور الدين ، فوافى جلق موفداً من جانبه قبيل الاستيلاء عليها وتملكها ، فلقي مجير الدين وحظي لديه بالوجاهة والكرامة في السفارة .

خرج بالأمس منها شريداً طريداً ، وقضى أيامه منفياً عنها ، وها هو ذا اليوم يرجع إليها معززاً مكرماً ، يحمل رسالة أعظم ملوك المسلمين . دخلها دخول المنتصر ، وكاد قبل اليوم يقطع لسانه ويلقى حتفه مصلوباً . كان يتمنى أن يرى ملكه يدخلها فاتحاً فينقذها من حكم أسرة آل طغتكين حليفة الفرنجة ، لكن المنية عاجلته وهو على حصارها ، فرجع إلى حلب صحبة بعض الجند العائدين ، ومات فيها سنة ٥٤٨ هـ ودفن في جبل جوشن ، قرب المشهد الذي يقع فيه (٢) .

---

(١) الطباخ : أعلام النبلاء ، ج ٤ ص ٢٣٦ .

(٢) ثمة رواية اخرى غريبة انفرد بها أبو الحكم عبيد الله ، وهي أن ابن منير توفي سنة ٥٤٧ هـ ورثاه بأبيات هزلية ، يفهم منها أنه مات بدمشق ، وهذا غير صحيح . (ابن خلكان وفيات الاعيان ، ج ١ ص ٤٩) .

(٢)

آثـــاره الأدبيـــة

اورد مؤرخو هذا العصر شواهد مختارة من شعره في وصف الأحداث الكبرى من خلال مدحه كبار الأبطال المنتصرين ، كما أشار الأقدمون إلـى ديوانه : فذكر ابن خلكان أن له ديوان شعر (١) ، وذكر ابو شامة انـه قـرأ فيه قصائد بمدح نور الدين (٢) ، واقتبس منـه شواهد كثيرة في تاريخه ، وبخاصة منها ما يتعلق بوصف الأحداث التاريخية . أما العماد الكاتب فقد تحدث عنه في معرض ترجمته له ، وقال : « ولم يتفق لي ديوانه لأختـار مختاره ، وأمتار مشتاره ، وأجني من روض حسنه ورده وبهاره ، ورنـده وعراره ، وإنما التقطت أعلاقه من أفواه المنشدين ، واستفتحت أغلاقـه من أيدي الموردين ، وسأثبت إن ظفرت بديوانـه شعره كل ما يصدع به فجر فخره ، ويطلع منه بذر قدره . ويدل على سمو مناره ، ونمو أنواره ، وعلو ناره ، ورقة نسيم أسحاره ، ودقة سر سحره في معاني أشعاره ، وأخفـر الخريدة من سخيفها ، واوفر لها الحظ من وافر رائقها ولطيفها ، وأجلـو لناظرها طرف طريفها ، وأغني عن ثقيلها بذكر خفيفها (٣) » .

شأننا شأن العماد نفسه ، فلم نظفر مثله بهذا الديوان المفقود الـذي أدهشه قبل أن يطلع عليه ، وإنما التقط أعلاقه من أفواه المنشدين، واستفتح أغلاقه من أيدي الموردين .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٢ ص ٤٩ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢١ .

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٧٨ .

القسم الثاني

شعره ومذهبه الفني

(١)

أغراض شعره

يصور شعره الأحداث الكبرى التي شهدها في هذا العصر ، كما يصور حياته الخاصة ، في معرض شكواه من الزمان وبنيه ، وقد برع في هجائه وغزله .

أحداث كبرى

مدح ابن منير ملوك عصره ، وأشاد بجهاد أبطاله ، وكانت مدحه الزنكية تطوراً جديداً في المعاني التقليدية ، كما رأينا الأمر نفسه عند منافسه ابن القيسراني ، وقد وصف مثله الأحداث الكبرى في بلاد الشام لأنها أصبحت الموضوع الرئيسي الذي يجب أن يلم به كل شاعر معاصر .

أشرنا إلى كل ذلك في معرض حديثنا عن حياة الشاعر ، وذكرنا أنه أسهم بدوره في الدعوة إلى تحرير بيت المقدس في غد قريب :

وغداً يُلْقَى على القُدسِ بها ... كَكَلٌ يدرسُها درسَ الدَّرِينْ

بك يا شمسَ المعالي رُدَّتِ الرُّ ... وحُ في الميّتينِ منْ دنيا ودِينْ (١)

كان شعراء العصر لسان الشعب الناطق المعبر عن أمانيه ورغباته ، ولا ينكر لهم ذلك ، فكأنهم كانوا يرسمون للبطل الممدوح الطريق التى تخلده في صفحات التاريخ .

هذا شأن مدحه الحربية ، صورة تاريخية من صور الجهاد ، أما سائر مدحه الخاصة فلن يجدينا الوقوف عندها طويلاً ، إذ لا جديد فيها يخرجها

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٤٠ .

"Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)"

عن المعاني التقليدية من مدح الممدوح بالبأس والجود والحلم ، وأبرز ما يميزها هو الإغراق في التصنع البياني والبديعي .

غــزل ونسيب

أعرض الشاعر في كثير من قصائده عن استهلالها بالنسيب ، وقد رأينا الأمر نفسه لدى معظم شعراء العصر ، وهـذا تطور هام في عمود الشعر العربي ، بدأت طلائعه قبيل هذا العصر ، بيد انه أصبح صفة مميزة فيما بعده .

أما الغزل فقد اتخذه موضوعاً خاصاً ، ونظم مقطعات صغيرة وقصائد كاملة في هـذا الغرض . وجديـر أن نقف عندها قبـل أن نوضح فنونها واتجاهاتها .

أعجب الأقدمون بقصيدته الغزلية المطولة ، إذ بلغت عدتها سبعـة وثلاثين بيتاً : اخترنا منها عشرة الأبيات التالية :

مَنْ ركّبَ البدْرَ في صدرِ الرُدَيْنِيّ ومَوّه السِّحر في حدّ اليمانيّ

وأنـزَلَ النَّيرَ الأعلى إلى فلـكٍ مـدارُهُ في القبـاءِ الخُسرَوانيّ

طرْفٌ رنا أمْ قرابٌ سُلَّ صارمُهُ وأغيدٌ مـاس أمْ أعطافُ خطّيّ

أذلّني بعدَ عزّي والهـوى أبـداً يستعبدُ اللّيث للظّبي الكِناسيّ

أما وذائبِ مِسكٍ مِنْ ذوائبـهِ على أعـالي القضيبِ الخيزُرانيّ

لو قيلَ للبدرِ : من في الأرض تحسدُهُ إذا تجلى ، لقـال : ابنُ الفـلانيّ

إباءُ فارسَ معْ لينِ الشآم مع الـ ظَّرف العراقيّ في النُطق الحجازيّ

وما المَدامةُ بالألبـابِ ألعبُ مِنْ فصاحةِ البدوِ في ألفـاظِ تُركيّ

فلو بصُرْتَ بهِ يُصغي وأُنشدُهُ قلتَ: النؤاسيّ يشجي قلبَ عُذريّ (١)

يتغزل الشاعر بمحبوب له فارسي النجار ، جمع فيه لين الشآم وظرف العراق ونطق الحجاز ، وكان معجباً بهذه الصفات الجمالية ، وعبر عن هذا الإعجاب بصورة عبثت بها الصنعة التى ظهرت من خلال الأبيات المذكورة .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٤٩ ، والطباخ : أعلام النبلاء ج ٤ ص ٢٣٤ — ٢٣٦ .

أسرف الشاعر في حبه فبلغ به درجة العبادة ، ورضي بضلاله بعد هداه ، وأبى ان يكتمه لأنه يرى في الحب ستراً .

لا وحبيك لا عبدتك سراً | بل صدغيك صير الليل ظهرا
وضح الأمر واستوى الناس فيه | وافتضحنا ، فالحمد لله شكرا
أيها الصاحيان من كأس عين | غازلتني حتى تطفحت سكرا
اعذرا إن أردتما أو فلوما | في بديع ، حسبي عذاراه عذرا
واطلبا للجحود غيري فإني | لست ممن يحب في الحب سترا
أنا من أجل خده دنت للنا | ر ، وفي حاله عبدت الشعرى
فضلالي بعد الهدى في هواه | هو عندي خير وأعظم أجرا (١)

يتخلى الشاعر في هذه القصيدة عن قسط آخر من صنعنه ، ويقترب قليلاً من جمال الطبع ، فنحس بانفعالات شعوره ، وتوقد عواطفه لأنها تتجلى هنا على حقيقتها دون عبث أو تمويه ، إذ كلما تعقدت الصنعة ، احتجب عنا الشاعر خلف ستار ضيق من العبث اللفظي . ويتخلى الشاعر ايضا عن قسط آخر من تصنعه ، ويستسيغ في غزله الأبحر المجزوءة إذ هي أقرب إلى النفس ، وأبعد عن التكلف ، وأخف على اللسان ، كما في القصيدة التالية التي أعجب بها العماد الكاتب وذكر أنها اطيب نظم مسموع في عصرنا :

يا بأبي من وصلا | ومل ممّا مطلا
زار وقد خاط الدجى | على حلاه حللا
فكدت إجلالاً له | أدمي يديه قبلا
فقلت : مولاي ألا | غير اليدين ؟ قال : لا
ودار ماء الحسن فو | ق وجنتيه خجلا
حتى إذا سرّى سرى | وحين أحيا قتلا
يا حبذا الغزا | ل لو شفاني غزلا
فديت من أبيت منـ | ـه وعليه وجلا

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٨٠ .

بدرٌ إذا البدرُ سرى … فيه المحاقُ كمُلا
شمسٌ إذا الشمسُ خبَت … تحت الكسوفِ اشتعلا
إذا تلطّفتُ قسا … وإنْ سألتُ بخلا
ليت اعتدالَ قدِّه … عَطفَه فعدلا
بل ليت صحنَ خدِّه … من ذلك الخالِ خلا
فهو الذي قلّب قلـ … ـبي في قواليب البلا
يا سائلي عن الهوى … وطعمِه سلْ من سلا
أسكرني الحبُّ فما … أدري : أمرٌّ أم حلا ؟ (١)

لاحظنا في القصيدتين السابقتين أن الشاعر تغنى فيهما بالخال عرضاً ، وأكثر أشعاره الغزلية فيه ، وقد ردد هذا المعنى كثيراً في شعره (٢) واتخذه موضوعاً خاصاً يدور حوله ، وقد أسرف كل الإسراف في وصفه واختراع معانيه ، حتى ليمكننا اعتباره صفة مميزة له في غزله ، لا يقدر أحد من الشعراء على مجاراته فيها .

كنا رأيناه قد اتخذ من الشعرى معبودة له ، لأن لها من الخال بعض صفاته التي استمدها من لفظها لا معناها، جرياً على مذهبه الفني في التصنع البديعى ، وكنا رأيناه أيضاً يود لو خلا منه صحن خده ، إذ إنه حطم قلبه ، وقلّبه في قوالب البلى والبلاء .

ولا بد لنا من أن نعرض لهذا المعنى الذي اختص به الشاعر ، فرسم للخيلان صوراً دقيقة جداً ، اقتطفنا بعضها من مقطعاته الغزلية المختارة ، ففي إحداها يقول : إن خال المحبوب جذوة متقدة من نار فؤاده :

أنكرتْ مقلتُه سفكَ دمي … وعلا وجنتَه فاعترفتْ
لا تخالوا خاله في خدِّه … نقطةً من صبغ جفنٍ نطفتْ (٢)
تلك من نار فؤادي جذوةٌ … فيه ساختْ وانطفت ثم طفتْ (٣)

---

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٨١ — ٨٢ .

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٠ .

(٣) نطف : قطر قليلاً قليلا

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٠ .

ويتصور الحسنُ نقاشاً ينقش بأنامله الدقيقة شامته على وجنة حبيبه ، فيشمت بها حساده :

نقشَ الحسن على وَجنته شامةً ، أشمتت حسّادي بها
كانَ قد أعوزها بستانُهُ ثمّ لمّا أشرقتْ فيه انتهى (١)

ويخشى الشاعر أن يظن الخال نقط مسك ذاب من طرته ، ويؤكد أنه حبة قلبه المسلوبة قد استوت على وجنته :

أتخالُ الخالَ يعلو خدّه نقطَ مسكٍ ذاب من طرّته
ذاك قلبي سُلبتْ حبّتُهُ واستوتْ خالاً على وجنته (٢)

ويخاطب محبوبه ، ويصور له حاله بعد أن سلبت حبة قلبه ، فزاد سقاماً ونحولاً ، وكست وجنته سحراً وجمالاً :

سلبتَ حبّةَ قلبي وصفتها لكَ خالا
فقد كستني نحولاً كما كستك جمالا (٣)

ويصور الشاعر أيضاً وجنته ، وقد نقشت بنقطة خاله ونبات عارضه، فبدت كأنها القرآن الكريم ، يقرأ به الناظر من مشق أقلام الملاحة أحرفاً :

يبدو فتقرأ في صحيفةِ خدّهِ من مشقِ (٤) أقلام الملاحةِ أحرفا
ذو وجنةٍ نقشتْ بنقطةِ خالهِ ونباتِ عارضهِ فخيلتْ مصحفا(٥)

لم يقف أهتمام الشاعر على وصف الخيلان،وإنما تجاوزها إلى الأصداغ فتحدث عن عقاربها :

صدغُهُ كرمةُ خمرٍ قسّمَتْ بين خديه إلى نكهتهِ
نثّرَتْ جفنيهِ منها نشوةٌ توقظ العاذلَ من سكرتهِ (٦)

---

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٨١

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٨٣ .

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٨٣ .

(٤) مشق في الكتابة : مد حروفها وأسرع فيها .

(٥) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٨٦

(٦) المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٣

وتوَقدتْ في الروض من وجناتـه نارُ الحيـاءِ يشبُّهـا ماءُ الصِّبا
خطَّتْ سوالفـهُ عليهـا رُقيـةً لمّـا تشعبَ صلْغـهُ واعقربا (١)

والطريف أن يخـاف العقرب من تلظـي الـوجنتين ، فيتقلص مـؤثراً السلامـة :

تقلّصَ العقـربُ من صلغـهِ عـن خـدّهِ خوفَ تلظّـيهِ (٢)

ننتهي مما تقدم لنؤكد أن الشاعر كان ذاتياً ومبتكراً في بعض المعانـي التي دارت حول الخيلان والوجنات والأصداغ .

ثورة وهجاء

كان شعره ثورة على مجتمعه وأصدقائه ، فهو ، كما رأينا ، شيعـي المذهب وكان مغالياً في علويته ومتطرفاً في رافضيته ، وقد لقي الإعراض ، وتحمل الاضطهاد وحاول أن يتخلى ظاهرياً عن مذهبه ليصبح حموياً أموياً ، لكن ذلك لم يفده ، فتابع ثورتـه على الناس وسلط عليهـم سيف لسانه ، فأخافهم ، وأحفظ أكابرهم عليه ، وهم الملوك بقطع لسانه مرة وصلبه مرة أخرى ، فخافه الشعراء المعاصرون ، ووقع القيسراني في معارضته ومباراته ، لكنه لم يقو على الوقوف أمامه ، ولم ينته الخلاف بينهما إلا بموتهما معاً في عام واحد . سماهما معاصروهمـا بجرير العصر وفرزدقه ، وقد أوجـدا معركة أدبية كبرى ، انتشرت أخبارها في شتى أنحاء العالم الإسلامي ، كما ذكر ذلك العماد الكاتب ، وصرح بأنه كان ، وهو بالعراق ، يسمع أخبارهما ، حتى أخبر بغروب النجمين وأفول الفرقدين (٣) .

أما شأنه مع الناس فقد علمته التجارب أن الهجاء سلاح ماض يشهره في وجه خصومه ليدفع عن نفسه شرّهم ، ويخيف غيرهم من الناس الذين يقصدهم فيصلونه رهبة لا رغبة .

أما أسلوبه في هجائه فيظهر لنا بعض خصائصه من خلال هجوه بخيلاً ويكتفي بالتحدث عن رغيف الذرة الذي يصنعه :

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٤

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٨٨ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٧٩ .

رغيفُهُ من ذرةٍ يصنعُهُ أو أصغرا
مُبيَّتاً ملففاً مُبَيْشَراً مبكرا
لو جاز في عين الهدى يأكلُه لما دَرى
أو بلعَ الصائمُ أل ـفاً مثلَه ما أفطرا
كأنّما خبّازُهُ به تحدّى البشرا
فهات، قل: أعرَضاً تجدهُ أم جوهرا؟ (١)

صورة رائعة لوصف رجل بخيل لو قارناها بصور معروفة لشعراء سابقين كالحطيئة وغيره لرأيناها قد فاقتها دقة وعمقا، على الرغم من اقتصارها على وصف رغيف يأكله، حجمه أصغر من ذرة، وأبلس على الشاعر، فلا يدري أهو عرض أم جوهر؟.

(٢)

مذهبه الفني

ننتهي من دراسة شعره لنقرر، على ضوء ما مر معنا، مذهبه الفني، ولعلنا لاحظنا من خلال أسلوبه أنه كان يعنى كل العناية بالتصنع البديعي، وكان أميناً على مذهب التطبيق والتجنيس.

وغني عن البيان أن الشاعر ثقف أسلوبه، ومتن تراكيبه، فبدت جزلة عبثت بها الزخارف، فكثرت حيناً وتضاءلت حيناً آخر، وهو بين هذين الاتجاهين، يقترب تارةً من الطبع السليم، وينأى عنه تارة أخرى، وقد لاحظناه في غزله يتجرد من بعض أساليب التكلف والتصنع.

وصف الشاعر أسلوبه في قصيدته التترية التي بعث بها إلى الشريف الموسوي، وجاء في ختامها قوله:

وإليكها بدويةٌ رقّتْ لرقّتها الخضرْ
شاميةٌ لو شامها قسُّ الفصاحةِ لافتخرْ
ودَرَى وأيقنَ أنّني بحرٌ وألفاظي دُرَرْ
وبديعتي كبديعةٍ عذراءَ ترفلُ بالحبرْ

(١) العماد الكاتب: الخريدة ج ١ ص ٩٠.

حبَّرتَهــا فغدتْ كزهــ ــر الروضِ باكــرَهُ المطرْ
وإلــى الشــريف بعثتهــا لمّــا قراهــا فانبهــر(١)

يضـاف إلى ذلك أنه كان يكثر من الزخارف البديعة ، ويعبث بأسماء الأعلام الأعجمية التي كان يوردها في وصف الاحـداث الكبرى ، ويشققها ، ويشتق منها أفعالاً سعياً وراء المجانسبة ، ويستخدمها في إيراد المعاني التي يصور فيها هزيمة الصليبيين ، وقد وفق في بعضها ، لكنها بدت غريبة بعض الغرابة ، وغرض الشاعر من ذلك التجديد عن هذا السبيل ، فبذل جهده ، واستطاع أن يضيف لمذهب التصنع صورة جديدة من صوره .

مهما يكن من أمر فمما لا شك فيه أن الشاعر كان علماً كبيراً من أعلام شعراء العصر ، سجل أحداثه الكبرى ، ومدح ملوكه وأمراءه ، وصور في شعره أحواله ، ووصف حياته حلوها ومرها ، وكان أميناً على مذهب العصر في التطبيق والتجنيس ، فأسهم بشكل فعال مع ابن القيسراني في قيادة مذهب التصنيع البديعي ، ولكل زمن بديع كما يقول ابن حجة (٢) .

---

(٢) ابن حجة : الخزانة ، ص ١٢٨ .

(١) ابن حجة : الخزانة ، ص ٦ .

ابن قسيم الحموي

(٥٠٠ — ٥٤٢ هـ = ١١٠٥ — ١١٤٦ م)

القسم الأول

حياته وآثاره

(١)

مراحل حياتـه

ولد شرف الدين ، أبو المجد (١) ، مُسْلم بن الخَضِر بن مُسْلم بن قسيم التنوخي" الحموي" ، أوائل القرن السادس الهجري بحماة . وهو أحد شعراء العصر الثلاثة المشهورين بعد ابن القيسراني وابن منير المار ذكرهما « نبغ في عصر شيخوختهما ، وبلغ إلى درجتهما » (٢) .

لا نعرف كثيراً عن نشأته ، وكل ما يمكن ذكره أنه قضى طفولته الأولى في مسقط رأسه ، فحفظ القرآن الكريم ، وفقه علوم الدين ، فكان أحد فقهائه البارزين . ونال كذلك نصيباً أوفى من دراسة الأدب ، فعكف على نظم الشعر ، واشتهر أمره ، ونبه ذكره ، واتصل بأعلام الشعراء ، وطارحهم رسائله الشعرية ، وبخاصة منهم الشاعر المشهور ابن منير السابق ذكره ، وكانت تربطه بـه صداقة متينـة ، كما يظهر في تلك المطارحات الشعريـة الإخوانيـة . ولا نستغرب إن رأيناه يشيـد بحب آل البيت ويدافع عن الشيعة العلوية :

---

(١) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٤٣٣ ، وابن واصل ، مفرج الكرب ، ج ١ ص ٨٢، وأبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٤ ، ٣٢ ، وابن الاثير :الكامل، ج ١١ ص ٢٤، وسبط ابن الجوزي : مرآة الزمان (مخطوط) ج ١٠ و٥٠٣،٥٠٢ ، وابن عساكر : تاريخ دمشق (مخطوط) مجلد ٩ ج ١٧ .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٤٣٣ .

ويــدٍ بـــآل مُحمـــدٍ عَلِقَتْ مِنيّ فلستُ بغـيرِهِمْ أرضى
جعــل الإلــهُ عليَّ حُبَّهــمُ وعلى جميــع عبــاده فرضــا
فأثــار ذلــك مِنْ زنادقــةٍ حَسَداً ، فَسَموا حبهم رفضا
وعجبتُ هلْ يرجو الشفاعــة من ينــوي لآل محمــدٍ بغضــا !؟(١)

حقاً إنه موقف إنساني نبيل يقفه هذا الشاعر الشاب ، فيدافع عــن الروافض في عصر اشتد فيه التعصب ، ويعلن أن كل من يعاديهم ، ويأخــذ عليهم حبهم للرسول صلى الله عليه وسلم وآله ، زنديق حسود .

يظهر أنه كان حسن الحال ، وكان قانعاً بعمله في أحد مساجد حماة ، فلم يعرف عنه أنه ارتحــل أو أكثر من الارتحــال ، إذ لم يكثر من المــدح كمعاصريه ، وإنما أكثر من شعره الوجداني، فتغزل كثيراً ، ويكفينا ما اختاره العماد الكاتب من أغزاله ليعطينا الدليل على أن هذا الفرض استنفد معظــم ديوانه . ولا يعني قولي هذا أن الشاعر لم يتصل بملوك عصره وأمرائــه ، فذلك أمر لا بد منه لكل شاعر شاء أم أبى ، وهكذا مدح الزنكيين ، وبعــض وزراء آل طفتكين .

أحرز ابن قسيم أول نصر أدبي له عام ٥٣١ هـ، وكان إذ ذاك في الثلاثين من عمره ، وذلك عندما حاصر إمبراطور الروم يوحنا الثاني (٢) حصن شيزر قرابة أحد وعشرين يوماً « وكان المسلمون بالشام قد أشتد خوفهم ، وعلموا أن الروم إن ملكوا حصن شيزر ، لا يبقى لمسلم معهم مقام ، ولا سيما مدينة حماة لقربها » .

هرع عماد الدين للقائه ، فحال العاصي بينهما ، فآثر ملك الروم السلامة، وارتحل في درب أفامية . عاد عماد الدين منصوراً بعد أن حصل على غنائــم كثيرة ، وخلد الشعراء هذا الحدث الهام ، وكانت قصيدة ابن قسيم الوحيدة التي اقتبسها المؤرخون في كتبهم دون سائر القصائد الأخرى ، وهي لأعلام شعراء العصر ، ومطلعها قوله :

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٥٣ ، ٤٥٤

(٢) يوحنا الثاني : اسمه الاصلي كالو جوهانيز Calo johannes (١١١٨ — ١١٤٣ م) وهو من اسرة الكسيوس كومينيوس Alexius comminuus (نورمان بينـز : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٦٨ ، وثبت اسماء الاباطرة الرومان الشرقيين لستيفـن رونسمان ص ٤٠١

بعزمـكَ أيهـا الملـكُ العظيـمُ   تـذلُ لك الصّعابُ وتستقيمُ(١)

التقى الشاعر بابنه نور الدين ، ومدحه بعد قضائه على عصيان الرها ، واثنى عليه معجباً ببطولته وتنبأ بفتح انطاكية على يديه ، وكأنما كان يحثه على تحقيق ذلك ، وتلك ظاهرة هامة نراها لدى شعراء العصر الذين وصفوا الأحداث الكبرى ، بيد أن أجله لم يمهله ليرى نبوءته تتحقق على يد ممدوحه بعد عامين اثنين من وفاته ، ومما قاله :

دلفَ الأميرُ لها فهبّ لنصـرهِ   منهـا مباركٌ طـائرٍ ميمونـهُ
وغـداً يكـونُ لـه بأنطاكيــةٍ   مشهورُ فتحٍ فيالزمانِ مبينهُ(٢)

كان الشاعر يتردد إلى دمشق ، وقد قدم اليها في عهد ملكها مجير الدين آبق ، ومدح مقدم جيشها معين الدين أنر بقصيدة مطلعها :

وكم ليلـةٍ عاطانيَ الرّاحَ بدرها   ونادَمني فيها الغزالُ المشنف(٣)

وذكر ابن عساكر أيضاً أنه « شاعر شاب قدم دمشق ، ومدح أتابك زنكي (٤) » .

ومدح أيضاً بعض الأمراء الذين عرفهم نخص منهم الأمير بدر الدولة(٥) وصاحب حماة صلاح الدين محمد بن أيوب التوتان (٦) ، وهو في مدحته يتحدث عن يوحنا الثاني مرة ثانية ، ويشير إلى غايته من حصار شيزر « ليحتوي حماة » و « يملك الشام عنوة » بعد ذلك .

ذكر العماد الكاتب أن ابن قسيم سبق فرزدق العصر ابن منير، وجريره ابن القيسراني ، إذ نبغ في عصر شيخوختهما ، غير أنه لم يعمر طويلاً ، فاختضر فجاة ، وهو في أوائل العقد الخامس . وكأنما شعر بدنو منيته عندما أبصر في عارضيه شعرات من قناع الشيب ، فأنشد :

---

(١) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٤٧١ ، ٤٧٢ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٧٤ ، ٢٧٥ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٥٧ ، ٤٥٨ .

(٤) ابن عساكر : تاريخ دمشق (مخطوط) مجلد ٩ ج ١٧ ، ينظر في حرف الميم .

(٥) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٤٦٢ ، ٤٦٥ .

(٦) ابو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٣٣ .

ومرتدٍ بقناع الشّيبِ جاذبه　　من أطيبيه عِنانَ اللذةِ القِدَمُ
قضى ولم يقضِ مِن عصرالصّبا أربا　　كأنما هو في أجفانه حُلُمُ
لو كنت أعلم أن الدهرَ يعقبني　　بؤسى لما اخترت أن تهدى لي النّعم (١)

لا نعرف البؤسى التي عاناها الشاعر في قوله ، ولعله أُصيب بمرض عضال كان سبب موته ، ولمّا يقض من عصر الصبا أرباً .

لم يحدد العماد وفاته على الضبط ، وإنما ذكر أنها كانت سنة نيف وأربعين وخمسمائة (٢) ، وذكر غيره أنها كانت سنة إحدى وأربعين وخمسمائة (٣) . بيد أن العماد هدانا إلى عام وفاته ، وذلك في المختارات الشعرية الكثيرة التي اقتطفها لنا من ديوانه ، فقد أورد في مطلع إحدى قصائده أنه أنشدها سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة (٤) ، وهي الأغلب سنة وفاته ، وقد مدح بها معين الدين أنر بدمشق .

(٢)

آثاره الأدبيـــة

أغلب الظن أن ديوان الشاعر مفقود ، أشار إليه من القدماء العماد الكاتب في الخريدة (٥) فذكر في ختام ترجمته قوله : « ونظرت في ديوان شعره ، فالتقطت فرائد دره ، وقلائد سحره ، وشحذت من غراره ما قبل الشحذ ، وأخذت من خلاصته ما استوجب الأخذ ، وأوردت لمحاً من ملحه ، ونبذاً من منتقاة ومنتقحه » (٦) .

ويظهر أن الشاعر لم ينقح ديوانه بعد جمعه ، فظهر فيه بعض اللحن كما ذكر العماد ، ولعل موته في عنفوان العمر حال دون تنقيحه .

---

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٤٣٣ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٣٤ .

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٤٣٣ .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٥٧ .

(٥) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٤٩ .

(٦) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٤٣ .

القسم الثاني

شعره ومذهبه الفني

(١)

أغـــراض شعــــره

صور ابن قسيم في شعره الأحداث الكبرى التي طبعت هـذا العصر بطابعها الخاص ، وقد أسهم بدوره في مدح أبطالها وتأريخ حوادثها ، بالإضافة إلى مدحه التقليدية الخاصة ، كما كان لغزله وخمرياته وأوصافـه نصيب كبير في شعـره .

أحـداث كبـرى

تحدثنا عن هزيمـة إمبراطور الروم يوحنا الثاني أمام عماد الدين ، وأشرنا أيضاً إلى عصيان الرها ، وتحدثنا من خلال ذلك عن تحريضه علـى فتح انطاكية . ولا نعدو جادة الحق إن قلنا إن الشاعر كان من أوائل الشعراء الذين سنوا هذه السنة في هذا العصر ، فكان يحرص على تذكير القادة بعد كل نصر بالمعركة المقبلة ، تمهيداً لاسترجاع بيت المقدس في وقت قريب .

جنحت قصائد الأحداث الكبرى عن طابعها الشعري إلى عرض تاريخي مفصل ، واقتصرت على وصف ما يراه الشاعر أو يسمعه ، فأهمل في الغالب الاستهلال بالنسيب وذكر الأطلال ، وإنمـا كان يدخل الحرب من أوسع أبوابها لينقلها إلينا نقلاً أميناً كما يفعل المؤرخ تماماً لا يتميز عنه إلا بفضيلة الوزن . نتجاوز مدح الأحداث الكبرى لنقف عند المدح الخاصة ، وقد لاحظنا أنه كان يستهل بعضها بالنسيب ، وبعضها الآخر ـ كما في مدح الأمير بدر الدولة ـ غير مستهل بـه :

بكت الخطوبُ وتفرمجدكَ ضاحكٌ ونبا الحسامُ وسيفُ عزمكَ باتكُ
يا بن الألى اغتصبوا الممالك بالقنا وإلى العلا لهم الطريق السالكُ
ولقد عجزتُ عن الهناء بدولةٍ نحن العبيدُ لها ، وأنتَ المالكُ
عربيةِ الأوصاف ذات مكارمٍ جُبر الكسيرُ بها وعاش الهالكُ
عجيمةٍ قرنتْ بخيرِ متوَّجٍ زُفتْ إليه مدائحٌ وممالكُ
ملكٌ إذا برقتْ أسرَّةُ وجهه ضحك المقطّب واستنار الحالكُ
فيغارُ منه البدرُ وهو سميُّه ويخاف فتكته الشجاعُ الفاتكُ(١)

نلاحظ أن الشاعر كان مقلدا في أوصافه ، لم يخرج في معانيه عما ألفناه من قبل من نعت الممدوح بالجود أو البأس أو الحلم .

لا تخلو مدحه الخاصة المنسار إليها من استهلال بعضها بالنسيب التقليدي ، فنراه ينحو فيها منحى عذرياً تارة ، ومادياً تارة أخرى، وتختلط مع هذين المنحيين اتجاهات أخرى تقليدية من وصف دار بكاظمة (٢) ، وحي على الماء النمير ، ويذكر الخيام والظباء والأسد (٣) . كما نلاحظ ، بالإضافة إلى كل ذلك ، اتجاهات بحترية في وصف الطيف ، وفي عقارب الأصداغ ، وفي تشبيه الحبيب بالشمس والقمر . يرقب الشاعر الطيف في ليله، ويسأله عن محبوبه الهاجر :

ولقد رقبتُ الطيفَ أسأله عنكم ، فما صدقتْ مواعدُهُ
والمستمرُّ على قطيعته في الحبِّ فاسدةٌ عقائدُهُ
ومن العجائبِ أن يزيدَ به داءُ السقام وأنت عائدُهُ (٤)

ويهزأ ممن يثني يده على كبد حرى أو حشى خفاق ، ويعجب من زعمهم أن مهجة الصب تجري في إثر دمع مراق ، ويرى من خلال شعوره أن الوجد الحقيقي هو تردد نفس المرء بين تراقيه . وينتهي من كل ذلك

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٤٦٢ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٤٥ .
(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٤٠ .
(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٤١ .

ليعلل مبيته ، وهو يرتقب ، طيف الحبيب ، ويشيم برق اهل براق حلب الشهبـــاء :

لستُ ممَّن يَثني على كبدٍ حَـ مَّى يداً منـه أو حشىً خفـّاقِ
كذبوا ، هـل رأيتَ مهجة صبٍّ قطُّ تجري في إثرِ دمـعٍ مُراقِ
إنما الوجـدُ أن تردَّدَ نفسُ الـ مرءِ شوقاً بين الحَشَى والتراقي
ولهـذا أبيـتُ أرتقـبُ الطيـ فَ وأشتاقُ برقَ أهلِ البُراقِ (١)(٢)

ويعز عليه أن يؤرقه حبيبـه ، فيجفو الوسن طرقه ويطلب إليه أن يعاقبه بسوى الرقاد فلعل طيفاً منه يطرقه تحت الظلام :

يا مَن جفـا طرفـي فأرَّقـه وخـلا بقلبٍ حشـوُه جمـرُ
عاقبْ بسلب سوى الرُّقادِ فلي إلا على فقـدِ الكـرى ، صبـرُ
فلعـلَّ طيفـاً منـك يطـرقنـي تحت الظلامِ فيَحْمَدَ الهجرُ (٣)

وتقع المعجزة فتتحقق امنية الشاعر ، ويطل الحبيب بطيف خياله في ليل شابت ذوائبه ، ولكن وشاة الصبح شرعت تزعجه بالبين :

أهلاً بطيفِ خيالٍ زارني سحراً فقمتُ ، والليلُ قدشابتْ ذوائبهُ
أقبّـلُ الأرض إجـلالاً لزورتـه كأنمـا صدقـتْ عنـدي كواذبهُ
وكِدْتُ ، لولاوشاةُالصُّبحِتزعجه بالبَيْنِ أصغي لما قالتْ خوالبهُ (٤)

وتشغله الأيام ، ولا يتلقى زائراً من خياله ، فينادي :

يا مريضَ الجفونِ إنَّ سقـامَ الـ أعينِ النُّجـلِ صحَّـةُ العشّاقِ
شغلتنـي الأيـامُ أن اتلقّـى زائـراً مـن خيـالك الطَّراقِ (٥)

---

(١) براق : من قرى حلب تبعد عنها نحو خمس فراسخ ذكر ياقوت أن اكثر من واحد مـن أهل حلب حدثه أن بها معبدا يقصده المرضى والزمنى (معجم البلدان ج ١ ص ٣٦٦)

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ج١ ص ٤٦١

(٣) المصدر السابق ، ج١ ص ٤٥١

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٣٤

(٥) المصدر السابق ، ج١ ص ٤٤١

تلك هي قصة الخيال الطائف في شعره ، ويظهر أنه تأثر بالبحتري ، واستمد منه بعض معانيه ، ولابدع في ذلك وهو القائل :

كأنني البحتريُّ أنشده وهو ، على عِظَم شأنه ، الفتحُ (١)

ويحاكي معاصريه ، فيتحدث مثلهم عن عقارب الأصداغ ، وما كنا لنورد وصفه لها ، لو أنه جاء بها على الصورة نفسها التي عرفناها عند ابن منير الطرابلسي السابق ذكره ، ولكنه أغرب في وصفها ، وطبعها بطابع محلي محض ، هو مظهر من مظاهر النزاع التقليدي بين كل مدينتين متجاورتين فهو حموي ، ويزعم أن ليس في حمص عقرب :

وقد كان مفتوناً بمرسلِ صُدغهِ على وجنةٍ كالبدر ليلةَ سعدِهِ
فلما رأت أنْ ليس في حمصَ عقربٌ مواشطه ، أخفينَ عقرب خدِّه (٢)

تلك هي مؤامرة المواشط على إخفاء عقرب الخد ، ويظهر أنهن أخفينها ليقتلن جيرانهم الحمويين بعقارب الأصداغ :

ولقد سنحنَ لنا بحمص جآذرٌ عقدتْ ذوائبهنّ بالأرساغِ
ما بالهم حجبتْ عقاربُ أرضِهم وقتلنا بعقاربِ الأصداغِ (٣)

والظاهرة الهامة التي تسترعي انتباهنا في هذا العصر أن الشعراء أعرضوا عن التشبيب بالعنصر العربي ، وأكثروا من التشبيب بالعناصر الأعجمية ، ولا سيما العنصر التركي والرومي والفرنجي .

سلك الشاعر هذا السبيل ، فشبب بمدلل نصراني ، وقد طبع نسيبه بطابع ديني ، لأنه أكثر فيه من ذكر الصفات الدينية ، ومما قاله :

يا من يعيب عليّ حبّ مدلّلٍ ترفٍ بأردية الجمالِ نفيسِ
لا درّ درُّك ، هل أصابكَ عارضٌ حتى رجعتَ بصورة المنكوسِ
قمرٌ عصيتُ اللهَ مِن كلفي به وتبعتُ طاعةَ شيخِنا إبليسِ
ونقضتُ توبتيَ التي أبرمتها نقضاً أباح محرّمات كئوسي
يسطو وتفرُسه المدامة بغتةً ففديته مِن فارسٍ مفروسِ

---

(١) المصدر السابق ، ج١ ص ٤٣٩

(٢) المصدر السابق ، ج١ ص ٤٤١

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٤٥٦ .

قــد كان يعتقد المسيحَ ويرتضي عند الصّباح بضجّــة الناقوسِ
ولطالمــا حمل الصليبَ وعظّم الـ لاهــوت بالتسبيــحِ والتقديسِ
وأتى على مهــلٍ يقصُّ طرائق الـ إنجيــل بين شمامسٍ وقسوسِ
وإذا رمى باللحــظِ قــال قتيــله والدمع في الوجنات غيرُ حبيسِ:
لولاك يا سِقَمَ النَّواظر لم يكــن ظبيُ الكِناس يصيدُ ليثَ الخيس (١)

صورة جديدة في الغزل العربي تؤكد ما قلناه من قبل في تغريات ابن القيسراني خلال وصفه الروميات والفرنجيات ، وقد رسمها الشاعر لحبيب مدلل يعشقه ، وكان يعتقد المسيح ، ويرتضي ضجة الناقوس عند الصباح، ويحمل الصليب ، ويعظـم اللاهوت تقديساً وتسبيحاً ، ويقـص طرائــق الله من أجله ، فنقض توبتــه ، وتبــع طاعـــة شيخــه إبليس ، وأبــاح الإنجيل بين الشمامس والقسوس . هذا هو الحبيب الذي عشقه وعصــى محرمات كئوســـه .

يظهر أن الشاعر أباح حقاً هذه المحرمــات ، فسلك سبيــل الشعراء الخمريين في هذا العصر ، وهم الذين اتخذوا من المذهب الخيامي أسلوباً لهم في حياتهم الإباحية ، فعصوا الزمان ، وكل وكدهــم لذة العيش ونسيــان الهموم في أكواب الخمر :

باكــرا شمسَ القنـــانــي تدركــا كلَّ الأمـــاني
وخـــذا في لــذّةِ العيــ ــشِ على رَغــم الزمـــانِ
من عقــارٍ تبعــثُ النّجــ ــدةَ في قلبِ الجبــانِ
قهوةٍ البسهـــا المــز ج قميصاً من جُمانِ
فهــي مِن أبيضَ صــافٍ لاحَ فــي أحمــرَ قــانِ
كخــدودِ الــوردِ مِن تحــ ــتِ ثغــورِ الأقحـــوانِ
عاصيا الخلــقَ إذا الخلــ ــق عـــن الغــيّ نهانــي
وإذا الله إلــى الرُشــ ــد دعـــاني فدعـــاني
إنمّــا البغيةُ أن أصــ ــبح مخلــوعَ العنــــانِ
ساجداً في قِبلةِ الـكأ سَ لتسبيــحِ المثـــاني

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٥٢ .

حيثُ لا يَعلمُ دهــري أبــدا أيــنَ مــكانــي
وتكادُ الكأسُ أن تخضــبَ أطرافَ البنــانِ
يا غــزالاً شربَ الرّا حَ ثلاتــاً وسقــانــي
آهِ للّريــقِ الرّحيقــيّ على الثغرِ الجماني
جلّ من أهبطَ ذا الحو ريّ مــن دارِ الجنــانِ
فتعالــى اللهُ مــا أحــسنَ هذا التركماني(١)

ترك الشاعر وقاره ، وانغمس في إباحيته ، وأصبح مخلوع العنـان ، يسجد في قبلـة الكأس لتسبيـح المثانـي والمثالث ، وانخرط في زمـرة الخلعاء من الشعراء الذين اتخذوا لهم في حياتهم فلسفة خاصة تمت ، بصلة قوية للفلسفة الخيامية ، وهي أن العمر مستعار ، ومداه قصير ، وعلى المرء أن ينتهب اللذات ، ويسعد كاسات العقار والرضاب ، ويترك البكاء على الماضي ويعرض عن ذكر الدمن وأطلال الدبار ، فتلك هى في نظرهم الحيـاة الحقيقية ، يروح فيها طرباً يتعثر من سكره بفضل إزاره ، ويلقى ربه يوم الدين ، ويكسب شفاعته ، وينال منه رحمة تسكنه دار القرار :

خير ما أصبحتَ مخلوعَ العِذارِ فانفِ عنك الهمَّ بالكأس المدارِ
قــمْ بنــا ننتهب اللــذّةَ فــي ظــلِّ أيــامِ الشبابِ المستعــارِ
إنمــا العــارُ الــذي تحذَرُهُ أن تراني ، من لباسِ العارِ، عاري
لا ، ومَن داويــتُ قلبي باسمــةٍ لا تدَرّعــتُ بأثوابِ الوقــارِ
ولخــيرٌ منــهُ أن أشربَهــا في سنا الصُّبحِ على صوتِ القماري
وسعيــدٌ منْ تقضى عمــرهُ بين كاســاتِ رُضــابٍ وعُقــارِ
في اصطبــاحٍ واغتبــاقٍ واقــترا بٍ واغترابٍ وانتهــاكٍ واستتارِ
شغلتــهُ الــرّاحُ أن تبصــرَهُ واقفــاً يندبُ أطــلالَ الــدّيارِ
نعــم دنيــــاهُ التى راحَ بهــــا طــرباً يعــثرُ في فضــلِ الإزارِ
فــإذا مــاتَ التقــى منْ ربّــه رحمةً تسكنــهُ دارَ القرارِ (٢)

تلك هى صورة بينة رسمها الشاعر لجماعته من الخلعاء الإباحيين الذين

---

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٤٤٩ ـ ٤٥٠ .

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٤٧٦ ـ ٤٧٨ .

كانوا يمثلون المذهب الخيامي في بلاد الشام ، وسنوضح ذلك بالتفصيل في حديثنا المقبل عن خمريات عرقلة الكلبي .

مطارحات اخوانيـــة

كان ابن قسيم وفياً لإخوانه الذين محضهم خالص وده ، فعبر عن شعوره نحوهم بتلك القصائد الوجدانية والمطارحات الإخوانية .

قليل من الشعراء من نحا هذا المنحى الإنساني ، نذكر منهم أسامة ابن منقذ وسنعرض لهذا الأمر في موطنه من هذا البحث .

وجدير بالذكر أن الشاعر كان في مقطعاته الوجدانية يصف بعض الكتب التي كانت ترده من أخوانه ، فيبثهم بعض شئونه وشجونه ليخفف آلام فؤاده المقرح بالبين :

حيِّ كتاباً فضضتُ خاتمهُ   عن مثلِ وشيِ الرياضِ أو أملحْ
يا كرّمَ اللهُ وجهَ كاتبهِ   عرّض لي بالجفاءِ أو صرّحْ
شحّ بألفاظهِ ، وخاطرُهُ   بالدرّ من كلّ خاطرٍ أسمحْ
حتى أتاني كتابهُ فشفى   كلَّ فؤادٍ ببينهِ مُقرحْ (١)

ونذكر من ذلك أيضاً قوله . وقد وصله بالكتاب ، فأزار منه طرفه ومسمعه :

وصلَ الكتابُ فمافضضتُ ختامه   حتى تأرّجَ طيبهُ وتضوّعا
كالروضِ إلا أنّ وشي سطوره   أسنى ندىً عندي وأحسن موقعا
فأزرتُ مني الطرف أحسنَ ماأرى   منشورَهُ والسمعَ أطيبَ ماوعى(٢)

لكن الذي يسترعي انتباهنا حقاً الصداقة الوثيقة التي تربط بين الشاعر وابن منير ، وكنا أوردنا قصيدته التي بعث بها إلى الشيخ تقي الدين سلامة بن يحيى يحدثه فيها عن إعراض الناس عنه بسبب علويته ، ويشهده على نفسه انه قرر أن يكون حموياً أموياً . ويختار ابن قسيم ليجيبه

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٤٠ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٥٥ .

على الروي والوزن كليهما ، فكان لنا من القصيدتين المتبادلتين كسب أدبي كبير ، بمثل لنا مظهرا فكرياً ، وصراعاً مذهبياً بين السنة والشيعة .

كانت هذه الحادثة بدء صداقة بين الشاعرين ، ولا سيما أنها كانت إبان شهرته الأدبية ، وتستمر زمناً طويلاً ، ويتبادلان مطارحات شعرية، فيبعث ابن منير كتاباً إليه يحدثه فيه عن سوء أحواله ، ويرد عليه ابن قسيم :

بعثتَ الكتابِ فأهلاً بهِ	يسرُّ النواظرَ تنميقُهُ
لئن أخجلَ الروضَ موشيُهُ	لقد فضحَ الدرَّ منسوقُهُ
غريبُ الصناعةِ تجنيسُهُ	نفيسُ البضاعةِ تطبيقُهُ
وواصلني بعد طول الجفا	كما وصل الصبَّ معشوقُهُ
فزايلَ جفنيَ تأريقُهُ	وعاود غصني توريقُهُ
وبتُّ أراقبُ مسطورَهُ	كما راقب النجمَ عيّوقُهُ (١)
فلمّا بدتْ لي ألفاظُهُ	تستّر فكري وتلفيقُهُ
وكاسدُ نقصيَ أخشى يرا	مُ في فضلكَ تنفيقُهُ
أما خاف يُهتكُ مستورُهُ	أما خاف يظهرُ مسروقُهُ(٢)

توضح هذه القصيدة الجوابية مذهبين رئيسيين في ادب هذا العصر، مذهب ابن منير وجماعته ، ويجنح نحو التطبيق والتجنيس والإغراب في الصناعة ، ومذهب ابن قسيم وجماعته ،وهو يجنح نحو الانسجام والسهولة.

وصف ابن قسيم المذهب الأول ، فذكر أن في كتاب صديقه التنميق والتنسيق والحوشي والغريب ، والجناس والتطبيق . ويظهر الشاعر خلال ذلك تواضعه ، وتلك سنة معروفة عند الشعراء في آداب المخاطبة ، ويبين قصوره لأنه لم يشأ أن يتبع خطته في قصيدته الجوابية ، وإنما حافظ على مذهبه الأدبي الذي سنوضحه في ختام هذا البحث .

ولم يستهل كذلك إخوانيته بنسيب ، بيد أننا لاحظنا أنه استهل به غيرها ، فتحدث عن العقائل من عقيل ، ونحا في أسلوبه بعض منحى صديقه، وخلص من هذا النسيب ليقول لنا بأسلوب عربي صميم ، ندعوه بأسلوب

---

(١) العيوق : نجم يتلو الثريا ولا يتقدمها .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٤٥٩ — ٤٦٠ .

الميم والباء : ميم (مـا) النافية العاملة عمل ليس ، والباء الزائدة في خبرها المؤجل بحسب رغبة الشاعر وطول نفسه :

وما وادٍ كأنّ يدَ الغوادي كستهُ قلائدَ الدرّ النضيدِ
حللن ، فما حللنَ بهِ نظاماً وقد غادرْنهُ ارجَ الصعيدِ
يَضوعُ ترابهُ مسكاً إذا ما سحبْنَ عليهِ أذيالَ البرودِ
فبتْنَ وما حططْنَ بهِ لثاماً يخلنَ حصاهُ مِن درّ العقودِ
بأحسنَ منْ صفاتكِ في كتابٍ وأنفسَ مِنْ كلامِكِ في قصيدِ(١)

صحيح أن هذا الأسلوب قديم في مبناه ، غير أن الشاعر لم يكن مقلداً تماماً في معناه ، وهو بعد يؤكد ما ذكرناه من قبل ، ويوضح لنا أسلوبه السهل .

الوصف

لعل إعجابه بالبحتري حمله على التأثر بأسلوب وصفه ، فهو يستعمل كل مناسبة ليقف من بعض ما يراه موقف المصور الماهر خلال قصائده كوصفه الحرب في معرض مدح الأمير بدر الدولة (٢) . ولم يكتف بالوصف، وإنما نظم مقطعات أخرى معدودة الأبيات ، كما وصف الباقلاء ، والشقيق ، والرمان ، والمائدة ، والسفرة ، والقطائف ، وقد لاحظنا ذلك أيضاً في وصف الفرس ، ووصف وقوع المطر على الماء وغير ذلك (٣) .

(٢)
مذهبه الفني

يمثل الشاعر في مذهبه الفني اتجاهاً جديداً في هذا العصر ، ضم فئة من الشعراء ، نذكر منهم الشاعر حماداً الخراط (٤) وتقوم دعائم هذا المذهب على مجاراة الطبع السليم في النظم ، والابتعاد عن التكلف والتعقيد والتطبيق والتجنيس والحوشي والغريب .

وصف العماد الشاعر المذكور فقال : « ليس بالشام في عصرنا هذا

---

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٤٤٣ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٦٤ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٤٣ ، ٤٤٨ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ .

(٤) حماد بن منصور البزاعي ، وهو أحد شعراء الخريدة ، توفي سنة ٥٦٥ هـ .

مثله رقة شعر ، وسلاسة نظم ، وسهولة عبارة ولفظ ، ولطافة معنى ، وحلاوة مغزى ، بأسلوب سالب للبّ ، خالب للخلب ، وصنعة عارية من التكلف ، نائية من التعسف ، تترنح له أعطاف السامعين ، وتنبع رقته في رباض اللطف الماء المعين (١) » .

ووصف العماد أسلوب ابن قسيم من قبل ، والغريب أنه أتى على الأوصاف نفسها ، ولعل في ذلك دلالة واضحة على أن الشاعرين يدينان بمذهب بياني واحد ، وسوف نرى في قوله مصداق ما نذهب إليه ، فقد ذكر أنه « ذو رقة للقلوب مسترقّة ، وللعقول مسترقّة ، ولطف للب سالب ، وللخلب خالب ، وللصبر غالب ، وللدر البحر جالب ، ولد الفكر حالب ، وفي عقد السحر بعقوده نافث ، وبنسيم البحر في نسيبه عابث ، نهجه محكم ، ونسجه معلم ، ومذهبه مذهب ، وأسلوبه مهذب ، وحوكه رفيع ، وسبكه بديع (٢) » .

يتضح من كلامه هذا أسلوب الشاعر ومذهبه الفني الذي يعتمد على مجاراة الطبع السليم بخلاف القيسراني وابن منير : رقة ولطف ، وبعد عن الغريب ، بالإضافة إلى البناء السليم والجرس الموسيقي الذي نشعر به من خلال أغزاله وخمرياته ، وبخاصة منها تلك التى اختار لها الأبحر المجزوءة ، كما هو الشأن في القصائد التي عبر بها عن فلسفته الخيامية في الحياة .

هكذا يحتل ابن قسيم مكانته بين الشعراء « كان ثالث القيسراني وابن منير في زمانهما ، وسبقهما في ميدانهما ، نبغ في عصر شيخوختهما ، وبلغ إلى درجتهما وراق سحرهما سحره ، وفاق شعرهما شعره ، لكنه خانه عمره (٣) » ، فمات قبلهما بست سنوات ، وهو في مستهل العقد الخامس ، فان كان سابقاه جرير العصر وفرزدقه ، فهو أخطله الخيامي .

نلاحظ أخيراً أن هذا المذهب الفني الجديد الذي يجاري الطبع السليم كان نتيجة لطغيان مذهب التصنع البديعي المار ذكره ، ولعله وجد مجاله الخصب في مدينة حماة ، مما يؤكد ذلك ظهور الشرف الأنصاري فيما بعد ، واعتناق مذهب جديد ، فكان لنا من ذلك مذهب التورية والانسجام .

---

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ٢ ص ١٣٠ .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٤٣٣ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٣٣ — ٤٣٤ .

عرقلة الدمشقي

(٤٨٦ — ٥٦٧ هـ = ١٠٨٣ — ١١٧١ م)

القسم الأول

حياته وآثاره

(١)

مراحل حياته

ولد الشاعر الخليع والشيخ النديم ، أبو الندى ، حسان بن نمير ابن عجل (١) ، في دمشق وفي وَبَرَة الجلاح ، أحد بطون قبيلة كلب ، سنة ٤٨٢ هـ ، وعرف باسم « عرقلة الدمشقي » و « عرقلة الأعور » و « عرقلة الكلبي » .

أشار الشاعر إلى قبيلته (كلب) التي تنسب إليها وعرف بها في إحدى مدائحه بقوله :

مولايَ إنّ « الكلبيَّ عرقلةٌ » مثلُ المُعَيدي صاحِب المَثَل (١)

لا نعرف كثيراً عن أسرة الشاعر ولا عن طفولته ، وكل ما حفظه الأقدمون صورة بقيت في أذهانهم عنه كما عرفوه في مجونه ، فهو شيخ خليع ربعة ، قصير القامة ، حلو المنادمة ، خفيف الظل ، لطيف النادرة .

أما صورة خلقته فكانت حقاً كما قال « مثل المعيدي صاحب المثل » فسماعك به خير لك من أن تراه فقد كان مصاباً بالعور وقد لقب بعرقلة الأعور لأنه أصيب بالعور في شبابه ، ولا نعرف على الضبط حقيقة الحادثة

---

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ١٨٧ ، وسبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٧ ص ١٧ ، والكتبي : فوات الوفيات ج ١ ص ١٤٤ ، وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٦٤ ، والصفدي : الشعور بالعور (مخطوط) و ١٣١ ، والزركلي : الأعلام ، ج ٢ ص ١٩١ .

(٢) ديوان عرقلة ص ٨٦ .

التي أفقدته إحدى عينيه وكل ما نعرفه انه سافر إلى حلب (١) ، فاتفق أن ذهبت عينه بها ، فقال :

جَفاني صديقي حين أصبحت معدما واخَّرني دهري وكنتُ مُقدَّما
وسافرتُ جهلاً فانعَورت وإن أعد إلى سفرةٍ أخرى قدمت على العمى
وكم مِن طبيبٍ قال: تَبرا! أجبتُهُ كَذَبْتَ، ولو كنت المسيح بن مريما (٢)

اتخذ عرقلة من معنى عوره موضوعاً شعرياً ظريفاً ، وكأنه كان يريد أن يخفف من وقع هذه المصيبة على نفسه ، ومما قاله :

أقولُ ، والقلبُ في همٍ وتعذيبِ : ياكلَّ يوسفَ إرحم نِصفَ يعقوبِ (٣)

تلك هي إشارة عابرة الى عوره ، لكنها غير صريحة ، وإنما ألمح اليها تلميحاً ، بيد أنه لا يخشى التصريح بها كما في قوله يصف حبيباً له مديد القامة ، وهو قصيرها :

لي حبيبٌ قدهُ قد مِن السُمرِ الرقاقِ
مَن رآه ورآني قالَ : ذا غيرُ اتفاقِ
أعورُ الدجالَ (٤) يمشي خَلفَ عوجِ بنِ عناقِ (٥)(٦)

ثمة إشارة ثالثة إلى عوره ، أوردها في وصف حبيب له أحول :

---

(١) الصفدي : الشعور بالعور (مخطوط) و ١٣٦ ، والديوان ص ٩٣ .

(٢) الصفدي : الشعور بالعور (مخطوط) و ١٣٦ ، والديوان ص ٩٣ .

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ١٨٠ ، والديوان ص ١٣ ، وفيه « نصف أيوب »

(٤) الدجال : رجل من يهود يكون في آخر الزمان ويدّعي الالهية ، وسمي لأنه يدجل الحق بالباطل ، ويدّعي الربوبية ، ومن صفاته أنه أعور .

(٥) عوج بن عوق : هو نفسه عوج بن عنق ، وقد جاء في اللسان أنه « كان مع فراعنة مصر ، ويقال له صاحب الصخرة أراد أن يلحفها على عسكر موسى عليه السلام ، وهو الذي قتله موسى » .

(٦) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢١٧ ، والديوان ص ٦٧

يا لائمي (١) هل رأيت أعجب من ذي عــــورٍ هائم بــذي حَوَلِ
أقــلّ في عينيـــهِ ويكثــرُ فــي عيني ، بضد القيــاس والمثلِ (٢)

نلمح فيما مر معنا أن الشاعر استطاع بروحه المرحة أن يجعل من هذه الصفة صورة فكاهية ، تعوضه عما فقده ، وتثير في نفسه المعاني المستطرفة من خلال قصره وعوره .

هذا كل ما نعرفه عن شاعر الأيوبيين في هذا العصر ، وهذا شأن كــل شاعر ، فنحن لا نملك في أغلب الأحيان من حياتهم إلا ما تستدعيه صلتــهم بالملوك والأمراء من ممدوحيهم المعاصرين .

يمثل الشاعر تلك الطائفة من الشعراء الماجنين ، أصحاب اللهو وأرباب الطرب وعشاق الخمر ، فكان يحتسيها معهــــم في حانات الشام وأدياره ، كدير مران أو في متنزهاته الكثيرة المشهورة ، كالنيرب وجيرون وسطــرى ومقرى وغيرها من الأماكن التي حفلت بالطبيعـــــة الخلابة ، حيث الرياض الغناء ، والجداول المنسابة .

كان لا بد للشاعر بعد أن جفاه صديقه ، وأخره دهره ، وفقــد مالــه وبلي بالعور ، من أن يرتحل عن بلاد الشام ، ويطوف في البلاد ، كما توضح ذلك مدحه الكثيرة التي خص بها ممدوحيـــه الكثير قبل أن ينصرف إلــى الملوك الأيوبيين وأمرائهم في ختام حياته، فمنهم من وصله ، ومنهم من حرمه، ومنهم من جازاه على شعره بالشعير :

يقولون : لِمْ أرخَصتَ شعركَ في الورَى ؟
فقلتُ لهــم : إذ ماتَ أهــلُ المكـارِمِ
أُجازَى علــى الشِّعــرِ الشعيرَ وإنّـــه
كثيرٌ إذا استَخلصتُهُ مــن بهائمِ (٣)

مدح في بادىء الأمر من عرفهـــم في دمشق ، وجدير بالذكر أنه كان صغير الســن في عهد ظهير الدين طغتكين التركي ، رأس ملوك دمشق الأتراك،

---

(١) في الديوان : « ياعاذلي »

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١٨٠ ، والديوان ص ٨٥ .

(١) الصفدى : الشعور بالعور (مخطوط) و ١٣٢ — ١٣٣ والديوان ص ٩٤

وكان إذ ذاك لا يتجاوز الحادية عشرة من عمره ، وكان نائبه في الحكم الوزير بختيار السلار ، فلما توفي خلفه ابنه عمر .

اتصل عرقلة بأسرة السلار ، فمدح من بنيه اسماعيل وظفر بقصيدة نقف عند مطلعها ، لنطلع على حياة الشاعر في هذه المرحلة .

لا تلمني على الدموع الجواري ... فهي عوني على فراق الجوار
كم لئيم يلذ بالعيش صفواً ... وكريم ينغص بالأكدار
لا بفي الوصل بالصدود خليلـ ... ـي كما الخمر لا يفي بالخمار
فاسقنيها لعلها تصرف الهـ ... ـم على طيب نغمة الأوتار
خندريساً كأنها في دجى الليـ ... ـل بأيدي السقاة شمس النهار
إنما العيش في رياض دمشق ... بين أقمارها وبين القماري
مثلما قد خلعت أثواب مدحي ... باختياري على بني بختيار(٢)
وكأن الإله ، جل ، براهم ... من فخار والناس من فخار(٢)

هذه المدحة من أوائل شعره ، خص بها وزراء الأسرة التركية الحاكمة، أما ملوكها فنخص بالذكر منهم جمال الدين محمد بن بوري ، ونلمح من خلال مدحه صورة ثانية لمظهر من مظاهر خلقه وحياته ، فهو يعترف فيها صراحة برقة دينه ، ويذكر إدمانه على شرب الخمر في حانات الشام ، ويشير من ذلك إلى وميض الشيب المبكر الذي وخط عارضيه :

لمن حلة مابين بصرى وصرخد ... تروح بها خيل الجلاح وتغتدي
ونار ، بلقبي مثلها ، لأهيلها ... تشب لضيف متهم ولمنجد
رعى الله يوماً ظل في ظل أيكة ... نديمي على زهر الرياض ومنشدي
وكأساً سقانيها كقنديل بيعة ... بها وبه في ظلمة الليل نهتدي
معتقة من قبل شيث وآدم ... محللة من قبل عيسى وأحمد
صفت كدموعي حين صد مديرها ... ورقت كديني حين أوفى بموعد

(١) بختيار حصن الدولة السلار ، شحنة دمشق ، ونائب ظهير الدين طغتكين صاحبها سنة ٤٩٧ هـ .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٢٠٧ ، والديوان ص ٤٧ — ٤٨ .

وفي الشيبِ لي عنْ لاعجِ الحبِ شاغل ... وقد كنتَ لولا الشيَ طلاعَ أنجُدِ
رمى شَعَري بعدَ السَّوادِ بأبيضٍ ... وحَظَّني مِن بعدِ البياضِ بأسودِ
فلا وَجْدَ إلاّ ماوجدْتُ مِنَ الأسى ... ولا حمدَ إلاّ للأميرِ مُحَمَّدِ (٢)

كان الشاعر ينادم ملوك آل طفتكين ، ومجير الدين آبق آخر ملوك هذه الأسرة قبل تملك نور الدين وكان أثيراً لديه ، فمدحه ووصف مجالس الخمر ، وتحدث من خلال ذلك عن فلسفته في الحياة . روي أنه اقترح عليه في ساق يهواه ، وهو في مجلس شرابه ، أن ينظم قصيــدة يعارض بهــا قول القائــل :

شــربتُ مِنْ دنانِهِمْ ... مِنْ كلّ دنٍّ قدحــا

فأنشده قوله :

مَنْ لي بساقٍ اغيــدِ ... عِذارُهُ قــد سَرَحا
كأنّه بــــدرُ دُجــىً ... في كفّهِ شمسُ ضُحا
مازلتُ مــن مُدامِهِ ... مغتبقاً مُصطبِحا
حتى غدَوْتُ لاأرى الـ ... نّــدمانَ إلا شبحــا
وقد عصَيت في الهوى ... مَنْ لام فيهِ ولحــا
يا قلبُ كمْ تذكــرُهُ ... لا بارحَتكَ البُرَحــا
يا صاحِ ياصاِ اسقني ... من راحتيهِ القدَحــا
واغتنمِ العيشَ فمــا ... تبقي الليالي فرحا(١)

يتحدث عرقلة من خلال ذلك عن إيمانه بفلسفة الحياة الإباحية كمــا يراها ارباب الخلاعة والمجون ، فينادي بما نادى به معاصره الخيام ، ويطلب ان نغتنم صفو الليالي لأن الحياة لا تستقر في حال ، ولن تبقى على إنسان سعادتــه .

رحلة الشاعر

ترك دمشق وارتحل إلى الموصل وبغداد ، وعــاد من تطوافه إلى دمشق ليرتحل اخيراً إلى القــاهرة .

---

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٢٠٧ ، والديوان ص ٢٢ .

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ١٩٣ ، والديوان ص ١٧ ــ ١٨ .

نبدأ رحلتنا مع الشاعر إلى جعبر ، ففيها التقى بصاحبها ابن مالك ، ومدحه ، لكنــه أخلفه ظنه فهجاه :

لحا اللهُ مُلكاً يحتويه ابنُ مالكٍ وعاجَلهُ في ساحةِ القلعــة القلعُ
فتىً لستَ ترجوهُ ولستَ تخافُهُ كدودِ الخَلا، مافيه ضَرٌّ ولانفع(١)

يمم الشاعر بعد ذلك شطره نحو ماردين ، وانتجع مراد صاحبها الأمير حسام الدين تمرتاش بن نجم الدين يلغازي بن أرتق ، فمدحــه بقصيــدة يقول في مستهلها :

هذا الحبيبُ وهذه الصَّهبــاءُ عَــذَلَ المُصِرَّ عليهمــا إغــراءُ
والأغيــدُ الألمي يروقــك منظــراً في سقيِهـــا والغــادةُ اللميــاءُ
يا قــاتــلاً كأسي بكثرة ما ئــهِ ما الحيُّ عندي والقتيــلُ سواءُ
بالمــاء يحيــا كلُّ شيءٍ هالكٍ إلا الكئــوسَ هــلاكُهــنَّ المــاءُ
والرّاحُ ليس لعاشقيها راحــــةٌ ما لــم بساعدْهــمْ غِنىً وغناءُ
وبوجنتي وبوجنتيــهِ إذا بـــدا منْ فرط وجدَينـا حياً وحياءُ
كيف الوصولُ إلى الوصال وبيننا بــينٌ ودون عنــاقــه العنــقاءُ
للهِ جيرانــي بجيرونٍ ، ولـــي بلحاظهــمْ وبهــم ظُبا وظبــاءُ(٢)

نتابع رحلة الشاعر لنصل إلى آمد السوداء ، ذات الحجارة السود ، ويلتقي فيها بمدبر أمرها ابن نيسان ومدحه بقصيدة استهلها بوصف طبيعتها ومطلعهــا قــوله :

قومي اسمعــي يا هذه وتأملــي رقصَ الغصونِ علىغناء البلبلِ (٣)

وانحدر الشاعر إلى الموصل ، ولقي فيها الوزير الجواد الذي يقصده الشعراء وغيرهم من كل حدب وصوب . والغريب أنه لم يمدح عمــاد الدين زنكي ، وكل ما عرف عنه في مدح الزنكيين بيتان أشار فيهما إلى المدرسة التي أنشأها الملك العادل نور الدين (٤) . يضاف إلى ذلــك أنه كان يكتــب للملــوك ، وقد عرفنا ذلــك مما قالــه سبــط ابــن الجــوزي : « قــال

---

(١) العماد الكاتب : الخريدة ج٠ص ٢١٣ ، والديوان ص ٦٠

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١٨٤ ، ١٨٥ ، والديوان ص ٢ ، ٣

(٣) المصدر السابق ، ج١ ص ٢٢١ ، والديوان ص ٨٠

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢١ ، والديوان ص ٧٠

ابن النقار الكاتب : كان فاضلاً كتب للملوك دمشق ولنور الدين محمود (١) » .

ويظهر أن خلاعته ومجونه ، مع ما عرف عن هذا الملك من الورع والزهد، كانا عاملين من العوامل التي سدت أمام الشاعر أبواب الزنكيين .

التقى بوزيرهم المذكور آنفاً ، فمدحه بقصيدة استهلها بنسيب غريب في محبوب له أحول كما مر معنا ، وانتقل إلى بغداد لا ليمدح الخليفة ، وإنما ليمدح كاتب إنشائه ابن السديد الأنباري (المتوفي سنة ٥٧٥ هـ) وقد طلب منه شقة من قماش يتخذ منها قميصاً جديداً :

حاجتي شُقّــةٌ تشقُّ عـلى كـ ـلِّ بغيضٍ من الـورى وحسـودِ
ذاتُ لونٍ كمثـل عرضك لاعـر ضي ، وحظّي من القريب البعيد
فابعثهـا صفيقـةً مثـل وجهـي جلّ من صـاغ جلدَه من حديدِ
واجعلنهـا طويلـة مثـل قرني ولساني لامثـلَ قـدّي وجيدي
كي أرى في الشآمِ شيخاً خليعاً في قميصٍ مِنَ العراقِ جديدِ(٢)

يكاد يكون شعر عرقلة في معظم أغراضه صورة معبرة عن حياته الخاصة حتى في مدح نفسه ، فهو يصور في هذه المدحة الأنبارية حاجته وخلقه وحياته أكثر مما ينعت ممدوحه ، فهـو شيخ الشام الخليع ، ويريد أن يعود من العراق وقد ارتدى حلة جديدة تحمل بركة الخلافة .

كان لا بد للشاعر من زيارة مصر ، وقد تذكر قصة أبي نـواس حينما وفد على الخطيب القائم على خراج مصر ، فارتحل مثله وزيرها الشاعر طلائع بن رزيك الملقب بالملك الصالح ، ومما قاله :

وكـأنـي أبو نـواسٍ إذا مـا جئتُ مصرا ، وأنت فيها الخصيبُ
ولئن كنـت مخطئـاً في قيـاسي إن عـذري ما قال قدمـاً حبيبُ
لو أراد الرّقيبُ ينظـرُ جسمي مـا رآهُ من النحـول الرّقيبُ
مثل دار الزّكي كيسي وكأسي وهـي فقـرٌ كأنهـا مَلْحوبُ(٣)

وتمتد أواصر الصداقة بين الشاعر الخليع والوزير ، فيكثر من مدحه

---

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ١٨٠

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٠١ ، والديوان ص ٣٥

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١٨٧ ، ١٨٨ ، والديوان ص ١٠

ويعرض من خلالها بقصة ممدوحه ، يوم حدثت مؤامرة كبرى على الخليفة الفاطمي الظاهر ، وكان على رأسها وزيره عباس الصنهاجي ، فقتل الخليفة وهرب من في القصر من آله، واستجاروا بطلائع بن رزيك فهب لنصرتهم ودخل القاهرة سنة ٥٤٩ هـ . ومما قاله في هذا الحادث مشيراً إليه في مستهل تشبيبه :

طافَ على الندمانِ بالكاسِ وخدُّهُ من لونها كاسِ
مُهفهفُ القامةِ ممشوقُها يخجلُ منهُ غصنُ الآسِ
دعصُ نقاً تحملهُ بانةٌ شمسُ ضحاً في زيِّ شماس(١)
تحكي ثنا « الصالحَ » أنفاسُهُ وصُدغُهُ أيامَ « عباسَ »(٢)

والمعروف عن الوزير طلائع أنه من شيعة العراق ، وقد وضع كتاباً اسمه « الاجتهاد في الرد على أهل العناد » ، وفيه يبسط قواعد التشيع وتعاليمه ، ويرد على المذاهب الأخرى ، وأغلب الظن أن الشاعر اطلع على هذا الكتاب ، فعلقت بذهنه بعض العقائد الشيعية فتأثر بها ، وظهرت في شعره واضحة كما في هذه المدحة .

قفْ بجيرونَ أو بباب البريدِ وتأملْ أعطافَ بانِ القدودِ
يانديميَّ غنياني بشعري واسقياني بنيةَ العنقودِ
عرِّجا بي ما بين « سطرى » و« مقرى » لا بأكنافِ عالجٍ وزرُودِ
سقّياني كأساً على نهر « ثورا » وذراني أبو لها في « يزيدِ »
أنا من شيعة الإمام حسينٍ لستُ من سنة الإمام وليدِ
مذهبي مذهبٌ ، ولكنني في بلدةٍ زُخرِفتْ لكلِّ بليدِ
غير أن الزمانَ فيها أنيقٌ تحت ظلٍّ من الغصون مديدِ
ورياضٍ من البنفسج والنر جسِ قد عُطرتْ بمسكٍ وعودِ
كشنا الصالحِ بنِ رُزِّيك في كـ ـلِّ قريبٍ من الدُّنا وبعيدِ (٣)

يظهر في هذه القصيدة ضعف إيمان الشاعر ومدى تأثره بالعقائد الشيعية

---

(١) شماس : لفظة سريانية الأصل ومعناها الخادم ، أو من هو في خدمة القسيس .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٢٠٩ ، والديوان ص ٥٤

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٢٠٠ ، ٢٠١ ، والديوان ص ٣٢ ، ٣٣

يضاف إلى ذلك تطور جديد في البعد عن التقليد ، وخطوة جريئة على سنة أبي نواس في السخرية والهزء بما يتغنى بـه الشعراء القدماء ، وهذا يدلنا على الرغبة في تصوير البيئة كما يعانيها الشاعر .

مـدح الأيوبيين

المعروف أن عرقلـة شاعر الأيوبيين بلا منازع ، وأنه كان ينادمهم في مجالس لهوهم وسمرهم . أحبوه وألفوه ، ونال عطاياهم الكثيرة ، حتى إذا انتقلت إليهم مقاليد الحكم اصطفوه لأنفسهم ، فنطق بلسانهـم ، ووصف حـالهم أتـم وصف .

والمأثور عن صلاح الدين أنه كان يشرب الخمر عندما كان أحد الأمراء الأيوبيين ، وقـد اعترف قاضيه ابن شـداد بذلـك في سيرتـه « النوادر السلطانية » ، وذكر أنه تاب عن شرب الخمر بعد أن فوض الأمر إليه (٢) ، واعرض عن أسباب اللهو والمجون .

كان عرقلة صديق صلاح الدين، يحبه ويستحضره ويألف سماع أحاديثه فلا بدع إن خلد مجالس أنسه في الشام قبل تملكها ، وقـد أنشده بديهاً أوانَ الورد قوله :

ياحابسَ الكأسِ خيلُ الوردقدوردت شُبهاً وكمتاً ، أدر ياحابس الكاسِ
أقسمتُ ماالوردُ في الأزهار قاطبةً إلا كمثـلِ صلاح الدّين في الناسِ
الوارثِ المجـدَ مِن آبائـه أبـداً مثل الخلافـةِ في أولاد عباسِ (١)

تولى صلاح الدين إيالة دمشق في عهد نور الدين ، وكان الفساد قـد استشرى في آل طفتكين ، وكثرت حوادث السرقة والسطو ، فقال عرقلة :

لصوصَ الشامِ ، توبوا مِنْ ذُنوبٍ تُكفّـرُها العقوبـةُ والصفـادُ
لئنْ كانَ الفسادُ لكـمْ صلاحـاً فمولانـا الصلاحُ لكـم فسادُ (٢)

ونصحهم مرة أخرى متوعداً :

رويدَكُـمْ يـا لصـوصَ الشآمِ فإنـي لكـمْ ناصحٌ في مقـالي

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٥

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٢١٠ ، والديوان ص ٥٣ ، ٥٤

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٠٢ ، والديوان ص ٣٥ ، ٣٦

وإياكـمُ مِـــنْ سمـيّ النبــــ ـيِّ يُوسُفَ ربِّ الحِجا والجمالِ
فذاكَ مُقَطِّعُ أيــدي النســاء وهــذا مُقطعُ أيدي الرِّجالِ (١)

خصّ الشاعر مولاه بمدحه ، ولم يضن بها على آله المقرّبين ، فمدح أخاه توران شاه ، وابني عمه نصراً وفتحاً ، ولدي أسد الدين شير كوه، وغيرهم .

اضطربت الحال في مصر ، واختلف وزيراها على السلطان ، ووفد شاوَرُ يطلب نجدة نور الدين على منافسه ضرغام ، بيد أن صلاح الدين تردد — كما رأينا — في الذهاب صحبة عمه ، وقد أسهم الشاعر بدوره في إقناع مــــولاه :

إلامَ ألامُ فيـــكَ وكــمْ أُعــادى وأمرض مِنْ جفــاكَ ولــن أعادا
لقد ألِفَ الضنى والسُّقم جسمي وعينـــايَ المـــدامعَ والسُّهادا
وقد أنسانيَ الشيـــبُ الفوانــي فــلا سُعدى أريــدُ ولا سُعــادا
وهل أخشى مِنَ الأنواءِ بُخْــلاً ويوسفُ لي ، فتى أيُوبَ ، جادا
إلى كم ذا التــواني في دمشـــقٍ وقد جاءتكُــمُ مصرٌ تهادى (٢)

مضى صلاح الدين إلى مصر ، وقامت بعد وقت يسلأ وحدة الإقليمين بعد أن استتبت الأمور للدولة الأيوبية الناشئة ، ويصف عرقلة الحال وهو في دمشق قائلاً :

أصبحَ المُلْكُ بعــدَ آلِ علــيٍّ مُشْرِقاً بالملوك مِنْ آلِ شـــاذي
وغدا الشّرقُ يحسُدُ الغربَ للقو مِ ومصرٌ تزهــو علــى بغــداذِ
ما حواهـــا إلاّ بحـــزمٍ وعـــزمٍ مِنْ صليـــلِ الفولاذِ في الفولاذِ
لاكفرعَونَ والعزيزِ ومَنْ كــــا نَ بِها كالخَصيبِ والأستـــاذِ (٣)

سير صلاح الدين هديته إلى نور الدين ، ولم ينس شاعره عرقلة ، فبعث إليه الذهب ، وحمل رسوله سلامه وتحيته له ولأهل دمشق :

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٢٢ ، والديوان ص ٨٧

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١٩٩ ، ٢٠٠ ، والديوان ص ٣٢ ، ٣٣

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٠٣ ، والديوان ص ٣٧ ، ٣٨

صلاحَ الدّين قد أصلحت دنيا شقيٍّ لم يَبِتْ إلاّ حريصا
أتى منكَ السّلامُ لنا عموماً وجودُكَ جاءني وحدي خصوصا
فكُنْتَ كيوسُفَ الصدّيقِ لمّا تلقَّى منهُ يَعْقُوبُ القَميصا(١)

لم يكتف الشاعر بهذه الهدية لأن له في عنق مولاه ديناً سابقاً ، إذ وعده ذات ليلة في احد مجالسه أنه إن ملك مصر أعطاه ألف دينار . بعث إليه بالذهب وحده دون أهل الشام ، لكنه ما نسي نذره ، فبعث إليه يطالبه بألف الدينار ، وكان يود لو يذهب إليه ، غير أنه يخشى الفرنجة الذين كانوا عثرة في الطريق إليه ، وهو يخشى كذلك أن يموت قبل أن ترى عيناه الثروة التي كان يحلم بها :

إليكَ، صلاحَ الدين مولاي،أشتكي زماناً على الحُرّ الكريم يجورُ
ترَى أبْصِرِ الألفَ التي كنتَ واعدي بها في يدي قبلَ الممات تصيرُ
وهيهاتَ والإفرنجُ بيني وبينكمْ سياجٌ ، قتيلٌ دونه وأسيرُ
ومِنْ عَجَبِ الأيام أنكَ ذو غنى بِمِصْرَ، وأني في دمشقَ فقيرُ (٢)

يلوح شبح المنية أمام عينيه في أواخر عمره ، وألف الدينار نذر صلاح الدين تغريه بالمخاطرة ، فيرتحل إلى مصر ويلقى مولاه ، ويفرح بحلوله في أرض الكنانة مرة ثانية ، فيخاطب ساكنيها :

الحمدُ لِلهِ السميعِ المُجيبْ قَدْ هَلَكَ الشِّرْكُ وضلَّ الصليبْ
يا ساكني أكنافَ مِصْرٍ أنا أبو نُواسٍ والصلاحُ الخصيبْ (٣)

جاء يطلب النذر الذي له في عنق الصلاح ، فيعرض بذلك قائلاً :

قل للصلاحِ مُعيني عندَ إعساري يا ألفَ مولاي ، أين الألفُ دينارِ
أخشى من الأسر إن حاولتُ أرضكم وما تفي جنةُ الفردوس بالنارِ
فجُدْ بها عاضدياتٍ مُسطرةً مِن بعضِ ما خلفَ الطاغي أبو العارِ (٤)

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢١١ ، والديوان ص ٥٧

(٢) الصفدي : الشعور بالعور (مخطوط) و ١٣٥ ، والديوان ص ٥٠

(٣) المصدر السابق ، ١٣٢ ، والديوان ص ١٣

(٤) المصدر السابق ، و ١٣١ ، والديوان ص ٤٩

و فتى صلاح الدين نذره ، فأعطاه من خاصته ما عليه ، وأخذ له من اخوته مثلها .

عاد الشاعر إلى دمشق محملاً بالذهب ، بيد أن المنية عاجلته بعد وصوله ، سنة ٥٦٧ هـ (١) .

(٢)

آثاره الأدبية

اطلع العماد على ديوان الشاعر (٢) ، واختار منه مجموعة أوردها في خريدته مرتبة بحسب الحروف الأبجدية ، وقد وصفه في مستهل مختاراته بقوله : « ثم وقع بيدي ديوان الشاعر ، فطالعته . وقصائده قصار ، وفي النادر ان تزيد قصيدته على خمسة وعشرين بيتاً ، ومقطعته على عشرة أبيات ، وكلها نوادر وكلام مضحك ، فانتخبت منه هذه الأبيات ، واختصرت حذراً من التطويل » (٣) .

كما نعثر على مختارات أخرى له في فوات الوفيات، والشذرات وغيرها من الكتب التي أرخت لهذا العصر أو ترجمت لرجاله . كما أشار أبو شامة في الروضتين إلى ديوانه ، وذكر أنه اطلع عليه في معرض ذكره قصيدة بعث بها إلى صلاح الدين (٤) .

---

(١) ذكر سبط ابن الجوزي أنه توفي ٥٦٨ هـ (مرآة الزمان : ج ٨ ص ١٧٨)

(٢) أصدر مجمع اللغة العربية بدمشق ديوان الشاعر بتحقيق أحمد الجندي .

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١٨٧

(٤) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٧٧

القسم الثاني

شعره ومذهبه الفني

(١)

أغراض شعره

كان الشعراء الثلاثة السابقون يمثلون مظهراً من مظاهر الحياة الكفاحية ومما لا شك فيه أن الشيخ الخليع عرقلة يمثل وحده مظهراً أصيلاً من مظاهر الإباحية والحياة العابثة في هذا العصر ببلاد الشام .

أمضى الشاعر جل أيامه في دمشق ، فلم يغادرها ليقيم في غيرها إقامة متصلة ، وإنما وجد فيها الحياة الماجنة التي تلائم طبيعته الإباحية العابثة ، ساعده على ذلك طبيعة جميلة وحانات كثيرة منتشرة في بلاد الشام ، كما وجد في مجالس ملوكها وأمرائها ما شجعه على الاستمرار في هذا النمط من الحياة .

تضافرت كل هذه العوامل على تكوين شخصيته الفنية ، فكان شعره بحق صورة من صور نواسيّ جديد ظهر في بلاد الشام .

كان الشاعر مجدداً في أعراضه ومعانيه ، وكان يهزأ بمن كانوا يتغنون به من ذكر الأطلال والديار ، ويستعيض عنها بجيرون ، ودمشق ، وجلق وسطرى ، ومقرى ، وباب البريد ، وغيرها من ربوع الشام ومتنزهاتها .

وصف بلاد الشام ، وذكر أنها وجنة الدنيا ، وخلد دمشق وجمالها ، ووصف طبيعتها أوان الورد في أوائل الربيع :

هذا هو الزمن البديعُ المُونقُ ... والعيشةُ الرَّغدُ التي هي تُعشقُ
فعلامَ تصحو والحمَامُ كأنها ... سكرى تُغني تارةً وتصفّقُ
وتلومُ في حبِّ الديارِ جهالةً ... هيهاتَ يسلوها فؤادٌ شيِّقُ
والشامُ شامةُ وجنةِ الدنيا ، كما ... إنسانُ مقلتها الفضيضةِ جلّقُ
مِن آسِها لكَ جَنّةٌ لا تنقضي ... ومن الشّقيقِ جهنمٌ لا تَحرقُ

سيمَا وقد رَقمَ الرّبيعُ ربوعها وشياً ، به حدَق البرايا تحدقُ
في شرب ٍ ضحكت تفورُ أقاحه لما بكاهُ العارض المتألقُ(١)

وما دام الشاعر قد اتخذ من الشقيق جهنماً فكانت بردا وسلاماً إذ هي لا تحرق ، ومن الآس جنات النعيم ، فلنستمع إليه يحدثنا عن الجنات المعجلة في دمشق :

امّا دمشقُ فجنات" معجلة للطالبين بها الولدان والحورُ
ما صاح فيها على أوتاره قمر" إلا وغناه قمريّ وشحرورُ
يا حبذا ودروعُ الماء تنسجُها أناملُ الريح ِ لولا أنها زورُ (٢)

ويغيب الشاعر لأمر عرض له في بعلبك ، فيتذكر غوطتي دمشق ويخاطب برقها :

يا برق حيّ الغوطتين وسقّهنا مطرا حكاه دمعيَ المسفوحُ
كيف الحياة لمستهام ٍ جسمه في بعلبك" ، وفي دمشق الرُوحُ(٣)

كما يذكر الشاعر في مواطن أخرى أسماء أماكن متفرقة ، ومتنزهات مشهورة .

يتغنى الشاعر أيضاً ببردى ، فيصفه وصفاً دقيقاً ، ويتحدث عن الطبيعة من حوله ، بيد أنه لا يأتي بأوصافه مجردة ، وإنما يبرزها حية خلابة في خمرياته ، فنرى من خلالها مجالس سكره في ليالي أنسه :

دمشقُ حيّيت ِ من حيّ ٍ ومن نادِ وحبذا حبذا واديك من وادِ
لبس الندامى ندامى حين تنزلهُ يعلهم شادن" كأساً على شادِ
حفاً وللورق ِ في أوراقه طرب" كأنّ في كل عود ٍ ألفَ عوّادِ
يا غادياً رائحاً عرّجْ على بردى وخلني من حديث الرائح الغادي
كم قد شربتُ به ِ في ظلّ دالية ٍ من ماء دالية ٍ تنبيك عن عادِ
في جنب ساقية ٍ من كفّ ساقية قامت تثنّى بقدّ غير منآدِ
سمراءَ كالصّعدة السمراء واضحة" يشفي لمى شفتيها غلّةَ الصّادي(٤)

---

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٢١٦ ، ٢١٧ ، والديوان ص ٦٨

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٠٤ ، والديوان ص ٤١

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٢ ، والديوان ص ٨

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٨ ، والديوان ص ٢٧

جمع الشاعر في شعره بين الطبيعة والخمر ، وكأنه كان يود لو ينسى هموم حياته في مجالس لهوه :

لا يفي الوصلُ بالصدود خليـ لي ، كما الخمر لا يَفي بالخُمار
فاسقنيها لعلها تصرف الهـ مّ على طيب نغمة الأوتار
خَندريساً كأنها في دُجى الليـ ل بأيدي السُقاة شمسُ النهار
إنما العيشُ في رياض دمشق بين أقمارها وبين القماري(١)

ويهرع إلى الأديرة القريبة من دمشق ، وفي رياضها وحاناتها ، فيجد بغيته من صهباء معتقة وساقية حسناء ، ولا سيما في أيام الأعياد ، ومما قاله يصف سكره في عيد الشعانين بدير مرّان :

وفي «دير مـرّان » خمـارةٌ مِن الرُوم في يـوم شَعنينهـا
سَقتني على وجهها المشتهى أرقّ وأعتقَ من دينها(٢)

يلاحظ أن الشاعر يضفي على وصف الخمر طابعاً دينياً محضاً ، وقد استمد عناصره مما عرفه ، فلا غرابة إن رأيناه يشير إلى هذه المعاني في قولـه :

نديمي داو بالخمر الخمارا أدر كأسي يميناً أو يسارا
مشعشعةً إذا ما صفقوها بماءٍ خلتها نوراً ونارا
لها من مولدي موسى وعيسى شرابٌ لليهود وللنصارى (٣)

لا يرضى عرقلة بغير الخمر المعتقة من قبل آدم وشيث ، والمحللة من قبل نبوة عيسى ومحمد :

وكأساً سقانيها كقنديل بيعةٍ بها وبه في ظلمة الليل نهتدي
معتقةٌ من قبل شيثٍ وآدم محللة مِنْ قبل عيسى وأحمدِ
صفت كدُموعي حين صدّ مديرُها ورقت كديني حين أوفى بموعدِ (٤)

وهو بعد كل هذا لا يكتفي بوصفها والتغني بها في الأديار والحانات

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٠٧ ، والديوان ص ٤٨
(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٢٢٥ ، والديوان ص ١٠١ ، ١٠٢
(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، والديوان ٤٦ ، ٤٧
(٤) الصفدي : الشعور بالعور (مخطوط) و ١٣٥ ، والديوان ص ٢٢

وإنما يتطرق إلى ذكر السقاة والندامى ، فيتحدث عن ساقيته الغادة اللمياء ، وساقيه الأغيد الألمى ، ولا يكتفي بذلك بل يفصل في الحديث عن قتل الخمر بالماء ، ومزجها بلمى الشفاه ورضابها :

يا ساقي الصهباء صِرفاً لا تجرْ   وامزجْ لنا الصهباءَ مِن أرياقِهِ(١)

مدرسة خمرية جديدة في هذا العصر توزعت في الشرق الإسلامي ، وكان لها موطنان : أولهما في فارس والعراق ، وكان عمر الخيام رأس شعرائها ، وثانيهما في مصر والشام ، وكان عرقلة الكلبي رأس شعرائها .

اتضح لنا مما مر معنا أن الحياة في نظر عرقلة الخليع خمر ولذة وطبيعة ، فهو يقضي ليله ونهاره عاكفاً على الشراب في المتنزهات أو الأديرة أو الحانات مع جماعته المدمنين ، ولا يفرق بين ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر وليلة الجمعة ، وينادمه على شرابه اثنان من صحابته ، هما ابن أبي الدر وابن ملكداد :

أدرْ يا طلعةَ البدرِ   علينا أنجمَ الخمرِ
وقطّعْ ليلنا بالكأ   سِ حتى مطلعِ الفجرِ
كذا فليشربِ الصهبا   ءَ مثلي يا ذوي الشِّعرِ
كذا في ليلةِ الجمعـ   ـةِ بل في ليلةِ القدرِ
مع الفتيانِ في الحانا   تِ بين الطّبلِ والزمرِ
بحيث ابنِ ملكدادٍ   وحيث ابنِ أبي الدّرِّ
حربفانِ خرافانِ   بلا قَدْرٍ ولا قِدْرِ (٢)

هكذا كان يعيش الشاعر ، وكل وكده في حياته خمر وطرب ، ومجون ولذة ، وعبث وإباحية ، وهو ينصح الناس ليغتنموا من الليالي صفوها قبل أن يدهمهم الموت ، ولا خير عنده من قدح ينهله من راحتي ساقيه :

ما زلتُ من مُدامِهِ   مغتبقاً مُصطبحا
حتى غدوتُ لا أرى النـ   ـدمانَ إلا شبحا
يا صاحِ يا صاحِ اسقني   مِنْ راحتيهِ القدَحا

---

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٢١٦ ، والديوان ص ٦٦ ، والرواية فيه «درياقة»

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٢٠٦ ، والديوان ص ٤٦

واغتنـــم العيش فمـــا تبقـــي الليالـــي فرحـــا (١)

ويدعو نديمه بعد صاحبه ليفيق من وسنه ، ويعاتبه على توانيـــه ، ويذكره أن العمر مستعار :

نديمي قم فقد صفت العقـــار وقد غنى علـــى الأيك الهزار
إلى كـــم ذا التواني في الأمانـــي أفـــق ما العمر إلا مستعار (٢)

تمضي الأيام ، ويوشك عمره أن يمضي ، وهو عاكف علـــى صهبائه ، ويسر لإقبال الربيع فيطلق كأسه ، وتتراءى نذر خريف الحياة ، والإنسان بين ربيع حياته وخريفها في شغل دائم :

خرف الخريف ، وأنت في شغل عن بهجـــة الأيـــام والحقـــب
أوراقـــه صفـــر وقهوتنـــا صفراء مثل الشمس في اللهب
يأتـــي بهـــا غـــيري واشربهـــا ذهبـــا على ذهب بلا ذهب (٣)

وبموت أحد إخوانه المجان ، وهو شيخ خليع جاوز الثمانين من عمره ، فيصف مجلسه بعد أن افتقدوه ، فبكوه أحر بكاء ، وندبـــه الكأس والقينة والراووق ، وينتهي أخيراً ليلوم صديقه الفقيد ، ويطلب من نفسه أن تعتبر وتأخذ « من التقى خير زاد » (٤) .

يصعب الفصل بين خمرياته وغزله ، وهو كشعراء عصره يكثر من ذكر العنصر التركي ، ويعرض بجورهم :

يابنـــي الأعـــراب إن الـــ تـــرك قـــد جارت بنوها
عقربـــوا الأصداغ حينـــاً ولحينـــي ثعبنوهـــا (٥)

كما يتحدث في موضع آخر من أغزاله عن مولد الأعراب الذي كـــان متيماً بمولد الأتراك (٦) ، ويشير أيضاً إلى « ما للأعراب طاقة بالأتراك » من

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٣ ، والديوان ص ١٩
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٠٤ ، والديوان ص ٣٩
(٣) الشعور بالعور (مخطوط) و ١٣٧ ، والديوان ص ٣٩
(٤) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، والديوان ص ٣٧
(٥) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٢٩ ، والديوان ص ١٠٧
(٦) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٢ ، والديوان ص ٩٠

الدوبيت (١) والملاحظ أن الشاعر كان يفتش عن اللذة حيثما وجدها ، وكان يصرح بذلك في شعره كما في قوله :

يَقلْنَ تَسلْ بالصهباء عنـا على ضرب المثالث والمثاني (٢)

وأوضح من ذلك قوله الإباحى : ..

إني لأعشقُ ما يحويهِ بُرقعُها ولستُ أبغض مانحوي السراويل(٣)

لقد شغل المجد المتنبي عن اللذة ، وهو على شغفه بما في خمرها يعف:

إنى على شغفى بما في خمرها لأعِفُّ عمّا في سراويلاتها (٤)

يتمثل لنا هذا الانجاه الإباحي في وصفه لصفية الكردية ،وهى جارية كان يحبهـا :

عارضاها حين تبدو عارضاها وسلاها عن فؤادي : هل سلاها؟

بأبي جاريةٌ حائرةٌ ما سفت غلّة قلبى شفتاها

أتمنى قبلةً في يدها وسواي في الهوى قد ملّ فاها(٥)

تلك هي فلسفة الشاعر في حياته : طبيعة وخمر ولذة ، وقد اتينا على ذكرها لنؤكد وجود مدرسة خمرية في بلاد الشام ، وهي مظهر هام من مظاهر المذهب الخمري المنتشر في الشرق الإسلامي في هذا العصر .

مهما يكن من أمر فعرقلة رائد هذه المدرسة دون منازع ، وقد تناقل أهل عصره شعره الماجن وغنوه في مجالس أنسهم وسمرهم ، إذ يعبر بحق عن حياتهم ومشاعرهم . ويجدر بنا الا ننسى أن شعره هذا بما فيه من مؤثرات دينية من النصرانية وغيرها اثرت كثيراً في شعر المتصوفة .

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢١٨ ، والديوان ص ١٠٩

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٢٦ ، والديوان ص ١٠٣

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٢٢٠ ، والديوان ٧٧

(٤) ديوان المتنبي ج ١ ص ٢٢٧

(٥) الصفدي : الشعور بالعور (مخطوط) و١٢٧ ، والديوان ص ١٠٧

(٢)

مذهبه الفني

يتميز أسلوبه – كما رأينا في عرض شعره – بالرقة المتناهية التى تقربه من النفس ، وبالطلاوة التي يشعر بها الإنسان وهو يردد شعره . أشار الأقدمون من معاصريه إلى ذلك ، وقد أكد ابن النقار الكاتب ذلك بقوله : « وله شعر رقيق ومعنى دقيق » (١) . ولعل سبب ذلك بعد الشاعر عن التعقيد في تراكيبه ، والإقلال من استخدام الزخارف البديعية الكثيرة ، يضاف إلى ذلك اختياره الأبحر المجزوءة ذات الجرس الموسيقي في بعض الأحيان ، وإدخاله بعض الألفاظ العامية أو المعربة التي تتردد على ألسنة النـــاس .

لا بدع بعد هذا إن رأيناه يقتصد في التصنع التصنع البديعي ، فلم يتعمدها لذاتها كمذهب أدبي خاص كما رأينا عند ابن منير والقيسرانى ، ولكن طغيان هذا المذهب في هذا العصر أجبر الشاعر على الأخذ ببعضما علق به ، لكن أرباب التصنع لم يرضوا بهذه الصورة من شعره فعدوه نوادر وكلاماً مضحكاً .

وليس شعره كما زعموا ، فلقد كان حقاً صورة أصيلة عن مظهر هام من مظاهر الحياة الاجتماعية ، واستطاع بهذا الكلام المضحك أن يعطينا صورة حياته الخاصة ، قل أن نجد لها نظيراً بين الشعراء الآخرين .

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ١٨٠ ، ١٨١

أسامة بن منقذ
فارس الشام

(٤٨٨ – ٥٨٤هـ = ١٠٩٥ – ١١٨٨ م)

القسم الأول

حياته وآثاره

(١)
مراحل حياته

وُلد « الأمير الكبير فارس الشام » (١) مؤيد الدولة ، أبو المظفر ، أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ ، يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة ، سنة ٤٨٨ (٢) هـ .

كان والده قد تزهد وتخلى عن الإمارة لأخيه أبي العساكر سلطان ، وقال : « والله لاولّيتها ، ولأخرجن من الدنيا كما دخلتها » (٣) ، وعكف في ليله على نسخ القرآن وتلاوته ، وفي نهاره على الصيد رياضته المفضلة .

نشأ أسامة في أسرة تناقل أفرادها وتوارثوا الأدب والشعر والمجد والبأس ، ونال علومه في الدين واللغة عن كبار العلماء الذين استقدموا إلى شيزر من طرابلس وغيرها . نذكر من أساتذته أبا عبد الله الطليطلي ، وقد دعاه بسيبويه زمانه ، وأشار إلى أنه قرأ عليه النحو عشر سنين في شيزر ، وكان من قبل متولي دار العلم التي اقامها الفاطميون في طرابلس

(١) الذهبي : سير النبلاء (مصورة) ج ١٣ ل ٣٨

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ١ ص ٦٣ ، وياقوت : ارشاد الاريب ، ج ٣ ص ١٧٣ ، والعمادالكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٤٩٩ ، وابن عساكر : تاريخدمشق ، ج ٢ ص٤٠٠، وأبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١١١ – ١١٣ ، ومقدمة الاعتبار ، ص ١ ، والذهبي : سير النبلاء (مصورة) ج ١٣ ل ٣٨

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١١١ ، ١١٢

الشام ، فلما أخذها الفرنجة من المسلمين أنفذ أبوه وعمه من أتى به مكرماً ليتولى تأديب امراء بني منقذ وتثقيفهم .

تحدث أسامة في كتابه « الاعتبار » عن أستاذه هذا ، وكنا قد تكلمنا عنه خلال عرضنا للحياة الفكرية عند الحديث عن علماء النحو في هذا العصر (١) .

ذكر الأقدمون أنه كان يحفظ كثيراً من الشعر ، « قال السمعاني : ذكر لي أنه كان يحفظ من شعر الجاهلية عشرة آلاف بيت » (٢) .

ظهرت بوادر شجاعته منذ طفولته فنراه يقتل أفعى في صغر ويحز رأسها ، ونراه خلال رحلات الصيد يلقى أسداً فيصارعه ويرديه (٣) .

هكذا ربي أسامة هذه التربية الخاصة ، إذ كان في أنظار قومه أميرهم المرتقب الذي سيتولى عرش شيزر بعد سلطان . بيد أن الأمور جرت على غير ما يشتهي ، فتغير عمه عليه بعد أن رزقه الله ولداً ، وخشي عليه بأسه ، ولا قدرة له عليه بعد موته ، ويقع الجفاء بينهما ، ويزمع أمره على ترك البلد الذي أحبه ، ففارق والديه وأخوته لأنه أبى أن يرى أحداً فوقه ، وهو صاحب الملك الذي ائتمنه عليه أبوه ، فسلبته منه أطماع عمه ، وكان مقرراً له قبل أن يرزقه الله البنين .

رأى اسامة بثاقب بصره أن يلتحق بعماد الدين زنكي الذي دوخ ممالك الفرنجة في بلاد الشام ، واشترك معه في حروبه ، وحالفه النصر في عدة مواقع ، لكن الخطر دهم بلده فجأة سنة ٥٣٣ هـ ، فعاد مسرعاً ، ودافع عنه ، وقهر اعداءه المهاجمين من روم وفرنجة . هكذا دخل بلده مظفراً ، ولكنه وجد أباه قد فارق الحياة قبل عامين ، وشعر بضرورة بقائه بين آله ليعوضهم ما فقدوه من عطف أبيه .

أما عمه فقد شعر أن أركان ملكه بدأت تتصدع أمام ابن اخيه الفارس الظافر ، فأظهر له الجفاء والبغضاء ، ويفسد الأمر عليه بعد أن رأى معظم آل منقذ يميلون اليه . بلغ الخلاف منتهاه ، وأمره عمه بمغادرة شيزر ، وخرجت صحبته أسرته وأنصاره ، فتشتتوا في كل مكان ، لكن الله أراد لهم

---

(١) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩

(٢) الذهبي : سير النبلاء (مصورة) ج ١٣ ل ٣٨

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠٣ ، ١٠٤

الخير إذ أخرجهم من ديارهم ، فلقد كانت على موعد مع القدر إذ أخذتها رجفة الزلازل ، فلم ينج أحد من أهلها ، ويبكي أسامة قومه ، ويندب أقرباءه في شعره :

حيّا ربوعك من رُبا ومنازل ساري الغمام بكلّ هام هامل
وسقتك يادار الهوى بعد النوى وطفاً تسفح بالهتون الهاطل
أبكيك أم أبكي زماني فيك أم أهليك أم شرح الشباب الراحل
درست منازلهم ، وأوحش منهم مانوس أنديةٍ وعزُّ محافل
واهاً لهم من عالم ومعالم وممنعات عقائل ومعاقل
ذهبوا ذهاب الأمس مامن مخبرٍ عنهم ، وزالوا كالظلال الزائل
وبقيت بعدهم حليف كآبة مستورة بتجمّل وتحامل
سعدوا براحتهم وها أنا بعدهم في شقوة تضني ، وهمٌ داخل (١)

وقف الشاعر على ربوع شيزر ، وتأمل مصيرها ، وتذكر طفولته وشبابه الراحل ، فبكاها بكاء مراً ، ولم يكتف بهذه القصيدة وإنما تحدث في قصيدة أخرى عن الحدث نفسه قائلاً :

ما استدرج الموت قومي في هلاكهم ولا تخرّمهم (٢) مثنى ووحدانا
ماتوا جميعاً كرجع الطرف وانقرضوا هل ، ما ترى ، تارك للعين إنسانا
لم تترك الموت منهم من يخبّرني عنهم فيوضح ما لاقوه تبيانا
هذي قصورهم أمست قبورهم كذاك كانوا بها من قبل سكانا
ويح الزلازل ، افنت معشري فإذا ذكرتهم خلتني في القوم سكرانا
أخنت على معشري الأدنين فاصطلمت (٣) منهم كهولا وشباناً وولدانا
لم يحمهم حصنهم منها ولا رهبت بأساً تناذره (٤) الأقران أزمانا
بنو أبي ، وبنو عمي ، دمي دمهم وإن أروني مناواة وشنآنا
يُطيّب النفس عنهم أنهم رحلوا وخلفوني على الآثار عجلانا (٥)

---

(١) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٣٠٤ ، ٣٠٥

(٢) تخرمهم : استأصلهم .

(٣) اصطلمته : استأصله .

(٤) تناذره الاقران : خوّف بعضهم بعضاً منه وأنذره .

(٥) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٣٠٧ – ٣٠٩

أقام أسامة في دمشق فقرّبه معين الدين أنر ، واعتمد عليه في إدارة دفة الملك ، فأحبّه الناس ، ونجح في سياسته ، ولكن هذا النجاح أكثر من حساده ومنافسيه ، فكثرت الوشايات من حوله لإقصاء الشاعر عن معين الدين ، بيد أنه لم يسمع إليهم ، فاعترف الشاعر بجميله ، وعرض بذلك في مدحه :

معينَ الدين، كمْ لكَ طوق منٍّ ... بجيدي مثلَ أطواقِ الحمام
تعبدنى لك الإحسانُ طوعاً ... وفي الإحسانِ رقٌّ للكرامِ
فصارَ إلى مودّتكَ انتسابي ... على أني العظاميُّ العصامي
ألم تعلمْ بأني لانتمائي ... إليكَ رمى سواديَ كلُّ رامِ (١)
ولولا أنتَ لم يُصحِبْ شماسي ... لقسرٍ دونَ إعذارِ الحسام (٢)
ولكنْ خفتُ منْ نارِ الأعادي ... عليكَ فكنتُ إطفاءَ الضرام (٣)

حدثت الوقيعة بينهما ، وارتحل الشاعر إلى القاهرة ، وبخاصة بعد أن رأى حاكم دمشق يتصل بالفرنجة ليسالمهم خوفاً من نور الدين .

وصف أسامة هذه الحال خير وصف في قصيدة بعث بها إلى معين الدين بعد ارتحاله ، وصور فيها الدسائس والمؤامرات التي كانت تحاك حوله من قبل الساسة في دمشق ، وأعرب له فيها عن نصحه لمكانته من نفسه :

بلغ أميري معينَ الدين مألكة (٤) ... مِنْ نازحِ الدّار لكنْ ودّه أَممُ
هلْ في القضية يامنْ فضلُ دولته ... وعدلُ سيرته بينَ الورى علمُ
تضيّعُ واجبِ حقي بعدما شهدت ... بهِ النصيحةُ والإخلاصُ والخدمُ
وما ظننتكَ تنسى حقَّ معرفتي ... إن المعارفَ في أهل النهى ذِممُ
ولا اعتقدتُ الذي بيني وبينكَ من ... ودٍّ وإنْ أجلبَ الأعداءُ ينصرم
لكنْ ثقاتُكَ ما زالوا بغشهمُ ... حتى استوت عندكَ الأنوارُ والظلمُ
والله ما نصحوا لمّا استشرتهمُ ... وكلّهمْ ذو هوىً في الرأيِ متهمُ
كمْ حرّفوا منْ مقالٍ في سفارتهمْ ... وكمْ سعوا بفسادٍ ضلّ سعيهمُ

---

(١) سوادي : شخصي .

(٢) أصحب : انقاد .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢١٩ — ٢٢٠ .

(٤) مألكة : رسالة . والامم : القرب.

هَبنا جنينا ذنوباً لا يكفِّرُهـــا عذرٌ، فماذا جنى الأطفالُ والحرم
ألقبتهم في يد الإفرنجِ متبعـــاً رضا عدا يسخطُ الرحمنَ فعلهمُ
هل فيهم رجلٌ يغنى غنايَ إذا جلا الحوادثَ حدُّ السيف والقلمُ
ولستُ آسى على الترحال من بلدٍ شهبُ البزاةِ سواءٌ فيه والرخم(١)

مهما يكن من أمر دمشق والمتسلطين عليها من بني الصوفي ، فقد وصـــل القاهرة في جمادى الثانية سنة ٥٣٩ هـ . وبصحبته والدته وزوجـــه وأخوه محمد ، فأكرم الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله وفادته ، وحباه بإقطـــاع سني ، أتاح له الحياة الهنيئة على خير ما تكون :

نلتُ في مصر كـلَّ ما يرتجى الآ ملُ مِنْ رفعـةٍ ومـالٍ وجـاهِ
فاستردَّت ما خوَّلتني ، وما أسـ رعَ نقضَ الأمورِ عند التناهي
كنتُ فيهـا ، كأنني في منـامٍ زال منـه ما سرَّ عند انتباهي(٢)

ابتعد أسامة في مصر عن كل الخلافات المستحكمة بين الخلفاء والوزراء، ورأى بثاقب بصره أن يبتعد عن كل نشاط مؤيداً كان أو معارضاً .

انقضت أيام الخليفة الحافظ ، وهو راض بالركون إلى هذه الراحة بعد الذي حدث له في دمشق من قبل .

ذكرت بعض المصادر القديمة أنه اشترك في التآمر على الخليفة الجديد الظافر بالله ، وانتهى الامر بقتل الخليفة المذكور ووزيره العادل بن السلار .

وهم ابن خلكان فذكر أن قدوم أسامة كان في عهد الخليفة المذكور (٣) وأنه هو الذي أحسن إليه ، فقابله بالتآمر عليه وقد وضح هذا الموضـــوع في معرض حديثه عن المحنة المذكورة .

ساءت الأحداث السياسية في مصر ، وكان يحسب أنه سيجـــد فيها راحة باله بعد ما شهده في بلاد الشام ، لكنه رأى الصراع في القصر الفاطمي على أشده بين الخلفاء والوزراء ، وحتى بين الوزراء أنفسهم ، وتضيق الدنيا في وجهه بعد أن شهد المآسي، فالخليفة يقتل بيدعباس الصنهاجي ، ويقـــوم طلائع بن رزيك فينتقم من القاتل ، وهكذا يستمر بحـــران هـــذا الصراع

(١) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ١٤٦ – ١٤٨ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٢٦٣ .
(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٦٣ .

السياسي ويحس الشاعر من خلاله باليأس فينشد :

هبْ أنمصرجنان الخلد مااشتهتالنفوسُ فيها من اللذّاتِ موجودُ
ماذا انتفاعي إذا كانتْ زخارفها موجودةٌ ، وحبيبُ النفس مفقودُ
وما الحياةُ لمنْ بانت أحبته رضاً ، ولا هو في الأحياء معدودُ(١)

يأسى الشاعر على حاله وهو بعيد عن بلده ، ويتذكر أحبته ، ويتشوق إلى أوطانه وأوطاره :

يا مصرُ،مادرَتْ فيوهمي ولاخلدي ولا أجالتك خلواتي بأفكاري
ما أنت أولُ أرضٍ مسّ تربتها جسمي، ولا فيك أوطاني وأوطاري
لكنْ إذا حمتِ الأقدارُ كان لها قوىً تؤلفُ بين الماء والنارِ(٢)

تقلبت به الدنيا ، وأرته من فنونها الوانا ، فكانت له في حياته عظات وتجارب :

خمسون من عمري مضت لمْ أتعظ فيها كأني كنتُ عنها غائبا
وأتتْ علي بمصر عشرٌ بعدها كانتْ عظاتٍ كلها وتجاربا
شاهدتُ منْ لعب الزمان بأهله وتقلب الدُّنيا الرقوب عجائبا (٣)

تحدث أسامة عما شهده في مصر من الحوادث المفجعة التي حدثت في البلاط الفاطمي في كتابه الاعتبار(٤) ، ويظهر أنجفوة حدثت بينه وبينالقصر، اذ كان مطلعاً على كل ما جرى من أغتيال الوزير العادل ابن السلار بيد حفيد زوجته نصر بن العباس ، واغتيال الخليفة سراً بعد ذلك ، فأزمع أمره على الفرار من القاهرة ، وهرب منها ، ولم يكد يبلغ دمشق إلا بشق النفس بعد أن تعرض له الصليبيون مراراً .

خلف أسامة وراءه صداقات متينة ، كانت تربطه بالعظماء من رجال الفكر والسياسة هناك ، وستغدو في المستقبل صلة وصل بين حكام مصر

(١) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٦٥ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٧٥ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٢٦٥ .
(٤) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٨ .

والشام ، وكانت بحق مظهراً من مظاهر الوحدة العربية المرتقبة لتطهير الأرض المقدسة .

تواردت عليه بعد رحيله رسائل الملك الصالح طلائع ، تبرئه من دم الخليفة الظاهر ، وتتحدث عن غدر وزيره عباس ، وتندد بالجريمة الشنعاء التي اقترفها (١) .

كان هذا الوزير يحب أسامة ، فطلب اليه أن يعود ، ورغبه في ذلك ليقطعه أسوان ، ويتقوى به على محاربة الحبشة ، فلما بعث ، إليه يطلب منه تسيير أهله وأولاده كتب إليه يقول في جوابه : ترجع إلى مصر ، وأنت تعرف ما بيني وبينك . وإن كنت مستوحشاً من أهل القصر ، فتصل الى مكة ، وأنفذ الك كتابا بتسليم مدينة أسوان إليك ، وأمدك بما تقوى به على محاربة الحبشة ، وأسير إليك أهلك وأولادك (٢) .

لم يرض بما عرض عليه وإنما ألح عليه ليسير إليه أهله وأولاده فأرسلوا، لكن السفينة التي أقلتهم أصابها عطب عند ثغر عكا ، فوقعت بيد الفرنجة ، فأخذوا كل ما فيها من أموال ، وكان مما أخذوه مكتبته الخاصة التي تحتوي على أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة ، ولم يأس على شيء مثل فقد مكتبته ، فقد قال : « إن ذهابها حزازة في قلبي ما عشت (٣) » .

أصبح الشاعر بعد هذه النكبة بحاجة ماسة الى المال ، فكتب إلى صديقه الوزير طلائع يخبره بما حل به :

يا أخا البيد والسُّرى، وأخي البِـرِّ ، إذا عقني أخٌ ونسيبُ
أنا أشكو إليك دهراً لحا عو دي ، وأعراه ، فهو يبسٌ سليبُ
وخطوباً رمى بها حادثُ الدّهـ ر سوادي وكلّهنّ مصيبُ
أذهبت بالـذي وطـارفي الطـا ري فضاع الموروثُ والمكسوبُ
فهو شطران بين مصر وبحـر ذا غريقٌ فيءٌ ، وذا منهوبُ(٤)

استولى نورالدين على دمشق سنة ٥٤٩ هـ . وهو عام عودته من مصر ،

(١) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ١١٣ .

(٢) أسامة بن منقذ : الاعتبار : ص ٣٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٥ .

(٤) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ١٦٣ .

ويظهر أن علاقته به على غير ما يرام ، إذ كان من أعوان الأسرة الحاكمة التركية السابقة ، وكان نورالدين نفسه ورعاً زاهداً لا يبتهج بالمديح لما علم من تزيد الشعراء (١) ، والناس مثله قد زهدوا له حتى غدت أيامه مثل شهر الصوم ، ليس فيها إلا الجوع والعطش :

أميرُنا زاهدٌ والناسُ قد زهدوا لهُ ، فكلٌ على الطاعات منكمشُ
أيامه، مثل شهر الصَّوم، طاهرةٌ من المعاصي وفيها الجوعُ والعطشُ (٢)

نيف الشاعر على السبعين من عمره وغدا غير قادر على غزو الفرنجة، ولكنه مع ذلك كان يتحامل على نفسه أحياناً ، وقد ذكر أنه ركب مع نور الدين ، واشترك معه في حصار قلعة حارم ، ويظهر أنها آخر مرة يشترك فيها بحرب ، صور أسامة حاله في هذا العام ، فقال :

لم تتركْ السبعون في إقبالها منّي سوى ما لا عليه معوّلُ
حتى إذا ما عامُها عني انقضى ووطئتُ في العام الذي يستقبلُ
حَطمَت قواي، وأوهَنت من نهضتي وكذا بمن طلب السّلامة تفعلُ
كم قد شهدتُ من الحروب، فليتني في بعضها من قبل نكسي أُقتلُ
والقتلُ أحسنُ بالفتى من قبل أن يبلى ، ويُفنيه الزمان ، وأجملُ
وأبيكَ ما أحجمتُ عن خوض الردى في الحرب ، يشهد لي بذاك المنصلُ (٣)
وإذا قضاءُ الله أخرني إلى أجلي المؤقت لي فماذا أعملُ ؟ (٤)

سئم أسامة الحياة في دمشق لأن التقاليد الرسمية ، والواجبات المرعبة تتطلب منه خدمة الملك والمشاركة في الحياة السياسية ، فغادرها متوجهاً إلى حصن كيفا ، وهو المكان الذي اختاره ليعتزل الناس ، ويكرس فيه نفسه ووقته للبحث والتأليف . أنجز بعض التصانيف التي أرخ فيها الحوادث المفجعة التي مرت عليه في حياته الحافلة بالمآثر والبطولات ، فكانت عظات كلها وتجارب .

(١) أبو شامه : الروضتين ، ج ١ ص ٢٢٩ .
(٢) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ١٥٨ .
(٣) المنصل : السيف .
(٤) المصدر السابق ، ص ٢٧٠ — ٢٧١ .

نعتقد أن الأمر على خلاف ما صوره الأقدمون ، وأغلب الظن أن هـذه العزلة كانت لدوافع سياسية سببها خلافه مع نورالدين ، إذ لم يقبل وساطته للتفاهم مع الفاطميين الذين عرضوا عليه خطة موحدة بين مصر والشام لإنقاذ بيت المقدس ، فما أفلحت سفارته . كانت الرسائل الشعرية المتبادلة بينه وبين الوزير الفاطمي طلائع صورة عن هـذه الاتصالات غير المباشرة ، وسوف نعرض لهذا الأمر في حديثنا المقبل عن أغراض شعره .

مر على الشاعر حين من الدهر . وهو مقيم في هذا البلد البعيد الذي آثره على دمشق ، حتى اذا دالت دولة الزنكيين . وقامت دولة الأيوبيين ، وأصبح على رأسها الناصر يوسف صديقه القديم في ديوان نـور الدين ، رأيناه وقد ابتهج بهذا الحدث ، وقطع عزلته بعد أن جاوز الثمانين عندما استدعاه ، فعاد الى دمشق ، وأكرم غاية الإكرام ، وأقطع دارا ، وأغدق عليه العطاء ، فحمد على طول عمره المشيب لأنه لقى الصديق الحبيب :

حَمِدتُ على طول عمري المشيبا   وإنْ كنتُ أكثرتُ فيها الذُّنوبا
لأنــي حييــتُ إلى أن لقيــتُ بعد العدوِّ صديقاً حبيبا (١)

قربه الصديق الحبيب صلاح الدين من مجالسه ، واستمع اليه ينشده شعره ، واحتفظ بديوانه معه في أسفاره ، إذ هو معجب به كثيراً ، كان يستشيره في أموره ، ويكاتبه في غزواته ، ويصف له وقائعه مع الفرنجة ، كما كان ابنه عضد الدولة مرهف أثيراً لديه ، اتخذه أنيسه وجليسه .

بلغ من العمر عتيا ، فتقوس ظهره (٢) ، ودب على العصـا (٣) بعد أن تخطته السبعون ، ورزقه الله ابنة على الكبر ، سماها أم فروة ، ففكر في حالها ومصيرها بعد موته ، وأسي لها ، إذ خاف عليها من اليتم بعده ، لكنه أودعها ربه الكريم :

أُفكِّرُ في فُرَيَّة ما تُلاقــي   من الدُّنيـا فتغشاني الهمومُ
وتَصعدُ زفرتـي أسفاً لعلمـي   بمـا يلقى مـنَ البؤس اليتيمُ
وقـد أودعتُهـا ربّـاً كريمــاً   ومــا يَنسى وديعتَهُ الكريمُ (٤)

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٦٤ ، والبيتان غير موجودين في الديوان

(٢) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٢٦٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٧٣ .

بيد أن الهموم بدأت تساوره من جديد بعد أن ساور الضعف أركانه، فرآها وقد كبرت ، غير أنها لا تنفك كاسفة البال ذليلة ، تمتري أحزان أبيها ودموعه ، فيتساءل عن مصيرها المظلم :

لما تخطّتنيَ السبعون معرضةً ... وساور الضعفُ بعد الأيدِ أركاني
وأدخلتْ كان في شكري وفي صفتي ... واسترجعَ الدّهرُ ما قد كان أعطاني
رزقتُ فروة والسبعون تخبرها ... أن سوف تيتمُ عن قرب وتنعاني
وهي الضعيفةُ ما تنفكُ كاسفةً ... ذليلةً ، تمتري دمعي وأحزاني
ما كان ، عمّا ستلقاه وعن جزعي ... لما ستلقاه ، أغناها وأغناني (١)

هكذا تخطته الثمانون ، وتلتها التسعون فشكا الكبر والشيخوخة ، وتمنى الموت ، فقضى نحبه في الثالث والعشرين من رمضان سنة ٥٨٤ هـ ، ودفن في سفح جبل قاسيون بدمشق على جانب يزيد الشمالي (٢) أحد فروع بردى .

(٢)

آثاره الأدبية

خلف أسامة آثاراً أدبية هامة ، نذكر منها كتاب « الاعتبار » ، وفيه يصور بأمانة ودقة الحياة السياسية والاجتماعية التي عاصرها ، وأورد فيها ما جرى له في حياته الخاصة الحافلة بضروب الشجاعة والفروسية .

اشار الدكتور شوقي ضيف إلى أهمية هذا الكتاب في معرض الترجمة الشخصية ، وذكر أنه « مذكرات بديعة ، تصور لنا الفروسية العربية زمن الصليبيين ، كما تصور حياة المسلمين لعصره ، وحياة الصليبيين أنفسهم » (٣) . ويختم حديثه عن الكتاب المذكور قائلاً : إنه « طرفة لما يحوي من مذكرات سياسية وحربية واجتماعية عن عصره ، وهي مذكرات نفيسة ، ويزيد في نفاستها أن اكثر ما دون بها مما خبره بنفسه وشاهده بعينيه (٤)» .

---

(١) ديوان اسامه بن منقذ ، ص ٢٧٤ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ١ ص ٦٣ ، وياقوت : إرشاد الأريب ، ج ٣ ص ١٧٣ ، وأبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٦٤ .

(٣) شوقي ضيف : الترجمة الشخصية ، ص ٩٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٠٠ .

ومن آثاره المطبوعة أيضاً كتابه « العصا (١) » ، وقد ذكر في مقدمته أنه فقد كتاباً يدور موضوعه حول ما قيل في العصا ، فأراد أن يضع كتاباً يضمنه ما جمعه في الموضوع المذكور . ومنها أيضاً كتاب « لباب الآداب » ، وكتاب « المنازل والديار » . وقد ذكر في مقدمته قوله : « دعاني إلى جمع هذا الكتاب ما نال بلادي وأوطاني من الخراب ، فإن الزمان جر عليها ذيله ، وصرف إلى تعفيتها دوله وحيله ، فأصبحت كأن لم نغن بالأمس من حتمر العرصات ، قد دثر عمرانها وهلك سكانها ، فعادت مغانيها رسوماً ، والمسرات بها حسرات وهموماً ، ولقد وقفت عليها بعد ما أصابها من الزلازل ما أصابها ، وهي أول أرض مس جلدي ترابها ، فما عرفت داري ، ولا دور والـدي وإخوتي ، ولا دور أعمامي وبني عمي وأسرتي ، فبهت متحيراً مستعيذاً بالله من عظيم بلائه وانتزاع ما خوله من نعمائه » (٢) .

أما في ديوان شعره فقد جمعه وصنفه خلال حياته بعد تجاوزه السبعين من عمره ، وتناقلته المحافل الأدبية ، فذكر ابن خلكان أن ديوان شعره منتشر في أيدي الناس وهو في مجلدين (٣) .

وصف العماد الكاتب ليلة كان فيها عند صلاح الدين ، وكـان يذكر جماعة من شعراء هذا العصر ، ورأى عنده ديوانـه « وهو به مشغوف ، وخاطره على تأمله موقوف ، وإلى استحسانه مصـروف ، وقد استحسن قصيدة له طائية ، لو عاش الطائيان لأقرا بفضلها ، وأن خواطـر المبتكرين لتقصر عن مثلها ، على أن الشعراء المحدثين ما منهـم إلا من نظم على رويها ووزنها ، واستمد خصب خاطره من مزنها » (٤) .

صنف الشاعر ديوانه بحسب الأغراض الشعرية المعروفة في خمسـة أبواب : الغزل، فالوصف ، فالمديح ، فالأدب ، فالرثاء . وختمها بمسمطات مـن شعـره .

(١) نشر هذا الكتاب كاملاً في الدراسة التي قام بها المستشرق « درنبورغ » عن حياة أسـامة .

(٢) أسامة بن منقذ : المنازل والديار ، ص ١٠ ـ ١١ . طبع أخيراً في روسيا ، وعني بنشره ووضع فهارسه المستشرق الروسي أنس خالدوف .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٦٣ .

(٤) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٤٧ .

إن مما يؤخذ على هذا التصنيف أن الشاعر اضطر لتجزئة القصيدة الواحدة ، وإيراد كل جزء منها في أحد الأبواب المذكورة .

يضاف أخيرا إلى آثاره الأدبية كتابه (البديع في نقد الشعر) ، وقد جاء في مقدمته قوله : « هذا كتاب جمعت فيه ما تفرّق في كتب العلماء المتقدمين المصنفة في نقد الشعر ، وذكر محاسنه وعيوبه ، فلهم الابتداع ، ولي فضيلة الاتباع » (١) .

اعتمد المؤلف في تصنيفه على كتاب (البديع) لابن المعتز ، وكتاب (الحالي) للحاتمي ، وكتاب (المحاضرة) للحاتمي ، وكتاب (الصناعتين) للعسكري ، وكتاب (اللمع) للعجمي ، وكتاب (العمدة) لابن رشيق .

يشتمل هذا المؤلف على خمسة وتسعين باباً ، أولها باب التجنيس المغاير ، وختامها باب التهذيب والترتيب .

---

(١) أسامة بن منقذ : البديع في نقد الشعر ، ص ٨ .

القسم الثاني

شعره ومذهبه الفني

يمثل شعر أسامة الذروة التي بلغها الشعر الوجداني المطبوع بالطابع الذاتي في هذا العصر ، إذ استطاع من خلاله أن يعرض لنا صورتين رائعتين : صورة توضح لنا حياته الأسطورية الخاصة ، وتبرز ما فيها من انفعالات وجدانية ، وصورة ثانية توضح لنا الأحداث الكبرى التي مرت فيها .

(١)
أغـراض شعره

لن نتحدث عن كل أغراضه الشعرية ، وإنما سنعرض أبرزها ، وبخاصة منها تلك التي تصور حياته وعصره .

شعره الذاتي

نتدرج مع الشاعر في مراحل حياته ، فنراه شجاعاً يأبى الخسف والضيم ، لأن نفسه لا ترضى صاحباً يرضى اهتضامه :

أ أُســـامُ خسفـاً ، ثــم لا آبـى فلســتُ إذن أسامــهْ
هيهـــات لا ترضـــى المعـــالي صاحبـاً يرضى اهتضامهُ(١)

ويلقى نفسه في المخاطر دون أن يخشى العواقب ، وهو ابن خمس عشرة ، فيخوض المعارك ، ويفري بصارمه الهام :

لخمسَ عشرةَ نازلتُ الكماةَ إلى أن شبتُ فيها، وخير الخيل ما قرحا
بصارمٍ من رآه في قتامِ وغىً أفري بها الهامَ، ظن البرقَ قد لمحا
أغدو لنار الوغى في الحرب إن خمدتْ بالبيض في البَيْض والهامات مقتدحا

---

(١) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ١٤٢ .

فسل كماة الوغى عني لتعلم كم   كرب كشفت، وكم ضيق بي انفسحا (١)

يدرج عهد الصبا سريعاً ، ويمر شبابه الغض مرور السحاب ، ويأسى على ايامه لانه شغل فيها سعياً وراء المعالي والأمجاد. فلم يتمتع بها كأترابه ، وإنما ذكرهما وهو في قمة السبعين . وعاد بذكرياته عبر السنين ، بندب صباه الغابر وشبابه الراحل :

دع مانهى الشيب والسبعون عنه فتر   بالك: الصبا والشباب الغض قد درجا
واعصمن فتك اخدان الصبا ورعاً   ومن جهالة أيام الشباب حجا
عذرت إذ جرت في ليل الشباب فهل   عذر وشيبك قد أذكى السرجا
وما أساءت بك الايام إذ جعلت   فوديك درا وكانا قبله سبجا(٢)

ويذكر صباه في مكان آخر من شعره ، ويود لو دام له رونقه ، واستمرت أوقاته :

لله در الصبا لو دام رونقه   فما كأوقاته في العمر اوقات(٣)

ويذكر ايضاً الشباب ، ويتحدث عما عانى فيه من العثار :

وما كنت مغتبطاً بالشباب   وهل كان إلا رداء معارا
ولكنني ساءني فقده   نواهاً له ، اي هم اثارا
وما ساءني أن أحال الزما   ن ليلي نهاراً وجهلي وقاراً
ولكن يقولون : عصر الشباب   يكون لكل سرور قرارا
وما زلت منذ ترديته   كخابط ليل أعاني العثارا
أكابد دهراً يشيب الوليد   وهماً يشب بأحشاي نارا
فوجدي أني فارقته   ولم أبل مايزعمون اختبارا(٤)

ويتغنى الشاعر وهو في الأربعين بهما معاً ، ويتمثل فكرة الخيام ، فيعد زمن السرور وحده عمره الحقيقي :

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٠٩ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٢٦٦ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٢٦٦ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٢٦٨ .

فالوا : نهته الأربعونَ عن الصّبا   واخو المشيب يجورُ ثُمَّت يهتدي
كم ضلَّ في ليل الشباب فدلّهُ   وضحُ المشيب على الطريق الأقصد
واذا عَددَتُ سنيَّ ثم نقصتُها   زمنَ الهموم فتلك ساعة مولدي(١)

يقف الشاعر طويلاً عند السبعين ، فيتحدث من خلالها ، يبدأ منها ويعود إليها . وكنا أوردنا بعض ما قاله في هذه المرحلة من عمره ، ونعرض الآن لبعض ما يوضح الصورة التي نتلمسها ، ونرسمها خلال مراحل حياته عامة . نراه يتحدث عنها حديث حكيم عاركته الأيام ، ووعظته التجارب ، ثم ينتهي من ذلك ليعظ غيره :

ياشارب الخمر بعد النسك والدِّين   وبعد ما تابَ عما رابَ مُذْ حين
أفسدت دينكَ والسبعونَ أفسدتَ الـ   ـدُّنيا فلستَ بذي دُنيا ولا دين
وإنما أنتَ فَخَّارٌ تكسَّرَ لا   يُرجى لنفعٍ ولايُعتدُّ في الطّين(٢)

ويخاطب ابن السبعين ، وهو يسوف توبته ويماطل ، ويطلب إليه الا تخدعه الأماني ، فقد تحمل أوزار السنين ، وأشرف على الهرم والموت ، وصوح المرعى ، ولم يبق إلا هشيم تجتويه العين بعد أن ولى زمن الربيع :

ما مع السبعينَ تسويفٌ فلا   يخدعنَّكَ الأمل الواهي الخدوعُ
قد تحملتَ على ضعفكَ مِنْ   ثقل أوزاركَ ما لا تستطيعُ
وتقضّتْ عنك أيامُ الصّبا   وعلا مفرقَك الشيبُ التنيعُ
ثم أفضتْ مدّةُ الشيب إلى   هرمٍ يُعقبه الموتُ الذريعُ
صوّح المرعى ، فماذا ترتجي   بعدما صوَّحَ مرعاكَ المريعُ
هل ترى إلا هشيماً ذاوياً   تجتويه العينُ إن ولّى الربيعُ(٣)

يحسن بنا ، ونحن مع الشاعر في عقد السبعين ، ان نقف على هذا المرعى الذاوي ، فنرى أغصانه الذابلة وازهاره الميتة ، وأوراقه المتناثرة هنا وهناك ، فأصبح غير قادر على الركوب والسعي إلى الحرب الأن رجليه خانتاه:

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٤٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٦٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٨٧ .

رجلاي والسبعونَ قد أوهنتْ قُواي عن سعيي إلى الحربِ
وكنتُ إن ثوّب داعي الوغى لبيته بالطعن والضرب
أشقُّ بالسيف دُجى نقعها شقَّ الدياجي مرسلُ الشهبِ
أنازلُ الأقرانَ يُرديهمُ من قبلِ ضربي هامهم رُعبي
فلم تدعْ مني الليالي سوى صبري على اللأواء والخطبِ
ألقى الرزايا رابطَ الجأشِ في أحدانها مجتمعَ اللبِ
ما خانني عزمي ولا عزّتي صبري ، ولا ارتاعَ لها قلبي (١)

ويعجب الشاعر لما تأتيه به الأيام ، فيضطر إلى حمل العصا والاعتماد عليها :

فرجعتُ أحمل بعد سبعينَ العصا فاعجبْ لما تأتي به الأيامُ
وإذا الحمامُ أبى معاجلةَ الفتى فحياته ، لا تكذبنَّ ، حِمام (٢)

ويصف عصاه أيضاً ، وقد تحملت عنه ثقله تحمل المتكاره ، لا لأنها عجزت عنه ، ولكنها تجشمت حمل ما أبقي من أوزار شبابه الراحل :

حملت ثقلي بعد ما شبتُ العصا فتحمّلتهُ تحمُّل المتكارهِ
ومشت به مشي الحسيرِ بوقرهِ لا يستقلُ مقيداً بعثارهِ
ما آدها ثقلي ، ولكنْ ثقلُ ما أبقى الشبابُ عليَّ من أوزارهِ
ورجايَ معقودٌ بمن أعطى أخا الـ سبعينَ عُهدةَ عتقه من نارهِ (٣)

وتنبو به عصاه ، وتخونه رجلاه حين يحاول صعود الحزون ، فيمشي كما يمشي الوجي الوحل ، ويعذر عصاه :

إن ضعُفتْ عن حمل ثقلي رجلي ورابني عثارُها في السهلِ
أمشي كما يمشي الوَجِي في الوحل مشي الأسيرِ مثقلاً بالكبلِ
فللعصا عندي عذرُ المبلي إن عجزتْ أو ضعُفت عن حملي(٤)

أما ظهره فيتقوس ويغدو كالقوس يمشي وعصاه التي تتقدمه هي الوتر القائم .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٠٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٧٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٧٥ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٧٢ .

إذا تقوّسَ ظهرُ المـرءِ من كبرٍ   فعادَ كالقوسِ يمشي والعصا الوترُ
فالموتُ أروحُ آتٍ يستريحُ بـهِ   والعيشُ فيه له التعذيبُ والضررُ(١)

وأما يده فترتجف ، ويضطرب خطه ، ويعود كرة أخرى إلى السبعين فينشـد :

نكّست في الخلـقِ وحطّتني الـ   ـسبعـونَ لمـا أنْ عـلتْ سنّـي
وغيّـرت خطـى فأضحـى كمـا   ترى ، وكم قـد غيّـرت منـي
والموتُ فيـهِ راحةٌ من أذى الـ   ـدُنيـا ، فما أغفلهُ عني ؟ ! (٢)

خلد الشاعر إلى السكينة في بيته بعد تجاوزه الثمـانين ، ولم يستطع القيام أو النهوض والسير على عصاه ، فيضطر إلى الصلاة قاعداً ، ويتعذر عليه السجود أيضاً فيشعر من خلال هذه الحال بدنو رحلته الأبدية :

ولمّا تدعْ مني الثمانـونَ مِنّـةً   كأنّي إذا رُمتُ القيـامَ كسيـرُ
أؤدي صلاتي قاعداً ، وسجودُها   عليَّ ، إذا رمتُ السجودَ ، عسيرُ
وقد أنذرتْني هذه الحـالُ أنني   دَنتْ رحلةٌ مني وحان مسيرُ(٣)

أعطانا الشاعر أجمل صورة يبدعها فنان في وصف مراحل حياته : صباه وشبابه ، وقد مرا مرور السحاب ، ومشيبه الذي كان يتئد في مشيته ، حتى إذا نيف على التسعين شرع ينتظر بدء رحلته الأبدية .

لم يكن ما ذكرناه كل شيء في حياة الشاعر ، فلقد عرضنا مظاهر منها ، وسنعرض لمظاهر أخرى تجلي شعره الذاتي :

تحدث عن الزلازل في شيزر وحماة ، وعن خروجه من مصر فاراً مـع وزير الظافر عباس الصنهاجي الذي اتهمَ ولدُه نصر بقتل الخليفة الفاطمي ، وممـا قالـه :

فقـلْ لمنْ أشمتـهُ فراقُنـا   وسرَّهُ أنْ جارَ دهرٌ واعتـدى
إن سركَ الدهرُ بنا اليومَ فهلْ   أمنتَ أن يسرّنا فيكَ غـدا(٤)

ووصف حاله وهو بحلب الشهباء ، وقد بلغه نبأ انكسار مركب أسرته

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٦٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٧٤ .

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٥٢٩ .

(٤) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٦٧ .

عند عكا فلم يتمكنوا من الوصول إلى دمشق بأنفسهم إلا بعد أن أعطاهم ملك الفرنج خمسمائة دينار :

إلى الله أشكو فُرقةً دميتْ لها جُفوني ، وأذكت بالهموم ضميري

تمادتْ إلى أنْ لاذتِ النفسُ بالمُنى وطارتْ بها الأشواقُ كلَّ مطيرِ

فلما قضى اللهُ اللقاءَ تعرّضتْ مساءةُ دهري في طريق سروري(١)

تلك هي صورة حياته ، يتمثل فيها الإباء العربي والعز المنيف والعزيمة الماضية ، والكفاح المرير ليتبوأ المنزلة السامية التي خلق لها ، وربي من أجلها، وقد اتضح لنا ذلك من خلال هذه الأبيات :

إن يحسُدُوا في السِّلم منـ ـزلتي مِنَ العـزِّ المُنيفِ

فبمـا أهـينُ النفسَ في يوم الوغى بين الصفوف

فلطـالما أقـدمتُ إقـ ـدامَ الحتوفِ على الحتوفِ

بعزيمـةٍ أمضى عـلى حدِّ السيوفِ من السيوفِ(٢)

توضح هذه النظرة عند أسامة أن الإنسان لا ينعم بالسلم الحقيقي إلا إذا أقام صرحه على الكفاح والنضال من أجل حياة أفضل وسلام أشمل .

يبلغ شعره الذاتي الذروة في بعض قصائده الوجدانية ، فالمعروف أن أمراء بني منقذ توارثوا الشعر كابراً عن كابر ، وكانوا يتخذونه وسيلة يعبرون به عن كثير من المشاكل التي كانت تعترضهم . كان والد أسامة شاعراً ، بيد أنه هجر الشعر بعد تزهده وإعراضه عن تولي الإمارة ، ولم يمنعه ذلك في بعض الأحيان من معاتبة أخيه سلطان بعد أن ساءت العلاقات فيما بينهما .

أما أسامة فقد أعرب عن عواطفه تجاه والده في شعره ، نذكر منه القصيدة التي بعث بها إليه يستأذنه في الرحيل عن شيزر :

يا بن الأُلى جمعَ الفجار لبيتهمْ ما شتَّتوه من العطاءِ وفرَّقوا

أشكو إلى علياك هماً ضاق عن كتمانه صدري وما هو ضيّقُ

دعني وقطعَ الأرضِ دونَ معاشرٍ كلٌّ عليَّ لغيرِ جُرمٍ مُحنقُ

قد أفسدُوا عيشي عليّ وعيشَهم فأنا الشقيُّ بهمْ ، وبي أيضاً شقُوا

---

(١) المصدر السابق ، ص ٨٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢١٢ .

فاسمحْ ببعدي عنهمُ برضاكَ لي إن الذي ترضى عليه مُوفَّقُ(١)

يرق والده لحاله ، ويأذن له بالرحيل عن شيزر حسماً للنزاع ، وإيثاراً لسلامته ، فيلتحق بعماد الدين بالموصل كما مر معنا ، ويطول بعد ذلك بعاده ويتشوق إلى أسرته فيكتب إلى أبيه :

لا تفسدنّ نصيحتي بشقاق وأبيكَ ما السلوانُ من أخلاقي
وابلغْ تحيةَ نازحٍ قذفتْ به أيدي النّوى في أسحقِ الآفاقِ
قد كانَ بالشاميِّ يعرفُ برهةً مِن دهرهِ ، والآن فهو عراقي
بي لوعتان عليك يضعفُ عنهما جلدي من الأشواقِ والإشفاقِ
فالشوقُ أنت بهِ العليمِ وغالبُ الإ شفاقِ مما انتفى مُلاقِ(٢)

ويجيبه والده بقصيدة . جاء فيها قوله :

أتظن اني بعد بعدك باقِ اجزي عن الأشواق بالأشواقِ
أأبا المظفرِ دعوةٌ تشفي الظما مني ، وإن أضحى بها إحراقي
لم استكنْ أبداً لخطبٍ نازلٍ إلا لبعدكَ ، فهو غيرُ مطاقِ
فإذا أطمتُ الوجد فيك أطاعني قلبي ، ويبدي إنعصيتُ شقاقي
فإذا ذكرتكَ خلتُ أني شاربُ ثملٌ ، سقاه منَ المدامة ساقِ(٣)

تظهر العاطفة الوجدانية في قصائده التي بعث بها لابنه مرهف ولإخوته بهاء الدولة ، وعز الدولة ونجم الدولة وغيرهم .

وصف الأحداث الكبرى

عرف اسامة في حياته الطويلة الحافلة بجلائل الأعمال كبار الأبطال المسلمين الذين قاموا بأعباء الحروب الكبرى في هذا العصر لتطهير بلاد الشام المحتلة ، وكنا قد أشرنا في وصف حياته إلى التحاقه بخدمة عماد الدين وابنه نورالدين من بعده ، كما شهد شطراً من هذه الأحداث على يد صديقه صلاح

(١) المصدر السابق ، ص ١٢٧ — ١٢٨ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٣١ — ١٣٣ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٣٣ .

الدين . وطبيعي عند من يعمر قرناً من الزمن إلا قليــلا أن يلم بأهم احداث عصوره ، فيشترك فيها ، ويرسم سياستها بسيفه وقلمه .

وفي خضم هذا الصراع ينبعث من أرض الكنانة صوت حبيب ، ويحاول الفاطميون أن يتقربوا من نورالدين ليسهموا معه في حرب الفرنجة وتحريـــر بيــت المقــدس .

بدأت الصلات السياسية فبعث وزير الخليفة الفاطمــى الملك الصالح طلائع بن رزيك رسالة شعرية إلى صديقه يذكر فيها وقائعه وسراياه إلـــى الفرنج ، وتسييره الجيوش ، وأسماء مقدميهـــا من المصريين الأبطال وهي ملحمة طويلة استهلها بهذا البيت :

أبى اللهُ إلا أن يدينَ لنا النصرُ ويخدُمنا في ملكنا العزُّ والنصرُ(١)

اطلع نورالدين على هذه القصيدة ، فأمر أسامة أن يجيب بمعان وقعت الإشارة إليها ، وطلب منه أن يعدد له كل الفتـــوح التي أفــاء بها الله عليه ، واستهلها بقوله :

أبى اللهُ ألا أن يكــونَ لنا الأمرُ لتحيا بنا الدنيا ويفتخرَ العصرُ
وتخدُمنــا الأيامُ فيمــا نرومهُ وينقادَ طوعــاً في أزمتنا الدهرُ
وتخضعَ أعنــاق الملوكِ لعزّنــا ويرهَبها منّا على بعدِنــا الذكرُ
بطاعتنــا لله أصبح طوعـنــا الـ أنامُ ، فما يعصى لنا فيهمُ أمرُ
وما في ملوكِ المسلمينَ مجاهــدٌ سوانا ، فما يَثْنيهِ حرٌ ولا قرُّ
جعلنا الجهادَ همّنا واشتغالنـا ولم يُلهنا عنهُ السماعُ ولا الخمرُ
دماءُ العدا أشهى من الرّاح عندنا ووقعُ المواضي فيهمُ الناي والوَتَرُ
بنا ايّدَ الإســلامُ وازدادَ عزّةً وذلّ لنا منْ بعدِ عزته الكفرُ(٢)

ويشرع أسامة بعد خمسة وعشرين بيتاً من مقدمته الضافية ، فبشيد بالفتوح الكثيرة ، ويعدد البلاد التي تم تحريرها على يد نورالدين . ويتحدث عن ملوك الفرنجة الكثيرين الذين قتلهم أو أسرهم أو هزمهم . وينتهي من كل هذا العرض لذكر الأمل العظيم الذي يرقبــه المسلمون ، وهــو استعادة البيت المقدس والصخرة المشرفة :

(١) المصدر السابق ، ص ٢٠١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

ونرتجعُ القدسَ المطهرَ منهمُ ويتلى بإذنِ اللهِ في الصخرةِ الذكرُ(١)

ويستطرد بعد ذلك ليشيد بفضائل مولاه التي نعم بها أهل الشام ، من رد أملاكهم إليهم ووضع المكوس عنهم ، فيقول :

بنا استرجعَ اللهُ البلادَ وأمّن الـ عبادَ ، فلا خوفٌ عليهم ولا قهرُ
رددْنا على أهل الشآم رباعَهمْ وأملاكَهم فانزاح عنهم بها الفقرُ
فنالهمُ منْ عودِها الخيرُ والغنى كما نالنا مِن ردّها الأجرُ والشكرُ
ونحنُ وضعنا المكسَ عن كل بلدةٍ فأصبح مسروراً بمتجره السفرُ
واصبحتِ الآفاقَ من عدلنا حمىً فكدرُ قطاها لايروّعها صقرُ (٢)

ينتهي أخيراً لبشير الى موقف ملوك المسلمين ، ويندد بإحجامهم وترددهم ، ويستطرد من كل ذلك لصف لنا زهد نورالدين وإعراضه عن عرض الدنيا :

فكيف تسامينا الملوكُ إلى العلا وعَزْمهمُ سرٌ ، ووقعاتنا جهرُ
وإن وعدوا بالغزو نظماً فهذه رؤوسُ أعاديهمْ بأسيافنا نثْرُ
وما قولنا عنْ حاجةٍ بل يسوؤنا إذا لم يكن في غزونا لهمُ أجرُ
ماكنا الذي لم تحوه كفُّ مالكٍ ولم يعر" تيه الملوك ولا الكبرُ
عزفنا عن الدنيا على وجدها بنا فمنها لنا وصلٌ ، ومنّا لهاهجرُ
فقلْ للملوكِ الأرضِ : ما الفخرُ في الذي تعدونه من فعلكم ، بل كذا الفخر(٣)

اختتم أسامة على لسان نورالدين قصيدة القصائد التي أرخت أهم المعارك في هذا العصر ، وقد نيفت ابياتها على التسعين ، فصورت الأحداث الكبرى في صورة واحدة على لسان بطلها ، وما عرفنا شعراء الأحداث قبله من نهج هذ النهج كابن القيسراني وابن منير الطرابلسي وابن قسيم الحموي وغيرهم . وجدير بالذكر أن المناسبة التي نظمت فيها القصيدة المذكوره اقتضت أن يكوْن أسلوبها على هذا النمط الفريد ، ولو أن الشاعر الخيار لكان خطابه لصديقه على غير هذا الشكل ، كما سيتضح لنا ذلك من خلال حديثنا

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٠٦ .

عن بوادر الوحدة العربية الكبرى في شعر أسامة الذي بعث به إلى الملك الصالح جواباً عن كتبه المتبادلة فيما بينهما ، وهي بحق ثمرة الأحداث الكبرى في هذا العصر .

كان الملك الصالح هو البادىء في هذه الدعوة المخلصة لتوحيد شمل مصر والشام لطرد الفرنجة من البلاد الإسلامية قاطبة ، وقد جاء في القصيدة التي بعث إلى أسامة قوله :

فقولوا لنورِ الدين ، لا فُلَّ حدُّه ولا حكمتْ فيه الليالي الغواشمُ
تجهَّزْ إلى أرضِ العدوِّ ولا تهنْ وتظهرْ فتورا إن مضتْ منك حازمُ
بوقتٍ أصاب الأرضَ ما قد أصابها وحلّ بها تلك الدَّواهي العظائمُ
وقد كان تاريخُ الشآم وهلكُهُ ومن يحتويه أنه لك عادمُ
فقمْ ، واشكرِ اللهَ الكريمَ بنهضةٍ إليهمْ ، فشكرُ اللهِ للخلقِ لازمُ
فنحن على ما قد عَهِدْتَ نروعهمْ ونحلِفُ جهداً أننا لا نسالمُ
وغاراتُنا ليست تفتّرُ عنهمُ وليس يُنجّي القومَ منها الهزائمُ
وأسطولنا أضعافُ ما كانَ سائراً إليهمْ فلا حصنٌ لهم منه عاصمُ (١)

دعوة صادقة للوحدة يرسلها الوزير الشاعر إلى نور الدين ، ويطلب إليه التجهيز إلى أرض العدو لبدء المعركة الفاصلة ، ويشرح له موقف مصر من الفرنجة ، ويخبره أنه لا يسالمهم . وأن الغارات لن تفتر عنهم وأن الأسطول المصري تضاعف عدده .

أجابه أسامة عن هذه القصيدة ، فتحدث عن بأسه وشجاعته ، ووصف سراياه التي شرعت تدخل أرض المشركين ، وأساطيله التي غزتهم في البحر وانتهى بعد كل هذا ليحدثه عن اليوم الذي يجتمع فيه الملكان المجاهدان فتفتح البلاد المغلوبة على أمرها ، ويقضى على الفرنجة :

وقد شمَّر الملكانِ في الله طالبي رضاه ، بعزمٍ لم تعقه اللوائمُ
بجدٍّ هو العضبُ الحسامُ وحدُّهُ لعاديةِ الأعداءِ والكفرِ حاسمُ
وقاما بنصر الدين ، واللهُ قائمٌ بنصرهما ، ما دامَ للسيفِ قائمُ
وما دون أنْ يَفْنَى الفرنجُ وتُفْتَحَ الـ بلادُ سوى أنْ يُمضيَ العزمَ عازمُ (٢)

(١) المصدر السابق ، ص ٢٢٣ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٢٢٦

تتوالى الرسائل الشعرية ، ويعرض فيها كلا الجانبين رأيه في حرب الفرنجة ، ففريق يرى الريث ، وآخر بستعجل بدء الحرب. بعث الملك الصالح إلى أسامة قصيدة جاء فيها قوله :

هــلا بَذلت لنــا مقــالاً حــينَ لــم تبــذلْ فِعــالا
ســارت سرايــانــا لقصــدِ الشــامِ نعتسف الرمــالا
فلــو آنَ نــور الــدين يجــعلُ فعلَنــا فيهــم مثــالا
ويسيرُ الأجنــادَ جهــراً كــي ينازلَهــمْ نــزالا
ويفــي لنــا ولأهــل دو لتــه بمــا قــد كــانَ قــالا
لــرأيــت للإفــرنــج طــرّاً في معاقلهــا اعتقــالا
وتجهــروا للسّــير نَحْــوَ الغربِ أو قصــدوا الشّمالا
وإذا أبــى إلا اطّــراحــاً النصيحــةِ واعتــزالا
عــدنــا بتسليــمِ الأمــور لحكــمِ خالقِنــا تعــالى (١)

يفهم من هذه القصيدة أن نور الدين اخذ على نفسه العهد بالعمل على شن حرب واحدة تشترك فيها جيوش مصر والشام لطرد الفرنجة . ويلاحظ أن الملك الصالح يلح عليه طالباً منه الإسراع بما اتفقا عليه ، وقد أجابه أسامة بقصيدة اخرى اكد فيها هذا العهد ، ومدح نور الدين وأثنى على فضائله ، ومما جاء في جوابه قوله :

يا اشــرفَ الــوزراء اخــلاقــاً وأكــرمَهُمْ فَــعالا
فاسلَــمْ لنــا حتــى ترى لك فــي بنــي الدّنيــا مِثــالا
واشْــدُدْ بديــكَ بــودّ نو رِ الــدين ، والقَ به الرّجــالا
فهــو المحامــى عــن بــلا دِ الشــام جمعــاً أن تُــذالا (٢)
ومبيــدُ أمــلاك الفــرنــجِ وجَمعِهــمْ حالاً فحالا
ملــكٌ يتيــه الــدّهــرُ والــدنيــا بدولتِــهِ اختيالا
جَمَــعَ الخِــلالَ الصالحا تِ فلــم يَدَعْ منهــا خــلالا

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢١٤ ، ٢١٥

(٢) تذال : تهان

فإذا بدا للناظريـن رأت عيونهم الكمالا
فبقيتما للمسلميـن حمى وللدنيا جمالا (١)

صور لنا أسامة في شعره السياسي أجمل صورة للأحداث السياسية الكبرى المعاصرة ، وكان أميناً فيها كل الأمانة، فبلغ نور الدين رسائل صديقه الوزير طلائع ، وعبر عن شعور مولاه ، فصدق القول ، وأدى الأمانة .

لعلنا نتساءل عما أحرزه أسامة من النجاح في هذه السفارة بين مصر والشام ، ومعروف أنها انتهت بالفشل ، وسبب ذلك مرده إلى الخلاف المذهبي بين الخلافتين العباسية والفاطمية .

مهما يكن من أمر هذا وذاك فقد اعتزل الشاعر حياته السياسية في ركن قصي من جزيرة ابن عمر في حصن كيفا . ولما توحدت مصر والشام في عهد صديقه صلاح الدين ، قطع عزلته وآب إلى دمشق بعد أن تم تطهير الأرض المقدسة .

(٢)
مذهبه الفني

يتضح مما تقدم معنا من شعر أسامة أنه لم يتخذ من مذهب الإبداع في التطبيق والتجنيس وغيرهما سبيلاً ، على الرغم من أنه ألف كتاباً في علم البديع ، وصنف فيه أقوال المتقدمين في نقد الشعر ، وقد أشار ابن أبي الإصبع إلى هذا الكتاب في كتابه « بدائع القرآن » .

ثمة ظاهرة هامة في شعر تسترعي انتباهنا ، وهي أنه كان يثقف أسلوبه ، ويعيد النظر في قصائده وتراكيبها لتسلم من كل وهن ولحن . فمن خلال هذه النظرة الخاصة نفسر رغبة أسامة في حذف بعض قصائد ديوانه، أو الاستغناء عن بعض أبياتها ، فلا غرابة إن رأينا النقاد القدماء يقولون : « وله نظم في الذروة » (٢) :

وعلى الرغم من كل ذلك فهو لا يدعي الكمال لنفسه . ويطلب ممن يطلع عليه أن يستر عيبه :

كلما رددت في شعري النظر بان ضعف العي فيه وظهر
ليس يرضيني ، ولا يمكنني جحد ما قد شاع منه واشتهر

---

(١) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٢٤٣

(٢) الذهبي : سير النبلاء (مصورة) ، ج ١٢ ل ٣٨

فأجيلُ الفكـرَ في تقليلـه فـإذا قـلّ اختصرتُ المختصرَ
وبـهِ فتقـرٌ إلـى ذي كـرمٍ إنْ رأى مافيـه مِن عيبٍ سَتَرَ(١)

كما لاحظنا أن الشاعر قد استخدم التضمين بشكل يسترعي الانتباه، ولا سيما ما ورد منه في القصيدتين : الميمية والرائية ، أما أولاهمـا فسبق لنا أن أوردنا بعض أبياتها في مدح معين الدين أنر وهو يعاتبه ، وفيها ضمن كثيرا من ألفاظ قصيدة المتنبي وتراكيبها وأشطرها في عتاب سيف الدولة، وكان في بعض الأحيان يورد شطر البيت كاملاً، وأما ثانيتهما فهي الرائية (٢)، وكان يضمنها بعض شعر أبي فراس الحمـداني . يظهر أن الشاعر كـان معجباً بالقصيدتين المذكورتين فأحب تضمين شعره بهما ، تنويهاً بفضلهما ، ولعل إعجابه بالشاعرين جعله يقتصر عليهما في أسلوبه المذكور ، ولا نعـدو الحقيقة إن قلنا إن شخصيته جمعت بين محاسن الشاعرين .

نترك التضمين لنوضح فن المسمطات في شعره ، وقد أفرده عن أبوابه والحقه بالديوان . ومن الشعراء الذين سمط شعرهـم قيس بن ذريـح ، ومهيار الديلمي وقيس بن الملوح . كما سمط إحدى قصائده ، وهي القصيدة الميمية التي عاتب بها معين الدين أنر بعد خروجه من دمشق .

تلك هي حياة أسامة عرضناها من خلال شعره ، وهذا شعره وأدبـه صورة رائعة عن ذاتيته وعصره ، يمثل الأحداث الكبرى ، ولو لم يكن لنـا من شعره غير الذي ذكرناه لكان في مصاف الشعراء الخالدين . بيـد أن للشاعر إبداعا آخر في غير مجال الشعر فهو أديب كاتب ، وكان من أوائـل الذين أسهموا في نشوء الترجمة الشخصيـة في أدبنا العربي . ففي كتابـه « الاعتبار » المار ذكره صورة لعصر يكاد يتمثل في شخص ، وشخص يكـاد يمثل في عصر .

هذا هو أسامة الشاعر ، وهو الأديب الكاتب ، وهو الأمير البطـل « فارس الشـام » (٣) ، وهو بعد هذا وذاك علم فذ من أعـلام الشعراء فـي هـذا العصر .

---

(١) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ١٠

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٢

(٣) الذهبي : سير النبلاء (مصورة) ، ج ١٢ ل ٣٨

ابن الساعاتي

(٥٥٣ — ٦٠٤ هـ = ١١٥٩ — ١٢٠٩ م)

القسم الأول

حياته وآثاره

(١)

مراحل حياته

في دمشق الفيحاء ، ولد الشاعر أبو الحسن ، بهاء الدين ، علي بن محمد بن رستم بن هردوز (١) ، والمعروف بـ « ابن الساعاتي » سنة ٥٥٢ هـ .

ينحدر من سلالة أسرة فارسية ، قدم والده محمد من خراسان ، وكان عارفاً بعلم النجوم وخبيراً بصنع الساعات الفلكية ، فاستخدمه نور الدين في عمل الساعات التي كانت عند باب الجامع الأموي ، فكان له من صنعها الإنعام الوافر (٢) ومن هنا جاء لقبه الساعاتي . افتخر الشاعر بأبيه فقال في إحدى قصائده :

وَرِثْتُ الخُراسانيَّ حِلْماً ونائلاً فلا قَلَقَ البُقيا ، ولا حَرَجَ الصَّدْرِ (٣)

اشتهر من بعده أخوه الأكبر رضوان ، وكان ضليعاً في علم الطب والحكمة ، وله فيهما التصانيف الكثيرة ، فاستوزره الملك الفائز ، ومن بعدُ ابنه الملك المعظم ، وهما ابنا الملك العادل .

---

(١) ابن سعيد الاندلسي : الغصون اليانعة ، ص ١١٨ ، وابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ١ ص ٣٦٢ ، وابن أبي أصيبعة : طبقات الاطباء ، ج ٢ ص ١٨٣ ، ١٨٤ ، وسبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٢ أخبار سنة ٥٧٩ هـ ، وابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج ٥ ص ١٣ ، وحاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ٢ ص ٢٤٦ ، ومقدمة ديوان ابن الساعاتي ، ج١ ص ١ — ٤٤ ، والزركلي : الاعلام ، ج ٥ ص ١٥٠

(٢) ابن أبي أصيبعة : طبقات الاطباء ، ج ٢ ص ١٨٤

(٣) ديوان ابن الساعاتي ، ج ١ ص ٢٩٤

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما الشاعر علي فقد ذكر عنه ابن سعيد أنه لم ينشأ بدمشق في زمانه أبدع منه صورة (١) ، وكان أبوه على جانب كبير من اليسار ، فانصرف في صباه إلى الفروسية ، وبرع في اللعب بالنرد والشطرنج ، ونال حظاً وافراً من الثقافة والأدب . ويظهر أن والده أراد إقصاءه عن هذا الجو العابث الذي كان يعيش فيه ، فزوده بالمال ، وسيره إلى آمد ، وقرأ فيها على الشاعر المشهور البديع الأسطرلابي ، وكان يجنح في شعره إلى الفكاهة والمجون . روى ابن سعيد أنه « كان له ألف دينار فجعلها في حب (٢) ببيت البديع ولم يغلقه ، فاتفق ان دخل السقاء وحمل الحبّ ، فوقع على الذهب فأخذه . وتفقده ابن الساعاتي فلم يجده ، فجزع وشكا ذلك للبديع، فقال البديع ما اشتهر ، لما تضمنه من الإحسان وطريف المقصد »(٣) :

يامَنْ إذا غابَ عني لستُ أنساهُ ومَنْ أصافيه وُدّي حينَ ألقاهُ
إن كان مالك ماءُ الحُبّ ألفه كما علمتَ ، فماءُ الحبُ أفناهُ

سعى له أستاذه في خلاص هذا المبلغ الذي كان يستعين به في غربته من السقاء . ويظهر أن الصداقة التي كانت تربط بين الشاعر الفلكي البديع الأسطرلابي وأبيه بحكم المهنة الواحدة ، جعلته يبعث بابنه إليه ، ولا سيما أنه بالإضافة إلى ذلك شاعر معروف ، ولعله أراد من ذلك أن يجتمع له في تربية ابنه ما يريده ، فيبصره بالعلوم الفلكية التي توارثتها الأسرة وعرفت بها ، ويستمد منه أصول مذهبه الشعري .

عاد الشاعر إلى دمشق بعد أن استكمل ثقافته ، وخالط الكبراء ، ونادم الملوك ، وجالس السلاطين ، وهام فيه الجلة ، فقدم على جميع شعراء عصره ، وأبيح له ضرب طبولهم على عادة أهل المشرق كما يقول ابن سعيد (٤) .

توزعت حياة الشاعر في الدولة الموحدة ، قضى في الشام شطرها الأوفى ، وارتحل إلى مصر فاختتم بها بقية حياته ، وقد مدح خلالها أبرز رجال العصر من سلاطين ووزراء في الشام ومصر .

---

(١) ابن سعيد : الغصون اليانعة ، ص ١١٨

(٢) الحب : الجرة الكبيرة أو الخابية

(٣) ابن سعيد : الغصون اليانعة ، ص ١١٩

(٤) المصدر السابق ، ص ١١٨

المرحلة الأولى
حياة الشاعر في بلاد الشام

اتصل بالسلاطين الأيوبيين ، وجل مدحه الشامية خص بها الناصر صلاح الدين ، وابنيه الأفضل صاحب دمشق والظاهر صاحب حلب . وقد استمرت صحبته لصلاح الدين خلال وجوده في بلاد الشام ، فمدحه بقصائد كثيرة ، ورد منها في الديوان ثماني عشرة ، لا خمس عشرة ، كما ذكر الأستاذ انيس المقدسي في مقدمته (١) .

وجدير بالذكر ان الشاعر كان يرتحل صحبة السلطان أو بتوجه اليه ينشده مدحه في الانتصارات التي كانت تتجدد وتتوالى على يديه في كل حين .

من ذلك ما رواه سبط ابن الجوزي في أخبار سنة ٥٧٩ هـ أن صلاح الدين عاد من آمد ، ووصل عينتاب ، ونزل على تل خالد بعد قتال مرير ، فوفد عليه ابن الساعاتي ، ومدحه بقصيدة تحدث فيها عن انتصاراته ، وحثه على قصد حلب (٢) ، وتنبأ له بفتح القدس في وقت قريب ، ومما جاء فيها قوله :

ما بعد لقياك للعافينَ من امل	ملك الملوكِ وهذي دولة الدُول
ذر الصَّوارم في أغمادها فلقد	جلوتَها من دماءِ الهام في خِلل (٣)
لولا مساعي صلاح الدين ما صلحتْ	شمُ الممالك بعد الزَّيغِ والميَلِ
فانهض إلى حلبٍ في كل سابقةٍ	سروجها قُلَلٌ تغني عن القلل
بكر المعاقل فاخطبها مكابرةً	بكل ألمى أصم الكعب معتدل
غارتْ ، وحقّك من جاراتها فشكتْ	ما باله بافتضاضي غير محتفل
وليس يجمع أشتاتَ العلا رجلٌ	مَنْ ليس يجمع بين القول والعمل
فليعلم القدسُ ان الفتح منتظرٌ	حلولهُ ، وعلى الآفاق فليطُل (٤)

---

(١) ديوان ابن الساعاتي ، ج ١ ص ١٩ ، ٢٠

(٢) سبط الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ أخبار سنة ٥٧٩ هـ

(٣) جعل الدماء كاللفائف للسيوف ، وقال : يكفيها ذلك أغماداً

(٤) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ٣٨٢ — ٣٨٤

ويظهر أن الشاعر كان يصحب صلاح الدين عام الفتح القدسي ، وقد وصف لنا في شعره الذين أعجبوا به بعد ما رأوه يحقق لهم حلمهم المنشود منذ عشرات السنين .

جلتْ عزماتك الفتحَ المبينا ... فقد قرّتْ عيونُ المؤمنينا
رددتَ أخيذةَ الإسلام لما ... غدا صرفُ القضاء بها ضمينا
وهانَ بك الصليبُ وكان قدماً ... يعزُّ على العوالي أن يهونا
وما طبرية إلا هديٌّ ... ترفّع عن أكفّ اللامسينا
قضيتَ فريضة الإسلام منها ... وصدّقت الأماني والظنونا
نهزُّ معاطفَ القدسِ ابتهاجاً ... ونرضي عنك مكة والحجونا
فلو أن الجهاد يطيقُ نطقاً ... لنادنك : ادخلوها آمنينا
أعدت بها الليالي وهي بيضٌ ... وقد كانت بها الأيام جونا
فلا عَدمَ الشآمُ وساكنوه ... ظُبىً تشفي بها الداء الدّفينا
فالمِمْ بالسواحلِ فهي صورٌ ... إليك والحقِ الهامَ المتونا
فقلبُ القدسِ مسرورٌ ولولا ... سطاك لكان مكتئباً حزينا
أدرت على الفرنج رحى تلاقتْ ... جموعهُمُ عليك رحىً طحونا
ففي بيسان ذاقوا منك بؤسا ... وفي صفدٍ أتوكَ مصفّدينا
لقد جاءتهم الأحداث جمعاً ... كأن صروفها كانت كمينا
وخانهم الزمان ولا ملامٌ ... فلستَ بمبغضٍ زمنا خؤونا
لقد جرّدت عزماً ناصرياً ... يحدّثُ عن سناه طور سينا
فكنت كيوسف الصدّيق حقاً ... له هوت الكواكبُ ساجدينا
وإن تكُ آخرا ، وخلاك ذمٌ ... فإن محمداً في الآخرينا (١)

يتوج هذا البطل انتصاراته بفتح بيت المقدس ، ويمدحه الشاعر مشيداً بما حققه للمسلمين من فتح أغر ، ويختتم مدحته معرضاً بالحادثة التى أتت على ماله :

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ٨٤ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص٢٣٤ وديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ٤٠٦ — ٤٠٨

أعيتْ ، وقد عاينتمُ الآيةَ العظمى ... لأية حالٍ تذخرُ النثرَ والنظما
وقدساغَ فتحُ القدسِ في كل منطقٍ ... وشاع إلى أنْ أسمعَ الأسلَ الصُّما
فليتَ دنى الخطاب شاهدَ فتحَها ... فينهد أن السهم مَن يوسفٍ أصمى
حبا مكة الحسنى وثنّى بيثربٍ ... وأطرب ذيالك الضريحَ وما ضمّا
وما كان إلا الداءَ أعيا دواؤه ... وغيرُ الحسامِ العَضْبِ لايعرف الحَسْما
وأصبح ثغرُ الدينِ جذلانَ باسماً ... وألسنةُ الأغمادِ توسعُه لثمـا
سلوا الساحلَ المخشيَّ عن سطواته ... فما كان إلا ساحلا صادفَ اليمّا
تجاوزت ما أعيا الجبالَ مناله ... فهل يقظة كانت مساعيك أو حلما
نصبت على الأعداء رأياً ورايةً ... بفيدانهم من بعد رفعهمُ الجزما
فللحقّ شمسٌ لاتغام بباطلٍ ... وللعدل فيه آيةٌ تنسخ الظُّلما(١)

ويظهر أن الشاعر قد اشترك في هذه المعركة مع صلاح الدين ، فقد تعرض في قصيدته لحادثة وقعت له ، وهو في طريقه إليه ، فأتت على كلْ ماله ، وأصبح معدماً ، ومما قاله في القصيدة المذكورة :

فيا كاشفَ الجُلى ويامحييَ الهدى ... ويا قاتلَ البلوى، وياكاشفَ الغمّا
رمتني الليالي ، والليالي مصيبةٌ ... فكم لسهام الحزن في كبدي كَلْما
وأصبحتُ من مالي وصبري معدماً ... وفي أيْ باغي ثروةٍ عدَلتْ قدْما
لقد جارت الأقدارُ فيَّ بحكمها ... ولم تزل الأقدارُ تقهرُنا حكما(٢)

ويحتمل أن يكون الشاعر قد فقد ماله قبيل المعركة الأخيرة حينما التحق بصلاح الدين ، فسلبه الفرنجة ما كان يحمله .

اتصل الشاعر في هذه المرحلة من حياته بأبناء صلاح الدين وبخاصة منهم ابنه الملك الأفضل نور الدين علي صاحب دمشق ، فمدحه بعدة قصائد نشير إلى إحداها ، وقد أنشده اياها سنة ٥٨٢ هـ ، جاء فيها قوله :

أصبحتْ جلّق" به جنّةَ الخُلـ ... ـدِ وباتتْ فسيحةَ الأكناف
إنما أنتمُ لنا يابني أيّـ ... ـوبَ ركنٌ نؤمّه بالطّواف

(١) أبو شامه : الروضتين ، ج ٢ ص ١٠٦ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٣٣٤

(٢) المصدران السابقان

طُلْتُمُ العالمينَ أصلاً وفرعاً بقديمٍ مِنْ مجدكمْ أو مُضافِ
ووجوهٍ مخلوقةٍ منْ حياءٍ ونفوسٍ مِنْ جوهرٍ شفّافِ(١)

استمرت صلته به بعد ارتحاله إلى القاهرة ولقائه هناك ، ذلك أن الملك الأفضل نزع عنه أخوه ملك مصر العزيز ملكَ دمشق بالانفاق مع عمه العادل .

لم تقتصر صلة الشاعر في هذه المرحلةعلى مدح الملوك والأمراءالايوبيين، وإنما تعدتهم إلى كبار الوزراء والقضاة وغيرهم . نذكر منهم صديقه الوزير الصاحب صفى الدين بن القابض ، وكانت تربطه به صلة متينة ، استمرت مدى حياته وبعد ارتحاله إلى مصر ، فكان يبعث له بقصائده على البعد، نيف عددها على العشرين مدحة ، طبعت بطابع شامى في أوصافها كما في القصيدة التي مدحه بها سنة ٥٨٢ هـ ، وقد وصف ربيع دمشق الناضر :

ما جِلّقُ الفيحاءُ إلا جنّةٌ فَضْلُها وحيُ الغمامِ المُنزلُ
كم نِعَمٍ للعيشِ في أرجائها يُفصِحُ عنها سهلُها والجبلُ
بنفسجٌ مثلُ الخدودِ قُرِّصتْ ونرجسٌ ما هوَ إلا المُقَلُ
بكى الحمامُ فالثّرى مبتسمٌ ورقصَ الدوحُ وغنّى الجدولُ(٢)

اكتفينا بهذه الصورة من صور الربيع في هذه القصيدة ، ففيها نفحة اندلسية وديباجية بحترية ، فهى خير تعبير عن طبيعة جلق الفيحاء .

جحد الشاعر هذه الطبيعة الساحرة ، وكفر بدمشقها ، ونادى ممدوحه قائلاً :

وطني أنتَ لا دمشقُ ، وأهلي نعمةٌ منكَ أصبحتْ ليَ أهلا
كنتَ عوني بحيثُ لا يجدُ الإلـ ـفُ أليفاً ولا الخليلُ الخِلّا
وانتحاني صرفُ الزّمانِ فلمّا جاءني مقبلاً نداكَ تولّى
فلهذا اعتقدتُ مدحكَ فرضاً ومديحَ الأنامِ بعدكَ نفْلا(٣)

ونذكر من ممدوحيه أيضاً القاضي الفاضل ، فقد خصه بمدحة

---

(١) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

(٣) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ٣٩٧

أنشده إياها لأول مرة يلقاها فيها بمخيم صلاح الدين علي ظاهر آمد سنة ٥٧٩ هـ ، وختمها بوصف سوء حاله في بلاد الشام :

وإنّي لآبى الضيمَ مِنْ كلِ صاحبٍ   وأكرهُ قلبي أن يكونَ له خدْنــا

فإن بَلَدٌ لم أغــدُ فيهِ مكرّماً   نهضتُ فاعملتُ الجديليَّةَ البُدنا(١)

وما شانَ فضلي بين أهلي خمولُهُ   وقد بَلَغَتْ آياتُه الإنسَ والجنّا

فإنّي كعودِ الهندِ هينٌ بدوحِهِ   وقد عَبَقَتْ أنفاسُهُ السهلَ والحزْنا (٢)

بلغت مدحه التي خصه بها في مدة يسيرة اثنتي عشرة مدحة ، معظمها كان خلال إقامته في بلاد الشام ، وكان صحبة السلطان . ويظهر من خلالها أنه وعده بأمر ما ، فكتب إليه يستنجزه وعده : والتزم في هذه القصيدة أن تكون في قافية كل بيت صفة لون واسمه :

أسلفتني أملاً هو الشّمسُ المنيــرةُ والزّمانُ دُجنّةٌ سوداءُ

وقضاؤهُ يقضي بأنّ المِدحةَ الـغرّاءَ عنهــا المِنحَةُ الغرّاءُ (٣)

ساءت أيامه كثيراً في بلاد الشام فلم ينل ما كان يتمناه ، وكثر حساده وأعداؤه وتألب عليه إخوانه وخلانه ، فعاش وحيداً لا يجد من أصدقائه من يقاسمه سراء الحياة وضرّاءها . ظهر ذلك من خلال القصيدة التي مدح بها نور الدين ، وجاء فيها قوله :

أبكتنيَ الأيامُ مُذْ ضحكتْ   لي عن نيوبِ نوائبٍ عُصْلِ

أفسدنَ خلاني فمالي في الـ   سرّاءِ والضراءِ مِنْ خِلِّ

هيهات يمنحني فواضلَهُ   مَنْ باتَ يحسدُني على فضلي(٤)

نبه شأن الشاعر ، وذاع صيته ، وعرفه القاصي والداني ، لكن أصحاب السلطان حالوا بينه وبين مبتغاه ، فلم يعهد إليه بمنصب يرضي غروره وطموحه ، وعده القاضي الفاضل ، واستنجز منه وعده ، بيد أنه أخلفه فباء بأذيال الفشل والخسران ، ونكب بالإضافة إلى كل ذلك بماله ، فشكا إلى السلطان ما حدث له ، ويظهر أنه لم يحصل منه على ما يريده .

ضاقت بلاد الشام في عينيه ، فأزمع أمره على الارتحال إلى مصر .

---

(١) الجديلية : البدن النياق السمينة

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٧٤

(٣) المصدر السابق ، ج ، ص ٢٨٨

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٨ ، ١٩ .

المرحلة الثانية
حياة الشاعر في مصر

أغلب الظن أن الشاعر توجه إلى القاهرة بعد تجاوزه السادسة والثلاثين من عمره ، وذلك سنة ٥٨٩ هـ ، إذ ثبت لدينا أنه كان في بلاد الشام قبل عام واحد ، وشهد توقيع الهدنة مع الإنكليز ، فمدح صلاح الدين في قصيدة منها قوله :

سلْ عنه قلبَ الإنكتير(١) فإنَّ في خفقانه ما شئتَ مِنْ أنبائهِ
لولاكَ أمَّ البيتَ غيرَ مدافعٍ وأسال سيلَ نداهُ في بطحائهِ
وبكتْ جفونُ القدسِ ثانيةً دماً لترنّمِ الناقوسِ في أفنائهِ (٢)

ثمة دليل آخر على صحة ما نذهب إليه خلافاً لرأي الأستاذ أنيس المقدسي (٣) فقد ورد في مقدمة القصيدة التي مدح بها القاضي الفاضل بعد عودته من مصر قوله : « وقال يمدحه ، ويذكر قدومه ويعتب على تقصير وجده منه في حقه لأمر كان يجب عليه القيام به ، وذلك في سنة تسع وثمانين وخمسمائة (٤) » .

وصف الشاعر حاله وهو مرتحل عن دمشق بقوله :

ما سِرْتُ عن جِلِقٍ أبغي البديل بها لولا طِلابي محلّاً في العلا(٥) قَذَفا
طولُ المُقام لأهلِ الفضل مَنْقَصةٌ والمسكُ لولا النّوى ما أدركَ الشّرَفا
لو لم تُجرّدْ سيوفُ الهند ما رُهبتْ والدُّر ما جَلّ حتى فارقَ الصَّدَفا
يلفى الخمولَ الفتى والفضلُ مُلْبَسُهُ تالله لو لم يتِمَّ البدرُ ما كُسِفا
ذمَّ الورى كلَّ محمودٍ وما تبِعوا غيرَ الأوائلِ فيما قيلَ والسَّلَفا

---

(١) الانكتير : أي الانكليز

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٤٣ ، وديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ٤١١

(٣) مقدمة ديوان ابن الساعاتي ، ج ١ ص ١٥

(٤) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ٢٧

(٥) قَذَف ، وقُذُف : يقال فلاة قذف أي تقاذف بمن يسلكها .

لتَحمَدَنّ لحملي العيسَ عن بلدٍ أبكيهِ ما غبتُ عنه هائماً دَنِفا
فالغيثُ لولا فراقُ البحرِ ماحُمدت له السحائبُ لما أنْ بكى أسَفا(١)

نشعر بخلجات نفس الشاعر من خلال هذه الأبيات ، ففيها يبرز ضرورة سفره ، ويصف مسيره عن البلد الذي نشأ فيه ، ولقي منه العقوق والجحود . ويورد عاملاً آخر ، وهو الخلاف المستحكم بينه وبين الآخرين .

وكأن القاضي الفاضل أحد كبار رجال السلطان الذين تعرف عليهم في بلاد الشام ، وهو الوحيد الذي بيده الأمر والنهي ، فاتجه إليه ومدحه بقصيدة سنة ٥٨٩ هـ ، وعاتبه على تقصير وجده منه في حقه لأمر كان يجب عليه القيام به ، ومما قاله :

حنانيك يا عبد الرّحيم شكايةٌ تهزُّ بعطف الألمعيِّ الخلاحلِ
أأظما وأنت البحرُ والعامُ مخصبٌ وأخشى وأنت السيف حتف الغوائل
وأحرمُ من جدواك حتى شفاعةٌ تعود بطلٍ لا تصوبُ بوابل
وقد أخذتْ مني السنون وحاجتي مردّدةٌ ما بين ماضٍ وقابل
وذو الحزم من يمسي كثيراً اصطناعه نتيجة أيام الحياة القلائلِ
تثبّتْ ولا تسمعْ مقالةَ كاشحٍ فإني خليقٌ بالعلا والفواضل(٢)

التقى الشاعر ببعض ممدوحيه الذين عرفهم من قبل في بلاد الشام أيضاً ، نذكر منهم ملك دمشق الأفضل نور الدين الذي اتخذ القاهرة مقاماً له بعد أن نزع عنه اخوه العزيز ملك مصر وعمه العادل ملك دمشق ، ومما قاله الشاعر في مدحه سنة ٥٩٥ هـ يصف حاله :

يا بن الملوك السابقين إلى العلا سبق الجياد إلى المحل الأبعد
أحسنتَ في الدّهر المسيء بأهله وسمحت في الزمن البخيل الأنكدِ
وكسوتني حُلَلَ العلاء وربما عبثَ الزّمانُ بما كسوت فجدّد
فلأمنحنّك كلّ باقيةٍ إذا نفد النُّضارُ وجدتها لم تنفد(٣)

أخلص الشاعر وده للملك الأيوبي العزيز عثمان الذي استقل بملك

---

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٧٤

(٢) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ٣٠

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٣٦

مصر بعد وفاة أبيه صلاح الدين ، وقد مدحه بقصائد كثيرة نيف عددها على خمس وثلاثين ، ويظهر أن الشاعر كان يحضر مجالس الملك الخاصة وينادمه على شرابه بين جواريه وغوانيه . يحسن بنا الوقوف على قصيدة أنشده إياها بديهاً في مجلس كثير الرياحين والأترج ، وجاء فيها قوله :

وباغٍ كفانا كلَّ باغٍ من الأسى ... وزف لنا بكرَ المنى وهي ناهدُ
إذ الندُّ سحبٌ والسقاةُ أهلةٌ ... تدير شموساً والكئوس فراقدُ
وكم عاطلٍ من لذةٍ زانَ جيده ... ندى ملكٍ ضنَّ الحيا وهو جائدُ
فتىً بعوالي سمره وسيوفه ... تعزُّ المعالي أو تهونُ الشدائدُ
دجى نقعه يسودُّ منه سنا الضحا ... وتخضرُّ من نعماه حتى الجلامدُ
شربنا لديه التبرَ والتبرُ ذائبٌ ... على صفحات التبر ، والبرجامدُ
لو أن الغواني أمكنتها شفوفه ... لأضحت على اللبَّات ، وهي قلائدُ
وبيضاءَ حمراءَ الأسيلين أرسلت ... ذوائب سودا هنَّ عندي أساودُ
وما هي إلا قبلةٌ مِنْ ملاحةٍ ... لها بقلوبِ الزائرين مشاهدُ
بحيثُ تماثيل الرياحين عكفٌ ... لها وأباريق المدام سواجدُ
فأقسم أما الحسنُ منها فباهرٌ ... وأما ضجيع الخود منك فماجدُ(١)

تصور هذه المدحة العزيزية مجالس ملوك هذا العصر ، كما تشير عزيزية أخرى إلى إغراقه في لذاته ، وادمانه على شرب الخمر ، ومما قاله.

فاهجر العاذلات وصلاً لأبا ... م صبوحٍ إلى ليالي الغبوقِ
فالأريبُ الذي إذا عصى الخا ... لقَ لم ينوِ طاعةَ المخلوقِ
ولكم ليلةٍ ركضتُ إلى اللذ ... ات فيها ركضَ الجوادِ السبوقِ
ونجومُ السماء كالخيلِ في الحلـ ... ـبة من سابقٍ ومن مسبوقِ
وتداعى الصَّباحُ فالفجرُ في الأفـ ... ـق لواءٌ مضمَّخٌ بخلوقِ (٢)

أما صلة الشاعر بوزيره ابن مجاور فقديمة العهد مذ كان في بلاد الشام، وقد مدحه بإحدى عشرة قصيدة ، نشير منها إلى اثنتين كتب بهما إليه بعد أن تولى إحلال الوئام والسلام بين الأمراء الأيوبيين المتنازعين ، فأفلح في

(١) ديوان ابن الساعاتي ، ج١ ص ١٠٣

(٢) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ٨٢ — ٨٣ .

مسعاه بعد أن بذل قسطاً من ماله لإصلاح ذات البين . ونقف عند مدحة ثالثة أنشده إياها وهو في بلاد الشام ، واختتمها مصوراً حاله في وطنه ، وليس فيه سوى فضله غريباً :

وكلّ بات ذات وطن وأهلٍ   وليس به سوى فضلي غريبا
ومن يكُ عالماً بالخلقِ علمي   فليس بواجدٍ شيئاً عجيبا (١)

تلك كانت حاله في وطنه ، وأما الآن فقد تغير كل شيء في حياته فأصبح شاعر البلاط الأيوبي ، وانقلبت حياته نعيماً :

يا حبذا زمنُ الوصالِ الآيبِ   وتألفُ الأحباب بعد تجانبِ
وتبسمُ الأيامِ بعدَ تجهمٍ   وتثبتُ الأحداثِ بعدَ تواثبِ
عاد الزمانُ كما عهدتُ إلى الرضا   وأزالَ بالإعتابِ عتبَ العاتبِ
وصفتْ موارد عيشتي وحلتْ بها   بعد الترنق سائغاتُ مشاربي
فركضْتُ طِرفَ اللهوِ غيرَ مفكرٍ   وسرحتُ في روضِ السرور ركائبي
من بعدِ ماضاقَ الشآم وأزمعت   مصراً نجائبُ ذي فؤادٍ واجبِ
وتبرجتْ غيدُ المنى وتأرّجتْ   ريحُ الغنى ، وافترّ نفرُ مآربي (٢)

قد نعجب من هذا التغير المفاجىء في حياة الشاعر ، لكنه لا يعجب من ذلك ، وهو في عتبة الخمسين من عمره ، فيخاطبنا :

لا تعجبنّ لطالبٍ بلغَ المنى   كهلاً وأخفقَ في الشبابِ المقبلِ
فالخمرُ تحكمُ في العقولِ مسنةً   وتداس أوّل عصرِها بالأرجلِ (٣)

لم يمهله القدر ، فسرعان ما نغص عليه سعادته ، وفجعه بأولاده الثلاثة : مودود وعيسى ومحمود ، في وقت قريب متلاحق ، فندبهم بحزن وحرقة ، ولم يتأخر عنهم فلحق بهم ، وقضى نحبه في المحلة الكبرى التي كان يقطنها بالقرب من القاهرة ، وذلك يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة ٦٠٤ هـ ، ودفن بسفح جبل المقطم (٤) .

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٩٤ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٣٦ .

(٣) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ٤ ، وابن سعيد : الغصون اليانعة ، ص ١٢٣ .

(٤) ابن سعيد : الغصون اليانعة ، ص ١١٩ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج١ص٣٦٢

(٢)

آثاره الأدبيـــة

خلف ابن الساعاتي تراثاً شعرياً غزيراً ، فقد عرف عند معاصريـــه بالشهير المكثر (١) ، كما ذكر ابن خلكان أن له ديوان شعر يدخل في مجلدين ، أجاد فيه كل الإجادة ، وديواناً آخر لطيفاً ، سمـــاه « مقطعات النيل » (٢) ، بيد أن معاصره ابن سعيد الأندلسي ، وهو الوحيد الذي ترجـم للشـــاعر بالتفصيل ، ونظر في شعره بدقة وإمعان ، يؤكد لنا أنه وقف على ديـــوان شعره في أربع مجلدات ، وهو مملوء من المحاسن (٣) ، ويؤكد الذهبي أيضـــاً أنه يقع في مجلدتين ، « وانتخب منه ديواناً صغيـــراً » (٤) وأغلـــب الظن أن مقطعات النيل هى هذا الديوان الصغير المشار إليه في قوله السابق .

نعتقد أن ديوانه المطبوع لا يضم كل شعره ، وذلك لأمرين اثنين : أما أولهما فهو أن معظم المدح الموجودة فيه لم يذكر منها غير الاستهلال بالنسيب حتى بيت التخلص ، وأما ثانيهما فهو وجود كثير من قصائده في بطون كتب التاريخ مما لا نعثر عليه في الديوان ، وقـــد استدعى هـــذا الأمر من محقق الديوان أن يلحق به بعض القصائد الأخرى .

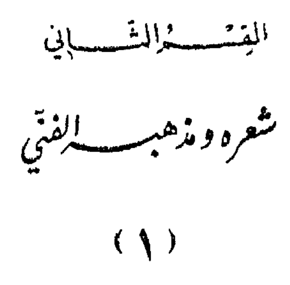
---

(١) ابن سعيد : الغصون اليانعة ، ص ١١٩ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيـــان ، ج ١ ص ٣٦٢ .

(٣) ابن سعيد : الغصون اليانعة ، ص ١١٨ .

(٤) الذهبي : سير النبلاء (مصورة) ، ج ١٢ ل ١٠٨ .



أغـراض شعـره

تتضح لنا في شعر ابن الساعاتي أغراض عدة ، نذكر في هذه المدرسة أبرزها ، فنعرض لمدحه التي صور بعضها الأحداث الكبرى ، إذ كان خاتم الشعراء الذين أرخوها لنا ، ثم نتحدث بعد ذلك عن غزله ووصفه .

مـدح وأحـداث

كان لا بد للشاعر من سلوك سبيل المدح علـى سنن معظم الشعـراء القدامى في أدبنا العربي ، فهم يعتقدون أنهم وحدهم الذين يخلدون ممدوحيهم ذلك أن ما ينالونه تذهب به الأيام والسنـون ، وأما المدح فتبقى خـالدة تخلـد ممدوحيها .

تلك هى عقيدة الشاعر أيضا كما لمسناها من خلال مدحه الكثيـرة ، وقد رأينا أن كثيرا منها قد اقتصر على مطالـع النسيب ، وهـذه ظـاهرة تسترعى انتباهنا حقاً ، إذ لا نملك الدليل اليقين على الغاية منها ، اللهم إلا إذا اعتقدنا أنها رغبة الشاعر في اختصار ديوانه ، وهو ــ كما علمنا ــ مكثـر طويل النفس جداً في قصائده جرياً على سنة ابن الرومي من قبله . ولعلنـا نجد في الخلاف حول عدد مجلدات ديوانه بين ابن سعيد وابن خلكان ما يفسر لنا هذه الظاهرة الهامة ويوضحها بعض التوضيح .

مهما يكن من الأمر فالجدير بالذكر أن بعض مدحه كالتي مـدح بهـا صلاح الدين ، صورت لنا نهاية الأحداث الكبرى ، وقد رأينا ذلك في فتـح

آمد وحلب الشهباء وطبرية ، بيد أن الشاعر يتميز عن غيره من الشعراء ، فقد شهد السنة الغراء التي تحرر فيها بيت المقدس ، فكان له شرف تخليد هذا الحدث الأغر في الشعر العربي كما رأينا ذلك في حينه .

كما كانت مدحه وسيلة يفتخر فيها بنفسه ، ويشيد بجمال قصائده، ويتحدى بها أدباء عصره ، وهذه الظاهرة طبعت شعره بطابعها ، ويندر أن نجد مناسبة دون أن يشير فيها إلى ذلك .

يعتقد أنه لن يضيره كونه موجوداً في عصر متأخر ما دام قد جاوز في الإبداع من كانوا قبله . من ذلك قوله في مدح الملك المظفر تقي الدين :

ما شانني قربُ الولاد فقد جاوزتُ في الإحسانَ مَنْ قبلي
هـذا خبرُ الأنبياءِ غدا وهو الشفيعُ وسيّدُ الرُسلِ (١)

ويعبث به الغرور أحياناً فيخاطب الملك الظافر مظفر الدين الخضر بن صلاح الدين في قصيدة سيرها إليه ، وكان على حصار دمشق سنة ٥٩٦هـ، وقال فيها :

ولستُ أميرَ النَّظمِ والنثرِ إن حَدَتْ إلى غيركَ الوَجْناءُ أو وَصَلَ الحَبْلُ
كفاها جلالاً أنّ فكري وليثها وأنّك با نجل الملوك لها بعلُ
فما كان مثلي « ابنُ الوليد » وإنما تقدّمَ ميلادٌ ، ولا مثلكَ الفضلُ (٢)

إنه أمير النثر والنظم إذاً ، فاق غيره من شعراء عصره ومن هم قبله ونرى في مكان آخر أنه يزري على الشاعر الجاهلي لبيد العامري ، وعبيد ابن الأبرص وغيرهما (٣) .

ويخيل إليه أنه صار ملك المعاني ، كما حلا له أن ينعت نفسه في القصيدة التي مدح بها الملك المظفر تقي الدين في دمشق سنة ٥٨٠ هـ ، وقد أنشده إياها في داره :

خلفَ العزيزُ الملكُ يوسفَ يوسفاً وخلفتَ أنتَ عزيزَ مصرٍ يوسُفا
فالشمسُ والبدرُ المنيرُ تلاهما نجمُ الهدى، والنجمُ ليس به خفا

(١) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ٢٢ .
(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٠٩ .
(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٨٣ .

فاستجلها عذراءَ أيسرُ خطبها ما عنّ خطبٌ أن تصدّ وتصدفا
زُفّتْ إلى ملكِ المعالي زَفّها ملكُ المعاني رقّةً وتلطفا (١)

ثمة ظاهرة أخرى في مدحه تسترعي انتباهنا ، وهي أن الشاعر كثير التحدث عن الحساد والحسد ، وهو دائم التشكي من أعدائه الذين يناصبونه العداء في الشام ومصر على السواء ، ففي الشام تحدث عنهم إلى صديقه الوزير صفي الدين بن القابض في معرض مدحه يهنئه فيها بحلول عيد الفطر سنة ٥٨٢ هـ ، ومما جاء في ختامها :

ولستُ أقول للحسّاد كبتاً كفى الحسّاد هجراً ما أقول
إذا طُبعوا على شيءٍ فدعهم فتغييرُ الطبائع مستحيلُ
ألوْماً بعدما قدمت حقودٌ وماتت في القلوب لى الدخولُ (٢)
أعندهم سوائر شارداتٌ لها سفرٌ وليس لها قفولُ
أوائلها هي الأسحارُ طيباً وآخرُها كما رقّ الأصيلُ (٣)

وفي مصر أيضاً تألب عليه الأعداء والحساد ، فتحدث عنهم في القصيدة التي مدح بها الظاهر مظفر الدين الخضر أحد أبناء صلاح الدين سنة ٥٩٥ هـ بعد غيابه عنه لأمرها ، وجاء فيها قوله :

غبت وحسبي غيبتي عنك أسىً ينجدُ في جوانحي ويتهمُ
تقدّمتني عصبةٌ لو أنني أطعت فيك الشوق ما تقدموا
ينمّقون القول ما غبت فإنْ حضرتهمْ يومَ مقالٍ وجموا
فإن نطقت صمتوا وإن بدا ظللي خَفَوا ، وإن أضأت أظلموا
فاطووا أحاديثَ القريضِ يابني الد عوى فما كلُّ طويٍّ (٤) زمزمُ (٥)

وينظم الشاعر قصيدة يفتخر فيها، ويمدح نفسه ويتحدث عن أمجاده ويذكر آباءه وأجداده ويشيد بخراسانيته قائلاً :

---

(١) المصدر السابق ، ح ٢ ص ١٧٧ .

(٢) الدخول : جمع دخل وهو ما يداخل القلب من فساد أو غدر .

(٣) ديوان ابن الساعاتي ، ح ٢ ص ٣٠١ .

(٤) الطوي والطوية : البئر المطوية .

(٥) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٢٣

ورثت الخراسانيّ حلماً ونائلاً فلا ثلق البقيا ولا حرج الصّدرِ
ونحن أناس ما انتضينا براعةً لذي فاقةٍ إلا أغرْنا على الوفرِ
وما كان نظم الشّعر عادة مثلنا لمسألةٍ لولا الإرادةُ للفخرِ (١)

فهل صدق الشاعر في الإفصاح عن غرضه الحقيقي من نظم الشعر ؟ لقد تبين لنا أن جل مدائحه كان لمسألة وفاقة ، بيد أننا لا نبخسه حقه إن قلنا إن هذه القصيدة وحدها في الديوان كانت الإرادة للفخر .

طبيعة ووصف

وصف الشاعر مظاهر الطبيعة الساحره في بلاد الشام وبخاصة منها متنزهات دمشق وروابيها ورياضها وأنهارها ، كما وصف بروقها ورعودها وأمطارها .

شاء الشاعر قبيل خروجه من دمشق أن يودع لحظاته الأخيرة فيها ، فخرج لنزهة صحبة خلانه ، واجتمعوا على شرب الخمر في يوم جميل ، وفيما هم كذلك أرعدت السماء وأبرقت فانهمرت الأمطار وعكرت عليهم صفوهم ، وطلب إليه خلال ذلك أن يصف لهم بديهاً هذا المنظر ، فأنشدهم قوله :

لله يوم النّيربَين (٢) ووجهُهُ طلْقٌ وثغرُ اللّهوِ تغرٌ أشنبُ
وكأنما فننُ الأراكةِ منبَرٌ وهزارُها فوقَ الذؤابةِ يخطبُ
والرّعد يشدو والحيا يسقي وغصنُ البانِ يرقصُ والخمائلُ تشربُ
وكأنما السّاقي يطوفُ بكأسهِ بدرُ الدّجى في الكفّ منه كوكبُ
بكرٌ بها نقعٌ الغليلِ ومعجبٌ نقعُ الغليلِ بجذوةٍ تتلهّبُ
يفضّها ماءُ الغمامِ ويا لهُ عجَباً غداةَ الدّجنِ وهو لها أبُ
حمراءُ حاربْنا الشّروفَ بصرفِها فزجاجها بدمِ الهمومِ مخضّبُ
والقطْر نبلٌ والغديرُ سوابغٌ موضونةٌ والبرقُ سيفٌ مُذْهبُ (٣)

---

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٨٨

(٢) النيرب : قرية مشهورة بدمشق في وسط البساتين ، ذكرها وجيه الدولة بن حمدان في شعر له ، وسماها النيربين بالتثنية (معجم البلدان ، ج ٥ ص ٣٢٠) .

(٣) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ١٦٨ ، وابن سعيد : الغصون اليانعة ، ص ١٢٥ — ١٢٦ .

نلاحظ في هذه القصيدة التصنع البديعى مذهب الشاعر الفني ، وهو أحد رواده ؛ فقد استخدم بكثرة مراعاة النظير . وبخاصة منها في البيت الأخير ، وهو في عرف البلاغيين أن يجمع الشاعر في الكلام بين أمر وما يناسبه كما يسمونه أيضاً التناسب والائتلاف والتوفيق والمؤاخاة والتلفيق (١) .

خلف الشاعر بلاد الشام وراءه ، وظن أنه سيسلوها أبداً ، ولكن شوقه إلى مدارج طفولته ومرابع صباه وملاعب شبابه جعله يذكرها كثيراً ، ويندر أن نجد مطلع مدحة يخلو من ذكر منزهات دمشق وما حولها من رياض وجداول وربا وقرى .

عبر الشاعر خير تعبير عن خلجات قلبه بعد أن افتقد بلاد الشام في القصيدة التى بعث بها إلى الأمير سيف الدين محمد بن تميرك عند قدومه من دمشق إلى القاهرة رسولاً ، وجاء في مستهلها قوله :

أشاقك برقٌ بالشآم يُشامُ	فدمعكَ لو يطفي الغليلَ سِجام
نودُّ الحشا إيماضَه وهو جَذْوةٌ	وتشناقه جفناي وهو حُسامُ
أحبابَنا بالغوطتين وجِلّقٍ	سلامٌ . وهل يدني البعيدَ سلامُ ؟
ظننتم بنا السلوانَ لما سلوتمُ	وفي ظنّكمْ بالعاشقين إثامُ
لقد قضت الأيام بالبعد عنكمُ	وأخلقَ عهدٌ منكم وذمامُ
فلا نسرّحتْ في الدّوح للورد وجنة	ولا اهتزّ من هيف الغصون قوامُ
تجلُّ صباباتي فأعذر فيكمُ	ويجهل ما بى في الهوى فألام
ولو أنني غيّضت في النيل أدمعي	لأصبح ماء النيل وهو حرامُ
أسائلُ عنكمْ والسؤالُ صبابةٌ	وأستعذبُ التذكارَ وهو غرامُ (٢)

تبلغ عبقرية الشاعر الوصفية ذروتها الإبداعية في قصيدة فريدة ، قصرها على وصف الليل ، فصوره تصويراً دقيقاً يعجز عن مثله فنان بارع ، إذ استطاع أن يبرز أدق المعاني وأسماها من خلال أبياتها الفريدة ، ولم يكتف بالوصف المجرد وإنما أضفى عليه نفحة من شعوره الخاص وانفعالاته الوجدانية ، فعبر عن انقباضه ووحشته ، وأعرب عن أحاسيسه وتأملاته ، ووصف سهاده وعينيه المؤرقتين .

---

(١) القزويني : الايضاح ، ج ١ ص ٤٣ .

(٢) ديوان ابن الساعاتى ، ج ١ ص ٢٠٤ .

خليليّ ما بال النجوم كأنما   أبى الليلُ أن تسري بأفق كواكبُه
تعاظم واطفوغى ، وألقى بعاعه (١)   وأقبل كالبحر الذي أنا راكبُه
أهابُ عواديه وآملُ خوضهُ   وكيف يخوض اليمّ من هو هائبه
إذا حلّ ظهرَ الأرضِ أولاه اشفقتْ   غواربها من أن تقلّ غواربه
فلو أنهُ أمسى خضاباً لمعشرٍ   لسُرّ خضيباً أنْ تشيبَ ذوائبُه
إذا فلتُ قد ولّت وجازت صدورُه   أطلّت علينا كالجبال مناكبُه
أضل بها الأيدي اللوامس قصدها   من التّمية حتى وفّر الدّر حالبُه
فلو طرّقتْ أمُّ الليالي بمثلها   لذي حسَبٍ ما نظّم الجزع ثاقبةُ
كم استأذنتْ عيني على فجرِ خدره   فما رُفعت أستاره وهياديُه
وليس بمرجوّ الصباح وهذه   مشارقه مسوّدةٌ ومغاربُه
أرى كل صِبغ يصحبُ الدهر لونه   سينصلُ إلا حنجه وغياهبه
بغته فهابتْ أن تلمّ طيوفهُ   وتسري وخافت أن تدبّ عقاربُه
ولم أرَ مثلَ الليلِ طوداً للاجيءٍ   مهالكهُ حفّت بهنّ مطالبهُ (٢)

تلك هي صورة وصفية عابرة وقفنا حيالها مع الشاعر نتلمس دقائقها، ومعانيها ، ونكتفي منها بما اخترناه ، ونشير أخيراً إلى براعته الوصفية ، فنذكر مثلا وصفه لعشارى ركبه مع صحبه ، وشهد وهو على متنه فيضان النيل ، وقد هاج البحر الملح ، والماء العذب كالطراز الأحمر في خضرته لايختلط ماء أحدهما بالآخر ، على عظم موجهما وشدة الرياح (٣) .

نسيب وغزل

استهل الشاعر قصائده في كثير من مدحه بالنسيب وأهمله في بعضها الآخر ، وقد علل لنا سبب هذا الإهمال في إحدى قصائده التي مرت معنا من قبل في مدح صلاح الدين :

أغنى مديحك عن ذكر النسيب فما   وقفتُ فيها على ربعٍ ولا طلل

---

(١) ألقى بعاعه : أي ألقى كل ما فيه من ثقل .

(٢) ديوان ابن الساعاتي : ج ٢ ص ٣٢٣ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٦٩ .

وكنا أشرنا أيضاً إلى كثير من المدح التي احتفظ الشاعر منها بمطالع النسيب ، ووقفت فيها عند بيت التخلص الذي وشاه باسم الممدوح أو ببعض كنيته ولقبه المشهور بهما كما يستدعيه الوزن والقافية .

يتصف نسيبه بطول نفسه فيه، وميله إلى الاستطراد في معظم الأحيان، حتى إنه ليبلغ أربعين بيتاً كما في القصيدة التي مدح بها الملك المظفر تقي الدين عمر سنة ٥٨٥ هـ (١) .

يذهب الشاعر في نسيبه مذهب المعاصرين ، فيشيد بأوصاف الحبيب الحسية المتداولة لدى المولدين والمتأخرين من الشعراء . كما يصف لنا أحوال المحب من شدة العشق وجريان المدامع ، وخفقان القلب ، وما إليها من المعاني المكررة، بيد أنه يمتاز عنهم بمحاولة التجديد والابتكار في كثير من المعانى التى طرقها . أحب الناس غزله ، فأنشدوه وغنوه في مجالس أنسهم وشرابهم ، وقد اختار ابن سعيد الاندلسى بعض مطالع غزله واستهلالات نسيبه ،وذكر أنها مما يغنى به ، منها قوله في القاضي الفاضل يستهل به مدحته :

لهفي على غصنِ النقا المتمايل يهتزُّ معتدلاً وليس بعادلِ
لا يستفيقُ مُنازلاً عشّاقه بفتور لحظٍ كالقضاء النازلِ
فشعارُهُ من فارسٍ ونجارُهُ من عامرٍ ، ولحاظُه من بابلِ
يا قلبَ عاشقهِ وسهمَ جفونه من ألزمَ المقتولَ حبَّ القاتلِ ؟
يلقاكَ من لَدن القوام برامحٍ ويصولُ من هدْب الجفونِ بنابلِ
كالبدر يسري في نجوم قلائدٍ وظلام أصداغ وسحبِ غلائل
ما جالَ دمعي بعد طول جموده إلا على ذاك الوشاح الجائل (٢)

يحسن بنا ما دمنا في معرض الحديث عن ظلام الأصداغ وسحب الغلائل، أن ننتقل الى المجلس العزيزي لنشهد الملك يستحسن قصة الجارية التي صورت في خدها بالمسك حية وعقربا ، ويستمع الى وزيره ابن مجاور ينشده ثلاثة أبيات في وصفها (٣) ، ويطرب الملك العزيز لها ويأمر من في مجلسه من الشعراء بالقول فيها ، فأنشده الشاعر ما نظمه بديهاً :

---

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٧ .

(٢) ديوان ابن الساعاتى ، ج ٢ ص ٢١٥ ، وابن سعيد : الفصون اليانعة ، ص ١٢٢ .

(٣) ابن سعيد : الفصون اليانعة ، ص ٢٣ ــ ٢٤ .

يا ضرّة القمرين في شرفيهما ... من أيّ شيء منك لم أتعجّب
أقبلت مثل الشّمس في غسق الدّجى ... وحملت برقاً ضاحكاً عن كوكب
كتبت بخدّيها المواشط فتنةً ... عمّت عموم هواك من لم يكتب
ولقد سمعت وما سمعتُ بكاتب ... شبئاً على صفحات ماء مذهب
وكأنما رقمُ الجمالِ بكفّه ... وجه الضّحا بحريرة من غيهب
جاء الكليم بآية من حيّة ... وأراك جئت بحيّة وبعقرب(١)

نلمح في الأبيات السابقة صورة حية عن الغزل في هذا العصر ، فهذه الجارية المعقربة والمنبعثة أثارت قرائح الشعراء ، وسلبت قلوبهم ، وفتقت أخيلتهم ، فلم يكتف شاعرنا بما قالوه ، وإنما استخدم قصة موسى الكليم الذي « ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين » لكن آية هذه الجارية أعظم من آيته إذ هي ثعبان وعقرب معاً .

جرى الشاعر على سنة شعراء ، فتغزل بالعنصر التركي في مواضع كثيرة من شعره (٢) ، نتوقف منها عند قوله :

يا ولاة القلوب والحسن من حكّـ ... ـمَ غيدَ الآجال في الآجالِ (٣)
كلُّ تركيّة المناسب فيها ... لمحٌ للغزال والرئبالِ
فدعاني من ذكر هند بني نهـ ... ـدٍ ولا كنتَ يا هلال هلال (٤)

وجرى أيضاً على سنة شعراء عصره ، فاعتنق مذهب الخمر ، ووصف مجالسها — كما رأينا — وصفاً رائعاً ، وما أكثرها في شعره : فمنها التى شهدها على ضفاف بردى ، ومنها التى شهدها على ضفاف النيل ، في جزيرته وبرزخه وروضته ، ومنها التى جمعته على مائدة الشراب مع الملوك والأمراء في الشام ومصر السواء .

يلاحظ أن الشاعر تطرق إلى صورة جديدة ومعان مولدة ، مما خلفته الحروب الصليبية كما في هذه الأبيات من قصيدة قصرها على وصف الطبيعة وذكر الخمر :

---

(١) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ٦٦ ، وابن سعيد : الفصون اليانعة ، ص ١٢٩–١٣٠
(٢) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ٤٨ ، ٩٥ ، ٣٤٧ .
(٣) الآجال الأولى بقر الوحش والثانية هي الأعمار .
(٤) ديوان ابن الساعاتي ، ج ١ ص ١٨٣ .

قم نديمي فاسفك دم الزقّ فالأغـ ـصان في مأتمٍ من الأطيار
وبكاء الراووق إذ قهقه الإبـ ـريقُ من حسنِ نغمة الأوتار
ساجدٌ للصليب منه وما يعـ ـرف دينَ الصليبِ والزُّنّار
وكأنّ السُقاةَ طلّت من الدّ نّ دماءَ الهموم والأفكار
فأدِل أبيضَ الأمانيّ من سُو د الليالي إن كنت طالب ثار
فرماحُ الشموع قد شهرت بيـ نَ الندامى أسنّةً من نار
فاغتنمها حرباً تكون مع الليـ ـل ، وينفضُ جمعُها في النهار (١)

جمعت هذه القصيدة بين الطبيعة والخمر من ناحية ، وشخصت كل ذلك في صورة مأخوذة من الحرب من ناحية أخرى ، وطبعته بطابع نصراني محض .

أغراض شتى

درسنا أبرز أغراضه الشعرية ، وبقي علينا أن نأتي على ذكر أغراض شتى ، اقتضها المناسبات العابرة في حياة الشاعر ، فكان يأخذ منها قليلاً أو كثيراً بحسب الموضوع أو المعنى الذي يريده ، وحسبنا منها هنا أن نقف عند الهجاء والرثاء .

أما الرثاء فإن الشاعر مضطر بحكم الوفاء لممدوحيه أن يذكرهم بعد موتهم ، وشتان ما بين مديحهم ورثائهم ، فهو قصير النفس ، وكان يميل إلى المعاني التقليدية فيسطو عليها ، وهذا يجنح بنا للقول إنه كان قصير الباع فيه بالنسبة لهذا العدد الضخم من مدحه ، حتى إن هؤلاء الذين أطنب في مدحهم كالملك عبدالعزيز لا نعثر لهم أبدا على مرثيات مؤلفة من أبيات معدودة (٢) .

نستثني مما تقدم من المراثي تلك التي خص أبناءه الثلاثة ، وقد نظمها في أواخر حياته ، وكانت خيراً من سابقتها ، فهي تمتاز بطول النفس وصدق العاطفة وشدة الحسرة .

وأما الهجاء فقد وردت في ديوانه مقطوعات كثيرة ، يعبث فيها ببعض

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٢) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ٣٧٠ .

من يعرفهم ، نذكر منهم السديد ، وهو ذو أنف كبير (١) ، وابن الزقزوق ، والزرزور (٢) وغيرهم .

وجدير بالذكر أن القاضي السعيد ابن سناء الملك كان له منها النصيب الأوفى، إذ خصه بتسع مقطوعات صغيرة (٣) ، وتظهر الخلاف بين الشاعرين، ونشير إلى أن المنافسة الأدبية كانت على أشدها فيما بينهما .

ذكر ابن الساعاتي في إحدى هذه المقطوعات أن القاضي السعيد عبث به في غيبته ، فبعث إليه يقول : « أما لو حضرت لأدّبت جِنَّك » (٤) ويبدي له أنه يربأ بنفسه أن يسمعه هجاء يشينه . وذكر في مقطوعة ثانية أن أحدهم أهداه بغلاً ، اسمه جمل ، فزل عنه وسقط على الأرض ، فأوحت إليه هذه الحادثة التي سماها بوقعة الجمل موريا بمقطوعة صغيرة طريفة (٥) . ويذكر في مقطوعة تهكمية ثالثة كتابه « مصايد الشوارد » ، وختمها معرضاً به ، « وأعجبه ضفدع صائد (٦) » .

اكتفينا من المقطوعات الساخرة بالإشارة إليها ، ونرى أن نقف عند إحداها وبخاصة منها تلك التي أعجب بها ابن سعيد ، وقد داعب بها القاضي المذكور وكان قد شيد قصراً تأنق كثيراً في بنائه وزخرفته ، فكتب إليه يقول:

ما أنت إلا جنةٌ إن كان في الآفاق جَنّةْ
قد ضُمِّنت أبياتهُ الثّـ ـقلَين من إنس وجِنَّةْ
والوحشَ أجمعَها وقبْ الخيـ ـل تمــزعُ في الأعنّـهْ
صورٌ تخفّ بأسطرٍ أمثالها في الحسنِ فتنهْ
حاكت كتاب كليلةٍ فمتى ترى كأخيه دِمْنَهْ ؟ (٧)

تؤكد الأبيات المذكورة ما ذكرناه من براعة الشاعر الوصفية ، يضاف إليها هذا الأسلوب من التهكم والتعريض .

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٣ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٥٦ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ١١٥ ، ٢٨٠ ، و ج ٢ ص ٣٨ ، ٣٩ ، ١٣ ٤٠٣ ، ٤٠٤ -

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٣ .

(٥) المصدر السابق ، ٢ ص ٤٠٣ — ٤٠٤ .

(٦) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٧) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ٣٩ ، وابن سعيد : الغصون اليانعة ، ص ١٢٧ .

(٢)

مذهبه الفني

يبقى علينا بعد عرض شعره أن نلم شعث القول لنبرز من خلاله مذهبه الفني الذي اعتنقه ، ونبين من خلال ذلك خصائصه العامة .

ولا ريب أنه يمثل أصدق تمثيل المدرسة البديعية ، إذ اتخذ من التصنيع البديعي مذهبه ، فتكلف كثيراً من فنونه ، وأخذ منها أوفر نصيب من معانيه ومبانيه . يضاف إلى هذه الزخارف غرابة صوره وعمق معانيه وقد انتبه إلى هاتين الصفتين ابن سعيد ، فقال : « وتصفحت شعره فوجدته يجمع ألفاظ المشارقة الرقيقة ، ومعاني المغاربة الدقيقة ، فلا يخلو من صقل الكلام وغوص الفكر » (١) .

أما في صقل الكلام فيلاحظ أن الشاعر قد بالغ في الزخرفة اللفظية ، فتصنع كثيراً من الصور البيانية والزخارف البديعية كما مر معنا في شعره ، ويلاحظ أنه تعشق من البديع خاصة فن مراعاة النظير ، وهو نفسه الذي أشار اليه ابن سعيد بعد أن أورد منه شواهد عدة ، وعقب على ذلك بقوله : « وهو أولع الناس بالتلفيق ، وجمع ما يقف عليه متفرقاً » (٢) .

وأما في دقة المعاني التي تحتاج إلى غوص الفكر وكد الذهن فيلاحظ ذلك في شعره واضحاً ، وبخاصة منه ما يوحي بإيهام التناقض في معاني البيت الواحد . وذلك كثير في قصائده . يضاف إلى ما ذكر خصب خيال الشاعر ، فقد أتحفنا بصور متخيلة ، وأخرى مشخصة ، وهي توحي بعبقريته التصويرية ، وكنا قد أبرزنا كثيراً من هذه المعاني المذكورة في دراسة شعره .

ويظهر أن الشاعر آنس في نفسه العبقرية التي ورثها عن خراسانيته ، وأشار إلى مكانته في الشعر العربي ، فبالغ كثيراً في تحديه الشعراء ، ورفع شعره فوق أشعارهم جميعاً ، ونعت مدحه بكؤوس السلافة وعقود الجواهر ،

---

(١) ابن سعيد : الغصون اليانعة ، ص ١٢٠

(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

وكان يعتقد أنه ، على الرغم من كونه غير عربي ، يستطيع أن يتفوق على أقرانه في هذه الحلبة وأنه لا نظير له في ماضي الشعر وحاضره . ففي ختام مدحه إشارات كثيرة إلى هذا المعنى المكرر في شعره ، نذكر من ذلك قوله :

من كلّ آنسة الحديث بديعة ٍ   في الحسن ِ تهزأ بالغزال النافرِ
عربية ٍ مع أنها لم ترب في   نجد ٍ ولا عذبت بنفحة حاجر
فبيوت شعر أو كؤوس سلافة ٍ   وسطور مدح ٍ أو عقودُ جواهر
لم يحل صدر الدّهر قبل بمثلها   كلاّ، ولا جيدُ الزّمان ِ الحاضر (١)

مهما يكن من غرور الشاعر ، وهي صفة نجدها كثيراً لدى أدباء هذين القرنين ، فمما هو جدير بالذكر أنه كان علماً من أعلام شعراء هذا العصر ، وأن شعره وحياته مظهران من مظاهر الوحدة الأدبية في عصر الايوبيين بين الشام ومصر .

(١) ديوان ابن الساعاتي ، ج ١ ص ١٧٢ .

الشهاب الشاغوري
شاعر دمشق
(٥٣٣ ـ ٦١٥ هـ = ١١٣٩ ـ ١٣١٨ م)

القسم الأول
حياته وآثاره

(١)
مراحل حياته

في(١) بانياس الساحلية (٢) ، ولد « شاعر دمشق » (٣) فتيان بن علي بن فتيان بن ثمال الأسدي الخزيمي (٤) ، المعروف بـ « الشاغوري المعلم » ، سنة ٥٣٣(٥) .

يظهر أنه اتخذ من حي الشاغور (٦) في دمشق سكناً له ، فأنشأ

---

(١) سبق أن نشرنا هذا البحث في مجلة المجمع العلمي العربي في الجزء الثاني من المجلد الحادي والاربعين سنة ١٩٦٦ .

(٢) وهي غير بانياس الداخلية ، وقد سماها ياقوت (بلنياس) بضمتين وسكون النون ، وذكر أنها كورة ومدينة صغيرة وحصن بسواحل حمص على البحر (معجم البلدان ، ح ١ ص ٤٨٩) ، وضبطها صاحب المحيط (بلنياس) بكسرتين وسكون النون وذكر أنها مدينة حسنة بسواحل حمص (القاموس المحيط ، ج ٢ ص ٢٠٣) .

(٣) الذهبي : سير النبلاء ، ج ١٣ ل ١٥٣ .

(٤) نسبة الى أسد بن خزيمة ، وهو أبو قبيلة من مضر ، وابن ربيعة بن نزار .

(٥) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ١ ص ٤٠٨ ، وديوان ابن عنين ، ص ١١٩ ، وأبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ٥٤ ، وابن تغري : النجوم الزاهرة ، ج ٣ ص ١٩٠ ، وياقوت : معجم البلدان في لفظة شاغور ج ٣ ص ٣١٠ ولفظة شوانى ج ٣ ص ٣٧٠ ، وبروكلمان Brock , S1 : 456 والزركلي : الاعلام ، ج ٥ ص ٣٣٦ .

(٦) ذكر ياقوت أن الشاغور محلة بالباب الصغير مشهورة ، وهي في ظاهر المدينة (معجم البلدان ، ج ٣ ص ٣١٠) .

فيه كتاباً لتعليم الصبيان في مطلع حياته بعد ارتحاله عن مدينته .

لا نعرف على الضبط سبب مغادرة بلده الساحلي الجميل ، واغلب الظن انه بسبب الأخطار المحدقة به ، ولا سيما بعد احتلال الفرنجة الطراز الأخضر الشامي ، وهو العامل نفسه الذي اضطر ابن القيسراني وابن منير الطرابلسي على الهجرة من بلديهما قبله .

لا نعرف عن طفولته شيئاً يذكر ، شأننا في ذلك عند معظم من نترجم لهم ، وكل ما يمكن ذكره انه اشتهر امره في دمشق ، وكانت له حلقة خاصة في الجامع الأموي ، يقرىء النحو ، ويدرس الأدب ، وقد لقيه ياقوت الحموي في أخريات أيامه بعد أن ناهز التسعين ، فسمع منه بعض شعره ، وأعجب به كثيرا (١) .

خدم الشاعر الملوك الأيوبيين ، ومدحهم بغر قصائده ، وآثر أن يختص ببعض أمرائهم الذين كانوا يجزلون له العطاء ، فتعلق بخدمة الأمير نور الدين مودود بن المبارك شحنة دمشق ، وهو أخو عز الدين فروخ شاه ، وابن الخي صلاح الدين الأمه ، فمدحه بقصائد كثيرة ، وأطنب في ذكره ، فكتب إليه صاحبه ابن عنين مداعباً :

يامن تلقّب ظلماً بالشّهاب وإن ... اضحى بظلمته قد اظلم الشهبا
لاتخدعنّك من مودود دولته ... وإن تعلقت من اسبابها سببا
(فليس ينبحُ فيها غير واحدةٍ ... حتى يلفّ على خيشومه الذّنبا) (٢)

لم يرتحل الشاعر عن دمشق إلا للاقامة في بعض ضواحيها القريبة فسكن الزبداني ، واشتغل فيها معلماً (٣) ، وقد ورد في ديوان صاحبه ابن عنين المار ذكره ايضاً أنه اجتاز بها ذات يوم ، وقصد مكتبه ليزوره فلم يجده ، فأخذ لوحاً من احد الطلبة وكتب له فيه :

اتيتُ فما حظيت لسوء بختي ... بخدمة سيدي ورجعتُ خائبْ
إمامٌ ما يممناه إلا ... رجعنا بالرّغائب والغرائب (٤)

أعجب الشاعر بطبيعة الزبداني الجميلة ، فوصف ثلوجها وشدة قرها ،

(١) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣١٠ .

(٢) ديوان ابن عنين ، ص ٢١٣ ، والبيت الثالث الذي ضمنه الشاعر هو من أبيات الحماسة من قصيدة لمرة التميمي .

(٣) ديوان ابن عنين ، ص ١١٩ .

(٤) المصدر السابق ص ١١٩ .

ويلاحظ في حياته أنه كان كثير الخمول ، يفضل الاستقرار على الارتحال وراضياً من الحياة بما قسم له ، مؤثراً السلامة على السعي وراء المجد والشهرة ، ثم يود بعد ذلك لو تبتسم له الأقدار عن حظ سعيد ، وهو قابع في كتابه يسعى ما بين الشاغور والجامع الأموي والزبداني ، ويتساءل قائلاً :

علام تحركي والحظ ساكن ؟ وما نهنهت عن طلب ولكن
أرى نذلاً تقدمه المساوي على حر تؤخره المحاسن (١)

هكذا قضى عمره يرقب الحياة ، فلا يرى فيها غير التناقض ، فآثر العزلة في كتابه ، يسعى إليه الطلبة والأدباء ليلتقوا به حتى شاخ وهرم ، فتوفي سحر الثاني والعشرين من المحرم سنة ٦٥١ هـ (٢) ، ودفن بمقابر باب الصغير .

(٢)
آثاره الأدبية

للشاعر ديوان شعر مشهور (٣) ، وهو كبير فيه مقاطيع حسان (٤) وأغلب الظن أنه لم يقم بجمع ديوانه في حياته ، وإنما قام بجمعه واختياره ابنه بعد ثمانية أعوام من وفاته ، وفي الهند نسخة وحيدة مخطوطة منه (٥) كتبت سنة ٦٢٣ هـ . وله أيضاً ديوان آخر صغير (٦) ، اقتصر فيه على ما نظمه وجمعه من الفن الشعري المستحدث المسمى بالرباعي ، والمعروف باسم « الدوبيت » وهو مفقود ، ولا نعرف منه غير مقطوعة واحدة سنذكرها في معرض حديثنا عن الدوبيت كأحد الفنون الشعرية المستحدثة في هذا العصر .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ١ ص ٤٠٨ .

(٢) ترجم ابن تغري بردي للشاعر في وفيات سنة ٦٢٧ هـ ، وذلك اعتماداً على رواية الاسعردي ، بيد انه رجح قول ابن خلكان (النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٢٧٤ ، ٢٨٥) . كما أورد الذهبي تاريخ الوفاة نفسه في مصورة سير النبلاء (ج ١٣ ل ١٥٣) .

(٣) ابن تغردي بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٢٧٤ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٤٠٨ .

(٥) في المجمع العلمي العربي صورة مصورة عن المخطوط المذكور برقم ١٤١ .

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٤٠٨ .

القسم الثاني

شعره ومذهبه الفني

(١)

أغراض شعره

في شعره وصف رائع للطبيعة الدمشقية ، تنجلي فيه بأزهى حلاها ، وهو غالباً ما يتبعها بنسيب تقليدي ، ثم يخلص من كل ذلك لمدحه المختلفة.

طبيعة دمشقية

وصف الشاعر الطبيعة الدمشقية وصفاً دقيقاً ، تطرق فيه إلى كثير من متنزهاتها وغير ذلك ؛ فهو يضفي على وصفه طابعه الشامي ، ويقتصر منه على بيئة معينة ومكان معروف ، فلم يكن كسائر الشعراء يتحدث عنها حديثاً عابراً أو عاماً ينطبق على كل بيئة ويصلح لكل زمان .

أُعجب بالزبداني فأقام فيها ، ونقل إليها كتابه ، فراقه فيها ثلجها المندوف في كانون شتائها القارس ، فأنشد يقول :

قد أجمدَ الخمر كانونٌ بكلِّ قدحْ	وأخمد الجمر في الكانون حين قدحْ
ياجنّة الزّبداني أنت مُسفرةٌ	عن وجه حسن إذا وجهُ الزمان كَلَحْ
فالثلجُ قطنٌ عليك السُحب تحلجُه	والجوُّ ندّافه ، والقوس قُزحْ
متى نُجلْ طرفَ الطّرفِ من مرحٍ	قرّيتِهِ لمحاً تأتي بحسنٍ مُلحْ
تلقى النواظر من روض نواضرَ في	قلوبنا نرجاً من همّها وفرحْ (١)

لا تخلو هذه الصورة من تصنع بديعي هام ، بيد أنها على الرغم من كل ذلك صورة حقيقية لمصيف قائم في مكان مرتفع شديد القر ، تعبث به الثلوج الكثيرة في أيام الشتاء .

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشهاب الشاغوري ، ح ١ ل ٤٦ ، والديوان ص ٩٤ .

وفي قلب دمشق ، في باب بريدها ، جنة عارشة ، أعجب الشاعر بها فتحدث عنها ، وأشار إلى ما حولها من متنزهات ، كالنيرب وجسر ابن شواش ، والشرف الأعلى ، والقصر المنيف ، والمرج الأخضر ، ومما قاله :

يا حبذا جنةٌ باب البريد (١) بها ... والحسنُ قد حُببتْ منه حواشيه
فالمرجُ فالنهرُ فالقصرُ المنيف على الـ ... قصور بالشرف الأعلى فسانيه
فجسرُ جسر ابن شواش (٢) فنيربها ... تحلو معانيه لا تخلو مغانيه
كأنّ في رأس عليين ربوتها ... تجري بها كوثرٌ سبحانَ مُجريه
تلكَ المرابعُ لا حزوى وكاظمة ... ولا العقيقُ تُواربه بواديه (٣)

تلك هي الطبيعة التي يرى الشاعر أن ينصرف إليها كل شاعر آخر فكيف عن ذكر البوادي والعقيق ورضوى وكاظمة . صورة تشعر بالجدة التي أخذ بها الشاعر نفسه في وصفه ، ولو شفعها بنبضات قلبه كما في غيرها لكانت عجباً ، ولكنها جاءت خفاجية الديباجة ، عبثت بها الصنعة الجناسية جرياً على أسلوب العصر .

يحلو لنا بعد هذا التجوال في ضواحي دمشق ومتنزهاتها النائية أن ندخلها مع الشاعر لنشهد طبيعتها عن كثب ، وقد تفتحت أكمامها ، ورقت أنسامها ، واختال ربيعها الضاحك ، فبدت رائعة الحسن تسر الناظرين :

نوحُ الحمام الورقِ في أوراقها ... دلّ أخا الشوق على أشواقها
فأظهرَ الدّمعَ وأخفى زفرةً ... خافَ على البانات من إحراقها
لو بكتِ الورقُ ببعض دمعه (٤) ... لامّحت الأطواقُ من أعناقها
فاعجبْ لها شاكيةً باكيةً ... لم تسلكِ الدموعَ في آماقها
ما أفرقتْ مهجتَه من الجوى ... لكنّه أشفى على فراقها
دع العُريب والنّقا وزينبا ... تجذبُ البين بُرى نياقها
وعُجْ على دمشق تلفَ بلدةً ... كأنّما الجنّاتُ من رُستاقها

---

(١) ذكر ياقوت أنه اسم لأحد أبواب جامع دمشق وهو من أنزه المواضع وقد أكثرت الشعراء من ذكره ووصفه والتشوق اليه (معجم البلدان ج ١ ص ٣٠٦) .

(٢) ابن شواش : يقول ياقوت « شواش اسم رجل نسب إليه موضع في متنزهات دمشق يقال له جسر ابن شواش » (معجم البلدان ج ٣ ص ٣٧٠) .

(٣) مصورة مخطوطة ديوان الشهاب الشاغوري ، ج ١ ل ١٢٤ ، والديوان ص ٥٩٠

(٤) في الديوان : « أدمعي » .

سقى دمشق الله غيثاً مُحسبا ... مِنْ مُستهِلٍّ ديمةٍ دفّاقها

مدينة ليس يُضاهي حسنها ... في سائر البلدان مِنْ آفاقها

تودّ زوراءُ العراق أنّها ... منها ولا تُعزى إلى عراقها

أهدتْ لها يدُ الرّبيع حُلّةً ... بديعة التفويف من خلاقها

بنفسجٌ مثلُ خدودٍ أُدميتْ ... بالقرصِ والتجميشِ مِنْ عشّاقها

ونرجسٌ أحداقه رانيةٌ ... عن مُقل الغيدِ وعن أحداقها

تنزّلَ المنثورُ من رياضها ... تنزّلَ الأعلام من شقاقها

فأرضُها مثلُ السماء بهجةً ... وزهرُها كالزّهر في إشراقها

مياهُها تجري خلالَ روضها ... جريَ النعابين لدى استباقها

مُسفرةٌ أنهارُها ضاحكةٌ ... تطلّقُ الوجوهُ لانطلاقها

نسيمُ ريّا روضها متى سرى ... فكّ أخا الهموم من وثاقها

قد ربعَ الرّبيعُ في ربوعها ... وسيمتْ الُمنى إلى أسواقها

لاتسأمُ العيونُ والأنوف من ... رؤيتها يوماً ولا استنشاقها (١)

استهل الشاعر بوصف طبيعة دمشق مطلع المدحة التي خص ممدوحه مودوداً ، فتحدث باديء الأمر عن الحمائم الورق ، وقارن بين حاله وحالها ، ووصف بعد ذلك ما يلقاه من الوجد والجوى ، وذكر أنه أشفى على الهلاك . ويخاطب صديقه بعد ذلك ، فيدعوه بصراحة إلى ترك التغني بزينب والعريب والنقا ، ويطلب منه أن يعرج على دمشق ذات الجنان والينابيع ، وينتهي من كل ذلك ليطنب في وصف ربيعها الذي ابتدعته قدرة خلاقها ، ويصور بدقة البنفسج والنرجس ، والشقائق والمنثور ، ثم ينتقل لذكر الأنسام ولا ينسى في ختام هذا الوصف إشراك حاسة أخرى غير البصر ليصل ما بين الطبيعة والنفس بلذة الاستمتاع ونشوة الجمال .

نسيب تقليدي

كان الشاعر في الغالب يتبع وصف الطبيعة بنسيب تقليدي كما في

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٢٤٨ ــ ٢٥٠ . وفي الديوان سبعة أبيات مختارة فقط من هذه القصيدة وهيا لاول والثاني والثالث والرابع والثامن والتاسع والعاشر ص ٢٨٨ ــ ٢٨٩ .

القصيدة السابقة ، إذ تحدث بعد وصف الطبيعة عن شادن تحسده البدور ، ثم تطرق بعد ذلك لوصف الممدوح .

لم يكن الشاعر مبدعاً في نسيبه وغزله كما في وصف الطبيعة وشتان ما بينهما ، وإنما هما ضرورة اقتضتها طبيعة التقليد في الفن الشعري .

كان في نسيبه يجري في حلبة شعراء العصر ، وطبيعي فيمن طلب من صديقه أن يعرض عن ذكر زينب والنقا والعريب ويحذو حذوهم فيتغزل بظبي شادن من الترك :

وميضَ برقٍ أرى في فيكَ أم شنبا	وهل رشفت رضاباً منه أم ضرباً ؟
أفدي الذي ما أبى باللحظِ سفك دمي	لكنْ متى ما طلبت منه العطف أبى
ظبيٌ من التركِ أصمتنى لواحظهُ	وأسهمُ التركِ إنْ أصمتْ فلا عجبا
يبدو بضدَّين في خدَّيه قد جمعا	ماء الشبابِ ونار الحسن فاصطحبا
فذلك الماءُ أبكى ناظريَّ دماً	وذلك الجمرُ أذكى في الحشا لهبا
شكا فؤادي منْ عبءِ الهوى تعباً	كما شكا خصره منْ ردفهِ تعبا
يهزُ أعطافَهُ دلُ الصَّبا فترى	غصناً من البانِ يثنيهِ النسيم صبا
يا مطلعَ البدر فوق الغصن معتدلاً	يلوحُ ما بين شربوشٍ وطوقٍ قبا (١)
إعدلْ فإن رسومَ الجَوْرِ قد دَرَسَتْ	مذ صارَ فينا مكينُ الدّين محتسبا(٢)

ليس في هذا النسيب غير ما ألفه الناس في شعر هذا العصر : صور تقليدية معروفة عن أوصاف مبالغ فيها ، وذكر أحوال المحب وعذابه وما يلقاه من لاعج الشوق وحرقة الجوى . يضاف إلى ما أسلفنا ذكره استخدام بعض الألفاظ المعربة الشائعة على ألسنة العامة ، كما رأينا ذلك أكثر من مرة ، فمن قبل استخدم الرستاق ، واستخدم في هذه القصيدة الشربوش ، وقد وردت مراراً في ديوان شعره وغير ذلك كثير .

* * *

أما خمرياته فتكون تارة ضمن نسيبه ، وتكون أخرى مستقلة كما في هذه القصيدة التي يقول فيها :

---

(١) الشربوش : قلنسوة طويلة ، وهي معربة عن السربوش ، وتطلق على غطاء الرأس .
والقبا : وهي مقصور القباء ، وهي ثوب يلبس فوق الثياب .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٢٥٤ ، وهذه القصيدة غير موجودة في الديوان .

قمْ فاجلُ بنتَ الكرمةِ الخضراءِ　في الكأسِ كالياقوتةِ الحمراءِ
راحٌ متى ما أشرقت كاساتها　فاضتْ أشعّتُها على الجلساءِ
في شربها منْ كلّ قلبٍ شهوةٌ　فكأنها خُلِقَتْ منَ الأهواءِ
وإذا انجلت في الليلةِ الليلاء　هزمتْ ظلامَ الليلِ بالآلاء
يا لائمي في شربها أغريتَني　باللّوم فيها غاية الإغراءِ
يا حبّذا هي في الخريفِ وغيرِهِ　في سائرِ الأوقاتِ والآناءِ
ما العيشُ الاّ في المدامِ وشربِها　لكنْ مع الظرفاء والعقلاء (١)

يظهر أن الشاعر كان يعرض في بيته الأخير بالشعراء الإباحيين ، وقد سلك في الخمرية سبيل عرقلة الكلبي إمام الجماعة في مذهبه الخمري ، وكنا قد وضحنا علاقة شعراء هذه المدرسة الشامية بشعراء المدرسة الخيامية .

مدح مختلفة

ينتهي الشاعر بعد مقدماته المستفيضة في وصف طبيعة دمشق ، والتخلص منه إلى النسيب التقليدي المعروف ليثني على ممدوحيه ، ومن الخير أن نقتطف الأبيات التي مدح بها صاحبه مودوداً من القصيدة التي استهللنا بها الحديث عن وصفه طبيعة دمشق ، وجاء فيها قوله :

أشكو إلى الأشواقِ ما شكته جلّـ　ـقٌ إلى المودودِ من أشواقها
حقٌ لبدرِ الدّين أن نحسدهُ　على العلا البدورُ في انساقها
كمالُهُ أحسنُ من كمالها　فصينَ ، طولَ الدّهر ، عن مُحاقها
قد خيّم الربيعُ في ربوعها　وسيقت المنى إلى أسواقها
إختارَهُ اللهُ لخيرِ أرْضِهِ　إذ ليسَ مثلُ الشامِ في آفاقها
فقابلَ الشامَ برأي رتَقَ الـ　أمور بعدَ شدّة انفتاقها
ما غلّ في الحربِ ، ولكن غَلّ أيـ　ـدي عُصب الكفرِ إلى أعناقها
لا فتئتْ أيامُهُ سعيدةً　لا ينكثُ الدّهرُ قوى ميثاقها (٢)

نشير إلى آخرين ممن مدحهم كالناصر صلاح الدين ، وقد مدحه وهو في دمشق مرارا ، ولا بأس أن نقف عند القصيدة التي أنشده إياها في قلعة دمشق بعد فتح بيت المقدس ، وهي تبلغ نحواً من مائة بيت ومنها قوله :

---

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشهاب الشاغوري ، ح ١ ل ٩ ، والديوان ص ٥ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ل ١٢٥ ، والديوان ص ١٨٨ ، ٢٨٩ .

يا ناصرَ الإسـلام فـزت بموردٍ حَسَنِ النَّثا(١) في العالمين ومصدر
فلقد رأدتَ الشرك يوم لقيتهـم وغَدوتَ للإسلام عـينَ المُنْشِر
وأرَيْتَهمْ لمَّا التقى الجمعان بالـ بيتِ المقدَّس هولَ يومِ المحشرِ
ورددتَ دينَ الله بعـدَ قُطوبهِ بالمسجدِ الأقصى بوجهٍ مسفرِ (٢)

نكتفي بهذا القدر مما أوردنا من اغراض شعـره وفنونه ، وننتهـي لنؤكد ما ذكرناه ، ونقول إن وصف الطبيعة الدمشقية كان أبرز اغراضـه ، وقد أبدع الشاعر فيه كل الإبداع . اما سائر شعره فكان شأنه فيها شأن اي شاعر آخر من الشعراء المعاصرين .

(٣)

مذهبـه الفني

لاحظنا أن الشاعر كان يؤمن بالثورة على المعانـي التقليدية في بعـض الأحيان ، وعلى الأساليب الشعرية الموروثة ، وبخاصـة فيما يتعلق بهيكـل القصيدة العربية . فنظم في فن الرباعي « الدوبيت » ديوانـاً كاملاً لم يصلنا منـه مع الأسف غير رباعية واحدة اقتطفها ابن خلكان من الديوان المفقود .

ولم يكن ليقتصر في تجديده على الهيكل المعروف ، وإنما كـان يحاول أن يخرج كما ذكرنا عن طوق التقليـد الأعمى ، فقـد كان يكره ذكر زينـب والعُريب والنقا ، وتأخذ طبيعة دمشق بلبـه ، فيعرض عن ذكر رضـوى وكاظمة والعقيق والبوادي جرياً على سنة أبي نواس من قبله .

نترك هذا وذلك لنقرر أن الشاعر نهج في مذهبـه الفني نهج شعـراء عصره ، فأخذ من التطبيق والتجنيس نصيباً ، بيد أنه لم يكثر منهما فـي شعره ، واخذ من الانسجام والسهولة نصيباً آخر ، فبدا تصنعه جميلاً في رونق الطبع ، ورشيقاً في قالب مـن الوضوح ، ودقيقـاً في إطـار مـن الطبيعة والوصف .

هكذا جمع الشاعر في مذهبه الفني بين اتجاهين معروفين في عصـره : اتجاه من سبقه من الشعراء أمثال القيسراني والطرابلسي وغيرهما ، واتجاه من جاء بعده كالشرف الأنصاري وابن عنين وغيرهما .

---

(١) النثا : الخبر والحديث الشائع .

(٢) مصورة مخطوط ديوان الشهاب الشاغوري ، ج ١ ل ٦٧ ، والديوان ص ١٤٢ ، ١٤٣

ابن عنين
شاعر الشام

(٥٤٩ ــ ٦٣٠ هـ = ١١٥٤ ــ ١٢٣٢ م)

القسم الأول

(١)

مراحل حياته

في دمشق الفيحاء ، ولد الرئيس شاعر الشام ، أبو المحاسن ، شرف الدين محمد بن نصر الله بن الحسين بن عُنين ، يوم الاثنين تاسع شعبان سنة ٥٤٩هـ (١) .

والمعروف عنه أن جده الأول أنصاري ، كان مقيماً في الكوفة ، ويؤكد هذا القول ما ذكره ابن الدبيثي أنه سمع الشاعر يقول : « إن أصلنا من الكوفة من موضع يعرف بمسجد بني النجار ، ونحن من الأنصار (٢) » .

(١) ياقوت : إرشاد الاريب ، ج ٧ ص ١٢١ ، وابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٢ ص ٢٥ ، وابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ١٣٨ ، وابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص ٥١ ، وابن علي الدلجي : الفلاكة والمفلوكون ، ص ٩٤،وابن الوردي : تتمة المختصر ، ج٢ ص ١٦٤ ، ومقدمة الديوان ص ١ ــ ٢٤ ، وبروكلمان : Brock : 1,387 . Sl,551 والزركلي : الاعلام ، ج ٧ ص ٢٥ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ٣٤٨ .

أما قول بعض المؤرخين إن أصله من زرع في حوران (١) فلا وجه له البتة ، إلا اذا أردنا من ذلك أن أسرته أقامت بعد هجرتها في زرع فترة من الزمن قبل رحيلها إلى دمشق نهائياً ، فلقب بالزرعي ويظهر أن هذه النسبة أوهمت بعض من ترجم له ، فذكر أن أصله من حوران وأن أسرته عرفت فيها ببني غالب .

لا نعرف كثيراَعن طفولة هذا الشاعر ، وكل ما يمكن ذكره أنه نشأ في دمشق من أسرة فقيرة ، وكان منزله قبلي الجامع الأموي .

كما أننا نجهل أحوال أسرته الخاصة،ولكننا نستطيع من خلال مقطوعة هجا بها أباه أن نوضح سوء حاله :

وجنَّبني أن أفعلَ الخيرَ والدٌ ضئيلٌ إذا ماعُدّ أهلُ التّناسبِ
بعيدٌ عنالحسنىقريبٌ منَ الخنا وضيعُ مساعيالخيرِ جَمُّ المعايب
إذا رمتُ أن أسمو صعوداًإلىالعلا غدا عرقه نحو الدنيّة جاذبي(٢)

عكف الشاعر منذ صغره على التزود من مناهل العلم وانصرف إلى شيوخه فسمع من الحافظ أبي القاسم بن عساكر ، وكان يدرس بالزاوية الغربية من الجامع الأموي ، وتتلمذ أيضاً على أبي الثناء محمود بن نعمة بن أرسلان الشيزري ، فقرأ عليه النحو والأدب ، وأخذ أيضاً عن قاضيدمشق كمال الدين الشهرزوري ، ثم ارتحل إلى بغداد، وسمع فيها من النيسابوري والفخر الرازي فيما بعد (٣) .

هكذا استكمل الشاعر ثقافته الخاصة ، وتزود من اللغة والأدب بأوفر نصيب ، حتى قيل عنه إنه كان يستحضر جمهرة ابن دريد، وفي شعره دليل على سعة ثقافته ، فنجد فيه كثيراً من مصطلحات العلوم من نحو وفقه وحديث وطب وهندسة وحساب وفلك .

لا نعرف كثيراً عن حياته الخاصة وأحوال أسرته ، وكل ما نستطيع قوله أنه كان له أخ يحبه ، وكان يكاتبه من الهند ، وابن أخت صغير كان

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٢٩٣ .

(٢) ديوان ابن عنين ، ص ٢٣٩ . وياقوت الحموي : إرشاد الاريب ، ج ٧ ص ١٢٣ .

(٣) الدلجي : الفلاكة والمفلوكون ، ص ٩٤ .

يداعبه أحياناً ببعض الأبيات ، فيتعذر عليه النطق بها للثغة في لسانه .

أما أسرته وأولاده فلا دليل في شعره عليها البتة ، وإنما استطعنا أن نقتبس بعض أخبارها من شاعر آخر لقيه في مصر ، وهو ابن الساعاتي المار ذكره ، فقد جاء في ديوانه قوله : « وكتب إلى الشرف بن عنين جواباً عن أبيات على وزنها ورويها تتضمن الهناء بالمولود المذكور آنفاً بديهاً :

قفى فاسمي محضَ النُهى يابنةَ الفهمِ فقد خَطبتْ أمُّ البلاغةِ والحِكَمِ (١)

نستطيع بعد هذه المقدمة عن طفولته وصباه وأسرته أن ندرس مراحل حياته ضمن ثلاث : نتحدث في أولاها عن علاقته بالناصر صلاح الدين ، وفي الثانية عن نفيه وارتحاله في الأمصار المختلفة . وفي الثالثة عن عودته وتوليه الوزارة .

المرحلة الأولى

في عهد صلاح الدين

قلنا إن الشاعر قد استكمل ثقافته الأولى في وقت مبكر ، ونظم الشعر وهو ابن ست عشرة سنة ، ثم أصبح بعد ذلك أديباً لامعاً بين أدبائها ، لكن طموحه كان بعيداً ، فهو غير راض عن والده الضئيل ، إذ لم يفسح أمامه سبل المعالي والمجد ، فاضطر إلى تنشئة نفسه ، واعتمد على عصاميته ، فكون ثقافته الخاصة ، وأصبح لا يقل في علمه وأدبه عن غيره من الذين يتربعون في المجالس ويتصدرونها . شرع يمدح الأمراء والسلاطين ، بيد أنه لم ينل مبتغاه من حياة يحلم بها ، فأخفق في مسعاه ، وأزمع أمره على شق طريق جديدة في معاشرة الناس لكسب رزقه ، فقرر بادىء الأمر هجاء الطبقة الحاكمة واتباعها من القضاة والحكام والوزراء والأمراء . نظم قصيدة هجائية مطولة تتألف من خمسمائة بيت ، سماها « مقراض الأعراض » ، وقد أعلن فيها حربه على مجتمعه وقل من سلم من الدماشقة وغيرهم من شره ، وقد استهل هذه الهجائية بقوله :

أضالعٌ تنطوي على كُربْ ومُقلةٌ مُستهلةُ الغُربِ
شوقاً إلى ساكني دمشقَ فلا عدتْ رُباها مواطرُ السُحبِ (١)

---

(١) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ١١٥ .

(٢) ديوان ابن عنين ، ص ١٧٩ .

تفنن الشاعر في هذه الهجائية ، ولم يتورع فيها عن الثلب والسب ، حتى إنه أورد من النعوت والألفاظ التي تستخدمها العامة ما لا يحسن إيراده لم يكتف بما قرضه لسانه من أعراض الناس وإنما تطاول في قصائد أخرى إلى هجاء السلطان صلاح الدين ووزيره القاضي الفاضل ، ونائبه العماد الكاتب ، وخطيبه الدولعي ، وواعظه ابن باقا ، ومحتسبه عبد اللطيف ، وصاحب أمره ، وعارض جيشه وغيرهم ، وجاء فيها قوله

قد أصبحَ الرّزقُ مالهُ سببُ في الناسِ إلاّ البغاءُ والكذبُ
سلطاننا أعرجٌ وكاتبُهُ ذو عمشٍ والوزيرُ مُنحدبُ
وصاحبُ الأمرِ خلقُهُ شرسٌ وعارضُ الجيشِ داؤهُ عجبُ
عيوبُ قومٍ لو أنها جُمعتْ في فلكٍ ما سرتْ به شهبُ (١)

أحدثت هذه الأمور استياء شديداً لدى السلطان وحاشيته ، فأثارت ضجة كبرى بدمشق ، فلم يمكن التغاضي عنها حفظاً لهيبة الدولة الأيوبية في الشام ومصر واليمن وغيرها ، فأصدر أمره بنفيه إلى الهند مدى الحياة.

خرج الشاعر من دمشق مطروداً ليقيم في منفاه البعيد . فأسي على حاله ومستقبله ، وتساءل وهو مرتحل :

فعلامَ أبعدتمُ أخا ثقةٍ ؟ لم يقترفْ إثماً ولا سرَقا
انفوا المؤذّنَ من بلادكمُ إن كان يُنفى كلُّ من صدقا (٢)

اما الذي أقنع السلطان بنفيه فهو الموفق بن مطران احد اعوانه المقربين، وكان معروفاً بدماثة الخلق ، وهو أحد من هجا الشاعر وسخر منه .

نشعر من قراءة هذين البيتين أن الشاعر يعتقد أنه مظلوم وأنه ما تحدث في شعره بغير قول الحق ، إذا ساءته بعض الأمور ، فانتقد تصرف أولي الامر ، وجأر بالشكوى المريرة لما رأى انقطاع أسباب رزقه . وكان نصيبه النفي والإبعاد لانه هجا السلطان ، وقد حاول أن يطلعه على أحوال بطانته وأفعالها .

---

(١) ديوان ابن عنين ، ص ٢١٠ - ٢١١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٩٤ .

المرحلة الثانيـة
مع الشاعر في منفـاه

ارتحل الشاعر إلى منفاه البعيد ، وأخـذ يطوف في الآفـاق يشقـق قلب الشرق كما يقول ، فمـدح الرؤساء والأمـراء الذيـن كان يلقاهـم ، ولسان حالـه :

عريبٌ إذا ما حلَّ مصراً أبـى له وشيكُ النَّوى إلاارتحالاً إلى مصرِ
فحتَامَ لا أنفكُ في ظهر سَبْسَبٍ اهجِّـرُ أو في بطن داويةٍ قَفرِ
أشقِّقُ قلب الشرقِ حتى كأنني أفتِّشُ في سودائِه عن سنا الفجرِ (١)

دخل الجزيرة والعراق ، ثم انتقل منها إلى خراسان وأذربيجان وغزنة واحب لقاء الفخر الرازي ، فسير إليه قبل وصوله قصيدة جاء فيها :

ريحَ الشَّمال عساك أن تتحمَّلـي خِدَمي إلى صدر الإمام الأفضلِ
وقفي بواديـهِ المقـدس وانظري نورَ الهـدى متألِّقـاً لا يأتلـيْ
منْ دوحـةٍ فخريـةٍ عمـريَّـةٍ طابتْ مغارس مجـدِها المتأثلِ
مكيَّـةَ الأنسابِ زاكٍ أصلهـا وفروعها فوق السِّماكِ الأعـزلِ
لو أنَّ رَسْطاليس يسمعُ لفظـةً من لفظِهِ لعرتـه هِزَّةُ أفكلِ (٢)
ولحارِ بطليموسُ لو لاقـاهُ من برهانِهِ في كـلِّ شكـلٍ مشكل
فلو آنهمْ جُمعـوا لديـه تيقنوا أنَّ الفضيلـة لم تكـن للأوَّل (٣)

كان الشاعر في نيسابور حينما وجه إليه هذه المدحة ، حتى إذا ما بلغ اقليم خوارزم هرع الى لقائه في هـراة ، وهو يدرس في مدرسـتـه هنـاك . أحب الشاعر حضور درسه ليأخذ عنه ، واليـوم شات ، والبرد شديـد ، والثلج يتساقط بكثرة فرأى الجلة من العلماء يحبطون به ، وهو غارق فـي درسه ، فسقطت حمامة بقربه ، خوفاً من جـارح كـان يتعقبهـا في الجـو ويطاردها ، فلما أمنت عاد الجارح من حيث أتى . أما الحمامة فقد أقعدها الخوف والقر عن الطيران ثانية ، فلما انتهى الـدرس نهض الرازى وامسك

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٩ .

(٢) الأفكل : الرعدة ، وأخذه أفكلٌ بالتنوين إذا ارتعد من خوف أو برد ، ولا يُبنى منه فعـل .

(٣) ديوان ابن عنين ، ص ٥٣ ، ٥٤ ، ياقوت : إرشاد الأريب ، ج ٧ ص ١٢٣ .

بها ، وربت عليها بعطف وحنان ، فتأثر الشاعر لهذا المنظر الإنساني وأنشده بديهاً قصيدة ، منها قوله :

مَنْ نبّأ الورقاء أن محلكم ... حرمٌ وأنك ملجأٌ للخائفِ
وفدت عليك وقد تدانى حتفها ... فحبوتها ببقائها المستأنفِ
جاءت سليمان الزمان بشجوها ... والموتُ يلمعُ من جناحي خاطفِ
قرمٌ لواهُ القوتُ حتى ظلّهُ ... بإزائه يجري بقلبٍ واجفِ (١)

تابع الشاعر رحلته من خورازم ، وبلغ بلاد ما وراء النهر ، وانتقل منها إلى الهند منفاه الأخير مدى الحياة ، وفيها ألقى عصاه بعد مطاف طويل شقق من اجله قلب الشرق ، يفتش في سويدائه عن سنا الفجر . كان دائم الحنين إلى شامه ، فكل نسمة تمر به يحسبها آتية من تل راهط المطل على غوطتها الخضراء ، فينادي متلهفاً :

ألا يانسيمَ الرّيح من تلّ راهطٍ(٢) ... وروضِ الحِمَى كيف اهتديتَ إلى الهندِ

لم تنقطع صلته بوطنه عن طريق أسرته ، إذ كان يراسل أخاه دوماً ، ويبثه لواعج شوقه :

سامَحْتُ كتبَكَ في القطيعةِ عالماً ... أنّ الصحيفةَ لم تجِدْ مِنْ حاملِ
وعذَرتُ طيفَكَ في الجفاءِ لأنّه ... يسري فيُصبحُ دوننا بمراحلِ(٣)

ارتحل الشاعر من منفاه إلى اليمن فمر على عدنها ، وتذكر في الأرض العربية السعيدة أحبابه ، ويمنى أن يعود إلى وطنه :

أأحبابَنا ، لا أسألُ الطيفَ زَورةً ... وهيهاتَ ، أينَ الديلمياتُ(٤) مِنْ عَدَنْ ؟ (٥)

مدح الشاعر ملكها سيف الإسلام طفتكين بن أيوب أخا صلاح الدين ،

---

(١) ديوان ابن عنين ، ص ٩٥ . قرم : مأخوذة من قَرِم إلى اللحم : أي اشتدت شهوته له.

(٢) روض الحمى ، وتل راهط : موضعان في غوطة دمشق وضواحيها ، ويقع تل راهط بعد مرج العذراء ، ويقال له مرج راهط .

(٣) ديوان ابن عنين ، ص ٧٣ .

(٤) الديلميات : اسم موضع في غوطة دمشق وضواحيها .

(٥) ديوان ابن عنين ، ص ٧٨ ، وابن خلكان : وفيات الاعيان ج ، ص ٢٥ .

ونال منه العطاء الجزل ، فاتجر به وحمل تجارته إلى مصر ، ويظهر أن ملكهاالعزيز رسم أن يؤخذ منه زكاة تجارته ، فعرّض بذلك في شعره قائلاً :

ما كلُّ من يتسمّى بالعزيز لها أهلٌ ولا كلُّ برقٍ سحبُه غدقه
بينَ العزيزَين [1]بونٌ في فعالهما هذاكَ يعطي،وهذا يأخذالصَّدَقه[2]

اهتمت المحافل الأدبية في القاهرة بقدوم شاعر الشام المنفي ابن عنين ، وقد أشار ابن خلكان إلى هذه الزيارة في معرض حديثه عن ابن سناء الملك ، فقال : « واتفق في عصره بمصر جماعة من الشعراء المجيدين، وكان لهم مجالس يجري بينهم فيها مفاكهات ومحاورات يروق سماعها . ودخل في ذلك الوقت إلى مصر شرف الدين بن عنين ، فاحتفلوا به ، وعملوا له دعوات ، وكانوا يجتمعون على أرغد عيش ، وكانوا يقولون : هذا شاعر الشام ، وجرت لهم محافل سطرت عنهم ، ولولا خشية الإطالة لذكرت بعضها » (٣) .

والتقى الشاعر في القاهرة بابن الساعاتي،وقد هنأه بمولود لهكما رأينا، وبعث إليه مع التهنئة هدية مناسبة ، وكان في وداعه يوم سفره ، إذ كانالحر شديداً ، وأبى أن يفارقه قبل أن ينشده أبياتاً يودعه بها في رحلته البحرية الشاقة ، منها قوله :

رَحَلْتَ فلِلْعلياءِ بعدَكَ مهجةٌ شَعاعٌ وشأنٌ ماتجفّ مدامعُه
ولمّا دَعَتْني للوداعِ نوازعٌ مِنالشوقِ أنّالشوقَتدعونوازعه
لقيت وفود الرِّيح وهي زعازعٌ ومِنْ دون لُجِّ البحرِتلقىزعازعُه
وما جاشَ منْ آذيّهِ قطُّ زاخرٌ كعلمِك الا والسَّماحُ طلائعُه (٤)

لم يكن للشاعر أمل في العودة في حياة صلاح الدين ، حتى إذا قضى نحبه عاوده أمله من جديد في العودة من منفاه البعيد .

نجح الشاعر في عمله التجاري ، فربح الأموال الكثيرة ، وسافر إلى

---

(١) العزيزان : هما الملك العزيز طغتكين بن أيوب ، صاحب اليمن ، والملك العزيز عثمان ، صاحب مصر .

(٢) ديوان ابن عنين ، ص ٢٢٣ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ح ، ص ١٨٩ .

(٤) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ١٠ .

الآفاق في التجارة ، وأصبح يملك ثروة كبيرة (١) ، وكان من الطبيعي أن يسعى للعودة إلى وطنه بعد وفاة صلاح الدين فوراً ، بيد أنه تريث بادىء الأمر لأن تجارته الواسعة التي امتدت أطرافها بين مصر واليمن والحجاز والهند تقتضي منه إنهاء كل أموره . فلما استخلص الملك العادل أخو صلاح الدين الملك لـه ولأولاده ، أزمع الشاعر أمره على الإسراع في العودة من منفاه . ولما بلغت مطاياه مشارف دمشق بعث بقصيدة إلى الملك العادل يصف له فيها غربته وآلامه ومشقاته ، وتحدث فيها عن شوقه إلى بلده ، وأخذ يستعطفه ويستأذنه لينال عفوه ويسمح له بدخولها ، ومما قاله :

فارَقتُها لا عن رضىً وهَجَرْتها لا عن قِلىً ، ورَحلتُ لامُتخيِّرا
اسعى لِرزقٍ في البلاد مفرَّقٍ ومن العجائب أنْ يكون مُقتَّرا
وأصونُ وجهَ مدائحي متقنِّعاً واكُفُّ ذيلَ مطامعي مُتَسترا
اشكو إليكَ نوىً تمادى عمرُها حتى حسبتُ اليومَ منه اشهُرا
لاعيشتي تصفو ولا رسمُ الهوى يعفو ولا جفني يصافحُهُ الكرى
أضحى عن الرَّبعِ المَريع مُحَلَّأً وابيتُ عن وِرْدِ النَّميرِ منفَّرا
ومِنَ العجائبِ أن تفيَّأ ظلَّكم كلُّ الورى وَنُبِذْتُ وحدي بالعرا(٢)

رق له الملك العادل ، فأعتبه ، وأذن له بالعودة ، فدخل دمشق ، وقال ساخراً بأعدائه الذين سعوا بنفيه :

هجوتُ الأكابر في جلَّقٍ ورُعتُ الوضيع بهجو الرَّفيعِ
وأخرجتُ منها ولكنني رجعتُ على رَغمِ أنفِ الجميع(٣)

يذكر جامع الديوان أن الشاعر أنشد القصيدة السابقة لما عاد إلى دمشق وتقدم بها عند الملك المعظم ، وقد خصه والده بالبلاد الشامية كلها ، بعد أن اتسعت في عهده المملكة الأيوبية ، كما أعطى الملك الكامل الديار المصرية والملك الأشرف البلاد المشرقية ، والملك الأوحد وسائر أولاده ما تبقى من البلاد .

(١) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص ٥١ ، ٥٢ .
(٢) ديوان ابن عنين ، ص ٥ ـ ٨ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٩٤ .

عاش الملك العادل آمنا بعد استقرار أمر الدولة العربية الأيوبية الكبرى، وأصبح ملك الملوك من أبنائه، فكان يتنقل بينهم، وفي الغالب كان يصطاف في الشام لكثرة الفواكه ووجود الثلج والماء البارد ويشتي في مصر لاعتدال الطقس وقلة البرد .

عبر الشاعر عن هذه الأمور كلها في المدحة العادلية التي بعث بها إليه قبيل دخوله دمشق، وكنا قد أوردنا مطلعها، ومما قاله بعد ذلك :

ولهُ البنونَ بكلِّ أرضٍ منهمُ	ملكٌ يقودُ الى الأعادي عسكرا
منْ كلِّ وضّاح الجبينِ تخالهُ	بدراً، وإن شهد الوغى َفغضنْفرا
بينَ الملوكِ الغابرينَ وبينهُ	في الفضلِ ما بينَ الثريا والثرى
نسختْ خلائقُه الحميدةُ ما أتى	في الكتْبِ عن كسرى الملوك وقيصرا
حِلمٌ تخفُ له الحلوم وراءه	عزمٌ ورأيٌ يحقر الإسكندرا
لا تسمعنَّ حديثَ ملكٍ غيره	يُروى فكلُ الصيْدِ في جوفِ الفَرا(١)

ساءت العلاقة بين الشاعر والملك العادل، إذ ساءه أن يقطع الرسوم والأرزاق التي كان الشعراء يتناولونها، فقال فيه معرضاً :

إنّ سلطاننا الذي نرتجيه	واسعُ المالِ ضيّقُ الإنفاقِ
هو سيفٌ، كما ُيقال، ولكنْ	قاطعٌ للرسومِ والارزاقِ (٢)

لم ينف في هذه المرة عن دمشق لأن الملوك تعودوا منه ذلك، ولأنه كان يتمتع بمنزلة سامية بين أدباء عصره، فهو لسان حالهم، وإليه يحتكمون فيما يشتجر بينهم .

استقر أمر الشاعر في دمشق، وحظي لدى الملوك الأيوبيين، وصار وافر الحرمة موفور الكرامة عندهم، ويظهر أنه فكر في التوبة، فأعرض عن اللهو،

---

(١) ديوان ابن عنين، ص ٣ ـ ٨، والفرا : هو الحمار الوحشي، وقد ضمن الشاعر مثلا عربيا معروفا، معناه أنه ليس مما يصيده الناس أعظم من الحمار الوحشي . انظر مجمع الأمثال للميداني ج ٢، ص ١٣٦ .

(٢) المصدر السابق، ص ٢٣٩ .

وشرب الخمر ، ومال الى التقشف والزهد . افتقده الملك المعظم في مجلسه ، وأخبره بخبره ، فبعث اليه نرداً وخمراً ، وطلب من حاجبه أن يقول له : « سبح بهذا (١) » إشارة منه الى أن زهده رياء وتصنع ، فكتب اليه معاتباً ، وعرض بقصة القاضي الذي خلعه :

يا أيها الملكُ المعظمُ سنةً أحدثتها تبقى على الآبادِ
تجري الملوكُ على طريقكَ بعدها خلعُ القضاةِ وتحفةُ الزُهادِ (٢)

وجدير بالذكر أن توبة ابن عنين وانقطاعه في أحد المساجد كانا احتجاجاً على ما فعله الملك المعظم الذي غضب على قاضيه زكي الدين بن محيي الدين، وأراد عزله فبعث اليه بقلنسوة صفراء وقباء أصفر ، وأمر أن يلبسهما في مجلس حكمه .

يظهر أن الملك ندم على ما فرط بحق الشاعر ، وكأنه خشي هجاءه ، فقربه في أواخر حكمه وولاه وزارته ، وأقامه مقام نفسه في ديوانه ، فأحسن السياسة ، ونظم الدواوين ، واستمر في مهام الحكم حتى وفاته .

ويظهر أن مسؤليته في الحكم جعلته يطلب من الملك المعظم اقالته فكتب اليه:

أقِلني عثاري واحتسِبْها صنيعةً يكونُ برُحماها لكَ اللهُ جازيا
كفى حزناً أن لستَ ترْضى ولا أرى فتىً راضياً عني ولا اللهَ راضيا
ولستُ أرجّي بعدَ سبعينَ حِجّةً حياةً وقد لاقيتُ فيها الدّواهيا (٣)

ولي الحكم الملك الناصر ، فأقره في عمله طوال مدة حكمه ، حتى اذا خلفه الملك الأشرف عيسى ترك الحكم ، ولم يباشر بعدها خدمة .

ذكر المؤرخون انه استبد بالأمر في أواخر أيام وزارته، فكثر ظلمه، وزاد تعسفه ، وسمح باستيراد الخمور الى البلاد ، ورمي بسبب ذلك بالزندقة

---

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٣٩٨ .
(٢) ديوان ابن عنين ، ص ٩٢ ، ٩٣ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٩٣ .

وسب الأنبياء وترك الصلاة (١) ، ولقد أشـار الشاعر فتيان الشاغوري الى بعض ما نسب اليه في بتين نظمهما في هجائه وهما :

ابنُ عنينٍ في كل زندقةٍ   أمسى واضحى فعاله مثلا
لم ينفتسْ الا على قدح   ولم يَبِتْ غيرَ راكبٍ كفلا (٢)

أغلب الظن عندي أن بعض هذه الأمور مدسوس عليه ، أشاعه منافسوه وأعداؤه في أواخر سني وزارته قبيل استعفائه من الخدمة . وقد داهمته المنية عشية الاثنين في العشرين من شهر ربيع الاول سنة ٦٣٠ هـ ، ودفن بمقبرة باب الصغير .

(٣)
آثاره الأدبية

ذكر أبو الفداء أنه « كان شاعر مفلقاً ، وديوانه مشهور » (٣) ، ولكن المعروف عنه أنه لم يهتم خلال حياته بجمع ديوانه ، وأنه كان ضنيناً بشعره وقد لقيه الدبيثي ببغداد ، وذكر أنه كتب عنه شيئاً من شعره ، فلذلك لم يدونه ، فهو يوجد مقاطيع في أيدي الناس،وقد جمع له بعض أهل دمشق ديواناً صغيراً ، لايبلغ عشر ما له من النظم ومع هذا ففيه أشياء لبست له(٤)

أما جامع الديوان فهو محمد بن المسيب بن نبهان بن محمد الدمشقي الثعلبي ، وقد تم جمعه بعد وفاة الشاعر بثماني سنوات .

يضاف الى الديوان منظومته « مقراض الأعراض » ، وهي مؤلفة من خمسمائة بيت ، اختار منها جامع الديوان اثنين وخمسين بيتاً في باب الهجاء (٥) ، وقد تناقلها الناس منفردة عن ديوانه .

---

(١) الدلجي : الفلاكة والمفلوكون ، ص ٩٤ ؛ وياقوت : ارشاد الأريب ، ج ٧ ص ١٢١.
(٢) ديوان فتيان الشاغوري ص ٥٨٥ ، وله أيضا معطوعتان أخريان في هجائه ص ٥١٧ و ص ٥٤٩ .
(٣) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ص ١٥٨ .
(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ٢٦ .
(٥) ديوان ابن عنين ، ص ٥٢ .

يتألف ديوانه من سبعة أبواب : هي باب المديح ، وباب الرثاء ، والباب الثالث في الحنين الى دمشق ، وقصائد هذا الباب مضمومة في الأصل الى باب الوقائع والمحاضرات ، فأفرد لهـا محقق الديوان بابا خاصاً ، كما ضم اليها ثلاث مدح،وقصيدة من باب الهجاء. والباب الرابع في الوقائع والمحاضرات والباب الخامس في الدعابة والتهكم والسخرية ، والباب السادس في الألغاز ، والباب السابع في الهجاء وهو أكبر الأبواب .

يضاف الـى الديوان والمقراض آثار أخرى ، منهـا تصنيفه « التاريخ العزيزي »(١) في سيرة الملك العزيز عثمان وهو مخطوط ، وكتابه « مختصرة الجمهرة (٢) » .

---

(١) حاجي حليفة : كشف الظنون ، ج ١ ص ٤٠٤ والرزكلى : الأعلام ، ج ٧ ص ٣٤٨، وبروكلمان Brock : 1'387 . SI'551

(٢) حاجي خليفه : كشف الظنون ، ج ١ ص ٢٢٨ .

القسم الثاني

شعره ومذهبه الفني

(١)
أغراض شعره

نستطيع أن نعرض شعر ابن عنين وندرسه من خلال أهم الاغراض التي نظمها ، وهي الهجاء والسخرية ، ووصف البعاد والحنين،والمدح والنسيب، ثم نختمها بذكر الألغاز والأحاجي .

سخرية وهجاء

فطرت طبيعة الشاعر على السخرية والهجاء ، فبدأ بنفسه فهجاها(١) ، وثنى بأبيه (٢) ، وتناول بعد ذلك الناس أجمعين ممن راق له أن يسخر منهم بسبب أو بغير سبب ، أو يعرض بهم . وتطاول على علية القوم ، فلم يتورع عن هجاء خليفة بغداد العباسى ، حتى إن جامع ديوانه أسقط كلمات من بيتى الهجائية المذكورة (٣) . كما تعرض الشاعر للملك العادل (٤) ، وللملك الأشرف (٥) ، وللملك المنصور (٦) ، ولم يكتف بذلك ، بل نظم هجائية مطوله

(١) ديوان ابن عنين ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٢٣٩ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٢٣٤٤ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٢٣٩ .
(٥) المصدر السابق ، ص ١٣٢ .
(٦) المصدر السابق ، ص ١٣٣ .

ذم فيها كل من عرفه ، وقد استخدم فيها بعض الالفاظ المضحكة والتعابير الصريحة ، ويظهر أن المدرسة التحامقية المعروفة كان لها اكبر الأثر في هذا النوع من شعره .

كنا ذكرنا أنه سمى هجائينه المشهورة «مقراض الاعراض» ، وقد تعرض فيها للقاضي الفاضل مرتين : جاء في الاولى قوله :

والعزُ عبدُ الرحيم سيدُنا — مُطيلس"(١) للقضاء بالشرْبِ
يظنُ رائيهِ أنهُ جُرذٌ — مُطلعٌ راسهُ من الثقبِ(٢)

وجاء في الثانية قوله :

وحينَ أبصرتُ دولةَ الاحدب الـ — ـفاضِل أربتْ على عُلا الشُهبِ
فقلتُ للمفلسينَ ويحكمُ — تحادَبوا فهي دولةُ الحدبِ(٣)

ولم يكن ذلك كل شيء ، فلقد هجاه ساخراً بخمس مقطوعات اخرى ، نعته فيها ببعض النعوت المستهجنة،وصرح فيها ببعضالألفاظ الوضيعة(٤).

أما القضاة فكان لهم من هجائه النصيب الاوفى ، فلم يسلم احدهم من لسانه ، وقد نعتهم بالفواحش ، والصق بهم أخس الصفات ، وبخاصة منهم ابن أبي عصرون وابن الزكي ، وابن الحرستاني ، والجمال المصري . من ذلك ما كتبه الى الملك المعظم يتهم قاضيه بالميل الى النساء :

أقولُها لو بُلغتُ ما عسى — فالطبلُ لا يُضربُ تحتَ الكِسا
قاضيكَ إنْ لم تُقصهِ فاخصهِ — أولا فلا يَحكمُ بينَ النسا(٥)

---

(١) مطيلس : مأخوذة من الطيلسان ، وهو كساء أخضر ، يلبسه الخواص من المشايخ والعلماء ، وهو من لباس العجم .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٨٢ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٨٤ .
(٤) المصدر السابق ، ص ١٨٨ — ١٩٠ .
(٥) المصدر السابق ، ص ١٣١ .

لم يكن في هجائه يبغي الشر دائماً ، وانما كان يتخذه في بعض الاحيان طريقاً لإصلاح فساد مجتمعه ، أو للتعبير عن شعور إنساني نبيل . من ذلك أن الملك المعظم أمر بنزح ماء خندق القلعة بدمشق ونال الناس من ذلك جهد عظيم ، فقال يخاطب الملك :

أرحْ من نزحِ ماءِ البَرْجِ يوماً — فقد أفضى الى تَعبٍ وعيٍّ
ُمرِ القاضيْ بوضعِ يديهِ فيهِ — وقد أضْحى كرأسِ الدَّولعيِّ(١)

نلاحظ بالإضافة الى هذا الشعور الانساني النبيل روح الفكاهة والدعابة في إطار من التصوير الفني الرائع ، وبظهر هذا الاتجاه في معظم مقطوعات الهجاء لبخفف من لذعه ، وهو يبدو أجمل ما يكون ظرفاً فيما قاله من ذلك لما أمر الملك العادل أن تسلسل أبواب الجامع الأموي، فخاطب الناس:

سلوهُ انْ أجابكمُ سلوهُ — سلوهُ : جُنَّ حتى سلْسلوهُ
ولولا أنكم بَقرٌ حميرٌ — لما مَنعوكمُ أن تَدْخلوهُ(٢)

ويشفق الشاعر على الجامع الأموي من نوابه القائمين على أمره ، إذ إنهم يأكلون أمواله بالباطل ؛ ويعرض مره نانية بسلسلة أبوابه فيسخر من خطيبه، وقاضي القضاة قائلا :

لمّا رأى الجامعُ أموالهُ — مأكولةً ما بينَ نوابهِ
جُنَّ فمنْ خوفٍ عليه غدا — مُسلسلا من كلِّ أبوابهِ
وكيفَ لا تعتادُهُ جِنَّةٌ — وقد رأى المسْخَ لأربابهِ
القردُ في شباكهِ حاكمٌ — والتيسُ في قبةِ محرابهِ(٣)

لم يكتف بقضاة بلاد الشام ، وإنما تجاوزهم الى غيرهم ، حتى إن

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٣٥ ، والدولعي هو خطيب دمشق .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٤٣ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٤٣ .

قاضي الهنـد في «ديندوز » لم يسلم من سخريته ، إذ كان يعمـل حائكاً فقال فيـه :

لله قـاضـى دَينـدوزَ فإنــه قاض إذا أسدى أطالَ وأعرَضا
لولاه لم تُستر لِبنْت عـورةٌ فينا ولا كانت صلاةٌ تُرْتَضَى (١)

لم تقتصر روح الدعـابة على غرض معين ، بل كانت تظهر في معظـم شعره وتبلغ روح الدعابة ذروتها في القصيدة التي نظمها على لسان جـد الحلوانية (٢) ، وكان يعمل أيضاً حائكاً ، فجعلها فخراً يعتز به أحفـاده ، بيد أن باطنه تكمن فيه روح الدعابة والسخرية على أشدهما .

يسمو الشـاعر أحياناً ، فيطفى عليه شعوره الانساني النبيل ، ويبدو لنا ذلك واضحاً في مرثيته الفريدة التى رثى بهـا حماراً له مات في الموصل وجـاء فيها قوله :

ليـلٌ بأوّل يوم الحشر متّصلٌ ومقْلـةٌ أبـداً إنسانُها خَضِـلُ
ثوى المِصكّ الـذي كنتُ آملـهُ عَونـاً وخيّبَ فيه ذلـك الأمـلُ
مُكمَّلُ الخَلقِ ، رحبُ الصَّدرِ مُنتفخُ الـ
جبـينِ ، لا ضامرٌ طـاوٍ (٣) ولا سَغِلُ
يطـوي على ظمأٍ خمساً أضالعَـهُ في بيضةِ الصـيف والرمضاءُ تشتعل
يُرجّعُ النهقَ مقـروناً ويُطربُني لحناً كما يُطربُ المزمومُ(٤)والرَّملُ
لو كان يُفدَى بمالٍ ما ضننتُ بهِ ولم تُصن دونهُ خيـلٌ ولا خَوَلُ
لكنّهـا خُطّـةٌ لا بـدّ يبلغُهـا هذا الورى كلّ مخلوقٍ لهُ أجَلُ (٥)

---

(١) ديوان ابن عنين ، ص ١٢٧ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٥ ، ١٢٦ .
(٣) سـغل : مهـزول . والمصك : القوي من الناس وغيرهم .
(٤) المزموم والرمل : لحنان معروفان في الموسيقى العـربية .
(٥) ديوان ابن عنين ص ١٤٠ ، ١٤١ ؛ والخول : ما أعطاه الله من النعم والعبيد والاماء وغير ذلك من الحاشية ، وهو يستعمل للفظ واحد للجمع والمذكر والمؤنث ، وربما قيـل للواحـد : خـائل .

مثل هذا الموضوع نادر في أدبنا العربي ، نذكر منه القصيدة التي رثى بها السليك فرسه التي كان يقال لها (النحام) (٢) ونذكر منه القصيدة التي رثى بها أبو الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني ديكاً له كان يحبه كثيراً ، وعلى الرغم من أن هذه القصيدة قيلت في معرض الدعابة ، فمما لا شك فيه أن شيئاً من الشعور الإنساني السامي هز قلب الشاعر شفقة على هذا الحيوان الذي قدم له خدمة كبيرة في حياته .

وصف البعاد والحنين

لا شك أن طبيعة الشاعر الهجائية كانت سبب نفيه عن دمشق مدة من الزمن لا تقل عن عشرين عاماً ، قضاها كما رأينا بعيداً عن وطنه ، وكان خلال ذلك دائم الاتصال بأخيه يكتب له ، ويصور في رسائله ما يكابده من لواعج الشوق ، وما يلقاه من عذاب البين ولوعة الفراق .

ذكرنا في عرض حياته بعض مظاهر حنينه ، فاستمعنا إليه من وراء النهر ومن أقاصي الهند ، ونستمع له الآن يستهل مدح سيف الإسلام طغتكين بوصف حنينه الى دمشق ، مستعيضاً به عن النسيب التقليدي :

حنينٌ الى الأوطانِ ليس يزولُ ... وقلبٌ عن الأشواقِ ليس يَحولُ

أبيتُ وأسرابُ النجوم كأنّها ... قفول تهادى إثرَهنّ قفولُ

أراقبها في الليلِ مِن كلِّ مطلعٍ ... كأنّي بِرَعي السائراتِ كفيلُ

فيالكَ مِنْ ليلٍ نأى عنه صُبحُه ... فليس لـه فجرٌ إليهِ يؤولُ

دمشقُ فبي شوقٌ إليها مُبرِّحٌ ... وإن لجَّ واشٍ أو ألحّ عذولُ

وفي كبدي مِنْ قاسيونَ حزازةٌ ... تزولُ رواسيه وليس تزولُ

---

(١) ديوان ابن عنين ، ص ١٤٠ ، ١٤١ .

(٢) المبرد : الكامل ، ج ٣ ص ٦٩ .

إذا لاحَ برقٌ مِنْ سَنير(١) تدفّقتْ　　كسُحبِ جفوني في الخدود سيولُ
هي الغَرَضُ الأقصى وإنْ لم يكن بها　　صديقٌ ولم يصفِ الودادَ خليلُ
ووالله ما فارقتُها عن ملالةٍ　　سوايَ عن العهدِ القديمِ يحولُ
ولكنْ أبتْ أن تحملَ الضيمَ هِمّتي　　ونفسٌ لها فوقَ السِّماكِ حلولُ
سألثمُ إنْ وافيتُها ذلك الثّرى　　وهيهاتَ حالتْ دونَ ذاك حؤولُ(٢)

هذه حال الشاعر وهو في اليمن السعيد ، ينبض قلبه باللوعة والحسرة ويتأرث فيه الشوق الدفين ، ويتشوف منها إلى أرض الشام . أما في الهند فشأنه أدهى وأمر ، إذ تعصف به الذكريات فيكتب إلى أخيه :

أأنْ حنّ مشتاقٌ ففاضتْ دموعُهُ　　غدَتْ عُزّلٌ شتّى حواليهِ تعكفُ
نعم إنني صبٌّ متى لاحَ بارقٌ　　مِنَ الغربِ لا تنفكّ عينيَ تذرفُ
وما قيلَ قد وافى مِنَ الشامِ مخبرٌ　　عن القومِ إلا أقبلَ القلبُ يرجُفُ
وأعرضُ عن تسآلهِ عنكَ خيفةً　　إذا خفّ كلٌّ نحوَهُ يتَعرّفُ
فكيفَ احتيالي بالليالي وصَرْفُها　　بضدّ مُرادي دائماً يتصرّفُ
أحاولُ أنْ أمشي إلى الغرب راجلاً　　وأحداثها بي في فم الشّرقِ تقذِفُ(٣)

نكتفي بهذا القدر من شعره في وصف بعاده ونخلص الى القول إن الشاعر كان مبرزاً في هذا المضمار ، إذ استطاع أن يسمو بعواطفه نحو آفاق الشعر الوجداني ، يتخلى عن مشاغل دنياه وتجارته ، ويعيش في ذكرياته الخاصة كلما تذكر وطنه أو وصله من بلاد الشام رسول أو كتاب .

مدح ونسيب

استهل الشاعر حياته الأدبية بالهجاء ، فأخاف ـ كما يقول ـ الوضيع

---

(١) جبال دمشق المقابلة للبنان ، منها جبل الثلج (حرمون) وجبل (القلمون) . وفي القاموس المحيط أنها واقعة بين حمص وبعلبك .
(٢) ديوان ابن عنين ، ص ٦٨ ـ ٧١ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٨٣ .

بسبب الرفيع ، وأعرض عن مدح الأيوبيين ، إذ وجد نفسه فوق السماك عزة وتكرماً ، فلم ينل كل ما كان ينمناه ، وكان مصيره النفي مدى الحياة ، فندم على ما فرط بحق نفسه بعد أن عركته الأيام ، وتألم من معاملة الملوك الأعاجم الذين لقيهم وهو في طريقه إلى منفاه البعيد ، ورأى البون شاسعاً بين معاملة هؤلاء ومعاملة أولئك ، وحينئذ فقط فكر في مدح الأيوبيين ، وذم الملوك الأعاجم ، وكأنه يكفّر عما بدر منه ، فيحن إلى داره بدمشق من وراء النهر ، وتنهمر شئونه ويخاطب نفسه قائلاً :

أرى شأنيكَ شأنهما انبجاسُ ... تجنَّبَ مقلتيكَ لهُ النعاسُ
أحِنّ ومِنْ وراءِ النهر داري ... حنين العَوْد أوثقَهُ العراسُ (١)
فكيفَ تبيتُ تطمعُ في مديحي ... رجاء نوالها العُجْمُ الخِساسُ
ولو أنّي مدحتُ ملوكَ قومي ... تراغَتْ حولِيَ النَّعمُ الدّخاسُ(٢)
فإنّ النّاسَ في طرقِ المعالي ... لهمُ تبعٌ وهمْ للنّاس راسُ
ملوكٌ دأبُهمْ شرفٌ ومجدٌ ... ودابُ سواهمُ طربٌ وكاسُ
فلولا آلُ أيوبَ بنِ شاذي ... لكانَ لمعهدِ الجودِ اندراسُ
همُ تركوا صليبَ الكفر أرضاً ... يُداسُ وكان معبوداً يُباسُ (٣)

أنصف الشاعر الأيوبيين لأول مرة في حياته بعد أن ذاق مرارة النفي ، وعرف غيرهم من ملوك العجم الخساس .

مدح كما رأينا العادل وأبناءه ، وكانت مدحته التي مرت معنا قبل دخوله دمشق من أعذب شعره وأرقه . إذ هي صورة جميلة من صور الحنين والاعتذار والوصف والمدح في إطار واحد .

---

(١) العراس : الحبل الذي يشد به البعير من عنقه الى ذراعه .

(٢) النعم الدخاس : الكثيرة .

(٣) ديوان ابن عنين ، ص ٣٢ ، ٣٣ .

أما المـدح التي نظمها بعـد ذلك لمـدح الملك المعظم والملك العزيز فهي أصدق ما قاله الشاعر في الملوك الأيوبيين عـامة .

أحب الشاعر ملك اليمـن الأيوبي سيف الإسـلام طغتكين ، وأقـام عنـده مـدة ، وكان ينادمه على شرابه ، وقـد طلب منه أن ينهض إلى شرب المـدام قائلاً :

يـا بنَ الكـرامِ الأوّلـيـ	ـنَ السّابقـين إلى المـكارمْ
الأولـيـنَ إلى الـوغـى	والآخـرينَ إلى الغنـائمْ
انظـر إلـى زهـر الـرّبيـ	ـع كأنـه زُهـرُ النّعـائمْ (١)
والرّوضُ قـد رقمتْ وشـا	ئـعَ بـرْدهِ كف الغمـائمْ
وبـدا الهـلالُ كـزورقٍ	مـنْ فضّةٍ في البحـرِ عـائمْ
فانهض إلى شـرب المـدا	مِ ولا تطـعْ في الـرّاح لائمْ
فنديمنـا ثمـلُ القـوا	مِ أغن سـاجي الطـرف ناعـمْ
ما شـدّ بنـدَ قبـائـه	إلا وحـلّ بـهِ العـزائمْ (٢)

هـذه المدحة هي في الحقيقة صورة حيـة من خمريات الشاعر ، وقد بدت شيقة في أسلوبها راقصة في وزنها ، ولم ينـل منها ممدوحه غير بيتي المطلـع أما سـائرها فهـو مقصور على الزهـر والربيع والروض والهلال والمـدام والنـديم .

زالت الكلفـة بين الملك والشاعر ، ويترامى إليـه أن بعض أقـاربه يغريه بامتلاك ساحل الشام عوضاً عن اليمـن ، فينبهه إلى خطورة هـذا الأمـر ، ويبين له أن الساحل الـذي يحتله الفرنجة لا يساوي مدينة عدن وحـدها ، كما ينتهز هذه الفرصة فيفسح أمامه أبواب الجزيرة العربية كلها

(١) النعـائم : النجـوم .
(٢) ديوان ابن عنين ، ص ١٠٠ ، ١٠١ .

ويحرضه على غزوها ، ويطلب منه تخليصها من أشرافها الذين سلبوا متاعه وهو في مكة ، وقد أشار إلى كل ذلك في قصيدته التي يقول فيها :

ولا تقل ساحلُ الإفرنج أملكه ... فما يساوى إذا قايسته عدَنا
وما تريدُ بجسمٍ لا حياةَ لهُ ؟ ... من خلّص الزّبدَ ما أبقى لك اللّبنا
وإنْ أردتَ جهاداً روّ سيفكَ من ... قومٍ أضاعوا فروضَ الله والسننا
طهّرْ بسيفكَ بيتَ الله من دنسٍ ... وما أحاطَ بهِ منْ خسّةٍ وخنا
ولا تقل إنهم منْ آلِ فاطمةٍ ... لو أدركوا آلَ حربٍ قاتلوا الحسنا(١)

مدح الشاعر أيضاً الملك المعظم ، وكانت تربطه به موده خالصة وصداقة وثيقة ، فهو صديقه الوفي ووزيره الأمين ، يستشيره في كثير من الأمور ، وكان يقف منه معارضاً في بعض الأحيان ، حتى اذا لم يأخذ بمشورته طلب منه أن يقيله من منصبه كما مر معنا .

كان الشاعر يبثه أشجانه في مدحه الكثيرة ، ويصور له ما لقيه في ماضي أيامه من عذاب الغربة ، وهو يشقق قلب الترق .

كانت مصر كما رأينا أحد الأمصار التى حلها الشاعر ، وقد لقي فيها الحفاوة والإكرام من أدبائها وشعرائها ، واحتفل به ، وعملت له الدعوات كما يقول ابن خلكان .

ذكر الشاعر كل ذلك ، وحن إلى المجالس الأدبية على ضفاف النيل ، إذ كانوا يجتمعون به على أرغد عيش ، فكتب إلى الملك المعظم خلال وجوده بمصر من دمشق يحمله تحيته :

تحيةُ مشتاقٍ بعيدٍ مزارُهُ ... ابى شوقهُ أن يستقرّ قرارُهُ
إذا نفحةٌ مرّت بهِ قاهريةٌ ... ذكت في الحشا بين الجوانح نارُهُ
وما شامَ منْ أعلى المقطمِ جفنهُ ... سنا بارقٍ إلا توالت قطارُهُ

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٠٢ .

أحنّ إلى مصرٍ ويا ليتَ أنّ لي إذا ذكرتْ مصرٌ جناحاً أعارُهُ
فآوي إلى ظلٍّ ظليلٍ ونائلٍ جزيلٍ وملكٍ حالفَ العزّ جارُهُ (١)

هكذا كانت مدحه تضم في إطارها وصف الطبيعة ، والتغني بالخمر ، والحنين إلى دمشق ، بالإضافة الى النسيب الذي نختتم به هذه الدراسة .

استهل الشاعر قصائده بالنسيب في بعض الأحيان ، ونعت محبوبه بالصفات المعروفة لدى شعراء هذا العصر ، وهو غالباً ما يكون من ظباء الترك (٢) ، فيتغزل بضيق العينين والمقل كما في قوله :

لا تعرضنّ لضيّقِ المقلِ فتبيتَ منْ أمنٍ على وجلِ
واترُكْ ظباءَ التُّركِ سانحةً لا تعترضْ لحبائلِ الأجلِ
من كلّ مائسةٍ منعمةٍ غرثى الأياطلِ فعمةِ الكفلِ (٣)

يلاحظ أن الشاعر لم يقتصر على وصف ظباء الأتراك وضيق مقلها ، وإنما تعداها إلى التغزل بمحاسن هندي (٤) وزنجي (٥) ، كما راقته صباحة الوجوه في خوارزم ، ولكن أقلقه مؤذنوها (٦) ، فهو بذلك قد تأثر بنماذج مختلفة من الجمال الذي لم يعهده في بلاده خلال ترحاله وتنقله في منفاه البعيد .

الأحاجي والألغاز

يوجد في ديوانه باب كبير مستقل في الألغاز ، وكان يطارح بها الأدباء والشعراء في مجالس سمر الملك المعظم ، فهي مظهر من مظاهر اللهو الفكري والنشاط العقلي بأسلوب شعري في هذا العصر . كان الأدباء

---

(١) ديوان ابن عنين : ص ٩١ ، ٩٢ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٤٠ ، ١٠٨ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٠ ، ٤١ .
(٤) المصدر السابق ، ص ١١٢ .
(٥) المصدر السابق ، ص ١١٢ .
(٦) المصدر السابق ، ص ٢٤٠

يكتبون إليه ويسألونه ، فيجيبهم شعراً ، ويحل لهم اللغز المطلوب ملمحاً او مصرحاً بالجواب . كتب إليه الملك المعظم لغزاً في « الإسلام » :

أيّ شيءٍ تراهُ حقــاً يقينــاً حالما اعوجَ في الزمــانِ استقاما (١)

فأجــابه الشاعر بديهــاً مصرحاً بالجواب :

أيهــا السيدُ الــذي جعــلَ الشّر ك حطــامــاً وشــيّد الإســلاما

قــد أتاك الجوابُ لا ســكّ فيــه فاتخــذْني للمُشــلاتِ إمــامــاً (٢)

استخدم الشاعر الإلغــاز للتعبير عن رأيــه في كثــير من أمــوره التي لا يستطيع الجهر بهــا ، فهو يستثقل العروض الدينية ، وبخاصة منهــا الصلوات الخمس ، وقد ألزم بها مراراً ، منها أنه لما خرج مع أصدقائه الى كهف بسفح جبل قاسيون ، فصادفوا زاهداً هناك فقص سبالهم ، والزمهم الصلاة ، فأنشد في ذلك شعراً ذكر فيه أن الصلاة من المصائب التي لاتتقى(٣)، ومرة ثانية لما دخل المسجد الاقصى وزار قبــة الصخرة فشكا إلى الله مما يلاقيه : « كل أرض فيها على الناس سخرة »(٤) ، وأينما سار في بلاد الله الفى « ثمّ كهفا وصخرة » (٥) . فلا غرابة إن كتب الى الصلاح الإربلي في الصلوات الخمس ملغزاً ، يعبر عــن رأيه الخاص في هذا الأمــر الديني ، ويبدي استياءه :

يا أولــي العلــمِ خبّرونــي فإنــي ضاقَ ذرْعي وضلّ ثاقبُ فهمــي

عــن ثــلاثٍ لزمننــي أخــواتٍ مفصحاتٍ نيطــتْ بثنتــين عجــمِ

فاعجبوا مــنْ عجائزٍ لزمتنــي كلّ يومٍ إتيــانهنّ برغمــي

لا ينجــي الفــرارُ منهــنّ في الــ ــبحرِ ولا في ذرا الجبــال الشــمِ

ولــو انــي طلقتهــنّ تســرْبلْ ــلتُ بعــارِ الدنيــا وبؤْتُ بإثــمِ

ويحَ أعضاي مــن زواجِ النّصارى بسوى المــوتِ لا يفــرّجُ همّي (٦)

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٥٢ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٥٢ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٣٨ .
(٤) المصدر السابق ، ص ١٣٩ .
(٥) المصدر السابق ، ص ١٣٩ .
(٦) المصدر السابق ، ص ١٦٦ .

تلك هي قصة الاحاجي والألغاز في شعره ، إذ هي مظهر من مظاهر أدب هذا العصر ، بيد أنه يتميز عن غيره أنه اتخذها دريئة يلمح من خلالها بآرائه في الدين والمجتمع والسياسة .

(٣)
مذهبه الفني

يمكننا بعد عرض اغراض شعره أن نوضح مذهبه الفني ، فهو فيه بنهج نهج الشعراء المعاصرين ، وبرسم الصور البيانية ويستخدم الزخارف البديعة ، بيد انه لا يبالغ فيها كثيراً ، وإنما يقتصد في تصنعها ، ويخرجها مخرجاً ليناً لئلا نطغي على طبعه السليم وأسلوبه السهل الذي ينحدر الى العامية في بعض الأحيان كما سنرى .

والمعروف عنه أنه كان ضليعا في ثقافته ، وقد حاول أن يعكس هذه الصورة من خلال مرآة شعره ، فاستخدم مصطلحات علوم العربية، وبخاصة منها ما يتعلق بالصرف والنحو ، نذكر من ذلك قوله :

فداؤك كلُّ منْ أمسى لبخلٍ ... تَنداهُ كأنّه علَمٌ منادى (١)

وكتب الى ابن شكر :

ولأنتَ إن رفعَ امرؤٌ منْ غيرهِ ... كالمبتدا سبب ارتفاعكَ معنوي (٢)

وكتب الى صدر جهان :

لمَ أخّرتني وقدّمتَ غيري ؟ ... انا حالٌ ، وغيريَ استفهامْ ؟ (٣)

وكتب الى الملك المعظم :

أنا ك « الذي » أحتاجُ ما يحتاجهُ ... فاغنمْ ثوابي والثناءَ الوافي (٤)

وقال في عالم صرف من عمله :

ولا تغضبنّ إذا ما صرفت ... فلا عدلَ فيكَ ولا معرفهْ (٥)

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٢٤ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٤ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٢٤ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٩٢ .
(٥) المصدر السابق ، ص ٢٩٩ .

ثمة ظاهرة ثانية في مذهبه الفنى ، وهي عدم تحرجه من استعمال الألفاظ العامية والتراكيب الشائعة المتداولة بين الناس ، إذ كان يهدف في شعره الى التعبير الصادق عن نفسيتهم بأسلوب قريب من الأفهام الساذجة، وأدعى الى التصوير الفني في رسم الصور الساخرة ، فمن ذلك قوله :

لا الحاكم المصري(١) ينفذ حكمه فبها عليّ ولا العواني(٢) الموصلي (٣)

وقوله أيضاً :

همُ تركوا صليبَ الكفرِ أرضاً بداسُ وكان معبوداً يباسُ (٤)

يضاف الى الألفاظ العامية استخدامه التراكيب الشائعة مثل قوله «دق حنك»(٥) و « ما قصّر »(٦) و « ذقن »(٧) ...

وثمة ظاهرة ثالثة تسترعى انتباهنا ، وهي السهولة المتناهية المطبوعة في اسلوبه ، ويظهر أن الأغراض التي كان يتناولها في شعره اضطرته الى هذا النوع من التعبير المفهوم من الطبقة الشعبية ، ولا سيما أن هذا العصر ابرز لنا فنوناً شعبية كما سنرى في الفصل المقبل ، كان للغة العامية فيها أوفر نصيب . فمن ذلك قوله في معرض النكتة والإحماض :

هذا ابن هرونَ الذي في عصرنا لا يفلحُ (٨)

---

(١) المصري : جمال الدين يونس بن بدران بن فيروز المصري ، المتوفى سنة ٦٢٣ ه وهو قاضي قضاة دمشق (البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ١١٥) .

(٢) ذكر محقق الديوان أن العواني لفظة عامية معروفة ، وما زال اهل دمشق ينبذون بها كل من لا يؤمن شره من أعوان الحكومة ، ويظهر أن أصلها « أعواني » .

الموصلي : المبارز ابراهيم بن موسى المعروف بالمعتمد ، أصله من الموصل ، والمتوفى سنة ٦٢٣ ه (البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ١١٥) .

(٣) ديوان ابن عنين ٢ ص ٨٥ .

(٤) لفظة عامية من أصل فارسي أي يُقبل . ديوان ابن عنين ، ص ٣٣ .

(٥) ديوان ابن عنين ، ص ٢٠٩ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٣٩ .

(٧) يقول محقق الديوان : من الشتائم أن تضاف لفظة ذقن الى ما لا يحسن ذكره .

(٨) ديوان ابن عنين ، ص ٢٢٩ .

يضاف الى ذلك استعمال الألفاظ البذيئة،حتى ان جامع الديوان حذف من هجاء خليفة بغداد بعض الالفاظ النابية التي لا يليق ذكرها .

وعلى الرغم من كل ذلك ، فما كانت هذه المآخذ لتقلل من اهميته كشاعر كبير من اعلام شعراء هذا العصر في بلاد الشام. يقول ابن خلكان : « كان خاتمة الشعراء لم يأت بعده مثله ، ولا كان في أواخر عصره من يقاس به(١) ».

ونحن نقف من امثال هذه الاقوال المعممة موقف الحذر ، كما عودنا عليها النقاد القدماء . وما كنا لنبخس الشاعر حقه ، وانما نريد أن نقول:إنه مبالغ في ذلك القول ، ولكن مما لا شك فيه أن الشاعر كان صادق التعبير في وصف حياته وذاته ، وأفصح عن آرائه في الناس كما خبرهم دون تحرج أو خوف.

وابن عنين بعد كل ذلك شاعر الشام في عصره ، إذ كان الناس يحتكمون اليه فيما يشتجر بينهم من خصام أدبي وخلاف نقدي ، فقد « كان من أخبر الناس بنقد الشعر »(٢) .

روى ابن خلكان أنه سئل مرة عن قصيدة للشاعر العكوك ، واخرى لأبي نواس موازية لها في الوزن والقافية ، فلم يفضل إحداهما على الاخرى ، وقال : « ما يصلح أن يفاضل بين هاتين القصيدتين إلا شخص يكون في درجة هذين الشاعرين(٣) » .

ننتهي من كل ذلك لنقول ان ابن عنين كان أحد أعلام الأدب ، وكان يمثل الوساطة بين مدرسة التطبيق والتجنيس التي كانت سائدة قبله ، ومدرسة التورية والانسجام التى ستزدهر على يد الشرف الأنصاري .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٢ ص ٢٥ .
(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٥ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٣٤٨ .

الشرف الأنصاري
شيخ الشيوخ

القسم الأول

حياته وآثاره

(١)
مراحل حياته

في دمشق الفيحاء(١) . وفي درب الكشك(٢) ، أحد أحيائها القديمة ولد الشاعر الكبير ، شيخ شيوخ حماة(٣) ، ورئيسها الصاحب شرف الدين(٤)،

---

(١) سبق أن نشرنا هذا البحث بقسميه الأول والثاني في مجلة المجمع العلمي العربي في الجزءين الثاني والثالث من المجلد الاربعين لسنة ١٩٦٥ .

(٢) درب الكشك : أورد ابن عساكر ذكره في تاريخ مدينة دمشق مرتين ، أولاهما عند حديثه عن « مسجد في درب كشك عند الأطباقيين ، وكان الدرب قديماً يعرف بقرا قرون الحجري » ، وثانيهما عند حديثه عن « قناة في درب الكشك » (ج ٢ ص ٧٣ ، ١٥٩) .

ويقع درب الكشك في حارة اليهود الحالية بين محلتي باب شرقي والشاغور جنوب الدرب المستقيم الممتد من باب الجابية الى باب شرقي . وقد ذكر ابن شداد أن المدرسة العزية الجوانية واقعة بالكشك . (الأعلاق الخطيرة ج ١ ص ٢١٥) .

(٣) انظر الى حديث القلقشندي عن مشيخة الشيوخ وخصائصها (صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٣٧ ، ٢٣٨) .

(٤) السبكي : طبقات الشافعية ، ج ٥ ص ١٠٨ ، وابن شاكر : فوات الوفيات ، ج ١ ص ٣٦٥ ، وأبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ٢٣١ ، وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٢٣١ ، والمنهل الصافي (مخطوط) ج ٢ و ٣٢٩ ، واليونيني : ذيل مرآة الزمان (مخطوط) و ١١٩ ، وأبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٣ ، وابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ١٠٣ ، وابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ص ٣٠٩، والسيوطي : بغية الوعاء ، ج ١ ص ٣٠٩ ، والصابوني : تاريخ حماة ، ص ١٣١ .

أبو محمد ، عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن بن محمد بن منصور بن خلف الدمشقي ، المعروف بـ «ابن الرّفاء » ، ضحى الأربعاء في الثاني والعشرين من جمادى الاولى سنة ٥٨٦ هـ .

وهو عربي صميم من قبيلة أوس الأنصارية ، وكانت تسكن كفرطاب(١) مع سكانها من بهراء وتنوخ ، وقد أشار الى نسبه في شعره بقوله :

وإذا ما الأوسُ عُدُّوا فإنِّي مِنْ ذويهم في لبابِ اللبابِ (٢)

وأشار الى الأنصار بقوله :

إن كنت لم أفتقد غمضي لفقدكمْ فلا وجدتُ من الانصار أنصاري (٣)

هاجمت الروم والفرنجة هذه المدينة ، فشتت شمل سكانها ، إذا أخرجتهم من ديارهم ، فانتقل أبوه الى دمشق ، وجمع بين عمله التجاري في سوق الخواصين والنيابة عن ضياء الدين الشهرزوري في القضاء والأوقاف سنة ٦٨٢ هـ ، ثم انتقل أبوه بعد ذلك الى حماة ، وولي نظر أوقاف الملك المنصور الاول بطلب منه،وكان في الوقت نفسه ناظر أوقاف الخليفة العباسي. يؤكد ذلك قوله للرشيد المصري القائم على وزارة ماله لما امتنع عن الحضور عنده : « وهذا ليس لك عليه اعتراض ، ولا وليته إلا بالإكراه ليكون ناظر أوقاف الخليفة ناظر أوقافي » (٤) .

يؤكد هذا الخبر أنه انتدب من قبل الديوان العزيز ببغداد لعقد نكاح بعض مماليك الخليفة على بعض جواريه، فارتجل بديهاً أمام الحاضرين خطبة من روائع خطب العقود(٥)،إذ المعروف عنه أنه كان ماهراً في الخطابة والترسل

---

(١) كفر طاب : ذكر ياقوت أنها بلدة بين المعرة وحلب في برية معطشة ، وأهلها ليس لهم شرب الا ما يجمعونه من مياه الأمطار في الصهاريج (معجم البلدان ، ج ٤ ص ٤٧٠) .

(٢) مصورة مخطوطه ديوان الشرف الأنصاري ، ل ٨ ، والديوان ص ٨٤ .

(٣) مصورة مخطوطة الشرف الانصاري ، ل ٣٢ ، والديوان ص ٢١٠ .

(٤) اليونيني : ذيل مرآة الزمان (مخطوط) و١٣٨. والملحق الثاني من الديوان ص٥٩٢.

(٥) اليونيني : ذيل مرآة الزمان (مخطوط) و ١٤١ . والملحق الثاني من الديوان ص ٦٠١ـ ٦٠٣ .

ومطبوعاً على نظم الشعر . وقد حاول أن يدرب ابنه عليه بتلك المطارحات الشعرية الجميلة منذ نعومة أظفاره .

كان شرف الدين معجباً بأبيه ، وقد أشار الى جلالة قدره وكريم محتده في معرض قوله يفخر به ويتحدث عن قومه الانصار الذين بايعوا الرسول تحت الشجرة :

نَفَرٌ كالحُمُرِ المُستنفِرهْ أجفلتْ هاربةً منْ قسورهْ (١)
طلبوا شأوي ولمّا يلحقوا بعدَ لأيٍ منْ غباري أثرهْ
منْ يسالمني أسالمهُ ومَنْ رامَ حربي فإليهِ المعذرهْ
وأبي مَنْ قد علمتمْ قدرَه مَجْهِرٌ بالخطبةِ المُسحنفره (٢)
من يشاجرْه يصادفْ قومَه جلَّ من بايعَ تحتِ الشجرهْ (٣)

في مملكة حماة الأيوبية ، وفي بيئتها العلمية التي ازدهرت في عهد ملوكها من أحفاد الملك المظفر تقي الدين ابن أخي صلاح الدين ، وفي عصرها الذهبي خلال حكم اكبر ملوكها المنصور الأول ، الأديب العالم الذي سمع الحديث في الاسكندرية عن الحافظ السلفي ، وصاحب التآليف المشهورة ، نشأ شرف الدين فاستكمل علومه الدينية والادبية بإشراف والده ، فقرأ القرآن الكريم برواياته المختلفة ، واشتغل بالادب على أبي اليمن زيد بن الحسن الكندي ، وسمع منه كثيراً(٤) ، حتى إذا نال قسطه من العلوم والمعرفة ، شرع يرتحل مستزيداً من ثقافته وعلمه ، والتقى بمشاهير العلماء في عصره ، نذكر منهم شيخه سيف الدين الآمدي ، وكان يكاتبه(٥) . كما ذكر ابن شاكر أن والده رحل به ، وأسمعه جزء ابن عرفة من ابن كليب وأسمعه المسند كله من عبيد

---

(١) القسورة : الاسد .
(٢) المسحنفرة : يقال اسحنفر الرحل في خطبته أي مضى واتسع في كلامه ولم يتمكث .
(٣) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٣٥ ، والديوان ص ٢٢٣ .
(٤) اليونيني : ذيل مرآة الزمان (مخطوط) و ١١٩ ، وابن شاكر : فوات الوفيات ، ج ١ ص ٣٦٥ .
(٥) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الأنصاري ، ل ٩ ، والديوان ص ٨٦ .

الله بن أبى المجد الحربى(١) .

نظم الشاعر في بعض رحلاته عن حماة في أيام صباه قصيدة ، صور فيها نفسيته ، ووصف طموحه الى المجد والمعالى :

آآملُ كتمانَ الهوى وهو واضح	ودمعيَ يومَ البينِ بالسّرِّ بائحُ
لعمري ، لقد حاولتُ ما لا أنالهُ	كما حاولتْ إمساكَ قلبي الجوارحُ
لعلّ بعادي عن حماةَ بعيدُني	تخافُ السّطامني وتُرجى المنائحُ
لأهزمَ جيش المالِ وهو عرمرمٌ	وادفع صدر الخطب والخطب فادح
على انني قد كنتُ فيها مكرماً	ُيراع لكرّاتي القرومُ(٢) الجحاجح(٣)
مقيماًبربعَ الدّيرَ جسمي وصحبتي	وقلبي بربعِ القفرِ غادٍ ورائحُ
يُهيّجُ اشجانى بهِ كلّ ليلةٍ	وتصرفُنى ، عمّا يقولُ ، النّواصحُ
بدورٌ من البابِ المصرّع(٤) طُلّعٌ	ومسكٌ من الباب المصرّعِ فائحُ(٥)

كان سعيداً في حماة خلال سني طفولته وصباه ، فأبوه قاضي قضاتها يثقفه ويرعاه ، وكانت ملامح النجابة تلوح عليه منذ صغره ، داعب الغرور نفسه في مثل هذه السن المبكرة .

صحب والده ، فزار بغداد وغيرها ، وسمع فيها عن مشاهير علمائها ومحدثيها ، وعاد الى بلاد الشام ، وتنقل في أرجائها فترة من الزمن ، وأثر عنه أنه حدّث بدمشق وحماة والقاهرة ، وانتهى به المطاف الى بعلبك فأقام فيها وقتاً قصيراً ، تخرج على يديه تلامذة كثيرون، منهم تلميذه ابن الموفق البعلبكي وكان يكاتبه(٦) ، ويظهر انه ترك في هذه المدينة القديمة صداقات وثيقة استمرت مدى حياته .

---

(١) ابن شاكر : فوات الوفيات : ج ١ ص ٣٦٥ .
(٢) القروم : جمع القَرْم ، وهو السيد .
(٣) الجحاجح : جمع الجحجاح ، وهو المسارع الى المكارم .
(٤) المصرع : صرّع الباب أو البيت : جعله ذا مصراعين .
(٥) اليونيني : ذيل مرآة الزمان (مخطوط) و ٣١ ، وملحق الديوان الاول ص ٥٤٣ .
(٦) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ١٣ ، والديوان ص ١١١ .

لم تطل إقامته فيها طويلاً ، فرجع إلى حماة ، واستقر فيها نهائياً ونسب إليها ، ولقي الإقبال والتشجيع من ملوكها ، فنبه شأنه ، وسار ذكره في الآفاق ، فأمه طلبة العلم ، وغدا كعبة القصاد ، يدلفون إليه لينالوا منه الإجازة من مختلف الأقطار والأمصار ، نذكر منهم : الدمياطي،وأبا الحسين، وابن الظاهري ، وبدر الدين بن جماعة . وعز الدين بن القاضي الفاضل ، وسبط ابن الجوزي ، وغيرهم كثير ، وكان بعضهم أكبر منه سناً ، وقد عده الأقدمون من أذكياء بنى آدم المعدودين(١) .

كانت منزلته العلمية في صعد مستمر،فأصبح يدعى بشيخ شيوخ حماة بجانب والده الذي كان قاضي قضاتها ، فاحترمه ملوكها ، ونظروا إليه نظرة الإجلال والتقدير ، فاعتمدوا عليه في توطيد أركان ملكهم ، واستشاروه في كثير من أمرهم ، لأنه كان مستقيماً في سيرته .

مدح الشاعر الملك المنصور الأول بمدح كثيرة ، فهو وزيره وشاعره ، ولما ولدت له زوجه ولده محموداً ، لم يقتصر على مدحه بل مدحها بقصيدة مستقلة ، وذكر في عنوانها « وقال يمدح الملكة عصمة الدين مهنئاً » :

يا عصمةَ الدِّينِ والعلياءِ والجُودِ ... لكِ الهناءُ بعزٍّ غيرِ محدودِ
يامن غدتْ خيرَ أملاكِ الزَّمانِ لقدْ ... ولدْتِ ملكَ البرايا خيرَ مولود
ظفرْتِ بالحمدِ منّا إذْ أتيتِ بهِ ... مُظفرّاً من بني أيوبَ محمودِ
وافى يُبشِّرُ من ميلادِ إخوتهِ ... في إثرهِ بالملوكِ السّادةِ الصِّيدِ
فدامَ في ظلّكِ الضّافي وُدمتِ لهُ ... ونلتِ منهُ وفيه كلَّ مقصودِ
وإنْ يكنْ جاءَ بعدِ العيدِ مولدُهُ ... فإننا كلَّ يومٍ منهُ في عيدِ (٢)

مات المنصور الأول واضطرب أمر الملك من بعده ، فاستولى الملك قلج أرسلان على زمام الحكم سنة ٦١٧ هـ بمساعدة خاله الملك المعظم صاحب

---

(١) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج ١ ص ٣٦٥ ، والسبكي : طبقات الشافعية ج ٥ ص ١٠٨ .

(٢) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٦٧ ، ٦٨ والديوان ص ٤٠٢ ، ٤٠٤ .

دمشق ، وهو ليس بصاحب الحق الشرعي ، ذلك أن اخاه المعهود إليه بالملك كان غائباً بمصر في زيارة خاله الملك الكامل ، ولما عاد لتسلمه حذره وخوفه من التعرض لأخيه ، لكن المظفر الثاني لم يكف عن المطالبة بحقه ، فحاصر حماة بمساعدة عمه ، وراسل حكامها خفية ، واتفق معهم أن يفتحوا له باب النصر في وقت السحر ، فتم له ما أراد ، ودخل المدينة مظفراً ، وتربع على عرش الملك سنة ٦٢٦ هـ .

كان الشاعر من انصاره ، وكان على راس المهنئين ، فمدحه بقصيدة جاء فيهـا قوله :

تناهى إليك الملـكُ واشتدَّ كاهلُه ... وحلَّ بكَ الرّاجي فحلّتْ رواحلُه
الا هكذا فليمنـعِ المجـدَ مانـعٌ ... الا هكـذا فليبذلِ الرّفـدَ باذلـهُ
سبقتَ الى وِرْدِ العلا كـلَّ سابق ... فما نـال إلا فضلَ ما انـتَ نائلُه
إذا فاعـلٌ رامَ ارتفـاعـاً بفعلـه ... ففعلـكَ مرفـوعٌ لأنّـكَ فاعلـهُ
أبرُّ تقـيَ الديـن جـوداً وسؤدداً ... فتمّتْ عطايـاهُ وتمّـت فضـائلُه
فما لبني أيوب ملـكٌ مساجلٌ (١) ... فإنّنا كلَّ يومٍ منـهُ في عيـدِ (٢)

تؤكد هذه القصيدة أن الشاعر كـان غير راض إطلاقاً عـن حكم الملك المغتصب حق أخيه ، فعارضه وناهضه حتى عاد الحق الى نصابه وكان هذا الحدث فاتحة عهد جديد في حياته .

اختاره المظفر الثاني ليلى وزارته ، وبسوس امور الملك بما عرف عنه من رجاحة العقل وأصالة الراي وطيب الأحدوثة ، فمدحه بقصائد كثيرة ، نذكر منها تهنئته بميلاد ولي عهده المنصور الثاني ، وجاء فيها قوله :

---

(١) ساجله : باراه أو فاخره أو عارضه في جري أو قول شعر .
(٢) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٦٧ ، ٦٨ والديوان ص ٤٠٣ ، ٤٠٤ .

غدا الملك محروسَ الذُرا والقواعدِ بأشرفِ مولود لأكرم والدِ
مليكٌ تمنتهُ الممالكُ حقبةً فأوفى عليها مرغماً كلَّ حاسدِ
خبينا بهِ يومَ الخميسِ كأنّهُ خميسٌ بدا للنّاسِ في شخص واحدِ
وسميتَه باسم النبيِّ محمدٍ وَجدِّيه(١) فاستوفى جميع المحامدِ
كأنّي به في سُدّةِ الملك جالساً وقد سادَ في أوصافهِ كلَّ سائدِ
ووافاكَ من أبنائهِ وبينهمُ بأنجمِ سعدٍ نورُها غيرُ خامدِ
الا أيُّها الملكُ المظفّرُ دعوتي سيُورَى بها جَدّي ويشتدُّ ساعدي
هنيئاً لكَ الملكُ الذي بقدومهِ ترحَّلَ عنّا كلُّ همٍّ معاودِ(٢)

يتضح لنا مما تقدم أن شرف الدين كان مكين الصلة بالأسرة الأيوبية الحاكمة ، وهو في الواقع القاعدة الراسخة التى أقيمت عليها دعائم هذا الحكم المستقر بحماة ، وهو في غيرها يعتوره الاضطراب والنقلب حتى زال نهائياً ، وبقى وحده في حماة خلال عصر سلاطين المماليك .

تتأكد هذه الحقيقة فتبدو جلية حين موت الملك المظفر ، وكان ولى عهده المنصور الثاني حدثاً غراً لم يتجاوز العاشرة من عمره ، وتتجه الأنظار الى إقامة أوصياء على الحكم ، ويمر الامر بسلام ، ويكون الإجماع على الشاعر ليكون الراس المدبر لهذا المجلس الذي اقامته أم المنصور غازية خاتون بنت الملك الكامل . وأما سائر أعضائه فهم الوزير بهاء الدين بن الناج ، والطواشي مرشد ، وسيف الدين طغريل . تربع المنصور على عرش ملكه بعد بلوغه سن الرشد ، وساد الأمن والاستقرار في ربوع المملكة ، حتى إذا ما توفيت غازية خاتون برز الخلاف على أشده بين الملك وأخيه الأفضل ، فعزم على أن ينتزح عن حماة ، ويغادر أخاه ، بيد أن شرف الدين قد تداركبحكمتههذاالخلاف، فاجتمع بهما ، وأزال ما كان عالقاً في خاطربهما من سوء ، وعادت الأمور على خير مما كانت ، وساد ملك حماة السلام والوئام بين الأخوين .

---

(١) جداه : هما أبو أمه الكامل محمد ، وأبو ابيه المنصور صاحب حماة محمد أيضاً .
(٢) المصدر السابق ، ل ٢٥ ، ٢٦ ، والديوان ص ١٧٥ — ١٧٧ .

كان المنصور يحب وزيره الشاعر ، وكانت تربطه به صلة من الصداقة ، فقد كتب إليه مرة يعاتبه فأجابه قائلاً :

برقٌ سرى من غوادي جِلّقٍ فغدا — لنورِه مثلُ قدحِ النارِ في كبدي
أهدى إليّ عتاباً من مليكٍ هُدىً — أرقّ من والدٍ يحنو على ولدِ
أودى بجوهرِ لفظي بعدكمْ عرضٌ — أفنى الذي أبقتِ الأيام من جلدي
وسار في ركبكمْ قلبي وذُبتُ ضنىً — فاعجبْ لروحٍ بلا قلبٍ ولا جسدِ
حتى أتانيَ سالٍ ، ردّ لي فرحي — فرحتُ أرفلُ في أثوابهِ الجدُدِ(١)

أسهم شرف الدين بما له من مكانة في توطيد الصلات بين ملوك مصر والشام على السواء ، إذ كان أبعد نظراً من هؤلاء الذين كانوا يثيرون الخصومات ، ويرون ضرورة استقلال كل ملك ببلده ، ويود لو عادت الوحدة السياسية كما كانت في زمن صلاح الدين وأخيه العادل سيف الدين ، ولهذا السبب كنا نراه يتردد على دمشق والقاهرة في مهمات ملكه المنصور .

يؤكد ذلك أنه سافر الى القاهرة صحبة الملك الناصر الثاني سنة٦٤٧هـ، واغلب الظن ان سفره كان بسبب الخطر الداهم بعد استفحال أمر التتار القادمين من الشرق ، والذين باتوا يهددون معالم الحضارة الإسلامية في بلاد الشام بعد أن طرقوا أبواب بغداد . ولم تمر أعوام معدودة حتى حدث ما كان في الحسبان ، فأحرقت بغداد ، واكتسحت جيوش هولاكو الغازية أرض الشام بعد عام واحد من سقوط بغداد .

فر الملك المنصور الى مصر بحريمه وأولاده ، وطلب نجدة السلطان قطز، فلبى طلبه ، وخرج على الفور معه ، إذ بات الخطر يهدد مصر نفسها،وهكذا التقى الجمعان ، وولى التتار الأدبار ، ولاذوا بأذيال الفرار ، وهرب معهم

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٢٤ ، والديوان ص ١٦٩ .

بخسروشاه عامل هولاكو على حماة ، وعاد المنصور الى ملكه ، فأقبل عليه شاعره شرف الدين مهنئاً ومادحاً :

رعتَ العدا فضمنت ثلَّ عروشها	ولقيتهـا فأخذْتَ فـلَّ جيوشِها
نازلـتَ أمـلاكَ التتـارِ فأنزلـتْ	عـن فحلها قسـراً وعـن إكديشِها
ففدا لسيفكَ في رقـابِ كماتهـا	حصدُ المناجل في يبيس حشيشِها
روَّيتَ أكبـاد القنـا بدمائهـمْ	لمَّـا أطـالَ سواكَ في تعطيشِهـا
أقدْمتَ مُقتحمـاً على نشَّابها(١)	تكسو الجيادَ رياشها مِـن ريشِها
دارت رحى الحربِ الزبونِ(٢) عليهمُ	ففدتْ رؤوسهم حطـامَ جريشِهـا
وطويتَ عـن مصر فسيحَ مراحلٍ	ما بين بِركتها(٣) وبـين عريشِهـا
حتى حفظت علـى العباد بلادهـا	من رومها الأقصى إلى أحبوشها (٤)(٥)

وذكر هذه الموقعة الهامة الفاصلة في التاريخ الإسلامي ، في مدحة ثانية ، جاء في قوله :

محمَّـدٌ خـيرُ ماجـدٍ يقظٍ	يرْضى هـداهُ محمـدُ القـرشي
صـادمَ جيشَ التتـار مقتحمـاً	ما جشـأتْ نفسـه ولـم تجشِ
لمـا طغـى كبشـه تعمَّـدَهُ	فصيَّر الرأسَ منـه في الكـرشِ

---

(١) النشَّاب : النبل والسهام ، واحدته نشابة ، وقوم نشَّابة يرمون بالنشَّاب ، والنشَّاب ، متخذه .

(٢) الزبون : حرب زبون شديدة يدفع بعضها بعضاً ، وأصل معناها الزبون من الابل والنوق الكثيرة تدفع بثفنات رجليها عند الحلب .

(٣) بركتها : نظن أنها بركة الحبش ، وهي أرض في وهدة من الأرض واسعة طولها نحو ميل ومشرفة على نيل مصر خلف القرافة (معجم البلدان ، ج ١ ص ٤٠١) .

(٤) الأحبوش : جماعة الحبش .

(٥) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٤٣ ، ٤٤ ، والديوان ص ٢٧٠،٢٧١ .

فأسلموا الشـّـام بعدمـا طمِعـوا في ملكِ أرضِ الحجازِ والحبش(١)

كما كان يترسل إلى الخليفة في بغداد وغيره مـن ملوك الاقاليم ، وكان مؤتمناً ومحبوباً لدى الجميع لنبل أخلاقه وسمو مقصده،وكانتله صداقات شخصية تربطه بكثير ممن عرفهم من ملوك عصره ، نخص بالذكر منهم الملك الناصر والملك الأمجد وغيرهما . وكنا أشرنا الى أنه توجه الـى مصر صحبة الملك الناصر وكثيراً ما كان يراسله ويكتب إليه بخطه رسائل يضمنها بعض شعره الذي ينظمه في مدحه ، وكـان في بعض الأحيان يوفد إليـه رسولاً يستدعيه ليقيم عنده بعض الوقت ، كما حدث ذلك عندما توجه الى حلب وعمـان .

حدث ذات مرة أن توجه الناصر الـى حلب ، فأرسل كاتبه يستدعيه للقائه فحضر إليه ، وأقام عنده ، ثم عزم على العودة الى حماة لخدمة مولاه ، فخرج الملك الناصر لوداعه، فلما أبعد عن البلد أقسم شرفالدينعليهفأنشده:

يا مـن يعـزُ علينـا أن نفـارقهم وِجداننا كـلَّ شـيء بعدكمْ عدم

فأجابه شرف الدين ببيت آخر من قصيدة المتنبي نفسها :

إذا ترحلتَ عـن قومٍ وقـد قدروا أن لا تفارقَهـم فالراحـلون هـمْ

فقال له : « والله لتعودن » ، فرجع وأقام عنده عشرين يوماً أخرى(٢) .

تلك هي حياة الشاعر الوزير ، مرت بهدوء وسلام ، فأحبـه الناس ، واصطفاه الملوك لأنفسهم ، ولم يعرف عنه أنه أساء الى إنسان أو انتقم منه ، ولم يعرف عنه أنه اضطهد أو عزل من أحد مناصبه خلال حياته المديدة التي عاصر فيها معظم الملوك الأيوبيين في حماة ، وشملت في الوقت نفسه شطرين من تاريخ الأيوبيين والمماليك على السواء .

استمر على عمله مدى حياته حتى أيام المظفر الثالث، فوافته منيتهليلة

---

(١) المصدر السابق ، ل ٤٣ ، والديوان ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

(٢) ابن تغري بردي : المنهـل الصافي (مخطوط) ج ٢ و ٢٣٠ .

الجمعة الثامن من رمضان سنة ٦٦٢ هـ، ودفن بظاهر حماة في التربة الخاصة التي أعدها قبيل موته .

(٢)
آثاره الأدبية

نظم شرف الدين في حياته الشعر الكثير ، وقد عرف الأقدمون غزارته ، فأشار إلى ذلك قطب الدين البونيني بقوله : « وللشيخ شرف الدين اشعار كثيرة لا يجمعها ديوان ، وكان من حسنات الدهر ومحاسنه »(١) .

اشار الأقدمون إلى وجود ديوان له . فذكر ابن حجة أنه رآه ، واختار منه زاوية أتحف بها خزانته(٢) ، وذكر ابن نباتة المصري انه اختار منه جملة، وصنفها في مجموع خاص(٣) . توجد من هذا الديوان نسخة مخطوطة نفيسة بخط الشاعر نفسه في مكتبة بايازيد في استنبول ، ولكنها لا تجمع اشعاره الكثيرة ، إذ ثبت لدينا أن الشاعر أسقط منه قصائد كثيرة ، بَلهْ انه اهمل إيراد حتى بعض الأبيات التي لم ترقه ، أو التي تحمل طابع المبالغة ، وهي مرتبة بحسب الحروف الأبجدية(٤) .

اشار الصفدي إلى وجود ديوان آخر له، فذكر « أن له في لزوم ما لا يلزم مجلداً كبيراً(٥) » ، بيد اننا لم نهتد إلى مكان وجوده . واغلب الظن عندنا أن قصائد هذا الديوان موجودة في الديوان الأول المار ذكره(٦). وآية ذلك اننا

---

(١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان (مخطوط) و ١٣٨ .

(٢) ابن حجة : الخزانة ، ص ٢٥٦ .

(٣) انظر في كتابنا ابن نباتة المصري ، ص ٢١٩ .

(٤) كنا حصلنا على مصورة مخطوطة الديوان المذكور ، وقد أنهينا تحقيقه وشرحه ، وتم نشره في مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٦٧ .

(٥) ابن شاكر : فوات الوفيات ، ج ١ ص ٢٨٩ .

(٦) جمعنا مقطوعات هذا الديوان في اللزوميات في الفهرس ٦٢٥ ــ ٦٣٣ .

لاحظنا كثرة اللزوميات فيه بشكل يسترعي الانتباه ، حتى إنه كان في معظم الأحيان يشير إلى كل لزومية واردة فيه،ويكتب الحرف الذي التزم في القافية بالإضافة إلى الروي .

يضاف إلى ما ذكرناه أن الشاعر نظم هذه اللزوميات ـ على الأغلب ـ في أواخر حياته ، وأن معظمها يدور حول المعاني الذاتية التي عبر بها الشاعر عن نفسه وأحواله .

ثمة مؤلفات أخرى للشاعر ، أشار صاحب كشف الظنون إلى اثنين منها: أولهما «نظرة المعشوق إلى وجه المشوق»(١) ، وقد ذكر الزركشي أن العكس في التسمية أولى كما يتبادر ، وثانيهما « تذكار الواجد بأخبار الوالد » ، وهو منظومة تحدث فيها عن والده وشبوخه ورحلته(٢) ، وقد أورد قطب الدين اليونيني شيئاً منه في ترجمة والده، وأشار إليه بقوله(٣) : « ووقفت على كتاب جمع فيه الشيخ شرف الدين المذكور أشياء من أخبار والده»(٤).

كما أن المصادر القديمة كذيل مرآة الزمان وفوات الوفيات وخزانة الأدب وغيرها أوردت في معرض ترجمته نماذج كثيرة مختارة من شعره ، بعضه مما لم يرد في مصورة مخطوطة الديوان الموجودة بين أيدينا .

---

(١) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ٢ ص ١٩٦٠ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٨٢ .

(٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان (مخطوط) و ١٣٨ .

(٤) نشرنا ماوجدناه من هذا الكتاب في الملحق الثاني من الصفحة ٥٧٧ حتى الصفحة ٦٠٦ .

القسم الثاني

شعره ومذهبه الفنّي

(١)
أغراض شعره

نستطيع أن نتبين في شعره أغراضاً ثلاثة هي : مدح وأحداث ، ونسيب وغزل ، ومطارحات ، وألغاز ، وزهديات ، ويقتضي منا هذا دراستها لنبين من خلالها مذهب الشاعر الفني ومكانته كرائد كبير لشعراء عصره في مذهب التورية والانسجام .

مدح وأحداث

في ديوان الشاعر قصائد نبوية متعددة ، مدح بها الرسول الكريم (ص)، وجرى فيها على سنة من سبقه من الشعراء. أشار قطب الدين البونيني إلى نبوية غير موجود في الديوان ، وذكر أنها أول مدحة قالها فيه ، وانشدها في حجرته النبوية الشريفة سنة ٦١٩ هـ ، وأورد ما قدمه الشاعر في طرتها ، وهو قوله : «مدحَهُ العبدُ الضَّعيفُ عن حسنِ تدبيرِهِ ، القويُّ في سوءِ تقصيرِهِ ، المستوحشُ من انفرادِهِ بذنبِه ، المستأنسُ إلى شفاعةِ نبيّه المشفوعةِ برحمةِ ربّهِ ، عبدُ العزيزِ بنُ محمدٍ الأنصاريُّ ، جعلَ اللهُ عليه

عاجل جائزته ، مواصلة صالح العمل ، ومقاطعة كاذب الأمل ، والغنى عن الضَّراعة بالقناعة ، والتوفيقَ لتلقي أوامره بالسَّمع والطاعة ، وآجلها استقامتهُ على السِّراط المستقيم ، وإقامتهُ في جنان النّعيم المقيم ، وإدخاله برحمته في عباده الصالحين ، اللهم آمين »(١) .

انتقد الشاعر في النبوية المذكورة صرف الشعراء مدحهم إلى الملوك طمعاً بالإثابة والعطاء ، وطلب منهم أن يوجهوه في غير هذا السبيل المادي :

يا ناظمَ الدُرِّ الثمين ومهديَ النـ ظم الرصين لفاضلٍ أو مُفْضلِ
جانبْ مخادعة الملوكِ عن النُّهى فالمالُ يذهبُ والخصاصةُ تنجلي(٢)

كانت هذه النظرة المثالية في نفس الشاعر يوم كان في ريق صباه وريعان شبابه ، لكنه لم يصرف مديحه عن مخادعة الملوك كما ينصح غيره ، فلقد مدح بعضهم ، وخص بشعره منهم من رآه أهلاً له ، لا طمعاً في جاهه ، ولا سعياً وراء زخارف الدنيا ، وهو الذي كانت الملوك تراسله وتخطب وده . نذكر منهم الملك الناصر الذي كان يكاتبه ، ويضمن كتابه شعراً يمدحه به ، ويخطه بيده فقط دون سائر الرسالة ، وقد حدث أن احتجب الناصر مرة لأمر يهمه ، فعاتبه بقوله :

يا ملكاً تخضعُ الملوكُ لهُ إنْ غابَ عن دارها وإن حضَرا
قد حسدَتْ عينيَ الفؤادَ على قربكَ حتى أطالتِ السَّهرا
ولستُ أرضى لعدلِ مجدكَ أنْ يعطي نُضاراً ويمنعَ النَّظرا (٣)

توجد في الديوان مدح ناصرية كثيرة ، نذكر منها هذه المدحة التي تفنن الشاعر فيها ، فذكر نعوت المدح المعروفة من جود وحلم وبأس :

---

(١) ذيل مرآة الزمان (مخطوط) و ١٢٤ ، والملحق الاول من الديوان ص ٥٥٨ .
(٢) المصدر السابق ، و ١٢٤ ، والملحق الاول من الديوان ص ٥٦٠ .
(٣) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٣٧ ، والديوان ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .

بكَ افتخرَ الأملاكُ مــن آل أيوب وعندكَ نالوا في العُلا كــلَّ مطلوبِ
كفيتهمُ الأحداثَ طفــلاً ويافعــاً تبيــدُ عدّواً أو تجــودُ بموهوبِ
فكم مُلكِ جبــارٍ سلبتَ بجحفلٍ يوسّع بالإقدام ضنــكَ الأساليب
ودهياءَ في يــومٍ عصيبٍ أدْرتهــا على رأس مَلكٌ فيهِ بالتاجِ معصوبِ
برزتَ لنا يا يوسفُ بــنَ محمّــدٍ فخِلنا ابن أيّوبٍ بدا وابنَ يعقوبِ
جهادٌ الــى أهلِ المحاريبِ محسنٌ وحسنٌ بهِ تسبى الدُمى في المحاريبِ
وما عرفــتْ تركُ الأعــاجم ذلّــةً لغيرك مــذ حلــتْ بــلاد الأعاريبِ
جلالــةُ ملــكٍ في جمــالِ نبــوةٍ لأزهر مَرجّوِ العــواطفِ مرهــوب
لكَ اللهُ مــن ملــكٍ كريــمٍ مؤيدٍ من اللهِ محبــوٌ المهابــةِ محبــوبِ
تجولُ الأمــاني والمنــايا فتنتهــي الى أمرهِ في كــلٍّ بشــرٍ وتقطيبِ
نظمتُ الدراري فيكَ لاالدّرَّ مدحةً لانّكَ بحــرٌ زاخــرٌ بالأعــاجيبِ
وأرسلتُ مكتوبــي إليــك مسلّماً وبالرّغم مني أنْ بعثتُ بمكتوبي(١)

قصر شرف الدين جل مدحه على الملوك الأيوبيين الذين عاصرهم ، فهم في نظرة أعلــى ملوك الأرض مقداراً ، وقــد أشار إلــى هذا المعنى في مدح الملك الأمجد :

أعلــى ملــوكِ بنــي أيوبَ منزلــةً وهمْ أجــلُ ملــوكِ الأرض مقدارا
شهمُ الجنان اذا احمرَّ القنا دلفوا يدعون منهُ على الأعداءِ سوّارا(٣)(٢)

كان الشاعر في معظم الأحيان ينظم في المناسبات الخاصة كالتهنئة بدخول السنة الهجرية ، أو بحلول شهر رجب ، أو رمضان ، أو أحد العيدين ، أو بالعافية والشفاء من مرض ، أو بمولود ، أو بالعودة من غزاة (٤) .

---

(١) المصدر السابق ، ل ٧ ، والديوان ص ٧٧ .
(٢) المصدر السابق ، ل ٣١ ، والديوان ص ٢٠٤ .
(٣) السوّار الــذي يواثب نديمه اذا شرب وهو سوّار أي وثاب معــربد وهــو هنا الوثاب المقــدام .
(٤) المصدر السابق ، ل ٢١ ، ٤ ، ١٥ ، ٣٦ ، ١١ ، ٢٤ ، ٢٣ .

وكان أثيراً لدى الملوك الأيوبيين الذين مدحهم ، حتى إنه كان ينشد الملك المظفر بعض مدحه ، وهما راكبان في الموكب الملكي (١) .

ونراه في مدحه يصف حياتهم في حربهم وسلمهم ،نذكر من ذلك القصيدة التي مدح بها الملك المنصور ، ووصف ما يعانيه في الصيد رياضة ولهواً :

اكملتَ كلَّ المناقبْ ياخيرَ ماشٍ وراكبْ
تُسابقُ الوحشَ حتى تخالُه كالجنائبْ (٢)
وكم ضربت عليها من حلقة بالمقانبْ (٣)
جلبتَ فيها صنوف الأ ضدادِ ياخيرَ جالبْ
من خُمَّعٍ ونعامٍ وإيَّلٍ وقراهبْ
ومن وعولٍ تباري غزلانها والأرانبْ
وتُشغَلُ الأسدَ خوفاً عن افتراس الثعالبْ
يا من يُخافُ ويُرجى منهُ السَّطا والرغائبْ
لكَ الصفاتُ اللواتي لم يُحصِها عدُّ حاسبْ
كَملتَ مذْ كنت طفلاً وزِدْتَ بعدَ التجاربْ
حتى قهرتَ الأعادي بشأمِنا غيرَ هائبْ
وارتحتَ للصَّيد لهواً إذْ لم تجدْ من تحاربْ (٤)

كما كان الشاعر يضمن مدحه وصف الأحداث الكبرى ، فينوه بذكر انتصارات المسلمين على التتار في الوقائع الهامة التى حدثت في هذا العصر . نذكر من ذلك مثلاً قصيدته التي مدح بها الملك المنصور الثاني ، وقد أشار فيها إلى معركة عين جالوت المتهورة ،و جاء فيها فوله :

لك العُلا أعيت المبارينا تقرعُ منها الأبكار والعُونا
يا ملكاً لم تزلْ عزائمُهُ تكفُّ عنَّا الأذى وتكفينا
أنت المليك المنصورُ أشرفُ من فاقَ البرايا عزّاً وتمكينا

(١) المصدر السابق ، ل ٣٠ ، والديوان ص ٢٠٠ .

(٢) الجنائب : جمع جنيبة ، وهي الدابة التي تقاد الى جانب الفرس .

(٣) المقانب : جمع مقنب ، ويطلق على جماعة الخيل والفرسان .

(٤) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ١٠ ، والديوان ص ٩٥ - ٩٨ .

بعين جالوتَ خُضت بحر وغىً ... يخالُ فُلْكاً بالأسدِ مشحونا
وكُنت للجيش غُرةً شدخت ... أنوفَهم فانثنوا مهابينا
أخذتَ ثأر الإمامِ(١) إذ فتكوا ... بهِ وصالوا عليه عادينا
أذكرتهمْ ما صنعت قبلهمُ ... «بكتبغا»(٢) فانثنوا مُولّينا
وما نجا منهمْ سوى خبرٍ ... أسكن قازانَ خُبْرُه الصِّينا
ياناصر الدّين يا مُحمّدُ ما ... أوْلى بحمدٍ من ينصرُ الدّينا
تهنّ ما شئتَ من مدائحنا ... كما لنا منْ نداكَ ماشينا(٣)

ننتهي مما تقدم معنا من مدحه لنقول : إنها كانت تمثل الحياة السياسية في هذا العصر ، وكان كما يظهر يؤيد سياسة ملوكه ، ونقرهم على ما يراه أنه الحق ، ففي إحدى مدحه المظفرية ذكر نصرته للملك الصالح(٤) ، وفي مدحة أمجدية هنأ الملك الأمجد بقدومه عندما عاد الملك المعظم وشفي(٥) . يضاف الى ذلك أن مدحه تضمنت كما رأينا وصف الأحداث الكبرىوبخاصة منها الحروب المريرة ضد التتار ، ولا نعرف بين شعراء العصر من عبر عنها مثله . كما لاحظنا في بعض مدحه أنه كان يعرض عن ذكر النسيب(٦) ، وفي وفي بعضها الآخر كان يطيل نفسه فيها .

نسيب وغزل

أعجب الأقدمون بالرقة المتناهية في شعره ، وبخاصة منه مطالع النسيب وقصائد الغزل ومقطعاته الغنائية ، فهو ينهج في معانبه بشكل عام نهج غيره، بيد أنه لا يقتصر على اقتباس المعاني الشائعة منها ، وإنما كان يبتكر ويجدد

(١) الامام : خليفة بغداد العباسي المستعصم بالله الذي قتله التتار سنة ٦٥٦ هـ .
(٢) كتبغا : مقدم عساكر التتار وقد قتل في وقعة عين جالوت .
(٣) المصدر السابق ، ل ٨٢ ، والديوان ص ٤٧٤ — ٤٧٦ .
(٤) المصدر السابق ، ل ٦ ، والديوان ص ٧٢ .
(٥) المصدر السابق ، ل ٤ ، والديوان ص ٦١ .
(٦) المصدر السابق ، ل ٤ ، والديوان ص ٦١ .

في بعضها الآخر ، وبخاصة منهـــا ما يتعلق بتصنع التورية مذهب العصر في الشـام ومصر على السـواء .

تحدث عن خال وجنة الحبيب ، وعقارب الأصداغ ولبل الشعر .. كما وصف ذلة العاشق وبكاءه ، وصدود الحبيب وإعراضه ، وتجني الرقيب على المحب ، ولوم العاذل والكاشح والرقيب .

لاحظ ابن حجة هذه الطريقة التي تفرد بها في شعر الغزل والنسيب ، فأعجب به لسلوكه هذه الطريقة الغرامية التي اعتبرهـا جرياً على سنـة البلاغيين في التنويع مظهراً جديداً مبتكراً في البديع ، وقد أشار إليهـا في معرض حديثه عن الانسجام ، فعرفه تعريفاً واضحاً بقوله : « المراد من الانسجام أن يأتي لخلوه من العقادة كانسجام المـاء في انحداره ، ويكـاد لسهولة تركيبه وعذوبة ألفاظه أن يسيل رقة ، ولعمري إن طيور القلوب ما برحت على أفنــان هذا النوع واقعة ، وبمحاسنه الفضة بين الأوراق ساجعة . وأهل الطريق الغرامية هم بدور مطالعـه وسكان مرابعه ، فإنهم ما أنقلوا كاهل سهولته بنوع من أنواع البديع ، اللهم إلا أن يأتي في ضمن السهولة من غير قصد. وغالب شعر الشيخ شرف الدين عبدالعزيز الأنصاري ماش على هذا التقرير (١) » .

اعتنق الشاعر في طريقته الغرامية غزلها ونسيبها مذهب الانسجام في معظم شعره ، وتجلت عبقريته في هيكل القصيدة العام ، وفي أبياتها التي تكاد تذوب رقة ، وتنطق بخفة الوزن وحلاوة الجرس الموسيقي ، فقـد كان يحاول دوماً أن يختار لها البحر المجزوء والقافية الراقصة التي كانت لاتنسجم مع ما عرف به من سمت ووقار في حياته الرسمية . يظهر أنـه كان يشعر بذنبه في استرساله متغزلا ، لكن شيطان شعره يطغى عليـه ويندم حين لا ينفع الندم ، وحين يجد أمامه قصيدة جميلة ، يعز عليه أن

(١) ابن حجـة : الخـزانة ، ص ١٩٠ .

يقذف بها في زوايا الاهمال ، ويعزيه الشفاعة وخلاصة في يوم بعثه كما في القصيده الغزلية التي نظمها على وزن قصيدة للقاضي الفاضل :

لعبني كلّ يوم منه عبرة ... تصيّرني لأهل العشق عبرة
فعسجد جفنها لا نقص فيه ... وكم جهّزت منه جيش عسرة(١)
إذا غفل الوشاة أسلت دمعي ... فيغدو مرسلاً في وقت فترة
علامة سقوتي في الحب أني ... نقلت عليك لا عن طول عشرة
فوتر الوصل لم يشفع بشان ... وهجرك مرة في إثر مرة
وجفنك أكحل من غير كحل ... وخدك أحمر من غير حمرة
وصبري فبك ليس له وجود ... ووجدي منك لا أحصيه كثرة
سألزم باب خمّار الثنايا ... ليطلق لى ، ولو في العمر سكرة
وقدماً كنت مستوراً إلى أن ... لبست من الخلاعة ثوب شهرة
أطعت غوايتي وعصيت رشد ال ... مناصح كرة من بعد كرة
وما تنقى من الأدناس نفسي ... ولو غسلت بصابون المعرة
وأعجب حادثات الدهر أني ... أحاول طاعة فتعود حسرة
وأطمع في خلاصي يوم بعثي ... وما أخلصت في مثقال ذرة(٢)

جمعت هذه القصيدة الغزلية بين سحر المعانى وجمال الأسلوب : فأما في المعاني فقد رأيناه يتحدث عن العبرات والوصال والهجران ، وصور محاسن الحبيب ، وخلص إلى التحدث عن ضلاله في هواه ، ولزومه باب خمار ثناياه ورجائه في الخلاص يوم النشور ، وأما في اسلوبه فقد أخذ من البديع محاسنه ، وجمع فيه من التورية والانسجام أوفر نصيب ، وطبع كل ذلك بطابعه الخاص ، ورمز في أسلوب التورية إلى جيش العسرة ، والمرسل في غير فترة ، وباب خمار الثنايا ، وصابون المعرة .

---

(١) وفي حديث عثمان أنه جهز جيش العسرة ، هو جيش غزوة تبوك ، سمي بها لانه ندب الناس الى الغزو في شدة القيظ ، وكان ذلك وقت ايناع الثمرة وطيب الظلال فعسّر ذلك عليهم وشقّ .

(٢) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الأنصاري ل ٣٧ ، ٣٨ ، والديوان ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

وما دام قد أضله شيطان هواه ، وطرق باب الخمار ، فلنستمع إليه يحدثنا عن جارته ربة الخالين التى حوت حسن البداوة وجمال الحضارة ، وذلك في مطلع نسيب مدحة مظفرية أنشده إياها وهما راكبان في الموكب الملكي :

لنا مِنْ ربةِ الخالين جاره ... تواصلُ تارةً وتصدُّ تارَه

تؤانسني وتنفرُ مِنْ قريبٍ ... وتعرضُ ثم تقبلُ في الحراره

وتُلعقني بما يحلى سُلوّي ... ولكن ليس في جوفي مرارَه

ومالي في الغرامِ بها شبيهٌ ... وليس لها نظيرٌ في النضارَه

وفي الوصفينِ مِنْ كَحَلٍ وكَحلٍ ... حَوَتْ حسنَ البداوةِ والحَضارَه

وفي خلخالِها خَرسٌ ولكنْ ... إذا أومأتْ تفهم بالإشاره

وقتلُ العمدِ قد قتلتْهُ علماً ... وما وَصلَتْ إلى بابِ الإجارَه (١)

وقالوا : قد خَسِرتَ الروحَ فيها ... فقلتُ : الرّبحُ في تلكَ الخسارَه

بأيسرِ نظرةٍ أسرتْ فؤادي ... كما نشأ اللهيبُ من الشرارَه

أطارتْ شملَ حسنِ الصبر عنّي ... بأحسنِ شملةٍ مِنْ فوقِ طارَه

شمّرتْ إزارها عنها فصدّتْ ... فقلتُ : تقدمي ودعي الشمارَه

أدرتْ على مُزرّرِها عناقي ... فبتُ ومِعصمي للبدرِ دارَه

إذا استسقى بريقتِها نديمٌ ... أزالت خَمْرُها عنه خُمارَه (٢)

نرى في المدحة المذكورة هذا المطلع الغزلي الرقيق ، فهو يحاول أن ينسج خيوط قصته مع جارته الحسناء ، وقل أن يجاريه فيها شعراء

---

(١) الاجارة : مشتقة من أجر يأجر ، وهو ما أعطيت من أجر في عمل ، وباب الاجارة أحد الابواب المعروفة فى الفقه وهو يسبق باب القتل ، وقد استخدم الشاعر بعض هذه المصطلحات الفقهية ، ولعله أراد الاشارة الى تمادي محبوبته في قتل محبوبها بالصد والهجران، دون أن تحاول الوقوف عند باب الاجارة تأكيداً لما في هذا الباب من منافع وذلك تشبيهاً وتمثيلاً وتورية .

(٢) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الأنصاري ، ل ٣٠ ، والديوان ص ٢٠٠ – ٢٠٣ .

الغزل المشهورون ، إذ نلاحظ أنه ينحو فيه منحى مادياً محضاً بأسلوبه الرشيق الشيق ، بما فيه من انسجام بديعي وتورية جميلة .

تلك هي قصة جارته المتخيلة في معرض النسب ، بيد أن للشاعر قصة قصيدتين ، وكانت النهاية فاجعة أليمة في حياة الشاعر ، لم يفطن أحد لها ممن عاصروه ، لكننا قرأنا قصتها في تضاعيف شعره : أما القصيدة الأولى فقد روى لنا قصة الجارية الحسناء التي عشقها ، وجاء فيها قوله :

سروري بساقيةٍ جاريَه ... ووجدي بجاريةٍ ساقيَه
أهزُّ بهانيكَ عِطفَ القريضِ ... ليَثني على هذه الثانيَه
سبتنيَ كاسيةٌ بالجمال ... فروحيَ عندي لها عاريَه
على الجسمِ حاكمةٌ بالضّنى ... وفي القلبِ آمرةٌ ناهيَه
تراني إذا لم أزر بنتَها ... كأنّيَ بيتٌ بلا قافيَه
تواصلني فأحوزُ المُنى ... وأجلسُ في الدّست والحاشيه
وتنأى فأجلسُ في مسجدي ... وحيداً وألتفُّ بالبارية (١)
ولمّا شكوتُ البها الجوى ... وعتهُ لها أذنٌ واعيَه
فقالت : بعينيَ هذا السّقامُ ... فقلتُ : على عينِكِ الواقيَه
أضاحكةَ السّنِ لو زرتِني ... عجبتِ لمقلتيَ الباكيَه
وإنّي ، وإن نالَ منّي الأذى ... معافىً إذا كُنتِ في عافيَه (٢)

نبضات جديدة من الغزل الرقيق سكب الشاعر فيه قلبه وروحه ، فابتعد عن التقليد الذي عرفناه في غزل هذا العصر ، ونلاحظ أن الشاعر كان يعاني تجربة حب حقيقية لجاريته مارية(٣) التي كان يحبها كثيرا . أما نهاية هذه القصة فقد اختتمت بغرقها في نهر العاصي ، فرثاها بقوله :

---

(١) البارية : أورد صاحب اللسان ذكر الباري والبارياء ، وفسرهما بالحصر المنسوج ، وهما من أصل فارسي معرب .

(٢) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٩٠ ، والديوان ص ٥٢٨ — ٥٣٠ .

(٣) عرفنا اسم هذه الجارية من أحد أبيات القصيدة المذكورة ، ولم يرد في الديوان ، وانما عثرنا عليه في ذيل مرآة الزمان (و ١٢٧) ، والملحق الاول من الديوان ص ٥٢٩ .

وجـــاريةٍ مـُـــذْ تعلّقتُهـــــا (١) نبَذَتْ إليهـا جميـعَ العِلَـقْ (٢)
تملكتُهـــــــا فاعتـــــراني لهـــــا غـــرامٌ تملّكنــــي فاسْتـــرَقْ
وقـد كنـتُ أغـــرَقُ حبّهـــا وما كنتُ أخشى عليهـا الغَــرقْ
وكنـتُ أخافُ عليهـــا العيــونَ فقد حقّــقَ النّهرَ ذاك الفَرَقْ (٣)

استخدم الشاعر في أغزالـه الأبحر القصيرة أو المجزوءة التى تشـير في القصيدة جرساً ناعماً ، وكــان يختار لها القوافي المستساغة التـي تولد في النفس النشوة والارتياح ، وتهزها هزة النمل والطرب ، ومن خلال الأوزان والفوافي يسير الشاعر بخطاه الحثيثة نحـو الانسجام المنشـود في شعره ، ويبلغ ذروة نضجه الفني المشفوع بالذاتية والطبع السليم كمافيهذه القصيدة الغنائية ذات الوزن الراقص :

رفقـــاً بروحـــي فهـــيَ لـكْ وعلـى السخـــيّ بمـا مَلـــكْ
أفضـلْ بحـقّ مـــن اصطفـــا كَ علـــى المـــلاحِ وفضّلـــكْ
وكـــأنّ ربّــــك في الجمــــا لِ علـــى اقتـــراحي مثّلـــكْ
أحظـــاكَ مِنْــــهُ بمنصـــبِ ســـــوّاكَ فيـــهِ وعدّلـــكْ
مَـــنْ فــــرّ مِـــنْ ذلّ السـؤا لِ فعـــزّتـــي أن أسألـــكْ
إن تحـــمِ طرفـــي أنْ يــرا كَ جعلـــتُ قلبـــي منزلـــكْ
إنّـــــي أغــــارُ إذا الأرا كُ (٤) دنـا إليـــكَ فقبّلـــكْ
ويـرُوعنـي واشي النّســـ ـيم إذا ثنـــاكَ وميّلـــكْ
مـا أقبـــحَ الصّبـــرَ الجميـــ ـلَ بعاشقيـكَ وأجملـــكْ ! (٥)

---

(١) تعلّقتها : تعلّقها وتعلّق بهـا أي أحبهـا .
(٢) العِلَق : العِلْق والعِلْقة الثوب النفيس يكون للرجل ، والعلقة قميص بلا كمين . والعلقة للصدرة تلبسها الجارية تبتذل بها وتجمع قياساً على عِلَق .
(٣) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الأنصاري ، ل ٦٢ ، والديوان ص ٣٧٤ .
(٤) الأراك شجر من الحمض يستاك به ، وهو شجر السواك . قال أبو حنيفة : هـ أفضل ما استيك بفرعه من الشجر وأطيب ما رعته الماشية رائحة لبن .
(٥) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الأنصاري ، ل ٦٣ ، والديوان ص ٣٧٨ .

تنبض هذه الغزلية الغنائية بالعاطفة الصادقة والشعور الفياض،وتتسم بالرقة المتناهية التي عرف بها شعره ، ونلمح فيها مظاهر الانسجام بين اللفظ والمعنى من ناحية ، والوزن والقافية ، من ناحية أخرى حتى ليشعر الإنسان وهو يتلوها بإيقاع الجرس الشعري العذب ينساب من خلال حروفها وكلماتها وأبياتها . وهي بالتالي تعبر عن نفسية الشاعر الحقيقية التي تنبض من خلالها ، وهي تختلف عن نفسية شرف الدين الوزير الكبير المعروف في كل الأوساط بالسمت والوقار . مهما احتجبت النفس الإنسانية ، فلا بد لها حين تجد أمامها متنفساً أن تعرى على حقيقتها في حميّا الأهواء ، وحينئذ لا يحجبها عن العاطفة الحقيقية منصب أو سلطان أو زهد أو ورع ، كما في هذه المقطوعة التي يقول فيها :

أبعدتَه وهو القريبُ	وجفوتَه وهو الحبيبُ
فغدا غريباً وانفردْ	تُ بشوقه فأنا الغريبُ
يا مَنْ به دائي يُطْ	بُ ومن به عيشي يطيبُ
خذ ما تشاءُ من السرو	رِ فليس لي فيه نصيبُ (١)

يؤكد ما نذهب إليه أنه كان يحضر مجالس الغناء الملكية ، وقد غُني مرة بين يديه لحن فأعجبه ، فنظم قصيدة على وزنه ، مطلعها قوله :

لا بدّ لي منهمْ وَفَوْا أو لم يَفُوا	أو بَخِلُوا بالوصلِ أو تعطّفُوا (٢)

يظهر أن شعره كان ينشد في حلقات المتصوفة،ويغنى في مجالس الطرب، وكان يكرر في شعره بعض الألفاظ التي يتخذها المغنون تكأة لازمة لهم في أغنياتهم ، نذكر من ذلك قوله في قصيدة ، وقد ضمن البيت المجزوء الأخير لفظة الليل أربع مرات ، يبدأ ليلته الأولى بابتداء غايته الزمانية في (من)

---

(١) المصدر السابق ، ل ٧ ، والديوان ص ٧٩ ، ٨٠ .

(٢) المصدر السابق ، ل ٥٦ ، والديوان ص ٣٤٢ .

الجارة ، ويطيب سمره ولهوه ، فلا تأخذه سنة ولا نوم ، ويصل الليلة بالليلة بـ (إلى) الجارة ، فلا يصحو إلا بعد انقضاء رابعة لياليه الأنصارية .

غرامي فيكَ لا يُحصى ... بميزان ولا كيلِ
وأما دمعُ أجفاني ... فلا تسألْ عن السيّلِ
وما أنسَ فلا أنسى ... مراحي ساحباً ذيلي
وإجلابي على اللذّا ... تِ بالرَّجلِ وبالخيلِ
من الليلِ الى الليلِ ... إلى الليلِ إلى الليلِ (١)

ولا بأس أن نقف عند قوله في قصيدة له تتميز بالرقة وبصف فيها أغزاله التي تغنيه عن ألحان الدُّف والمزمار ، ولعل في ذكرهما ما يؤكد لنا رأينا السابق في مجالس الطرب والغناء في هذا العصر وعلاقة الشاعر بذلك :

رعاكَ اللهَ يا إلفي ... وإن بالغتَ في عسفي
أما تذكرُ إذ كفُّـ ... ـكَ يومَ الجزعِ في كفي
وما أنس فلا أنسى ... زمان اللهو والقصفِ
وإذْ عطفُكَ مختال ... وميّالٌ على عِطفي
وإذ يسكرني ريقُـ ... ـكَ من خمرته الصِّرْفِ
وإذ خدُّك قد زانتْـ ... ـه إذ زاد على الوصفِ
وأغزاليَ تُغنيني ... عن المِزمارِ والدُّفِّ
وقد أصبحتُ لا أبصـ ... ـرُ قدّامي ولا خلْفي
فوالهفي إذا لم يُغـ ... ـنني قوليَ : والهفي (٢)

يزداد الشاعر رقة في بعض مقطوعاته الغزلية حتى يصل بها إلى درجة من اللين ، تغدو أقرب ما تكون إلى الأسلوب العامي :

---

(١) المصدر السابق ، ل ٧٢ ، والديوان ص ٤٢٣ .
(٢) المصدر السابق ، ل ٦٦ ، والديوان ص ٣٩٩ .

لا وفقَتْ بنتُ الخميصيةْ دانيةَ الدّار ومقصيّهْ
صوفيّةُ المذهبِ لكنّها ناعمةُ الجسمِ حريريّةْ(١)

آنس الشاعر في أغزاله هذه الرقة المتناهية التي طبع عليها والتي نغنيه عن المزمار والدّف ، وقد صرح بها عرضاً في بيتين :

جُدْ لي بها ، يا سيّدي ، حلّةً تحلي بها عاطلَ أحوالي
أرقّ من قلبي ومن عبرتي وخدِّ محبوبي وأغزالي (٢)

وجاء في قصيدة أخرى قوله :

أقسمت ما خدُّهُ الفاني منَ الخجلِ أرقّ من دمعيَ الجاري ولا غزلي (٣)

نلاحظ أنه يعترف بهذه الرقة المتناهية ، فهو إذن يتعمدها تصنعاً ، على الرغم من أنها موجودة في شعره طبعاً ، وهذه الصفة هي التي أهلته ليكون رائد شعراء عصره في مذهب التورية والانسجام . وسنوضح أهميته في حديثنا عن مذهبه الفني .

الزهديات

في ديوان الشاعر مقطوعات وأراجيز وقصائد قالها في الزهد ، وهو الغرض الحقيقي الذي ينسجم مع لقبه شيخ الشيوخ ، ولكنه لم يكن الاصل في شعره ، وإنما كان استغفاراً وإنابة لما قاله في حياته من أغزال رقيقة حتى إن أباه استغفر له ربه حينما سمع غزلاً له يوري فيه بأسماء بعض سور القرآن فختمه ببيت فيه التشفع .

لا شك أن الشاعر في زهدياته كان يعاني صراعاً نفسياً عميقاً لأنه لم يستطع أن يكبح جماح نفسه التي تصبو للحب والجمال فتغزل بعد أن تجاوز الخمسين بفتيات في الخامسة عشرة :

---

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الأنصاري ، ل ٧٢ ، والديوان ص ٤٢٣ ، ٤٢٤ .
(٢) المصدر السابق ، ل ٣٥ ، والديوان ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ .
(٣) المصدر السابق ، ل ٩٠ ، والديوان ص ٥٢٥ .

جاوزت خمسين ولي صبوة   إلى بنات العشر والخمس
تقولُ نفسي كلما لمتُها   ما أقرب اليوم من الأمس (١)

كما انه تطرق لبعض المعاني التي خرجت عن المألوف في الأغزال ، فمن حقه إذاً أن يقول الشعر في الزهد ، ومن حقه إذاً أن يتشفع لنفسه بعد أن تشفع له أبوه من قبل ، فيقول متزهداً :

أين القلوبُ الرواجفُ ؟   أين الدموعُ الذّوارفُ ؟
على ارتكاب ذنوبٍ   لم يحصِها وصفُ واصفُ
وقَطْعِ أيام عُمْرٍ   مِثل البروق الخواطفُ
وخوفِ أهوال حشرٍ   تفوتُ كلَّ المخاوفُ
فابكِ الدماءَ إلى أنْ   تخالِ جفنكَ راعفُ
وارغب إلى الله تظفرْ   مِنْ برِّه بلطائفْ
وازهدْ بقلبِك فيما   عهدتَكَ له آلفُ
ولا تموتنْ قُنوطاً   فلِلإلهِ عواطفُ (٢)

إن رجاءه كبير في العفو والغفران ، فإن للاله عواطف شاملة ، ولذلك لم يقنطمن الرحمة لارتكابه ذنوباً كثيرة لم يحصها وصف واصف . فهو يطلب منا أولا أن نبكي دماً تكفيراً ، ثم نتبع البكاء زاهدين في كل ما ألفناه وأحببناه وحينئذ يمكننا أن نظفر من ربنا بلطائف بره .

والزهد عند الشاعر ليس مقصوراً على ما ذكره في القصيدة السابقة وإنما يعتمد على قطع الانسان كل علاقة له بالحياةالدنيا والاعراض عن مغريانها وزخارفها ، ذلك لأنها فاسدة مفسدة أضلت بنيها ، ومصيرها الفناء والموت:

المجدُ مشدودُ الأواخي(٣)   فانهضْ له ودع التراخي

---

(١) الديوان ص ٢٦٥ .

(٢) الديوان ص ٢٤٤ – ٢٤٦ .

(٣) الأواخي : جمع الأخية ، وهي عود في حائط أو في حبل يدفن طرفه في الأرض ، ويبرز طرفه كالحلقه تشد فيها الدابة . والأخية أيضاً الحرمة والذمة . تقول مثلا : لفلان أواخيّ وأسباب ترعى . وله عندي أخية اي ماتة قوية ووسيلة قريبة .

لا تُشغَلَنَّ عـــن الترحُّـــــــ ـــل بالسكون إلـــى المُنـــــاخ
وتَـرحَّ مـــن عَرَضِ الدنيـــا بالقُــرْصَ والمـــاء النقـــاخ
ثبْ عـن زخارفهــــا وصُنْ عَقْـدَ الثبـــات عن انفســـاخ
والمـــوت وصف جـــامع بـين القشـاعم والفــــراخ
فســدَ الزمـانُ وأهـلُـهُ فاختـر لنفســك من تؤاخـي
وإذا رجـوت سـوى الإلـه أضعْتَ بَذْرَك في السِّبـاخ(١) (٢)

وجدير بالذكر هنا أن قصائد قافية الخاء كلها في باب الزهديات يضاف الى ذلك القصائد والمقطوعات الأخرى الموجودة في الديوان ، فهل يعني هذا أن هذا الغرض لا يحتاج كالغزل إلى الرقة في الروي والقافيــة ، وحرف الخاء ليس من الروي المستساغ ، ولذلك ملأه الشاعر بقصائد زهـدية تنسجم في التقشف مع هذا الروي ذي المركب الخشن والموسيقى الثقيلة .

يقترن الغزل عنده بالزهد أحياناً ، وقد عرفنا في زهد أبي العتاهيـة النورة على كل غزل ، وعرفنا في زهد أبي العلاء فلسفة الحياة الانسانية ، ولكننا لا نعرف بين الشعراء مثله من جمع الغزل والزهد في مقطوعة واحدة، فمن ذلك قوله في جارية له اسمها مارية :

أوقعني في قيـــد أسرِ الهـــوى جـاريـةٌ أوصـافُهـا جامعـَهْ
ثالثـةُ البـدريـنِ في حُسنِهـا مَعْ أنَّهـا في نُسكِهـا رابعَهْ
كم جَنَّنَتْ قلبيَ في حبِّهـا فليتَهـا كانتْ لـه تابعَـهْ
يارِبِّ غفْـراً عن ذُنوبي فلي نفسٌ على أهـوائهـا نـازعِـهْ
إنْ ضيَّقَ الدهـرُ خِنـاقي فما تَضيقُ بي رحمتُـك الواسعَـهْ (٣)

ولعلنا لاحظنا مذهب الشاعر في التورية في رابعة العدوية ، المتصوفة الناسكة ، واختيار اسم هذه المتصوفة والتورية بها ينسجم مـع ختـام

(١) السباخ : جمع سبَخَة ، وهي الأرض التي تعلوها الملوحة ولا تكاد تنبت الا بعض الشجر . وقيل : هي الأرض ذات نزّ وملـح .
(٢) الديوان ص ١٤٥ .
(٣) الديوان ص ٣١٢ .

القصيدة في نداء الله ليغفر له الذنوب ، ولكنه لا ييأس من روح الله ، وإن ضيق الدهر بخناقه ، فرحمته أبداً واسعة ، يستجيب فيها دعوة الداعي إذا دعاه .

(٣)

مذهبه الفني

استخدم الشاعر في طرائق تعبيره كثيراً من الأساليب البلاغية المستجدة في هذا العصر ، بيد انه تفرد دون غيره بسلوك مذهب بلاغي معين في تصنعه البديعي ، فأبدع فيه كل الإبداع ، وقد اعجب الأدباء المعاصرون بهذا الاتجاه الجديد الذي يسير جنباً إلى جنب مع الاتجاه الذي بدت تباشيره قبيل ذلك في مصر على يد القاضي الفاضل وجماعته من بعده ، فنهجوا نهجه ، واقتدوا به ، وتداولوا معانيه ، ولا نبالغ إن قلنا إن معظم شعراء النصف الثاني من القرن السابع الهجري كانوا من تلاميذه ، فاستمدوا منه كثيراً من معانيهم الشعرية فكانوا عالة عليه .

نوه الصفدي بعبقرية الشرف الأنصاري ، واعجب بمذهبه الشعري ، واشار إلى أهميته كأكبر شاعر عرفته بلاد الشام كما اجمع على ذلك معاصروه ، ومما قاله : « لا أعرف في شعراء الشام بعد الخمسمائة وقبلها من نظم احسن من شرف الدين ، ولا اجزل ، ولا أفصح ، ولا أصنع ، ولا اسرى ، ولا أكثر ، وما رأيت له شيئاً إلا وعلقته ، لما فيه من النكت والتورية الفائقة ، والقوافي المتمكنة ، والتركيب العذب ، واللفظ الفصيح ، والمعنى البليغ (١) » .

---

(١) ابن شاكر : فوات الوفيات ، ج ١ ص ٢٧٩ .

يلاحظ أن الشاعر أكثر من تصنع التورية في شعره ، وهي لباب مذهبه الفني ، فهو لا يكتفي بايرادها مره واحدة ، وإنما يكثر من ذكرها ما وسع إلى ذلك سبيلا ، فهو رائد المذهب الرمزي في أدبنا العربى خلال هذا العصر في بلاد الشام ، نذكر من ذلك التورية في رابعة العدوية :

أوقعني في قيدِ اسرَ الهوى — جاريةٌ أوصافها جامعهْ
ثالثةُ البدرين في حسنها — مع انّها في نُسكها رابعهْ (١)

وكنا اشرنا بالتفصيل إلى ما في شعره من توريات ، ونكتفي منها بهذا القدر ، فهى منتشرة فيه كل الانتشار ، وقد عرف بين الأقدمين بهذه الصفة المميزة . ويلاحظ من طرف آخر أن الشاعر حاول ان يوسع مدى التصنع البديعي في باب التورية ، فلم يقتصر منها على ما عرفه البلاغيون ، وإنما كان يحاول أن يوري بغير الألفاظ ، وذلك عن طريق عبثه اللفظى بالكلمات والحروف ، والشواهد على ذلك كثيرة ، نذكر منها قوله وقد انشد الملك المنصور من شعر المتنبى بعضه :

(تملك الحمد حتى مالمفتخر — في الحمد حاء ولا ميم ولا دال)

فعقب على ذلك بقوله :

يا أيها الملكُ المنصورُ ياملكاً — أوصافُه كاملاتٌ وهي أصنافُ
رفَقتَ بالخلقِ حتى مالذي ورَعٍ — في الرِّفقِ : راءٌ ولا فاءٌ ولا كافُ
وفُزتَ بالمُلكِ حتى مالذي شرف — في الملكِ : ميمٌ ولا لامٌ ولا كافُ
وكم كتائبَ رُعتَ المارقينَ بها — فيهنَ من الفاتِ الخطِّ آلافُ (٢)

انتشرت هذه الصفة كثيراً في شعره ، وغدت مظهراً مميزاً من مظاهر مذهبه الفني ، نذكر من ذلك قوله يعبث بلفظه « شرخ » :

---

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الأنصارى ، ل ٥١ ، والديوان ٣١٢ .
(٢) المصدر السابق ، ل ٥٥ ، والديوان ص ٣٤٤ .

وقد خانني شرخُ الشَّباب وراعني مشيبٌ،وحالي منهُ شرخٌ بلا خاء(١)

وقوله يعبث باسم ممدوحه « يوسف » الملك الناصر :

يُسمَّى فيُعزى كلُّ مجدٍ وسؤددٍ إلى يائه والواوَ والسينِ والفاءِ (٢)

وقوله يعبث بلفظتي « الحب » و « الحس » :

فلو أصبحتَ ذا حاءٍ وسين لما عنَّفتَ في حاءٍ وباءٍ (٣)

كما نلاحظ بالإضافة إلى ذلك استخدامه التورية بالاصطلاحات النحوية، نذكر من ذلك قوله :

ومُعرَبِ اللفظ لي من نحوه أبداً حذفٌ وصرفٌ وإعلالٌ وتنكيرُ
ولحظُهُ ساكنٌ والقدُّ منتصبٌ والقرطُ مرتفعٌ والمِرْطُ مجرورُ(٤)

وقوله :

لا تسألوا صبَّكم عن حبّه فلهُ من الإضافةِ مايغني عن النَّسبِ
وراقبوا منه حالا غيرَ حائلةٍ كما عهدتم وقلباً غيرَ منقلبِ (٥)

كثرت المصطلحات النحوية وغيرها كثرة ظاهرة ، فقد استخدم معانيها ، لا كما وضعت لها ، وإنما استخدمها بحسب مفهومه الخاص كمظهر من الرمز والإيحاء ، من ذلك قوله :

مديحٌ نخيَّرتُ القوافي محلّياً به رفعها والنَّصبَ والجزمَ والجرا(٦)

وقوله :

رفعتَ ذوي الإعراب من بعدِ خفضهمْ فأثنى عليكَ الرفعُ والنَّصبُ والجر(٧)

---

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٣٣ ، والديوان ص ٥٠ .
(٢) المصدر السابق ، ل ٢ ، والديوان ص ٥٢ .
(٣) المصدر السابق ، ل ٤ ، والديوان ص ٥٥ .
(٤) المصدر السابق ، ل ٢ ، والديوان ص ٢١٥ ، ٢١٦ .
(٥) المصدر السابق ، ل ١٠ ، والديوان ص ٩٢ .
(٦) المصدر السابق ، ل ٣٠ ، والديوان ص ١٩٩ .
(٧) المصدر السابق ، ل ٣٦ ، والديوان ص ٢٢٨ .

وقوله :

إذا فاعلٌ رامَ ارتفاعاً بفعلهِ ففعلك مرفوعٌ بأنَّكَ فاعلُهْ (١)

ولم يكتف بذلك بل كان يحاول استخدام بعض المصطلحات العروضية أو البديعية منها قوله :

وبحرٌ طويلُ الباعِ منسرحُ النَّدى بسيطُ المعالي وافرُ الفضلِ كاملُه(٢)

وقوله :

وَوَشَّتْ يدُ الأنواءِ بُرْدَ رياضهِ بغرائبِ التَّوشيع(٣) والتَّفويفِ (٤)

يضاف إلى ما تقدم ذكره وجود الجرس الموسيقي الشعري في قصائده ، وقد رأينا أن الشاعر قد صرح برقة أغزاله ، ومصدر هذه الرقة في نظرنا حسن اختياره الألفاظ الجميلة المعبرة ، والقوافي ذوات الروي الموحي ، والأوزان القصيرة او المجزوءه التي تلائم اغراضه ومعانيه . ذلك كله مع ما لاحظناه من تصنع بديعي يؤلف الانسجام في مذهبه الفني ، وقد أشار إلى هذه الصفة من خلال قوله :

واسمعْ بديعَ نظيمٍ لا يساجلُهُ جزلٌ من المدحِ في سهلٍ من الغزَل (٥)

يتضح مما أسلفنا ان الشرف الأنصاري كان رائد الشعراء الأول في مذهب التورية والانسجام ، وقد أشار ابن حجة في خزانته إلى الفرقتين اللتين اعتنقتا هذا المذهب في مصر والشام على السواء .

أما الفرقة الأولى فهي «العصابة التي مشت تحت العصائب الفاضلية» (٦) بزعامة القاضي الفاضل ، ومن روادها الأوائل ابن سناء الملك ، وأبو الحسين

---

(١) المصدر السابق ، ل ٦٧ ، والديوان ص ٤٠٤ .

(٢) المصدر السابق ، ل ٦٨ ، والديوان ص ٤٠٥ .

(٣) التوشيع : وشّع الثوب أعلمه وتوشيع الثوب أعلامه . التفويف : يقال ثوب مفوّف أي رقيق أو فيه خطوط بيض .

(٤) المصدر السابق ، ل ٥٤ ، والديوان ص ٣٢١ .

(٥) المصدر السابق ، ل ٦٧ ، والديوان ص ٤٠٣ .

(٦) ابن حجة : الخزانة ، ص ٢٧٦ .

الجزار ، والسراج الوراق ، والنصير الحمامي ، وشمس الدين بن دانيال ، ومحيي الدين بن عبد الظاهر . وأما الفرقة الثانية الشامية « فإمام جماعتها الشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصاري شيخ شيوخ حماة » (١) ، وكان من روادها أبرز شعراء النصف الثاني من القرن السابع وهم كلهم من تلامذته ، ساروا في الطريق التي سبقهم فيها .

أورد ابن حجة ذكرهم فقال : « وجاء من شعراء الشام جماعة تأخر عصرهم ، وتأزر نصرهم ، ولان في هذا النوع هصرهم ، وبعد حصرهم فيما أرادوه كما ذاد حصرهم ، كل ناظم تود الشعرى لو كانت له شعراً ، ويود الصبح لو كان له طرساً ، والغسق مداداً ، والنثرة (٢) نثراً . منهم شرف الدين عبد العزيز الأنصاري ، والأمير مجير الدين بن تميم ، وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي ، ومحيي الدين بن قرناص ، وشمس الدين محمد بن العفيف ، وسيف الدين بن المشد .... » (٣)

ذكرني قول ابن حجة : « كل ناظم تود الشعرى لو كانت له شعراً » بقوله شرف الدين نفسه في وصف شعره :

زيَّنْتُ مِنْ فكري سماءَ العُلا منكَ بشعرٍ يُخجلُ الشِّعْرى (٤)

ولا يكتفي الشاعر من وصف فنه الشعري بأنه يخجل الشعرى فحسب وإنما يرى أنه يزهد البحر بأبهى جواهره :

ولي قصائدُ في مدحيهِ باهرةٌ تُزهِّدُ البحرَ في أبهى جواهرِه (٥)

غدت هذه القصائد المدبجة عرائس تجل عن نظرائها إذ توشحت بجواهر التورية :

---

(١) ابن حجة : الخزانة ، ص ٢٧٦ .

(٢) النَّثْرة : نجم من نجوم الأسد ينزلها القمر . وفي التهذيب كوكب في السماء كأنه لطخ سحاب خيال كوكبين تسميه العرب نثرة الأسد وهي من منازل القمر ، وهي في علم النجوم من برج السرطان .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٤ .

(٤) مصورة مخطوطه ديوان الشرف الانصارى ، ل ٣٨ ، والديوان ص ٢٣٨ .

(٥) المصدر السابق ، ل ٣٩ ، والديوان ص ٢٤٦ .

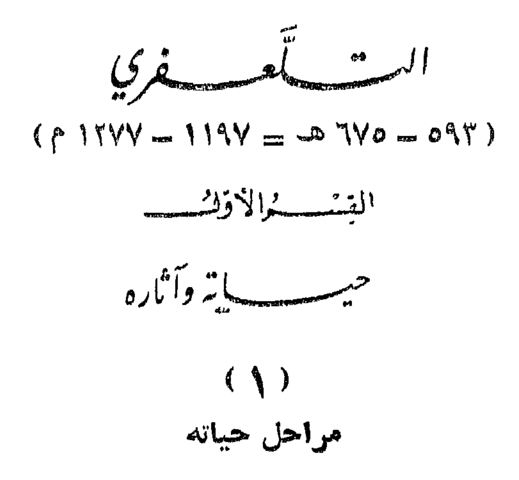
أجلو عرائسَ مدحهِ فتَجِلُ عن نظرائها إذْ جلَّ عن نظرائهِ (١)

تتضح بعد ذلك أهمية هذا الشاعر في عصره ، وننتهي مما أسلفنا لنذكر أنه كان ذا طبع سليم ونهج قويم ، وقد اتخذ من الانسجام سبيله ومن التورية وكده ، فأصبح صاحب مذهب أدبي هام ، يشيع السحر اللفظي والجمال المعنوي دون تكليف ذميم أو تعسف ممقوت ، واستطاع بعبقريته ومهارته الفنية أن يبعد التعقيد والإغراب عن الشعر العربي في هذا العصر بعد أن طغت عليه أساليب الصنعة والتصنيع والتصنع ، وهذا هو وحده السبب الذي جعله موضع إعجاب القدماء وتقديرهم . فقدموه على من جاء قبله ، ومن جاء بعده من شعراء هذا العصر البديعي (٢) كما يقول المرحوم استاذنا التنوخي .

---

(١) المصدر السابق ، ل ٣ ، والديوان ص ٥٨ .

(٢) انظر البحث الهام الذي تحدث فيه المرحوم الأستاذ عز الدين التنوخي عن عصر التورية وجمالها في هامش الايضاح (ج ١ ص ٩٤ – ٩٩) .



التلعفري

(٥٩٣ - ٦٧٥ هـ = ١١٩٧ - ١٢٧٧ م)

القسم الأول

حياته وآثاره

(١)

مراحل حياته

ولد الشاعر المقامر ، شهاب الدين ، أبو المكارم ، محمد بن يوسف بن مسعود بن بركة الشيباني (١) بالموصل سنة ٥٩٣ هـ ، ولقب بالتلعفري نسبة إلى تل أعفر (٢) ، وهو موضع جميل يقع بين سنجار والموصل .

اختلف في ضبط نسبة اسم الشاعر ، فالمعروف أنها بفتح أوله واللام المشددة ، ولكن السيوطي صاحب (لب اللباب) أورد ضبطه بفتح التاء واللام المخففة .

---

(١) ابن شاكر : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ٣٤٥ ، وابن الوردي : تتمة المختصر ج ٢ ، ص ٢٢٤ ، وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٥٥ ، والدلجي : الفلاكة والمفلوكون ، ص ٦٥ ، وابن العماد : شذرات الذهب ج ٥ ، ص ٣٤٩ ، وبروكلمان : Brock I : 300 (257) SI'458 والزركلي : الأعلام ، ج ٨ ، ص ٢٥ ، وياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٣٩ .

(٢) ذكر ياقوت أن عامة الناس تقول : (تل أعفر) ، وأن خواصهم يقولون : (تل يعفر) . وقيل : انما أصله (التل الأعفر) للونه ، فغير بكثرة الاستعمال وطلب الخفة ، وهو اسم ربض بين سنجار والموصل ، وفي وسط واد فيه نهر جار ، وهي على جبل منفرد ، حصينة محكمة ، وفي ماء نهرها عذوبة ، وبها نخل كثير . (معجم البلدان ج ٢ ، ص ٣٩) .

لا نعرف شيئاً عن أسرة الشاعر ، كما لا نستطيع أن نتبين من خلال شعره ما يوضح لنا طفولته وصباه وشبابه ، إذ إن ديوانه لا يحوي من مدحه الكثيرة التى قالها في حياته إلا على مطالع النسيب ، حتى إنه لم يذكر بيت التخلص إلا في أربع منها . يمكن القول هنا انه ينحدر من سلالة أسره شيعية تمت بأصولها إلى شيبان من ثعلبة ، وهي قبيلة عربية عدنانية من عرب الشمال .

ثقف علومه الأولى في الموصل ، ونال قسطه الوافر من الثقافة والأدب بيد أنه ترك الموصل في مطلع شبابه ، وتوجه إلى بلاد الشام ، وأخذ يمدح فيها الملوك والأعيان ، وهو بعد لم يتجاوز العشرين من عمره ، ومما يؤكد لنا ذلك أن ياقوتاً الحموي أشار إلى ذكره في معرض حديثه عن بلدة تل أعفر ، وذكر أنه شاعر عصره ، وأنه مجيد (١) ، وهو بعد لم يتجاوز الثلاثين من عمره ، فالمعروف أن ياقوتا الحموي توفي سنة ٦٢٦ هـ ، وأنه شرع في تبييض معجمه قبل وفاته بعام واحد وكان التلعفري آنئذ في الثانية والثلاثين من عمره ، وهذا يعني أن شهرته كانت في أوجها .

ذكر ابن تغري بردي أنه كان متقدماً بارعاً في الأدب وأنه « كان أديباً فاضلا حافظاً للاشعار وأيام العرب وأخبارها » (٢) .

لم يذكر الذين ترجموا له شيئاً عن علاقته بصاحب حلب الملك العزيز محمد بن الظاهر غازي الذي تولى الحكم في المده الواقعة بين سنتي ٦١٣ ــ ٦٣٤ هـ ، وقد عثرت في ديوان الشاعر على مطالع نسيب قصيدتين ، استدللت من بيتى التخلص أنه مدحه بهما ، ويتضح من النسيب الذي استهلهما به أنه كان يعتمد في شعره على التقليد خلال هذه المرحلة المبكره من حياته . وأغلب الظن عندي أنه لم يقم في دمشق إلا بعد وفاة الملك العزيز ، فقد انتقل إليها من حلب ، ومدح صاحبها الملك الأشرف موسى

---

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٢ ص ٣٩ .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٧ ، ص ٢٥٥ .

الذي تولى حكمها في المدة الواقعة بين سنتي ٦٢٦ ــ ٦٣٥ هـ ، ونال منه العطاء الجزل ، بيد أنه انغمس في الملذات والشهوات ، وعاشر أرباب الخلاعة والمجون ، وعكف على شرب الخمر ، ولعب الميسر ، وقد وصف حاله قائلا :

أقلعتُ إلا عن العقارِ وتبتُ إلاّ مِنَ القِمارِ
فالكأسُ والقَمرُ ليس يخلو منها يميني ولا يَساري (١)

وكان كلما أعطاه ممدوحه الملك الأشرف بعض المال انفقه على شرب الخمر أو قامر به ، وقد أدى ذلك إلى غضب مولاه عليه ، فطرده من دمشق ، فالتجأ إلى حلب ، والتحق بخدمة صاحبها الملك الناصر يوسف (٢) الذي خلف أباه الملك العزيز محمداً ، فأكرمه كل الإكرام ، وقرر له رسوماً ، وقربه من مجالسه الخاصة ، وحاول أن يصلح سيرته ، إلا أنه لم يقلع عن عادته في المقامرة ، فكان يبدد كل ما يحصل عليه من المال حتى بات يعيش في فقر مدقع .

هكذا ساءت حال الشاعر كثيراً ، وبلغ به الأمر أنه قامر بثيابه ونعليه ، وقد حضر ذات يوم مجلس مولاه الملك الناصر ، وكان موجوداً فيه أحد شعرائه ، وهو شرف الدين سليمان بن بليمان الهمذاني ، صاحب النوادر ، فقال في التلعفري قصيدة عرض فيها مقامرته بثيابه وأخفافه ، فلما فرغ من إنشادها قال له التلعفري : « ما أنا جندي حتى أقامر بأخفافي » ، فقال له شرف الدين : « بخفاف امرأتك » ، فقال : « مالي امرأة » ، فقال له : « لك مقامرة من بين الحجرين ، إما بالخفاف أو بالنعال » (٣) .

---

(١) ديوان التلعفري ، ص ١٨ . في رواية ثانية : (فالكأس والزهر) .

(٢) أورد ابن حجة ذكر أحد مجالس الملك المذكور في بحث الاكتفاء ، فقال : « وأظرف ... ما وقع لشهاب الدين التلعفريّ مع شمس الدين الشيرجي بين يدي الملك الناصر ، وما ذاك الا أنهما حضرا بين يديه ليلة أنسٍ ، فاتفق أن شمس الدين ذهب الى ضرورة وعاد ، فأشار اليه الملك الناصر أن يصفع التلعفري ، وكان شمس الدين رجلاً ألحى ، فلما صفع التلعفري نهض على الفور وقبض على لحية الشيرجي ، وأنشد ارتجالاً ، ويده فيها :

قد صُفعنا في ذا المحلّ الشريفِ وهو ، ان كنت ترتضي ، تشريفي
فارث للعبد مِنْ مصيفِ صِفَاعٍ يا ربيع الندى والا خريفي »

هذان البيتان غير موجودين في الديوان (ابن حجة : الخزانة ، ص ١٥٩ ، ١٦٠) .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٣٧٢ ، ٣٧٣ .

أسف الملك على الشاعر ، ورثى لحاله ، لكنه ضاق به ذرعاً ، فأمر فنودي بين الناس في حلب الشهباء : « من قامر مع التهاب التلعفري قطعنا يده » (١) .

ضاقت الأرض على رحبها بالشاعر بعد هذا النداء من قبل السلطان ، فأنشد :

بنشرحُ الصدرُ لمن لاعبني والأرضُ بي ضيّقةٌ فروجُها
كم شوّشتْ شيوشُها عقلي وكم عهداً سقتني عامداً بنوجها (٢)

اسودت الحياة في عين الشاعر بعد أن غضب عليه الملك الناصر ، ويظهر أنه قطع عنه الرسوم التي قررها له . فضاقت عليه الأرض ، بيد أنه لم يرجع إلى دمشق إلا بعد وفاة ملكها الأشرف سنة ٦٣٥ هـ .

وهكذا نرى الشاعر طريداً شريداً بين دمشق وحلب ، بعد أن فقد كل أمل له في العودة إلى منزلته الأولى عند ملوكهما ، فأخذ يستجدي بشعره ، وهو في دمشق ، وكان ينفق ما يحصل عليه في الميسر والخمر ، حتى فقد ما يملكه كله ، وبات يقيم في أتون حمام ، وعلى الرغم من ذلك فكان ينشد :

رضيتُ بما قسمَ اللهُ لي وفوّضتُ أمري إلى خالقي
لقد أحسنَ اللهُ فيما مضى كذلك يحسنُ فيما بقي (٣)

ويمضي شباب الشاعر ، ولما يقض منه وطره ، ووخط المشيب عارضيه، فلقد أشعل شفاء الأيام رأسه شيباً ، وخبر الناس وعرف غشهم ، وعرك الحياة وخداعها ، فأنشد قوله :

سلامٌ على عصرِ الشَّبابِ الذي مضى وروحي بضافي ظلِّه ما تَملَّتِ
عَرفْتُ بها هذا الزَّمانَ وأهلهُ فرُحت بشيبي غافراً كلَّ زلَّةِ
بلَوْتُ الورى خُبْراً فلم أرَ فيهمُ خليلاً سديداً عندَهُ سدُّ خلّتي (٤)

(١) ابن شاكر : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ٣٤٥ ، وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٣٧٢ .
(٢) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٥٧ .
(٣) ديوان التلعفري ، ص ٢٩ .
(٤) ديوان التلعفري ، ص ٨ .

انتقل الشاعر إلى حماة ، ومدح ملكها المنصور الثاني سيف الدين محمد، ويستدل من النسيب الذي استهل به مدحته المذكورة على قلق الشاعر واضطراب حياته الخاصة كما في قوله :

نهاري كلُّهُ قلقٌ وفكرُ وليلي كلُّهُ أرقٌ وذكرُ
يُقَسِّمني الهوى كمداً وحزناً فأمرُهما لحتفى مُستمرُّ
فقم نُخطبْ عروساً بنت كرمٍ لها الأموالُ والألبابُ مهرُ
عجوزٌ قد أسنَّت وهي بكرٌ ومن عجب عجوزٌ وهي بكرُ
مفرحةٌ يفرُّ الهمُ منها فليس يضمُّها والهمَّ صدرُ
إذا برزَتْ وجُنحُ الليلَ داجٍ تبلّج مِنْ سناها فيه فجرُ (١)

قضى الشاعر المرحلة الاخيرة من حياته ينادم ملك حماة المنصورالثاني سيف الدين محمداً ويسامره ، ولقي فيها الحفاوه والإكرام ، وحسن حاله بعد أن اغدق عليه العطاء ، وكأنه آنس المنية تقترب منه ، فقال قبيل وفاته :

أحماةُ إن عهود أهلِكِ أحكِمتْ أسبابُها عندي . فليستْ تُنقضُ
لكنّما أزِفَ الرّحيلُ وها أنا والعيسُ تُحدى مُنْشِدٌ ومعرِّضُ
أرضٌ أروحُ بغيرها مُتعوِّضاً أتُرى ترَى عيني بمنْ تتعوَّضُ (٢)

كان ماقاله حقاً ، فقد أزف الرحيل ، وحانت ساعته ، فوافته فيها منيته سنة ٦٧٥ هـ ، وبذلك طويت هذه الصفحة من حياة الشاعر ، بيد أنها سجلت لنا في سطورها قصة التلعفري شاعر الخمر والميسر .

(٢)
آثاره الأدبية

لا نعرف من آثاره الأدبية غير ديوانه ، وقد ذكر ابن تغري بردي أن « ديوان شعره لطيف في غاية الحسن ، وهو موجود بأيدي الناس » (٣)

(١) المصدر السابق ، ص ١٤ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٢٤ .
(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٥٧ .

وقد اختار منه بعض أبياته السيارة وموشحاته المشهورة . وجدير بالذكر أنه مطبوع مرتين ، فعمر طبعته الأولى تجاوز الثمانين عاماً ، وعمر طبعته الثانية نحو من خمس وسنين سنة (١) . وقد خلصت من مطالعته إلى الاعتقاد أن ما بين أيدينا من شعره قليل من كثير مفقود ، وذلك لسببين اثنين :

أما أولهما فهو أن نمط حياته الخاص ، وإدمانه الشديد على القمار والعقار جعلاه لا يهتم إطلاقاً بجمع شعره والعناية به في المراحل الأولى من حياته . فنحن نعثر على مختارات كثيرة من شعره غير موجودة في ديوانه ، وسوف نعمل في المستقبل على استدراك ما نعثر عليه إن تيسر لنا تحقيق الديوان ونشره .

وأما ثانيهما فهو أن بعض أخوان الشاعر جمع ديوانه كما نظهر في المرحلة الأخيرة من حياته خلال وجوده في حماه ، ولم يبق من مدحه الكثير غير مطالع النسيب ، فقد كان يجتزىء منها ما يأتي من نعوت المدح بعد بيت التخلص ، وهكذا لم يسلم لنا من ديوانه غير مقطعات الغزل ومطالع النسيب ، يضاف إلى ذلك موشحة (٢) كتب بها إلى الأديب المصري شهاب الدين العزازي (٣) جواباً على موشحة بعث بها الأخير إليه ، ومدحة أجاب بها صديقاً له بمصر (٤) ، كان قد بعث إليه قصيدة يذكره فيها ببعض ذكرياته هناك ، وقد حاولنا معرفة تاريخ رحلته هذه ، لكن المصادر التي بين أيدينا لم تسعفنا في ذلك ، ولعلها كانت في مراحل حياته الأولى .

---

(١) في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة نسخة مصورة من ديوان التلعفري بخط اندلسي جيد كتب في القرن العاشر الهجرى ، وعدد أوراقه ٢١ ، ورقمه ٣٣٩ (٢) .

(٢) أورد ابن شاكر الكتبي موشحة شهاب الدين كاملة خلال ترجمته للتلعفري (فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٣٤٩ ، ٣٥٠) .

(٣) شهاب الدين العزازي ، هو أحمد بن عبد الملك ، وكان بزازاً في قيسارية جركس في القاهرة ، وقد توفي سنة ٧١٠ هـ .

(٤) ذكر جامع الديوان أن هذه المدحة أجاب بها التلعفري شهاب الدين المذكور ، وليس ذلك بصحيح اذ ان ابن شاكر أورد سبب نظمه القصيدة المذكورة ، وانه أجاب بها عز الدين بن امسينا . (فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٣٥١) .

القسم الثاني
شعره ومذهبه الفني

(١)
أغراض شعره

لا نملك من شعره ما يسمح لنا بدراسة أغراضه كلها دراسة كاملة ، وأغلب الظن عندي أنه لم يطرق فيه غير المدح، والوصف والطبيعة، والنسيب والغزل ، والخمر .

المدح

نستهل حديثنا بذكر المدح ، والغريب اننا لا نجد بين أيدينا غير الموشحة والمدحة المشار اليها آنفاً . أما مطلع الموشحة التى بعث بها إليه شهاب الدين العزازي فهو قوله :

بـاتَ طـرفي يتشكـى الأرَقـا وتوالـتْ أدمعـي لا تَرْتَقـي (١)

ويقول فيها :

شاعـرٌ فـاق فحـولَ الشُعـرا
بقـوافٍ مثـلِ إطـراقِ الكـرى
باسمـاتٍ تجتلـي منهـا الـورى
ثغَـراً يبسِـمُ أو زهـراً يُـرى

كلمـا لاحَ سنـاهـا مُشْـرِقـا سجـد الغـرب لنـور المشـرقِ

أيهـا المـوفي علـى عهـد الزمـنْ
كرمـاً محضـاً وفضـلاً ومـنْ
حاكـهُ الخـادمُ مـنْ غـيرِ ثمـنْ
جالب الوَشـيِ لصَنعـاءِ اليمـنْ

(١) أي لا ترتقىء بالهمز . يقـال : رقأ الدمع : جف وسكن وانقطع .

فاستمعهـا زادكَ اللهُ بقـا ءِ مـدحـةً لم يحكِهـا ابنُ بَقِي (١)

فأجابه التلعفري بموشحة جوابية ، مطلعها قوله :

ليس يروي ما بقلبي منْ ظمـا غـيرُ برقٍ لائـحٍ مـن إضَـمِ

ويقول فيها :

العَـزازيّ الشّهـابُ الثـاقـبُ
شكـرُه فرضٌ علينـا واجبُ
فهـو إذ تبـلوهُ نعمَ الصّـاحبُ
سهمُـه في كـلّ فنٍ صـائبُ

جـائـلٌ في حلبـةِ الفضـل كمـا جـالَ في يوم الوغى شهـمٌ كمي

شـاعرٌ أبـدعَ في أشعـارِهِ
ومتى أنكـرْتَ قولي بـارِهِ
لو جرى مهيـارُ في مضمـارِهِ
والخـوارزميُّ في آثـارِهِ

قلتُ : عودا وارجعا ، من أنتمـا ؟ ذا امرؤُ القيسِ إليـه ينتمي (٢)

والمدحة الثانية بعث بها إلى صديقه بمصر عز الدين بن أمسينا ،جواباً عن قصيدة وردت منه ، يسأله فيها عن حاله ، ويذكره بقصة حدثت له هناك خلال وجوده بمصر ، ومما قاله :

بـأبي أنت ، يا خليـلي ، وأمـي أنت قوسي إذا رميتُ وسهمـي
أنتِ ، واللهِ سيـدي ، لي حسامٌ فيـه للنّائبـات أعظـمُ حسمِ
كيفَ أخشى ذلّي ولي منـك عـزٌ ما ترقّتْ إليـه همـةُ نَجْـمِ
نَظَمَتْ فيكَ للمعـالي عقـوداً معجـزاتٍ جميـعَ نثري ونظمـي
الليالي عنـدي ظـلامٌ وظُـلمٌ بعـد ذا اللّمى وذاك (٣) الظَلْمِ (٤)

---

(١) ابن شاكر : فوات الوفيات ، ح ٢ ، ص ٣٥٠ .
(٢) ديوان التلعفري : ص ٤٠ ، وابن شاكر : فوات الوفيات ، ح ٢ ، ص ٣٥١ .
(٣) الظلم : بريق الأسنان وماؤهـا .
(٤) ديوان التلعفري : ص ٤١ ، وابن شاكر : فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٣٥١ .

أما المدح الأخرى فلم يبق منها غير ذكر اسم الممدوح في بيت التخلص ، ولم يصلنا من الاسماء غير اسم الملك العزيز ، ورد اسمه في مستهل نسببين، واسم الملك الناصر الثاني محمد ، واسم غياث الدبن ، وهى ما عثرنا عليه في الديوان من المدح.

لا جديد يطالعنا به من المعاني التي طرقها الشاعر في مدحه ، بيد أن الجديد الذي يمكن أن نسجله هو استخدامه الموشحات في معرض المدح ، وهذا بالطبع يمتل تطور فن الموشحات المشرقية في هذا العصر ببلاد الشام ، واستخدامها في غير أغراضها المعروفة ، وسوف نأتي على ذكر ذلك في حديثنا المقبل عن الفنون الشعرية المستحدثة .

الوصف والطبيعة

لا بد لنا من التحدث عن النسيب ووصف الطبيعة ما دمنا في معرض دراسة مدح الشاعر ، وجدير بالذكر هنا أنه كان في المرحلة الأولى من حياته يقلد الشعراء القدامى ، ويستن سننهم في الصور والأخيلة والمعاني التقليدية والأساليب الجاهلية كما في قوله :

لولا بروقٌ بالعقيق (١) تلوحُ ... تغدو على عذباته وتروحُ
ما زاد قلبي لوعةً كلا ولا ... أدْمى خدودي دمعيَ المسفوحُ
ويحَ الصَّبا، حتَّام يُذكرني الصِّبا ؟ ... منها نسيمٌ كالعبير يفوحُ
خطرتْ، وقد أهدى لنا منها الشَّذا ... غارُ الغُوير ورندُهُ والشِّيحُ
يا أهلَ وُدّي يومَ كاظمةٍ أما ... عن وصلِكم صبري الجميل قبيحُ
سِرْتم وأسرَرْتم بقلبي مهجةً ... أوْدى بها التقريحُ والتَّبريحُ

---

(١) العقيق : اسم يطلق على أربعة وديان أعقة . قال ياقوت : « وقد أكثر الشعراء من ذكر العقيق ، وذكروه مطلقا ، ويصعب تمييز كل ما قيل في العقيق » معجم البلدان ج ٤ ، ص ١٣٨ — ١٤١ .

أطمعتموني في الوصالِ وليس لي ... إلا صدودٌ منكمُ ونزوحُ
هذي الجفونُ ، وإنما أين الكرى ... منها؟وهذا الجسمُ ، أينَ الروحُ؟(١)

نعثر في بعض الأحيان في ديوان الشاعر على أمثال هذه المعاني المطروقة والألفاظ المكررة ، فسنة التقليد معروفة عند الشعراء في مطلع حياتهم الأدبية أمر ظاهر كل الظهور منذ القدم ، وحتى الأفذاذ منهم ، حتى إذا بلغ الشاعر نضجه الفني ، وامتلك نهجه الذاتـي ، نراه يجدد في معانيه ، ويدعو خليله الصاحب إلى هجر المنازل والديار ، والإعراض عن الرسوم والأطلال ، فليس له في نعتها شأن :

ياصاحِ، دعنيَ من ذكر العقيق ومن ... منازلِ ليس لى في نعتها شان
مالي ، وما لربوعٍ لستُ أعرفها ؟ ... ماالحبُّ نُعْم"،ولا الأوطان نُعْمان(٢)

ويتشوق النوق الى مغاني السام ومرابعها ، وهو بعيد نازح فيوادي النيل ، ويتحدث عن طبيعتها الجميلة ، ويتغنى بذكر دمشق الفيحاء بخاصة، ويدعو لها بالسقيا من هامي الودق هتان ، فلقد أمضى في ظلال متنزهاتها ، وعلى ضفاف برداها أجمل الأوقات وأسعد الساعات :

يُهيج بالنيلِ بي شوقي إلى بردى ... إني ومن بَرْدِه ظمآنُ لهفانُ
اللهَ ياوُرقَ فيعانيالحشى وَصبٍ ... صبّ له من ربا جَيرون جيرانُ (٣)
يقولُ ، وهو بمصرٍ عندَ حاجرها : ... ليسَ اللُبانةُ إلا حيثُ لبنانُ
جادَتكَ ياشرفَ الميدانِ سارية" ... ولا تعدّاكَ هامي الوَدْقِ هتّانُ
ودُبجت لك ياسطرى (٤) سطورَ رُبا ... من الرياض لها بالزّهر ألوانُ
وفاح يا واديَ الشّقراءِ منك شذا ... يضيع حين يضوعُ الوردُ والبانُ

(١) ديوان التلعفري ، ص ٩ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٤٤ .
(٣) جَيرون بفتح الجيم ذكرها ياقوت ، وأورد أقوال القدماء فيها ، ثم قال : « والمعروف اليوم أن باباً من أبواب الجامع بدمشق ، وهو بابه الشرقي ، يقال له باب جيرون ... وقال قوم : جرون هي دمشق نفسها ... وقد أكثر الشعراء الأ قدمون والمحدثون من ذكره ... » معجم البلدان ، ج ٢ ص ١٩٩ .
(٤) من قرى دمشق .

ورافَ مــاؤك يا ثورا ولا برحتْ تميلُ فوقــكَ بالأطيــار أغصـــانُ
ودامَ رفقــك يا باناسُ مُتَّصِــلاً حتى يُرى كلُّ ظـــامٍ وهو ريــانُ
تلكَ الجنانُ التي حبتْ التفتّ ترى قصراً مشيــداً بــه حــورٌ وولدانُ
تدعوكَ فيها إلى اللـّـذاتِ أربعــةٌ بيعُ الحيــاةِ بهــا ما فيــه خسرانُ
ظلٌ ظليل ومــاء باردٌ غَـــــدقٌ وجوسقٌ مُشرفٌ عالٍ وبستانُ (١)

نلاحظ أن الشاعر لم يكتف بالإشارة إلى لبنان ، احد جبال الشام العالية كما كان يعرف في هذا العصر ، وإنما تحدث عن نهر بردى ، وفرعيه المشهورين : ثوْرا وبانياس ، وأشار إلى بعض رياضها الغناء ومرابعها الفيح مثل وادي الشقراء ، وشرف الميدان وسطرى .... كمــا نلاحظ أن الشاعر تغنى في قصيدة أخرى بجبل قاسيون :

يا بارقَ الشّام حيِّ الأثلَ والبــانا وانقلْ حديثكَ عن لُبنى ولُبنـــانا
وهاتِ ما حَمَلَتْ عِطفاكَ من خبرٍ فإنَّ لي بِرُبا جــيرونَ جــيرانا
سقتْ لياليــكَ بالأحبــابِ ساريةٌ تُعيــدُ ظامئَ ذاك التُرب ريّــانا
ولا تعدى الرُبا من قاسيونَ حيــاً يعيدُ فوقَ الصَّياصي (٢) منه غُدرانا
تلك الربوعُ التي لم تألُ مذ عُمِرَتْ في الأرض للّهــوِ والأوطار أوطانا (٣)

يسترعي انتباهنا في مطلع القصيدة براعة الاستهلال كما يدعوه ابن حجة، ونلحظ من خلاله الصراع بــين القديم والجديد : أما الأول فنلمحه في ذكر البارق والأثل والبان ولبنى ، وأما الثاني فنلمحه في الشام وجيرون ولبنان وقاسيون ...

هكذا نجد الشاعر يمر في ثلاث مراحل حتى اكتمل نضجه الفني ونهجه الذاتي ، فلا غرابة إن رأيناه يعرض عن القديم ، فيجدد في معانيه ، ويأخذ منها بأوفر نصيب .

تلك هي لمحة عن تطور شعر التلعفري ومميزات وصفه ، وقد لمحنا من خلال ما مرّ معنا أثر طبيعة بلاد الشام في رقة الشاعر ، إذ تطور من نسيب

---

(١) ديوان التلعفري ، ص ٤٥ .
(٢) الصياصي : جمع صيص وصيصاء وهو الحصن أو كل ما امتنع به .
(٣) ديوان التلعفري ، ص ٤٨ .

تقليدي مطبوع بطابع بدوي إلى وصف واقعي لما حوله من طبيعة ساحرة وجمال أخاذ .

النسيب والغزل

يختص بعض الشعراء بالإكثار من ذكر أوصاف معينة في أغزالهم ، تطبعهم بطابعها الخاص؛ وقد أشرنا من قبل إلى ابن منير الطرابلسي، وذكرنا أنه كان يكثر من التغني بذكر الخيلان ، ومعظم من جاء بعده من الشعراء كانوا عالة عليه . أما التلعفري فكان يكثر من ذكر القدود والألحاظ وما حولها مما يتعلق بها ، ونادراً ما تخلو قصيدة له من إيراد هذا المعنى الذي كان يتفنن في نعته بصور تكاد تكون غريبة ، نذكر من ذلك قوله :

حميتَ شقيقَ الخدِّ بالمقلة الكحلا ... ونقّفتَ رمحَ القدِّ بالطعنةِ النَّجلا
وأوترتَ قوسي حاجبيكَ ففوّقتْ ... من النَّظر السّامي إلى مقلتي نبلا
عجبتُ لجفنيكَ التي نَشِطَتْ لنا ... لتقتلنا ، وهي المضعّفةُ الكسلى (١)

ويقول في قصيدة أخرى في المعنى ذاته، ولكنه في حديثه عن سهام الألحاظ، يقصرها على أعين الأتراك ، ولقد عرفنا ذلك عند معظم شعراء العصر ، فغدا التغزل بذلك صفة مستحبة لدى الناس ، إذ إنهم كانوا يفتنون بضيق العيون وصغرها ، يضاف الى ذلك أسهم الأتراك المعروفة بشدتها :

يا جاعلاً عينيه مِنْ أشراكِ ... تركي هواكَ نهايةُ الإشراكِ
لم أدرِ حيثُ أراكَ تخطرُ مائساً ... أقوامُ قدّكَ أم قضيبُ أراكِ ؟
أينَ المفرُّ لعاشقٍ متهتّكٍ ... صرعتْهُ أسهمُ أعينِ الأتراكِ ؟ (٢)

يحاول الشاعر أن يبين السلاح القوي الذي يملكه محبوبه ، فالقد في نظره رمح مثقف ، يطعن الطعنة النجلاء ، والحاجبان قوسان موتران يصوبان سهام الأتراك القاتلة من الأعين الضيقة ، وهذه الصور مطبوعة بطابع القوة والحرب ، وهي مبذولة بشكل لا نظير له عند شعراء العصر المملوكي . نذكر من هذه الصور إحداها وقد تصور الشاعر فيها محبوبه يدعوه للمبارزة والنزال ، ويعجب خلال ذلك من سلاحه الذي يتصدى له به :

---

(١) ديوان التلعفري ، ص ٥٠ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٣٠ .

يدعو النزالَ ، وليس إلاّ قدّهُ رمحٌ ، وإلا مقلتيْهِ حسامُ (١)

كما يتصور الشاعر غصن قدّه وقد أورق بالذوائب ، ويرى أنه حمى خدّه المورد بحسام اللحظ :

كلفتُ بأحوى من بني الترك أحورِ له غصنُ قدٍّ بالذّوائبِ مورقُ
رشيقِ التثنّي والمعاطفِ ألعس الـ ـمراشف يصمي طرفُهُ حينَ يرمقُ
حمى بحسامِ اللّحظِ خدّاً موردّاً غدتْ منهُ أكمامُ الشّقيقِ تشقّقُ
له ناظرٌ في ضمنه وهو أسودٌ عدوٌ لأربابِ الصّبابةِ أزرقُ (٢)

تحدث الشاعر من خلال أبياته عن خصر المحبوب وعطفه وعارضه وقدّه وحاول أن يشخص لنا ما يدور حولها من المعاني كما في قوله:

يارائشاً أسهماً مِنْ لحظِ ناظرِهِ فوّقْ فغيرَ فؤادي ليس مِنْ هدفِ
سبحانَ معطيكَ خصراً غيرَ مختصرٍ لي في العذابِ وعطفاً غير منعطفِ
إذا شكوتُ لترثيْ لي وترحمَ ما تراهُ من جسميَ المضنى ومن كلفي
يردُني آيساً من ذاك عارضُك الآ سيَ والمنثني من قدّكَ الألفِ (٣)

تلك هي بعض المعاني العامة في غزل الشاعر وقد لاحظنا من خلالها أثر العصر في اختيار هذه المعاني ، إذ انعكست عليها أحداث العصر السياسية والاجتماعية والدينية وغيرها ، وذلك لأن المفاهيم الجمالية تختلف باختلاف الزمان والمكان ..

الخمريات التلعفرية

لا بد من أن نلمّ بخمريات الشاعر ، إذ إنها لم تكن منفصلة عن غزله ونسيبه ، فالمعروف عنه أنه كان شاعر العقار والقمار ، وأنه يعد في الطليعة من شعراء الخمر الأوائل ، فقد كان من رواد المذهب الخمري الخيامي في بلاد الشام قاطبةً .

سلك الشاعر نهج أبي نواس ، الخمريّ العربي الأول، فكره مثله الوقوف على الديار الدوارس ، وفضل التغني بذكر الخمر ، فهي عنده خير وأبقى :

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٩ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٢٥ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٣٩ .

ياسافحَ الأجفانِ في سفحِ اللّوى جهلاً ، وحِلْفاهُ جوىً وهيامُ
ليس الوقوفُ بنافعٍ في دِمنةٍ سنحتْ بها بعد الدُمى الآرامُ
قد كان ذلك سنّةً لذوى الهوى فمحت بتاشةَ فعلهِ الأيّامُ
أوَما الـذُ من الوقوفِ بدارسٍ كأسٌ يطوفُ بها السقاةُ وجامُ(١)
مِنْ كلِّ سحّارِ اللّحاظ بثغرهِ وبخدِّهِ وبراحتيهِ مُدامُ(٢)

وصف الشاعر الخمر وصف مدمن لها ، وقرن نعتها بالغزل ، ومعروف عندنا أنه ما امتنع عنها قط ، فلقد أضاع بسببها معظم ما يملكه في دنياه ، وعكف على معاقرتها منذ مطلع شبابه حتى فارق حياته :

ربعُ علقتُ بـه ، وغصنُ شبيبتي نضرٌ ، وفَوْدي ليله لم يقمرِ
لله عصرُ شبيبةٍ قضّيتُهُ في حيّكم برحيقِ صِرفٍ مسكرِ(٣)

كان الشاعر يقضي وقته في لعب الميسر ، ولعله أحد عوامل إدمانه على الخمر ، إذ كان يستعين بها على دفع همومه ونسيان خسارته ، فيتجرع كؤوسها ، وينفق عليها ما تبقّى لديه من المال ، وقد أعرب عن هذه المعاني في خمريته التي جاء فيها قوله :

نهاري كلّه قلقٌ وفكرُ وليلي كلّهُ أرقٌ وذكرُ
نقسّمني الهوى كمداً وحزناً فأمرهما لحتفي مُستمرُ
فقمْ نخطبْ عروساً بنتَ(٤) كرمٍ لها الأموالُ والألبابُ مَهْرُ
عجوزٌ(٥) قد أسنّتْ وهي بِكرٌ ومِنْ عجبٍ عجوزٌ وهي بكرُ
مفرحةٌ يفرُ الهمُ منها فليس بضمّها والهمَّ صدرُ
إذا برزتْ وجنحُ اللّيلِ داجٍ تبلّجَ مِنْ سناها فيه فجرُ
غنيتُ بكأسِها وبها ، ولِمْ لا؟ ومن هذين لي وَرِقٌ(٦) وتبرُ

---

(١) الجام : اناء من فضة ، وهي مؤنثة ، وجمعها جامات ، وقيل جوم ، وتصغر على جويمة .
(٢) المصدر السابق ، ص ٢٧ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٣ .
(٤) العروس وبنت الكرم : من أسماء الخمر .
(٥) من المجاز العجوز وهي الخمر المعتقة .
(٦) الوَرِق : الدراهم المضروبة .

يطوفُ بهـا علينـا بدرُ تمٍّ منيرٌ عمـرُهُ خمسٌ وعشـر
لنـا بكؤوسـهِ وبمقلتيـهِ كما حكمَ الهوى سكَرٌ(١) وسُكـرُ
نـردُّ بهـا إليـه ، وهـي بيضٌ ويأخذُهـا إلينـا وهـي حُمـرُ(٢)

يعدّ الشاعر التلعفري أحد رواد المدرسة الخمرية الشامية ، فهو يرى أن الحياة لعب ولهو ، وخمر وميسر . وعلى المرء الاّ يتوانى عن التمتع بها ، وعليه أن يصرف همومه ، ويبدد آلامه بصرف العقار :

كـلُّ ربـعٍ ليـس يقضـى وطـرٌ فيـه مـا ذلـك عنـدي وطـنُ
فاصرفِ الهـمَّ بصِرفٍ(٣) دونهـا مـرَّ في العمـرِ عليهـا الزَّمـنُ
ذاتِ أنـوارٍ تجلَّـتْ في الدُّجـى عادَ مثلَ الصبْحِ فيهـا الوَهنُ(٤)
كلما طافَ بهـا السَّاقي ترى الـ شمسَ بالبـدرِ علينـا تُقـرنَ
فاغتنمْها مِـنْ يـدي معتـدلٍ(٥) يُخجلُ الأغصانَ منـهُ الغُصُنُ(٦)

نلاحظ أن نعت الخمر يقترن عنـد الشاعر في معظم الأحيـان بالغزل والنسيب ، فلا غرابة إن رأيناه يحوم حول نار الوجنات ، ويسكر من خمر اللواحظ :

أدارتْ مِـنْ لواحظهـا كؤوسـا فأنستنا السُّلافَ(٧) الخَنْدَريسا(٨)
وأبـدتْ خدَّهـا القـاني فكنّـا هنـاكَ لنـارِ وجنتِهـا مجوسـا

---

(١) سكَر : الخمر أو النبيذ وقيل : شرابٌ يتخذ من التمر والكَشْب والآس وهـو امر شراب في الدنيـا .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤ .

(٣) الصِرف : الخالص من الخمـر أي محض غير ممزوج .

(٤) الوَهْن : نصف الليل أو بعد ساعة منه كالوهن .

(٥) أي ساق معتدل حسن القوام ويقال جارية حسنة الاعتدال أي القوام .

(٦) المصدر السابق ، ص ٤٣ .

(٧) السلاف والسلافة : ماسال وتحلب قبل العصر وهو أفضل الخمر .

(٨) الخندريس : الخمـر .

فلم نــرَ قبلها خوداً (١) شموعاً (٢) تدبرُ بطرفهـا راحـاً شموسا (٣)
فــلا والله مــا سلبــتْ عقــولاً لنــا لكنّهــا سلبت نفوســـا (٤)

وطبيعي جداً بعد ما مر معنا من خمريات الشاعر وأغزاله أن نخلص منها إلى الاعتقاد أنه كان ينحو فيها منحى مادياً ونهجاً خليعاً إباحياً كما في قوله :

مَنْ لي بمرسلةِ الخيال وقد جلا بالوصلِ ليلَ السُخطِ لألاءُ الرِّضا
لأعيدَ رُمانَ النّهودِ مكسّراً منها وتفاحَ الخدودِ معضّضا (٥)

وعلى الرغم من ذلك كله فلم يعدم الشاعر بعض المسامحين الذين عذروه، وغفروا له بعض مظاهر حياته الخاصة . منهم ابن تغري بردي الذي قال حين ترجم لــه : « وأنا مسامح العفري علــى القمار لحسن ما قال مــن رائق الأشــعار » (٦) .

تلك هي بعض السمات العامة لأغزال الشاعر وخمرياته ، وقد آنسنا من خلال عرضها أنه كان أحد رواد شعراء الخمر في بلاد الشام : فلم يكن ينعت الخمر مقلداً غيره ، وإنما كان ـ كما رأيناه ـ مدمناً عليها ليله ونهاره ، وهكذا قضى حياته شريداً طريداً ، صريع العقار وأليف القمار ، حتى بات في أواخر أيامه ، لا يجد له في بعض أحيانه مأوى يلوذ به غير أتون حقير في حمام مهجور.

(٢)
مذهبه الفني

تحدثنا في فصل سابق عن اتجاه جديد عند شعراء هذا العصر ، جنح فيه بعضهم إلى الإعراض عن الزخارف البديعيــة في مذهبهم الفني ، بيــد

(١) الخــود الحسنة الخَلْق الشابة او الناعمة .

(٢) الشموع : جــاء في اللسان أنها « الجارية اللعوب الضحوك الآنسة ، وقيل : هي المزاحة الطيبة الحديث التي تقبلك ولا تطاوعك على سوى ذلك » .

(٤) الشموس من أسماء الخمر لأنها تشمس بصاحبها أي تجمح به . قــال أبو حنيفة سميت بذلك لأنها تجمح بصاحبها جموح الشموس فهي مثل الدابة الشموس ، وسميت راحاً لأنهــا تكسب شاربها أريحية ، وهو أن يهش للعطــاء ويخف له .

(٥) المصدر الســابق ، ص ٢٢ .

(٦) ابن تغري بردي : النجــوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٧٣ م

أن بعضهم الآخر من أرباب هذا الاتجاه لم يستطيعوا الإفلات نهائياً من طغيانها ، فبدا الانسجام الشعري واضحاً في إطار عام من الصنعة البديعية ، وكان التلعفري أحد هؤلاء ، فهو ــ كما رأينا ــ شاعر وجداني مطبوع ، لكنه لم يفلت من التأثر ببعض التيارات المعروفة في هذا العصر .

يلاحظ أن شعره يجنح بشكل عام إلى السهولة ، شأنه فيها شأن شاعر رقيق معروف هو بهاء الدين زهير ، وكان مطبوعاً بالطابع الوجداني الصرف ، فلقد قصره على المدائح والأوصاف والأغزال والخمريات ، وهي معظم ما يملأ حياته وشعره ، فلا غرابة إن رأينا بعض القدماء يحفظ معظم شعره كما هو الحال عند ابن سعيد الأندلسي (١).

ويلاحظ أيضاً ، على الرغم من انطباع شعره بالسهولة المتناهية ، أنه كان يتأثر ببعض المذاهب الشعرية والزخارف البديعية التي سادت في القرنين السادس والسابع الهجريين ، وكان أربابها يتكلفون الجناس والطباق والاقتباس وغيرها .

استخدم الشاعر الجناس بكثرة في شعره (٢) وشواهده كثيرة ، نذكر منه قوله :

انتَ خالٍ مما يقاسيه قلبي ... من غريرٍ له على الخدِّ خالُ
كلما عزَّ زاد ذلّي وحالتْ ... ليَ فيهِ ، معَ الزّمان ، الحالُ (٣)

وقوله :

حتّام أرفُلُ في هواكَ وتغفلُ ؟ ... وعلامَ أهزُلُ في هواك وتَهزُلُ ؟
يا مضرماً في مهجتي بصدودهِ ... حرَقاً لهنَّ يكادُ يذبلُ يذبلُ (٤)(٥)

---

(١) عرف الأقدمون والنقاد رقة شعره ، فقد ذكر ابن حجة « أن الشيخ نور الدين علي ابن سعيد الأندلسي ... لما ورد الى هذه البلاد اجتمع بالصاحب بهاء الدين زهير ، وتطفل على موائد طريقته الغرامية ، وسأله الارشاد الى سلوكها ، فقال له : طالع ديوان الحاجري والتلعفريّ وأكثر من المطالعة فيهما ، وراجعْني بعد ذلك ، فغاب عنه مدة ، وأكثر من مطالعة الديوانين الى أن حفظ غالبهما ، ثم اجتمعا بعد ذلك وتذاكرا في الغراميات ... » (الخزانة ص ١٠) .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨ ، ٩ ، ١٥ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٤١ ، ٤٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٢ .

(٤) يذبل : الثانية اسم جبل في نجد .

(٥) ديوان التلعفري ، ص ٣٨ .

وقوله :

يهيج بالليل بى شوقى إلى بردَى ... إني ومن برده ظمآنُ لهفانُ

ودبَّجتْ لك باسطرى سطورُ رُبـاً ... من الرياضِ لها بالزهرِ ألوانُ

وفاحَ با واديَ الشقراءِ منك شذاً ... يضيعُ حينَ يضوعُ الوردُ والبان (١)

استخدم الشاعر أيضاً الطباق بكثره في شعره (٢) . وقد لاحظنا أن شعراء القرن السادس بشكل عام جنحوا إلى اسخدام الجناس والطباق بكثره ، فمن ذلك قوله :

له ، وهو مملوكٌ ، تحكمُ مالكٍ ... كما ، وهو ظبيٌ ، فيه صولةُ ضيغمِ

يلوحُ كبدرِ طالعِ النثورِ مشرقٍ ... بدا في دجى ليلٍ من الشعرِ مظلمِ

فلا طَرفَ إلاّ في نعيمٍ وجنّةٍ ... ولا قلْبَ إلا في لَظىً وجهنّمِ

فينطِقُ عن لفظٍ كدرٍّ مبدّدٍ ... ويبسِمُ عن ثغرٍ كدُرٍ منظَّمِ (٣)

وقوله :

كان عهدي بالخمرِ ، وهي حرامٌ ... فبماذا صارتْ لديكَ حلالا ؟

أنا قصدي تقبيلَه إرشاداً ... كان رشفي رضابَه أم ضلالا ؟

حار مني في شرحِ حاليه فكري ... كيف يسطو ليثاً ويعطو غزالا ؟

إن أطعتُ الغرامَ فيه ، فإني ... قد عَصَيْتُ اللّوامَ والعذّالا (٤)

يضاف إلى الطباق والجناس ظهور الاقتباس بمختلف أشكاله في شعره فمن الاقتباس القرآنى قوله :

قالت محاسنُ وجهها لمحبِّها : ... « لنولينَّك قبلةً ترضاها » (٥)

---

(١) المصدر السابق ، ص ٤٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠ ، ١٤ ، ٢٣ ، ٣٥ ، ٤١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٤ . والأبيات المذكورة غير موجودة فى هذه النسخة من الديوان وهي منقولة من طبعه ثانية للديوان .

(٤) المصدر السابق ، ص ٦ . والأبيات المذكورة غير موجودة فى هذه النسخة من الديوان ، وهي منقولة من طبعة ثانية له .

(٥) المصدر السابق ، ص ٥ . استمد الشاعر هذا المعنى من الشرف الأنصاري وسوف نشير الى ذلك في مكانه من هذه الدراسة .

ويلاحظ في الاقتباس الحديثي أنه كان يستخدم مصطلحاته الخاصة كما هو معروف عند المحدثين ، فمن ذلك قوله :

ولا بَرِحَ الصَّبا يروي صحيحاً — حديثَ رياضِها ، وبها اعتلالُ
منازلُ للصِّبا ما زال شملي — له فيها بمنْ أهوى اتّصالُ (١)

وقوله :

حَدّثَهُ عن نجدٍ فلولا عينُه (٢) — وعيونُها ما جَنّ منه جنونُهُ
واستملِ ما تمليهِ عبقةُ روضهِ — سَحَراً ، وترفعهُ إليه غصونُهُ
وانقلْ اسانيدَ الهوى عن أضلعي — فحديث أهل العشقِ أنت أمينُهُ
أعدِ الحديثَ عن الحبيب مكرراً — أخبارهُ ، فالصبُّ هذا دينُهُ (٣)

ومن الاقتباس اللغوي والبلاغي وغيرهما قوله :

يا جوهريَّ الثغرِ لا ومضاعَفٍ — من كسرِ جفنِكَ ما القلوب صحاحُ
عطفاً على ذي لوعة مبثوثةٍ — منقاصرٍ عن شرحها الإيضاحُ (٤)

وقوله :

عندي جوىً ، يذرُ (٥) الفصيحَ مبلّداً — فاتركْ مفصَّلهُ ، ودونك مجمَلَه
القلب ليس من الصحاحَ فيُرتجى — إصلاحُه ، والعينُ سحبٌ مهمَلَه (٦)

يلاحظ أن الشاعر ذكر الجوهري ومعجمه (الصحاح) ، وثعلباً وكتابه (الفصيح) ، والزمخشري وكتابه (المفصّل) ، وابن فارس وكتابه (المجمل) ، والخليل الفراهيدي ومعجمه (العين) .

ومن الاقتباس النحوي قوله :

وإذا الثنيَّة أشرقت وتيمّمتْ — أرجاؤها أرجاً كنشرِ عبيرِ

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٥ .
(٢) عين : بقر الوحش .
(٣) ديوان التلعفري ، ص ٤٧ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٨ .
(٥) يذر : وذر الشيء تركه ولا يستعمل بهذا المعنى الأخير سوى المضارع والأمر فتقول ذرهْ ويذره أي دعه واتركه ويدعه ويتركه ، فاذا أريد الماضي قيل ترك ، أو المصدر قيل الترك ، أو اسم الفاعل التارك .
(٦) المصدر السابق ، ص ٣٣ .

سل هضبها المنصوبَ: أين حديثها الـ ـمرفوعُ عن ذيلِ الصَّبا المجرور (١)

وقوله :

قل للصَّبا سراً : فإن لم تبتدي يضحي بما تفضي إليه مذيعا

يا ذيلها المجرور عن بانِ اللّوى الـ منصوبِ ، هاتِ حديثَك المرفوعا(٢)

ومن الاقتباس العروضي قوله مستخدماً فيه الأبحر الطويل والمتقارب والسريع والمديد :

كم قد مضى ليلِ الطويلِ مديدهُ برقيبهِ متقارباً وسريعا (٣)

وقوله مستخدما فيه المتقارب والوافر والمديد والطويل :

متقاربٌ لي منه صدٌ وافرٌ فمديدُ ليلي لا يزالُ طويلا (٤)

يلاحظ بالإضافة إلى ما مر معنا في مذهبه أنه كان يستخدم التدبيج ، وهو عند البلاغيين ضرب من المقابلة (٥)، وهو إما أن يكون تدبيج كناية أو تدبيج تورية ، وقد حاول التلعفري إبراز المعاني كما تخيلها في صورة جميلة من الألوان ، فمن التدبيج قوله :

شفقيٌ خدٌ أحمرٍ ، صبحيٌ ثغـ ـرٍ أبيضٍ ، ليليْ خالٍ أسودٍ (٦)

وقوله يكنى فيه عن حظه الأسود والموت الأحمر :

وجعلتَ حظى منك خالاً أسوداً وأذقتَني موتاً كخدِّكَ أحمرا (٧)

فاسوداد الحظ كناية عن سوء الحال ، والموت الأحمر كناية عن الشدة، وقوله يذكر فيه الثغر والخد والخال :

لم أدر مما فاح لي طيبُ التذا فأميلَ ميلَ المنثني المسرورِ

من خدِّهِ الوردي ، أو من خاله الـ سنديِّ(٨)، أو من ثغرهِ الكافوري(٩)

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٦ . ذكر ابن الوردي أن البيت الثاني في غاية الحسن : فانه قال المنصوب ، وهو منصوب ، والمرفوع وهو مرفوع ، والمجرور وهو مجرور . (ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٢٢) .

(٢) ديوان التلعفري ، ص ٢٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٥٢ .

(٥) القزويني : الايضاح ، ج ١ ص ٢٧ - ٣٢ .

(٦) ديوان التلعفرى ، ص ١٠ .

(٧) المصدر السابق ، ص ١٧ .

(٨) نسبة الى السِّند وهي بلاد بين الهند وكرمان وسجستان وهي على ضفة بحر الهند .

(٩) المصدر السابق ، ص ١٦ .

وقوله يصف الطبيعة مجلياً ألوانها :

أنسيتَ بالخضـراءِ أياماً زهت بكمالِ بهجتها على أجناسها
ورياضَ أربعها ، وحمرةَ وردها وبياضَ أنهرها وخضرة آسها (١)

وقوله يصف العدو وزرقته والناظر وسواده :

حمى بحسام اللّحظ خداً مورداً غدت منه أكمامُ الشقيق تشقّقُ
له ناظرٌ في ضمنه ، وهو أسودٌ عدوٌ لأربابِ الصبابةِ أزرقُ (٢)

إن وصف العدو باللون الأزرق كناية عن شده العداوة ، ويظهر أن هذا التشبيه مستمد من وصف أعداء المسلمين من روم وفرنجة ، ذوي العيون الزرق ، وهم ألد أعدائهم منذ القدم .

* * *

نخلص مما تقدم معنا من دراسة مذهب التلعفري إلى أن نؤكد أمرين :

أولهما أن شعره مطبوع بالسهولة المتناهية ، وذلك جرياً على ما ألفه لدى بعض شعراء هذا العصر من أرباب مذهب التخلي عن الصنائع البديعية في الشعر .

وثانيهما أنه على الرغم من ذلك كله لم يفلح في التخلي نهائياً عن الزخارف البديعية والصور البيانية ، وقد رأينا وجود الجناس والطباق والاقتباس وغيرها في شعره ، وهذا بالطبع نتيجة حتمية لتأثره بالشعراء الذين كانوا يكثرون من التأنق اللفظي وتكلفه ، بيد أن طبع الشاعر السليم أبعده عن الإغراق في ذلك ، فبقي شعره ندياً في رونق أصالته ، ومشبعاً بشخصيته ووجدانه وذاتيته ، فكان حقاً أحد الشعراء الذين استطاعوا في عصر التورية أن يقفوا بعيدين عنها ، ولذلك لم يسلكه معاصروه ضمن مدرسة التورية التي عرفناها في هذا العصر ، على الرغم من أنه قضى في حماة المرحلة الختامية من حياته ، وهي مدينة الشرف الأنصاري إمام شعراء مذهب

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٨ ، ١٩ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٣٧ .

ألتورية والانسجام في بلاد الشام ، وقد كان أثره كان ظاهراً في تصنع الصور البلاغية الأخرى كما رأينا شواهد ذلك في بحث مظاهر التأنق اللفظى الذي عرفناه في شعره من قبل ، وبخاصة الاقتباس بأشكاله المختلفة ، بيد أنه في نظرنا قصر في كثير منها وكانت التورية في شعره غير مستساغة كثيراً . ذلك أنه لم يتخذها غاية في ذاتها ، كما كان الحال عند الشرف الانصاري .

مهما يكن من أمر فما لا شك فيه أن التلعفري أحد شعراء الطبع السليم الذين كانوا لا يستخدمون التأنق اللفظي إلا مكرهين ، إذ انهم يريدون أن يرضوا أذواق الأدباء الذين كانوا يقدرون شاعريتهم بمقدار ما يتكلفونه منها ، وشأن التلعفري في انسجام شعره الرائق وسهولة ألفاظه شأن الشاب الظريف الذي كان أحد شعراء مدرسة التورية في بلاد الشام .

الشاب الظريف

(٦٦١ – ٦٨٨ هـ = ١٢٦٣ – ١٢٨٩ م)

القسم الأول

حياته وآثاره

(١)
مراحل حياته

ولد الشاعر المشهور ، شمس الدين (١) ، محمد بن عفيف الدين سليمان بن علي بن عبد الله بن ياسين العابدي المصري (٢) ، ثم الكوميّ (٣) ، ثم التلمساني (٤) ، في القاهرة في عشر جمادى الآخرة سنة ٦٦١ هـ لما كان والده صوفياً بخانقاه سعيد السعداء ، وكان يلقب بـ « ابن العفيف » ،

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهره ، ج ٧ ص ٣٨١ و ج ٨ ص ٢٩ ، ٣٠ ، وابن حجة : الخزانة ، ص ٢٧٧ ، وابن شاكر : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ٢٦٣ ، والصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٣ ص ١٢٩ ، وتاريخ ابن الفرات ج ٨ ، وبروكلمان (258) Brock I : 300 ' SI ' 458 ' والزركلي : الأعلام ، ج ٧ ص ٢١ ، و ج ٨ ص ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ٨٥ .

(٣) الكومي : في (فوات الوفيات) أنه كوفي الأصل ، وقد صوّب الزركلي صاحب الأعلام ذلك ، وقال : « انه من خطأ الطبع أو النسخ ، صوابه (كوميّ) بالميم نسبة الى (كومة) ، وهي قبيلة صغيرة ، منازلها بساحل البحر من أعمال (تلمسان) كما في ابن خلكان ، ويسميها المغاربة « كومية » كما في المعجب » . (الزركلي : الأعلام ج ٣ هامش ص ١٩٣ ، ١٩٤) .

(٤) تلمسان : موضع في المغرب الاوسط ، وهو مؤلف من مدينتين متجاورتين ، احداهما قديمة اسمها أقادير ، والأخرى حديثة اسمها تافرزت ، وقد اختطها الملثمون من ملوك الغرب وفي صبح الأعشى انها قاعدة مملكة المغرب الاوسط ، وهي تشمل على الجزائر الحالية اليوم ، ودار ملك بني عبد الواد من زناتة من قبائل البربر ، وظلت الى أواخر القرن الثامن للهجرة . (ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٤٤ ، والقلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٤٩ ، ١٥٠ ، وهامش النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٩) .

بيد أنه اشتهر وعرف بين معاصريه باسم « الشاب الظريف » ويظهر أن سبب هذه التسمية يرجع إلى ما عرف عنه من عبث و « لعب وعشرة وانخلاع ومجون » (١) كما صرح بذلك في مستهل مقامات العشاق .

كان أبوه شاعراً معروفاً (٢) ، وهو أحد المتصوفة المشهورين ، وكان فاضلاً ، ويدّعي العرفان ، ويتكلم في ذلك على اصطلاح القوم ، كما كان منتحلا في أقواله وأحواله طريقه ابن عربي (٣) وسلوكه ، وهو من القائلين بالوحدة والاتحاد . والمعروف عنه أنه قدم القاهرة من بلدة تلمسان فيالمغرب الأوسط ، وأقام عند صاحبه الشيخ شمس الدين الأيلي في خانقاه سعيد السعداء (٤) ، وقد وردت الاشارة الى موطنه الأصلي في تلمسان في شعر ابنه شمس الدين :

فاسْلَمْ ، ولا تَلْتَفِتْ إلى مَنْهجٍ ... بِهـا جوىً قاتـلٌ وأشجـانُ

ونَمْ خليّـاً ، وقلْ : كـذا وكـذا ... مِنْ كـلّ ما اطلعت تِلِمْسـانُ (٥)

أغلب الظن عندي أنه تزوج ، وهو في مصر ، ورزق فيها ابنه شمس الدين محمد ، فقضى فيها طفولته وصباه ، وقد أشار إلى ذلك في مستهل إحدى مدحه بقوله :

يا راقدَ الطرف ما للطرف إغفـاءُ ... حدّثْ بـذاك فمـا في الحب إخفاءُ

إن اللياليَ والأيامَ من غـزَلـي ... في الحسنِ والحبّ أبنـاءٌ وأنبـاءُ

وصفوةُ الدّهرِ بحرٌوالصّفاسفُنٌ ... وللخـلاعةِ إرسـاءٌ وإسـراءُ

ياساكني مصرَ شملُالشّوقمجتمعٌ ... بعد العراقِ وشملُ الشكر أجزاءُ

كأنّ عصرَ الصّبا من بعد فرقتكمْ ... عصرُ التّصابي بـهِ للهـوِ إبطاءُ

نارَ الهوىليسيخشىمنكِقلبُ فتىً ... يكونُ فيـه لإبراهيمَ أرجـاءُ (٦)

---

(١) تاريخ ابن الفرات ، ح ٨ ص ٨٥ .

(٢) قال ابن تغري بردي : انه كان « من الشعراء المحدين ، وله ديوان شعر كبير » ج ٨ ص ٢٩ ، يوجد منه نسخ كثيرة ، منها نسخة في دار الكتب الطاهرية مكتوبة سنه ٩٩٨هـ ، ومنها نسخة أخرى مكتوبه بخط نسخي يمني سنة ٩٦٩ هـ ، ويقع في ١٣٦ ورقة ، وفي معهد المخطوطات العربية بالقاهرة نسخة منها مصورة رقم ٣٨٥ .

(٣) ابن تغري بردي : المنهل الصافى (مخطوط) ج ٢ و ١٢٠ ، والنجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٢٩ .

(٤) ابن شاكر : فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٢٢٨ .

(٥) ديوان الشاب الظريف ، ص ٨١ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٣ .

تلك هي حياته في مصر ، بيد أنه فارقها ، وهو فتى ، بعد أن التحق أبوه بالخدم الديوانية ، وترك طريقته في التصوف . واستقر آخر أمره في ديوان المكس بدمشق ، واتخذ منزلا لسكناه في جبل قاسيون ، وقد أشار شمس الدين إلى ذلك بقوله :

يا قطرُ عمّ دمشق،واخصُص منزلاً ... في قاسيونَ ، وحلّه بنبات
وترنمي يا وُرْق فيه ، ويا صَبا ... مُرّي عليه بأطيب النَّفحات
فيه الرِّضا ، فيه الهوى،فيه الهدى ... فيه أصولُ سعادني وحياتي
فيه الذي كشفَ العمى عن ناظري ... وجلا شموسَ الحقّ في مرآتي
كفٌ تمدُ بجوده نحوي وأخـ ... ـرى للسَّماءِ بسائرِ الدَّعوات (١)

في دمشق الفيحاء ، وفي مثل هذا الحنان الأبوي العظيم ، وفي مثل هذا الجو من التصوف والدين ، نشأ الشاعر العبقري ، فنال ثقافته الأولى على يد أبيه وفي كنفه ، ولا سيما أنه كان من رجال التصوف وشعرائه الأعلام المشهورين ، فلا غرابة إن رأينا ابنه شمس الدين ينظم الشعر منذ نعومة أظفاره ، بيد أنه آنس في نفسه القدرة على ذلك ، ولقي كل تشجيع ، سواء أكان ذلك من أسرته أم من مجتمعه ، وهذا مما عجل ببدء حياته الأدبية في وقت مبكر جداً ، بعد أن تضافر لتنمية ذلك عاملان هامان : هما الوراثة والبيئة معاً ، وقد جاء في فوات الوفيات نقلا عن شهاب الدين بن فضل الله : «وكان لأهل عصره ومن جاء على آثارهم افتنان بشعره،وخاصة أهل دمشق، فإنه بين غمائم حياضهم رُبي ، وفي كمائم رياضهم حُبي ، حتى تدفق نهره ، وأينع زهره »(٢) .

بلغ الشاعر قمة مجده الأدبي وهو بعد في شرخ شبابه ، فاتصل بكبار المتقدمين من رجال عصره ، فمدحهم بشعره ، ويظهر أنه كان له اختصاص بابن عبد الظاهر (٣) ، فقد كان له من مدحه أوفر نصيب ، إذ أننا نعثر في

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٣ .

(٢) ابن شاكر : فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٢٦٣ .

(٣) عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان الجذامي السعدي، قاض وأديب من أهل مصر ولد سنة ٦٢٠ هـ وتوفي سنة ٦٩٢ هـ له (الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة) و (سيرة الظاهر بيبرس) و (الألطاف الخفية) و (تمائم الحمائم) وغير ذلك . وله شعر حسن . (الزركلي : الأعلام ج ٤ ص ٢٣٣ ، ٢٣٤) .

ديوانه على ثلاث مدح بعث بها إليه وهو في القاهرة ، كما تطالعنا في ديوانه مدح أخرى مفرقات ، ولعل أبرزها وأهمها القصيده التي مدح بها الملك المنصور الثاني سيف الدين محمداً ، صاحب حماة .

ذكر ابن الفرات في تاريخه أنه « شاعر مجيد ابن شاعر مجيد ، كتب طيبة ، وتعانى الكتابة وولي عمالة الخزانة بدمشق المحروسة » (١) .

لقي شعره رواجاً لدى الناس لسهولته وعذوبته ، واستطاع على الرغم من صغر سنه أن يصبح مرموقاً بين الشعراء المعاصرين المشهورين ، وهذا يفسر لنا إشارة معاصريه إلى أن جماعة من خلطائه كانوا لا يرون عليه تفضيل شاعر ، ولا يرون له شعراً إلا وهم يعظمونه كالمشاعر ،(٢) فمن الطبيعي إذن أن يتألب كثير من حساده ، ويضطر الشاعر إلى الرد عليهم ، ويصف حياته في هذه المرحلة بقوله :

ليتَ الليالي التي أولتْ بشاشتَها ... إن لم تدمْ هبةَ اللذاتِ لم تهبِ
ما بالها غلبتْ حزني على فرحي ... والقتِ الجدّ بين النجح والطلبِ
ما اختص بي حادثٌ منها فأغبنَها ... كذاك شيمتها في كلّ ذي أدبِ
مالي وللشعراء المنكري شرفي ... وفوق درّهمُ ما تحت مَخْشلبي (٣)
إن غبتُ عنهم تباهَوا في قصائدهمْ ... بغيبة الشمسِ تبدو زينة الشهبِ (٤)

ويفلح خصوم الشاعر الكثيرون في النيل منه ، ويحاولون الإقلال من شأنه أمام بعض ممدوحيه ، فيتنكر بعضهم له ، ويلحق به الذل والشقاء فيأسى على حظه الشقي ، ويندب شبابه التعس وحاله السيئة كما جاء في مستهل إحدى مدحه الوزيرية :

أملٌ سعيتُ أجدُّ في إتمامه ... فعلامَ حلّ الدّهرُ عقدَ نظامه؟(٥)
وإلى متى يَسعى الزمانُ لنقضِ ما ... أسعى بكلِّ الجَهْدِ في إبرامهِ ؟

(١) تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ٨٥ .
(٢) ابن شاكر : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ٢٦٢ ، ص ١٠ .
(٣) المخشلب والمشخلب : وهما لفظتان للنبط فيما يشبه الدر من حجارة البحر وليس بدرّ ، أو هو على شكل خرز أبيض يشاكل اللؤلؤ يخرج من البحر وهو أقل قيمة منه . وردت هذه اللفظة في شعر المتنبي وقد أهملها الجوهري .
(٤) ديوان الشاب الظريف ، ص ١٠ ، ١١ .
(٥) النظام : السلك ، وهو خيط العقد .

وإذا الفتى قعدت قوائمُ حظّه ... قام الرّدى من خلفه وأمامه
الذلُّ في أيامِ من قد كان لي ... ظنٌ بنيل العزّ في أيامه ؟
أينَ المروءةُ والقيامُ بحقٍّ من ... ألقى إليكَ ذمامه بزمامه ؟
لا تحقرنّ صغير قومٍ ربما ... كبرتْ فضائلهُ على أقوامه
تعسَ الشبابُ فما سُعِدتُ بشرخه ... ولقد شُقيتُ بظلمه وظلامه
أمكلّفي ذنبَ الزمانِ وليس لي ... ذنبٌ يؤاخذني على إجرامه
الرزقُ أحقرُ أن أضيِّعَ مدتي ... بالعذر عندَ سواكمُ وملامه (١)

ونرى الشاعر على الرغم من ذلك كله لا يقنطه اليأس ، ولا يكترث بما يحوكه حوله خصومه من الشعراء ، وإنما نراه يخاطب ممدوحه القاضي محيي الدين بن النحاس قائلاً :

دعني وشعري ومن في جفنه مرضٌ ... فلم يزلْ مرضُ الأجفانِ تطبيبي
وخذْ شواهدَ ما أمليتُ من فكَرٍ ... تثني عليكَ بملفوظٍ ومكتوبِ
فالدرُّ يحسن مثقوباً لناظمه ... وحسنُ لفظيَ درٌ غيرَ مثقوبِ
وكلما قيل شعرٌ أو يُقالُ فما ... أراه إلا رذاذاً من شآبيبي(٢)

ويتمادى حساده في غيهم ، ويزورون عليه القول ، ويبالغون في إيذائه ، حتى يبلغ به اليأس مبلغه من نفسه الطموح ، فينادي قائلاً :

كيفَ خلاصي من الذي أجدُ ؟ ... قد أعوزَ الصبّرُ عنه والجلَدُ
ما قلت يوماً : قد انقضى عددٌ ... من الأعادي إلا أتى عددُ
قد عرفُوا من أنا ؟ وعاقهُمُ ... عن اعترافٍ بفضليَ الحسدُ
ما بلغوا ما حويتُ من أدبٍ ... فبالغوا في أذاي واجتهدوا
وزوّروا قولَهم ، وما صدقوا ... في نقلِ شيء ، ضرّي به قصدوا
حاشا لمثل الأمير يسمع ما ... قالوهُ عنّي وما به شهدُوا
أو أتّني أحرِفُ (١) الفيافيَ من ... خلْفي ولا يستقرّ بي بلدُ (٥)

---

(١) المصدر السابق ، ص ٧٤ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٦ . الرذاذ : المطر الخفيف . والشآبيب : جمع شؤبوب ، وهو الدفعة من المطر .
(٣) ديوان الشاب الظريف ، ص ٣٢ .
(٤) حرف الشيء عن وجهه أي صرفه .
(٥) هذا البيت مستدرك من الطبعة الجديدة للديوان الصادرة في النجف الأشرف بسنة ١٩٦٧ وهو غير موجود في الطبعة المعتمدة .

مـا لـيَ إلا بيتـي أقيـم بـه   فـلا يرانـي مـن بعدهـا أحـدُ
والأرضُ إلا دمشـقَ لـي وطـنٌ   والناسُ إلا الأمـيرَ لـي سنـدُ(١)

وهكذا نرى الشاعر يزمع أمره على اعتزال الناس في عقر داره ، فلا يراه منهم أحد بعد أن دب اليأس في نفسه ، فعاجلته منيته المفاجئة ، ولما يسعد بعد بأيام شبابه النضير ، فقضى نحبه ، وهو في السابعة والعشرين سنة ٦٨٨هـ بعد أن نبه أمره وانتسر خبره ، فملأ الدنيا وشغل الناس في عصره ، فكانت حياته القصيرة قصة العبقرية المفجوعة ، وأسطورة الشاعر الذي لم يهنأ بالصبا الريان ، ولم يتمتع بالشباب الغض .

(٢)

آثاره الأدبية

نلاحظ غزارة انتاجه الشعري في وقت مبكر جداً من عمره ، فقد خلف لنا ديوان شعر مشهور متداول بين أيدي الناس(٢) وقد ذكر ابن الفرات نقلاً عن الصفدي فيما أخبره به شيخه أثير الدين ابو حيان قال : « رأيت ديوان ابن العفيف بخطه ، وهو في غاية القوة والقلم الجاري »(٣) وأغلب الظن في اعتقادي أن جماعة من خلطائه المعجبين بشعره من هواة مذهب التورية والانسجام هم الذين قاموا بجمعه وترتيبه بحسب الحروف الأبجدية (٤) . يضاف إلى ذلك أن الشاعر كان ينشىء أحياناً بعض ما يروق له كتابته نثراً ، فقد أثر عنه أنه أنشأ رسالة صغيرة في ورقتين ، أسماها « مقامات العشاق » وهي منشورة في كراس خاص ملحق بديوان التلعفري ، وهو يصف في مستهلها ولعه بالأراجيز في سن التمييز (٥) ، ثم يتحدث عن حبه وخروجه للرياض والتقائه بعاشقين وحديثه معهما .

---

(١) ديوان الشاب الظريف ، ص ٣٢ .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٣٨١ .

(٣) تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ٨٥ .

(٤) طبع ديوانه عدة طبعات نشير منها الى أربع قديمة الاولى سنة ١٢٨٧ هـ ، والثانية سنة ١٣٠٨ هـ ، والثالثة سنة ١٨٨٥ م ، والرابعة في القاهرة عند صبح من غير تاريخ . واشير الى الطبعة الجديدة التي ظهرت في النجف الأشرف بتحقيق شاكر هادي شكر سنة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .

(٥) الشاب الظريف : مقامات العشاق ، ص ١ .

القسم الثاني

شعره ومذهبه الفني

(١)

أغراضه وشعره

يلاحظ في ديوان الشاعر انه طرق ثلاثة أغراض رئيسية هي : المدح والأغزال والخمريات ، ولا بد من وقفة عندها لتدرس بالتفصيل .

مدح مختلفة

يحتوي ديوانه على مدح مختلفة ، من جملتها مدحة نبوية ، استهلها بقوله :

أرضَ الأحبةِ من سفحٍ ومن كثب سقاك منهمرُ الأنواءِ من كثبِ(١)

وسوف نلقي نظرة على هذه النبوية في معرض حديثنا عن المدح النبوية في فصل مقبل نظراً لأهميتها ، فهو يتحدث فيها عن العرب ، شأنه في ذلك شأنه في معظم مطالع النسيب ، فقد أعلن إيمانه بالعروبة في عصر كثر فيه التحدث عن الأتراك ، ولا سيما أن الطبقة الحاكمة من غير العرب ، فلم يخفه ذلك وإنما أعلنها صرخة عربية بقوله :

قومٌ همُ العربُ المحميُّ جارُهمُ فلا رعى اللهُ إلا أوجهَ العربِ(٢)

---

(١) ديوان الشاب الظريف ، ص ٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥ .

أما المدح الأخرى فقد صورت لنا حياة الشاعر خير تصوير،إذ إنها عبّرت بشكل خاص عن ذاته وكثيراً ما تحدث فيها عن أعدائه وحساده ومناوئيه . كما توضح لنا ذلك في الشواهد الشعرية التي عرضنا لها من خلال بحث مراحل حياته .

لقد تأكد لنا انه لم يمدح من سلاطين المماليك أحداً ، وإنما اكتفى بمدح الملك المنصور الثاني محمد صاحب حماة (١) ، وهو الوحيد الذي مدحه من ملوك عصره وسلاطينه ، وجاء في مدحته قوله :

الخافُ صرْفَ الدّهرِ أم حدثانهُ ... والدهرُ للمنصورِ بعضُ عبيدهِ
ملكٌ نداهُ فكّني وانتاشني (٢) ... من مخلبَيه ومن إسارِ قيودهِ
ملكٌ إذا حدّثتَ عن إحسانه ... حدثتَ عن مبدي الندى ومعيدهِ
سادَ الملوكَ بفضلهِ وبنفسه ... والغرُّ من آبائه وجدودِ
وإذا ترنمتِ الرواةُ بمدحه ... وثنائه اهتزت معاطف جودهِ
هاجرتُ نحو محمدٍ لما رأيـ ... ـتُ العالمَ العلويّ في تأييدهِ
وثنيتُ أعناقَ القوافي نحوهُ ... ونظمتُ درّ مدائحي في جودهِ
فلو انني خُيّرتُ من دهري المنى ... لاخترت طولَ بقائه وخلودهِ
يا آلَ أيوبٍ جُزيتم صالحاً ... عن محسنٍ مَدْحِ الملوك مجيدهِ
ونعِمتم ما افترّ عن ثغرِ الضّحى ... صبحٌ، وما فصحَ الدجى بعمودهِ (٣)

تتسم مدحه بالإغراق والمبالغة في نعت الممدوح ، وكانت تربطه بممدوحيه صداقات متينة الأواصر ، لعل سببها يرجع إلى أن أباه كان صاحب نفوذ ومنصب كبير في دمشق ، فلا غرابة إن رأيناه إذاً لا يفكر بما يفكر به غيره من الشعراء ، فهو بالطبع في كنف أبيه ورعايته ، وقد

---

(١) وهم جامع الديوان المطبوع في النجف ، فقال انه المنصور محمد بن عثمان الأيوبي ، وهذا ليس بصحيح لان الملك المذكور توفي سنة ٦٢٠ هـ أي قبل ولادة الشاعر ، والصحيح ما اثبتناه لان المنصور الثاني توفي سنة ٦٨٣هـ اي قبل وفاة الشاعر بخمس سنوات.

(٢) انتاشني : خلصني .

(٣) ديوان الشاب الظريف ، ص ٢٦ ، ٢٧ .

كفاه مؤنة السعي وراء الرزق بجد واهتمام ، كما يتضح لنا ذلك في مدح حسام الرازي :

وحبَّذا الشامُ إن سمت بحسام الدِّين ، منها البطاحُ والكنبُ
من معشرٍ قد سَمَوْا وقد كرُموا فعلاً ، وطابوا أصلاً إذا انتسبوا
يا ضاحكاً والحياة عابسةٌ ونابتاً والجبالُ تضطربُ
الدَّهرُ روحٌ وانت فيه قضيبُ البانِ غصناً وغيركَ الحطبُ
خُذْ مِدحاً لم أرِدْ بها مِنَحاً حسبى أني إليك أنتسبُ (١)

يلاحظ أنه في إغراقه ومبالغته يخرج أحياناً عن الحد المعقول كما يتضح لنا ذلك في القصيدة التي مدح بها الأمير ناصر الدين الحراني (٢) ، وجاء فيها قوله :

أعيذ قلباً ثوى حبّ الأمير به ... من أن يُرى بسوى حبّيه ملتهبا
لا تنظر العين منه السيف منصلتاً (٣) ... إن فارقَ الغمدَ حل الهامَ فاحتجبا
لو أقسم المدلجُ الساري (٤) على قمر ... باسم الأمير دعاهُ قطْ ما غربا
ولو وضعتَ اسمه يوما على ذكرٍ (٥) ... طاحت رؤُوسُ الأعادي وهو ما ضربا
ولو تلوتَ على ميْتٍ مناقبَهُ ... ردّ الإله له الروحَ التي سلبا
ولو مزجت بماء المزنِ ما اكتسبت ... من لطف شيمته ما غصّ من شربا
لما انتسبتُ إلى أبوابه كبُرَتْ ... بي همةٌ صَغَّرتْ في عيني الرّتبا
لو رُمت أسحبُ أذيالي على فلكٍ ... لمدّ لي سببٌ من جوده سببا (٦)

هكذا نلحظ أن المبالغة في نعت الأمير الحراني وبيان بأسه وكرمه تبلغ حداً يخرج بالشاعر عن المعقول ، ويدنيه من المستحيل الذي لا يمكن تحقيقه ،

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٢ .
(٢) هو ناصر الدين محمد بن الافتخار ، كان والياً على دمشق ، واستعفى منها ، ثم أكره على نيابة حمص فلم يطل نيابته بها ، وتوفي سنة ٦٨٤ هـ .
(٣) في أصل الوضع ذكر السيف حدّه ، والمذكر من السيوف ذو الماء .
(٤) المُنْصلت من السيوف الصقيل الماضي المجرّد . والغمد القِراب . والهام جمع هامه ، وهي الرأس .
(٥) المدلج السائر أو ل الليل ، والساري هو السائر في أي وقت من أوقات الليل .
(٦) ديوان الشاب الظريف ، ص ٧ ، ٨ .

بيد أن الشاعر عرف كيف يخرج من هذهالنعوت بأسلوبالامتناع والوجوب.
اعترف الشاعر بهذه المبالغة في مدحه ، وقارن نفسه بممدوحه ، فلم يجد بين الناس من يحوي المفاخر مثله ، ولا بين الشعراء من يقول مثله :

ولي مدَحٌ بالغتُ فيهـا بلاغـةً وأثنيتُ فيها بالذي أنا عالمُ
ولي فيكَ آمالٌ عليكَ بلوغُها فلا دافعٌ دونَ الذي أنتَ حاكمُ
أبعدكَ يحوي المجدَ مَنْ هو فاخرٌ وبعدي يقولُ الشعرَ مَنْ هو ناظمُ
وإنَّ لساني ذو الفقار (١) عليـهُ علاكَ ، فمنْ مثلي ومثلكَ غانمُ؟ (٢)

نخلص مما تقدم معنا من مطالعة مدحه إلى أن نؤكد انها تمتاز بالمبالغة والاغراق ، كان يغرق ويبالغ إذا في نعت الممدوح حتى كان القول يجنح به إلى الشطط الذي لا يستسيغه عقل سليم ومنطق قويم :

أحبابنا ، ما الجزعُ ؟ ما المنحنى ؟ ما رامـة ؟ ما الشّعب لولاكـمُ ؟
ما قامَ هـذا الكونُ إلا بكـمْ ولا الوجودُ المحضُ إلا كـمُ (٣)

مهما يكن من أمر فجدير بالذكر هنا بالاضافة الى ما تقدم أن ثقافته الصوفية التي طبعه بها أبوه ، وترتبته الدينية الخاصة ، وغروره بنفسه ، وغلواء شبيبته ، كانت من العوامل التي أثارت حوله عاصفة هوجاء من الحساد والأعداء ، وطبعت بالتالي مدحه بطابعها الخاص .

أغزال وخمريات

لم يكن الشاعر في أغزاله وخمرياته مقلداً غيره من الشعراء ، وإنما صور من خلالها حياته الخاصة خير تصوير ، إذ استطاع أن يبرز دقائقها ، فتحدث عن مجونه وعبثه ، وقد أشار بعض معاصريه إلى جماعة من أصحابه ، كان يجتمع بهم ، ويقضي معهم أيامه ولياليه ، وكان إمامهم في

---

(١) ذو الفقار ، هو سيف العاص بن منبه ، قتل يوم بدر كافراً ، فصار الى النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم صار من بعده الى ابن عمه علي بن ابي طالب .
(٢) ديوان الشاعر الظريف ، ص ٧٥ ، ٧٦ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٧٥ .

مجونهم وعبثهم ، كما يظهر في القول الذي استشهد به ابن شاكر الكتبي في فواته : « وقد أدركت جماعة من خلطائه ، لا يرون عليه تفضيل شاعر ، ولا يروون له شعراً إلا وهم يعظّمونه كالمتساعر ، لا ينظرون له بيتاً إلا كالبيت ، ولا يقدمون عليه سابقاً حتى ولو قلت : ولا امرأ القيس لما باليت ، ومرت له ولهم بالحي أوقات ، لم يبق من زمانها إلا نذكره ، ومن إحسانها إلا تشكره » (١) .

تلك هي صورة عن حياة هذه الجماعة ، ولعلنا قادرون على توضيحها من خلال دراساتنا أغزال الشاعر وخمرباته . فقد كان المعبر الصادق عن هذا النمط من الحياة في هذا العصر .

نقف بادىء ذي بدء عند أغزال الشاعر ، فنجد أنها لا تختلف كثيراً عن نسيبه التقليدي ، إذ استطاع ببراعة ومهارة أن يتخذ من نسيب مدبحه صورة حقيقية عن حياته الخاصة ، وقد ينسيه الغزل ذكر النسيب ، فيغدو غزلا حقيقياً يمثل لدى الشاعر تجربة عاطفية خاصة كما في قوله :

صدقتمْ ، قدُّهُ يحكي القضيبا ... ألمْ ترَهُ حوى زهراً وطيبا ؟
ملأتُ يديهِ من ياقوتِ دمعي ... وكنتُ محققتُ لؤلؤهُ نحيبا
ذهلْتُ عن النّسيب بهِ فباتتْ ... محاسنُهُ تعلّمني النّسيبا
أيا قمراً ، أعدْ عندي طلوعاً ... وإلا فاتخذْ عندي مغيبا
ويا ليلَ الذّوائب(٢) طلتَ فاقصُرْ ... وكنْ منْ تحتِ اخمصِهِ(٣) قريباً(٤)

وهكذا نجد النسيب التقليدي يتضاءل حتى يكاد يكون كله غزلاً حقيقياً بعيداً عن كل تعقيد كما في مطلع المدحة التي جاء فيها قوله :

ياراقدَ الطّرف ، ماللطّرف إغفاءُ ... حدّثْ بذاك ، فما في الحبّ إخفاءُ
إن اللّياليَ والأيامَ منْ غزلي ... في الحسنِ والحبّ أبناءُ وانباءُ

(١) ابن شاكر : فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٢٦٣ .
(٢) الذوائب : جمع ذؤابة ، وهي الناصية أي شعر مقدم الرأس .
(٣) الأخمص من باطن القدم ما لم يصب الأرض .
(٤) ديوان الشاب الظريف ، ص ٩ .

إذ كلُ نافرةٍ في الحبِّ آنسةٌ ... وكلُّ مائسةٍ في الحيِّ خضراءُ
وصفوهُ الدَّهر بحرٌ والصفا سفنٌ ... وللخلاعةِ إرساءُ إسراءُ (١)

وجاء في مطلع مدحة أخرى قوله :

لي مَنْ هواكَ بعيدُهُ وقريبهُ ... ولكَ الجمالُ بديعه وغريبُهُ
يا مَنْ أعيذُ جمالَهُ بجلالهِ ... حذراً عليه من العيونِ تصيبُهُ
إنْ لم تكنْ عيني فإنكَ نورُها ... أو لم تكنْ قلبي فأنتَ حبيبُهُ
هل حرمةٌ أو رحمةٌ لمتيَّمٍ ؟ ... قد قلَّ فيكَ تصبرُهُ ونصيبُهُ
ألِفَ القصائدَ في هواكَ تغزُّلاً ... حتى كأنَّ بكَ النسيبَ نسيبُهُ
هبْ لي فؤاداً بالغرام تشبُّه ... واستبقِ فوداً بالصدودِ تشيبُهُ
والنجمُ أقربُ مِنْ لقاكَ منالُهُ ... عندي وأبعد من رضاكَ مغيبُهُ (٢)
لم يبقَ لي سرٌ أقولُ ، تذيعُهُ ... عني ، ولا قلبٌ أقولُ تذيبُهُ (٢)

هكذا يتحول النسيب ، وينقلب إلى غزل حقيقي وتصوير فني لنمط من حياة الخلاعة في عصره من خلال شعره ، ولقد أدركنا من خلال ما مرَّ معنا أهمية هذا التطور ، ولعلنا نستطيع أن نتبين المذهب الخمري الخيامي الذي سنشير إليه في فصل مقبل .

نكتفي بهذا القدر من النسيب والتشبيب اللذين استهل بهما الشاعر مدحه المختلفة ، ولا بد لنا في ختام ذلك من الاشارة الى أنه كان يكثر من ذكر العرب والأعراب في عصر ساد فيه حكم فئات من غير العرب ، وقد لاحظنا ذلك في مستهل مدحه القاضي محيي الدين بن النحاس :

قف بالركائب أو سقها بترتيبِ ... عسى تسيرُ إلى الحي الأعاريبِ

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦ .

واسألْ نسيماً ثفتْ أعطافنا أصُلاً(١): من أينَ جاءت؟ ففيها خمرةُ الطِّيبِ

ياربــةَ الهــودجِ المحمــي جانبــهُ إلامَ حبكِ يغريني ويغري بــي؟(٢)

أكثر الشاعر مــن ذكر العرب في مطالع النسب والأغزال(٣) على غير العادة المتبعة في هذا العصر ، كما ورد في بعض الأحيان ذكر ظبي من الترك(٤) اقتداء بأغلب الشعراء في هــذا المعنى الذي اتخذوه نكأه لهــم مستجده في تشبيهاتهم .

هكذا اشتهر الشاب الظريف بأغزاله الرقيقة ، وكانت تجربة حقيقية في حياته ، وقد حاول أن تكون بعبدة عــن الكلف والتصنع ، ولكنها طبعت بأسلوب التصوف ، إذ كان يكثر مــن الاصطلاحات المعروفة ، وهذا بالطبع تمرة ثقافته الدنية على يد أبيه ، أحد كبار المتصوفة مــن أصحاب الطرق المشهورين ، وقد توضحت لنا هذه الميزة في قصيدته التي جاء فيها قوله :

حــديث غرامــي في هــواك قديــمُ وفــرطُ عذابــي في هــواك نعيــمُ

بما شئتَ عذّب غــير سخطِكَ إنه وصــدقِ ولائــي في هــواكَ أليــمُ

تمثّلــكَ الأشواقُ وهمــاً لخاطري فيدركني بالخــوف منــكَ وجــومُ

وتقنــعُ منــكَ الروحُ لمــحَ توهمٍ فتُحيي بها الأعضاءَ ، وهــي رميمُ

هنيئاً لطرفٍ فيكَ لا يعرفُ الكرى ونبــاً لقــلبٍ فيــكَ ليس يهيــمُ

ولما جــلاكَ الفكــرُ يا غايــةَ المنــى فظــل بقلبــــي مُقعــدٌ ومُقيــمُ

وما الكونُ إلا صورةٌ أنــت روحهــا وجسمٌ بغيرِ الرّوح ، كيف يقومُ ؟

توهمَ صحبي أن بــي مسّ جِنّةٍ وأنكــر حــالي صاحــبٌ وحميــمُ

فبحتُ بما ألقــاهُ منــكَ مصرحــاً ومــا أنــا لــذّاتِ الغــرامِ كتــومُ

ولما بدتْ في طُــورِ خدّكِ جِــذوةٌ ولاحتْ لقلبي عــادَ وهوَ كليــمُ(٥)

يلــذُّ لقلبــــي في هــواكَ عذابُــهُ ولِمْ لا وبالأحوال أنــتَ عليــمُ(٦)

---

(١) أصل : جمع أصيل .

(٢) ديوان الشاعر الظريف ، ص ١٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٧٠ ، ٥٤ ، ١٤ ، ٥ ، ٨٠ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٦٥ .

(٥) يلاحظ هنــا التورية بطور وكليم ، وكليم في الأصل هــو مجروح ، والمــراد هنــا أنــه محــروق .

(٦) المصدر السابق ، ص ٧٢ .

نلاحظ بوضوح كثرة الاصطلاحات الصوفية في إطار جميل من التوريات المستساغة بشكل يسترعي الانتباه حقاً ؛ ونلمس ، ونحن نتلو هذه الأبيات ؛ الرقة المتناهية والانسجام الذي عرفناه من قبل في شعر التشرف الأنصاري . يضاف إلى ما تقدم أن الشاعر استطاع بمهارة ان يوّري في الأبيات الأخيرة ، وسنوضح ذلك في دراسة مذهبه الفني .

استخدم الشاعر الأبحر القصيرة أو المجزوءة ذات الجرس الموسيقي وذلك زيادة في الرقة ، كما في قوله :

أيهـــا الهاجـــرُ حـــدثـ ـــنيَ ما أوجـــبَ هجـــركْ ؟
ما الـذي ، لـو جـدتَ بالوصـ ـل ، حبيبـي ، كـانَ ضـرّك ؟
أيّهـــا الصّـــابرُ عنّـــي ليتنـــي أعطيـتُ صبـــرَكْ
أيّهـــا الجـــاهلُ قـــدري أنـــا لا أجهـــلُ قـــدرَكْ
أيّهـــا الشـــاغلُ أسـرا ريَ ، مـا أفـرغَ سـرّكْ !
يـا محيـــاهُ أنـــار الـ ـلّه في العـالمِ بـدرَكْ
قـد يئسنـا منـكَ خيـراً فكفـانا اللهُ شـرّكْ (١)

نلحظ في هذه المقطوعة الشعرية بعض السمات الصوفية ، ونكاد نشعر بوزنها الراقص الذي تستسيغه النفس . فتقبله دون إجهاد فكري أو تكلف عاطفي ، وانما نراه وقد بدت لنا نفسيته وهي ترتعش في حمى الأهواء ، حتى إننا نراه يتضاءل أمام محبوبه ، فيصبح عبده الأمين :

أنتـمْ لعبدِكـمُ أحبـــهْ ولـه عليكـمْ حـقُ صحبـهْ
يا نائمـيـنَ عـن المسهّـ ـد فارغـيـنَ مـن المحبّـة
واللهِ مـا عنـدي مـن الـ ـسلوانِ عنكـم وزنَ حبـهْ
قـد كنتـمْ أنسـي فهـا أنـا بعدكـمْ في دار غرْبـهْ
لا فرّجَـتْ عـن مهجتـي إن مِلـتُ للسلـوانِ ، كُرْبـهْ (٢)

هكذا نجد أن الشاعر يظهر بمظهر العاشق المستكين والمحب الذي يستسلم

---

(١) ديوان الشاب الظريف ، ص ٤١ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٤ .

بكلتيه لنزوات المحبوب ، فهو الآمر الناهي ، وهو العبد المطيع ، فاذا عبثت الخمر بعقله رأيناه يتخلى عن حديثه العذري ليتحدث لنا عن مجونه وخلاعته، كما في مقطوعته التي استهلها بقوله :

ناوليني الكأس في الصبح ثم غني لي على قدح (١)

وتعبث الأقداح بلبه ، فيطلب من صاحبته أن تعانقه باليدين كما يفعل الأحباب من الفرح ويطلب إليها أن تدع أزرار طوقها ليتمتع بصدرها الفتان بالملح ، ثم تذهب بعد ذلك بالأمان ، فلن يبيح بسرها وحبها ، وسوف ندرس هذه القصيدة في فصل مقبل .

نلاحظ من طرف آخر أن الشاعر كان يمزج بين نعته الخمر وغزله الخليع ، وكثيرا ما كان يجمع بين وصف الطبيعة ومجالسه الخاصة كما يظهر لنا ذلك في مقطوعته التي كان يستدعي بها صديقا غاب عن مجلس أنسه :

يومٌ أتانا بَرْدُهُ في بُردِهِ أضحى بها مِثلَ الحديدِ الماءُ
والأرضُ قد بُسِطتْ لحسنِ صنيعهِ بالثلجِ في الأرض اليدُ البيضاءُ
فاحضرْ ، فنحن كما تُحبُّ بمجلسٍ لو لم تغِبْ تمَّتْ به السَّراءُ (٢)

هذا شأن الشاعر في يوم قرير متلج ، وهذا شأنه في كل يوم ، يجتمع وصحابته ، ويشترك معهم في تجرع كؤوس العقار،دون حسيب أو رقيب، فقد اجتمع لديه الفراغ والشباب والجدة ، ولا عجب إن رأيناه ينغمس في ملذاته ومفاسده،ويقضي أيام شبابه ولياليه في متنزهات دمشق القريبة منها، أو البعيدة عنها على ضفاف جدول صغير في قرية القصير (٣) .

يا حبّذا نهرُ القُصير ، ومغربا ونسيمُ هاتيكَ المعالمِ والرُّبا(٤)
وسقى زماناً ، مرَّ بي في ظلِّها ما كانَ أعذبَهُ لديَّ وأطيبا
أيامَ أولعُ بالخدودِ نقيَّةً والقدِّ أهيفَ ، والمقبَّلِ أشنبا (٥)

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٤ . (٢) ديوان الشاب الظريف ، ص ٤ .
(٣) القُصير : هي في الأصل تصغير قصر، وهو اسم يطلق على عدة مواضع، والمقصود بها هنا أول ضيعة لمن يريد حمص من دمشق ، وهي على نهر صغر جار . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٣٦٧) .
(٤) المعالم آثار الديار .
(٥) أهيف : ضامر . والأشنب بارد الأسنان عذبها .

وأزورُ حانات المُدام ولا أرى غيرَ الذي قَضَتِ الخَلاعةُ مَذْهبا
مالي ، وما فاتَتْ سنيَّ أصابعي لم أقض باللذّات أوطارَ الصِّبا
فلأهْجُرَنَّ أخا الوفار وشأنَهُ ولأركبنَّ من الغواية مَركَبا
ولأطلِعنَّ شموسَ كلِّ مسرَّةٍ وأكون مشرقَ أفقَها والمغربا
يا صاحبيَّ خذا مقالة مغرمٍ قولَ امرىءٍ عرفَ الأمورَ وجرَّبا
لم يخلق الرحمنُ شيئاً عابثاً فالخمرُ ما خُلِقتْ لأن تنجنَّبا (١)
وتغنيا لا بالحطيم وزمزمٍ بل بالحمى وبساكنيه وزينبا (٢)

اعترف الشاعر في هذه الخمرية بمذهبه في الخلاعة دون تستر أو خوف ، وأعلن أنه سيسير في طريق الغوايه ، وأنه سطلع شموس مسراته من خلل أكواب صهبائه ، حتى إننا نراه يتمادى في ضلاله وغيه ، ويعلنها صرخة في وجه من ينصحه ليترك إدمان الخمر ، ويتطرق من ذلك ليؤكد حقيقة نظرته، ويعتقد أن الله لم يوجدها لكى يتجنبها البشر ، وهذا يخالف ما جاء صراحة في القرآن الكريم .

ننتهي مما تقدم معنا من خمريات الشاعر وأغزاله لنؤكد أخيراً أنه كان في معظم الأحيان يجمعها معاً ، وهو يمثل في عرفنا المدرسة الخمرية الخيامية النامية في النصف الثاني من القرن السابع الهجري ، وهي كما نرى استمرار طبيعي لمذهب شعراء الخلاعة الذين أتينا على ذكرهم .

(٣)
مذهبه الفني

تقفالشاعر مذهب الشرف الأنصاري في التورية والانسجام واستطاع ان ينفخ الحياه في مذهبه بعد أن مر على وفاة رائدها الاول أكثر من عشرين

---

(١) ديوان الشاب الظريف ، ص ٤ . في الديوان : (لم يخلق الرحمن شيئا عابساً) ، والصواب ما أثبتناه .

(٢) استدركنا هذا البيت من طبعة الديوان الجديدة ص ٥٣ ، ولعل أحد النساخ أسقطه مدفوعاً بشعور ديني .

سنة. وقد رأينا فيما أوردناه من شعره رقته الأسلوبية وعذوبته المستساغة، وهي دلالة على إيمان الشاعر بالانسجام ، وهو أول مبادىء المذهب الأنصاري المذكور آنفاً .

أما التورية فقد كثرت في شعره ، واستطاع بمهارته الفائقة أن يجعلها مستساغة في النفس بحيث لاتتعارض مع انسجاماته الشعرية ، وقد اعترف شهاب الدين بن فضل الله بذلك ، فقال : « رق شعره فكاد أن يشرب ، ودق فلا غرو للقُضُب أن ترقص والحمام أن يطرب ، ولزم طريقة دخل فيها بلا استئذان ، وولج القلوب ولم يقرع باب الآذان ، وأكثر شعره ـ لا بل كله ـ رشيق الألفاظ ، سهل على الحفاظ ، لا يخلو من الألفاظ العامية ، وما تحلو به المذاهب الكلامية ، فلهذا علق بكل خاطر ، وولع به كل ذاكر »(١).

يؤكد هذا القول ما تقدم معنا من بيان حول مذهبه ، ويوضح بالتالي أهميته كشاعر رائد ، وكان على الرغم من صغر سنه ، يجمع حوله حلقة من الشعراء من أصحاب هذا المذهب . ويقتدون به في نهجهم الشعري ومذهبهم الفني .

قلتُ ، وقد أقبل في حُلةٍ سوداءَ : مَنْ حلّ بأحشائي ؟
عرّفتُ كلّ النّاسِ يا سيّدي أنّك أصبحتَ بسوداءِ (٢)

ومنها قوله في حبيب وافاه بثوب احمر :

وافى بأحمر كالشّقيقِ ، وقد غدا يهتزُّ فيه بقامةٍ هيفاء
فعجبتُ منه ، وقد غدا في حُلةٍ حمراءَ ، إذ مازالَ في سوداء (٣)

وقوله :

عذيري فيهِ مِنْ قمرٍ يريكَ بخدّهِ الزُهرَهْ (٤)
إذا قارنَ بالأكؤسِ ، إذْ يمزُجُها ، ثَغرَهْ

---

(١) ابن شاكر : فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٢٦٣ .

(٢) ديوان الشاب الظريف ، ص ٥ . التورية واردة في سوداء لانه يحتمل أنه في حلة سوداء ، أو انه في سواد القلب أي حبته .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥ .

(٤) العذير : العاذر والنصير ، ويقال عذيرك من فلان بالنصب اي هات من يعذرك ، ويقال : من عذيري من فلان أى من نصيري وعذير الرجل ما يروم وما يحاول مما يعذر عليه اذا فعله والزهرة : الكوكب الابيض، والزُهرة من الكواكب السيارة ، وعند الأقدمين الهة الجمال.

أراكَ الذَّهَبَ المصريّ فوقَ الفِضّةِ النّقرَهْ(١)

وقوله :

تلاعَبُ النّعْرِ على رِدْفِهِ ... أوقعَ قلبي في العريضِ الطّويلْ
كم قلتُ مِنْ وجدي به مُشفِقاً ... ولي حشىً مِنْ هجرِهِ في غلبلْ
لبس خليلاً لي ولكنّهُ ... أضرمَ في الأحشاءِ نارَ الخليلْ
يا رِدفَهُ جُرْتَ على خَصْرِه ... رفقاً به ما أنت إلا ثقيلْ (٢)

نكتفى بهذا القدر من بعض ماعثرنا عليه من شواهد التورية ، وسوف نعود إلى ذلك في معرض دراسة الشعر ، بيد أننا نؤكد من جديد ، أن الشاعر كان يحاول جهده أن يبرز زخارفه البديعية بعيدة عن التكلف ، فجاءت ندية في رونق الطبع ، برفدها معين من العذوبة والرقة المستساغة ، فكان الشاعر بحق من الشعراء البارزين في النصف الثاني من القرن السابع الهجري ، واستطاع على الرغم من صغر سنه أن يحتل مكانة مرموقة بين الاعلام من شعراء الشام .

كان أدباء عصره وأبناؤه المثقفون ينتظرون ميلاد شاعر جديد يسد الفراغ الكبير الذي شغر بعد موت الشرف الأنصاري ، ولا سيما أنه خلف من بعده مذهباً بديعياً خاصاً ، سلك الشعراء سبيله ، واستنوا سننه ، ولكنهم لم يجدوا بغيتهم الحقيقية إلا عند ظهور هذا الشاعر الشاب الذي لقي عنتاً من أدباء عصره وحساده ، فلم يأبه لهم ، وإنما أقام حوله جماعة من أرباب مذهبه ، فساروا خلفه وتعصبوا له ، ولكن القدر لم يمهله كثيراً ، فانطوت فجأة هذه الصفحة الغراء من حياة هذا الشاعر ، ولكنها بقيت كوكباً ألقاً في سماء أدبنا العربي .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٦ . النقرة من الذهب والفضة : القطعة المذابه ، وقيل هو ماسبك مجتمعاً منهما . والنقرة السبيكة وجمعها نِقار . ونبذ النقر معروف ، قال ابن الاثير : النقير أصل النخلة ينقر وسطه ثم ينبذ فيه التمر ويلقى عليه الماء فيصير نبيذا مسكرا وكان أهل اليمامة يفعلون ذلك .

(٢) ديوان الشاب الظريف ، ص ٦٥ ، ٦٦ . والتورية هنا بالردف واضحة مشيرا الى حرف الردف وهو كل مد قبل الرويّ كالألف أو الياء ولا فاصل بينهما .

الفصل الثاني

أغراض وفنون

القسم الأول

المذاهب الشعرية المعاصرة

نلاحظ في هذا العصر مذاهب أدبية مختلفة ومدارس شعرية متعددة بعضها ينحو منحى تقليدياً ، وبعضها الآخر ينهج منهجاً وسطاً ، وبعضها الثالث يسلك سبيلاً جديداً . فنحن في هذا البحران الأدبي نشهد صراعاً بين التقليد والتجديد ، ونجد الأدباء والشعراء يختلفون في مقدار ما يأخذونه من هذا وذاك ، أو يجمعون ما بينهما ، أو يتخذون من أساليب التجدد والتطور ما يناسب أغراضهم الشعرية المستحدثة أو معانيهم المولدة التي استمدت من مظاهر الحياة المستجدة .

ونحن ، لكي نظهر هذا الأمر ، ونعرض للمذاهب الشعرية المختلفة ، لا بد لنا من وقفة عابرة عند مفهوم القدماء عن الشعر والشعراء .

(١)

آراء في الشعر

يحسن بنا أن نعرض تطور مفهوم الشعر عرضاً سريعاً عبر العصور حتى نصل به إلى هذا العصر الذي ندرسه ، وذلك لنضع الشعر العربي موضعه من هذا البحث .

يعتقد القدماء أن الشعر كالرسم والموسيقى والرقص نوع من أنواع التقليد للطبيعة كما يقول سقراط ، وقد بنيت هذه النظرية على تقسيم الوجود إلى عوالم ثلاثة : عالم المثل ، وعالم الحس ، وعالم الظلال ، ومن هذا الأخير يستمد الشعراء أخيلتهم وصورهم وأعمالهم الفنية .

أقام افلاطون صرح جمهوريته الفاضلة ، ورأى بثاقب بصره أن الشاعر التراجيدي محاك ، وهو كغيره من المقلدين يبتعد ثلاث درجات عن عالم الحقيقة ، وهو لهذا السبب لايريد في جمهوريته شعراء يثيرون اللذة والمتعة ، وإنما يريد منهم الطيبين الأخيار الذين يدعون الناس إلى الخير ، ويترفعون عن مدح الناس ويقتصرون على تمجيد الآلهة .

تحدث القرآن الكريم عن هذه الطائفة من الشعراء الغاوين الذين يهيمون في كل واد ، فيجاوزون الحد مدحاً وهجاءً ، ويبالغون في الكذب ، واستثنى منهم « الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيراً » (١) .

وجاء بعده ارسطو ، وخالف أستاذه في نظريته ، ورأى أن المتعة يجب أن يستهدفها الشعراء في شعرهم ، وصرح في كتاب الشعر أن شعر الملحمة والمأساة والملهاة تعد أنواعاً من المحاكاة حين نشملها بالنظرة الكلية .

عرف نقاد العرب الأقدمون بعض هذه النظريات الشعرية ، لكنهم لم يتخذوها سبيلهم في فنونهم وأغراضهم ومعانيهم ، واقتصروا على القصائد الغنائية ذات المدى المحدود مما يلائم حياتهم وطبيعتهم ونفوسهم ، إذ عرف عنهم أنهم لم يستسيغوا الملاحم الطويلة المعروفة في آداب اليونان والفرس .

لفتت « الإلياذة » نظر العرب من الأدب اليوناني ، فقد تحدث ابن الأثير عنها عرضاً ، ومما قاله : « فاوضني بعض المتفلسفين في هذا ، وانساق إلى شيء ذكر لأبي علي بن سينا في الخطابة والشعر ، وذكر ضرباً من ضروب

---

(١) سورة الشعراء ٥٦/٢٢٧ .

الشعر البوناني ، يسمى « اللاغوذيا » ، وقام فأحضر كتاب الشفاء لأبيعلي ، ووقفني على ماذكره ، فلما وقفت عليه استجهلته » (١) .

ولفتت التساهنامه نظر العرب أيضاً ، وهي أهم مؤلف فارسي استرعى انتباههم ، وقد ذكرها أيضاً في معرض حديث ابن الأثير عن الإطالة في الشعر العربي ، وذكر أن احتجاج الشاعر إن احتاح إلى ذلك فإنه لا يجيد في الجميع ، ولا في الكثير منه ، بل يجيد في جزء قليل ، والكثير من ذلك رديء غير مرض . وخلص بعد ذلك الى الفول : «وعلى هذا فإني وجدت العجم يفضلون العرب في هذه النكتة المشار إليها ، فان شاعرهم يذكر كتاباً مصنفاً من أوله إلى آخره شعراً ، وهو شرح قصص وأحوال ، ويكون مع ذلك في غاية الفصاحة والبلاغة في لغة القوم ، كما فعل الفردوسي في نظم الكتاب المعروف بشاهنامه ، وهو ستون ألف بيت من الشعر ، ويشتمل على تاريخ الفرس ، وهو قرآن القوم ، وقد أجمع فصحاؤهم على أنه ليس في لغتهم افصح منه ، وهذا لايوجد في اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها وأغراضها على أن لغة العجم بالنسبة إليها كقطرة من بحر (٢) » .

تلك هي نظرة العرب الى الأدبين اليوناني والفارسي ، فهم يعتقدون أنهم أرباب الفصاحة والبيان ، بيد أنهم كانوا يستغربون خلو الأدب العربي من أمثال هذه الملاحم الطويلة كما رأينا ذلك عند ابن الأثير .

لا نشك أن الشعر العربي قديم في وجوده ، ذلك أن الهيكل الكامل للقصيدة العربية ليس وليد عصر جاهلي سابق ، أو إسلامي لاحق ، وإنما هو وليد العصور السحيقة في بوادي العربية القفرة ، وعلى الرغم من هذا القدم ، فاننا لانستطيع توضيح تطوره المستديم وتدرجه القديم منذطفولته في العصور الخالية حتى اكتماله في العصور الجاهلية المتأخرة التي لانعرف منها شيئاً كثيراً . ولم يتبق لنا من الشعر الجاهلي كله ، الموضوع منه والصحيح ، إلا نظرات عابرات ، وشذرات مختارات في الشعر والشعراء .

لقد كانت القصيدة العربية إذاً تمثل ذروة النضج الشعري في الفكر

(١) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٣١٠ ، ٣١١ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤١٨ ، ٤١٩ .

العربي القديم ، فأصبح لها هيكل واضح الأصول ، مكتمل الجوانب ، ولا بد للشاعر العربي من أن يتبع هذا النهج المأثور ، ويلتزم بما التزم بـه السابقون .

قال الحاتمي : « من حكم النسيب الذي يفتتح به الشاعر كلامه أن يكون ممزوجاً بما بعده من مدح أو ذم ، متصلاً به ، غير منفصل منه ، فان القصيدة مثلها مثل خلق الانسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحة التركيب ، غادر بالجسم عاهةتتخون محاسنه ، وتعفى معالم جماله ، ووجدت حذاق الشعراء وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون من مثل هذه الحال احتراساً يحميهم من شوائب النقصان ، ويقف بهم على محجة الاحسان » (١)

هكذا نهج الجاهليون نهج الأقدمين ، وجاء بعدهم الإسلاميون ، فحفظوا لهم تراثهم الباقي ، بيد أنهم وجدوا الحياة قد فتحت أمامهم سبلا جديدة من المعانى المحدثة والمولدة . وبدأت كتب النقد تتحدث عن المفاهيم الجديدة في الشعر العربى ، فهذا ابن قتيبة في القرن الثالث الهجري يقول : « ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولاخص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً في عصره ، وكل شرف خارجياً في أوله » (٢) .

تدبر ابن قتيبة الشعر فوجده على أربعة أضرب : ضرب حسن لفظـه وجاد معناه ، وضرب حسن لفظه وحلا ، فاذا أنت فتشته لم تجد هنـاك فائدة في المعنى ، وضرب جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه ، وضرب تأخر معناه وتأخر لفظـه (٣) .

أما قدامة فقد ألف كتابه نقد الشعر ، وعرفه بقوله : « انه قولموزون مقفى يدل على معنى » (٤) ، وذكـر أن لـه صناعة تتوخى غـاية التجويد والكمال (٥) . ولا شك أن قدامة كان مطلعاً على اللغة السريانية التي كانت

---

(١) ابن رشيق : العمدة ، ج ٢ ص ١١٧ .
(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ج ١ ص ٧ .
(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٧ .
(٤) قدامة : نقد الشعر ، ص ١٧ .
(٥) المصدر السابق ، ص ١١ ، ١٢ .

همزة وصل بين العربية واليونانية ، يضاف الى ذلك أن معظم مؤلفات أرسطو في فن البلاغة نقلت الى العربية قبل تأليف هذا الكتاب ، ونحسب أن قدامة تأثر بأرسطو في كتابيه المشهورين : « الشعر » و « الخطابة » .

جاء بعد قدامة نقاد آخرون عالجوا هذا الموضوع الهام ، ونرى من الضرورة أن نقف عند الجاحظ في كتابه « الحيوان » ، ونتأمل قوله : « والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي ، والبدوي والقروي والمدني ، وانما التأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع ، وجودة السبك ، فانما الشعر صناعة ، وضرب من النسج ، وجنس من التصوير » (١) . إنه يجمع في هذا التعريف بين النظرية اليونانية التي أشرنا اليها وهي ان الشعر ضرب من التقليد ، وبين النظرية العربية التي وضحناها وهي ان الشعر ضرب من الصناعة ، وهذه الصياغة التي نحدث عنها هي بالطبع أدق انواع الصناعات .

أدى هذا المفهوم الجديد في الشعر العربي الى ظهور مدارس أدبية ومذاهب فنية متباينة ، يدور محورها حول مظاهر الصنعة والتصنيع والتصنع في أدبنا العربي . ونرى بعد هذه التوطئة أن نعرض للمدرسة التقليدية وتطورها ، ثم نعرض للمدرسة الأدبية الجديدة ، ونختم حديثنا بالتحدث عن الفنون الشعرية المستحدثة .

(٢)

المدرسة التقليدية وتطورها

سارت هذه المدرسة في طريقها المعروفة ، وقد وجدت لها في هذا العصر انصارها الذين حفظوا لها طابعها التقليدي ، وتقيدوا بأسلوبها ومبادئها ، فالهيكل العام مازال مرعياً لدى الشعراء ، إذ إنهم كانوا يحاولون جهدهم

---

(١) الجاحظ : الحيوان ، ج ٣ ص ١٣١ ، ١٣٢ .

الحفاظ على العمود الشعري المعروف وبخاصة عند شعراء المشرق ، بيد أننا نجد ثورة عارمة على هذه المدرسة التقليدية في المغرب والاندلس وغيرهما، ونجد فيها الشعراء يحاولون التحلل من القيود والاغلال ، وكان ذلك بدء انطلاقة في الشعر العربي . غير أننا نتساءل عن مدى النجاح الذى أحرزته في الافلات من ضروب الوزن حيناً والقافية حيناً آخر ، وإهمال الإعراب واستخدام الألفاظ الدخيلة في كثير من الأحيان الاخرى .

نترك هذا الامر لمكانه من هذا البحث، فنقتصر على القول هنا : إن الشعر التقليدي ، حافظ لدى معظم الشعراء على طابعه المأثور ، لكن المعانى تطورت مع الزمن لتبدل الاحوال وتباين الاقاليم ، بله الاحداث الكبرى التي أدخلت كثيراً من المعاني الجديدة نتيجة للحروب والغزوات ، وسوف نشير إلى المدى الذي بلغه هذا التطور الجديد في شتى الاغراض الشعرية .

(٣)

المدرسة الحديثة واتجاهاتها

تطورت المدرسة التقليدية كما رأينا ، وأدى تطورها في بعض الاحيان إلى نشوء مدرسة حديثة ، انفصلت تماماً عنها ، وأدى بالتالي إلى ظهور مذاهب فنية متباينة ، نذكر منها مثلا مذهب التورية والانسجام ، ومذهب التطبيق والتجنيس ، ومذهب الفنون الشعرية المستحدثة .

مذهب التورية والانسجام

لعل ظهور هذا المذهب يرجع لاسباب دينية تتعلق بتأويل المشتبهات من كلام الله تعالى وحديث رسوله الكريم (ص) وصحابته ، وهذا يؤيد الرأي

القائل بأثر المذاهب الدينية المعاصرة ، وأثر العقل والمنطق في ظهور هذا المذهب البياني الذي تطور فيما بعد تطوراً أخرجه عن غرضه الاصلي .

ذهب ابن حجة هذا المذهب في حديثه الضافي عن التورية ، واورد قول الزمخشري : « ولا نرى باباً في البيان أدق والطف من هذا الباب ، ولا أنفع، ولا أعون على تعاطى تأويل المتشبهات » (١) .

كان القدماء لا يأبهون بالتورية إلا ان وقعت لهم عفواً ، نشير من هؤلاء إلى النابغة الذبياني وعمرو بن كلثوم وعنترة العبسي ، ونقف قليلاً عند شعراء العصور العباسية كأبي نواس والبحتري ، ثم نقف أخيراً عند أبي العلاء لنرى أن هؤلاء الشعراء استخدموا بكثرة التورية ، فعقدوا صورها ، بيد أنهم لم يتخذوها مذهبا خاصاً .

أما في القرنين السادس والسابع الهجريين فقد تطورت التورية واصبحت بالتالي مذهباً شعرياً خاصاً ، سماه النقاد الأقدمون مذهب السحر الحلال الذي يجب أن يتحلى به كل شاعر وناثر ، وإلا عد مقصراً عن أقرانه في حلبة هذا الفن البديعي . ويمكننا أن نتبين في هذا المذهب اتجاهين : ظهر أولهما في مصر على يد القاضي الفاضل ، وظهر ثانيهما في بلاد الشام على يد الشرف الأنصاري ، وقد تتابع هذان الاتجاهان في مصر والشام ليقوم عليهما مذهب عربي واحد .

أكثر الشعراء من استخدام التورية ، وطبعوا شعرهم بطابعها الخاص ، وراوا أنها السحر الحلال الذي يجب أن يأخذوا منه ، فأصبحت غرضاً في ذاتها ، يعمل الشاعر من أجله شعوره وفكره، إذ هي تعتمد على الجهد العقلي، لكنها تبرز وقد اكتست بثوبها الرمزي الجميل ، ورفدت بمعين من العاطفة.

نستطيع القول إن الشرف الأنصاري طبع التورية بطابع الانسجام

(١) ابن حجة : الخزانة ، ص ٢٤٠ .

والسهولة كما رأينا في شعره ، وقد ظهر هذا الاتجاه في شعره بعامة وفي غزله بخاصة ، واتخذ من كل ذلك سبيله في مذهبه الفنى ، وهو لهذا السبب قد احتل مكان الصدارة بين شعراء الشام قاطبة دون منازع . تحدث الصفدي عن هذا الامر بالتفصيل(١) ، وأشار ابن حجة إلى الانسجامات في شعره وفي توريته بشكل خاص ، ورأى أن غالبه ماش على هذا التقرير(٢) ، كما رأينا ذلك من قبل . وهذه الصفة التي ميزت بين الاتجاه الشامي والاتجاه المصري في هذا العصر ، حتى إذا قامت الوحدة السياسية رأينا وحدة فكرية ناضجة ظهرت في القرن الثامن الهجري على يد ابن نباتة المصري(٣) .

مذهب التطبيق والتجنيس

اتخذ معظم شعراء القرن السادس الطباق والجناس البديعين مذهباً لهم في شعرهم ، وتعداهم إلى الأدباء عامة في أدبهم ، وتطور هذا الاتجاه لدى الشعراء المتأخرين ، فكنا بذلك أمام اتجاهين : اتجاه يميل إلى السهولة والانسجام ، وقد مر معنا ذكر ذلك ، واتجاه يميل إلى التصنع البديعي في بعض فنونه .

والمعروف لدينا أن ابن المعتز كان أول من أفرد للطباق والجناس في كتابه « البديع » بحثاً خاصاً ، واعتقد انهما موجودان في القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر العربي القديم .

وهم الدكتور محمد مندور في هذا الامر فقد اعتقد أن ابن المعتز تأثر بأرسطو ، واستمد منه مصطلحاته ، وذكر أن لفظة الطباق ما هي إلا ترجمة

---

(١) ابن شاكر : فوات الوفيات ، ج ١ ص ٢٨٩ .
(٢) ابن حجة : الخزانة ، ص ١٩٠ .
(٣) انظر في كتابنا ابن نباتة المصري ، ص ٢٩٢ .

للفظة اليونانية (Anti thesis) ، وأن لفظة الجناس هي ما يسميه أرسطو بالمشابهة (Paromoiwrsis) وأن لفظة الاستعاره التي تحدث عنها في أكثر من موضع في كتابه ما هي إلا ما سماه (Metphora) ،وبساءل بعد كل ذلك عن مصدر تلك الاصطلاحات[1]. بجب ان نفرق بينمصطلحات في علم البلاغة تقابل مصطلحات يونانية،وبين أن الجناس والطباق والاستعارة في شعر شعراء العرب هي تأثر بأرسطو ، والثابت لدينا أن مسلم بن الوليد قد مات حين كان حنين صبياً .

مهما يكن من أمر فإن ابن المعتز استطاع ان يعرض لنا بمهارة الفنون البلاغية المذكورة ، ويستشهد عليها بما هو مأثور من ادب العرب ، ووقف عند المحدثين من الشعراء ، ونوه بما أتوا به من ذلك ، وبين بعض عيوبهم فيه.

تطورت في هذا العصر الفنون البديعية المذكورة ، فألفت فيها التصانيف الكثيرة ، وتعتمد اعتماداً كلياً على بديع ابن المعتز ، وتلحق به ما استجد من فنونه ومذاهبه .

اتخذ الشعراء كما رأينا من الطباق والجناس والاستعارة وغيرها مذهباً ، واقتصرت جماعة منهم على الطباق والجناس وحدهما،وبالغت في استعمالهما حتى خرجت عن الغرض المقصود . لاحظ العماد الكاتب هذا الاتجاه ، وهو أحد أئمته ، في الدواوين الشعرية التي جمع منها مختارات خريدته ، وقد رأينا أنه كان يشير بالتفصيل إلى ما يمر معه منها،فلا غرابة إن رأينا شواهده قد طبعت بهذا الطابع . كما أشار أيضاً إلى كتاب « لمح الملح » لأبي علي سعد المعروف بالحظيريالوراق[2]، وأورد بعض ما عثر عليه من أبيات أو قصائد

---

(١) محمد مندور : النقد المنهجي ، ص ٤٥ ـ ٤٧ .

(٢) أبو المعالي سعد بن علي بن القاسم الأنصاري المعروف بالوراق الحظيري ، المتوفى سنة ٥٦٨ هـ .

في التجنيس خلال ترجمته لابن القيسراني وابن منير الطرابلسي وغيرهما (١) .

مذهب الفنون الشعرية

تميز هذا العصر بظهور مدرسة خاصة للفنون الشعرية المستحدثة ، ونستطيع أن نتبين هذا التطور ضمن اتجاهين : أما الاتجاه الأول فقد شمل هيكل الأوزان الشعرية المعروفة ، وقد حاول المتأخرون والمولدون أن يستنبطوا بحوراً جديدة من البحور الستة عشر المعروفة ، وذلك بعكس دوائر البحور المذكورة وكانت حصيلتهم من هذه المحاولات ستة بحور جديدة أضيفت إلى ما عرف من قبل ، وهي المستطيل والممتد والمتئد والمنسرد والمتوافر والمطرد (٢) .

وأما الاتجاه الثاني فيشمل الفنون الشعرية ، وقد حدث فيها تطور جديد على ما ألفه العرب ، فشمل اللغة والإعراب والوزن والقافية ، وهي تختلف في المدى الذي أخذت فيه من هذا وذاك . يقول الخفاجي في شفاء الغليل : « واعلم أن المولدين كما غيروا الأبنية غيروا هيئة التركيب وأوزان الشعر » (٣) . وكان ثمرة ذلك تشعب فنون النظم إلى سبعة ، أشار إليها صفي الدين الحلي بقوله : « ومجموع فنون النظم عند سائر المحققين سبعة فنون ، لا اختلاف بين أهل البلاد ، وإنما الاختلاف بين المغاربة والمشارقة في فنين منها ، وسيأتي ذكرهما والسبعة المذكورة هي عند أهل المغرب ومصر والشام : الشعر القريض ، والموشح ، والدوبيت ، والزجل ، والمواليا ، والكان كان ، والحماق ، وأهل العراق وديار بكر ومن يليهم يثبتون الخمسة منها ، ويبدلون الزجل والحماق بالحجازي والقوما ، وهما فنان اخترعهما

---

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٨٨ ، ١٢٣ .
(٢) محمود مصطفى : أهدى سبيل ، ص ١٢٩ ، ١٣٠ .
(٣) الخفاجي : شفاء الغليل ، ص ١٠ ، ١١ .

البغاددة للغناء بهما في سحور شهر رمضان خاصة في عصر الخلفاء الراشدين من بني العباس »(١) .

فرق صفي الدين بين الفنون المعربة والملحونة منها ، فذكر « أن هذه الفنون السبعة منها ثلاثة معربة أبداً لا يغتفر فيها اللحن ، وهي الشعر القريض ، والموشح ، والدوبيت ، ومنها ثلاثة ملحونة أبداً ، وهي الزجل ، والكان كان ، والقوما ، ومنها واحد هو البرزخ بينهما ، يحتمل الإعراب واللحن ، وإنما اللحن فيه أحسن وأليق ، وهو المواليا »(٢) .

ننتهي مما تقدم لنؤكد أننا نجد في أدبنا فنونا شعرية مستحدثة،اقتبسنا بعضها مما عرفناه في الأدب المغربي والأندلسي كالموشحات والأزجال،وبعضها الآخر اقتبسناه من بغداد وفارس كالدوبيت والمواليا .

أشار ابن تغري بردي إلى بعض هذه الفنون في معرض ترجمته لابن الخباز العامري(٣) ، وذكر أنه « كان ينظم سائر الفنون كالمواليا والكان كان ، والدوبيت ، والبلاليق »(٤) .

ننتهي من كل ذلك لنوضح أهمية هذه الفنون كما اصطلح على تسميتها دارسوها القدماء ، وسوف نأتي على بحثها بالتفصيل بعد أن نعرض للاغراض الشعبية المعروفة في هذا العصر .

---

(١) الحلي : العاطل الحالي ، ص ٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨ .

(٣) يحيى بن الخباز العامري الحموي ، تخرج على يد السراج المحار ، وقد توفي سنة ٧٧٣ هـ .

(٤) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ٤١٣ .

القسم الثاني

الأغراض التقليدية وتطورها

عالج شعراء هذا العصر أغراض الشعر العربي المعروفة ، واستحدثوا كما رأينا كثيراً من فنونه ، وطرقوا كثيراً من المعاني المولدة ، بيد أنهم لم يقفوا حيالهم جامدين أو مقلدين ، وإنما حاولوا بمختلف الأساليب أن يتجهوا بها في سبل جديدة وفي آفاق مديدة ، إذ إن هذا العصر يتميز بأحداثه الكبرى التي مرت به ، وأحدثت آثاراً ظاهرة في المعاني الشعرية ، وتتلاقى فيه التيارات المشرقية والمغربية ، لكنها لا تلبث أن تتشح بالصفات التي تطبع شعر هذا العصر بطابعها الخاص . ونحن بعد هذا نستطيع أن نتبين ميزات ذاتية تطبع كل شاعر بطابعها ، وكنا أشرنا إليها في مكانها من الدراسة ، وسنحاول جهدنا أن نفهم جزئياتها لنضعها بعد ذلك في إطارها العام الذي يشترك فيه الشعراء إذ كانت بحق الصورة الصادقة التي تعبر عن شعر هذا العصر أصدق التعبير .

تحدثنا في الفصل الماضي عن تراجم أعلام الشعراء ، وأشرنا من خلال ذلك إلى أغراضهم الشعرية المختلفة ، وسوف نعرض ذلك عرضاً عاماً ، فنقتصر منها على ذكر المدح والنبويات ، والملاحم والأحداث ، والنسيب والأغزال والمجون والخمريات ، والمطارحات والتستويات ، والأحاجي والألغاز .

(١)
المدائح والنبويات

لا شك أن المدح أبرز الأغراض الشعرية التى طغت علـى الشعر العربي قديمه وحديثه،إذ إن أسلوب حياة القصور تحتم على معظم الشعراءليكسبوا رزقهم أن يمدحوا الملوك والسلاطين والأمراء وغيرهم ، وسوف نقتصر في هذه الدراسة على بحث المدح النبوية ، والمدح الذاتية .

المدح النبوية

تطور المديح النبوي ، وأصبح أحد الأغراض الشعرية المعروفة منذ أواخر العصر الأيوبي وأوائل العصر المملوكي . ولا بد لنا مـن الإشارة الى العوامل التي ساعدت على نضج هذا النوع من المديح الدينى وازدهاره ، فاضطراب الحياة السياسية في معظم الأحيان بسبب النزاع بـين السلاطين والأمراء ، وسوء الحياة الاجتماعبة في مختلف مظاهرها ، وتدهور الأوضاع الاقتصادية لأسباب كثيرة ، وجثوم الخطر على البلاد من قبل الأعداء الطامعين في الشرق والغرب ، إذ أن هذا العصر كان عصر الحروب الصليبية والتترية ، وهي كما رأينا حروب دينية مريرة،وقد وقف التسعراء يدافعون عن الاسلام ومقدساته امام الديانات الاخرى ، ويمدحون صاحبه الرسول (ص) على نحو ما نراه في همزية البوصيري المشهورة . هذه العوامل جعلت الناس يتشفعون بالرسول الكريم ليدفعوا عـن أنفسهم ما يحل بهـم . وجدير بالذكر أن بعض هذه العوامل كانت سائدة منذ القرن الرابع الهجري .

أدت هذه الأمور الى التـوكل والاستسلام الكلي لمـا تأتي به الأحـداث والمقادير ، والملاحظ أن النـاس بدؤوا يتشفعون بالنبي الكريم منـذ حكم الفاطميين ويتوسلون إليه كي يفرج عنهم الكرب ، ويكشف عنهم الغمة .

حاول الخلفاء الفاطميون من قبل وسلاطين الأيوبيين والمماليك من بعد أن يشاركوا الناس في هذا الاتجاه الدينى ، فشجعوا التصوف ، واهتموا بالحج أكثر من ذي قبل ، واتخذوا له طريقاً جديداً يمر بالصعيد عن طريق النيل ، ومنها الى ثغر عيذاب فالبحر الاحمر ، ويعودون بعد حجهم من الطريق نفسها ، وقد فعلوا ذلك بعد أن هدد الصليبيون مراراً طريق العقبة وبرزخ سيناء ، بله خطر الأعراب الذين كانوا ينتظرون هذا الموسم .

لم يكتف المماليك بذلك بل ظهرت المحامل وما رافقها من احتفالات دينية في الذهاب والإياب . كل ذلك كان يضفي علــى الحج طابعاً محبباً إذ يثير عواطف الشعراء فينظمون نبوياتهم شعــراً يفيض بالأحاسيس الوجدانية الصادقة التي تعبر أصدق تعبير عن نفسية الشعب بشكل عام . نذكر مثلاً أن الشرف الأنصاري نظم مدحه النبوية ، وذكر في طرة إحداها أنه انشدها في داخل الحجرة النبويه ، وذكر أنها أول مدحة قالها فيه(١) .

يجب ألا يغيب عن أذهاننا التصوف وماله من أثر فعال في نشوء النبويات ، يضاف الى ذلك ما نسج حول البردة النبوية من حكايات وأساطير تناقلها الناس على مر السنين . وفي الأمر سبب يجب الوقوف عنده ، وهو أن بهاء الدين بن يوحنا الذي تولى وزارة الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩ هـ اشترى مكان الآثار النبوية المطل على نهر النيل ، واشترى أيضــاً الآثار الشريفة بجملة كبيرة من المال ، وأودعها في ذلك المكــان ، والبردة النبوية بالطبع في جملة هذه الآثار(٢) كما نظن .

توافد الناس زرافات ووحداناً الى هذا المكان النبوي المقدس الذي أنشأه الوزير ، وقد روي عنه أنه اهتم كثيراً بأمر هذه البردة .

أدت هذه العوامل كلها الى ازدهار المدائح النبوية ، ويكفي أن نشير الى البوصيري الذي أصبح مثلاً يحتذى لشعراء مصر والشام وغيرهما في مدح

(١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ٥ ١٣٠ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ٩٩ .

الرسول ، وتطورت هذه المدائح ، وبخاصة بعدما سخر الشعراء علم البديع لهذا الغرض ، فظهرت البديعيات النبوية ، وكانت ثمرة تطور المدح النبوي في عصر البديع .

ثمة عامل جديد بالإضافة الى ما ذكر أدى الى شيوع هذا الفن ، فقد ذكر المؤرخون أنه ظهرت عند المدينة نار عظيمة ، وكانت تضيء بالليل من مسافة بعيدة جداً ، تحدث ابن الوردي وغيره عن هذا الأمر ، وذكر « أنها لم يكن لها حر على عظمها وشدة ضوئها ، ودامت أياماً ، وتواتر شأن هذه النار ، ونظمت عند ظهورها مدائح في النبي (ص) (١) » . نذكر من هؤلاء الشعراء الذين نظموا في نار الحرة المشد سيف الدين علي بن قزعل ، وقد وصفها بقوله :

ولما نفى عني الكرى خبرُ التي	أضاءت بأحدٍ ثم رضوى ويذبُلِ
ولاحَ سناها مِنْ جبالِ قُريظةٍ	لسكانِ تيما فاللّوى فالعقنقلِ
وأخبرتَ عنها في زمانكَ مُنذراً	بيومِ عبوسٍ قمطريرٍ مطوّلِ
ستظهرُ نارٌ بالحجازِ مضيئةٌ	لأعناقِ عيسٍ نحو بُصرى لمُجتلي
فكانتْ كما قد قُلتَ حقاً بلا مِرا	صدقتَ،وكم قد كذّبتْ كلُّ مُعطلِ(٢)
لها شررٌ كالبرقِ لكنْ شهيقُها	فكالرّعدِ عند السامعِ المتأمّلِ
وأصبحَ وجهُ الأرضِ كالليلِ كاسفاً	وبدرُ الدّجى في ظلمةٍ ليس ينجلي
وأبدتْ مِن الآياتِ كلَّ عجيبةٍ	وزُلزلتِ الارْضونَ أيَّ تزلزُلِ(٣)

أوحى ظهور نار الحرة هذا المعنى الذيطبع بعض المدح النبوية بطابعه. أما المعاني التقليدية فقد طرقها الشعراء كثيراً في قصائدهم ومعظمها يدور حول المدينة المنورة والحجرة الشريفة ، وكانوا يتخذونها وسيلة ليكفروا بها عما بدر منهم ، ويكثرون من ذكر الأخبار المعروفة في حياة الرسول الكريم ومعجزاته ، كما عرفوها في القصص الديني الإسلامي ، وبخاصة منها قصة الإسراء والمعراج .

(١) ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ١٩٤ ، ١٩٥ .
(٢) المعطل : من يدين بمذهب التعطيل ، وهو الذي ينكر أصحابه صفات الله تعالى .
(٣) ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ١٩٥ .

مدح ابن الساعاتي الرسول الكريم بقصيدة طويلة ، استهلها بوصف الديار وذكر النسيب ، وخلص منه إلى النعوت النبوية بقوله :

وكيفَ أخملُ في دنيا وآخرةٍ ... ومنطقي ورسولُ الله مأمولُ
هو البشيرُ النّذيرُ العدلُ شاهدُهُ ... وللشهادةِ تجريحٌ وتعديلُ
لولاهُ لم تكُ شمسٌ لا ولا قمرٌ ... ولا الفراتُ وجاراها ولا النيلُ
ولم يُجبْ آدمٌ في حالِ دعوتِهِ ... نعمْ ، ولم يكُ قابيلٌ وهابيلُ
مرتّلُ الوحي يتلوهُ ويدرسُهُ ... ولم يكنْ لكلامِ اللهِ ترتيلُ
فسيّدُ الرُسلِ حقاً لا خفاءَ بهِ ... وشافعٌ في جميعِ النّاسِ مقبولُ
بثّتْ نبوّتَه الأخبارُ إذ نطقتْ ... فحدثتْ عنه توراةٌ وإنجيلُ
أضاءَ هدياً وجنحُ الكفرِ معتكرٌ ... ووجهُ حقٍّ ،وسترُ الشكِ مسدولُ
لم ينوِ في أهلهِ أهلِ العباءِ(١) ففا ... تَ القومَ وحيٌ بمثواهُ وتنزيلُ
الخمسهُ الغرُّ لم تقضَ اجتماعَهم ... إلا وسادسُهم في الجمعِ جبريلُ
فمنهمُ أخذ التنزيلُ أجمعُهُ ... في الكافرين وفي الباغينَ تأويلُ
فضيلتا شرَفٍ ما نالهُ بشرٌ ... أولى وأخرى بهمْ تردى الأضاليلُ(٢)

كما أن الشعراء يتخذونها نكأة يتحدنون فيها عن العرب بعد طغيان سلطان الأعاجم على مقاليد الامور ، نذكر من ذلك مثلاً قول الشاب الظريف في نبوية له :

أرضَ الأحبةِ من سفحٍ ومنْ كُثُبِ ... سقاكِ منهمرُ الأنواءِ من كَثَبِ
ولا عَدَتْ أهلكِ النائين منْ نفسِ الـ ... صّبا تحيّةُ عاني القلبِ مكتئبِ
قومٌ همُ العربُ المحميُّ جارُهُم ... فلا رَعى اللهُ إلاّ أوجهَ العربِ
أعزُّ عنديَ منْ سمعي ومنْ بصري ... ومنْ فؤادي ومنْ أهلي ومَنْ نسبي
لهمْ عليَّ حقوقٌ مذ عرَفتهمُ ... كأنّني بينِ أمٍّ منهمُ وأبِ
إنْ كانَ أحسنُ مافي الشعر أكذبَه ... فحسنُ شعري فيهم غيرُ ذي كذبِ

---

(١) أهل العباء هم أهل البيت الخمسة الذين ألقى النبي عليهم عباءته .

(٢) ديوان ابن الساعاتي ، ج ١ ص ٤٨ ، ٤٩ .

يا ساكني طيبةَ الفيحــاءِ هل زمنٌ   يُدني المُحبَّ لنيلِ الحبِّ والأربِ ؟
أرض مع الله عين الشمس تحرسُها   فإن تغب حرستها أعين الشهبِ (١)

وقفت عنده هذه القصيدة لأن ناظمها لم يأبــه بمــا عرف من اتجــاه الشعراء إلى الإشادة بالعناصر الآعجمية من تركية وكردية في المدح والأغزال ، وإنما وقف يعلن إيمانه بالعنصر العربي ، حتى إن معظم أغزاله كانت تخالف شعر العصر ، اذ كان كثيراً ما بشبب بالنساء العربيات .

لاحظنا بالإضافة إلى ما مر معنا أن النسعراء كانوا يضمنونمدحالخلفاء وأشراف الشيعة بعض النعوت النبوية لصلتهم بالرسول الكريم ، نذكر من ذلك القصيدة التي مدح بها ابن الساعاتي المواقف التريفه الإمامية الناصره لدين الله أمير المؤمنين :

لقد خلفَ المبعوثَ خيرُ خليفــةٍ   قؤولٌ لمــا يرضي الإلـــه فعــولُ
تــذلّ لـــهُ الأيــامُ وهي عزيزةٌ   وتصغرُ حيثُ الخطبُ وهو جليــل
إذا سارَ سدّ الأفقَ والأفقُ واسعٌ   رمــاحٌ وبيضٌ عصبــةٌ وخيــولُ
تجودُ لهــا صــمُ الصخورِ مخافةً   وشــمُ الجبــالِ الراسياتَ تزولُ
كبتْ دونهُ الابصارُ وهي حسيرةٌ   وخابت نفوسٌ عنــدهــا وعقــولُ
ومنْ كان نورُ الوحي فوقَ جبينهِ   نبى كلّ طرفٍ عنــه وهو كليـــلُ
فروعٌ إلى العباسِ تنمى أصولهــا   وما خــيرُ فرعٍ أسلمتــه أصــولُ
هو النسبُ الزاكي أنافَ بفضــله   وصيٌ حوى سبقَ العــلا ورسولُ
ترى اليومَ طلقاً حين يذكرُ جعفر"(١)   ويسمى إليــهِ حمزة"(٢) وعقيلُ (٣)
لهُ شرف البيتِ العتيقِ وزمزمٌ   ومــا ساقهُ حــادٍ إليهِ عجول (٤)

لقد تطورت معاني المدح النبوية منذ سنين كثيرة قبل القرن السادس الهجري ، فشملت آل النبي جميعاً من شيعة وعباسيين وفاطميين .

---

(١) ديوان الشاب الظريف ، ص ٥ ، ٦ .
(١) هــو جعفر بن أبي طالب .
(٢) هــو عقيــل بن أبي طالب .
(٣) حمــزة بن عبــد المطلب .
(٤) ديوان ابن الساعاتي ، ج ١ ص ٥٢ ، ٥٣ .

المدح الشخصية

لا شك أن المدح ضرورة اقتضتها حياة الشعراء ، وقد جروا فيها على سنة من تقدمهم ، وهو سبيلهم إلى معاشهم لينالوا به العطاء الجزل ، ويبلغوا به أعلى المراتب لدى الخلفاء والسلاطين والأمراء . فإذا آتى الله أحدهم جداً، فإنه يتقدم على أقرانه ويصبح الأثير المفضل ، إذ لا بد في عرف الأقدمين لكل صاحب سلطان من شاعر يصطنعه ليمجده ويخلد مآثره في المناسبات والمحافل ، ذلك أن الزمن يمضي ، ويبقى الشعر وحده خالداً يذكر الأمجاد والأحداث . ظهر هذا المعنى في شعر ابن الساعاتي في قصيدة يمدح بها ابن القابض :

مدحٌ تذهبُ الليالي وتفنى وتحوزُ البقاءَ والتخليدا (١)

وصف الشعراء ممدوحيهم بصفات استمدوا معظمها من سابقيهم ، فهم في جل مدحهم عالة عليهم ، إذ إنهم في نظرهم المثل الأعلى الذي يجب أن يحتذى فلا يجدون في أخذ المعانى أو سرقتها عيباً ، لكن العيب كل العيب أن يقصر الشاعر فيه ، فاذا ما اخرجه مخرجاً جديدا ، كأن يضيف إليه ما يزينه ، أو يبعد عنه ما يشينه ، فذلك هو الشاعر المجيد حقاً .

مدح عرقلة الكلبي أبا علي بهاء الدين بن نيسان في آمد السوداء ، ومما قاله بعد وصف الطبيعة :

في حصنهِ غيثٌ ، وفوق حصانهِ ليثٌ يكرّ على الكماةِ بمسحل (٢)
متبسّمٌ لعفاتهِ قبل الندى كالبرقِ يلمعُ للبشارةِ بالولي (٣)
يعطي المحجَّلةَ الجيادَ ، وكم له في الجودِ من يومٍ أغرَّ محجلِ
ويردّ صدرَ السمهري بصدرهِ ماذا يؤثرُ ذابلٌ (٤) في يذبلِ ؟ (٥)
وكأنّه ، والمشرفي بكفّه بحرٌ يكر على العفاةُ بجدولِ (٦)

---

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٩٧ .

(٢) مسحل : عزم شديد صارم ، ويقال : ركب فلان مسحله وردعه اذا عزم على الأمر وجد فيه .

(٣) الولي : المطر يسقط بعد المطر . (٤) ذابل : رمح .

(٥) يذبل : هو جبل مشهور الذكر في نجد في طريقها .

(٦) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٢٢١ ، ٢٢٢ ، والديوان ص ٨١ .

يلاحظ أن جل هذه المعاني معروف لدى الشعراء منــذ القديم ، فوصف ممدوحه الجواد بالغيث والليث ، وانه ذو بطش وبأس ، وانه ينبسم لعفاته قبل العطاء ، وختم وصفه بصورة يتضح فيها التشبيه التمثيلي . كل ذلك معروف لدى الشعراء إذ لا جديد فيه ، وإنما الجديد فبه حقاً ، والجدير بالملاحظة ، عبث الساعر بالصناعة اللفظية . ويلاحظ أن الشعراء عموماً كانوا يشبهون ممدوحيهم بالنيرين : الشمس والقمر ، وقد اشترك الشعراء كذلك في هذا المعنى التقليدي الذي سبقهم اليه النابغة الذبياني وغيره من شعراء الجاهلية والإسلام . نذكر من ذلك مثلا قول ابن قسيم يمدح معــين الدين أنر :

ومستصغرٍ في الله كــلّ عظيمـــةٍ ... ولو أتّــه منها على الموتِ مشرفُ
كأنّ الملوكَ الغــر حــولَ ســريرهِ ... نجومٌ على شمس الظهــيرةِ عكّف
فإن تلقــهُ تلقَ ابن هيجاءَ ، دهرُه ... يريكَ عنــانَ الدهرِ كيفَ يصرفُ
سخي جريءٌ لوذعيٌّ كــــأنّــه ... إذا ما بدا ، غيثٌ وليتٌ ومرهفُ(١)

يتضح من الابيات التي مرت معنا أن الشاعر استخدم المعاني نفسهــا التي عرفناها قبل قليل ، ولا يعني قولي هذا أن الشعراء لم يأتوا بجديد البتة ، وإنما كانوا يأتون بمعان جديدة من خلال الصور التقلبدية المعروفة ، نذكر من ذلك مثلا قول ابن القيسراني يمدح مجير الدين آبق :

فكنتَ كالشمسِ سمتْ إذ سمتْ ... ونورُهــا في أفقهــا مــاثــلُ
وأينَ ينــأى في قــلوبِ الــورى ... مَن حبّــه في كلّهــا نازلُ (٢)

ثمة معان أخرى بالاضافة الى هذه المعاني العامة المشهورة ، استخدمها الشعراء في وصف أقلام الممدوح من الوزراء وكبار الكتاب ، وببان مالهــا من تأثير ، وهي بشكل عام لا تخرج في معظمها على التقليد الموروث وهــي قضايا من الوضوح ، لا تحتاج معها الى شواهد ، وقدمرمعنــاكثيرمنهــا في معرض الحديث عن تراجم الشعراء في الفصل الماضي .

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٥٨ .
(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ١٠٤ ، ١٠٥ ؛

(٢)

الملاحم والأحداث

تميز هذا العصر بأحداثه الكبرى وملاحمه الخالدة التي طبعته بطابعها الخاص ، واثرت فيه تأثيراً كبيراً ، شمل مختلف نواحيه وشتى مناحيه . بدات هذه الاحداث بالصراع الطويل مع الغرب في الحروب الصليبية ، واختتمت بصراع آخر أقصر من الاول ضد المغول التتار القادمين من مجاهل آسيا ومفاوزها .

ولا بد لنا لكي نبرز هذه الملاحم والاحداث من أن نعرضها ضمن مرحلتين: أولاهما تشتمل على عصر الزنكيين والايوبيين ، والثانية تشتمل على عصر سلاطين المماليك .

ملاحم الزنكيين والايوبيين

تحدث الشعراء عن الحروب الصليبية ، وخلدوا معاركها في صليبباتهم ، منذ بدأ الزنكيون بتحرير الارض المقدسة وبلاد الشام حتى تم لهم النصر على يد الايوبيين من بعدهم ، وصوروا الصراع الديني العنيف بين الاسلام والنصرانية ، ومن خلال ذلك وصفوا احتلال الثغور ، وسقوط المعاقل والقلاع ، وأشادوا بالابطال الذين صرعوا ، وتحدثوا عن أسر كثير من ملوك

الفرنجة وأبطالهم وأمرائهم ، وكانوا في بعض الاحيان مدفوعين الى ذلك رغبة في العطاء والحصول على نصيبهم من أسلاب المعارك والغنائم ، بيد أننا لانكر عليهم دورهم الفعال الذين قاموا به خير قيام ، وكان يرفدهم في ذلك معين ثر من العاطفة الصادقة والشعور الفياض .

وضح هذه النقطة استاذي الدكتور عبد العزيز الاهواني ذاكرا : « أن وجود إشارات لاحداث العصر في شعر هؤلاء الشعراء ، وخاصة ما اتصل منها بأعمال الملوك والامراء وحروبهم ، لا تعتبر كبيرة القيمة من الناحية الشعرية ، مهما أطال الشاعر فيها وأسرف ، اذا لم تكن وراءها ثروة عاطفية حقة قادرة على أن تنقل الينا احساساً صادقاً عند الشاعر في صورة رائعة تؤثر فينا وتوحي الينا ، وتجعلنا نعيش تلك الاحداث » (١).

يضاف الى ذلك ظهور بعض الدراسات الحديثة الهامة التي وضحت تأثير الحروب الصليبية في الأدب ، وقد استقلت ببحث ذلك كتب الدكتور احمد أحمد بدوي والدكتور عبد اللطيف حمزة (٢) .

مهما يكن من أمر ، فيجب أن نسجل لشعراء هذا العصر الفضل كله في وصف الملاحم الخالدة ، وتاريخ الاحداث الكبرى ، حتى إن بعضهم اتخذ منها موضوعاً خاصاً في شعره قصره عليه ، فلا غرابة ان رأينا أغلب شعر القيسراني والطرابلسي كان مقتصرا على هذا الغرض ، ولا غرابة إن رأينا حكيم الزمان الجلياني يفرد مجموعة كبيرة من شعره ، ويقصرها على وصف أحداث القدس عام الفتح الأغر ، ويسميها المبشرات والقدسيات .

---

(١) الأهواني : ابن سناء الملك ، ص ٧ .

(٢) انظر كتاب (الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام) وكتاب (الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام) للدكتور أحمد أحمد بدوي ، وكتاب (الحركة الفكرية في العصرين الأيوبي والمملوكي الاول) ، وكتاب (أدب الحروب الصليبية) للدكتور عبد اللطيف حمزة .

أما المعاني التى تطرق إليها الشعراء في وصف هذه الملاحم والأحداث فكثيرة تختلف طبعاً باختلاف الشعراء ، وتتنوع بتنوع المعارك ذاتها ، ونستطيع بقدر الإمكان أن نتبينها من خلال دراسة مظاهرها العامة .

الصراع الديني

لعل أول ما يسترعى انتباهنا هنا ظهور الصراع الدني من خلال وصف أحداث العصر وملاحمه الخالدة ، فنرى الشعراء يرددون هذا المعنى في جل قصائدهم ، ويشيدون بالانتصارات الباهرة التي أعز الله بها الإسلام والمسلمين بعد ذلة وهوان .

نلاحظ هذا المعنى في مدح ابن منير الطرابلسي نور الدين بعد مقتل البرنس صاحب انطاكية :

أقوى الضَّلالُ واقفرَتْ عرصاتُهُ — وعلا الهدَى وتبلَّجتْ قسماتُهُ
وانتاشَ دينَ مُحمَّدٍ محمودُهُ — مِنْ بعدِ ما غلبتْ دماً عبراتُهُ
ردّتْ على الإسلامِ عصرَ شبابِهِ — وثباتُهُ من دونِهِ وبياتُهُ
أرسى قواعدَهُ ومدَّ عمادَهُ — صُعُداً ، وشيدَّ سورَهُ سوراتُه(١)

وعبر ابن القيسراني عن المعنى ذاته في المدحة التي مدح بها عماد الدين بعد معركة بارين وفرار الفرنجة ، ومما قاله :

حذارِ منا ، وأنّى ينفعُ الحذرُ ؟ — وهي الصوارمُ ، لاتبقي ولا تذَرُ
وأين ينجو ملوكُ الشركَ من ملكٍ ؟ — مَنْ خيله النصرُ ، لابل جندُه القدرُ

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٢٢ ، وأبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٦٠ ، ٦١ .

واصبحَ الدينُ لاعينـــاً ولا أثــراً   يخافُ ، والكفرُ لا عــينٌ ولا أثرُ
فلا تخفْ بعدَهــا الإفرنجُ قاطبــةً   فالقومُ إن نفروا ألوى بهمْ نفــرُ (١)

لم يقتصر الشعراء على تصوير الكفاح في معناه العام . وإنما تجاوزوه إلى معان جزئية كوصف المعالم الدينيه التي تغيرت بحكم استعادة الأراضي المحتلة ، فوصفوا الكنائس المهدمــة ، والصلبــان المحطمة ، كما في القصيدة التي مدح بها ابن منير نور الدين :

يالهــا همــة ثغــرٍ أضحكتْ   من بني القُلفِ ثغورَ الشامتــينْ
كم كنيسٍ كنستْ قــد رامهــا   منه بعد الرُوحِ في ظلٍّ السنــينْ
ومنــارٍ يجتــلي صلبــانــه   بينَ بيض تتبــارى في البرينْ (٢)

أكثر الشــاعر المذكور من إيراد هذه المعاني ، فوصف الصليب ، وقــد بعثت فيــه الحياة :

أبا نــورَ دينٍ خبــا نورُه   ومذ شاعَ عدلكَ فيــه اتّقــدْ
رآكَ الصليبُ صليبَ القنــاةِ   أمــينَ العِثــارِ متــين العمدْ (٣)

ويصوره في مكان آخر من شعره ، وهو يهوي محطماً :

طلعتْ نجومُ الحقِّ مِنْ آفاقهــا   وأعادهــا كرُّ العصور كمــا بــدا
وهوى الصّليبُ وحزبُه وتبختر الإ   سلامُ منْ بعــد التساقفِ أغيدا(٤)

ولما دخل الناصر صلاح الدين ببت المقدس مجد ابن الساعاتي ــ كمــا رأينا ــ هذا الحدث ، فوقف يتحدث عن هوان الصليب :

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٣٤ ، ٣٥ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٩ ، ٤٠ .
(٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢١ .
(٤) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٢ .

جلَت عزماتك الفتح المبينا فقد قرّت عيون المؤمنينا
رددت أخيذة الإسلام لمّا غدا صرف القضاء بها ضمينا
وهان بك الصليب ، وكان قدماً نعز على العوالي أن يهونا (١)

تلك هي صورة مخسارة عن الكنائس والبيع والصلبان اقتبسناها من بعض شعراء العصر ، تقابلها صورة أخرى عن المساجد والقبب والمنابر والمصاحف ، وكثيراً ما كنا نلاحظ الجمع بين النقيضين ، نذكر من ذلك قول ابن القيسراني في معرض تهنئة عماد الدين بفتح الرها :

سمت قبة الإسلام فخراً بطوله ولم يك يسمو الدّين لولا عماده
فلا مطلق إلا وشدّ وثاقه ولا موثق إلا وحلّ صفاده
ولا منبر إلا ترنّح عوده ولا مصحف إلا أنار مداده
وقل للملوك الكفر تسلم بعدها ممالكها ، إن البلاد بلاده
ومن كان أملاك السموات جنده فأية أرض لم تُرضها جياده (٢)

تحدث أيضاً ابن منير الطرابلسي عن غزاة حارم ، وأشار إلى الفرنجة اعداء الإسلام الذين زرعوا النفاق والفساد في أرض الشام ، ويود لو انطق الله المنابر ، ولو أطاقت التكلم لحمدته أعوادها عن خطبائها :

وإذا العدا زرعوا النّفاق وأحصدوا كيداً فعزمك ناقض حصّاد
ألبست دين محمد بانوره عزاً له فوق السُّها إساد
إن المنابر لو تطيق تكلماً حمدتك عن خطبائها الأعواد (٣)

وهنأ ابن منير أيضاً عماد الدين في المناسبة نفسها ، وذكر بعض هذه المعاني في المدحة التي خصه بها ، وجاء فيها قوله :

---

(١) ديوان ابن الساعاتي ، ص ٤٠٧ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٢٣٤ .
(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٣٧ .
(٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٠١ .

قلْ للأعـادي ألا موتوا بـه كمـداً فاللهُ خيَّبكـمْ ، واللهُ أعطـاهُ
أينَ الخلائفُ عـن فتـحٍ أتيح له مُظلِّـلٌ أفقَ الدُّنيـا جناحـاهُ ؟
على المنـابرِ مـن أنبـائهِ أرجٌ مقطوبـةٌ بفتيـقِ المسـك ريّـاه
فتحٌ أعـادَ على الإسـلامِ بهجتـهُ فافترَّ مبسمُهُ واهتـزَّ عطفـاهُ(١)

توضح الأبيات التي أوردناها بعض المعانى التى أشرنا إليها من قبل ، بيد أنها تنفرد بتحدي الخلفاء العباسيين والفاطميين وغيرهم ممن ولى الحكم على اختلاف الدعوات ،وكأنما لذ للشاعر أن يكرر المعنى ذاته في قصيدة أخرى بقوله:

لو َجرَى الإنصـافُ في أوصافـه كـانَ أولاهـا أمـيرَ المؤمنـينْ (٢)

شهد ابن الساعاتي يوم الفتح الأغر الذي حققه صلاح الدين ، وقد كان حلم الأجيال ، وقد لاحظنا في شعره ظهور المعاني الدينية التي نحن بصددها، فلما خرب بيت الأحزان ، أحد حصون الفرنجة ، أنشد قوله :

وقفتَ على حصنِ المخـاض وإنّه لموقفُ حـقٍّ لا يوازيـهِ موقـفُ
وما رُفعتْ أعلامُكَ الصفرُ ساعـةً إلى أنْ غدتْ أكبادها السُّودُ ترجفُ
كبا مـنْ أعاليه صليـبٌ وبيعـةٌ وسادَ بـه دينٌ حنيفٌ ومُصحفُ
صليبةُ عبّـادِ الصليبِ ومنزلُ الـ ـنزال ، لقد غادرتـهُ وهو صفصفُ
أيسكنُ أوطـانَ النبيـين عصبـةٌ تمينُ لدى أيمانهـا وهـي تحلـفُ
نصحتكمُ،والنُّصحُ في الدينِ واجبٌ ذروا بيت يعقوبٍ، فقد جاء يوسفُ(٣)

ولم يكتف ابن الساعاتي بالحديث عن القبب والمنابر والمصاحف كسابقيه، وانما أضاف اليها معاني جديدة ، إذ أشرك معها في فرحها مكة والحجون ، كما في قوله :

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٣٩ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٩ .
(٣) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ٤٠٩ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٨٣ ، ٨٤ ، وأبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ١١ ، ١٢ .

قضيتَ فريضةَ الإسلام منها وصدّقتَ الأماني والظنونا
تهزُّ معاطفَ القدس ابتهاجاً وتُرضي عنك مكة والحجونا(١)
فلو أنّ الجهاد بطيقُ نطقاً لنادتكَ : ادخلوها آمنينا(٢)

ويصف في قصيدة أخرى المدينة المنورة . والحجرة النبوية المترفة ، ويود لو شهد أبو حفص عمر عودة القدس إلى المسلمين :

وقد ساغَ فتحُ القدس في كلّ منطق وشاعَ إلى أن أسمعَ الأسل الصمّا
فليت فتى الخطاب شاهدَ فتحها فينهدَ أنّ السيف من يوسف أصمى
حبا مكة الحسنى وتنّى بيثرب وأسمعَ ذياكَ الضريحَ وما ضمّا
وأصبح ذاك الثغرُ جذلان باسماً والسنةُ الأغماد توسعه لثما(٣)

يلاحظ أن الشعراء لم يكونوا ليكتفوا برسم هذه الصور المستمدة من الكفاح الديني ، وإنما كانوا يحرضون الأبطال المسلمين على استعادة الثغور الإسلامية المحتلة وتطهير الطراز الأخضر الشامي .

استثارة وتحريض

تولى الشعراء مهمة التحريض على جهاد الفرنجة ، واستثارة همم الملوك وعزائمهم ،وبث دعوة الجهاد والكفاح بين الناس ، وذلك لتحرير الثغورالمحتلة وإنقاذ ببت المقدس من سلطان حكمهم ، إذ إنه في نظر المسلمين أحد الاماكن المقدسة التي ترتبط بالدين الاسلامي برباط ونيق ، ولا سيما أنه كان أولى القبلتين ، وفيه ثاني الحرمين والصخرة المقدسة التي عرج منها الرسول

---

(١) الحجون : جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها .

(٢) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ، ص ٤٠٧ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١٩٨ ، وأبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ٨٥ .

(٣) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ، ص ٣٨٥ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٢٣٤ ، وأبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ١٠٦ .

(ص) إلى السموات العلا ليلة الإسراء والمعراج .

بدأت الدعوة إلى تحرير بيت المقدس بأكثر من نصف قرن من الزمن منذ قيام عماد الدين زنكي ، وقد ظهرت الاشارة الى ذلك في احدى مدح ابن منير الطرابلسي بقوله :

وغداً يلقى على القدس لها   كلكل يدرسها درس الدرين (١)
همة تمسي وتضحي عزمة   لبس حصن إن تحطه بحصين (٢)

كان كل فتح من الفتوح الاسلامية مناسبة ينتهزها الشعراء لتذكير المسلمين بمتابعة الجهاد المقدس، فلما فتح عماد الدين الرها أنشد ابن القيسراني قصيدة ، يمدح بها وزيره جمال الدين، ويشير فيها الى هذا الفتح ، ومما قاله:

أما آن أن يزهق الباطل   وأن ينجز العدة الماطل
فان يك فتح الرها لجة   فساحلها القدس والساحل
فهل علمت علم تلك الديار   بأن المقيم بها راحل
أرى القمص يأمل فوت الرما   ح ، ولا بد أن يضرب الشائل
بقوي معاقله جاهداً   وهل عاقل بعدها عاقل (٣)

كانت الآمال معلقة بعماد الدين لفتح القدس ، بيد أنه قتل على حين غرة بيد أحد غلمانه ، ويطمع الغرب من جديد في استعادة ما كان في حوزتهم من أيدي المسلمين، ولكن ظهور ابنه نور الدين كان الدعامة الراسخة التي أفسحت المجال واسعاً لمتابعة الكفاح المرير ضد الفرنجة الغزاة وجدير بالذكر أن الصراع كان أمر وأمضى ، إذ استطاع المسلمون أن يحققوا انتصارات واسعة، كما يتضح لنا ذلك من خلال ملاحظة أحداث العصر وملاحمه الضارية ، وقد رأينا الشعراء أشد حرارة في التحريض والاستثارة ، حتى إن نشوة الفتوح

---

(١) الدرين : يبيس الحشيش ، أو حطام المرعى اذا تناثر وسقط على الأرض .
(٢) أبو شامة : الروضتين : ج ١ ص ٤٠ .
(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٩ .

المتوالية جعلت نور الدين يأمر الاخترينى بعمل منبر جميل لينصب في بيت المقدس يوم الفتح المرتقب .

لا بأس بنا ان نقف عند أشهر المعارك في هذه الفتره لنشهد التحريض والاستنسارة يبلغان أقصى المدى لدى شعراء العصر كما قلنا، فلما قتل البرنس صاحب انطاكية عند حصن إنّب(١) سنة ٥٤٤ هـ اكثر الشعراء من مدح نور الدين وتهنئته بهذا الفتح ، وقد أنشده ابن القيسراني في جسر الحديد بين حلب وانطاكية قصيدة ، وجاء فيها قوله :

أغرتْ سيوفكَ بالإفرنج راجفةً ... فؤادَ روميّةَ الكبرى لها يجبُ
فانهضْ إلى المسجد الأقصى بذي لجب ... يوليكَ أقصى المنى فالقدسُ مرتقبُ
وائذن لموجكَ في تطهير ساحله ... فانما انتَ بحرٌ لجُّهُ لجِبُ
يامنْ أعادَ ثغور الشام ضاحكةً ... من الظُبا من ثغور زانها الشَّنبُ
ما زلت تُلحقُ عاصيها بطائعها ... حتى أقمتَ وانطاكيةٍ حلبُ(٢)

ولما أسر جوسلين ، وكان كثير الغدر والمكر، أكثر الشعراء أيضاً في وصف هذه الحادثة ، ومما قاله ابن القيسراني في احدى قصائده مادحاً :

فسرْ واملأ الدُّنيا ضياءً وبهجةً ... فبالأفق الداجي الى ذا السنا فقرُ
كأني بهذ العزم لا فلّ حدُّه ... وأقصاه بالأقصى ، وقد قُضي الامرُ
وقد أصبح البيت المقدس طاهراً ... وليس سوى جاري الدماءِ له طهرُ
وقد أدّت البيضُ الحداد فروضها ... فلا عُهدةٌ في عنق سيفٍ ولا نذرُ
وصلّت بمعراجِ النبيّ صوارمٌ ... مساجدها شفعٌ وساجدُها وترُ
وإن يتيممْ ساحل البحرِ مالكاً ... فلاعجبٌ أنْ يملكَ الساحل البحرُ(٣)

---

(١) إنّب : بكسرتين وتشديد النون حصن من أعمال عزاز من نواحي حلب .

(٢) أبو شامه : الروضتين ، ج ١ ص ٥٩ ، ٦٠ .

(٣) أبو شامه : الروضتين ، ج ١ ص ٧٣ ، ٧٤ .

وجاء في القصيدة التي مدح بها ابن منير الطرابلسي نور الدين يهنئه بفتح أنطرسوس وبحمور قوله :

غسلَ العواصمَ أمس ِمنْ أدرانهمْ ... واليومَ ردّ به السواحل بُورا
أخلى ديارَ الشرقِ من أوثانها ... حتى غدا ثالوثُهنّ نكيرا
رفع القصور على نضائد هامِهمْ ... منْ بعدِ ما جعل القصورَ قبورا
غادرتَ أنطرسوسَ كالطرسِ امَّحى ... رسماً وحمرُ ربوعها يحمورا
الق العصا فيمن أطاعَ ومن عصى ... منهمْ ، ودمّر أرضهم تدميرا
لا يُلهِهمْ أنْ قد مننتَ وشنَّها ... شعواء تصلي الكافرينَ سعيرا
باكرْ بركز قناً تُنسّف أسَّها ... والخيلُ صورٌ كي تزيرَكَ صُورا
وتريكَ لامعةَ التريكِ بساحةِ الـ ... أقصى مُطهّرةً له تطهيرا
ضحكتْ لكَ الايامُ ، واكتأبالعِدا ... قلقاً ، فجئتَ مبشّراً ونذيرا (١)

لم يقتصر التحريض والاستثارة على القصائد التي صورت هزائم الفرنجة ، وانما نتبين ذلك أيضاً في الحروب التي كانت تشن لتوحيد البلاد وتخليصها من بعض حكامها المتمردين الذين كانوا يقفون عثرةفيطريقالنضال. نذكر من ذلك مثلا ما كتبه ابن القيسراني من حماة :

دمشقُ،دمشقُ،إنما القدسُ سرحةٌ ... ومركزُها صرحٌ عليها ممرّدُ
حموها لكي يحموا ، وقد بلغ المدى ... يرفرفُ في أرجائها ويُغرّدُ ؟(٢)

ونجد مثل ذلك أيضاً في القصيدة التى مدح بها العماد نور الدين بعد أن نزع منبج من صاحبها ابن حسان ، وجاء فيها قوله :

بشرى الممالكِ فتحُ قلعةِ منبج ... فليهن هذا النصر كلّ متوّجِ
وافى يبشّر بالفتوح وراءهُ ... فانهضْ إليها بالجيوشِ وعرّجِ
أبشرْ ، فبيتُ القدسِ يتلو منبجاً ... ولمنبجٌ لسواهُ كالأنموذجِ

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٧ ، ٨٨ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٩ ٧.

ما أعجزتكَ الشهب في أبراجهـا طلباً ، فكيف خوارجٌ في أبـرجِ
فانهض إلى البيتِ المقدّس غازياً وعلـى طرابلسٍ ونابلسٍ عـُـرجِ
قد سِرتَ في الإسـلامِ أحسن سيرةٍ مأثورةٍ وسلكتَ اوضحَ منهـجِ (١)

ولما توحدت مصر والشام في عهد نور الدين بعد قضاء عامله على مصر صلاح الدن على الفاطميين بعث العماد اليه يهنئه بذلك :

للهِ دركَ نـورَ الدّين مِنْ ملِكٍ عـدْلٍ لحفظِ أمورِ الدينِ مُلتزمِ
كانتْ ولايةُ مصـر قبلَ عزّتهـا بكشفِ دولتهـا لحمـاً على وضمِ
فالنيلُ ملتطمٌ جارٍ على خجَـلٍ جـارٍ لبحـرِ نوالٍ منكَ مُلتطِمِ
وطهر القدسمنرجس الصليب ونبٌ على البغاة وثوبَ الآجـدلِ القطِمِ
فملك مصرَ وملكُ الشام فد نُظِمـا في عِقْدِ عزٍّ من الإسلام مُنتظمِ (٢)

ولم يقتصر التحريض على الوقائع المذكورة آنفا ، وانما كان بظهر حتى في المدح الشخصيه ، كما بنضح لنا ذلك في القصيدة التي هنأ بها ابن منير الطرابلسي نور الدين بحلول شهر رمضان ، وجاء فيها قوله :

فداكَ منْ صـامَ ومنْ أفطـرا ومن سعى سعيَـكَ ، أو قصّـرا
أبقـاكَ للدُّنيـا وللـدينِ مـن خـلاّكَ في ليلِهمـا نيّـرا
حتى ترى عيسى من القدسِ قـد نجـا إلـى سيفِـك مُستنصراً(٣)

ويمضي نور الدن الى ربه ، وتعصف ريح الفتن بالبلاد ، وبقي الامر على هذه الحال حتى قام صلاح الدين ، فقضى على الفتنة والفرقة ، وجمع شمل البلاد بعد أن انتهز الفرنجة هذه الفرصة ، وطمعوا بالبلاد من جديد ، بيد أنه فوت عليهم الفرصة السانحة ، وقد لاحظنا أن شعراء هذا العصر ، وبخاصة منهم العماد الكاتب استطاعوا ان يؤثروا تأثيرا كبيرا في ميدان

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٥٠ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٧٥ .
(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٥٧ .

التحريض والاستثارة لاتمام الدعوة لتحرير بيت المقدس . ولا بأس أن نورد على سبيل المثال ما ذكره العماد الكاتب في القصيده التي مدح بها صلاحالدين وقد عزاه فيها بوفاة عمه ، وجاء فيها قوله :

هزمتمْ جنودَ المشركين بربعكمْ ... فلم يلبثوا خوفاً ، ولم يمكثوا ذعرا
وما يرتوي الإسلامُ حتى تغادروا ... لكمْ منْ دماءِ الغادرين بها غُدْرا
فصُبوا على الإفرنجِ سَوْطَ عذابها ... بأن يقسموا ما بينها القتلَ والأسْرا
ولا تهملوا البيتَ المقدّسَ واعزموا ... على فتحِه غازينَ ، وافترعوا البكرا
تديمونَ بالمعروفِ طيِّب ذكرِكمْ ... وما الملكُ إلا أن تديموا لكم ذكرا (١)

كما مدح العماد الكاتب السلطان صلاح الدين بقصيدة يتشوق فيها الى دمشق ، ويظهر تأسفه عليها لبعده عنها ، وفيها قوله :

ويومُ الفرنجِ إذا ما لقوكَ ... عبوسٌ برغمهمُ قمطريرُ
نهوضاً إلى القدسِ يشفي الغليـ ... ـلَ ، بفتحِ الفتوحِ ، وماذا عسيرُ؟
سلِ اللهَ تسهيلَ صعبِ الخطو ... بِ ، فهوَ على كل شيءٍ قديرُ (٢)

ومدحه ايضا سنة ٥٧٢ هـ ، وجاء في مدحته قوله :

فسر ، وافتحِ القدسَ ، واسفك بهِ ... دماءً ، متى تُجرِها ينظُف
وأهدِ إلى الإسبتارِ البتارَ ... وهُدَّ السقوفَ على الأسقُفِ
وخلِّصْ منْ الكفرِ تلكَ البلادِ ... يخلصكَ ربُّك في الموقفِ (٣)

ومدحه سنة ٥٧١ هـ بانتصاره على المواصلة ، وجاء في مدحته قوله :

قد كانَ عزمكَ للالـه مصمّما ... فيهم فلاحَ ــ كما رأيتَ ــ فلاحُهُ
وكأنني بالساحلِ الأقصى ، وقدْ ... ساحت بنحرِ دمِ الفرنجةِ ساحُهُ
نجّوا البلاد منَ البلاءِ بعدلِكم ... فالظلمُ بادٍ في الجميعِ صراحُهُ

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٧٩ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٤٧ .
(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٦٩ .

واستفتحوا ما كانَ من مستغلقٍ   فيها ، فربُّكمْ لكمْ فتّاحُهُ(١)

وجاء في ختام المدحة التي أنشده اباها الشاعر سعادة الاعمى في دار العدل بدمشق قوله :

فاسلمْ ، صلاحَ الدين ، وابق لدولةٍ   ذلت لدولتها ملوكُ زمانها

وانهضْ إلى فتحِ السواحلِ نهضةً   فادت لكَ الأعداءَ بعد حرانها(٢)

وجاء في المدحة التي هنأ بها العماد الكاتب تقي الدين عمر في أحد انتصاراته سنة ٥٨١ هـ ، قوله :

رددتَ كراديس الفرنجِ وكلهم   لدى الأسرِ في غلّ الصغارِ مكردسُ

وبيضتَ وجهَ الدّينِ يوم لقيتهم   وأبيضكم من أسودِ القصرِ أشوسُ

أفادَ دمَ الأنجاسِ طهرُ سيوفكم   وما يستفادُ الطهرُ لولا التنجسُ

شموس" ظباً تغدو لها الهامُ سجداً   فللّهِ نصرانيةٌ" تتمجسُ

ولا يفتح البيتَ المقدسَ غيركم   وبيتكم من كلّ عابٍ مقدسُ

إذا ما تقيّ الدينِ صالَ تساقطتْ   لأقدامِهِ من عصبة الشركِ أرؤسُ(٣)

هكذا رأينا أن التحريض لم يقتصر على بيت المقدس وما جاوره من الاماكن القدسية ، وانما شمل السواحل المحتلة ، كما كان الشعراء يطالبون بتحرير الثغور التي يهدد منها العدو الناس الآمنين ، ويغدرون بهم في كل فرصة تسنح لهم . فلما ملك صلاح الدين حصون انطاكية ، وفتح قلعة (برزيه) الحصينة(٤) ، مدحه الشهاب الساغوري ، وحرضه على فتح مدينة صور ، بقوله :

لما ملكت حصونَ انطاكيةٍ   يئس الصليبُ وحزبهُ منْ مظهرِ

برزتْ إلى برزيهَ عزمتكَ التي   مدّت يداً عن مطلبٍ لم يقصرِ

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٥٥ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٥٣ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ٧٢ .

(٤) هي (بَرزُيَه) . ذكر ياقوت أن العامة تقول (بَرْزَيّه) ، وقال انها « حصن قرب السواحل الشامية على سن جبل شاهق يضرب بها المثل في جميع بلاد الافرنج بالحصانة » معجم البلدان ، ج ١ ص ٣٨٣ .

فتناولتـــهُ بأيدهـــا منْ بـاذخٍ   في الأفـق ذي مثلٍ يروعُ مسـيرِ
فانهضْ لصورٍ ، فهي أحسنُ صورة   في هيكل الدنيـا بدتْ لمصــورِ
ما سورُ صورٍ عاصمٌ منــهُ وهل   سورُ المعـاصمِ عاصمٌ لمسوَّرِ (١) ؟

اتضح فيما تقدم معنا من بحث ان الشعراء كانوا يرسمون للملوك والابطال الفاتحين خطط الفتوح، فكلما سقط حصن أناروا حميتهم لاسترداد حصن آخر قريب أو بعيد ، ويبقى بعد ذلك كله أملهـم الاكبر وحلمهـم المرتقب : ألا وهو انتظار فتح القدس ، واستعادة الثغور المحتلة من ايدي الفرنجة . لقد كان للشعراء أكبر الاتر في الدعوة الى هذا الامر ، كما رأينا بشكل متصل ، فهم الذبن أناروا العزائم ، وشحذوا الهمم في قصائدهم ، سواء منها التي وصفت الملاحم الخالدة وسجلت الاحداث الكبرى أم النى انشدوها في أغراض أخرى كما هو الحال في معرض التهنئة أو المـدح أو الرثاء أو غيرهـا .

كان لهذه القصائد الملحمية وقع كبير على الناس ، فلقد استثارت حقاً حماستهم ، وجعلتهم يسترخصون الموت ، ويقذفون بأنفسهم مجاهـدين يطلبون الاستشهاد في سبيل رضوان الله ، وذلك ليؤدوا واجبهم الديني كاملا أمام الله والتاريخ والعالم .

تباشير وتهان وفتوح

لم يشهد التاريخ الاسلامي بعد فتوحه انتصارات تتوالى بسرعة كالتي شهدها هذا العصر ، فكانت انباء الملاحم الخالدة تحمل الى مختلف الامصار، فتزف الى الناس البشائر ، وكانت الشعراء تخلد ذلك كله بقصائد تنشد في حضرة الابطال الفاتحين، أو تبعث اليهم من كل مكان لتنشد على مسامعهم . وكانت بشكل عام تتميز بصدق العاطفة وحرارتها ، وبعدها في أغلب الاحيان

---

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٣٢ .

عن الصنائع البديعية ، ذلك أن نشوة الظفر وضرورة تقديم القصائد تحتم على الشعراء أن يبتعدوا فيها عن التكليف ، فتبدو ريانة في ماء الطبع . من ذلك ما انشده القيسراني أمام نور الدين بظاهر حلب بعد كسر الفرنجة على بفراس [1] وهزمهم الى حصن حارم سنة ٥٤٣ هـ ، وجاء في قصيدته قوله:

تفي بضمانهــا البيضُ الحـــدادُ وتقضي دينهـــا السمرُ الصعادُ
وتدركُ ثأرهـــا منْ كلّ بـــاغٍ فــوارسُ من عزائمهـــا الجـــلادُ
جرت بالنصر أقـــلامُ العـــوالي وليس ســوى النجيــع لها مدادُ
وطالتْ أرؤسُ الأعـــلاج خصبـاً فنــادى السيفُ قد وقــع الحصادُ
أحطتَ بهــم فكان القتــلُ صبـراً ولا طعــنٌ هنـــاك ولا طـــرادُ
وللابرنس فـــوقَ الرمـــح رأسٌ توسّـــد ، والسنانُ له وســادُ
ترجّـــل للســـلامِ ففرّســـوه ولبس ســوى القنــاةِ له جــوادُ
غضيضُ المقلتــين ولا نعـــاسٌ وعـــابـرُهـــا وليس بـه سهــادُ
فســر واستوعبِ الدنيـــا فتوحاً فلا هضبٌ هنـــاك ولا وهـــادُ
ولا في بابِ فـــارسَ غـير نكلـى بفارسهـــا يضيءُ بهـــا الحـــدادُ
لأنطاكيَّـــةٍ يحمـــى ذراهـــا وقـــد دانت لسطوتـك البـــلادُ
وأذعنتِ الممـــالكُ واستحـــالتْ ملبيـــةً لدعوتـك العبـــادُ [2]

وصف الشاعر في هذه التهنئة قتل البرنس ، وصوره تصويراً رائعاً ، وقد حمل رأسه فوق رماح المسلمين ، وطلب من نور الدين أن يتابع فتوحه المظفرة لكي يستوعب الدنيا كلها ، فلا يحول بينه وبين أقاصيها حائل ، كما أشار الى الحادثة نفسها ابن منير الطرابلسي في القصيدة التي هنأ بها نور الدين وذكر ظفره بالبرنس وأصحابه ، وحمل رأسه إلى حلب ، وقد أنشده إياها بجسر الحديد :

---

(١) مدينة قرب أنطاكية على بعد اربعة فراسخ منها .
(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٥٦ .

أقوى الضلالُ وأقفرتْ عرصاتُهُ ... وعلا الهدى ، وتبلجتْ قسماتُهُ
وانتاشَ دينَ محمدٍ محمودُهُ ... من بعد ما غلبتْ دماً عبراتُهُ
ردت على الإسلام عصرَ شبابهِ ... وثباتُه من دونه وثباتُهُ
أرسى قواعدَهُ ، ومدّ عمادَهُ ... صُعُداً ، وشيدَ سوره سوراتُهُ
فتحٌ تعممتِ السماءُ بفخره ... وهفت على أغصانها عذباتُهُ
سَبَغَتْ على الإسلام بيضُ حجوله ... واختالَ في أوضاحها جبهاتُهُ
لله بلجةُ ليلةٍ محصتْ به ... واليوم ذبحٌ وشيه ساعاتُهُ
حط القوامصَ فيه بعد قماصها ... ضربٌ يُصلصلُ في الطلى صعقاتُهُ
صدم الصليب على صلابة عوده ... فتفرقتْ أيدي سبا خشباتُهُ
وسقى البرنس وقد تبرنسَ ذلّةً ... بالروح ممقر ما جنتْ غدراتُهُ
فانقاد في خطمِ المنيةِ أنفُه ... يومَ الخطيم ، واقصرَتْ ثرواتُهُ
ترك الكنائسَ والكناسَ لناهبٍ ... بالبيض نهبٌ ما حواه عفاتُه
لا زالَ هذا الملكُ يشمخُ شأنُه ... أبداً ، ويلفتُ في الحضيضِ وشاتُه
ما أخطأتكَ يدُ الزمان فدونه ... مَنْ شاءَ فلتسرعْ إليه هناتُه
أنت الذي تُحلي الحياة حياتُه ... وتُهبُّ أرواحَ القصيد هباتُه (١)

نلاحظ في هذه القصيدة أن الصراع الديني المشار إليه آنفاً يتضح كل الاتضاح ، ويعود الشاعر بذاكرته إلى عصر صدر الإسلام ، ويتذكر من خلال هذه الانتصارات هاتيك الأيام الغر ، ويعظم الشاعر بطل الفتح شأنه شأن معظم الشعراء ، حتى نجده يغدو في نظر ابن منير الطرابلسي المهدي المنتظر وقائم العصر ، كما في القصيدة التي هنأ بها نور الدين بالنصر يوم حارم ، وجاء فيها قوله :

حظيتَ من المعالي بالمعاني ... ولاذَ الناسُ بعدكَ بالاسامي
زكا عرقُ العراقِ وقد تكنّى ... به ، وأطالَ من شمم الشآم

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٦٠ – ٦١ .

وفي شجراءِ حـــارمَ شاجرتهـمْ سـواهـم كالسهـام بكالسهـامِ
فلو قـد مثّلَ الإسـلام شخصـاً لرشفِ مـا وطئتَ مـن السـلامِ
فأكـذب مـدّعـين هفـوا وغروا عن النـور المبـينِ بل التعـامى (١)

كان الأبطال يطلبون من شعرائهم تخليد انتصاراتهم وتمجيد فتوحهم ، إذ إنهم كانوا يقدرون أهمية هذه المرحلة في التاريخ الإسلامي ، ويدركون أنها نقطة التحول الكبرى من الضعف الى القوة ، ومن الاستسلام والذلة والخنوع الى المبادهة والهجوم والنصر ، فلا غرابة إن رأينا أبطال الملاحم الإسلامية يشيرون إلى الخطورة الكبرى الكامنة في هذه الحروب ، كما يتضح ذلك في الكتب التي كانت تسير بالبشائر إلى الخلفاء والأقاليم المختلفة ، ولا غرابة أيضاً إن رأيناهم يطلبون إلى شعرائهم الذين كانوا يرافقونهم تخليد هذه الملاحم الكبرى في قصائد الفتوح ، ففي الغارة التي شنها كلب الروم على رواد من أعمال حوران ، قال العماد الكاتب : « وكنت راكباً في لقائهم مع الملك العادل ، وهو يقول : كيف تصف ما جرى ؟ فمدحته بقصيدة :

عَقَـدتْ بنصركَ رايـةُ الإيمـانِ وبدتْ لعصـرك آيـةُ الإحسـانِ
يا سالبَ التيجـان من أربابهـا حزت الفخـار على ذوي التيجـانِ
محمـودٌ المحمـودُ ما بـين الورى في كـل إقليـمٍ بكـلِّ لسـانِ
أحلى أمانيـك الجهـادُ وإنـه لك مـؤذنٌ أبـداً بكل أمـانِ
كم بكرٍ فتحٍ أولـدته ظُبـاك من حربٍ لقمـعِ المشـركـين عـوانِ
كم وقعةٍ لك بالفـرنجِ حديثُهـا قـد سار في الآفـاقِ والبـلدانِ
قمّصتْ قومصَهمْ رداءً من ردى وقرنتَ رأسَ برنسهمْ بسنـانِ
وملكتْ رقَّ ملوكهـمْ وتركتهـمْ بالذّلِ في الأحقـادِ والأشجانِ
وجعلتْ في أعنـاقهمْ أغـلالهـمْ وسحبتهمْ هونـاً على الأذقـانَ
يا خيبـة الإفرنجِ حـين تجمعـوا في حيرةٍ ، وأتـوا إلى حـورانِ
وجلوتَ ـ نورَ الدين ـ ظلمة كفرهم لـما أتيتَ بـواضـحِ البـرهـانِ

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٠٢ .

اصبحت للاسلام ركناً ثابتاً والكفرُ منك مضعضعُ الاركانِ
قل : أينَ مثلكَ في الملوكِ مجاهدٌ ؟ للهِ في سرٍ ، وفي إعلانِ
دانتْ لك الدنيا ، فقاصيها إذا حقّقته لنفاذِ أمركَ دانِ
فمن العراقِ إلى الشآم إلى ذرا مصر إلى قُوصٍ [1] إلى أسوانِ
لم تلهُ عن باقي البلاد وإنما الهاكَ فرضُ الغزو عن همذانِ
للرّوم والإفرنج منك مصائبٌ بالترك والأكراد والعربانِ
اذعنتَ للهِ المهيمنِ إذ عنتْ له أوجهُ الأفلاكِ بالإذعانِ
سيرٌ لو أنّ الفتح ينزلُ انزلت في شأنها سورٌ منَ القرآن [1]

نلاحظ في هذه القصيدة العمادية إشارة الشاعر الهامة الى وحدة البلاد التي تضم شمل العراق والشام ومصر حتى قوصوأسوان وغيرها من البلاد العربية في هذا العصر ، كما يتضح لنا تضافر كافة الأجناس من عربوأكراد واتراك للقضاء على الروم والفرنجة . ونلاحظ من طرف آخر أن الشاعر أثنى على ممدوحه كل الثناء ، وحباه بغر قصائده القدسية ، إذ هو الذي قد مهد السبيل ، وحرر الثغور المحتلة ، وذلك انتظاراً لليوم الموعود الذي سيتحقق بفتح بيت المقدس ، وقد آذن الله بالنصر بعد موقعة حطينالخالدة .

ملحمة حطين الخالدة

لا شك أن معركة حطين الخالدة كانت الموقعة الفاصلة والملحمة الخالدة في التاريخ الاسلامي : وقد أكثر الشعراء في التحدث عنها ، والتغني بها ، والإشادة ببطلها الكبير صلاح الدين ، نذكر منهم العماد الكاتب ؛ فانه وصف هذه الملحمة في بضع قصائد ، وأشار اليها في عدة مناسبات ، منها فتح نابلس ، وفتح القدس . أما أشهر قصائده الحطينية فهي قصيدته السينية

---

(١) قُوص : ذكر ياقوت أنها مدينة كبيرة عظيمة واسعة ، وهي قصبة صعيد مصر ، ومحط التجار القادمين من عدن ، وهي شرقي النيل (معجم البلدان ، ج ٤ ص ٤١٣) .

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .

التي جاء فيها قوله :

يا يومَ حطّينَ ، والأبطالُ عابسةٌ وبالعجاجةِ وجه الشمسِ قد عبسا
رأيتَ فيها عظيمَ الكفرِ محتقراً معفّراً خدّهُ والأنف قد تعسا
يا طهرَ سيفٍ برى رأس البرنس فقد أصابَ أعظم من بالشركِ قد نجسا
عرّى ظباهُ من الأغماد مهرقةٌ دماً من الشركِ ردّاها به وكسا
من سيفهُ في دماءِ القومِ منغمسٌ منْ كلِّ من لم يزل في الكفر منغمسا
افناهم قتلهمْ والأسرُ فانتكسوا وبيتُ كفرهمُ من خبثهمْ كُنسا(١)

أشاد العماد في هذه القصيدة الى ابرنس الكرك ، ولمح الى حادثته المشهورة مع صلاح الدين ، وهو من جملة من وقع في الأسر يوم حطين ، وكان السلطان قد استحضر الأسرى من ملوك الفرنجة وامرائهم ، واقعدهم في الدهليز ، واستحضر منهم الابرنس بصورة خاصة ، إذ إنه قد غدر بقافلة المسلمين التي كانت متوجهة من مصر الى الشام ، وقال لأصحابها متهكما : « قولوا لمحمدكم يخلصكم » فابتدره السلطان قائلا : « ها انا انتصر لمحمد (ص) »(٢) ثم عرض عليه الاسلام تكفيراً لما اذنب فأبى ، فضربه السلطان بيده ، وأجهز عليه من بيده من جنده ، وذلك وفاء لنذره الذي قطعه على نفسه ، وأشهد الله عليه ان هو ظفر به.

تحدث العماد ايضا عن هذه المعركة في قصيدة سينية أخرى ، وجاء فيها قوله :

سحبت على الأردنّ ردناً من القنا رُدينيةً مُلْداً وخَطّيّةً مُلْسا
حططتَ على حطّين قدرَ ملوكهمْ ولم تبق من أجناسِ كفرهم جنسا
ونعمَ مجالُ الخيلِ حطّينُ لم تكن معاركها للجرد ضرساً ولا دهسا
غداةَ أسودُ الحوب معتقلو القنا أساودُ تبغي من نحورِ العدا نهسا

(١) المصدر السابق ج ٢ ، ص ٨٣ .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

كسرتهمُ إذ صحّ عزمُكَ فيهمُ ونكستهمْ إذ صارَ سهمُهمُ تكسا

بواقعةٍ رجّتْ بها الارضُ جيشَهم دماراً كما بسّت جبالَهم بسّا

بطون ذئاب الأرض صارت قبورهمْ ولم ترضَ أرضٌ أن تكون لهم رمسا

وقد طابَ ريانا على طبريّةٍ فيا طيبها ريّاً ، ويا حسنها مرسى(١)

هكذا وقف بنا الشاعر على ضفاف طبرية التي شهدت أمر الملاحم . وقد طاب له الوقوف فيها يتذكر حطين الخالدة ، وشهد التاريخ بخلده على صفحة هذه البحيرة الهادئة .

لا بأس بنا أن نقف مع شاعر آخر هو ابن الساعاتي ، وقد دخل مدينة طبرية نفسها بعد سقوطها بيد صلاح الدين ، وانشده قصيدة جاء فيها قوله :

جلتْ عزماتُكَ الفتحَ المبينا فقد قرّتْ عيونُ المؤمنينا

رددتَ أخيذة الإسلام لما غدا صرفُ القضاءِ بها ضمينا

وهانَ بك الصليب وكان قدماً يعزُّ على العوالي أن يهونا

وما طبريّةٌ إلا هديٌ ترفّع عن أكفِّ اللامسينا

قضيت فريضة الإسلامِ منها وصدقتَ الأمانيَ والظنونا

تهزُّ معاطفَ القدسِ ابتهاجاً وترضي عنكَ مكةَ والحجونا

فلو أنّ الجهاد يطيقُ نطقاً لنادتك : ادخلوها آمنينا

أعدت بها الليالي وهي بيضٌ وقد كانتْ بها الأيامُ جونا

فألمْ بالسواحل فهي صورٌ إليك ، والحق الهام المتونا

فقلب القدس مسرور ، ولولا سطاك لكان مكتئباً حزينا

أدرت على الفرنج وقد تلاقت جموعهمُ عليك رحىً طحونا

ففي بيسان لاقوا منك بؤساً وفي صفدٍ أتوك مصفّدينا

لقد جاءتهم الأحداثُ جمعاً كأنّ صروفها كانتْ كمينا

وخانهم الزّمانُ ، ولا ملامٌ فلست بمبغضٍ زمناً خؤونا

لقد جردت عزماً ناصرياً يحدّثُ عن سناهُ طور سينينا

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٩ .

فكنــت كيوسف الصــدّيق حقــاً · لهُ هــوت الكواكــب ساجدينا (١)
وإن تــكُ آخــراً ، وخــلاك ذم ، · فــإن محمــداً في الآخرينــا (٢)

نوه الشاعر بهذا الفتح المبين،واشـاد بالبطل الكبير صاحب النصر الاغر، ثم وقف عند طبرية يتغنى بما حققه ممدوحه في جهاده الأكبر وود لو انطق الله الجهاد ، وعبر عن نداء مدينة القدس . وفي هذا التشخيص ما فيه من براعة ومهارة فنية تثير الحياة في نفس السامع . وقد أشار الشاعر في هذه القصيدة إلى صليب الصلبوت ، وهو الصليب الاكبر الذي يقدسونه ، ويعتقدون أن المسيح عليه السلام صلب عليه ، وقد وقع في حوزة المسلمين بعد معركة حطين الخالدة . كما دعا ابن الساعاتي على عادة شعراء هذا العصر الى فتح بيت المقدس وتطهير بقية الساحل والطراز الاخضر الشامي من احتلالهم .

تحرير بيت المقدس

آذنت موقعة حطين الخالدة بتحرير بيت المقدس بعد أن بقي نيفاً وتسعين سنة بيد الفرنجة ، وكان ذلك سنة ٥٨٣ هـ . وهي السنة الغراء التي سجل فيها صلاح الدين يوسف أروع انتصارات المسلمين في هذا العصر .

أكثر الشعراء من نظم القصائد القدسية التي تخلد هذا الحدث الاكبر حتى إن بعضهم قصر معظم شعره علــى التغني بفتح بيت المقدس في قصائد خاصة أسماها (القدسيات) كما سنرى ذلك في شعر ابي الفضل الجلياني.

أبرز الشعراء الذين وصفوا هذه الملاحم الخالدة هو العماد الكاتب وزير صلاح الدين في بلاد الشـام ، وقد أورد منها جملة في أواخر كتـابه البرق الشامي ، ومن قصائده التي هنأه فيها بفتح بيت المقدس ، وهو مخيم عليه ، قصيدته التي جاء فيها قوله :

---

(١) اشارة الى قوله تعالى : « اذ قال يوسف لابيه : يا أبت اني رأيت احد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين » سورة يوسف ١٢/٤ .

(٢) ديوان ابن الساعاتي ، ج ١ ، ص ٣٨٢ – ٣٨٤ ؛ وأبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ٨٤ .

رأيتُ صلاحَ الدين أفضلَ من غدا وأشرفَ من أضحى وأكرم من أمسى
فلا عدمت أيامنا منهُ مشرقاً ينيرُ بما يولي ليالينا الدُمسا
جنودُك أملاكُ السماء وظنّهم عداتك جنّ الارض في الفنك لاالإنسا
فلا يستحق القدسَ غيرك في الورى فأنتَ الذي من دونهم فتحَ القدسا
ومن قبل فتح القدس كنتَ مقدساً فلا عدمتْ اخلاقك الطهر والقدسا
وطهرته من رجسهم بدمائهمْ فاذهبْتَ بالرجس الذي ذهبّ الرجسا
نزعت لباس الكفر عن قدس أرضها والبستها الدين الذي كشّف اللّبسا
وعادت ببيت الله أحكامُ دينه فلا بَطْرَكاً (١) أبقيتَ فيها ولا قَسّا
وقد شاع في الآفاق عنك بشارةٌ بأن اذان القدس قد أبطَلَ النّقسا
جرى بالذي تهوى القضاءُ وظاهرت ملائكة الرحمن اجنادَكَ الحُمسا
توكلْ على اللهِ الذي له أصبحتْ كلآته درعاً وعصمته ترسا
ودمّرْ على الباقين واجتثّ أصلهم فإنك قد صيّرت دينارَهم فلسا
وإنّ بلاد الشرقِ مظلمةٌ ، فخذ خراسانَ والنهرين والتركَ والفرسا
وبعد الفرنج الكرك ، فاقصد بلادهم بعزمكَ واملأ من دمائهمُ الرّمسا
أقامتْ بفاب الساحلين جنودُكمْ وقد طرّدتْ عنه ذئابَهمُ الطلسا(٢)

نلاحظ في هذه القصيدة القدسية ان الشاعر أثنى على صلاح الدين كل الثناء ، إذ هو أهل لاكثر من ذلك بعد العمل الجبار الذي خلده على مدى الدهر ، ونلاحظ أيضاً أنه يرسم للبطل الظافر الخطة التي يجب أن ينتهجها بعد فتح بيت المقدس ، فلا يقعده هذا الظفر عن متابعة الفتح ، ولا يعبث به الغرور ونشوة الظفر ، وطلب إليه أن ينقذ بلاد الترق كلها من فساد حكامها الأغراب الذين لا يرون في الحكم إلا ذريعة لتحقيق رغبانهم ومآربهم الخاصة

(١) البطرك : مقدم النصارى ، وقيل : هو البطريق نفسه كما جاء في القاموس ، وهو من الدخيل ، وقد نقل صاحب اللسان أيضا أن « البطرك السيد من سادات المجوس » انظر في اللسان ماده (بطرك) و (بطرق) .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠٢ .

دون أي أعتبار لهذه الشعوب المستضعفة والمغلوبة في كل إقليم من أقاليم العالم الإسلامي ، كما ذكره بضرورة استعادة الكرك، وذلك ليتم تحرير البلاد المحتلة من حكم الفرنجة .

زفت البشائر وسيرت أخبار النصر الى كل مكان ، نذكر منها البشارة التي بعث بها صلاح الدين الى الخليفة العباسي الناصر في بغداد : وكانت قصيدة قدسية ، نظمها العماد ، وجاء فيها قوله :

أبشرْ بفتحٍ ـ أميرَ المؤمنين ـ أتى ... وصيتُه في جميعِ الارضِ جوّابُ
أحيا الهدى ، وأمات الشركَ صارمُه ... لقد تجلّى الهدى ، والشركُ منجابُ
بفتحهِ القدسَ للاسلامِ قد فُتحتْ ... في فمِ طاغيةِ الإشراكِ أبوابُ
ففي موافقةِ البيتِ المقدسِ للـ ... بيتِ الحرامِ لنا تيهٌ وإعجابُ
والصخرُ والحجرُ الملثومُ جانبُه ... كلاهما لاعتمارِ الخلقِ محرابُ
نفى من القدسِ صلباناً كما نُفيتْ ... منْ بيتِ مكةَ أزلامٌ وأنصابُ(١)

ومن الشعراء الذين خلدوا ملحمة بيت المقدس ابن الساعاتي ، فلقد مدح صلاح الدين متسيداً بما حققه للمسلمين من نصر مؤزر ، وجاء في مدحته قوله :

أعيناً ، وقد عاينتم الآيةَ العظمى ؟ ... لأيةِ حالٍ تذخرُ النثرُ والنّظما ؟
وقد ساغَ فتحُ القدس في كل منطقٍ ... وشاعَ الى أنْ أسمعَ الأسلَ الصمّا
فليتَ فتى الخطّاب شاهد فتحَها ... فيشهدَ أنّ السيفَ من يوسفٍ أصمى
وما كان إلاّ الداءَ أعيا دواؤه ... وغير الحسام العضبِ لايعرفُ الحسما
وأصبحَ ثغرُ الدين جذلان باسماً ... والسنةُ الأغمادَ توسعُه لثما
سلوا الساحلَ المخشيّ عن سطواته ... فما كان إلاّ ساحلاً صادف اليمّا
تجاوزتَ ما اعيا الجبالَ منالُه ... فهل يقظةٌ كانت مساعيك أو حلما ؟
نصبتَ على الاعداء رأياً ورايةً ... يفيدانهم منْ بعد رفعهمُ الجزما

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

فللحـــق شـمس لا تغـامُ بباطــلٍ   وللعدلِ فيه آيةٌ تنسخُ الظلمـــا(١)

نلاحظ في هذه الملحمة القدسية أن الشاعر أعرب عن فرحته الكبرى ، ولم يكتف بذلك ، وإنما سما إلـى آفاق الحكمة الخالدة ، وذكر الفرنجة أن شمس الحق لا بد أن تشرق وتعم البرية كلها ، وأن آية العدل ستنسخ كل جور وظلم . كما نمنى في هذه الملحمة القدسية ان يشهد عمر بن الخطـاب هذا النصر الاغر ليكون شاهده العدل ، وقد أعرب عن المعنى نفسه في قدسية ثانية بقوله :

هو الفاتحُ البيتَ المقدسَ بعد مـا   تحامته ساداتُ الدُنـا ومسودُهـا
فضيلةُ فتحٍ كـان ثانـي خليفـةٍ   من القوم مبديها ، وأنت معيدُها(٢)

هكذا يقارن الشاعر بين الفتحين ، هما في نظره فضيلتان ، أولاهما كانت على يد ثاني الخلفاء الراشدين عمر ، وثانيهما على يد الناصر صلاح الدين ، الذي استطاع بجهاده أن يعيد الحق إلى نصابه ، فتشرق شمسه الوضاءة ، وتنزل آيته العظمى لتنسخ ضلال الفرنجة . وتعيد البيت المقدس ليكون ما كان تحت راية الإسلام بعد أن عصفت به ريح الخطوب كما يقول الشاعر في قدسية ثالثة :

عصفتْ به ريحُ الخطوبِ زعازعـاً   فلقـين طـوداً لا تخـفُ أناتـُـه
هو منقذُ البيتِ المقدس بعـد مـا   طالتْ ، فما وجـدَ الشفاءَ شكاتُه
بيـتٌ تأسس بالسكـون ، وإنمـا   عند الزحـاف تحركـتْ سكناتُـه
أمشتتَ الأعداءِ ، وهـي جحافلٌ   عن شمل ديـنٍ جُمّعتْ أشتاتُـه
أوتيتَ عزمـاً في الحروب مسـدداً   لا زيغُـه يُخشـى ولا هفواتُـه
أحسنتَ بالبيـت العتيـقِ ويثربٍ   ولـك الفِعـال كثيـرةٌ حسناتُـه

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٢٣٤ ، وأبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ١٠٦ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ١٠٧ .

هذي سيوفك محرمات دونه لبكائهن تبسمت حجراته(١)

شاعر ثالث أيضاً ، من أصل اندلسي ، مقيم في بلاد الشام ، صرف معظم شعره لنظم الملاحم القدسية هو أبو الفضل الجلياني(٢) الملقب بحكيم الزمان ، فقد نظم قدسياته المشهورة ، وسماها (ديوان المبشرات والقدسيات) . وصف ابن أبي أصيبعة هذا الديوان ، وذكر « أنه نظم وتدبيج وكلام مطلق . يشتمل على وصف الحروب والفتوح الجارية على يد صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب فاتح بيت المقدس في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة » ، وأعرض في نظمها عما عرف عنه في عمل الأشعار وتكلفها وتصنعها على شكل دوائر وأشجار وصور ، وترك لطبعه وشاعريته العنان ، فكانت قدسياته بحق أجمل شعره ، إذ إنه نظمها تخليداً لهذا الحدث الكبير ، لا طمعاً في مغنم ،

---

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٦ .

(٢) هو عبد المنعم بن عمر بن حسان الأديب الطبيب الشاعر ، وينسب الى جليانة الاندلسية ، من أعمال وادي باش . ذكر ياقوت أنه سكن دمشق ، وانه كان يجلس باللبادين على دكان بعض العطارين ، اذ كانت معيشته الطب ، وأشار الى أنه قد لقيه ووقفه على أشياء عجيبة في عمل الأشعار ، يعمل في ذلك دوائر وأشجاراً وصوراً ، ويستخرج منها الرسائل والكلام الحكمي مكتوباً في خلال الشعر . يضاف الى ذلك أن القطعة الواحدة كانت تقرأ بعدة قواف . مات بدمشق سنة ٦٠٣ هـ . له من الآثار الشعرية والنثرية عشرة كتب ، هي ديوان الحكم وميدان الكلم ، وهو نظم ، وديوان المشوقات الى الملأ الأعلى ، وهو نظم ، وديوان أدب السلوك ، وديوان نوادر الوحي ، وديوان تحرير النظر ، وسر البلاغة وصنائع البديع في فصل الخطاب ، وديوان المبشرات والقدسيات ، وديوان الغزل والتشبيب والموشحات والدوبيتي وما يتصل به ، وهو نظم ، وديوان تشبيهات والغاز ورموز وأحاج وأوصاف وزجريات وأغراض شتى ، وهو نظم ، وديوان ترسل ومخاطبات في معان كثيرة وأصناف من الخطب والصدور والأدعية . يضاف الى ذلك كتاب منادح الممادح وروضة المآثر والمفاخر من خصائص الملك الناصر صلاح الدين يوسف الفه سنة ٥٦٩ هـ . وتعاليق في الطب ، وصفات أدوية مركبة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ، ص ١٥٧ وابن ابي أصيبعة : عيون الانبياء ، ج ٢ ص ١٥٧ — ١٦١) .

ولا سعياً وراء عطاء(١) .

أشار العماد الى قصائده القدسية ، وذكر أنها جياد طوال كثيرة الفوائد، كما اطلع عليها أبو شامة المقدسي ، وأعجب بها كثيراً ، ونقل منها في كتاب « الروضتين » جملة لا بأس بها ، ونرى من الواجب علينا أن نعرض ، ونبرز أهم ما فيها من المعاني القدسية .

تحدث أبو الفضل عن البطل صلاح الدين ، وذكر أنه لم يزل من أول ما ولي الأمر في مصر يعلم أنه مؤيد بعناية الله سبحانه ، وأشار الى ما جاء في شعره من التباشير القدسية التي تنبأ بها من خلال مدحه ، وذكر أنه سيفتتح بيت المقدس على يديه .

امتدح أبو الفضل صلاح الدين سنة ٥٦٥ هـ بقصيدة نيفت على مائة بيت وجاء فيها قوله في التباشير :

لتظفرنَّ بما لم يحوِهِ ملكٌ ... أبا المظفَّر حظّاً خطّه الأزلُ
دليلُ ذلكَ آراءٌ لك اقترنتْ ... بالحزْمِ والعزْمِ لم يُخصصْ بها الأولُ
قد سادَ إسكندر أهل الزمان معاً ... في سنِّ عشرينَ ، وامتدَّتْ له الحيلُ
وافى الثلاثينَ والاقطارُ أجمعها ... طوعاً له ، وملوكُ الأرض والملل(٢)

وامتدحه سنة ٥٦٧ هـ عند قفوله من غزاة غزة ، وجاء في مدحته قوله:

أبا المظفَّر ، فاهنأْ حظٌّ منتخبٍ ... أخرى الزَّمان لدينٍ كاد ينبترُ
زهدتَ فيما سبى الأملاك منكدراً ... علماً بملك نعيم ، ما به كدرُ
وطِبتْ نفساً عن الدنيا وزخرفها ... وجئت تقدمُ حيثُ الهولُ والخطرُ(٣)

وامتدحه سنة ٥٦٨ هـ بقصيدة نيفت على مائة بيت ، وجاء فيها قوله في التباشير :

---

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ج ٢ ص ١٦١ .
(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ١١٥ .
(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١١٦ .

أرى الرايةَ الصفراءَ، يرمى اصطفاقُها بنـي أصفـرٍ بالراعفـات اللهـاذمِ
فتسبي فلسطينياً ، وتجبى جزائراً وتملكُ من يونـانَ أرضَ الأساحمِ
وتعنو لـه الأمـلاكُ شرقـاً ومغرباً بذا حكمتْ حذاقُ أهـل الملاحمِ(١)

نلاحظ ان أبا الفضل كان يستشير صلاح الدين في تباشير مدحه ، ويحرضه على فتح بيت المقدس ، ويتنبأ له بمستقبل عريض زاهر ، يملك فيـه العالم كله ، ودليله على ذلك ما حكمت به حذاق أهل الملاحم .

وامتدحه سنة ٥٨٢ هـ ، وهنأه بالعافية من مرض عرض له ، في قصيدة بعث بها اليه من غزه ، وهو على حمص ، وجاء فيها قوله :

فيا ملكـاً ، لم يبـقَ للدين غـيرُه وهتْ عمدُ الإسلام، فاشددْ لها دعما
فشؤمُ فريق الشرك في الشام طائرٌ فقصّ جناحيه بأقصى القوى قصما
خصصتَ بتمكينٍ ، فعمّ العدا ردىّ فإنّهمُ يأجوج ، افرغْ بهـا رَدْما
اذا صفرتْ من آل أصفر ساحةُ الـ مقدّس ضاهتْ فتحَ أمّ القرى قدما
فذا المسجدُ الأقصى ، وهمتك العلا وعزمتك القصوى، ورميتك الصمّا
فما هـو الاّ أن تهـمّ ، وقـد أتت فتوح ، كما فاض الخضمّ الذي طمّا
وان انت لـم تردَ الفرنجَ بوقعـةٍ فمن ذا الذي يقوي لبنيانها هدما؟
وليس كفتـح القدس منيـةُ قادرٍ وما إن تلقاها سوى يوسفٍ جزما(٢)

نلاحظ أن التحريض يشتد كثيراً ، إذ إن النصر أصبح قاب قوسين أو أدنى ، ذلك أن الله خصه بقوة وتمكين من لدنه ، وأنه كتب على فريق الترك الذل والهوان ، ويخلص أخيراً الى تذكيره بالواجب الملقى علـى عاتقه ، وهو طرد الفرنجة ، فهو البطل الوحيد القادر على القضاء على الباطل ، وهو الذي بيده مقاليد فتح بيت المقدس .

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٦ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٦ . والأساحم جمع الأسحم وهو الأسود .

وكان الشاعر يكرر التحريض والاستثارة في كل مناسبة ، وقد بلغ القمة في المدحة التي أنشدها بين يديه قبل عام واحد من الفتح الأغر ، وجاء فيها قولـه :

اللهُ أكبرُ ، أرض القدس قد صفرتْ … من آل أصفرَ ، إذ حَينٌ بـه حانوا
أسباطُ يوسفَ من مصر أتوا ولهمْ … من غير تيهٍ بها سلوى وامنانُ
لهمْ فلسطينُ ، إن يخرجْ عداتهم … عنها ، وإلا عدتْ بيضٌ وخرصانُ
حتى بنيت رتـاجَ القدس منفرجاً … ويصعدُ الصخرة الغـرّاءَ عثمانُ
واستقبل الناصرُ المحرابَ يعبد من … قد تمّ مـن وعدهِ فتـحٌ وإمكانُ
وجازَ بعضُ بنيه البحرَ تجفلُ من … غاراته الرومُ والصّقلابُ واللانُ[1]
حتى يوحّدَ أهـلُ الشركِ قاطبـةً … ويرهبَ القـول بالثالوث رهبانُ
ولابن أيـوبَ في الإفرنـج ملحمـةٌ … دلـت عليهـا أسـاطيرٌ وحسبـانُ
ومن أحـقُّ بملكِ الأرض مـن ملكٍ … كأنـهُ ملكٌ في الخلـق حنـانُ[2]

هذه التباشير القدسية ، وهذه الآمال العريضة بملك العالم كلـه ، قد سبقت الفتوح والبشائر ، ولا بد لنـا في معرض القول من تبيـان المقصود بالتباشير والبشائر ، وإن كان اللفظان يؤديان معنى واحداً من حيث الأصل ، بيد أن القدماء قصروا لفظة التباشير القدسية على ما جاء من قول سابق يؤكد فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين أو غـيره ، وأما البشائر فقد قصرت على القصائد أو الرسائل التي كانت تسير حاملة أخبار الفتوح .

تحقق الحلم الأكبر والامل العظيم ، وصدقت تباشير الشاعر القدسيـة منذ سنين بعيدة ، ففتح بيت المقدس ، وحملت البشائر السلطانية الى كل

---

(١) الصّقلاب : معناها في الاصل الرجل الأبيض أو الأحمر ، والصقالبة : جيل حمر الالوان صهب الشعور يتاخمون بلاد الخزر في أعالي جبال الروم . ذكر ياقوت أن الصقلاب بلاد بين بلغار وقسطنطينية وتنسب اليهم الخرم الصقالبة . اللان : بلاد واسعة قرب باب الأبواب في طرف أرمينية مجاورة للخزر .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٦ .

مصر ، فهزته نشوة النصر ، وأنبرى بنظم قدسياته الخالدة ، يتغنى فيها بهذا الحدث الاغر ، وينوه فيها بالبطل صلاح الدين الذي كان له شرف الفتح الذي خلده مدى الدهر .

نختار من قدسيات الشاعر أبي الفضل « القدسية الكبرى » ، وقد بلغ عدد أبياتها مائة واثنين وخمسين بيتاً ، وجاء فيها قوله :

تصاريفُ دهرٍ أعربتْ لمن اهتدى ... وبسطةُ أمرٍ اغربتْ مَنْ تمرّدا
لسرعةِ فتح القدسِ سرٌ مغيّبٌ ... وفي صرعةِ الإفرنج معتبرٌ بدا
أتوا كجبالٍ أبرمتْ لإسارنا ... فسقناهم فيها قطيناً مجدّدا
وساموا تجاراً تشترينا غواليا ... فبعناهم بالرخصِ جهراً على الندا
وجرّوا جيوشاً كالسيول على الصوى ... فآضتْ غثاءً في البطاحِ ممددا
وقالوا : ملوكُ الارض تحت قيادنا ... إذا الكل منهم في القيودِ تعبّدا
وقد اقطع الكندُ العراق موقعاً ... فأودعَ سجناً وسطَ جلقَ مؤصدا
وأقسمَ أن يسقي بدجلةَ خيلهُ ... فما وردَ الاردنَّ إلا مصفّدا
فكم واثقٍ خجلانَ قهقه خصمُه ... وكم سائقٍ عجلان قهقه مُقعدا
أتى الكندُ من إسبان يحمي قمامةً ... فكان تقضي ملكه قبل يُبتدا
فما عقدَ الراياتِ إلا محللاً ... ولا حللَ الراياتِ إلا معقدا
ووقعة يومِ التل(١) ، إذ قبضتْ به ... جبابرةُ الإفرنجِ حيرى وشرّدا
عليهمْ مِن البلوى سرداقُ ذلةٍ ... ومن ذلّ ماتت نفسه فتقيّدا
ترى المنسر الديويّ يُلقي سلاحه ... وينساقُ ما بين السبايا ملهّدا
يباعون أسراباً شرائح احبل ... كشلة عصفور من الريش جرّدا
فتلقى نصارى جلّق في مآتم ... يُسرّونها إلا شجىً وتنهدا
الم ترِ للسلطان صدّق نذره ... دمْ الغادرِ الإبرنس فاقتيد أربدا
وباشره بالقتلِ وسطَ جنابه ... وعاينه الكندِ المليك فأرعدا

(١) يوم التل : أي يوم معركة تل حطين .

وضاقت بنفس القمّص ِ الأرض ُ مهرباً — فأدركه الموتُ المفاجىءُ مكمداً
وما طرقَ الأسماعَ من عهد آدم — كملحمةِ التلّ التي تلت العدا
أتوا وادياً ما زالَ ينفي خبائثاً — وُيصفي بعقبى الدار طائفة الهدى
به جثمتْ أصحابُ أيكة وهي في — ذراه ، وذا فيه شعيبٌ تأيّدا
أرى اللهُ فيه معجزَ النصرِ مخلصاً — لأمر صلاحِ الدين في الناسِ مخلدا
ومن عجبٍ خمسون ألف مقاتلٍ — سبتهمْ جيوشٌ ليس فيها من ارتدى(١)

نلاحظ أن الشاعر في هذه الملحمة القدسية استطاع أن يعرض لنا بدقة وقعة القدس وملحمة تل حطين ، ووصف لنا هزائم الفرنجة المنكرة ، وأشار الى وفاء صلاح الدين بنذوره ، وهو قتل الإبرنس بيده كما ذكرنا ، لأنه غدر بقوافل المسلمين الآمنة ، وشتم الرسول (ص) ، وكان قد أزمع أمره على المسير الى تيماء ، ومهاجمة المدينة المنورة سنة ٥٧٧ هـ .

ونختار من قدسيات أبي الفضل الجلياني قدسة ثانية ، هي « الفتحية الناصرية » ، وجاء فيها قوله :

في باطنِ الغيبِ مالا ُتدركُ الفكرُ — فذوا البصيرة في الأحداث يعتبرُ
مالي أرى ملك الإفرنجِ في قفصٍ — أين القواضبُ والعسّالةُ السمرُ ؟
والإستبارُ الى الداويّةِ التأموا — كأنهمْ سدُ يأجوجٍ إذا اشتجروا
والنفسُ مولعةٌ عجباً بسيرتها — وفي المقادير ما تسلي به السيرُ
يا وقعة التلّ ما أبقيت من عجبٍ — جحافلٌ لم يفتْ من جمعِها بشرُ
ويا ُضحا السبتِ ماللقوم قد سبتوا — تهودوا أم بكأسِ الطعن قد سكروا ؟؟
ويا ضريح شعيبٍ ، مالهمْ جثموا — كمدينٍ أم لقوا رجفاً بما كفروا
حطّوا بحطين ملكاً كافياً عجباً — في ساعة زالَ ذاكَ الملكُ والقدرُ
أهوى إليهمْ صلاحُ الدين مفترساً — وهو الغضنفرُ أعدى ظفرهُ الظفرُ
أملى عليهمْ فصاروا وسط كفتِهِ — كسربِ طيرِ حواها القانصُ الذكر

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٧ ، ١١٨ .

وأنجزَ اللهُ للسلطانِ موعدَه ... ونذره في كفور دينه البطر
وعاين الملكَ الإبرنسَ في دمه ... فمات حيًّا، وحيًّا، وهو يعتذر
رأى مليكاً ملوكُ الأرضِ تتبعُه ... والنجمُ يخدُمه، والشمسُ والقمر
إذا بدا تبهرُ الأعيانَ هيبتُه ... ويختفي، وهو في الأذهان مُشتهر
تقدم الجيلُ في أخرى الزمانِ به ... على صدور علاً من قبلنا صدروا
أما رأيتمْ فتوحَ القادسية في ... اكنافِ لوبيةٍ تُجلى، وذا عمر(١) لا
والحقُّ يعرسُ، والطغيان منتحبٌ ... والكفر يطمسُ والإيمانُ مزدهر
هذا المليك الذي بشرى النبيِّ به ... في فتنةِ البغي للاسلام ينتصر
أنسى ملاحم ذي القرنين، واعترفت ... له الرواةُ بما لم ينمه أثر
أعين إسكندرٌ بالخَضْرِ، وهو له ... عونٌ من اللهِ يستغني به الخضر
وصنع ذي العرش إبداعٌ بلا سببٍ ... فلا تقل: كيف هذا الحادث الخطر؟
بينا سباياه تُجلى في دمشق إذا ... ملكُ الفرنج مع الأتراكِ محنجر
إزاءه زعماءُ الساحلين معاً ... مصفَّدين بحبل القهر قد أسروا
يتلوهم صلبوتٌ سيق منتكساً ... وحوله كلُّ قسيسٍ له زُبُر
ونحنُ في ذا، وذا طيرٌ صحيفتَه ... بفتح عكا التي سُدت بها الثغر
تغزو أساطيلُنا منها صقليةٌ ... فتذعرُ الرومُ والصقلابُ والخزَر
منْ ذا يقولُ: لعلَّ القدسَ منفتحٌ ... إليك، بل سفرُ يعقوبٍ له السَّفر؟
أبو المظفَّر ينويها، فخذ سفناً ... من بابِ عكا الى طرطوسَ تنتشر
يسبي فرنجةَ من أقطارها، وله ... مع المجوسِ حروبٌ قدحُها سعر
وبعض أبنائه بالقدس منتدبٌ ... وبعضُهم رومةُ الكبرى له وطر
برايةٍ تخرقُ الأرضَ الكبيرةَ في ... جمعٍ تقولُ له الأجسامُ: لا وَزَر
قالوا أطلتَ مديحاً فيه، قلتُ: كما ... بدَأتُ، فالصبُّ للمحبوبِ مدّكر(٢)

---

(١) لوبية: ليس المقصود بها ليبيا المعروفة حالياً والتي يعنيها ياقوت بقوله: انها واقعة بين الاسكندرية وبرقه وانما المقصود بها اسم موضع موجود في فلسطين قرب بحيرة طبريه، وهذه من المواضع التي لم يوردها ياقوت في معجمه. أو هو الموضع الذي ذكره باسم (لوبيا) وقال لانه « اسم موضع أعجميّ » ولم يحدد مكانه.

(٢) أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ١١٦، ١١٧.

نلاحظ في هذه الملحمة القدسية أن الشاعر وصف حال الفرنجة السيئة بعد وقوعهم في ذل الاسر ، وقد حاول من خلالها أن يحرضه على تحرير ما بقي من الثغور الإسلامية تحت حكم الفرنجة ، كما نلاحظ من طرف آخر أن الشاعر كان يخطط للبطل خطة المستقبل ، فأمامهم الفتوح الكبرى في بلاد الروم والصقلاب والخزر ، وعند بعض ابنائه رغبة قوية في الاستيلاء على رومية الكبرى . وهكذا يبدو لنا الاثر الكبير والدور الخطير الذي لعبه الشعر في احداث العصر الكبرى ، وكان صلاح الدين بالطبع البطل الاسطوري ، صاحب الملاحم القدسية الخالدة في التاريخ الإسلامي ، وقد عبر لنا عن هذا الشاعر نفسه في إحدى قدسياته بقوله :

يا فاتحَ المسجدِ الأقصى علـيّ بهمْ   وقانصَ الجيشِ لا يحصى بقفزتـهِ
أبشر بملكٍ كظهرِ الشمسِ مطلـعِ   على البسيطةِ فتّـاح بنشرتـهِ
حتى يكـونَ لهذا الديـنِ ملحمـةٌ   تحكي النبـوةَ في أيـامِ فترتهِ (١)

يضاف الى ما تقدم ان الشاعر المذكور كان يسيّر مدحه التي كان يستشيره بها من دمشق الى أرض المعركة ، نذكر من ذلك مثلا قصيدته التي سماها التحفة الجوهرية ، فقد وجهها الى مخيمه بظاهر عكا ، وهو محاصر للفرنج المعتصمين بها ، فعرضت على مسامعه سنة ٥٨٧ هـ ، ومطلعها قوله :

وفاهيةُ الشهم اقتحـامُ العظـائم   طـلاباً لعـزٍ أو غلابـا لضـائمِ (٢)

خلد الشاعر فتيان الشاغوري هـذا الحدث أيضـا في شعره ، وصور بطولة صلاح الدين أروع تصوير ، ونعته برب الملاحم الخالدة التي لم يؤرخ مثلها العلماء في قديم الاعصر والازمان في القصيدة التي أنشده إياها في قلعة دمشق ، وقد استهل قدسيته بقوله :

---

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٣ .

(٢) ابن ابي أصيبعة : عيون الأنبـاء ج ٢ ص ١٥٧ .

كسرتْ علـى كسرى لعدلك دولـةٌ — قصـرت مهابتهـا تطـاولَ قيصـرِ
أهدى صـلاح الديـن للاسـلام إذ — أرْدَى قبيل الكفـرِ ما لم يُكفَـرِ
ربُ المـلاحم لـم يؤرخ مثلَهـا الـ — علمـاءُ قدمـاً في قديـم الأعصـرِ
خلعتْ عليـهِ خلعـة الملكِ النـي — زيـدت بهـاءً بالطـرازِ الأخضـرِ
راياتـه صفـراً تَـرِدْن وتنثنـي — حمـراً تمـجُ نجيـعَ آل الأصفـرِ
لِمَ لمْ يَدِنْ شوسُ(١)الملوكِ لهُ وقد — ملـكَ السـواحلَ في ثلاثـة أشهـرِ
واستنفذَ البيتَ المقـدسَ عَنـوةً — من كـل ذي نَجسٍ بكـل مطهَّـرِ
واريتهم لمـا التقـى الجمعـان بالـ — بيتِ المقدسِ هـولَ يومِ المحشـرِ
ورددْتَ ديـنَ اللهِ بعـد قطوبـهِ — بالمسجد الاقصـى بوجـهٍ مسفـرِ
وأعدتْ ما أبـداهُ قبلـكَ فاتحـاً — عمروٌ ، فأنـت شريكـه في المتجـرِ
حتى جمعتَ لمعشـرِ الإسـلام بيـ — ـن الصخرةِ العظمى وبـين المشعرِ
فلصخرةِ البيت المقدسِ كفْؤها الـ — ـحجرُ المفضَّلُ عندَ أفضلِ معشرِ
فكأنَّـه إنسـانُ عـينٍ صـورةً — يلقـاهُ أسـودُهُ بمعنـى أنـورِ (٢)

هكذا أصبح فتح بيت المقدس ملحمة شعرية رائعة ، يتغنى بها الشعراء، ويمدحون بطلها الاسطوري صلاح الدين ، يحدوهم في ذلك أمل منتظر ، وقد طال ترقبهم له ليروه يتحقق . مضى ابن قسيم الحموي وابن القيسراني وابن منير الطرابلسي وقضوا نحبهم وهم يتغنون بذكره ، وينظرون تحقيق هذا الامل الكبير .

لا عجب إن رأينا الشعراء اللاحقين الذين شهدوا هـذا الحدث الاكبر يمجدون ويقدسون البطل صاحب النصر المبين ، وهو الذي هيأ الله تحقيق هذا الحلم على يديه . لقد أثنوا عليه كـل الثناء ، وتوقعوا أنه سيكون مالك

---

(١) شُوس : جمع أشوس ، وهو الشديد الجريء في القتـال .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٨ ، ١١٩ . وديوان فتيـان الشاغوري ص ١٤٠ ـــ ١٤٨ .

الارض كلها ، وأنه القائم المهدي المنتظر الذي سيملأ الارض عدلاً ورحمة بعد أن ملئت ظلماً وجوراً .

اشار الى هذه المعاني رشيد الدين احمد بن بدر النابلسي(١) في قدسيته التي جاء فيها قوله .

هذا الذي كانت الآمالُ تنتظرُ ... فليوفِ للهِ اقوامٌ بما نذروا
بمثلِ ذا الفتحِ ، لاوالله ، ما حكيتْ ... في سالف الدهرِ أخبارٌ ولا سير
حينٌ به حانَ هلك المشركين فيا ... للهِ طيبُ العشايا منه والبكرُ
الآن قرت جنوبٌ في مضاجعها ... ونامَ منْ لم يزلْ حلفاً له السهرُ
يا بهجةَ القدسِ إذ أضحى به علم الإ ... سلامِ من بعدِ طيٍّ ، وهو منتشرُ
يا نورَ مسجدهِ الأقصى،وقد رفعت ... بعدَ الصليب به الآياتُ والسورُ
شتانَ مابين ناقوسٍ يدان به! ... وبين ذي منطقٍ يصغي له الحجرُ
اللهُ اكبر ، صوتٌ تقشعرُ له ... شمُ الذرا ، وتكادُ الأرض تنفطرُ
يا مالكَ الارضِ مهّدها فما أحدٌ ... سواك من قائم للمهدِ ينتظر
ماأخضرّ هذا الطرازُ الساحليُ ثرىً ... إلا لتعلو به أعلامكَ الصفرُ
أضحى بنو الأصفرِ الانكاس موعظة ... فيها لأعدائك الآياتُ والنذرُ
صاروا حديثاً ، وكانوا قبلُ حادثةً ... على الورى يتقيها البدو والحضرُ
سلبتهمْ دولةَ الدنيا وعيشتها ... حتى لقد ضجرتْ من وفدهم سقرُ
هذا الذي سلب الإفرنجَ دولتهم ... وملكهم يا ملوكَ الارض ، فاعتبروا
مراكزٌ ما اختطاها الخوفُ مذ مائةٍ ... عاماً ، ولا ريعَ أهلوها ولا ذعروا(٢)

أثارت هذه الفتوح الكبرى ثائرة الغرب ، فخرج ملك الالمان لنصرة فلول الفرنجة المختبئين في بعض الثغور النائية على الساحل بعد فتح بيت المقدس، وذلك سنة ٥٨٥ هـ ، وقد انبرى الشعراء المسلمون من جديد يشحذون

---

(١) رشيد الدين ، أبو محمد ، عبد الرحمن بن بدر النابلسي (المتوفى سنة ٦١٩ هـ) وهو أحد الشعراء المجيدين في مدح بني أيوب ، (ابن شاكر : فوات الوفيات ج ١ ص ٢٥٥).

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ١١٨ .

الهمم ، ويستثيرون الناس للجهاد ، ويحرضون صلاح الدين على استئصال شأفتهم نهائياً من بلاد الشام ، نخص بالذكر منهم ابا الفضل الجلياني شاعر الفتوح القدسية ، فقد خاطبه في هذه المناسبة قائلا :

يا منقذ القدسِ من أيدي جبابرة قد أقسموا بذراعِ الرب ندخلهُ
فأكذبوا كذبهم في وصفِ ربهمُ وصدق الوعدَ مأموناً محولهُ
اما رايتَ ابن أيوبَ استقلّ بما يعيي الزمان وأهليه تحمّلهُ
هاجَ الفرنجَ ، وقد خاروا لفتكهِ فاستنفروا كلّ مرهوبٍ تغلغلهُ
لما سبى القدسَ قالوا : كيف تتركها؟ والربّ في حفرةٍ منها نمثلهُ
فكم مليكٍ لهمْ شقّ البحار سرى لينصر القبرَ ، والأقدارُ تخذلهُ
وكم ترحّلَ منهم فيلقٌ بفلا إلى الخوامع الفاه ترحلهُ
استصرخوا الأهلَ،والعدوى تمزقهمْ واستكثروا المالَ ، والهيجا تنفلهُ
هم الفراشُ لهيبُ الحربِ تصرعهُ وكلما لجّ صدماً جلّ مقتلهُ
سيفٌ أمامَ فلسطين برى أمماً خلف البحارِ لِقدّامهِ صيقلهُ
كم أعدّوا ، وكم قد قل جمعهمُ منْ غير ضربٍ ولا طعنٍ يزيّلهُ
وإنما اسم صلاح الدين يذكرُ في جيش العدو فيسبيهمْ تخيلهُ(١)

هكذا كانت حال أعداء المسلمين ، ورأوا أنهم لا قبل لهم بصلاح الدين ، وفضلوا مراسلته وعقد الهدنة معه بعد الحروب المريرة التي صدعت شملهم وبددت ممالكهم اللاتينية ، وكان ملك الانكليز صاحب هذه الفكرة ، حتى لقد حاول أن يزوج شقيقته الكبرى من الملك العادل ليعيدوا بذلك ما كانوا يطمعون فيه صلحاً . عقدت الهدنة سنة ٥٨٨ هـ ، وتم الصلح بين الطرفين ، وقد أشار ابن الساعاتي الى ذلك في قصيدة مدح بها صلاح الدين،وجاء فيها قوله:

---

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٥١ .

منعتْ ظبـاه المنحنـى بأسـوده … وأشـدّ ما أشكـوه فتـكُ ظبـائه
فعلتْ منا، وهي الصديق، لحاظها … كظبا صلاح الديـن في أعدائـه
لولاك أمّ القـدسَ غيـر مدافعٍ … واسال سبـل نـداه في بطحائـه
وبكَتْ جفونُ القدسِ نانيةً دَماً … لِـيَرنُم النـاقوسِ في أفنـائه (١)

تلك هي ملحمة بيت المقدس في سعر هذا العصر، وقد اسطعنا أن نعرضها من خلال نباشير الشعراء قبل فتحه بعشرات السنين، ثم جليناها من خلال الفتوح والاحداث الكبرى، واختتمناها بذكر البشائر والتهاني في العام الاغر.

نخلص مما تقدم معنا من ملاحم قدسية الى القول ان شعر هذا العصر اسهم كل الاسهام، وشارك أقصى المشاركة في هذا الكفاح الجبار خلال قرن من الزمن تقريبا، حتى إن بعضهم كان يصحب الجيوش الفاتحة، وبعضهم الآخر كان يحارب بصدق واخلاص، وهذا يدلنا على ظهور الوعي بين مختلف الطبقات الاجتماعية، إذ كانت تعتقد أن الواجب يقتضي الا تتوانى عن بذل أي شيء في سبيل المعركة الكبرى التي تهم كل انسان، كانت الحروب قبل هذا العصر مقتصره على الطبقه المختارة من الجنود الذين كانوا يحاربون سعيا وراء المغانم . اما في هذا العصر فقد تغيرت الحال، وكان لرجال الدين أكبر الاثر في نشر هدا الوعي، وتشجيع الناس على طرد المحتلين الغاصبين .

ابطال الفتوح

مجد الشعـراء في هذا العصر أبطـال الحروب، وخلـدوا فتوحهم في ملاحمهم الشعرية الخالدة، ولم ينسوا الثناء عليهم وتخليدهم بعد موتهم في مراثيهم التي سطرت مناقبهم، وعددت مآثرهم، واشارت من خلال ذلك الى الفراغ الكبير الذي شعر بفقدهم، وذلك خشية عودة الفرنجة الى البلاد المحررة، ولا سيما أنهم يتربصون بالمسلمين الدوائر، وينتهزون كل فرصة تسنح لهم على حين غرة .

(١) المصدر السابق، ج ٢ ص ٢٩٤، وابن واصل : مفـرج الكـروب، ج ٢ ص ٤٠٤، ٤٠٥ .

اما المعاني التي طرقها الشعراء في قصائدهم فكثيرة ، لعل ابرزها هنا وصف شجاعة الابطال . وتصوير شدة باسهم وقوتهم الخارقة . والاشارة الى رسوخ حكمهم ونشرهم لواء العدل والامن بين ربوع البلاد التي كانت مغلوبة على امرها . ثم بيان نصرتهم للدين وخذلانهم للشرك والكفر . يضاف الى هذه المعاني بعضها الآخر الذي نعرفه لدى الشعراء من وصف أبطال الفتوح بالجود والحلم والاناة وغيرها من النعوت التقليدية المعروفة قديما وحديثا .

صور ابن منير الطرابلسي بطولة عماد الدين ، فكان في نظره الموت الذي يفتك بأعدائه ويبطش بهم . ثم تحدث عن عدله في أقطار الارض التي تحررت او التي ستتحرر بعد حين على يديه . كما في المدحة التي جاء فيها قوله :

قــل لقــوم ٍ غرهــم ْ إمهالـــه ْ	ستذوقــون شـــذاه ُ بعـــد حـــين ْ
إنــه المــوت ُ الــذي يــدرك ُ مـــن ْ	فــر ّ منــه فسحا للعــاملـــين ْ
وهــو يحيــا ممسكـــا ً عروتـــه ُ	إنهـــا حبـــل لمـــن تـــاب متـــين ْ
من يطع ْ ينج ُ ، ومـــن يمكر ْ يكـــن ْ	مـــن غـــداة ٍ عبـــرة ً للآخريـــن ْ
بك َ يا شمس َ المعـــالي ر ُد ّت الـــ	ـــروح ُ في الميتـــين مـــن دنيـــا ودين ْ
اقســـم الجـــد ّ بـــأن تبقـــى لكـــي	تملك َ الأرض َ يمينـــاً لا يمـــين ْ
وتفيـــض العـــدل َ في أقطـــارهـــا	منسبـــاً مؤلـــم َ عسف ِ الجـــارئين ْ
لا تـــزل دار ُك َ كيـــف انتقلت ْ	كعبـــة ً محفوفـــة ً (١) بالطـــائفين ْ
كـــل يـــوم ٍ ينجلـــي جيّدهـــا	من نظيـــم المـــدح بالـــدر ّ الثمـــين ْ
كلمـــا اخلـــص فيهـــا دعـــوة ً	لك قالت الســـن ُ الخلق ِ : امين (٢)

تتضح لنا في هذه المدحة بعض الصفات التي كان الشعراء يطلقونها على ممدوحيهم . وابن منير في هذه القصيدة لا يجد خيراً من صورة الموت لينعت بها ممدوحه ، ولم يكتف بذلك ، وإنما أضاف إليها صورا أخرى كان يتوخى

---

(١) في الأصل : محفوظة وصوابها ما أبتناه .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٤٠ ؛

من ايرادها إحاطته بهالة من العظمة والجلالة ، وتقابل هذه الصورة هالة أخرى من العبوس والتجهم والترهيب ، وكأنما كان الشاعر يحاول أن يقصر الصورة الاولى على المسلمين ترغيباً واعجاباً ، والصورة الثانية على الفرنجة ترهيباً لهم وبياناً لشدة بطشه وبأسه اذا ما سولت لهم انفسهم الحرب من جديد .

مدح الشاعر نفسه عماد الدين ايضا بقصيدة بائية ، وهو بالرقة سنة ٥٣٧ هـ ، وجاء فيها قوله :

يا بدرُ لا أفَلُ ولا محاقُ ... ولا يرمْ مشرقَك الإشراقُ
إن الرعايا ما سلمْت في حمى ... للخطب عن طرقته إطراقُ
غرست بالعدل لهم خمائلاً ... ترتعُ في حديقها الأحداقُ
يا هضبةَ الدينِ التي عاذَ بها ... فعادَ لا بغتٌ ولا إرهاقُ
لو لم تحطه راجلاً وقافلاً ... أصبح لا شامٌ ولا عراقُ
عمادُ دينٍ مذ أقام زيغه ... حيا ومات الشركُ والنفاقُ
يا محيي العدل الذي في ظله ... تسربلتْ زينتها الآفاقُ
لا سلبتْ منك الليالي ما كستْ ... ولا عرتْ جدّتك الأخلاقُ (١)

خلف نور الدين أباه عماد الدين ، وأتم خطته في الفتح لتحرير الأمصار والثغور المحتلة ، وأسهم الشعراء بدورهم في تمجيده وتخليده ، نذكر من ذلك المدحة التي صور فيها ابن القيسراني بطولته عندما سار الى بصرى ، وقد اجتمع الفرنج آنئذ بقضهم وقضيضهم ، وأزمعوا أمرهم على قصد بلاد الاسلام ، ولكنهم ولوا الأدبار مشتتين بين قتيل وجريح واسير ، وجاء في مدحته خلال المناسبة المذكورة قوله :

وكيف لا نثني على عيشنا الـ ... محمود ، والسلطانُ محمودُ
فليشكر الناسُ ظلال المنى ... إن رواق العدلِ ممدودُ
وتّيراتُ الملكِ وهّاجةٌ ... وطالعُ الدولة مسعودُ
وصارمُ الإسلام لا ينثني ... إلاّ وشلو الكفر مقدودُ

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤١ ، ٤٢ .

مناقبُ لم تك موجودةٌ إلاّ ونورُ الدين موجودُ
مظفّرٌ في درعه ضيغمٌ عليه تاجُ الملك معقودُ
نال المعالي مالكاً حاكماً فهوَ سليمانُ وداودُ
ترتشفُ الأفواهُ أسيافَهُ إن رضابَ العز موروردُ
وكم له من وقعةٍ يومُها عند ملوك الترك مشهودُ
قد حَصْحَصَ الحقُ ، فما جاحدٌ في قلبه بأسكَ مجحودُ
فكلُ مصرٍ بك مستفتحٌ وكلُ ثغرٍ بك مسدودُ(١)

هكذا نشهد الشعراء ينعتون ممدوحيهم بأفضل النعوت . وكانوا من خلال ذلك يصفون الفرنجة ، ويشيدون بالفتوح المختلفة التي كانت تتوالى على المسلمين كما في المدحة التي أنشدها ابن منير الطرابلسي سنة ٥٤٧ هـ ؛ وجاء فيها قوله :

لقد أوطأتَ دينَ الله عزاً أديمُ الشِّعريين له رغامُ
فقمتَ بنصره ، والناسُ فوضى قياماً ذمَّ ما اقترفت فئامُ(٢)
وملتَ على معاقلهم فخرّتْ ولاءً مثلما انتقض النظامُ
بصرخدَ والحُطيمِ (٣) وفي عزازٍ وقائعُ هزّ مشهدَها الأنامُ
ولو لم تعترفْ وتشمَّ أمسى وأصبحَ لا عراقَ ولا شآمُ
صببتَ على الصليبَ صليبَ بأسٍ قواه تحت كلكلهِ حطامُ
ويوم بالعريمة كان حتفاً على الإشراك أمقره العرامُ
وهابَ وقورسٍ وبكفرِ لاثا ذممتَ وأنت للجلّى ذمامُ
بقاؤك خيرُ ما يرجوه راجٍ وأنفعُ ما يبلُّ به أوامُ (٤)

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٥ ، ٥٦ .
(٢) الفئام : الجماعة من الناس ، لا واحد له من لفظه .
(٣) الحُطَيْم : هي حطّين ، لم يذكرها ياقوت واكتفى بذكر الحَطّيم المعروف بمكة ، وقد أوردها ابن شداد في الأعلاق الخطيرة : «حطين : ويقال حُطَيْم قرية بها قبر شعيب وقبر زوجته ، على ما قيل » ج ١ ص ٢٨٢ .
(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٨ .

تؤكد هذه المدحة مع ما سبقها أن الصراع الديني الذي أشرنا اليه آنفا كان على اشده في الحروب المريرة التي شهدها هذا العصر ، وكانت مدح الكفاح صورة حقيقية عن الأحداث الكبرى التى طبعت الشعر بطابعها المميز. فقد كان الكفاح والقتال غرة على الدين الحنيف بعد أن هبض جناحه ، فارتفع لواؤه وشد أزر التربية الاسلامية . عبّر عن هذه المعانى عرقلة في القصيدة التي مدح بها مجير الدين صاحب دمشق بقوله :

مَنْ قاتل الإفرنجَ دِيناً غيرةً | والخيلُ مثلُ السيلِ عند المشهدِ
ردَّ الأمانَ بكل ندبٍ باسلٍ | ومن الجيادِ بكل نهدٍ أجردِ
ومن السيوف بكل عضبٍ أبيضٍ | ومن العجاج بكل نقعٍ أسودِ
حتى لوى الإسلام تحتَ لوائه | وغدا بحمدٍ من شريعة أحمدِ (١)

كان الناس يشعرون بفراغ كبير خطير عندما يطرق أسماعهم فجأة مصرع أحد الابطال المجاهدين أو يفجعهم نبأ موت أحدهم . ذلك أنهم كانوا يخشون غره العدو الذي يتربص بهم الدوائر . وقد عبر الشعراء في مراثي الابطال عما يساور نفوسهم من وجل على مستقبل البلاد. فيبكونهم أحر البكاء، ويندبونهم بحرقة ذاكرين مآثرهم ومناقبهم وما خلفوه من طيب الاحدوثة وجميل الذكر.

لا بأس علينا إن وقفنا مع الشعر في هذا العصر نشهده وهو يتفجع على الابطال الثلاثة الخالدين عماد الدين وابنه نور الدين ومن بعدهماصلاح الدين.
اما عماد الدين فقد أشرنا الى مقتله على حين غرة بيد برتقش أحد غلمانه الفرنجة ، ورثاه الشعراء نخص بالذكر منهم العماد الكاتب الذي رثاه بقصيدة جاء فيها قوله :

كذاك عمادُ الدين زنكي تنافرتْ | سعادَته عنه ، وخرت دعائمُهُ
وكم معقلٍ قد رامه بسيوفه | وشامخ حصنٍ لم تفتْه غنائمُهْ

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٥٤ .

وكانتْ ولاةُ الارضِ فيها لأمرهِ وقد أمّنتهم كتبُه وخواتمُه
وأمّنَ مَنْ في كلّ قطرٍ لهيبةٍ يراعُ بها أعرابُه واعاجمُه
وظالم قومٍ حينَ يذكرُ عدله فقد زال عنهم ظلمُه وخصائمه
وأصبحَ سلطانُ البلاد بسيفهِ وليس له فيها نظيرٌ يزاحمُه
وزادَ على الأملاكِ بأساً وسطوةً ولم يبقَ في الأملاك ملكٌ يقاومُه
فلما تناهى ملكُه وجلالُه وراعتْ ولاةَ الأرض منه لوائمُه
أتاهُ قضاءٌ لا تردُّ سهامُه فلم تنجِه أموالُه ومغانمُه
وأضحى على ظهر الفراش مجدّلاً صريعاً تولّى ذبحَه فبه خادمُه
وقد كان في الجيش اللهام(١) مبيتُه ومن حوله ابطاله وصوارمُه
وسمرُ العوالي حوله بأكفهم تذودُ الرّدى عنه ، وقد نام نائمُه
وكم رامَ في الأيام راحةَ سرّه وهمتُه تعلو وتقوى شكائمُه
وكم ملكٍ للثغرِ آمنَ سبْلَه ومسرح حي لن تُراع سوائمُه
وكم ثغرِ إسلام حواهُ بسيفه من الروم لما أدركتْه مراحمُه
فمن ذا الذي يأتي بهيبةِ مثله وينفذ في أقصى البلاد مراسمُه
فلو رقيتْ في كل مصرٍ بذكرهِ أراقمُه ذلتْ هناك أراقمُه (٢)

نلاحظ في هذه المرثية أن العماد طرق فيها معاني المدح نفسها ، وطبيعي جداً هذا التشابه ، اذ « لبس بين المرثية والمدحة فصل ، الا أن يذكر في اللفظ ما يدل على أنه لهالك » (٣) .

مضى نور الدين الى ربه أيضاً بعد الفتوح الكبرى التي حققها خلال حياته ، وكانت الابصار قد علقت به أملها في اليوم الموعود الذي يتحرر فيه بيت المقدس .

---

(١) اللهام : الجيش الكثير الذي يلتهم كل شيء ويغتمر من دخل فيه أي يغيبه ويستغرقه ، ويقال أيضا : جيش لُهام .
(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج١٠ ص ٤٥ ، ٤٦ .
(٣) قدامة : نقد الشعر ، ص ٩٨ .

كان موته فاجعة كبرى أصابت ألناس جمبعاً ، فلا غرابة أن رأينا ألعماد يرثيه أكثر من مره ، ويحسن بنا الوقوف عند احدى مراثيه ، وقد ذكر في مستهلها أنه سئل نظمها بعد عودته الى دمشق من الموصل ، وبعني هذا بصريح العبارة أن الناس يلهجون بذكره ، ويأسفون على أيامه ، ولا سيما بعد أن طمع الفرنجة بالبلاد من جديد لما رأوا اختلاف الامراء في عهد الملك الصالح اسماعيل قبل أن يلي صلاح الدين أمور البلاد . أما المرثية فجاء فيها قوله :

الدينُ في ظُلَمٍ لغيبةِ نوره ... والدهرُ في غُمَمٍ لفقد أميرهِ
فليندب الإسلامُ حاميَ أهله ... والشامُ حافظَ ملكه وثغورهِ
ما أعظم المقدارَ في أخطاره ... إذ كان هذا الخطبُ في مقدورهِ
ما أكثرَ المتأسفينَ لفقدِ مَنْ ... قرّت نواظرُهم لفقد نظيرهِ
ما أغوصَ الإنسانَ في نسيانه ... أو ما كفاه الموتُ في تذكيرهِ
مَنْ للمساجدِ والمدارس بانياً ... لله طوعاً عن خلوصِ ضميرهِ؟
مَنْ ينصرُ الاسلام في غزواته ؟ ... فلقد أصيبَ بركنه وظهيرهِ
مَنْ للفرنج ومن لاسر ملوكها ؟؟ ... مَن للهدى يبغي فكاكَ أسيرهِ ؟
من للخطوبُ مذللاً لجماحها ؟ ... مَنْ للزمان مسهلاً لوعورهِ ؟
مَن للكريم ومن لنعشِ عثارهِ ؟ ... مَن لليتيم ومَنْ لجبر كسيرهِ ؟
مَن للعلا وعهودها ، مَن للندى ... ووفوده ، مَن للحجا ووفورهِ ؟
ما كنتُ أحسب نورَ دين محمدٍ ... يخبو وليلُ الشرك في ديجورهِ
أعززْ علي بليث غابٍ للهدى ... يخلو الشرى مِنْ زورهِ وزئيرهِ
أعززْ عليّ بأن أراه مغيّباً ... عن محفل متشرفٍ بحضورهِ
لهفي على تلك الأناملَ إنها ... مذ غُيّبتْ غاض الندى ببحورهِ
ولقد أتى من كنت تؤمن سربه ... وقعْ له بالأمن من محذورهِ
ولقد أتى من كنت تؤثر قربَه ... فأدمْ له التغريب في تقريرهِ
والجيشُ قد ركب الغداة لعرضه ... فاركبْ لتبصره أوان عبورهِ
أنت الذي أحييتَ شرع محمدٍ ... وقضيت بعد وفاته بنشورهِ
كم قد أقمت من الشريعةِ معلماً ... هو منذ غبت معرّضٌ لدثورهِ

كم قد أمرتَ بحفر خندقِ معقلٍ حتى سكنت اللحد في محفورهِ

كم قبصرٍ للروم رمتَ بقسره إرواء بيض الهند من ناموره(١)

أوتبتَ فنح حصونه وملكتَ عقـ ـر بلاده وسبيتَ أهلَ قصوره

أزهدْتَ في دارِ الفناءِ وأهلها ورغبتَ في الخلد المقيم وحوره؟؟

أوما وعدتَ القدسَ انك منجزٌ ميعاده في فتحه وظهوره ؟

فمتى تجيرُ القدسَ من دنس العدا وتقدسُ الرحمن في تطهيره ؟

يا حاملينَ سريره مهلاً فمنْ عجبٍ نهوضكُمُ بحمل ثبيره ! (٢)

يا عابرينَ بنعشه انشقتم من صالح الأعمال نشر عبيره ؟

نزلتْ ملائكةُ السماءِ لدفنه مستجمعين على شفير حفيره

ومن الجفاءِ له مقامي بعدَه هلاّ وفيت وسرت عند مسيره ؟

حيّاكَ معتل الصّبا بنسيمه وسقاك منهلّ الحيا بدروره

ولبستَ رضوان المهيمنِ ساحباً أذيالَ سندسِ خزّه وحريره

وسكنتَ علّيينَ في فردوسه خلف المسرّة ظافراً بأجوره (٣)

لا حظنا في هذه المرثية أن العماد صوّر أروع تصوير الفراغ الكبير الذي أحدثه موت نور الدين ، وأشار من ثم الى الخطر الكبير الذي يتهدد البلاد ويصيب العباد ، وذكر بيت المقدس وكان يرقب فتحه على يديه ، ولكنه مضى الى بارئه راضياً مرضيا ، فأسي الشاعر علبه ، وخاطب حملة سريره ونعشه ، وطلب اليهم أن يتمهلوا قليلا ليودع مولاه وداعه الاخير .

خلف صلاح الدين المليك الراحل نور الدين ، وأنقذ البلاد من الفوضى التي حلت بها والاخطار التى ألمت بها في عهد حكم ابنه الملك الصالح إسماعيل، ووحدها من جديد ، وحقق للمسلمين حلمهم المنشود وأملهم المرتقب منذ

---

(١) تامور : أي تأموره بالهمز ، وهو القلب نفسه أو دمه أو حياته ، وقيل النفس ، وقد ذكر صاحب اللسان أن هذه الكلمة سريانية الأصل .

(٢) ثبير : جبل معروف عند مكة ، وهناك اربعة أثبرة : ثبير غيناء ، وثبير الأعرج ، وثبير الأحدب ، وثبير حراء .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

نيف وتسعين عاماً ، بيد أنه قضى نحبه بعد ستة أعوام من عام الفتح الاغر ، فندبه العماد الكاتب ، وبكاه أحر البكاء في مرتبته التى بلغ عدد أبياتها مائتين واثنين وثلاثين بيتاً ، وجاء فيها قوله :

شملُ الهدى والملكُ عمَّ شتاتُه ... والدهرُ ساءَ وأقلعتْ حسناتُه

اين الذي مذ لم يزلْ مختشيةٌ ... مرجوةٌ رهباتُه وهباتُه ؟

أين الذي كانتْ له طاعاتُنا ... مبذولةً ولربّه طاعاتُه ؟

بالله ، أينَ الناصرُ الملكُ الذي ... لله خالصةٌ صفتْ نياتُه ؟

أين الذي ما زال سلطاناً لنا ... يرجى نداه ، وتُتقى سطواتُه ؟

أين الذي شرفَ الزمانُ بفضلِه ... وسمتْ على الفضلاءِ تشريفاتُه ؟

أين الذي عَنَتِ الفرنجِ لبأسه ... ذلاً ، ومنها أدركتْ ثاراتُه ؟

منْ في الجهادِ صفاحُه ما أغمدتْ ... بالنصر حتى أغمدتْ صفحاتُه

منْ في صدورِ الكفرِ صدرُ قناتِه ... حتى توارتْ بالصياح قناتُه

لذّ المتاعبَ في الجهادِ ولم تكنْ ... مذ عاش قطُّ لذاتِه لذّاتُه

في نصرةِ الاسلامِ يسهرُ دائماً ... ليطولَ في روضِ الجنانِ سناتُه

لا تحسبوهُ ماتَ شخصٌ واحدٌ ... فمماتُ كلِّ العالمينَ مماتُه

ملِكٌ عن الاسلامِ كان محامياً ... أبداً إذا ما أسلمتْه حماتُه

الدينُ بعد أبي المظفّرِ يوسفٍ ... أقوتْ قواه ، وأقفرتْ ساحاتُه

جبلٌ تضعضعَ من تضعضعِ ركنِه ... اركانُنا وتهدَّنا هدّاتُه

ما كنتُ أعلمُ أن طوداً شامخاً ... يهوي ولا تهوي بنا مهواتُه

ما كنتُ أعلم أن بحراً طامياً ... فينا يطمُّ وتنتهي زخراتُه

منْ لليتامى والارامل راحمٌ ... متعطفٌ مفضوحةٌ صدقاتُه ؟

لو كان في عصر النبيّ لأنزلتْ ... في ذكرهِ منْ ذكرهِ آياتُه

لضريحِه سقيا السحابِ فان تغبْ ... تحضر لرحمةِ ربّه سقياتُه

وكعادة البيتِ المقدس يحزنُ الـ ... بيتُ الحرامُ عليه بل عرفاتُه

منْ للثغورِ وقد عداها حفظُه ... من للجهادِ ولم تعُد عاداتُه ؟؟

بكت الصوارمُ والصواهل إذ خلتْ | من سبلِها وركوبها غزواتُه(١)
وبسيفِه صدأٌ بحزنِ مصابهِ | إذ ليس يَشفى بعده صدياتُه
يا وحشتنا للبيض في أغمادها | لا تنتضيها للوغى عزماتُه
يا وحشةَ الإسلام يوم تمكنتْ | في كل قلبٍ مؤمنٍ روعاتُه
ياحسرتا من بأس راحه الذي | يقضي الزمانَ وما انقضتْ حسراته
ملأتْ مهابتُه البلادَ فإنه | أسدٌ وإن بلاده غاباته
ما كان أسرعَ عصرَه لما انقضى | فكأنما سنواتُه ساعاتُه
لم أنس يوم السبتِ وهو لما بهِ | يبدي السبات ، وقد بدت غشيَاتُه
والبِشرُ منه تبلّجتْ أنوارُه | والوجهُ منه تلألأتْ سُبُحاتُه
ويقولُ : للهِ المهيمن حكمةٌ | في مرضةٍ حصلت بها مرضاتُه
وقفَ الملوكُ على انتظارِ ركوبه | لهمُ ، ففيمَ تأخرتْ ركباتُه ؟
كانوا وقوفاً أمس تحتَ ركابِه | واليوم همْ حولَ السريرِ مُشاتُه
والقدسُ طامحةٌ إليك عيونُه | عجلْ ، فقد طمحت له عبراتُه
والغربُ منتظرٌ طلوعك نحوه | حتى تفيء إلى هداك بغاتُه
والشرقُ يرجو غربَ عزمك ماضياً | في ملكِه حتى تطيعَ عصاتُه
كم جاءه التوفيقُ في وقعاتِه | منْ كان بالتوفيق توقيعاتُه (٢)
يا راعياً للدين حين تمكنَتْ | منه الذئابُ ، وأسلمنه رعاتُه
أرضيتَ تحتَ الأرضِ يا من لم يزل | فوق السماء عليةٌ درجاتُه ؟
فارقتَ ملكاً غير باقٍ متعباً | ووصلتَ ملكاً باقياً راحاتُه
أعززْ على عيني برؤيةِ بهجةِ الد | نيا ، ووجهكَ لا ترى بهجاتُه (٣)

---

(١) الصواهل : مفردها الصاهل والصاهلة ، وهي الخيل ، وقد اشتق هذا اللفظ من الصهل ، وهو حدة الصوت مع بحح .

(٢) وجد بخط العماد في حاشيه ديوانه أن علامة توقيع صلاح الدين « الحمد لله وبه توفيقي » ،وهذا الذى قصده في البيت المذكور .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ٢١٥ ، ٢١٦ .

وكانت المرثية العمادية خاتمة الملاحم الناصرية الخالدة ، ولعلنا استطعنا من خلالها أن ندرك هذا الفراغ الكبير الذي شغر بموت صلاح الدين ، كما نلاحظ ان العماد أدرك بثاقب بصره عظم المصيبة التي حلت بالمسلمين بعد وفاته ، وأشفق على مصير بيت المقدس ، وأسى لحاله ، وصوره وقد طمحت إليه عيونه كأنه كان يخشى المستقبل المجهول الذي ينتظره .

لم تكن المرثية في الحقيقة بكاء صلاح الدين ، وإنما كانت صورة واقعية عن الاحداث الكبرى في هذا العصر ، وهكذا نجد المراثي والمدح الحربية تخرج عن نطاقها التقليدي إلى نطاق جديد ، فأصبحت تنبض بالعاطفة الصادقة والشعور الفياض ، وتعبر عن المشاعر العامة ، وتصور الكفاح والجهاد ضد الفرنجة خير تصوير .

ننتهي مما تقدم معنا للقول إن تمجيد الأبطال في المدح الحربية وتخليدهم بعد موتهم كانا صوره واضحة عن أحداث العصر الكبرى ، وكانا جذوة أوقدت الحماس والشجاعة في صدور الناس ، ففدا الجهاد والكفاح والدفاع عن حياض الوطن المثل الأعلى لكل امرىء في هذا العصر الذي نؤرخه .

وصف الفرنجة

أفلح الشعراء في وصف الفرنجة وتصوير حالهم من خلال ملاحمهم الشعرية الخالدة التي سجلت أحداث العصر الكبرى بكل أمانة ودقة ، واستطاعوا بمهارة فائقة أن يعرضوا لنا مختلف صور حياتهم الدينية والاجتماعية والسياسية والحربية ، فتحدثوا عن خداعهم ونكثهم بالعهود والوعود ، ووصفوا هزائمهم المتوالية خلال قرن من الزمان تقريباً ، وعرضوا لنا صوراً مفصلة عن سباياهم وأسراهم وقتلاهم ، وقد لاحظنا من خلال ذلك وصف كثير من عاداتهم وتقاليدهم ، وتحدثوا عن مذاهبهم الدينية

وعقائدهم المتخلفة ، وقارنوها بالعقائد الاسلامية . يضاف الى ما تقدم وصف سقوط المدن المحتلة بين أيدي المسلمين . وقد رأينا الأثر الكبير الذي احدثه الشعراء في نفوس الأبطال عندما كانوا يستثيرونهم ويحرضونهم لينقذوا الثغور المحتلة، إذ كانت تتردد على ألسنتهم، فيصورونها ويشخصونها بشكل رائع ، ويودون لو تتحرر في يوم قريب .

مدح ابن القيسراني نور الدين عند قدومه إلى سنجار ، وجاء في مدحته قوله :

وَغدَتْ جيادُك بالشآم مقيمةً	ولها بأطرافِ الدروب مغارُ
هممٌ سبقت بها إلى مهجِ العدا	صرفَ الردى ومسيرُه إحضارُ
وأرى صياحَ القمصِ كان خديعةً	فطغى وجارَ وليس تمٌّ وجارُ
خانَ الصنيعة غير محقوقٍ بها	والخيرُ يهدم ما بنى الختّارُ
ذئبٌ إذا ما غبتَ أقدمَ عابثاً	إقدامَ من لم يدنُ منه قرارُ
أمضى السلاحَ على عدوّك بغيهُ	بالغدرِ يطعنُ في الوغى الغدّارُ
فاحسمْ عناد ذوي العنادِ بجحفلٍ	كالليل فيه من الصفيح نهارُ
جندٌ على جُردٍ أمام صدورها	َصدرٌ عليه من اليقين صدارُ
قد بايع الإخلاصَ بيعةَ نصرةٍ	ولكل هادي أمةٍ أنصارُ
ملكٌ له من عدلِه ووفائه	جيشُ به تُستفتحُ الأمصارُ
وإذا انتضتْهُ إلى الثغور عزيمةٌ	قامتْ مقامَ جنوده الأخبارُ(١)

نلاحظ في هذه القصيدة أن الشاعر يتحدث عن وصف غدر القمص وخداعه وخيانته ، وقارنها بما عرف عن نور الدين من وفاء ونبل وعدل .

ونلاحظ أيضا في القصيدة التي انشدها ابن منير الطرابلسي سنة ٥٤٧هـ يمدح بها نور الدين في حلب وصف بعض ملوك الفرنجة والإشارة إلى ما وقع لهم معه ، وجاء فيها قوله :

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٦٨ ، ٦٩ .

صبحوا محلقةَ البرنسِ بحالقٍ ... حرش الضبابِ من القلوب ضبابُه

ما زال يغلب من بغاهُ ضلالهُ ... حتى اتيح من الهدى غلابُه

ملقى بوحش الأصرمين تزيلت ... آراؤه وتزايلت آلابُه

دون الأرنطِ سخت به نجداته ... ونجاده وقرابه وقرابُه

واتته تحلبُ جوسلين جنائبٌ ... هبتْ فقلّ إلى القتالِ هبابُه

أسرته لا منعتْ سراه وغرّه ... بالقاع إن رام الورودَ سرابُه

لا تلُ باشرِه ولا كيسونه ... سدت منيٌ عنه ولا عنتابُه

ضمنتْ شقاوته سعادةَ صافحٍ ... غطى على إعناته إعتابُه

ما زال بغدرُ ثم يغدرُ قادراً ... حتى أتاه بجامح أصحابُه (١)

تحدث الشاعر عن قتل الإبرنس صاحب انطاكية سنة ٥٤٤ هـ ، وعن دون الأرنط (آرنولد) ،ثم وقف عند جوسلين صاحب تل باشر ، فذكر غدره وشقاوته ووقوعه أخيرا في الاسر . وقد ذكر المؤرخون ان نور الدين امر أن يحمل الى حلب ، وامر بتكحيل عينيه وإهلاكه عقاباً له بسبب غدره بالمسلمين ونكثه العهود .

وصف الشعراء ايضا هزائم الفرنجة المنكرة ، وتفننوا في وصف قتلاهم الصرعى، وفتنوا بسباياهم الحسان،وأساراهم وهم يساقون فيسلاسلالذل والهوان ، وقد أشار ابن القيسراني إلى بعض هذه المعاني في القصيدة التي مدح بها تاج الملوك بوري ملك دمشق ، وقد أنشده إياها بعد كسرة الفرنج على دمشق في أواخر سنة ٥٢٣ هـ ، وجاء فيها قوله :

الحقُ مبتهجٌ ، والسيفُ مبتسمُ ... ومال أعدا مجيرِ الدين مقتسمُ

أتبعت جنّ سراياهم مضمرةً ... فيها نجومٌ ، اذا جد الوغى رجموا

وادبر الملكُ الطاغي يزعزعه ... حرُ الاسنةِ ، وهو البارد الشبمُ

وافوا دمشقَ فظنوا انها جدةٌ ... ففارقوهمْ ، وفي أيديهم العدمُ

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٨٧ ، ٨٨ .

وأيقنوا مــع ضيــاء الصبــح أنهــمُ ... إن لم يزولوا سراعــاً زالتِ الخيــمُ
فغــادروا أكثر الفربــانِ وانجفلوا ... وخلّفــوا أكبــرَ الصلبانِ وانهزموا
مستسلمين لأيــدي المسلمين وقــد ... أغرى القنــا بتمادي خطفِهِمْ نهــمُ
وحاولوا المسجدَ الأدنى فما عبرتْ ... عن مسجدِ القدمِ الأقصى لهم قدمٌ(١)

صورة دقيقة عن تطويق الفرنجة مدينة دمشق وقد وصفهم الساعر حين ولوا الأدبار ، وخلفوا وراءهم صلبيهم الاكبر لا يلوون على شيء . مثل هذه الصورة كثيره في أدب هذا العصر ، ولعل أجملها هذه الاوصاف التي طالعننا في قصيدة ابن رواحة الحموى التى مدح بها صلاح الدين بعد وصول أساطيل ثغري دمياط والإسكندرية تحمل سبى الفرنجة سنة ٥٧٢ هـ في عيد النحر ، وقد اربت على الالف عدة من وصل في قيد الإسار ، وعرض فيهـا بما حباه الملك الناصر من العبيد والاماء ، وجاء فيها قوله :

لقد خبرَ التجــاربَ منــه حــزمٌ ... وقلــب دهــره ظهــراً لبطــنِ
فكفَّ الكفــرَ أن يطغــى بمكــرٍ ... يحــيّر كــل ذي فكــرٍ وذهــنِ
فساقَ إلى الفرنــجِ الخيــلَ بــراً ... وادركهــمْ علــى بحــرٍ بسفــنِ
لقــد جلــبَ الجواريَ بالجــواري ... يمدّنَ بكل قـــدٍّ مرجحــنٍّ (٢)
زهــت إسكندريــّة يــومَ سيقــوا ... ودميــاطُ إلــى المينــا بغبــنِ
يرونَ خيالـــه كالطيف يسـري ... فلــو هجعــوا أتاهــمْ بعــد وهــنِ
أبادهـــمْ تخوفــــهُ فأمســـى ... منــاهمْ لــو تبيّتَهــمْ بأمــنِ
تملّــك حولهــم شرقــاً وغربــاً ... فصاروا لاقتنــاص تحــت رهـــنِ
أقــامَ بــآلِ أيــوبٍ رباطـــاً ... رأت منــه الفرنجُ مضيقَ سجن(٣)

لم يقتصر الشعر علــى ذكر خداع الفرنجة ، ووصف هزائمهــم المنكرة وسباياهم المشتتة وأساراهم الذين يرسفون في أغلال العبودية ، وانما تجاوز

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٥٤ ، ٥٥ .
(٢) مرجحن : مشتقة من أرجحنّ أى مال واهتز .
(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٠ والعماد الكاتب : الخريدة ج١ ص٤٩١-٤٩٦ .

ذلك الى وصف كثير من عاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم ، وقد أشار ابن رواحة في القصيدة التى اتينا على ذكرها آنفا الى طائفة من الفرنجة ، هي الدواية(١) ، وكان اتباعها من عتاة الصليبيين المحاربين الذين زهدوا في الحياة الدنيا ، وترهبوا في معابدهم ، وأعرضوا عن مقاربة النساء ، وقصروا حياتهم على العبادة والحرب ، ولذلك كانوا يدعون فرسان المعبد ، اما هذه الاشارة في شعر ابن رواحة اليهم فجاءت في قوله :

أرى دوايّـةَ الكفـار خافـت	بـه داءً يضعِفُ كـلَّ متـنِ
ابوا نسـلاً مخافـةَ نسـلِ بنـتِ	تفـارقُ دينهـم او قتلـة ابـنِ
فقد عقمـوا بـه مِـن غيـر عقـمٍ	كما جُبنـوا بـه مـن غيـر جُبـنِ
ومَـنْ أفناهـمُ عدمـاً حقيـقٌ	بحمـد مثلمـا وجـدوا ويفنـي(٢)

وورد ذكرهم أيضا في شعر ابي الفضل الجلياني خلال إحدى قدسياته :

ووقعة يوم التـلِّ إذا قبضتْ بـه	جبابرةُ الإفرنـجِ حـيرى وشـرّدا
ترى المنسر الديويَّ يلقـى سلاحـه	وينسـاقُ ما بـينَ السبايا ملهّدا(٣)

ثمة طائفة ثانية هي الاستبارية(٤) وقد ورد ذكرها في شعر هذا العصر أيضا ، فمن ذلك قول العماد الكاتب :

فسر وافتـح القدسَ واسفكْ بـه	دمـاءً ، متـى تجـرها ينظـفِ
واهـد الـى الإستبـارِ البتـارَ	وهـدَّ السقـوفَ علـى الاسقفِ
وخلّصْ مِـن الكفـرِ تلـك البلادَ	يخلصْـكَ ربّـك في المـوقفِ (٥)

---

(١) الدواية : طائفة من الفرنجة ، يدعى أباعها بفرسان المعبد (Templars)

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٤٩٥ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ١١٧ ، ١١٨ . ملهّد : ذليل مستضعف .

(٤) الاسبتارية : طائفة ثانية من الفرنجة المحاربين اسمها مشتق من اللفظة الفرنسية (Hospitaliers) ، وهي في اللغة الانكليزية (Hospitalors)

(٥) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٦٩ .

رأى صلاح الدين أن المصلحة تقتضى تطهير البلاد من هاتين الطائفتين المتعصبتين اللتين غدرتا بالمسلمين ، فامر بعد تحرير بيت المقدس باحضار كل داويّ وإستباري يعثر عليه ليمضي فيه حكم السيف ، وجعل لكل من يأتيه بأسير خمسين ديناراً . وما ضرب عنق احدهم حتى عرض عليه الإسلام فامتنعوا الا بعض الافراد الذين اسلموا وحسن إسلامهم (١) .

أشار الحكيم أبو الفضل الجلياني إلى هاتين الطائفتين معا في المدحة الفتحية الناصرية بقوله :

مالي أرى ملكَ الإفرنجِ في قفصٍ	اين القواضبُ والعسالة السُمُرُ ؟
والإستبارُ إلى الدوايّة التأموا	كأنهم سدُّ يأجوجٍ إذا اشتجروا
والنفسُ مولعةٌ عجباً بسيرتها	وفي المقادير ما تسلي به السير(٢)

تحدث الشعراء عن عقائد الفرنجة ، وقد اشرنا من خلال ذكر الكفاح الديني الى بعض هذه العقائد ، وقارنوها بالعقائد الاسلامية ، فتحدثوا عن الايمان والشرك ، وعن التوحيد والتثليث . جاء في المدحة التقوية قول العماد الكاتب :

رَدَدْتَ كراديسَ الفرنجِ وكلُّهم	لدى الأسر في غلّ الصفار مكردسُ
وبيّضتَ وجهَ الدينِ يومَ لقيتهمْ	وأبيضكم مِنَ أسودِ القصرِ أشوسُ
افاد دم الأنجاس طهر سيوفكم	وما يستفادُ الطهرُ لولا التنجسُ
شموسُ ظُبا تغدو لها الهامُ سجداً	فللهِ نصرانيةٌ تتمجّسُ
ولا يفتح البيتَ المقدسَ غيرُكمْ	وبيتكمُ مِن كل عابٍ مقدسُ
لهمْ كلُّ يومٍ في جهادِ مثلّثٍ	إذا نصروا التوحيدَ فيءٌ مخمّسُ

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١٩٦ – ١٩٧ .
(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ١١٥ .

إذا ما تقي الدين صالَ تساقطتْ لأقدامِه من عصبةِ الشركِ أرؤس(١)

وجاء في القصدة النى مدح بها فنيان الشاغوري صلاح الدين قوله :

لما ملكت حصون انطاكيةٍ بئسَ الصليبُ وحزبه من مظهرِ
أرديتَ كلَّ مثلّثٍ متكبّرٍ بموحّدٍ متواضعٍ ومكبّرِ(٢)

وجاء ايضا في القصيدة التي مدح بها ابن منير الطرابلسي نور الدين قوله :

غضبانُ أقسمَ لا يشيمُ حسامه والأرضُ تحملُ في الكفورِ كفورا
غسلَ العواصمَ امسِ من ادرانهمْ واليومَ ردّ به السواحل نُورا
أخلى ديارَ الشركِ من أوثانها حتى غدا تالونهنّ نكيرا(٣)

عرض الشعراء ايضا بعض العقائد النصرانية من خلال وصف الاحداث الكبرى ، ففى القصيدة التي مدح بها ابو الفضل الجلياني صلاح الدين قوله :

يا منقذَ القدسِ من ايدي جبابرة قد أقسموا بذراع الربِّ ندخلُه
فأكذبوا كذبهمْ في وصفِ ربهمُ وصدّقَ الوعدَ مأموناً محوّلُه
هاج الفرنجُ ، وقد خاروا لفتكته فاستنفروا كلَّ مرهوبٍ تغلغلُه
لما سبى القدسَ قالوا : كيف تتركها والرب في حفرةٍ منها تمثلُه
فكم مليكٍ لهمْ شقَّ البحار سرى لينصرَ القبرَ ، والأقدارُ تخذلُه (٤)

يقابل ذكر هذه القصائد وصف الأديره والصلبان والأناجيل والبيع وغيرها من الصور التي اتينا على ذكرها مفصلة في بحث الكفاح الديني .

* * *

لم يكتف الشعراء بما اتينا على ذكره ، وانما كانوا من خلال وصف الفرنجة يحاولون أن يصفوا لنا الثغور الاسلامية ، وهي تنفض عنها آثار الاحتلال . فيشخصون المدن المحتلة الأخرى ، وهى نتململ كأنها تنتظر يومها الموعود الذي نعود فيه الى المسلمين .

---

(١) المصدر السابق ، ح ٢ ص ٧٢ .
(٢) المصدر السابق ، ح ٢ ص ١٣٢ ، والديوان ص ١٤٧ ، ١٤٨ .
(٣) المصدر السابق ، ح ١ ص ٨٦ ، ٨٧ .
(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٥١ .

مدح ابن منير الطرابلسي نور الدين بعد استيلائه على حصن أفامية؛ وهو على بعد مائة مرحلة من حماة ، وجاء في مدحنه قوله :

في كلّ يوم من فنوحك سورة ... للدين يحمل سفره أسفارها
أدركت ثأرك في البغاة وكنت يا ... مختار أمة أحمد مختارها
حتى إذا اشتملتك اشرق سورها ... عزا ، وحلاّها سناك سوارها
خرّ الصليب ، وقد علت نغماتها ... واستوبلت صلواته تكرارها
لما وعاها سمع انطاكية ... سرت الوقار ، وكتّفت اسارها
فاليوم أضحت تستذم مجيرها ... من جوره ، وعدت تذم جوارها
علمت بأن ستذوق جرعة أختها ... إن زرّ اطواق العباء وزارها
ماض إذا قرع الركاب لبلدة ... القت له قبل القراع إزارها (١)

تلك هى صور عابرة اقتطعناها من الأحداث الكبرى عن الفرنجة في هذا العصر نؤرخه ، وقد استطعنا من خلالها أن نصف أحوالهم ، ونعرض غدرهم وخداعهم وهزائمهم وأساراهم وسباياهم ، كما وضحنا بعض تقاليدهم وعاداتهم ... وختمنا حديثنا بالإشاره إلى وصف سقوط المدن المحتلة بيد المسلمين .

ننتهي من ذلك كله لنؤكد من جديد أن الشعر في هذا العصر خرج عن نطاقه التقليدي ، وادى واجبه كاملا في حومة الصراع المرير ، وكان ذا أثر كبير في تهبئة النفوس ، وتحريضها على الجهاد ، واستنارتها لتحرير بيت المقدس .

ولا يغربن عن أذهاننا أن الأبطال المسلمين كانوا يتأثرون بما يقوله الشعراء على ألسنة الناس ، وكانوا يتسابقون لإحراز مكرمة فتح بيت المقدس ، إذ إنه سيكون صفحة خالدة لهم في سجل التاريخ ، وستصبح مأثرة تخلدهم عبر السنين .

* * *

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٦٢ ، ٦٣ .

يبقى علينا أن ننوه أخيراً بأناشيد الجهاد التي ظهرت في هـذا العصر ، وهذه ظاهرة جديدة في الشعر العربي ، تجدر بنا الوقوف عندها ، فقـد ذكر العماد الكاتب أن نور الدين سألـه أن يعمل له دوبيتات (رباعيـات) في معنى الجهـاد ، وطلب منه أن ينظمهـا على لسانه ، وهذا أمر له أهميته في نظرنا ، إذ إننا نعتقد أنه كان يهدف من ذلك إلى اثارة الناس واستنفارهم ليجاهدوا في سبيل الله ، فاذا ما كان نشيد الجهاد على لسان البطل نفسه ، فانه سيكون حتما أوقع في النفس وأقرب إلى القلب أمام الناس وعلى مسمع من الجنود المحاربين . وسوف ندرس اناشيد الجهاد الرباعية في معرض حديثنا عن الفنون الشعرية المستحدثة في فصل مقبل .

* * *

ملاحم سلاطين المماليك

نتجاوز ملوك الزنكيين والأيوبيين لنسجل لسلاطين المماليك تطهير ما نبقى من الثغور الساحلية تحت حكم الفرنجة ، فقد صور شعراؤهم أيضاً هـذا الصراع الديني المرير : وسجلوا لهم الفضل في تطهير الساحل وثغوره نهائياً من بقاياهم .

الشعر والحروب الصليبية

مدح الشهاب محمود المنصور قلاوون حين خرج من مصر ، وافتتح طرابلس الشام ، وأمر بتخريب حصنها . ومما قاله :

علينا لِمَنْ أولاكَ نعمتَه الشكرُ ... لأنك للاسلامِ ـ ياسيفه ـ ذخرُ

ومنا لكَ الإخلاصُ في صالح الدّعا ... إلى مَنْ له في أمر نصرتكَ الأمرُ

ولله في إعلاءِ ملككَ في الورى ... مرادٌ وفي التأييد يوم الوغى سرُ

الا هكـذا ياوارث الملكِ فليكنْ ... جهادُ العلا ما توالى به الدهرُ

نهضتَ إلى عليا طرابلُس التي ... اقلُ عناهـا أنَّ خندقها البحرُ (١)

ذكر ابن تغري بردي أن القصيدة طويلة كلها على هذا المنوال ، وأشار إلى أن الشعراء عملوا في الفتح عدة قصائد ، إذ إن أخباره كتبت فبهاالبشائر والتهاني ، وزينت المدن وعملت القلاع في الشوارع (٢) .

افتتح السلطان قلاوون قلعة المرقب الحصينة في العام نفسه ، وعملت الشعراء في ذلك ايضا عدة قصائد ، نخص بالذكر منها قصيدة الشهاب محمود ، اشار إليها ابن تغري بردي ، وأثنى عليها ، وجاء فيها قوله :

اللهُ اكبر ، هذا النصرُ والظفرُ ... هـذا هو الفتحُ لا ما تزعم السيرُ

هذا الذي كانت الآمالُ إن طمَحَتْ ... إلى الكواكبِ ترجـوه وتنتظرُ

فانهضْ ،وسر ، واملك الدنيافقدنحلت ... شوقاً منابرُهـا وارتاحتِ السُورُ

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٧ ص ٣٢٢ .

وكيفَ تمنحُـه الأيـامُ مملكـةً   كانتْ لدولتِـكَ الغـراءِ تُـدَّخرُ

وكيف يسمو إليهـا منْ تأخرَ عـن   إسعاده منجـداكَ القدر والقَدَرُ

غرٌّ العـدا منكَ حلمٌ تحتَـه هِممٌ   لأشقرِ البرقِ منْ تحجيلِهـا غُرَرُ

لها، وإنْ أشبهتْ لطفَ النسيم سُرىً   معنى العواصف لا تبقي ولا تـذرُ

أوردتها المرقبَ العالي(١) وليس سوى   ماءِ المجرّةِ في أرجائهـا نَهَـرُ

كانتـه ، وكأنَّ الجـوَّ بكنفـه   وهـمٌ تمثّلـه في طبّهـا الفكـرُ

يختالُ كالغادةِ العـذراءِ قد نظمت   منه مكان اللآلي الأنجـم الـزُهـرُ

لها الهلالُ سـوارٌ والسُّها شَنَفٌ   والقلبُ قلبٌ ومسودُ الدُجا طُررُ

تعلو الرياحُ إليـه كي تحيطَ بـه   خُبْراً ، وتدنو وما في ضمنِها خَبَرُ

وبومضُ البرقُ يهفو نحـوه ليرى   أدنى ربـاه ويأتي وهـو معتـذرُ

وليس يروى بماءِ السحب مصعدةً   إليـه من فيـه إلا وهـو منحـدرُ

وأضرمتْ حـوله نارٌ لهـا لهبٌ   من السيوفِ ومن نبل الوغى شررُ

كأنّهـا ، مجانيقُ الفرنجِ لهـا   فرائسُ الأسـدِ في أظفارها الظفرُ

وكم شكا الحصنُ مابلقى فمااكترثتْ   يا قلبهـا أحديدٌ أنتَ أم حجـرُ

وللنقـوبِ دبيبٌ في مفـاصلـهِ   تشيرُ سقماً ولا يبـدو لـه أثـرُ

أضحى بـه مثل صبٍّ لا تبينُ به   نارُ الهوى ، وهي في الأحشاء تستعرُ

ركبتَ في جندكَ الأولى إليها ضُحاً   والنصر يتلوك منـه جندكَ الأخرُ

قد زال ، تُجلى قواه عن قواعدهِ   وخرَّ أعـلاه نحو الأرضِ ببتـدرُ

وسـاخَ وانكشفتْ أقبـاؤه وبـدا   لديكَ من مضمرات النصر ما ستروا

فمال يهوي إليهمْ كلٌّ ليثِ وغـى   له من البيضِ نابٌ والقنـا ظُفُرُ

إن لم يُوفِّ الورى بالشكر ما فتحتْ   يداكَ فاللهُ والأملاكُ قد شكروا (٢)

---

(١) المرقب : في معجم البلدان أنها « بلد وقلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام وعلى مدينة (بلنياس) » ج ٥ ص ١٠٨ .

(٢) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٢ ، ص ٧٦ ، ٧٧ ، والنجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣١٧ ، ٣١٨ .

نلاحظ في هذه الملحمة الجديدة أن الشاعر يصف لنا بدقة متناهية قوة هذا المعقل ومناعته ، ثم يتحدث عن شجاعة المنصور قلاوون وضراوة المعركة التي خاضها حتى كتب الله فيها النصر للمسلمين .

شهد الشاعر نفسه آخر بقايا الفرنجة في بلاد الشام تولي أدبارها في البحر شديدة طربده بعد أن افتتح الملك الأشرف صلاح الدين خليل عكا ، واختتم الملحمة الخالدة بين المسلمين والصليبيين بعد أن مضى على بدئها قرنان من الزمن تقريباً .

ألف أحمد بن علي الحريري كتاباً عن هذا الموضوع باسم (الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين) وقد اختتم الكتاب بذكر هذه الملحمة التي طرد فيها الفرنجة ، وأورد بعد ذلك وصف قدوم الاشرف الى دمشق، « وفي سنة تسعين وستمائة تجهز الملك الاسرف خليل لغزو عكا ، ونازلها في شهر ربيع الاول ، وتنظف الشام من الفرنج في تلك السنة . ولله تعالى الحمد . ثم قدم السلطان الى دمشق مؤيدا منصوراً ، وزينت دمشق ، وكان يوماً مشهوداً ، وقال المولى الرئيس الفاضل شهاب الدين محمود بن سليمان الموقع قصيدة ، وأنشدها للملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون يوم فتح عكا . وهي في روى قصيدة أبي تمام في المعتصم لما فتح عمورية » (١) .

فمن حق دمشق الفيحاء التي استقبلت القائد المنتصر ، ومن حق القومية العربية التي انتصرت وارتفعت بها راية الاسلام على يد سلاطين المماليك ، أن نقف عند هذه القصيدة التي عارض فيها هذا الشاعر ملحمة عمورّية أبي تمام ، وكأن التاريخ يعيد نفسه حين يقول :

الله أكبر ذَلّتْ دولةُ الصلُبِ ... وعزّ بالترْكِ دينُ المصطفى العربي

ما بعدَ عكا وقد هُدّتْ قواعدُها ... في البحرِ للشركِ عند البر مِنْ أرب

---

(١) الحريري : الاعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين (مخطوط) ق ١٤٥ .

عقيلةٌ ذَهَبَتْ أيدي الدُّهورِ بها ... دهراً وَشدَّتْ عليها كفَّ مُغْتَصِبِ

لم يبقَ مِنْ بعدهاللكفرِ مذ خَرِبتْ ... في البر والبحر ما ينجي سوى الهربِ

أمُّ الحروبِ فكم قد أنتشِئَتْ فِتَنٌ ... شابَ الوليدُ لها هَوْلاً ولم تَشِبِ

سُورانِ : برٌّ وبحرٌ حولَ ساحتِها ... دارا فأدْناهما أدْنى إلى العَطَبِ

مصفحٌ بصفاحٍ حولها شُرَفٌ ... مِن الرماحِ وأبراجٌ من اليَلَبِ (١)

مِثْل الغمائم تهوي من صواعقِها ... بالنبل أضعافَ ماتهوي منالسُّحُبِ

يا يومَ عكا لقد أنسيت ما سبَقَتْ ... به الفتوحُ وما قد خُطَّ في الكُتُبِ

أغضبت عبّادَ عيسى إذ أبَدْتَهمُ ... للهِ أيُّ رضاً في ذلك الغَضَبِ

وخاضتِ البيضُ في بحر الدِّماء كما ... ابْدَتْ من البيضِإلاساق مُخْتَضَبَ

أجرَتْ إلى البحرِ بحراً من دمائهمُ ... فراحَ كالراحِ إذْ عرفاهُ كالحبَبِ

بُشراكَ يامالك الدنيا لقد شَرُفتْ ... بكَ الممالكُ واستعلتْ على الرتبِ

ما بعدَ عكا وإن لانتْ عريكتُها ... لديكَ شيءٌ تلاقيه على تعبِ

أنيتها يا صلاحَ الدبن معتقداً ... بأنَّ ظَنَّ صلاح الدين لم يَخِبِ

أدركتُ ثأر صلاح الدين إذ غضِبتْ ... منه لِسرٍّ طواه الله في اللقب

كأنما كلُّ بُرْجٍ حولهُ فَلَكٌ ... من المجانيق ترمى الأرضَ بالشُّهب

ففاجأتها جنودُ الله يقدمُها ... غضبانُ لله لا للملك والنشَبِ

ليثٌ أبى أن يَرُدَّ الوجهَ عن فِرقٍ ... يدعونَ ربَّ الورى سبحانَهُ بأبِ

كم رامها ورماها قبلهُ ملكٌ ... جمُّ الجيوش فلم يظفرْ ولم يُصبِ

لم يلهِهِ ملكه بل في أوائلهِ ... نال الذي لم ينلْهُ الناس في الحقبِ

لم ترْضَ همتُه إلا الذي قعدتْ ... للعجز عنها ملوك العُجْم والعربِ

فأصبحتْ وهي في بحرينِ وافقة ... ما بين مُضْطَرمِ النارِ ومُلْتَهِبِ

جيشٌ من التركِ تركَ الحرب عندهمُ ... عارٌ وراحتُهمْ ضربٌ من الوَصَبِ

وجئتهمْ بجيوشٍ كالسيولِ على ... أمثالها بين آجامٍ من القصَبِ

قدمتَ فينا عزيز النصر مبتهجاً ... بكلِ فتحٍ قريبِ النجحِ مرْتَقَبِ (٢)

---

(١) اليلب : الفولاذ وخالص الحديد ، ويطلق على الدروع والترسة ، وهو اسم جنس ، والواحد من ذلك يلبة .

(٢) المصدر السابق ق ١٤٥ ، ١٤٦ ، وقد أورد ابن تغري بردي بعض هذه القصيدة في المنهل الصافي (ج ٢ ص ٧٥ — ٧٧) .

افتتح الشاعر قصيدته بما يجب أن ينتهي به ، ولكن فرحة النصر جعلته يستهل قصيدته بالبترى العظيمة حينما ذلت دولة الصلب وعز دين النبي العربى على يد المماليك . ولا شك أن في عزة الدين العربي عزة العرب والعروبة والاسلام .

وصف ثغر عكا الحصين ، وأشار الى سوريها اللذين يحمانها : سور من بر وسور بحر ، فلا غرابة ان استعصت في ماضيها على الناصر صلاح الدين يوسف ، وكأن الله أودع سراً في هذا اللقب الذي انتقل للاشرف صلاح الدين خليل ، فكان سميه في اللقب . وبذلك يتحقق ذلك السر الالهي في هذا الفتح الكبير ويفسر امتناع هذا الثغر الحصين من قبل لان الاقدار تنتظر سمي صلاح الدين لهذا اليوم الموعود والفتح الاغر .

أفلح الشاعر في وصف هذه الملحمة ، ووصف المحاربين وصفاً دقيقا ، فأشار الى كثرة عددهم ، وذكر السيوف والرماح والمجانيق والابراج والاسوار . فكان مصوراً أميناً لكل دقائق هذه الموقعة ، وقد أبرز من خلالها فعال هذا السلطان الذي جاء بجيوش كالسيول . وحقق ما عجز عنه ملوك العرب والعجم .

هكذا نشهد اندحار الفرنجة وطردهم نهائياً من بلاد الشام على يد سلاطين المماليك الذين لم يبقوا لهم شبراً من أرض كان تحت حوزتهم ، ولم يكتفوا بذلك بل التفتوا الى الروم أنفسهم وحاولوا القضاء على كل ماتبقى لديهم في بلاد الشام من أماكن خاصة بهم وذكر ابن تغري بردي أن الملك الاشرف خرج ثانية سنة ٦٩١ هـ إلى قلعة الروم (٢) ، وبها مقام بطرك الارمن

---

(٢) قلعة الروم : قلعة حصينة في غربي الفرات مقابل البيرة بينها وبين سميساط ، ذكر ياقوت أن بها مقام بطرك الارمن خليفة المسيح عليه السلام ، واسمه بالارمنية كاغيكوس ، وهذه القلعة في وسط بلاد المسلمين ، وأشار الى أن بقاءها في يد الارمن مع أخذ جميع ما حولها من البلاد لقلة جدواها ، فانه لا دخل لها ، وأخرى لاجل مقام رب الملة عندهم ، فانهم يتركونها كما تترك البيع والكنائس في بلاد الاسلام . (معجم البلدان ، ج ٤ ص ٣٩٠ ، ٣٩١) .

ومعه الملك المظفر الثالث صاحب حماة ، فحصرها وجدّ في حصارها حتى تم فتحها ، وقد خلد هذه الوقعة الهامة الشهاب محمود في القصيدة التي استهلها بقوله :

لكَ الرايةُ الصفراء يَقدمُها النصرُ ⁂ فمنْ كيقباذُ إن رآها وكيخسرو (١)

هكذا كان الشعراء يتغنون بالراية الصفراء التي انضوى تحت لوائها ملوك الدول المتتابعة : الزنكية والايوبية والمملوكية . حتى تم لهم النصر فطردوا الفرنجة الصليبيين ، وغزوا بلاد الروم واحتلوا قلعتهم المقدسة ، مقر بطركهم الاكبر خليفة المسيح عليه السلام .

ولئن كان للمماليك فضيلة طرد الصليبيين . فمما لا شك فيه أن لهم الفضل الكبير في دحر التتار القادمين من الشرق وكسر شوكتهم في الفترة التي تعنينا دراستها ويهمنا بحثها .

الشعر والحروب التترية

لقد شهد هذا العصر صراعاً آخر ضد الغزاه الجدد القادمين من مفازات آسيا ، فلم تكد تنتهي بلاد الشام من حروبها الصليبية حتى فاجأنا التتار على حين غرة ، وانتقلت المعارك الى بلاد الشام بعد أن قوضوا معالم الحضارة في الشرق الاسلامي ، بيد أن هؤلاء الغزاة الجدد لم يستطيعوا الاقامة فيها إذ انهم شهدوا هزائمهم تتوالى بعد اندحارهم في وقعة عين جالوت الخالدة .

أسهم ملوك حماة الايوبيون في دحر جيوشهم ، وكنا ذكرنا من قبل أن ملكها المنصور الثاني فر الى مصر بحريمه وأولاده ، وطلب نجدة السلطان قطز ، فخرج معه وحارب بجانبه ، وكانت له اليد الطولى في دحرهم .

تحدث الشرف الانصاري عن معركة عين جالوت عدة مرات في مدح الملك

---

(١) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٢ ص ٧٥ ، ٧٦ .

المنصور ، ونوه بها كثيراً ، فصور لنا هذه الملحمة العربية الخالدة بين المسلمين والنار في قصيدة مطلعها :

لكَ في الندى وردى ذوي الاشراك شيم" تفوق بها على الأملاكِ

وجاء فيها قوله يصف المنصور الثاني واثره في هذه الملحمة في الايام الثلاثة التي احتدمت فيها المعركة وهي يوم الاربعاء والخميس والعروبة أي الجمعة :

لما شكا دينُ الهدى :شكيهُ بشديد بأسك والسلاح الشاكي
دعت المعالي يا أباها دعوةً لزمتْ عليكَ فقلتها لبّاك
جردت يوم الأربعاء عزيمةً خفيتْ عواقبها عن الإدراكِ
واقمت في يومِ الخميس مبالغاً في الجمع بين طوائف الأتراكِ
ووففتَ في يَوم العروبة موقفاً أوسعت فيه الفتك بالفتاكِ
فيّدتَ أبطال التتار بصولةٍ تركتهم كالصيدِ في الأشراك
واطرت منهمْ هامَ كلَّ مدجج للهِ كلّ موحدٍ سفّاكَ
فالطعن والطاعون اسلمَهم إلى حربٍ كأشداق المخاضِ دراكِ
بّردتَ اكبادَ الورى بقواضبٍ قذفت عليهمْ كالضرامِ الذاكي
اضحكتَ سنَّ ثغورنا من بعد ما ظفروا بها فبكى عليها الباكي
غادرتهمْ صرعى كأنَّ كماتهمْ في المرج صرعى من سلافِ «حناكِ»(١)
ثم ارتحلتَ إلى دمشق موضحاً سبلَ الرشادِ المحض للسُلاّكِ
ورجعتَ في غرر الجيوشِ معاجلاً منّا رهانَ نفوسنا بفكاكِ
فلقد انمتَ المحصناتِ أوامناً ولقد أقمتَ شعائر النسّاكِ
سلمّت مهجةَ كلّ برٍّ مسلمٍ وهزمت كلَّ معاند أفاكِ
نوّهتَ باسمكَ في سماءِ مدائحٍ اعلنتهُ فوق مجرّةٍ وسماكِ
يسبي العقائلَ والعقولَ جميعها من صائغ لِنُضارها سبّاكِ
فلك الهناءُ بما منحت ولا يزل يَجري بسعاك دائرُ الأفلاكِ (٢)

(١) حناك : حصن كان بالمعرة ، وقد ذكر ياقوت أن « شعراء المعرة يكثرون من ذكره في غزلهم » ، ويظهر أنه كان مشهورا بالخمر . (معجم البلدان ، ج ٢ ص ٣٠٩) .

(٢) الملحق الاول من ديوان الشرف الانصاري ، ص ٥٥٦ ، ٥٥٧ .

هكذا صور لنا الشاعر هذه المعركة في أيامها الثلاثة في أواخر شهر رمضان المبارك ، ثم تحدث لنا كيف أوقع الهزيمة بالتتار فترك معظمهم صرعى ، وأخذ أبطالهم أسرى مقيدين ، ثم وصف لنا ارتحال ممدوحه الى دمشق موضحاً سبل الرشاد المحض للسلاك .

ويتحدث الشاعر في هذه القصدة عن أحوال الناس بعد هذه الهزيمة المنكرة التي حلت بالتتار فنامت النساءالمحصنات آمنات بعد الرعب والخوف، ووقى مهج المسلمين الابرار من هؤلاء الغزاة الاشرار .

لقد وفق الشاعر حقا في رسم هذه الصورة ، ولو حاول مصور أن يبرزها لنا في إطار فنى كما هي الحقيقة لم يستطع أن يزيد على الشاعر شيئاً جديداً إن لم يقصر عنه ، ولعلنا استطعنا فهم مراحل هذه الملحمة كيف بدأت يوم نودي بالنفير والجهاد، وتجمعت طوائف الكماة الذين استرخصوا الموت وكان يوم الاربعاء يوما مشهودا، يوم أعلنها صرخة مدوية وجرد عزمه، وامتدت المعارك يوم الخميس حتى آذن الله لهم بالنصر يوم العروبة ، يوم الجمعة حيث التقى الجمعان ، في الثامن والعشرين من رمضان وكان النصر المؤزر في عين جالوت على بطاح فلسطين العربية .

هذه صورة المعركة ابان دوران رحاها ، ولكن لانلبث أن تخف وتهدأ ، ويتابع الابطال المسلمون تقييد الابطال من التتار .

إن صورة القتلى من كماتهم في المرج كأنهم صرعوا بخمره (حناك) هناك وفي القسم الاخير من الابيات يعطينا الشاعر صورة الطمأنينة التي أعادت من جديد الى البلاد فنام الناس مطمئنين ، وعاد الناس الى مساجدهم يقيمون شعائر دينهم شكراً لله على ما أفاء من النصر المؤزر .

ويختتم الشاعر الابيات من وصف هذه الملحمة بذكر مدح المنصور الثاني محمد الذي كانت له اليد الطولى في القضاء على التتار بعد أن حث السلطان المملوكي قطز على الحضور معه من القاهرة لاسترجاع ما احتل من الثغور الشامية لان الخطر لن يقف هنا ، وانما قد استفحل وسوف يمتد الى مصر والمغرب كله .

كما تحدث الشاعر الانصاري عن ذلك ايضا في قصائد أخرى في مدائح المنصور التاني ونوه خلال ذلك بمعركة عين جالوت . ووصفها بدقة في بعض مدحه ، كما رأينا وقد أشار الى الامام خليفة بغداد العباسى المستعصم بالله الذي فتله التتار فبل عامين ومما فاله :

بعين جالوتَ (١) خضتَ بحر وغيً ‌‌‌ ‌‌ يُخال فلكاً بالأسد مشحونا
وكنت للجيش غرّةً شدخت ‌‌ انوفهم ، فانثنوا مهابينا
اوسعتَ فيه التتار ضربَ طُلىً ‌‌ هدّاً وطعناً يُخالُ طاعونا
اخذتَ ثأر الإمامِ إذ فتكوا ‌‌ به ، وصالوا عليه عادينا
أذكرتهم ما صنعتَ قبلهمُ ‌‌ بكَتْبُغا (٢) ، فانثنوا مُولّينا
وما نجا منهمْ سوى خبرٍ ‌‌ أسكنَ قازانَ (٣) خبرُهُ الصينا (٤)

عاد الملك المنصور الى ملكه بعد أن ولى التتار الادبار ، وهرب خشروشاه عامل هولاكو على حماة ، فاقبل عليه شاعره الشرف الأنصاري مهنئاً :

رُعتَ العدا فضمنتَ تلَّ عروشِها ‌‌ ولقيتها فأخذت فلّ جيوشها
نازلتَ أملاك التتار فأنزلتْ ‌‌ عن فحلها قسراً وعن إكديشها
فغدا لسيفك في رقاب كماتها ‌‌ حصدُ المناجلِ في يبيسِ حشيشها
روّيتَ أكباد القنا بدمائهمْ ‌‌ لما اطال سواك في تعطيشها
اقدمتَ مقتحماً على نشّابها ‌‌ تكسو الجيادُ رياشَها من ريشها
دارت رحى الحربِ الزبونِ عليهمُ ‌‌ فغدت رؤوسهمُ حطامَ جريشها
وطويتَ عن مصرٍ فسيحَ مراحلٍ ‌‌ ما بين بركتها (٥) وبين عريشها

---

(١) عين جالوت بليدة لطيفه بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين .

(٢) الأمير كَتْبُغانوين مقدم عساكر التتار ، وكان عظيماً عند التتار مقدماً عندهم يعتمدون على رأيه وشجاعته وتدبيره ، لانه كان خبيراً بالحروب وافتتاح الحصون والاستيلاء على الممالك، وهو الذي فتح معظم بلاد العجم ولا يخالفه فيما يشير اليه ، وكان مقتله في عين جالوت في المصاف يوم الجمعة الخامس عشرين من رمضان سنة ٦٥٨ هـ .

(ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ح ٧ ص ٩٠ ، ٩١) .

(٣) قازان : لعلها قاسان بالسين المهملة مدينة واقعة وراء النهر على حدود بلاد الترك . والمرجح هنا أن قازان اسم أحد قواد التتار الذين اشتركوا في معركة عين جالوت .

(٤) مصوره مخطوط ديوان الشرف الانصاري ، ل ٨٢ ، والديوان ص ٤٧٥ .

(٥) بركتها : نظن أنها بركه الجيش ، وهي أرض في وهدة من الارض واسعة طولها نحو ميل ، ومشرفة على نيل مصر خلف القرافة (معجم البلدان ، ج ١ ص ٤٠١) .

حتى حفظتَ على العبــاد بلادَهــا ... مِن رومِها الأقصى إلى أحبوشها(١)(٢)

كما أشار الشاعر المذكور الى هذه الموقعة الفاصلة في مدحة ثالثــة ، جــاء فيها قوله :

محمــد" خــبرُ ماجــدٍ يقــظٍ ... يرضى هــداهُ محمــدُ القرشي
صادمَ جيشَ التتــار مقتحمــاً ... واجشــأتْ نفســه ولــم تجشِ
لمــا طغى كبشــه (٣) تعمّــدَهُ ... فصبّرَ الراسَ منــهُ في الكرِشِ
فأسلموا الشــامَ بعــد ما طمعــوا ... في ملك أرضِ الحجــازِ والحبشِ (٤)

خلفت هذه الوقعة في نفوس التتار اثراً كبيراً ، إذ إنهــا كانت فاتحــة هزائمهم على يد المسلمين بعد ان دكوا معالم الحضاره في بغداد ، وفتكــوا بالخليفة العباسي ، ولم ينورعوا عن فنل العلماء ورجال الدين ، فلا غرابة إن رأيناهم يعيدون الكرة ليغسلوا عنهم عار الهزيمة النكراء التي لحقتهم في بلاد الشام ، بيد أن الظاهر هزمهم أيضاً على ضفاف الفرات ، وعبر النهر وراءهم ، واستأصل شأفتهم بعد ان اغرق معظمهم ، وأجهز على من بقي منهم .

نظم الشهاب محمود قصيدة يمدح بها السلطان في هــذه المناسبة ، واستهلهــا بقوله :

سرْ حيثُ شئتَ لك المهيمنُ جــارُ ... واحكمْ فطوعُ مرادِكَ الأقــدارُ
لــم يبــقَ للدينِ الذي أظهرتَــه ... يا ركنَــه عنــد الأعــاديَ ثــارُ
لمــا تراقصتِ الرؤوسُ وحــركتْ ... من مطرباتِ قِسيّــكَ الأوتــارُ
خضتَ الفرات بسابحٍ أقصى مُنىً ... هوجُ الصَّبــا من نعلِــه آثــارُ
حملتْــكَ أمواجُ الفراتِ ومن رأى ... بحراً ســواك تقلــه الأنهــارُ

---

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٤٣ ، ٤٤ ، والديوان ص ٢٧٠ ، ٢٧١
(٢) الاحبوش : جماعة الحبش والمراد هنا بلاد الحبشة .
(٣) كبشه : كبش القوم رئيسهم وسيدهم وكبش الكتيبة : قائدها .
(٤) المصدر السابق ، ل ٤٣ ، والديوان ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

وتقطعت فرقاً ولم يكُ طودَهـا — إذ ذاكَ إلاّ جيشُـك الجـرّار
رشَّتْ دماؤهم الصعيدَ فلم يطـرْ — منهم على الجيشِ السعيـدِ غبـارُ
شكرتْ مساعيَك المعاقلُ والـورى — والنـربُ والآسـادُ والأطيـارُ
هذي منعتَ ، وهـؤلاءِ حميتَهـمْ — وسقيتَ تلك وعـمّ ذا الإبسـارُ
فـلأمـلأن الدهرَ فيـكَ مدائحـاً — تبقى بقيتّ وتذهبُ الأعصـارُ (١)

نلاحظ في هذه الملحمة ضراوة المعركة التي نسبت على ضفاف الفرات مما يلي الجزيرة ، ونشهد فيها الشاعر يصف لنا بدقة هزيمة التتار ، فيتحدث عن شجاعة الظاهر بيبرس ، ويذكر خوضه الفرات خلفهم ، ويقسم انه سيملأ الدهر بمدح تبقى ما بقيت العصور .

وما أكثر الشعراء الذين تحدثوا عن هذه المعركة . ولا سيما أن الفرات اقترن بها ، إذ كان حومة الملحمة ، فأخذوا يتفننون بوصفها ، نذكر منهم الشيخ ناصر الدين حسن بن النقيب الكناني (المتوفى سنة ٦٨٧ هـ) ، وكان حاضراً هذه الوقعة ، ومما قاله :

ولمّـا ترامينـا الفـراتَ بخيلِنـا — سكرنـاهُ منـا بالقـوى والقوائـمِ
فأوقفتِ التيـارَ عن جـريـانـهِ — إلى حيث عُدْنا بالغنى والغنائمِ (٢)

وتحدث شعراء آخرون أيضا عن بطولة الظاهر بيبرس في حربه مع التتار ، نذكر منهم الموفق عبد الله بن عمر الانصاري (٣) ، ومما قاله في ذكر المغول :

المـلكُ الظـاهرُ سلطـانُنـا — نفـديـهِ بالأمـوالِ والأهـلِ
اقتحـمَ المـاءَ ليطفي بـه — حرارةَ القـلبَ من المُغـلِ (٤)

---

(١) ابن تغرى بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٥٩ ، ١٦٠ والمنهل الصافي (مخطوط) ج ١ ص ٣٦٥ .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٥٩ ، ١٦٠ ، والمنهل الصافي (مخطوط) ، ج ١ و ٣٦٥ .

(٣) موفق الدين أبو محمد عبد الله بن عمر بن نصر الله الانصاري ، كان أديباً فاضلا له مشاركة في علوم كثيرة ، وقد عرف أنه كان حسن المحاضرة حلو النادرة . توفي سنة ٦٧٧ هـ (ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٨٢ و ١٦٠) .

(٤) المصدران السابقان .

تلك هي المرحلة الأولى من حروب المسلمين والتتار ، انتصارات متواليات غرّ أفاءها الله على المسلمين ، وهزائم منكرة على اعدائهم التتار ، إذ كانوا يتلقون الضربات القاصمة على يد الظاهر .

اجمعوا امرهم من جديد سنة ٦٧٥ هـ ، واجتمع عسكر الروم والتتار مع البراوناه على نهر جيحان ، فوردت الاخبار على الملك الظاهر باجتماعهم ، فنهد إلى اقجادربند ، وقطع الطريق في نصف نهار ، فلما تكاملت عساكره ، حملوا عليهم حملة رجل واحد ، وانتصر المسلمون انتصاراً عظيماً ، واحاطوا بهم من كل جانب ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، ووقع بيدهم عدد كبير من الاسرى ، وقد عثر بينهم على جماعة من أعيان الروم والتتار .

خلد الشعراء هذه الملحمة الجديدة ، وعملوا فيها مدائح كثيرة ، لعل ابرزها الملحمة التي نظمها الشهاب محمود ، وجاء فيها قوله :

كذا فلتكنْ في اللهِ تمضي العزائمُ ... وإلا فلا تجفو الجفونَ الصوارمُ
عزائم حاذتها الرياحُ فأصبحتْ ... محلفةً تبكي عليها الغمائمُ
سرتْ من حمى مصرٍ إلى الرومِ فاحتوت ... عليهِ وسوراه الظُبا واللهاذمُ
بجيشٍ تظلُّ الأرضُ منه كأنها ... على سعةِ الآرجاءِ في الضيقِ خاتمُ
كتائبُ كالبحرِ الخضمِّ جيادُها ... إذا ما تهادتْ موجُه المتلاطمُ
تحيطُ بمنصورِ اللواءِ مظفرٍ ... له النصرُ والتأييدُ عبدٌ وخادمُ
مليكٌ يلوذُ الدينُ عن عزماتِه ... بركنٍ له الفتحُ المبينُ دعائمُ
مليكٌ لأبكارِ الأقاليمِ نحوه ... حنينٌ كذا تهوى الكرامَ الكرائمُ
فكم وطئتْ طوعاً وكرهاً جيادُهُ ... معاقلَ قرطاها السُّها والنعائمُ
مليكٌ له للدين في كلِّ ساعةٍ ... بشائرُ للكفّارِ منها مآتمُ
جلا حين أقذى ناظرُ الكفر للهدى ... ثغوراً بكى الشيطانُ وهي بواسمُ
إذا رام شيئاً لم يعقْه لبعدِها ... وشقتها عنه الإكامُ الطواسمُ
فلو نازعَ النّسرينِ أمراً لنالَه ... وذا واقع عجزاً ، وذا بعدَ حائمُ (١)

(١) النسران : كوكبان يقال لأحدهما : النسر الواقع وللاخر النسر الطائر .

ولمّا رمى الرومَ المنيعُ بخيلِه ... ومن دونه سدٌّ من الصخرِ عاصمُ
يرومُ عقابُ الجوِ قطعَ عِقابِه ... إليه فلا تقوى عليهِ القَوادمُ
وسالتْ عليهم أرضُهم بمواكبٍ ... لها النصرُ طوعاً والزمانُ مسالمُ
ادارتْ بهم سوراً منيعاً مشرّفاً ... بسمرِ العوالي ماله الدهرَ هادمُ
مِن الترك امّا في المغاني فانهم ... شموسٌ وامّا في الوغى فضراغمُ
غدا ظاهراً بالظاهرِ النصرُ فيهمُ ... نبيدُ الليالي والعدا وهو دائمُ
فأهووا إلى لثمِ الأسنةِ في الوغى ... كأنهمُ العشاقُ وهي المباسمُ
وصافحتِ البيضَ الصفاحَ رقابُهم ... وعانقت السمرَ القدودُ النواعمُ
فكم حاكمٍ منهمْ على ألفِ دارعٍ ... غدا حاسراً والرمحُ في فيه حاكمُ
وكم ملِكٍ منهم رأى وهو موثقٌ ... خزائنَ ما يحويهِ وهي غنائمُ
فلا زلتَ منصورَ اللواءِ مؤبداً ... على الكفرِ ماناحتْ وأبكتْ حمائم(١)

هذه ملامح عامة عن الملاحم الاسلامية ضد التتار في المرحلة الاولى ، بيد ان الآية انقلبت في المرحلة التانية، وذلك حينما جاء غازان واحتل بلاد الشام، ودخل دمشق ، وخطب له على المنابر . وخرج منها بعد هدم مغانيها، ونهب اموالها . وقد وصف علاء الدين الاوتاري ماحل بها في قصيدة جاء فيها قوله:

طرقتهمْ حوادثُ الدهرِ بالقتـ ... ـلِ ونهبِ الأموالِ والأولادِ
وبناتٍ محجباتٍ تقضّتْ ... في ذراها الأيامُ كالأعيادِ
حرّقوها وخرّبوها وبادتْ ... لقضاءِ الإلهِ ربِ العبادِ (٢)

هكذا خلد شعراء عصور الدول المتتابعة هذه الاحداث الكبرى التي ظلت مستمرة ، فلقد هزتهم الانتصارات المظفرة . بيد أن الآية تغيرت كما رأينا في أواخر هذا العصر الذي نؤرخه . ولا يعني قولي هذا أنهم فعلوا ذلك كله رغبة في العطاء فحسب ، ولكنهم إنما أدوا واجبهم القومي بكل حماس

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ والمنهل الصافي (مخطوط) ، ج ١ ص ٣٦٦ .
(٢) كرد علي : خطط الشام ، ج ٦ ص ٣٧٦ .

واندفاع ، يحدوهم إلى ذلك دافع ديني قوي لاداء مهمة الجهاد المقدس ، ويدفعهم إلى ذلك ايضاً شعورهم بالمسؤولية العظمى الملقاة على عواتقهم ، إذ إنهم كانوا صوت الحق ولسان الخلق ، وقد استطاعوا ان يصوّروا بمهارة وأمانة هذه الاحداث الكبرى . سواء أكانت ضد الصليبيين أم ضد التتار ، وأعربوا فيها عن عواطفهم الصادقة ، وعبروا عن مشاعرهم وصداها في نفوسهم ، فكانت ملامحهم ومدحهم صورة رائعة عن شعر هذا العصر ، إذ خرجت عن نطاقها التقليدي . كان معظم الشعراء الذين طرقوا هذه المعاني يشهدون بأم اعينهم هول هذه الاحداث ، واشترك بعضهم فعلا في الجهاد المقدس ، فكانوا يسيرون جنبا إلى جنب مع الابطال الفاتحين .

لقد احسسنا ونحن نطالع ملامحهم بصدق اللهفة وحرارة العاطفة ، يحدوهم الى ذلك شعور ديني عارم وحب عميق لارضهم السليبة ونغورهم المحتلة ، واستطاعوا بقصائدهم أن يستثيروا الناس على الجهاد والنفير ، ويحضوهم على الذود عن حياض الوطن ، ويحثوهم على استرداد بيت‌القدس وغيره ، وطرد العدو القادم من الشرق والغرب .

وهكذا نستطيع أن نسجل للشعر فضله ، فقد كان حقاً صورة صادقة عن الملاحم الاسلامية والاحداث الكبرى ضد الفرنجة والتتار ، إذ انه أدّى واجبه كاملا سواء أكان ذلك في الاستثارة والتحريض ام في وصف‌الانتصارات والفتوح الكبرى أم في تزجية البشائر والتهاني ، وهو بعد هذا كله صفحة مشرقة للقومية العربية .

(٣)

النّسيب والغزل

اخذ الشاعر في هذا العصر نصيبه من المدح ليكسب رزقه ، واخذ منه شعره نصيبه من النسب والغزل ، لا ليعبر عن شعوره فحسب. وانما ليقلد حيناً ويجدد حيناً آخر . فكان يأتي بصورة معروفة ومعان متداولة يزيدها أو يغير فيها أو ينقلب عليها . مهما يكن من امر فان الشاعر اتخذ النسيب تكأة له يخلص منه إلى ممدوحه ، ولكنه صرف قسما من شعره فقصره على الغزل وحده ، وحاول أن يجدد في المعانى التي استحدثها . وسنرى مدى نجاحه في هذا المضمار بعد أن نبسط بوضوح كل ذلك .

تطرق الشاعر في هذا العصر ــ بالاضافة الى النسيب والغزل ــ إلى نعت الخمر ، وذلك جرباً على سنة الشعراء المبرزين في هذا المضمار وقد جرت على السنة الشعراء ، سواء عندهم أشربوها أم لم يشربوها ، إذ غدت تشكل معنى واحداً تمم معانى النسيب والغزل، ويندر أن نجد شعراً مجرداً منها ، فنعت الخمر يستدعى ذكر الساقي والساقية ، ومن وصفهما يلج الشاعر في باب النسيب والغزل ، ويأخذ منهما نصيبه . وسوف نقتصر في بحثنا توضيحا لما قدمنا على التحدث عن تطور النسيب التقليدي والتجديد في معاني الغزل والابداع في نعت الخمر .

التطور في معاني النسيب

لاحظنا أن معظم الشعراء حاولوا في مطالع النسيب أن يخرجوا على المعانى التقليدية المعروفة ؛ فأعرضوا عن ذكر الدمن والاطلال والرسوم في معظم الاحيان اقتداء بأبي نواس الذي كان يسخر ممن يقف على ديار الاحبة قائلا :

عـاج الشقيُّ على دارٍ يسائلهـا وعُجتُ أسأَلُ عن خمارةِ البلد(١)

وشعراء هذا العصر سخروا بدورهم أيضا من الشعراء الاقدمين الذين كانوا ينفنون بذكر اطلال الاحبة الدارة في ملاعب عالج ، ورمال كاظمة ، وأكناف زرود ، ووادي القرى ، ومرابع رضوى والعقبق ، وكرهوا ذكر زينب والرباب وهند والعربب ...

استعاضوا عن ذلك كله بوصف ما حولهم من بقاع جميلة وطبيعة خلابة ، ورياض غناء ، وبساتين وارفة ، امتازت بها بلاد الشام وغيرها ، وقد رأينا كثيراً من هذه الاوصاف لدى دراسة أعلام الشعراء .

هذا عرفلة يتحدث عن الحلة ما بين بصرى وصرخد ، ويطلب من صديقه الوقوف بباب البريد وباب جيرون :

قفْ بجيرونَ أو ببابِ البريـدِ وتأملْ أعطافَ بانِ القدودِ (٢)

ويخاطب نديميه بعد ذلك :

يا نديميَّ غنّياني بشعري واسقياني بُنَيّةَ العنقودِ

عرّجا ما بينَ سطرى ومقرى لا بأكنافِ عالجٍ وزرودِ (٣)

وهذا ابن عنين يرتحل بعد نفيه ، ويمر في بعض هذه الامكنة التي اخذت بألباب الشعراء الاقدمين ، لكنه لم يعجب بها ، إذ لم تستثر شاعريته، فأعرض عنها ، ولما عاد إلى دمشق تحدث عن هذا المعنى فقال :

تلكَ المنازلُ ، لا أعقّةُ عالجٍ ورمالُ كاظمةٍ ولا وادي القُرى(٤)(٥)

---

(١) ديوان أبي نواس ، ص ٤٦ .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٢٠٠ ، والديوان ص ٣٢ .

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٢٠٠ ، والديوان ص ٣٢ .

(٤) أعقة : جمع عقيق ، وهو اسم واد ، وعالج رمال بين فيد والقريات على طريق مكة، وكاظمة على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة ، ووادى القرى بين الشام والمدينة من أعمال المدينة .

(٥) ديوان ابن عنين : ص ٤٠ .

وهذا فتيان الشاغوري بغرق في وصف دمشق ، ويذكر منتزهاتها ، وينتهي من وصفها قائلا :

تلك المرابعُ ، لا رَضْوَى وكاظمةٌ ولا العقيقُ تواريه بواديهِ (١)

كما يدعو الشاعر نفسه في قصيدة أخرى إلى الإعراض عن ذكر العريب والنقا وزينب ، ويسخر منها . ويتركها تجذب للبين برى نياقها :

دعِ العُريبَ والنقا وزينبا تجذبُ للبين بُرى نياقها

وعجْ على دمشق تلفِ بلدةً كأنما الجناتُ من رستاقها (٢)

وهذا الملك الناصر الثاني صلاح الدين يوسف بن محمد يشتاق الى حلب ومنازلها :

سقى حلبَ الشهباءَ في كل لَزبةٍ سحابةُ غيثٍ نوؤها ليس يُقلع

فتلك دياري لا العقيقُ ولا الغضا وتلك ربوعي لا زرودُ ولعلعُ (٣)

وهذا الشهاب التلعفري يتعجب من حديثه عن ربوع لا يعرفها فيضرب عن ذكرها بقوله :

ياصاح دعنيَ من ذكر العقيق ومن منازل ليس لي في نعتها شان

مالي ومالربوع لستُ أعرفُها ما الحبُّ نعمٌ ولا الأوطانُ نعمانُ

لولا الروادفُ تهتزُّ القدودُ بها ما شاقني الرملُ منْ يبرينَ والبانُ

أجلْ ولولا الظبّاءُ النافراتُ لما سألتُ هل سنحتْ بالجزعِ غزلانُ (٤)

وهذا ابن الساعاتي يطلب من خليليه أن يعرضا عن ذكر هند بني نهد ، وهلال هلال :

---

(١) مصورة مخطوطة ديوان فتيان الشاغوري ، ج ١ ل ١٢٤ ، والديوان ص ٥٩١ .

(٢) العماد الكاتب : الخريده ح ١ ص ٢٤٨ .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهره ، ج ٧ ص ٢٠٥ .

(٣) ديوان التلعفري ، ص ٤٩ .

فدعاني مِـــنْ ذكرِ هنــدِ بنـــى نهـــدٍ ، ولا كنــتَ يا هــلالَ هــلالِ (١)

يظهر أن نساء الفرنجة كان لهن دور كبير في صرف الشعراء عما ألفوه ، فهذا ابن القيسراني يعتق جارية اسمها مارية . وهى حسناء فرنجية من مولدات أنطاكية ، وتنسيه ذكر سعدى وريا :

إذا مـــا زرتَ مـــاريـــا فمـــا سُعـــدى ومـــا ريّـــا
لهـــا وجـــهٌ مسبحـــيٌّ تـــرى الميْـــتَ بـــه حيّـــا (٢)

تلك هى ثورة شعراء هذا العصر على مقدسات الاقدمين . إذ إن ظروف بيئاتهم وطبيعة حياتهم تطلبت منهم الخروج على ما ورثوه . ورائدهم في ذلك من قبل أبو نواس . فكانوا في واقع الامر يحاولون متابعة خطوات الثورة التي أعلنها بقوله :

صفةُ الطلـول بلاغـةُ القـدم فاجعــلْ صفاتِـكَ لابنـةِ الكـرمِ
نصفُ الطلـولَ على السمـاعِ بهـا أفذو العيـانِ كأنـتَ في الحُكـمِ ؟
وإذا وصفتَ الشـيءَ متّبعـاً لم تَخلُ منْ غَلَطٍ ومنْ وَهمِ (٣)

تركوا مثله صفة الطلول كما رأينا ، لكنهم لم يقتصروا على وصف الخمر، وإنما وصفوا الطبيعة الجميلة التي تحيط بهم ، وصفوا دمشق ومتنزهاتها وبرداها ، ووصفوا العاصي وضفافه ونواعيره ، ووصفوا جبل لبنان الاشم . نذكر من ذلك نسيب قصيدة مدح بها الشرف الانصاري الملك الامجد :

لم ينْسِهِ البعدُ روحَ الأنسِ عندكمُ فلم يُجدّدْ لعهدِ القربِ تذكـارا

(١) ديوان ابن الساعاتي ، ج ١ ص ١٨٣ .
(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ١٩٩ .
(٣) ديوان أبي نواس ٢ ص ٥٧ .

سنا هواكم إلى « لبنان » أرشده فلم يقل يا لبينى أوقدي النارا(١)

وقوله أيضاً :

سقياً لأوطار وأوطان بين « سنير » لي « ولبنان »
وعيشة قضيتها وادعاً ما بين خلان وأخوان
أركض أفراس التصابي من اللـ ـذات في أرحب ميدان (٢)

ترك الشعراء مثله التغني بأسماء المحبوبات كما رأينا ، وكأنهم اتخذوا قوله سنة يتبعونها:

لاتبك ليلى ، ولا تطرب إلى هند واشرب علىالورد منحمراء كالورد(٣)

لكنهم لم يقتصروا على شرب الخمر،وإنما أكثروا من ذكر أسماء محبوبات حقيقيات كما في القصيده التي استهلها ابن القيسراني بذكر مارية الفرنجية ، وكما في القصيدة التى تحدث فيها الشرف الانصاري عن شامية :

شآمية شامت يمانيَ لحظها عليّ وانضاني بمرأى ومسمع
بذكرني لمع البروق ابتسامتها فترعد أحشائى وتنهل أدمعي(٤)

تلك هي بعض مظاهر التجديد في نسيب هذا العصر ، وثمة معان أخرى تضمنها النسيب ، وهى موجوده في معاني الغزل .

التجديد في معاني الغزل

حافظ شعراء هذا العصر على مفاهيم الجمال التقليدية عند العرب قديماً ، بيد أنهم جعلوا مناهجهم تتطور بما يتلاءم مع بيئتهم وعصرهم ، وبما يتجدد من صور حضارية زاهرة ، تأثرت بما عرف عند الشعوب الاخرى ،

---

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٣٠ ، والديوان ص ٢٠٤ .
(٢) المصدر السابق ، ل ٨٥ ، والديوان ص ٤٩٢ .
(٣) ديوان أبي نواس ٢ ص ٢٧ .
(٤) مصورة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٤٩ ، والديوان ص ٣٠٥ .

بحكم الحروب التى طبعت هذا العصر بطابعها ، وبحكـم العلاقات التجارية المستمرة .

وعلى الرغم من كل ذلك فانهم بشكل عام كانوا أوفياء علـى ما ورثوه ، فنجدهم يصورون الحبيب . ويتحدثون عـن جماله ، فيكررون الاوصاف ذاتها ، ويذكرون ما فعله بهم . يضاف إلى ذلك مايعترض الحبيب والمحب من افتضاح أمر هواهم ، ووصف البعاد والهجران ، والاشارة الـى العذال والوشاة وغير ذلك .

نجد الشاعر العربي في كل ذلك يتعبد أوصاف من سبقه ، ولا يعنى هذا أنه لم يأت بجديد البتة ، فسوف نقف أخيرا عنـد بعض معانيه المستحدثة كالتشبيب بالفرنجيات والروميات بالاضافة الى العناصر الاخرى من الاتراك والاكراد الذين حكموا البلاد في هذا العصر .

أوصاف الحبيب

تحدث الشعراء عن الحبيب ، فوصفوا محاسنه ، ولم يتركوا شيئاً منها دون أن يعرضوه عرضـاً موجزاً أو مستفيضاً ، حتـى تشابهت الاوصاف والنعوت ، واستوى فيها السابقون واللاحقون من محدثين ومولدين ومتأخرين .

أحاطوا بطلعة الحبيب ومحياه ، فنظروا نظرة كلـية ، ونظرة جزئية ، وتحدثوا من خلال ذلك عن الشعر ، والجبين ، والعينين ، والالحاظ ، والخيلان ، والوجنتين ، واللمى ، والشفاه . ولم ينسوا خلال كـل ذلك ذكر ما يتعلق بالوجه كالعذار ، والسوالف ، وعقارب الاصداغ .

قل التحدث عن الحبيب العربي ، فلم يكتف الشعراء بالإعراض عن أسمائه كما رأينا في بحث النسـيب ، وإنما تغزلوا بعد غلبة العناصر التركية والكردية بما يرضي ملوكهم وأمراءهم . والغريب ان الشـاب الظريف لم يتحدث في

معظم اغزاله الا عن حبيب عربي ، صوره في إطار عربي تقليدي محض ، وهو بذلك يخالف الاتجاه العام المعروف لدى شعراء العصر كما في قوله :

قفْ بالركائبِ أو سُقْهـا بترتيبِ عسى تسيرُ إلى الحـيِّ الأعاريـبِ
واسألْ نسيماً تَثنّتْ أعطافنا أصُلاً منْ أينَ جاءتْ؟ ففيها خمرةُ الطيبِ
ياياربـةَ الهودجِ المحمـيِّ جانبُـهُ إلامَ حبُّكِ يُغريني ويغري بي ؟ (١)

ندر من الشعراء من لم يلم بذكر الحبيب التركي، فان هذا النعت الجديد أصبح متداولا بكثرة بينهم حتى غدا مبتذلا .

هذا ابن منير يعرض له في « ألفاظ تركي »(٢) ، وهذا ابن قسيم يتحدث عن «هذا التركماني» في «القباء الخسرواني»(٣) ، وعن «تركي النجار» (٤) ، وهذا ابن الساعاتي يتحدث عن «تركي المناسب»(٥) و «تركية المناسب»(٦) و «بدر من الترك»(٧) و «تركي النجار»(٨) وهذا عرقلة الكلبي يتحدث عن «مولد الاتراك»(٩) ويذكر فيإحدىرباعياته أنه «ماللاعراب طاقة بالاتراك»(١٠)، وهذا فتيان الشاغوري يتحدث عن حبيب ما أبى باللحظ سفك دمه :

أفدي الذي ماأبى باللّحظِ سفكَ دمي لكنْ متى ما طلبْتَ العطفَ منهُ أبى

---

(١) ديوان الشاب الظريف ، ص ١٤ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ١ ص ٤٩ .
(٣) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٤٤٧ ، ٤٧٨ .
(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٥٠ .
(٥) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ٤٩ .
(٦) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٨٣ .
(٧) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٩٥ .
(٨) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٤٦ .
(٩) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٢٢٢ .
(١٠) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢١٨ .

ظبيٌ مِـن الترك أصمتني لواحظه   وأسهمُ الترك إن أصمتْ فلا عجبا(١)

تذكرنا أسهم الترك هذه بما مر معنا من « ان فنطاريات الفرنج ليس لها الا سهام الاتراك »(٢) .

وهذا ابن عنين اخيرا تحدث عن « ظباء الترك »(٣) ، و « مباس القوام من الترك »(٤) ، ولا يكتفي من ذلك بالاشارة العابرة كغيره مـن الشعراء كما مر معنا ، وانما يتحدث عن صفة مميزة ، وهي صغر العينين ، وضيق المقل ، وهذا المعنى جديد في شعرنا العربي ، وقد الم به في مطلع قصيدة له :

لا تعرضَـنَّ لضيـقِ المقَـلِ   فتبيـتَ مِـنْ أمنٍ علـى وَجَـلِ
واتـركْ ظِبـاءَ التـركِ سانحـةً   لا تعترِضْ لحبـائل الاجـلِ
مِـنْ كـلِّ مائسـةٍ منعمـةٍ   غرثى الاياطلِ(٥) فعمةِ الكفـلِ(٦)

تطرف الشاعر نفسه ، فلم يكتف بالتحدث عن الاتراك كغيره من شعراء عصره ، وانما تجاوزهم ، فتغزل بفتى هندي(٧) ، وغلام أسود .

وهذا التلعفري يتغزل بحبيب فارسيّ الاصل ، بيد أنه عربيٌ في زيـهِ حبشي شعرُهُ ، وهو من بني خاقان(٨) .

يلاحظ أن بعض الشعراء الذين شهدوا الحروب الصليبية ، وتنقلوا في الثغور المحتلة ، انجهوا وجهة جديدة ، لم نعرفها من قبل في الشعر العربي ، حتى إن شاعراً كابن القيسراني قصر طائفة مـن أجمل شعره علـى التحدث عن

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٥٤ . وهذان البيتان غير موجودين في الديوان .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٣٤ .
(٣) ديوان ابن عنين ، ص ٣٤ .
(٤) المصدر السابق ص ٣٤ .
(٥) الاياطل ، جمع ايطل أي الخاصرة .
(٦) ديوان ابن عنين ، ص ٤٠ .
(٧) المصدر السابق ص ١٠٩ .
(٨) ديوان التلعفري : ص ٤٦ .

الفرنجات ، وسمى قصائده المذكورة الثغريات ، وكنا قد وقفنا عندها طويلا ، وشرحناها بالتفصيل خلال ترجمه الشاعر المذكور ،

لم يقتصر الامر على وصف المحبوب الفرنجي ، وأنما تعداه الى اقتباس بعض معاني الحرب ، واستخدامها في الغزل ، نذكر من ذلك قول الشرف الانصـــاري :

ملامُكَ في الهـوى يُغري وُيشجي   فهلْ مِنْ عاذرٍ لـي منكَ ينْجى ؟
أما مِـنْ مسلـمٍ ينهـاكَ عنـي   فإنـي منـكَ في أسـر الفِرنـجِ(١)

ونذكر أيضا قول اللعفري :

حميتَ شقيقَ الخدّ بالمقلةِ الكحـلا   ونقفتَ رمحَ القدّ بالطعنـة النجلا
واوترتَ قوسي حاجبيـكَ ففوّقتْ   من النظر السامي الـى مقلتي نبلا
وأطلعتَ مِنْ جيشِ الجمالِ طلائعاً   فماأرخص الاسرى ، وماأكثر القتلى!!(٢)

ولاحظنا بالاضافة الى ذلك وجود عنصر ثالث غريب ، وهو ظهور بوادر الغزل بالعنصر التتري كما هو الشأن عند ابن منير الطرابلسي .

هكذا نجد الشاعر في هذا العصر يخرج في موضوعاته عن المعاني التقليدية فهو يعرض عن التغزل بالحبيب العربي ، ويتطرق بحكم ظروفه الخاصة الى العنصر التركى والكردي والفارسي والفرنجي والتتري ، حتى تطرف بعضهم فشبب بالعنصر الهندي وغيره .

هذا فيما يتعلق بشخصية من تغزل به الشعراء ، ويبقى علينا أن نقف عند الاوصاف العامة التى خص بها .

أما الوجه فقد شبه بالبدر تارة ، وبالشمس تارة أخرى ، وفي ذلك يقول ابن منير :

---

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصارى ، ل ١٣ ، والديوان ص ١١٤ .
(٢) ديوان التلعفري ، ص ٥٠ .

قمـــرٌ ما طلعـــتْ طلعتُـــهُ فطْ إلا سجـــد البـــدرُ لهـــا
لهبـــيُ السخـــطِ مائـــى الرِّضـــا فهـــو المعشـــوقُ كيفـــ اتجهـــا (١)

ويجمع التـاعر في وصفه بين الشمس والقمر :

يـــا حبــــذا ذاكَ الغــــزا لْ لـــو شفانـــي َغـــز َلا
بـــدرٌ إذا البـــدرُ ســـرى فبـــه المحـــاقُ كمُـــلا
شمسٌ إذا الشَّـمس خبـتْ تحـتَ الكســـوفِ اشتعـــلا (٢)

يلاحظ أن الشاعر فضل حبيبه على النيرين معاً لانه لا يصاب بالكسوف كالشمس ، أو المحاق كالقمر ، ولكن هل نسى كسوف الموت ومحاقه ؟ صيغ البدر على صورة الحبيب ، فلا فخر له اذاً :

قمـرٌ لا فخـرَ للبـــدرِ ســـوى انـــه صِيـغَ علـــى صورتـــه (٣)

لم يكتف أسامة بتشبيه طلعـة الحبيب بالشمس والقمر ، وانما وضح الصورة الجمالية ، فقصر صفة الشمس على الحبيب في النهار ، وصفة القمر عليه في الليل :

أنا أفدي ُمفرىً بصـــدي وهجـــري وهو شمسيضحاً ،وفيالليلِبدري(٤)

ويقول ايضاً في قصيدة أخرى :

أجتلي منه في ضُحـا اليومِ شمساً وأرى منـــه في دُجـا الليلِ َبدْرا(٥)

---

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٨١ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٢ .
(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٣ .
(٤) ديوان أسامة بن منقذ : ص ٢١ .
(٥) المصدر السابق ، ص ٢٢ .

ويلاحظ أنه يقرن شمس الحبيب بليل شعره ليعطينا من هذه الصورة المناقضة معنى جميلا .

شمسٌ وليلٌ فاعجبْ لشمسٍ ضُحاً   تشرقُ . والليلُ راكدٌ يدجو (١)

ويعبر عن المعنى ذاته في قصيدة اخرى . ولكن الغريب انه بنخيلها وهي قائمة في اعلى بان في كثب من الرمل :

هي الشمسُ تبدو في رداءٍ من الدُجا   على خطوطِ بانٍ في كثيب من الرمل(٢)

اما التلعفري فيود لو تنطق الشمس فتحدث عن محاسن حبيبته ؛ لكن الله قد انطقها كما شاء الشاعر :

لو تنطقُ الشمسُ قالتْ وهي صادقة   ما فيَّ فيها ، وما فيَّ الذي فيها
هبني أماثلُها نوراً وفرطَ سَنَا   مِنْ اينَ املكُ معنىً مِنْ معانيها(٣)

والاغرب من صورة الشمس تشخيص القمر ، وقد خر ساجداً امام المحبوب :

لك وجه جلَّ مِنْ صورة   لو رآه بدرُ تمٍ لسجدْ(٤)

والاغرب منها صورته وهو يحثو التراب في وجه البدور الكوامل :

وما كَلَفُ الأقمارِ إلا لأنّه   حثا التُربَ في وجهِ البدورِ الكواملِ(٥)

نتجاوز حديث الوجه والشعر بشكلهما الكلي لنتحدث عن العيون وسهام الالحاظ الفاتكة من نظراتها . يقول ابن الساعاتي :

وأحورَ في عينيهِ هاروتُ بابلٍ   رمى فاتقينا نبلَه بالمقاتلِ

---

(١) المصدر السابق ، ص ٩ .
(٢) ديوان :سامة بن منقذ ، ص ٣٧ .
(٣) ديوان التلعفرى ، ص ٦٠ .
(٤) العماد الكاتب ، الخريدة ح ١ ص ٤٤٤ .
(٥) ديوان ابن الساعاتي ، ح ٢ ص ٢٧ .

يدافعُ عن الحاظِهِ بجفونِهِ ... ولم ار جفناً صالَ دونَ المناصلِ(١)

ويتحدث ابن قسيم عن الالحاظ :

تقلّدَ مِنْ الحاظِهِ مثلَ عضبِهِ ... فأصبحَ يعتدّ الجفونَ مِنَ القربِ

ويتحدث الشاعر نفسه عن سقام الاجفان :

اما والذي اهدي الغرام الى القلبِ ... لقد فتَنتني بالحمى اعينُ السِّربِ

رمتْنا ولكنْ عن جفونٍ مريضةٍ ... عرَفنَ مكانَ الحبِ من كبدِ الصب(٢)

واطال الشعراء في حديثهم عن مرض الاجفان وتكحلها بالسقام . من ذلك قول ابن القيسراني :

بهِ كلّ نشوانةٍ لحظُها ... يطرقُ بين يدي عربدَهْ

صوارمُ قاطعةٌ في الجفو ... نِ فهي مجرّدةٌ مغمدَهْ (٤)

ويتحدث الشاعر نفسه في مطلع إحدى قصائده عن علة الحدق وصحتها :

لا يغرّنكَ بالسيفِ المضاءُ ... فالظبا ما نظرتْ منه الظّباءُ

حدقٌ صحتُها علّتُها ... ربما كان مِنَ الداءِ الدواءُ

مرهفاتُ الحدِ أمهاها المها ... وقضاها للمحبينَ القضاءُ (٥)

تلك هي معان تكررت عند شعراء هذا العصر ، إذ لا جديد فيها ، وإنما كانوا يدورون في الفلك نفسه الذي دار فيه السابقون منهم ، ونحن نكتفي منها بهذا القدر ، لنعرض صوراً أخرى عن الوجنات كما وصفها شعراء هذا العصر . تحدثوا فيها عن جمال الخدود ، وشبهوها بالورود الارجوانية وسقوها بماء الملاحة ، وأرثوا فيها نيران الحياء . يقول الشرف الانصاري :

---

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٧ .
(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٤٣٦ .
(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٣٥ .
(٤) ديوان ابن القيسراني (مخطوط) و ٦٩ .
(٥) المصدر السابق ، و ٣٠ .

في خدِّكَ اللهبيِّ الأرجوانيِّ ورد بغير لحاظي غيرُ مجنيِّ
مَلَكتني بجمالٍ ضمَّ جملتَهُ قضيبُ بانٍ عن الأدناس مثنيِّ(١)

ويقول أسامة أيضاً :

في وجهه ماءُ الملاحةِ حائرٌ وبخدِّه وردُ الحيا لم يقطفِ
فكأنَّ ونسيَ عذارِه في خدِّه نملٌ تسرَّب فوق وردٍ مُضعَفِ (٢)

ويتحدث عن نار الحياء ، لكنها بغير لهب :

نارُ الحياءِ بخدَّيْه بلا لهبٍ قد مازجتْ ماءَ حسنٍ غيرَ منسكبِ (٣)

ويجمع ابن قسيم بين الماء والنار :

كأنَّ بخدِّه ماءً ونارًا تولّد منهما لبلُ العذارِ
سقاكَ على تورّدِ جلّنار الـ خدودِ مدامةً كالجلّنارِ (٤)

اتخذ غيره من الشعراء وجنة الحبيب كأسه ، فينادي ابن القيسراني :

يانديميَّ وكأسي وجنةٌ ضرَّجتْها باللحاظ الرقباءُ
لا تظنَّ الوردَ ما يسقي الحيا إنما الوردُ الذي يسقي الحياءُ(٥)

تفنن الشعراء في وصف حياء الحبيب وخفره ، من ذلك وصف أسامة أمواه الحياء من خجل العتاب :

وعرتهُ مِنْ خجلِ العتابِ كآبةٌ زادتْ محاسنَ وجهه انوارا
ورأيتُ أمواهَ الحياءِ بخدِّه فترقرقتْ حتى استحالت نارا(٦)

---

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٩٠ ، والديوان ص ٥٣٠ .
(٢) ديوان أسامه بن منقذ ، ص ٢٨ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٢٠ .
(٤) العماد الكاتب : الخريدة ح ١ ص ٤٤٦ .
(٥) ديوان ابن القيسراني (مخطوط) و ٣٠ .
(٦) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٢٠ .

وكانوا كثيراً ما يجمعون بين هذه النعوت المتفرقة في صورة واحدة كما في شعر الشرف الانصاري :

قسماً بشمس جبينِه « وضُحاها » ونهارِ مبسمِه « إذا جلاّها »
وبنارِ خدّيه المُشعشعِ نورُها وبليلِ صدغيهِ « إذا يغشاها » (١)

تفنن الشعراء في رسم الصور الفرعية المكملة ، وبخاصة عشاق الخيلان منهم ، نشير بصورة خاصة الى ابن منير الطرابلسي ، فهو بحق ساعر الخيلان بلا منازع ، اذ تحدث عنها في شعره كثيراً ، ولا بأس أن نقف عند بعض صوره:

نقشَ الحسنُ على وجنتِهِ شامةً أشمتَ حسّادي بها
كان قد اعوزَها بستانُهُ لم لما أشرفتْ فيهِ انتهى (٢)

وجاء شرف الدين الانصاري ، فطبع الخيلان بطابع بديعي جناسي ، نذكر من ذلك قوله في ربة الخال :

يا ربةَ الخالِ كفّي عن عتابِ فتىً جمٍّ الوفاءِ كريمِ العمِّ والخالِ (٣)

ثم وصف لنا خداً تعالى أن يقبل :

منعَ العاشقَ خدا يتعالى أن يُقبَّلْ
حسَدَ الصدغَ عليه فتلَوى وتبلبلْ
خلتُ فيه الخالَ قلبي إذ غدا في النارِ يُشعلْ
كيفَ أسلوهُ ؟ وليلي جعَلَ الآخِرَ أوّلْ (٤)

كما تحدث الشاعر نفسه عن ربة الخالين :

لنا مِنْ ربةِ الخالينِ جارَهْ تواصلُ تارةً وتصدُّ تارَهْ (٥)

---

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٨٩ ، والديوان ص ٥١٥ .
(٢) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٤٤٦ .
(٣) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٦٩ ، والديوان ص ٤١٢ .
(٤) اليونيني : ذيل مرآة الزمان (مخطوط) و ١٢٩ .
(٥) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٣٠ ، والديوان ص ٢٠٠ .

وورى بالخالين ، وقرنهما بذكر العمين ، وهو موجود في عمان :

افدي حبيباً منذ واجهتُه عن وجه بدر التّم اغناني
في خدّه خالان لولاهما ما بتّ مفتوناً بعمّان (١)

أما ابن الساعاتي فلم يكتف بخال واحد كابن منير ، أو بخالين كالشرف الأنصاري ، وإنما نخيل في وجنتي حبيب أغن معسول المراشف كثيراً من الخيلان تحير عقل الناظر المتعجب :

واغنّ معسول المراشف اشنب صانَ الجمالَ بهجرة وتجنّب
يبدو وللخيلان في وجناته معنى يُحيّرُ ناظرَ المتعجّب
وجهٌ كما سَفَرَ الصّباحُ لثامَهُ فعلامَ فيه بقيّةٌ من غيهب ؟(٢)

جمع ابن منير بين صحيفة الخد ، ونقطة الخال ، ونبات العارض في صورة مطبوعة بطابع ديني ، ذلك ان هذه المحاسن المشار إليها إنما تجمعت في طلعة حبيبه ، فحسبها القرآن الكريم ، وهذا التخيل مظهر هام جداً من مظاهر استخدام الصور والمعاني الدينية إسلامية وغير إسلامية في الغزل .

لم يكتف الشعراء بهذه الصور التي رسموها للوجنات والخيلان ، وإنما احاطوها بإطار فني مزخرف من العذار والأصداغ ، وتخيلوا فيها العقارب والثعابين وغيرها .

أما العذار فهو صفحة منمقة بأجمل الخطوط يقرأ فيها الشاعر ما يخطه خياله ، وقد قرأ فيه الشرف الأنصاري الواو والنون :

قرأتُ خطّ عِذاريه فأطمعني بواو عطفٍ ووصلٍ منه عن كثب
واعربتْ لي نونُ الصدغِ معجمةً بالخال عن نجح مقصودي ومطلبي(٣)

---

(١) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ، ج ٢ و ٣٣٠ ، وملحق الديوان الاول ص ٥٧١ .
(٢) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ٦٦ .
(٣) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٩ ، والديوان ص ٩١ .

بيد أنه يؤخذ مسحوراً بنون الصدغ ، فيعبد ربه على ذلك الحرف :

يلوحُ لعيني ماشقاً نونَ صُدغِهِ فأعبدُ خلاّقي على ذلك الحرف (١)

ويزداد عجب الشاعر نفسه لدى رؤيته صدغاً معقرباً ، فيقدس رب الجمال:

قلتُ وقد عقربَ صُدغاً له عن مشقةِ الحاجبِ لم يَحجبِ :
قُدِّستَ ياربُّ الجمالِ الذي التفَّ بينَ النونِ والعقربِ (٢)

رسم ابن الساعاتي صورا للصدغ ، تختلف عما رأيناه ، كما في قوله :

يُزهي بصُدغٍ لو حظيتُ بعطفِهِ ما ذُبتُ مِنْ شوقي إلى معطوفِهِ
ولحسنِ خطِّ في صحيفةِ خدّهِ رَقَمَ الضحا بالجِنحِ نظمَ حروفِهِ (٣)

وتخيل ابن منير كرمة عارشة في صدغه :

صُدغُه كرمةُ خمرٍ قُسِّمَتْ بينَ خديهِ إلى نكهتِهِ (٤)

وهو لا ينسى خلال ذلك ما خطته سوالفه على الوجنات من رقى عندما شهدت الصدغ بتثعبن ويتعقرب :

وتوقدتْ في الروضِ مِنْ وجناتِهِ نارُ الحياءِ يشبُّها ماءُ الصِّبا
خطّتْ سوالفُه عليها رُقيةً لما تُثعبَنَ صُدغُه وتَعَقْربا (٥)

جرى عرقلة في هذا المضمار ايضاً ، فنادى بني الأعراب يستجير بهم من الترك :

يا بني الأعرابِ إن التر كَ قد جارتْ بنوها

---

(١) المصدر السابق ، ل ٥٥ ، والديوان ص ٣٣٥ .
(٢) المصدر السابق ، ل ٧ ، والديوان ص ٧ .
(٣) ديوان ابن الساعاتي ، ج ١ ص ١٠٢ .
(٤) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٨٣ .
(٥) المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٤ .

َعقرَبــوا الأصـداغَ حبنــاً ولِحَيْنــي ثَعْبنوهــا (١)

وكأنما قد سحره ما قرأه في هذا اللون من لام وواو ونون : لام العذار ، وواو الصدغ . ونون الحاجب كما في هذه الرباعية :

أقسمت بواو ُصــدغِ هذا الحاجبْ في لامِ عِــذارهِ ونــونِ الحــاجبْ
لو عاينَه ابنُ مقلةَ(٢) والصاحبْ(٣) قالا عجبــاً لديه : جلّ الكــاتبْ(٤)

استخدم الشعراء الصور الدينية في وصف الاصداغ ، وقد اتحفنا ابن القيسراني بصورة فنبة في معرض حديثه عن الصدغين ، واخرجهما مخرجاً موفقاً بتصنعه حسن التعليل . وذلك في القصيدة التي شبب فيها بمارية :

وقد َغلَبَ المصباحُ فيه على الدجا سنا قمرٍ في جنحِ ليــلٍ ُمجعّــدِ
فيالي َ مِــنْ وجــهٍ كقنديلِ هيكلٍ علبه من الصُدغينِ محرابُ مسجدِ (٥)

استخدم أسامة بن منقذ المعاني المدينية في صورة موفقة من الكعبة والحج كما في قوله :

في وجهِها كعبــة الجمــالِ فللِعَيــ ــنِ إلــى حســنِ وجهِهــا َحجّ(٦)

لم يقف الشعراء كلهم من هذه المعاني المار ذكرها موقفاً واحداً ، ذلك اني لاحظت اختلافاً بينها ، إذ إن بعضهم كان يضفي عليها طابعاً محلياً معروفاً كما رأينا ، نذكر من ذلك ابن قسيم الحموي ، فقد تحدث عــن حبيب مرسل

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٢٩ .
(٢) ابن مقلة : محمد بن علي بن الحسبن بن مقلة وزير من الشعراء الادباء ويضرب بحسن خطه المثل ، وقد توفي سنة ٣٢٨ هـ .
(٣) هو الصاحب اسماعيل بن عباد وزير غلب عليه الادب ، ولقب بالصاحب لصحبته مؤيد الدولة ، وتواقيعه آية الابداع في الانشاء توفي سنة ٣٨٥ هـ .
(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٨٩ .
(٥) ديوان ابن القيسراني (مخطوط) و ٧٥ .
(٦) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٩ ؟

الصدغ ، ونطرق إلى ذكر مواشطه اللواتي « اخفين عقرب خده[١]» لما راين أنه ليس في حمص عقرب ، وقتلنه « بعقارب الاصداغ »[٢] .

يحسن بنا ان نذكر هنا نعابين الذوائب وهي تتدلى على الكتفين . ويظهر ان عرقلة كان يخشى اذاها وهي تتلوى على كنفي حبيبه :

اخشى على كتفيه من ذوائب وكيف لا اتخشى وهي ثعبان ؟[٣]

اما اسامة فقد راعه ذلك الحاوي الذي تخيله :

وانظرْ الى الأغصانِ حا ملةً شموساً في غياهبْ
منْ كلِ حاوٍ قد تكنَّ فَهُ نعابينُ الذَّوائبْ [٤]

تلك هي محاسن الحبيب كما تخيلها وصورها شعراء هذا العصر . ويبقى علينا لنتم هذه الصورة أن نتحدث عن الثغور والارياق والشفاه .

لعل ابرز ما يلفت النظر ان الشعراء كانوا ينتهزون هذه المناسبة في شعرهم ليتحدثوا عن الصهباء واكوابها من خلال اوصافهم . نبدأ بحديث الثغر والريق والكأس ، فنستمع الى الشرف الانصاري حين الم به طيف حبيبه :

لم أنسَ ليلةَ طافتْ بي عواطفهُ فزارني طيفه صدقاً بلا كذبِ
وكأس ثغرٍ شهيٍّ منذ فزتُ به قلتُ : العفاءُ على كأسِ ابنةِ العنبِ
ورحت لم أدر عقلي هل فجعت به من نخوة العز أو من نشوة الطرب ؟
اقسمتُ مافي ضروب السكر ابلغ من كأسٍ بريقٍ له أحلى من الضَّرَبِ
نشوان أسألُ عن قلبي فينكرُه تيهاً ويسألُ عني ، وهو أعرفُ بي[٥]

---

(١) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٤٤٤ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٥٦ .
(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٢٤ .
(٤) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٥ .
(٥) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٩ ، ١٠ ، والديوان ص ٩٢ .

ونستمع الى الشاعر نفسه يصف لنا رضاب غادته :

أيها الريق من شكر (١) سكر أنت أم سكر ؟
أرشفتنيك غادة تقمر (٢) الشمس والقمر (٣)

ونستمع اليه أيضا يسأله شربة من ريقه :

سألته من ريقه شربة أطفى بها من ظمئي حره
فقال : أخشى ياشديد الظما أن تتبع الشربة بالجرة !(٤)

تحدث أسامة عن دور الثغر وأقاحه ، وجمع بين الريق والرحيق :

وثغر أم لآل أم أقاح وريق أم رحيق بنت دن !(٥)

ويذوق الشاعر كسابقه ريق الرحيق ، فاذا هو سعير في كبده ، وثلج في فمه :

رحيق ريق عذب ، ففي كبدي منه سعير ، وفي فمي ثلج (٦)

كما تحدث الشعراء ـ بالإضافة الى ذلك ـ عن ضيق الثغر ، فشبهوه بالخاتم ، وقد الم ابن القيسراني بهذا المعنى في قوله :

لله موقفنا ، وقد ضرب الدجا سترا علينا من جفون النائم
وفمي يقبل خاتما في كفه قبلا تغالط عن فم كالخاتم
كيف السبيل إلى مراشف ثغره عين الرقيب قذاة عين الحائم (٧)

أما ابن منير فيموت سكرا ، ولا يعرف سبب سكره ، هل كان من خمر رضاب شفتيه أم من ريقه :

---

(١) شكر : جمع شكير ، وشكر الكرم قضبانه الطوال أو الاعالي ، وقال أبو حنيفة الشكير هو الكرم يغرس من قضيبه .
(٢) تقمر : تغلب .
(٣) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٣٤ ، والديوان ص ٢٢٠ .
(٤) المصدر السابق ، ل ٣٨ ، والديوان ص ٢٤٠ .
(٥) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٤٦ .
(٦) المصدر السابق ، ص ٩ .
(٧) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١١٢ .

أيها الراقدُ عندي سهرٌ ... يكمدُ الواشي ويُبكي العاذلينْ
متّ سكراً ، أفمنْ كأسِ طلاً ... راقَ لي ريقكَ أم من شفتينْ ؟(١)

نكتفى بهذا القدر مما استوحاه شعراء العصر من محيا الحبيب ، وكانوا كثيرا ما يضعون هذه الصورة الجمالية في أعلى غصن مياس ، من قد ممشوق تحيط به كثبان من الارداف الثقيلة . أخذ الشعراء هذه المعانى من سابقيهم ولم يغيروها كثيرا ، اذ انهم حفظوا لنا هذه الصورة التقليديه ، لان مفاهيم الجمال عند الامم لا تتغير بسرعة . وصحيح أن الشعر العربي شهد أنماطا مختلفة من محاسن الفرنج والترك والتتار ، وصحيح أيضا أن بعضهم صوره تصويرا امينا ، بيد أن الجلة من الشعراء صانوا هذا المفهوم التقليدي ، فكان شعرهم في حقيقته صوره مكرره في معظم جزئياتها وكلياتها .

وصف فتيان الشاغوري القد والخصر والردف بقوله :

شكا فؤاديَ منْ عبءِ الهوى تعباً ... كما شكا خصرُهُ منْ ردفِهِ تعبا
بهزّ أعطافَه دلّ الصّبا فترى ... غصناً من البانِ يثنيهِ النسيمُ صبا
يا مطلعَ البدرِ فوقَ الغصن معتدلاً ... يلوحُ ما بين شربوشٍ وطوقِ قبا(٢)

ووصف عرقلة الكلبي ذلك أيضا بقوله :

قوموا انظروا واعذروا ياغافلين الى ... بدرٍ تبادرَ منْ أفلاكِ أزرارِ
على قضيبِ أراكٍ في كثيبِ نقاً ... تهزّهُ خطراتٌ ذاتُ أخطارِ
ما رامتِ الرومُ ، والأتراكُ ما تركتْ ... أدقّ من خصرِه في عقدِ زنّارِ(٣)

وهام ابن الساعاتي أيضا بالقد ، وهوي من أجله نسيم الشمائل :

أبى الحسنُ إلا أن أهيمَ بقدّهِ ... فمنْ أجلِهِ أهوى نسيمَ الشمائل

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٥ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٠٥ والابيات غير موجودة في الديوان .
(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٠٥ ، والديوان ص ٤٣ .

ولــولا تثنيــه لمــا بــت سامعــاً إلى كــل غصــن شائقــات بلابلــي
اذا أطرب الاسمــاع نطق نطــاقــه فيا خجلة اللاحي وعــي العواذل(١)

ويغدو القوام في ذهن الشاعر رمحا مترعا بقتل العشاق :

وهيفــاء تقتــل عشــاقهــا برمــح القوام وسيف الحــور (٢)

ويجمع أسامة بين الدعص والغصن :

غصن ودعص فالغصن من هيف يميس ليناً ، والدعص يرتج (٣)

ويغرب ابن القيسراني ، فيبالغ في وصف ثقــل الارداف حتى يحسبها الناظر انها مقعدة :

تــرى كــل مستضعــف خصــره إذا ما دعــا طرفــــه انجــده
وذات روادف عنــد القيــا م تحسبهــا أنهــا مقعده (٤)

نستطيع من خلال هذا المثال البديع الذي رمز الى مفاهيم العرب عن الجمال ، ومن هذه الصورة التي رسمناها لصورة الحبيب ، القول ان شعراء هذا العصر أخذوا من الشعر العربي القديم كثيرا مــن المعاني التي اتينا على ذكرها ، بيد أنهم مع كل ذلك لم يتعبدوها تماما ، وانما عبروا عن كثير مــن المعاني الجديدة المستحدثة التي استدعتها طبيعة حياتهم وما فيها من أحداث وأحوال وتطور في الحياة الاجتماعية .

احوال المحب

ننتقل بعد ذلك لنصف أحوال الشعراء المحبين الذين اضناهم العشق ، فنحلت ــ كما يزعمون ــ منهم الاجسام ، واشتد حزنهم وجرت عبراتهم ،

---

(١) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ٢٧ .
(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٧ .
(٣) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٩ .
(٤) ديوان ابن القيسراني (مخطوط) و ٦٩ .

وتأرث شوقهم ، فنحا بعضهم في وصف حاله منحى الشعراء العذريين ، ونحا بعضهم الآخر منحى الشعراء الماديين . وصف الشرف الانصاري حاله بعد أن أبعده وجفاه حبيبه ، كما مر معنا ، ونراه في قصيدة أخرى يعلن انه غدا في الحب اماما ويورد حوارا لطيفا يخاطب به الحبيب الهاجر :

أنا في الحب إمامٌ فإذا ... صرتَ مِنْ أبنائه فاخضع لديْ

لا تسلْ غيريَ عن شرع الهوى ... وخذِ التنزيلَ فيه عن أبيْ

وبلبنان لباناتٌ لنا ... عند حيٍ ذكرُهم في القلب حيْ

واختصرْ في شرحِ أشواقي فإن ... رُمْتَ إسهاباً فوكلْ مقلتيْ

سادتي فارقْتُكمْ فاستبلتْ ... بنواكمْ راحتي من راحتيْ

فاجبروا قلبي بشيءٍ منكمُ ... فلقدْ أوتيتمُ من كل شيْ

قلتُ : قد أضْنيتَ جسمي، قال: قد ... قلت : كي نذهب روحي ؟ قال : كيْ

قلتُ : أفديك بنفسي ، قال : مه ! ... ما أليك الأمر فيها بل إلي (١)

أما أسامة بن منقذ فقد سأله احد الناس عن حاله فأجاب :

ياسائلي عما بِيه ... سرّ المحبّ علانيهْ

انظرْ إلى جسدي لتخـ ... برك العظامُ العاريهْ

عن مهجةٍ بالهجر قد ... تلفتْ وعينٍ جاريةْ

وصبابةٍ لا أستطيـ ... ـعُ ابثُها هي ما هيهْ

ولمنْ السومُ ؟ وإنما ... عيني علىّ الجانيهْ (٢)

كان الحبيب في معظم الاحيان كما تخيله الشعراء قاسيا لا يلين ولا يرحم، فوصله عند عنقاء مغرب ، ووصله أبعد من السها والفراقد :

---

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٩٠ ، والديوان ص ٥٢٤ .

(٢) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٥٢ .

أتــراكَ يعطفُــك العتــــابُ وقلّمــا	يثني العتــابُ عنــان قلبٍ شــاردِ
هيهــاتَ وصلُكَ عند عنقــا مغرب	ورضاك أبعدُ مــن سهــا وفراقدا(١)

بالغ الشعراء في وصف الضنى والسقام ، حتى ان عرقلة تصور نفسه وقد غدا شبحا :

عندي إليكمْ مــن الأشواق والبُرحا	ماصيَّرَ الجسمَ من فرط الضنى شبحا
أحبابَنــــا لاتظنّونــي سلوتكــمْ	الحــالُ ماحــالَ والتبريحُ ما برحا
لو كــان يسبحُ صــبّ في مدامعهِ	لكنتُ أول مــن في دمعــه سبحــا(٢)

ويغرق ابن قسيم في المبالغة ، فيغدو بلا قلب وبلا جسد :

يا أيــنَ الصبــرُ فأنشُــدَهُ	وعســايَ أدلّ علــى الجلــدِ
ظعَــنَ الأحبــابُ وعنــدهمُ	قلبــي سلبــوه ولــم يُعَــدِ
وبرانــي السُّقــمُ بهــمْ فبقيــ	ــتُ بــلا قلــبٍ وبــلا جســدِ (٣)

ان العلاقة بين الحبيب الظالم والشاعر المحب المظلوم علاقة مولى وعبد وسيد ومسود ، وهذه ظاهرة هامة معروفة في الشعر العربي قبل هذا العصر ولكن الشعراء في هذا العصر أسرفوا فيها كل الإسراف فأصبحنا نعثر بكثرة على القاب الاجلال والتعظيم ، وقد سرت عدواها الـى الاغزال بشكل يلفت الانظار . سمعنا الشرف الانصاري من قبل يخاطب أحبته بقوله « سادتى » ، وهذا ابن منير يخاطب حبيبه بقوله : « مولاي » :

مــولايَ قــد ذُبــتُ صبــراً	وكــمْ تذيــب مِطــالا
مــا كــــان عهــــدُك إلا	مثــلَ السلــوّ محــالا (٤)

ويقول في قصيدة ثانية بعد أن عطف عليه حبيبه :

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٢ .
(٢) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١٨٢ .
(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٤٥ .
(٤) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٨٣ .

بأبي مَنْ صدّ عني وصدَف ... ثم لما ملّ مِنْ هجري عطفْ
قلتُ : مولاي أحقٌ ما أرى ... بعدما حكّمتَ في روحي التلَفْ ؟
قال : مِن احمدِ شيءٍ في الهوى ... عُقبُ الصبرِ وتأميلُ الخلَفْ
نحن نحيى مَنْ امتننا كرماً ... وعفا الله لنا عما سلَفْ (١)

نلاحظ أن المبالغة تبلغ منتهاها بالإضافة الى لفظة التفخيم،اذ ان الحبيب غدا يحيي ويميت ، وتلك هى صفة الله عز وجل . يجب الا يغيب عن أذهاننا ما رأيناه من الاصطلاحات والمعاني الصوفية التى أدخلها الشعراء في نسيبهم وأغزالهم كما رأينا ذلك بالتفصيل في شعر الشاب الظريف وهىموجودةبشكل بارز في شعر ابن عربى . وهكذا نستطيع أن نتبين اثر الشعر الصوفي في تطور معانى النسيب والغزل في شعر هذا العصر ، ولنا في شعر نجم الدين بن سوار الدمشقي(٢) المتوفى سنة ٦٧٧ هـ خير دليل ذلك .

عثرات الحب

تعترض المحبين من الشعراء عثرات كثيرة ، وقد وردت في شعرهم بشكل ظاهر ، اذ شكوا من المتطفلين عليهم ، ونعتوهم بأقبح النعوت ، وسموهم بأسماء مختلفة : منهم العذول، والرقيب، والواشي، والكاشح وغير ذلك . ومن النادر أن يتغزل الشاعر دون أن يأتي على ذكرهم من قريب أو بعيد ، اذ ان ذلك يعد في نظرهم من المعاني الاصلية التي لا يتم الغزل أو النسيب بدونها .

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٦ .
(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٢٨٣ .

العذول والرقيب

يجدر بنا أن نفرق بين هذه الاسماء ، وان تداخلت معانيها في عرف الشعراء . والظاهرة العامة أنهم كانوا يعرقون بينها ، فأما العذول فقد تكرر ذكره أكثر من غيره ، اذ هو أقرب الناس الى الشاعر . لانه يكون في غالب الاحيان الناصح اللائم الذي كان يشفق على حاله كما وصفناها من قبل ، وذلك ان صدق الشاعر في دعواه ، وهو على الرغم من نصحه ولومه ، فانه كان معرضا لثورة الشاعر عليه ونعته بمختلف النعوت ، اذا كان بذلك يذكي صبابتهم ويجدد ذكرياتهم كما يقول أسامة :

بنفسي عذولٌ لامَ فيكمْ فردَّ لي ... بذكركُمْ روح الحياةِ عذولُ
لحى ناصحاً فيكمْ فأذكى صبابتي ... وتذكي الرياحُ النارَ وهي بليلُ
أسوفُ صعيدَ الأرض إذْ وافق اسمه ... صعيداً بهِ أهلُ الحبيب نزولُ
وأغدو على «أسوان» أسوان في الحشا ... لبعديَ عنها لوعةٌ وغليلُ (١)

وتسوء العلاقة بين الشاعر ومحبوبه ، ويتمت به عاذله لانه لم يستمع الى نصحه ، فيخاطبه قائلاً :

انظرْ شماتةَ عاذلي وسرورَهُ ... بكسوفِ بدري واشتهارِ محاقهِ
غطّى ظلامُ الشَّعرِ مِنْ وجناته ... صُبحاً تضيءُ الأرضُ مِنْ إشراقهِ
وهو الجهولُ يقولُ : هذا عارضٌ ... هو عارضٌ لكنْ على عُشّاقهِ (٢)

وتزداد العلاقة سوءاً بينهما فيأسى أسامة قائلاً :

ويحَ العواذلَ ، لا خلاقَ لهمْ ... وهَموا ، ولم تصدقْهمُ الفكر (٣)

ويصرح عرقلة لعواذله بأنه يحب حبيبه ، ويسخر من تساؤلهم عن

---

(١) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٩٥ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٣١ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٩ .

سبب حبه :

قالَ العواذلُ ، ما الذي استحسنتهُ منه ؟ وما يسبيكَ؟قلت : جميعهُ(١)

ويوضح سبب ثورة الشعراء هذه على عذالهم ، فينادي بنداء أسامة :

ويحَ العواذلِ ، هل يُغشّي نورُهُ أبصارَهم ، أم كيفَ يخفى يُوحُ؟(٢)

لاموا وقد نظروا ملاحةَ وجههِ واللومُ في الوجهِ المليحِ قبيحُ (٣)

أما شرف الدين الانصاري ، فيخاطب عاذله ، ويود لو ذاق حرارة الحب مثله ، فهو خلو منه حين يلوم ويعذل :

يا عاذلي ليس مثلي مَنْ تخادعُهُ ولبس مثلك مأموناً على عَذَلي

ما دُمتَ خلواً فلا تنفكُّ متهماً اعشقْ وقولُكَ مقبولٌ عليَّ ولي (٤)

ويلح العذول في تعنيفه ، فيخاطبه الشاعر محنقاً :

حتامَ تعذلُني وحتى ؟ هو ما علمتَ وما جهلْنا

حبٌّ لو انكَ ذُقتهُ لعذَرْتَ فيه مَنْ عذلْتنا

فدعِ السفاهةَ لي أنا وخذِ الرشادَ إليك أنتا

أو لا فأسعدْني على شوقٍ سهرْتُ له ونِمتا (٥)

ويظفر الشاعر بعذوله بعد مغالبة ، لكنه يعاقب من حبيبه بالتيه :

إذا دنا فالدلالُ يبعدُهُ وإنْ نأى فالخيالُ بدنيهِ

غالبتُ مَن عذّلي جبابرةً فكيفَ عُوقبتُ منه بالتِيهِ ؟ (٦)

---

(١) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١٨٣ .

(٢) يوح : ويَوحى من اسماء الشمس .

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١٩٢ .

(٤) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٦٧ والديوان ٤٠٠ .

(٥) المصدر السابق ، ل ١١ ، والديوان ص ٩٩ .

(٦) المصدر السابق ، ل ٨٧ ، والديوان ص ٥٠٤ .

وأما ابن الساعاتي فانه يذكر عاذله بعدم جدوى لومه ، إذ يخاطب منه غير السميع :

أعاذلُ عدِّ عن عذلي ولومي فأنت مخاطبٌ غيرَ السميعِ
وإنَّكَ ما علمتُكَ من أناسٍ حوتْ اقلامُهم رِقَّ البديعِ
فهل خاطبت أبلغَ مِنْ سقامي ؟ وهل شافهتَ أفصحَ مِنْ دموعي؟(١)

قد يرق العاذلون احيانا فيشفقون على المحب من عذابه ، « وأدهى الحبّ ما رقَّ منه العذولُ » (٢) .

هذا هو العذول كما نخيلناه من خلال شعر هذا العصر . وعلى الرغم من كل ما وصفه به الشعراء . فاننا نشعر بصدق العاطفة نحوه . إذ هو في الغالب الناصح اللائم الذي حكم عقله لينقذ الشاعر من شقائه وعذابه .

كان الشاعر – بالاضافة الى العذول – يخاف عين الرقيب ، فقد كان يقض مضجعه ، لئلا يفتضح أمره ، ويشيع ذكره . يقول اسامة :

راقبَتْها العيونُ يا ليتها ليسَ تنظرُ
فهو من خشيةِ المرا قبِ يهوى ويهجُرُ(٣)

ويتحدث عرقلة عن الرقيب في معرض وصفه نحول جسمه :

لو أرادَ الرقيبُ ينظرُ جسمي ما رآه من النحولِ الرقيبُ (٤)

أما ابن قسيم فيخالف شعراء العصر ، فيمدح الرقيب قائلاً :

عابوا الرقيبَ ، ولولاهُ لما حُمِدتْ عواقبُ الحبِّ ، وانساغت مشاربُهُ
ولست أعذلُهُ فيما يحاولُ مِنْ حفظِ الأحبةِ ، بل لا كان عائبُهُ

---

(١) ديوان ابن الساعاتي ، ج ١ ص ٧٢ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٦٨ .
(٣) ديوان اسامة بن منقذ ، ص ١٦ .
(٤) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١٨٨ .

إني لأعشقُ عُذالي ، على كلفي به ، ويحسنُ في عيني مُراقبُهُ (١)

وضح لنا الشاعر معنى الرقيب ، فهو الحافظ الامين الذي يرسل من قبل آل المحبوب ، ليحرسه من كل طارىء وعارض .

تلك هي صور عابرة عن العذول والرقيب ، أو العذول الرقب إن صح التعبير .

الواشي والكاشح

تحدث شعراء هذا العصر ايضاً عن الواشي والكاشح ، وهما شخصيتان لهما مكانهما في مسرح الشعر العربي ، وتختلفان عما رايناه في حديثنا عن العذول والرقيب .

نحن نعلم ان الواشي كان مكروها عند الشعراء ، اذ انه كان ينم عليهم ، وقد اشار ابن القيسراني الى هذا المعنى بقوله :

نلحى الوشاةَ وإنَّ بين جفوننا لمدامعاً تسعى لها بنمائمِ
يا أيها المُغرى بأخبارِ الهوى لا تُخدَعنَّ عن الخبيرِ العالم (٢)

ويصور في مكان آخر من شعره الوشاة بقوله :

ونهتْ مدامعيَ الوشاةُ فرابهمْ شاكٍ صبابتهُ بطرفٍ جامدِ
ولو انهم سمعوا أليَّةَ (٣) عبرتي في الحبِّ لاتّهموا يمينَ الشاهدِ (٤)

ويتحين الشعراء غفلة الوشاة او غيبتهم ليكسبوا عبراتهم :

لعيني كلَّ يومٍ منه عبرهْ تُصيرُني لأهلِ العشقِ عبرهْ

(١) العماد الكاتب الخريدة ج ١ ص ٤٣٥ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ١١٢ .
(٣) الأُلوة ، والأَلوة ، والإِلوة والالية على نعليلة ، والالياء كله : اليمين وتجمع على الاياء .
(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٠٣ .

فعسجدُ جفنِهــــا لا نقصَ فيــه وكم جهَّزْتُ منــه جيشَ عُســرهْ
إذا غفلَ الوشاةُ أسلتُ دمعــي فيغدو مرسـلاً في وقــتِ فتــرهْ
علامــةُ شقوتــي في الحــبّ أنّــي ثقلْتُ عليــك لا عــن طولِ عِشْرهْ(١)

قد يفلح الوشاة في الايقاع بين الشاعر ومعشوقه ، فتحدث الجفوة ، ويقع الخصام . وهذا امل الواشي . وفي ذلك يقول اسامة :

أطاعَ ما قالــهُ الواشي وما هرَفــا فعــادَ يُنكــرُ مِنّــا كلَّ ما عــرَفا
وصــدَّ حتى استمرَّ الهجرُ منهُ فلو ألمَّ بي منهُ طيفٌ في الكرى صدفا(٢)

كرر اسامة كثيراً من ذكر الوشاة واحوالهم . كما يتضح ذلك في ديوانه(٣) اما ابن منير فكانت ثورته عليهم شديدة . إذ إنهم استطاعوا أن يوغروا صدر حبيبه ، فقال :

بــاللهِ يا هاجــري بــلا سبــبِ إلاّ لقــولِ الوشـــاةِ إذْ زَعمــوا
هــل قلــتَ للطيفــ : لا يعــاودُني بعدَك ، أم قــد وفــى لــك الحُلم ؟
يارِبِّ خذْلــي مِــن الوشـــاةِ إذا قاموا وُقمنـــا لديــكَ نحتكــمُ (٤)

نتبع حديث الوشاه بالكاشحين . فأمرهم خطير بالنسبة للشعراء ، لانهم يضمرون لهم العداوة والبغض في نفوسهم ، وما سموا بذلك إلا لانهم يطوون كشحهم على البغضاء . تحدث اسامة كثيراً عنهم في ديوانه ، وذكر أنه كان يخشى على سره من أن يشيع ويذيع :

ولكنْ خشيتُ الكاشحــينَ فإنّنــي على سِرِّنا مِــنْ أن يذيــعَ شفيقُ

---

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٣٧ ، ٣٨ ، والديوان ص ٢٢٦ .
(٢) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٢٧ .
(٣) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ١٦ ، ٢٥ ، ٣٣ ، ٤٥ .
(٤) العماد الكاتب الخريدة ، ج ١ ص ٩١ .

فأصبحتُ كالهيمانِ عاينَ مورداً   بَروداً ، ولكنْ ما إليه طريقُ (١)

تلك هي بعض ما كان يعترض طريق الشعراء في الحب من عثرات ومنغصات ، أتينا على ذكرها بدقة لتكون الصوره التي نرسمها كاملة .

ولا بد لنا في ختام بحثها من الاشارة الى أن الشعراء عظموا الجمال لانه لا نهاية له ، ولان فيه سرا الهيا لا يدرك كنهه .

وغدا في نظرهم ولاية كبيرة ، له ملك ودولة وسلطان(٢) ، وكان المحبوب صاحب ذلك كله ، عنده جنده واعوانه . يأمر وينهي ، ويسلط عدوانه على رعيته ، وفي هذا المعنى يقول التلعفري :

جُرْتَ لما مَلَكْتَ ، فاعدلْ ، فما أقـ   ـبحَ في ذا جمالِكَ العدوانا
ما اتخذتَ الملاحَ جنداً إلى أنْ   قمتَ بالحسنِ فيهمُ سلطانا (٣)

لكن شأن الجمال شأن كل دولة تديلها الايام ، وتذهب بها السنون ، فيغيض ماء الجمال ، وتبلى رياض المحاسن :

قُلْ لمنْ تاه بالجمالِ علينا :   ما عسى دولةُ الصِّبا أنْ تدوما
عن قليلٍ ترى قوامَكَ الـ   ـمائسَ قد عاد ذا اعتدالٍ قويما
وترى طرفَكَ السَّقيمَ وقد صـ   ـحّ كأنْ لم يكنْ مريضاً سقيما
وترى جمرَ وجنتيكَ وقد عا   دَ رماداً وبقلهنَّ (٤) هشيما
ونُنادي : عدلٌ منَ اللهِ أنْ أصـ   ـبحَ ذاكَ النهارُ ليلاً بهيما (٥)

تلك هي قصة الجمال في الشعر العربي بين صباه وهرمه ، ابرزناها

---

(١) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٣٢ .
(٢) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٣٢ .
(٣) ديوان التلعفري ص ٤٨ .
(٤) البقل في الاصل هو كل نبات اخضرت له الارض . ومن المجاز قولنا : بقل وجه الغلام وبقل وابقل اي خرج شعره ، وكره بعضهم التشديد .
(٥) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٤٢ .

بدقة وامانة ، وقد اشرنا الى ما اخذه الشعراء من سابقيهم ، وما جددوه من وحي قرائحهم وبيئتهم ، ووفاء منا للبحث لا بد لنا من وقفة اخيرة لدراسة الغزل المذكر في شعر هذا العصر .

الغزل المذكر

يلاحظ ظهور الغزل المذكر في الشعر ، وقد عرفناه لدى معظم الشعراء اذ كانوا يكثرون من ذكر اسماء الغلمان والفنيان في غزلهم تقلبدا للمحدثين والمولدين من الشعراء الذين نهجوا نهج أبي نواس .

تحدث ابن رشيق عن هذا الامر . فذكر أن «منهم من يكون قوله في النساء اعتقادا منه ، وان ذكر فجربا على عادة المحدثين وسلوكا لطريقتهم لئلا يخرج عن سلك اصحابه ، ويدخل في غير سلكه وبابه ، أو كناية بالشخص عن الشخص لرقته أو حب رشاقته » (١) .

عرف عن الشاعر ابن دفتر خوان(٢) أحد شعراء القرن السادس الهجري انه نظم ديوانا شعريا كبيرا ، تغزل فيه بألف غلام ، وسماه « الغلمان(٣) » . وعرف أيضا عن ابن منير الطرابلسي انه « كان مولعا بغلام يعرف بابن العفريت ، وفي خده خال » (٤) ، كما كان مولعا بمملوك له اسمه تتر ، وقصته

---

(١) ابن رشيق : العمدة ، ج ١ ص ١٩٨ .

(٢) علي بن محمد بن الرضا بن محمد بن حمزه بن امبركا ، الشريف ابو الحسن الحسيني الموسوي الطوسي ، المعروف بابن دفتر خوان . ولد في حماة سنة ٥٨٩ هـ ، وكان أديبا بارعا . ومن تصانيفه : « شاهناز » ، وهو كتاب فيه أسئلة منظومة وأجوبتها منثورة بين حكيمين طبيعي والهي . ومنها « الطلائع » و « الموجزة في الرسائل الملغزة » ، وقد ذكر في ختامه : « وهو ثان وأربعون كتابا وضعته » . ومنها « الهاديتان » ، وهو في آداب الزائر وآداب المزور . توفي بحماة سنة ٦٦٥ هـ .

(٣) ابن تغري بردى : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٢ و ٤٣٨ .

(٤) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٨٠ .

فيه مشهورة تناقلتها بعض الكتب القديمة . ذكر صاحب تزيين الاسواق أن له قصيدة رائية طويلة تعرف بالتنرية،وقد أوردها ابن حجة كاملة في خزانته، وأشار في مقدمتها إلى انه هاجر إلى مدينة السلام بغداد ، وجهز إلى الشريف الموسوي ، نقيب الاشراف فبها هدبه مع مملوكه تنر ، فقبل الهدية ، واستحسن المملوك ، وادخله في جملة الهدية ، وقصد ان يعوضه بأضعافه ، فثارت ثورة الساعر ، وكتب اليه على الفور قصيدته التترية المذكورة ، وفيها يعاتبه ، ويعلن انه سيترك مذهبه الشيعي كما ذكرنا في مكانه من هذا البحث، وقد استهلها يتغزل بغلامه تتر :

عذَّبْتَ قلبي يا تَتَرْ — وأطرْتَ نومي بالفِكَرْ
هذا الشريفُ أضلّني — بعد الهداية والنَّظَرْ
فاخشَ الإلهَ بسوءِ فعـ — لِكَ واحتذرْ كلَّ الحَذَرْ
رَدَّ الغلامَ وما استمـ — رَّ على الجحود ولا أصرْ
وأثابني وجزيته — شكراً ، وقال : لقد صبرْ (١)

اما معاصره ابن القيسراني فقد عرف عنه انه تغزل بغلام يهودي صيرفي(٢) وغلام قد التحى(٣) ، فمن ذلك قوله :

في بني الأسباطِ ظبيٌ — مالكٌ رِقَّ الأسودِ
صيرفيٌّ في غرامي — في صُروف ونقودِ
أنا في الدِّينِ حنيفـ — يٌّ وفي الحبِّ يهودي(٤)

---

(١) ابن حجه : الخزانه ، ص ١٤٦ ــ ١٤٨ .
(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ١٤٥ .
(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٤٥ .
(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٤٠ ، ١٤١ .

وعرف عن ابن قسيم أنه تغزل بغلام مجدور[١] وفي آخر مغرى بالبدال[٢]، كما عرف عن ابن عنين أنه تغزل بغلام أسود[٣]، وفتى من الاتراك[٤] وغلام هندي[٥]. أما ابن الساعاتي فقد تغزل بغلام ساق، أبصره عند أحد الرؤساء وبيده مبخرة. فكان كل نديم يتناول منه كأسه، وهو يحييه بالبخور:

وساقٍ طِلاً قاسٍ عليَّ فؤادُهُ ... فما شئتَ مِنْ منعٍ لديه ومِنْ منحِ
ولو لم تكنْ قوتَ النفوسِ صفاتُهُ ... لما جمعَتْ بين الحلاوةِ والملحِ
إذا ما حبا ربَّ النديِّ بكأسِهِ ... وريّاهُ فانظرْ ما يجلّ عن الشرحِ
إلى النَّجمِ يسقي الشمسَ بدرٌ سماؤه ... سحابُ بخورٍ في إناءٍ من الصبْحِ[٦]

ولم يتورع الشاعر المذكور عن التغزل بصبي متعبد كان يجلس في جامع دمشق، وعليه ثوب واسطي ملون، فقال فيه:

وغزالٍ لاحَ في حلّةٍ ... جمعتْ مِنْ كلِّ لونٍ مقترحْ
أشرقتْ ألوانها منْ وجهِهِ ... فهو مثلُ الشمسِ في قوسِ قُزَحْ[٧]

أغرب بعض الشعراء في هذا الباب، حتى ان الشاب الظريف تغزل بمليح قلندريّ صوفي[٨]، وبغلام بدوي، قال فيه:

بدويٌّ كم جدّلتْ مقلتاه ... عاشقاً في مقاتِلِ الفرسانِ
ذو محيا يصيحُ: يا لهلالٍ ... ولحاظٍ تقولُ: يالسنانِ[٩]

---

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٤٣٧.
(٢) المصدر السابق، ج ١ ص ٤٦٧.
(٣) ديوان ابن عنين، ص ١١٢.
(٤) المصدر السابق، ص ١٠٨.
(٥) المصدر السابق، ص ١٠٨.
(٦) ديوان ابن الساعاتي، ج ٢ ص ٩٠.
(٧) المصدر السابق، ج ١ ص ٢١.
(٨) ديوان الشاب الظريف، ص ٢١.
(٩) ابن حجة: الخزانة، ص ٢٧٣.

نقف أخيراً عند شرف الدين الانصاري ، فنذكر غزله بمسمع مغن رومي اسمه موزون ، وقد أشار من خلاله إلى أسماء سور من القرآن الكريم بلغ عددها اثنتي عشرة سورة :

روحي فداؤكَ ياموزونُ منْ «قمرٍ» تهتكي فيه معدودٌ من الفُرصِ
ظبيٌ من «الروم»نسجُ«العنكبوتِ»له عهدٌ، فكم «زمرٍ» قد ساق في غُصصِ
اظللْتَ «احزابنا» «ياسين» غرّتهِ فاعجبْ لمقتبسٍ «للنورِ» مقتنصِ
سبحانمورثه منْ حسنِ«يوسف»ما لم يبقَ في«الحجر»لي والصبر من حصص
أقامَ «للشعراءِ» العذرَ عارضُه فكم له فيدبيبِ«النمل»من قصصِ(١)

أشفق والد الشاعر على ابنه من عبثه في القريض بسور القرآن ، فطلب منه أن يبادر الى التوبة كما روى اليونيني:

« قال الشيخ شرف الدين ، رحمه الله ، وانشدت والدي الابيات فاستحسنها وقال بديهاً :

بادرْ إلى «توبةٍ» عنه تنيلكَ مِنْ ذي الطول في«الحشر»أجراًغير منتقص(٢)

هكذا تشفع والده له ، ولكنه كان مثله أسير الصنعة البديعة فاستخدم سورتي التوبة والحشر .

ويقول في مكان آخر من ديوانه :

ملَكْتُ رِقّي غلاماً به سلوتُ الغلامهْ
عاملتُ فيه عذولي بالكيدِ لا بالكرامهْ (٣)

تلك هي صورة من الغزل المذكر في هذا العصر ، لكنها لا تعبر تماما عن الواقع ، اذ ان الغزل المذكور لم يكن في معظم الاحيان الا تقليدا للمحدثين السابقين من الشعراء، فغزل السرف الانصاري شيخ الشيوخ المعروف بجلالة قدره ورفعة منزلته هو من باب العبث البريء ،وهو ضرب من التصنع

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٤٥ ، والديوان ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .
(٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان و ١٢٢ .
(٣) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٧٧ ، والديوان ص ٤٥٢ .

ألبديعي لاظهار الحذق ، ذلك ان طبيعة الشعر العربى ، ونظريــة التقليد في الاخذ استدعت وجود مثل هذه الظاهره واستمرارها في هذا العصر .

وصحيح أنه وجد شعراء ماجنون كابن منير ، وعرقلة ، وابن دفنر خوان وغيرهم ، خرجوا عن الجادة المستقيمة في حياتهم ، بيد أن معظمهم كانوا — كما يقول ابن رشيق — يسلكون هــذا السبيل جريا على سنــة المحدثين والمولدين من الشعراء تقليدا لا اعتقادا .



(٤)
الخمريات والمجون

كانت الحياة الاجتماعية سبب شرب الخمر ، اذ كان منتشرا على نطاق واسع في هذا العصر بين سائر الطبقات . وكان الناس يشربونها جهرا دون خوف ، فلا غرابة ان رأينا الشعراء يتغنون بذكر الخمر ، ويصفونها وصفا رائعا ، سواء في ذلك شاربوها أو واصفوها ولا غرابة ان رأينا في اللغة العربية أكثر من مائة لفظة مطلقة على الخمر من أسماء أو نعوت نابت مناب الاسماء . كما كان لطبيعة الشام بشكل عام ، وكثرة الأديار والحانات والمنتزهات ، أثر كبير ساعد على شرب الخمر بالاضافة الى الحشيش في خلوات خاصة بعيدا عن أعين المتزمتين من رجال الدين وغيرهم . أما غير المتزمتين منهم فانهم يجدون في حديث الخمر والمجون موضوعا مستطرفاً . كتب بعضهم الى القاضي محمد بن عبد الرحمن بن قريعة البغدادي فتيا ، وهي : « ما يقول مولانا القاضي ــ أيده الله تعالى ــ في رجل سمّى ولده (مُداماً) وكنّاه (أبا الندامى) وسمّى ابنته (الرّاح)،وكنّاها (أم الأفراح)، وسمّى عبده (الشراب)، وكنّاه (أبا الإطراب) ،وسمّى وليدته (القهوة) ، وكنّاها (أم النشوة) ،أينهى عن بطالته ، أم يؤدب على خلاعته ؟ ! » .

فكتب في الجواب : « لو بعث هذا لأبي حنيفة ، لجعله خليفة ، ولعقد له رايه ، وقاتل من تحتها من خالف رايه ، ولو علمنا مكانه ، لقبّلنا أركانه ، فان أتبع هذه الاسماء أفعالا ، وهذه الكنى استعمالا ، علمنا انه قد أحيا دولة المجون ، وأقام لواء ابنة الزّرّجون ، فبايعناه ، وشايعناه ، وان تكن أسماء سمّاها ، ماله بها من سلطان خلعنا طاعته ، وفرّقنا جماعته ، فنحن الى امام فعّال ، أحوج منا الى امام قوّال »(١) .

هذه هي قصة قضاتهم وفقهائهم وموقفهم من المدمنين من شعرائهم

---

(١) النواجي حلبة الكميت ، ص ١٠ .

وأدبائهم ، ولا غرابة ان رأينا بعض السلاطين يفرض عقوبة الموت على من يوجد في حال السكر .

لقد كان لاهل الذمة من اليهود والنصارى أثر في رواج الخمر واقامة الحانات هذا بالاضافة الى كهوف الخمر في الاديرة .

ولقد أدخل بعض الشعراء في وصف الخمر كثيراً من المعاني والالفاظ المقتبسة من النصرانية وغيرها ، كما يتضح لنا ذلك في احدى خمريات التلعفري التي جاء فيها قوله :

عجْ حينَ تسمعُ أصواتَ النواقيسِ
مِن جانبِ الدَّيرِ تحت الليلِ بالعيسِ
وانزلْ بحانةِ يوحنا وصاحبِهِ
يوشعْ وتوما وكركرْ ثم كركيسِ
صَفَتْ فرقَّتْ وراقَتْ وهي ذاتُ سنا
تجلّ في الوصفِ عن عيبٍ وتدنيسِ
مستخبراً عن كُميتِ اللونِ صافيةٍ
قد عتّقتْها أناسٌ في النواويسِ (١)
مرّ الزّمانُ عليها فهي تخبر عن
ما كان مِنْ آدمٍ قدماً وإبليسِ
ترى الرّهابين صرعى مِنْ مهابتِها
إذا بدتْ بين شمّاس وقسيس
تتلى الأناجيلُ تعظيماً إذا حضرتْ
لها بأشرفِ تسبيحٍ وتقديسِ

---

(١) الناووس والناؤوس : مقبرة النصارى ، وهي من الالفاظ الدخيلة المعربة ، ويطلق على حجر منقور تجعل فيه جثة الميت ، ويجمع على نواويس .

لهـا أحـاديثُ ترويهـا إذا مُـزِجتْ
في كأسِهـا عـنْ سليمـان وبلقيسِ
لو ذاق منهـا غـزالُ السِّربِ مضمضـةً
لخـافَـهُ مَنْ سُطـاهـا ضيغمُ الخِيسِ
يسعى بهـا مِنْ نصارى الدّير بدرُ دُجىً
يمِيسُ في فتيـةٍ مثـلِ الطّواويسِ
فاصرفْ بها صَرفَ خطبِ الدّهرِ مُغتنماً
ما دامتِ الشمسُ معْ تلك الشمـاميسِ (١)
واحـذرْ مـلاكَ قـلالِ الدّيرِ مجتليـاً
كأسَ المـدامـةِ إلاّ فـارغَ الكيسِ (٢)

يضاف الى العاملين السابقين قيام فلسفة جديدة في هذا العصر تمتد جذورها إلى عصر أبي نواس ، وكان أربابها يعتقدون أن الحياة قصيرة المدى ، فيجب الا يضيعها الانسان سدىً ، وانما علينا أن ننهب منها كؤوس اللذات، ونروي غلتنا من أفاويق الحياة ، والا نضيعها في حزن دائم وألم مرير ، ولا سبيل لنسيان كل ذلك الا بشرب الخمر ، فهي تطرد الهموم ، وتجعل الشقاء سعادة ، والوحشة أنساً .

انتشرت هذه المدرسة الخمرية باديء الامر في بلاد العجم ، وكـان عمر الخيام رائدها الاول هناك ، وظهرت في الوقت نفسه في بلاد الشام مدرسة خمرية جديدة تنادي بالفلسفة الخيامية ذاتها . وكان رائدها عرقلة الكلبي وغيره من شعراء هذا العصر .

ولم يكن الامر ليقتصر على شرب الخمر ، فلقد انتشـر الحشيش عن

---

(١) صرف الدهر بفتح الصاد وصروفه أي نوائبه وحدثانه .

(٢) ديوان العرقلي ، ص ٢٠ ، ٢١ . استدركنـا من طبعة أخرى مما لم يرد في هذه الطبعة . والقِلال والقُلل : جمع قُلّة ، وهو الحُبّ العظيم ، وقيل : الجرّة عامة ، وقيل : الكوز الصغير ، وقيل : هو اناء للعرب كالجرّة الكبيرة .

طريق المتصوفة على نطاق واسع وأصبح موضوعا جديدا عند شعراء هذا العصـر .

سادت نتيجة لذلك حياة العبث والمجون والاباحية ، وكان الناس يغرقون في هذه الحياة جريا على سنة ملوكهم وأمرائهم وشعرائهم . وبقي علينا بعد أن عرضنا للمدرسة الخمرية التامية أن نتحدث عن مجالس الخمر ، ونلم من خلالها بذكر أحوال سقاتها وشاربيها .

مجالس الخمر

وصف الشعراء مجالس الخمر ، وتحدثوا من خلالها عن وصف الطبيعة نذكر منهم ابن الساعاتي ، وقد حضر قبيل ارتحاله مجلس خمر بالنيرب ، وحدث مطر ورعد وبرق ، فأنشد بديها :

لله يـومُ النَّيربَـينِ ووجهُـه   طَلْقٌ ونغرُ اللَّهو ثغـرٌ أشنبُ (١)
وكأنما فننُ الأراكةِ منبَـرٌ   وَهزارُها فـوقَ الذُّؤابة يخطبُ
والرَّعدُ يشدو والحيا يسقي وغصـ   ـن البانِ يرقصُ والخمائل تشربُ
وكأنّما السـاقي يطوفُ بكأسـهِ   بدرُ الدّجا في الكف منـه كوكبُ
بكرٌ بها نقـعُ الغليـلِ ومعجبٌ   نقعُ الغليـلِ بجـذوةٍ تتلهَّـبُ
يفتضُّهـا مـاءُ الغمـامِ ويالـهُ   عجباً غداةَ الدجنِ وهـو لها أبُ
حمراءُ حاربنا الصروفَ بصرفِها   فزجاجُها بـدمِ الهموم مخضبُ
والقطر نبلٌ والغدير سوابـغٌ(٢)   موضونة(٣) والبرقُ سيفٌ مذهبُ(٤)

اجتمع في هذا المجلس الخمري وصف الطبيعة والساقي والخمر ، ولم يكتف بوصف الطبيعة ، وانما أتى بصورة أخرى ، جمعت التناقض .

---

(١) اشنب : يقال شنب الرجل كان أبيض الاسنان حسنهـا ، فهو أشنب وشانب وشنب ومشنب .

(٢) السوابغ : الدروع ، مفردها سابغة ، ودرع سابغة .

(٣) موضونة : الدرع المقاربة النسج بالجواهر .

(٤) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ١٦٨ .

وتحدث الشاعر نفسه عن مجلس آخر في ندي خاص شهده مع صحبه :

يا لقلبي مِنْ نغمةِ الأوتارِ وصنوفِ الرَّيحانِ والأزهارِ
وندِّياً شهدتُهُ فلكاً تطـ ـلعُ فيه الأقداحُ مثلَ الدراري
ففراقٌ ما بينَ لهوكَ والهـ ـمِّ وجمعٌ ما بينَ ماءٍ ونارِ
وكأنَّ السُّقاةَ أقمارُ ليلٍ سائراتٌ تديرُ شمسَ نهارِ
فقدودٌ في نشوةٍ وجفونٌ في فتورٍ وأوجهٌ في احمرارِ
إن تخالفْ في أنها الشَّمسُ فانظرْ نورَها إذْ خَبَتْ على الأقمارِ (١)

نترك هذه المجالس جانبا لنتحدث عن الصهباء ، وقد أبدع ابن قسيم في وصفها :

باكرا شمسَ القنانـي تُدْرِكا كلَّ الأماني
وخُذا في لَذةِ العيـ ـشِ على رغمِ الزمانِ
مِنْ عقارٍ تبعثُ النجـ ـدةَ في قلبِ الجبانِ
قهوة البسها المز ج قميصاً من جُمانِ
فهي من أبيضَ صافٍ لاحَ في أحمرَ قانِ
كخدودِ الوردِ مِنْ تحـ ـتِ ثغورِ الأقحوانِ
عاصيا الخلقَ إذا الخلـ ـقُ عن الغيِّ نهاني
وإذا اللهُ إلى الرشـ ـدِ دعاني فدَعاني
إنما البغيةُ أن اصـ ـبحَ مخلوعَ العنانِ
ساجداً في قبلةِ الكأ سِ لتسبيحِ المثاني
حيثُ لا يعلم دهري أبداً أين مكاني (٢)

أما شرف الدين فقد تحدث عن الخمر ، واتخذها سبيلا ليتغزل بحبيبه وقد وفق كل التوفيق في الجمع بين معانى الخمر ومعاني الغزل ، وأضفى عليها من مذهبه في الانسجام والتورية ما جعلها عذبة مستساغة :

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٦٥ .
(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٤٧٦ و ٤٧٧ .

قُــمْ فاصطبِحْهــا وأرحْ سِرَّكــا ... صبَّحَــكَ اللهُ بمــــا سَرَّكـــا
وعاطنــي منهــا المـــدامَ التـــي ... أشــربُ منهـــا دائمـــاً سِرَّكـا
يا يوسفَ الحســـنِ الذي وصفُــه ... أنْ يَملِــكَ النــاسَ ولا يُمْلَكـــا
إن دَمَعَتْ عيني فمَـــنْ أجلهـــا ... بكى على حاليَ مَـــنْ لا بكـــى
أوقعنــي إنســـانُهـــا في الهــوى ... « يا أيهــا الانسانُ ما غرَّكا » ؟ (١)

سار عرقلة الكلبي في مذهبه الخمري على هدي ابن قسيم ، لكنه عاش مخلوع العذار فهو يمثل بحق الشاعر الخليع الذي أخذ من المجون والخلاعة أوفر نصيب ، وكان رائد الاباحيين في سلوكه وأسلوب حياته . فان كان السابقون يتغنون بالخمر صوفية أو تقليدا ، فانه يختلف كل الاختلاف ، إذ ثبت لدينا أنه يمثل جماعة إباحية من أرباب المدرسة الخمرية الشامية ، كانوا يسعون وراء الخمر واللذة والحياه ضاربين بالتقاليد والاعراف عرض الحائط . انها تعيش يومها وحسب ، تبحث عن السعادة ، وكل وكدها طرب وجذل تسهر حتى مطلع الفجر ، وسواء عندها ليلة الجمعة او ليلة القدر التي هي خير من الف شهر :

أدِرْ يــا طلعـــةَ البـــدرِ ... علينـــا أنجـــمَ الخمــرِ
وقطّـــع ليلَنـــا بالكـأ ... سِ حتى مطلَـــعِ الفجــرِ
علـــى فتّـــانـةِ العينيـ ... ـــنِ والخـــدينِ والثغــرِ
لَنـــا في وجههـــا قمــرٌ ... ومِن نغمـاتهـــا قُمــري
كــذا فليشربِ الصهبـــاءَ ... مثـــلي يا ذوي الشعـــرِ
كـــذا في ليــــلة الجمعـ ... ـةِ بـل في ليـــلة القــدْرِ
مــع الفتيــان في الحـــانـا ... تِ بـين الطبـــل والزمــرِ
بحيثُ ابــنُ ملكـــــداد ... وحيث ابـن أبـي الـــدّر

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٦٤ ، والديوان ص ٣٨١ .

حَريفـــــان حُرافـــان بــلا قَدَرٍ ولا قَــدْرِ (١)

تلك هي طائفة من الشعراء الخلعاء ، يمثلها عرقلة ، إذ إنها عاشت حياته ، وجدير بالذكر أن الخلاعة لم تكن إلا نمطاً خاصاً من الحياة وتعبيراً عن فلسفة إباحية قائمة بداتها . أشار عرقلة في مستهل إحدى خمرياته الى هذه الفلسفة بقوله :

نديمي قم فقـد صفتِ العُقــارُ وقـد غَنَّى عـلى الأيـك الهـزارُ
إلى كم ذا التواني في الامـــاني ؟ أفِقْ مـا العمــرُ إلا مستعار (٢)

كما دعا التلعفري نديمه الى الأمر نفسه ، وتعجب من توانيه عن اللهـو إذ يرى أن الخمر ذات معنى لا يدركه العقل :

يا نديمي ، كم ذا التَّواني عن اللهـ ـورِ ، وهذي المـدامُ والاوتـارُ
فاصرِف الهمَّ ، إنْ ألمَّ بِصرْفٍ (٣) ذات معنى ، فيهـا العقول تحارُ
واغتنمْها مِن كفِّ ظبيـةِ خِـدْرٍ في يديهـا منْ صِبْغهـا آثارُ (٤)

صور الشاعر عرقلة في فلسفته انقضاء الايام ، وتقلب الفصول وتعاقب الايام ، والناس في شغل عن بهجة الحياة :

خرفَ الخريفُ ، وأنت في شغل عـن بهجـةِ الايـام والحقبِ
أوراقـهُ صفـرٌ وقهوتنــا صفراءُ مثل الشمسِ في لهبِ (١)

كما دعا ابن الساعاتي الى انتهـاب اللذات :

وقم ننهبِ اللذّاتِ قبلَ فواتِهـا فانّك عُمْرٌ لم تذُقْ لذّة النهب

---

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٢٠٦ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٠٤ .
(٣) الصرف : بكسر الصاد الخالص من كل شيء ، وشراب صرف أي محض غير ممزوج.
(٤) ديوان التلعفري ، ص ١٥ .
(٥) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٨٥ .

فيانعمة الحسنى بوجهِ مديرها   وإن كان صَرْفُ الدهر بالغ في الذنب(١)

استمرت هذه المدرسة الاباحية في فلسفتها الخاصة طوال القرن السابع، وقد اغرقت في عبثها ومجونها ، وكانت ترى أن دواعي اللذات توجد في اربعة أشياء ، أشار اليها التلعفري بقوله :

تلك الجنانُ التي حيث التفتّ ترى   قصراً مشيداً به حورٌ وولدانُ
تدعوك فيه إلى اللذات أربعةٌ   بيع الحياةِ بها ما فيه خسران
ظلٌ ظليلٌ ، وماءٌ باردٌ غَدَقٌ   وجوسقٌ مشرفٌ عالٍ وبستانُ (٢)

ولم تكن لتقصر على جماعة معينة من الشعراء وانما غدت موضوعاً مستطرفاً يتسابق فيه الشاعر الخليع كعرقلة والتلعفري ، والشاعر الرزين كابن قسيم والشرف الانصاري ، ذلك لان التقليد وطرق سائر الابواب الشعرية كانا أهم العوامل في هذا الاتجاه . يضاف الى ذلك أن المتصوفة من الشعراء وغيرهم كانوا يتخذونها سبيلا في شعرهم ليحلقوا بنشوتها في آفاقهم العليا ، وقد ظهر لنا هذا الاتجاه في شعر ابن عربي وموشحاته كما سنرى ذلك .

تلك هي المدرسة الخمرية الشامية ، بدت طلائعها في شعر ابن قسيم ، وقد توفي بعد عمر الخيام بربع قرن من الزمن ، وبلغت ذروتها في شعر عرقلة الكلبي وابن الساعاتي والتلعفري وغيرهم ، وبذلك نستطيع القول ان هذه المدرسة الخمرية تابعت خطا المدرسة الخيامية التي ظهرت في فارس .

نشير اخيرا الى أن المجون اصبح بتطور الزمن غرضاً خاصاً قائماً بذاته، فاستقل عن سائر الاغراض الاخرى ، وأصبحنا نجد في نعت الخمر قصائد خاصة بها ، وحتى صرنا نجد في الدواوين الشعرية أبواباً في الخمريات .

---

(١) ديوان ابن الساعاتي ، ج ١ ص ١٤٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٠٤. وجوسق : هو القصر أو الحصن، أو هو شبيه بالحصن، وهو معرب عن الفارسية وأصله « كوشك » .

ذكر أن الاسعردي (١) الشاعر أفرد من خمرياته وهزلياته ديواناً خاصاً أسماه « سلافة الزرجون في الخلاعة والمجون » (٢) .

هكذا نرى المدرسة الشامية طبعت فيما بعد بطابع الخلاعة والمجون كما يظهر لنا ذلك في إحدى خمريات الشاب الظريف :

ناوليني الكأسَ في الصُبْحِ ... ثم غنـي على قـدحِ
واديري شمسَ وجهكِ لي ... فضياءُ الشمس لم يَلُحَ
واشغلي كفَّيْكِ في وترِ ... لا تُهدّيها إلى السُبَحِ (٣)
وإذا أطْربتِني وبدا ... نانسائي حالُ مُفتضحي
عانقيني باليدين كما ... يفعلُ الأحبابُ مِنْ فَرحِ
وإذا عانقتُ مِنْ طربِ ... غصنَ قدّ منكِ متَّشِحِ
فضَعي أزرارَ طَوْقكِ عن ... صدرك الفتّانِ بالمُلَحِ
ثم روحي بالأمانِ فَمِنْـ ... ـلي بسرّ قطُّ لم يَبُحِ (٤)

تلك الخمرية الغزلية الماجنة تصور لنا نمطاً من الحياة في هذا العصر وتوضح لنا انتشار الغناء والطرب بشكل واسع جداً ، وما أكثر ما تحدث الشعراء عن المغنين والمغنيات ، والمسمعين والمسمعات . كما نلاحظ أن الشاعر يدعو حبيبته لترك السبح ، وتشغل أناملها بالأوتار . وكأنما كان يشفق على حبيبته من عدوى التصوف الذي انتشر بين نساء العصر ، وقد مر معنا في شعر شرف الدين الانصاري تعريضه ببنت الحمصية المتصوفة الحسناء .

تلك هي صورة صادقة عن المدرسة الخمرية الشامية ، ونخلص مما تقدم معنا من شعر شعرائها إلى القول : إن كل وكدها من الوجود خمر وامرأة ومجون وطرب .

---

(١) نور الدين ، أبو بكر ، محمد بن محمد بن عبد العزيز بن عبد الصمد بن رستم الاسعردي ، ولد سنة ٦١٩ هـ ، وكان من ندماء الملك الناصر صاحب حلب ، وأحد شعرائه المقربين ، وله به اختصاص ، وكان شابا خليعا مستهترا غلب على شعره العبث والمجون ، وقد توفي سنة ٦٥٦ هـ . وللشاعر ديوان منه نسخة مخطوطة خزائنيه ، وهي في ١٤٧ ورقة ، وفي معهد المخطوطات بالقاهرة نسخة مصورة رقم ٣٩٩ .

(٢) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ٦٩ .

(٣) السبح : جمع سبحة ، وهي خرزات منظومة في سلك .

(٤) ديوان الشاب الظريف ، ص ٢٤ .

(٥)

المطارحات والشتويات

تحدثنا عن بعض أنواع المطارحات الوجدانية والرسائل الاخوانية خلال تراجم الشعراء ، نشير منها إلى ما كان بين اسامه وابنه وابيه ، وبين ابن قسيم وابن منير ، وبين شرف الدين الانصاري وابيه . ويظهر أن المطارحات بين الشعراء وآبائهم غدت مظهراً معروفا في شعر هذا العصر ، إذ إن ظهور اسرات ورثت الادب كابراً عن كابر كان أمراً معروفا بكثرة . ولعل هذا التطور الجديد كان عاملا من عوامل ازدهار المطارحات الوجدانية بين أفراد الاسرة نفسها . نذكر من ذلك القصيده الفريدة التي كتب بها الشاب الظريف إلى ابيه وجاء فيها قوله :

أبداً بذكركَ تنقضي أوقاتي ... مابين سمّاري وفي خلَواتي
يا واحد الحسنِ البديع لذاتِه ... أنا واحدُ الأحزان فيك لذاتي
وبحبّكَ اشتغلتْ حواسي مثلما ... بجمالكَ امتلأتْ جميعُ جهاتي
حسبي مِنَ اللّذات فيك صبابةٌ ... عندي اشتغلتُ بها عن اللّذاتِ
ورضايَ انكَ فاعلٌ برضاكَ ما ... تختارُ مِنْ محوي ومَنْ إثباتي
يا حاضراً غابتْ به عشاقُه ... عن كلّ ماضٍ في الزّمانِ وآتِ
حاسبتُ انفاسي فلم أرَ واحداً ... منها خلا وقتاً مِنَ الأوقاتِ
ومدلهينَ حجبتَ عنك قلوبَهمْ ... فهمُ من الأحياءِ كالأمواتِ
لمّا بكَوا وضحكتُ انكر بعضهمْ ... شأني ، وقالوا : الوجدُ بالعبَراتِ
فأظنُّهم ظنّوا طريقكَ واحداً ... ونسَوا بأنكَ جامعُ الأشتاتِ
يا قطرُ عمّ دمشقَ واخصص منزلاً ... في قاسيونَ (١) وحلّه بنباتِ
وترنّمي يا وُرقُ فيه وياصَبا ... مرّي عليهِ بأطيبِ النّفحاتِ

---

(١) قاسيون : يقول ياقوت : « الجبل المشرف على مدينة دمشق ، وفيه عدة مغاور وفيها آثار الأنبياء وكهوف ، وفي سفحه مقبرة أهل الصلاح ، وهو جبل معظم مقدس يُروى فيه آثار ، وللصالحين فيه أخبار ... وبه مغارة تعرف بمغارة الدم ، يقال بها قتل قابيل أخاه هابيل . وهناك شبيه بالدم يزعمون أنه دم باقٍ الى الآن وهو يابس ، وحجر مُلْقىً يزعمون أنه الحجر الذي فلق به هامته ، وفيه مغارة الجوع يزعمون أنه مات بها أربعون نبياً » معجم البلدان ، ج ٤ ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

فيه الرِّضا، فيه الهوى، فيه الهُدى   فيــه أصــول سعــادتي وحيــاتي
فيه الذي كشف العمى عن ناظري   وجــلا شموسَ الحقِّ في مــرآتــي
فيه الأبُ البرُّ الشفوقُ فدينُـــهُ   من ســائر الأســواءِ والآفــاتِ
كفٌ تمــدُّ بجــودِهِ نحــوي وآ   خرُ للسَّمــاءِ بســائر الدَّعــواتِ
وإذا جنيتُ بسيئاتي عدَّهـــا   كرمــاً وإحســاناً من الحسنـــاتِ
وإذا وَقَيْتُ بوجنتــيَّ نعــالَــهُ   عدَّيْتُ تقصــيري من الزلاَّتِ (١)
أبى وإن جلَّ النــداءُ وقلَّ مقـ   ـداري فــداءُ العبــدِ للســاداتِ
اني التفتُ رأيت منــك محاسنــاً   إنْ مِلْتُ نشــواناً فهــنَّ سُقاتي
وأرى الوجودَ بأسره رجَعَ الصَّدى   وأرى وجودكَ منشــأ الأصــواتِ
فعليكَ منكَ مع الأصائلِ والضُّحا   تُتلــى أجــلُّ تحيـــةٍ وصلاةٍ (٢)

يلاحظ في هــذه القصيدة التي قل أن يوجد لها نظير في رقتها وعاطفتها الصادقة بعض التعابير الصوفية الخاصة ، ولا نغالي ان قلنا إنها مطبوعة بطابع صوفي أسلوباً ومعنى . ويلاحظ بالاضافة الى ذلك ما فيها من سهولة في التعبير وبعد عن التصنع البديعي ، إذ ان الشاعر كان أحد رواد مذهب الانسجام والنورية ومن أتباع الشرف الانصاري راس هذه المدرسة البديعية . والطريف أنه استهل نظمه الشعر بمدح أبيه ، وهو بعد لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره . ذكر اليونيني أنه سأل والده عن عمره ، فأطلعه عليه مكتوباً في زاوية خاصة من أحد كتبه ، فانصرف الى حجرته الخاصة التي كان يخلو فيها بنفسه ، فنظم ببتين على الفور كتب بهما إليه :

ياربِّ ، قد أوجدْتَ قبــلي أبــي   في هــذه الدنيــا بعشــرينـــا
فاجعــله بعــدي باقيــاً مثلهـــا   وارحــمْ مُحبــاً ، قال : آمينــا

فأجابه في الحال ، وكتب إليــه :

لا ، بــل أمــوتُ ، وتحيـــــا   في غبطـــةٍ خــيرَ محيـــا
حتــى تصــرِّف صِرْفَ الــــز   مـــانِ أمــــراً ونهيـــا (٣)

---

(١) أخطأ الشاعر في قوله (عديت) وصوابها (عددت) ، ولكن لا يستقيم الوزن ، وهذا بسبب ارتكاب هذه الصرورة القبيحة .

(٢) ديوان الشاب الظريف ، ص ٢٣ .

(٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان (مخطوط) ورقة ١٤١ .

يضاف الى ماتقدم ظهور الشتويات الشعرية ، وهي قصائد إخوانية وجدانية ، يتبادلها الشعراء للتسلية خلال أيام الشتاء الطويلة في بلاد الشام من ذلك ما كتبه العماد الكاتب إلى الامام شرف الدين أبى سعد عبد الله بن أبي عصرون قائلا :

أيا شرفَ الدينِ إن الشتا بكافاتِه كفَّ آفاتِه
وكفك من كرمٍ كافها لقد كفلتْ لي بكافاتِه
وإنك منْ عرْفِه شكرنا غدا عاجزاً عن مكافاتِه

فكتب إليه شرف الدين في جوابها :

إذا ما الشتاءُ وأمطارُه عن الخير حابسةٌ رادعَه
فكافاتُه الستُ أعطينها وحوشيتِ منْ كافِه السابعهْ
وكفُ المهابة والاحتشا مِ لكفي عن برِّه مانعهْ
وهمَّة كلٍّ كريم النجا رِ بميسور أحبابه قانعهْ
ونفسي في بسطِ عذري إليـ ـهِ جُعلتْ الفداءَ له طامعه
وشوقي إلى قربه زائدٌ ومعذرتي ــ إن جفا ــ واسعَهْ

لم يكتف العماد بالوقوف عند هذا الحد من هذه المطارحات الشتوية وانما كتب الى شرف الدين جواب جوابه :

أيا منْ له همةٌ في العُلا لِذُروتِها أبداً فارعهْ
ومن كفّه ديمةٌ ما تزا لُ بالعرفِ هاميةٌ هامعهْ
وللفضلِ في سوقِ أفضالهِ بضائعُ نافقةٌ نافعَهْ
وهل كابنِ عصرون في عصرنا إمامٌ أدلّتُه قاطعَهْ
فحِبرٌ فوائِدُهُ جمّةٌ وبحرٌ مواردُهُ واسعَهْ
أيا شرفَ الدينِ شرّفتني بإهداءِ رائعةٍ رائعَهْ

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٤٩ ، ١٥٠ .

أطعتُ أوامــــركَ الساميـا ت ، وما برحَتْ همتي طائعَه
أرى كـلّ جارحـــة لـي تو دُ لو انهـا أذنٌ ســـامعه
وأمـا الشتـــاءُ وكافاتـــه وكفـك عن كافـه الرابعَـه
فنفسي منزهَــــةٌ بالعفـا فِ عنهـا وفي غيرهـا طامعَه
وماذا تُطيـقَ إذا لم تكـنْ بميسورِ سيّـدنا قانعَـهْ (١)

ومن الاخوانيات أيضاً ما كتبه نشو الدولة احمد بن نفاذة إلى العمـاد الكاتب يدعوه الى دمشق في فصل الربيع ، وقد دخل أوان المشمش ، فعرض العماد قصيدته على السلطان صلاح الدين ، وطلب أن يسمعه جوابها ، فلما أنشده قصيدته انتقد تشبيهه الورق باللجين ، اذ انه غـير موافق لأن الورق أخضر (١) .

تلك هي لمحات من بعض ما وقفنا عليه من المطارحات الوجدانيـة ، والقصائد الاخوانية ، والشتويات الشامية ، وهي صورة من الشعورالانساني النبيل ، وهي في الحقيقة الشعر النابع من اعماق النفس ، لا سعياً وراء مغنم ، ولا رغبة في عطاء أو منزلة أو الحصول على جاه وسلطان .

* * *

---

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٠٩ ، ٥١٠ .

(٦)

أغـــراض مختلفـــة

يبقى علينا بعد ان عرضنا لابرز الاغراض الشعرية التى تناولها شعراء هذا العصر ان نشير الى اغراض شتى ، اهمها الاحاجي والالغاز والهجاء والرثـــاء .

الاحاجي والالغاز

أما الالغاز فلم يسلم منها شاعر ، ولم يخل منها ديوان ، وقد تحـدث عنها ابن رشيق في عمدته فذكر أن « من أخفى الاشارات وابعدها اللغز ، وهـو أن يكون للكلام ظاهر عجب لا يمكـن ، وباطن ممكن غير عجب » (١) ؛ واشار بعد ذلك الى ايضاح سبب التسمية ، فذكر أن اشتقاق لفظه من ألغز اليربوع ولغز ، وذلك اذا حفـر لنفسه مستقيماً ، ثم أخـذ يمنة ويسرة . يورى بذلك ، ويعمي على طالبه . اشتهر بعض الشعراء بفن الالغاز ، نذكر منهم ابن عنين ، وقد أفرد له جامع ديوانه باباً كبيراً ، وهو الباب السادس، والمعروف عنه أنه كان يطارح بها الندماء والادباء في مجالس سمر الملك المعظم ، كما كان الناس يكتبون اليه ، فيجيبهم على ماسألوه من حل الالغاز شعراً ، ولهذا كان باب الالغاز أكبر أبواب ديوانه .

ونذكر من هؤلاء الشعراء الشرف الانصاري ، وكان يطارح بها أباه ، وقد ذكر أنه كان يكتب إليه ما يريد حله ، فيجيبه أبوه على ما سأل والحبر لم يجف بعـد . كتب إليه مرة :

---

(١) ابن رشيق : العمدة : ج ٢ ص ٣٠٧ .

ما قائمٌ في المخرجِ يذهبُ طوراً ويجي
لستَ تخافُ شرَّه ما كان غير مُرْتَجِ

فكتب أبوه على ظهر الورقة نفسها : « ذهاب ومجيء ، وخوف وشر ، هذا باب من الخصومة ، ولو قلت : لست تخاف منعه ، كان أجود واليق ، وخيراً من الشر وأصدق » (١) .

نظم بعض شعراء هذا العصر قصائد خاصة في اللغز ، يحسن أن ندعوها « ذوات الالغاز » نذكر منها لغزية ابن الساعاتي ، وقد استهلها بقوله :

لقد اصبحتَ في سلطانِ ملكٍ مجيدٍ ليس يُوصفُ بالقياسِ (٢)

لا حظنا في هذه اللغزية أنه لا يخلو بيت من أبياتها من لغز إلا في النادر .

نذكر أخيراً أن مصورة مخطوطه ديوان الملك الناصر تحتوي على باب في اللغز ، وهو الباب العاسر من الديوان المذكور (٣) .

الهجاء

يبقى علينا ان نعرض بشكل مجمل لبعض الاغراض الاخرى المعروفة في هذا العصر كالهجاء والرثاء .

أما الهجاء فقد عرفنا صوراً كثيرة من مظاهره ، نذكر من ذلك مثلا ابن منير الذي لم ينج أحد من هجائه ممن كان على صلة بهم ، ورأينا كيف أهدر دمه وهرب من دمشق . ونذكر ابن عنين ، وكنا قد تحدثنا عن هجائه

(١) اليونيني : ذيل مرآه الرمان (مخطوط) و ١٣٢ .
(٢) ديوان ابن الساعاتي ، ج ١ ص ٢٣٤ .
(٤) مصورة محطوطه ديوان الملك داود المسمى « الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية » ، جمعه ابنه ، وقدم لحياة والده ، وذكر نسبه ، وأورد نثره من أول الكتاب حتى اللوحة ١٢٢ ، وانتقل الى الشعر وقسمه الى عشرة أبواب : الباب الاول في الالهيات =
= والزهديات ، والباب الثاني في المديح وفيه الحماسة والفخر ، والباب الثالث في عتاب الاصحاب والاستنصار عليهم بالله ، والباب الرابع في المراثي ، والباب الخامس في الشوق الى الاخوان والحنين الى الاوطان ، والباب السادس في النسيب ، والباب السابع في الغزل ، والباب الثامن في الخمريات والباب التاسع في الطرديات ، والباب العاشر في اللغز .

المقذع . ووقفنا عند هجائيته المشهورة « مقراض الاعراض » ، وهي القصيدة التي انتشرت بين الناس انتشاراً كبيراً ، ولم يتورع الشاعر فيها عن هجاء سروات الناس وأشرافهم وقضاتهم وعلمائهم وسلاطينهم ، وقد أوردنا نماذج من ذلك في شعر ابن عنين وغيره ، ورأينا أن ذلك كان صورة عن انعكاسات المجتمع ، وهذا يدلنا على أن الشعر كان ونبقة اجتماعية صورت لنا الحياة الاقتصادية في مختلف صورها ومظاهرها كماتوضح لنا في الفصل السابق .

يضاف الى ما ذكر ظهور نوع من النقائض الشعرية بين الشاعر المار ذكره ابن منير ومعاصره ابن القيسراني ، وكنا ذكرنا أن معاصريهما شبهوهما بجرير العصر وفرزدقه ، ولم يفرق بينهما الا الموت حينما دهمهما في عام واحد .

الرثـــاء

وأما الرثاء فكان كالهجاء لا نجد فيه جديداً يستحق الوقوف عنده طويلا ، إذ انه تقليدي بحت ، اللهم إلا ما لاحظناه عند أسامة بن منقذ في رثاء أهله ، وبكاء موطنه شيزر بعد أن عبثت بها الزلازل التي لم تبق أحدا من آله وعشيرته ، وكانت سبباً في تأليفه كتابه المشهور « المنازل والديار » ، وقد رأينا ذلك في حديثنا عن آثاره الادبية . يضاف الى ما ذكر ظهور فن رثاء المدن والثغور الساقطة في أيدي الفرنجة ، ورثاء أبطال الحروب الصليبية وتمجيدهم وإستثاره المسلمين من ورائهم لنصرة دين الله .وقد وقفنا عند هذا الغرض خلال بحث الملاحم والاحداث .

ننتهي مما تقدم معنا من بحث لنؤكد أن شعراء العصر نظموا في أغراض الشعر المختلفة ، وفنونه التقليدية المعروفة ، وقد لاحظنا أنهم كانوايتعبدون أحياناً معاني القدماء وصورهم ، وكانوا أحياناً أخرى يبرزونها في إطار جديد ولدته في انفسهم أحداث العصر الكبرى ، وتطورات الحياة الاجتماعيه في مختلف مظاهرها العامة ، وسوف نرى أن الشعراء كانوا أكثر جرأة في تخطي المأثور ، وفي الثورة على المعانى التقليدية والاساليب المتبعة في حديثنا المقبل عن الفنون الشعرية المستحدثة في هذا العصر .

القسم الثالث

الفنون الشعرية المستحدثة

شهد هذا العصر تطوراً كبيراً في مجرى الحياة الأدبية ، فثمة تيار أدبي تقليدي موروث استمد أصوله من التراث العربي الصميم ،وسار فيه الشعراء على هدي من سبقهم ، فنهجوا نهجهم ، وأضافوا إليه ما استجدوه من المعاني المولدة التي اقتضتها حياتهم وضرورات عصرهم .

وثمة تيار أدبي آخر استمد أصوله من المشرق والمغرب على السواء ، بالاضافة الى المصادر المحلية المؤثرة . أما المشرق فأمره معروف ، إذ إن بغداد كانت حاضرة العالم الاسلامي ومركز الخلافة العباسية ، وكانت قبلة العلماء ومهوى الفئات الاعجمية من سائر الأمصار . وأما المغرب فأمره هام ، فإن كانت « بضاعتنا ردت الينا » كما قال ابن عباد عندما اطلع على العقد الفريد ، فمما لا شك فيه أن هذه البضاعة النفلبدية حملت الينا مع أصحابها بعض هذه الفنون الشعرية ، واطلعت المشارقة على انماط واساليب جديدة في التعبير .

لقي هذا الاتجاه مقاومة عنيفة في صراعه مع اللغة الفصحى ، واهمله المؤلفون القدماء ، لانه خرج عن طوق الأساليب الفصيحة الموروثة، وقد وضح هذا الامر الهام صاحب المعجب في حديثه عن ابن زهر بعد أن تمثل ببعض شعره فقال : « وأما الموشحات خاصة فهو الامام المقدم فيها وطريقته هي

الغاية القصوى التي يجري كل من بعده اليها ، هو آخر المجيدين في صناعتها، ولولا أن العادة لم تجر بإيراد الموشحات في الكتب المجلدة والمخلدة لأوردت له بعض ما بقي على خاطري من ذلك »[1] .

وصلتنا الموشحات وغيرها من الفنون الشعرية من المشرق والمغرب على السواء فمن المشرق جاءنا الرباعي والمواليا ، ومن المغرب جاءنا الموشحات والأزجال ، وهذه الفنون الاربعة التي اشرنا اليها هي أهم ما انتشر في بلاد الشام وغيرها في هذا العصر .

* * *

---

(١) التميمي : المعجب ، ص ٥٦ .

(١)
الموشحات المشرقية

ظهرت الموشحات في الاندلس في أواخر القرن الثالث الهجري ، وقد ذكر ابن بسام أن « أول من صنع أوزان هذه الموشحات بأفقنا واخترع طريقتها فيما بلغنى محمود بن حمود القبري الضرير (١) ، وكان يصنعها على أشطار الاشعار ، غير أن اكثرها على الاعاريض المستعملة . يأخذ اللفظ العامي أو العجمي ويسميه المركز، ويضع عليه الموشحة دون تضمين فيها، ولا أغصان» (٢) .

تباينت الآراء حول نشأة الموشح « فيذهب البعض الى أن أصل الموشح أندلسي محلي . ويذهب البعض الآخر أنه الى جليقي ، ويذهب نفر ثالث الى أن أصله البعيد روماني (Romanica) ، بل قال بعضهم : إن الموشحات أتت الاندلس من بغداد وان أصلها يلتمس في الرباعيات العربية الفارسية ، وأخيراً حاول ميلياس فيلكروسا (Milios Vilicrosa) أن يجد علاقة ما بين الموشحة والزجل من ناحية والفن الشعري العبري المعروف بالبزمون (Pizmon) والسبيحات اللاتينية التي يرددها جمهور المصلين عقب كل فقرة من فقرات

---

(١) رجح أستاذى الدكتور عبد العزيز الأهواني اسم « محمود » كما جاء في بعض نسخ الذخيرة ، وكما أيده نقل ابن خاتمة في أزهار الرياض (ج ٢ ص ٢٥٢) .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ، ق ١ ، ج ١ ص ٢٢١ .

وهم آنخل في كتابه « تاريخ الفكر الأندلسي » ص ١٥٣ « فذكر نص ابن بسام المذكور وأورد فيه اسم مقدم بن معافى ، ولعله أراد أن يصوب النص كما أورده ابن خلدون في مقدمته التي ذكر فيها أن المذكور أول من اخترعها . ولوحظ أيضاً أن الدكتور جوده الركابي في كتابه « تاريخ الأدب الاندلسي » حاول التوفيق بين رواية ابن بسام ورواية ابن خلدون ، فذكر أن تحريفاً قد طرأ على الاسم الثاني ، وحولت كلمة « القبري » الى « الفريرى » واعتقد أن مقدم بن معافر هو نفسه حمود القبري ، لكن التحريف في النسبة لا يكفي وحده لمثل هذا الاعتقاد الجازم في تشابه الاسمين .

الترتيل الديني (Respons Aria Latino) ، وهي في الغالب آيات من الكتاب المقدس (١) » .

اثبتت الدراسات القيمة التي قام بها أستاذي الدكتور عبد العزيز الأهواني بما لا يدع مجالا لأي شك أن ظهورها كان متصلا بالغناء ، مرتبطا بالاغاني الشعبية(٢) . وفي معرض ذكره الاغاني الشعبية تحدث عنها بالتفصيل ، وذكر أنها قديمة العهد ، وأن الحاه الاجتماعية بمناسباتها المرحه والمحزنة ، قد حتمت العبير الجمالي الذي يستعين بالآلة الموسيقية وبالتنغيم اللفظي ، فاصطنع فن بجمع بين هذين الجانبين .الموسيقى واللغة هو ما نصطلح على تسميته بالاغنية الشعبية (٣) .

والمعروف انه نشأت في الاندلس نهضة غنائية سبقت ظهور هذا الفن على يد زرياب الذي قدم من المشرق ، وكان له الفضل الكبير في ادخال كثير من التحسين على أساليب الغناء وتطوير الآلات الموسيقية .

وضح ذلك استاذي الكبير الدكتور عبد العزيز الاهواني ، فذكر ان الخرجات عامة لها مصدر شعبي يتمثل في أغان تنشدها النساء في البيوت ، فيأخذ الوشاحون مطالعها ويقلدونها . وجدير بالذكر أن أهالى الأندلس تأثروا بالأغاني العامية التى عرفت قبيل الفتح وخلاله . كما أن شعراء التروبادور كانوا معروفين ، وكانوا ينشدون قصائدهم المسماة (Ballades) أو الاغاني الوجدانية (Chansons Courtoises) وقد لوحظ أن اسلوب هذه القصائد يشبه بعض الشبه أسلوب الموشحات .

لا شك أن الموشحات تأثرت بهذه الأغاني الشعبية التي لم تكن عربية تماما ، وقد أشار الى ذلك أستاذي ، ونوه بأهمية وجود الخرجات الاعجمية ، وذكر بعض ما أورده منها أن شعراً إسبانيا عاماً كان موجوداً في الاندلس ، وأنه

---

(١) آنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ .
(٢) الأهواني : الزجل الأندلسي ، ص ٣ ، وابن سناء الملك ، ص ١٧٦ .
(٣) الأهواني : الزجل في الأندلس ، ص ١ .

كان معروفاً مفهوماً لدى عدد من نقاد الشعر العربي في تلك العصور(١) .

نستطيع القول إنه توجد لهجة عامية أعجمية تأثر بهـا الشعر الاسباني الشعبي ، واستمدت منها الموشحات كثيراً من الخرجات والنعابير ، وقد أدت الابحاث التي قام بها الاستاذ خليان ريبيرا للاعتقاد أن أهل الاندلس الاسلامي كانوا يستعملون العربية الفصحى كلغـة رسمية في المدارس ، ويكتبون بها الوثائق وما اليها ، اما في شؤونهم اليومية وأحاديثهم فيما بين بعضهم وبعض فكانوا يستعملون لهجة من اللاتينية الدارجة أو العجمية(El-Romance)(٢) .

انتشرت الموشحات في الاندلس بعد ان لقيت الاستحسان والقبول، وحاول الشعراء في القرن الرابع الهجري أن يبلغوا بها مستواها الفني اللائق ، وكانت محاولاتهم خلال هذا القرن تتعثر ، وتلقى بعض المقاومة ، حتى جاء عبادة بن ماء السماء ، فكان « شيخ الصناعة وامام الجماعة ، سلك الى الشعر مسلكاً سهلا ، فقالت له غرائبه : مرحباً وأهلا » (٣) .

يظهر أن هذا الفن الشعري الجديد لم ينتقل الى المشرق الا بعد بلوغه مرحلة نضجه الفني ، لكن طلائعه تسربت مع القادمين من المغرب ، فعرف في العصر الفاطمي (٤) ، ويعتقد أن الأدباء والمتصوفة والفقهاء حملوا معهم دواوين الوشاحين المشهورين .

وجدير بالذكر أن القاضي السعيد ابن سناء الملك كان الانطلاقة الحقيقية لفن الموشحات في مشرق العالم الاسلامي ، فلقد حاول دراسـة هذا الفن وتوضيح مسالكه وتذليله أمام المعجبين به ، ولم يكتف بذلك وانما أورد لهم نماذج من الموشحات الاندلسية المشهورة ، وشفعهـا بموشحات أخرى من

---

(١) الأهواني : الزجل في الأندلس ، ص ٥٠ ، ٥١.
(٢) آنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ١٤٢ .
(٣) ابن بسام : الذخيرة ، ق ١ ، ج ٢ ص ١ .
(٤) الدكتور محمد كامل حسين : دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ، ص ١١٤ .

نُظمه ، وحاول أن يتفوق فيها علـى الاندلسيين انفسهم ، فيزيـد في عدد الفقرات أو الاجزاء النى تتألف منها الاقفال ، وأوصل بعضها الى أحد عشر قفـلاً (١) .

درس أستاذي الدكتور عبد العزيز الاهوانى موشحات ابـن سناء الملك وتبين له من خلال بحثها أن « الاصول الفنية والمعنوية التي رجع اليها الشاعر حين كان ينظم قصائده هي التي رجع اليها في نظم موشحاته » (٢) .

شهدت بلاد الشام خلال القرنين السادس والسابع الهجريين ازدهاراً كبيراً في نظم الموشحات وقد أرخ صلاح الدبن الصفدي أسماء المشهورين في كتابه « توشيع التوشيح »(٣) بمصر والشام،وممن ذكرهم « من شعراء الشام : السراج عمر بن مسعود الكناني الحلبى ، المعروف بالمحار ، والشيخ صدر الدين محمد بن الوكيل ، وأحمد بن حسن الموصلي ، وهو من المكثرين» (٤) . والغريب أن الصفدي لم يسر البتة الى أصحاب الموشحات من المتصوفه ، وبخاصة منهم شيخهم الأكبر محيي الدين بن عربي وكان لهم فضل كبير على هذا الفن في بلاد المشرق كلها .

ظهور الموشحات الصوفية

لا شك أن ابن سناء الملك قد أسهم بقسط وافر في نقل الموشحات الى بلاد المشرق، ولا شك أيضا أن كتابه دار الطراز كان بحق التجربة العملية السي فتحت المجال واسعا أمام الشعراء في هذا العصر ، وهكذا انتشرت في مصر على شكل واسع ، وكانت من قبل ضمن نطاق محدود .

---

(١) ابن سناء الملك : دار الطـراز ، ص ٣٩ .

(٢) الأهواني : ابن سناء الملك ، ص ٢١١ .

(٣) أول العناوين التي أعدها ابن سـناء الملك لكتـابة « دار الطرار » ، وكان من حـظ الصفدي فيما بعد . ينطر في الكتاب المذكور ، ص ٣٨ .

(٤) مخطوط الأسكوريال ، رقم ١٢٨ ، نقلاً من هامش كتاب ابن سناء الملك للدكتور عبد العزيز الأهواني ، ص ١٩٢ .

أما في بلاد الشام فيظهر أن الامر على غير ما رأينا،اذ ان الشعراء اقتبسوا هذا الفن أيضا ، لكنه كان مطبوعاً بطابع صوفي في بادىء أمره ، اذ ان محيي الدين بن عربي الذي عاصر ابن سناء الملك قد ساعد كثيراً على ادخال الموشحات إلى بلاد الشام ونشرها بشكل واسع جداً بين جماعة الصوفية الفقراء ، والفئات الشعبية. ويكفي أن نشير الى أن ديوانه الذي وضعه في أواخر حياته بعد استقراره واقامته في دمشق ، يحتوي على ست عشرة موشحة ، وهي تعادل بالضبط نصف موشحات ابن سناء الملك الا قليلا .

ان انتشار التصوف في بلاد الشام بشكله الواسع ساعد كثيراً على رواج هذا الفن الشعبي الجديد كما هو الحال في مصر ، وقد أشار الى ذلك أستاذي فذكر أن « عصر ابن الملك سناء فـد عرف المتصوفة الذين ينظمون معانيهم الصوفية في الموشحات » (١) . تعرض بعد ذلك للموشحات الزهدية عند ابن سناء الملك ، ووقف عند المكفر منها ؛ ونوه خلال ذلك بموشحات ابن عربي ، وذكر أنها « تجنح الى السهولة واليسر والبعد عن التكلف والتعقيد »(٢) .

حاول ابن سناء الملك أن يطبع هذا الفن بأساليب المشارقة . بيد أن ابن عربي الاندلسي الذي ثقف هذا الفن في مرابع طفولته وصباه وشبابه ، كان أكثر توفيقا من سابقه في هذا المضمار ، ومن حقه علينا أن نقف عند موشحاته لنبين خصائصها المميزة ، ونذكر قيمتها الفنية في شعر هذا العصر . وأثرها في نشوء الموشحات المدحية والغزلية عند السراج المحار وسائر وشاحي بلاد الشام.

موشحات ابن عربي

المعروف أن الشيخ الاكبر محيي الدين بن عربي قد استقر بعد خروجه من الاندلس وتطوافه الطويل في بلاد الشام ، في المرحلة الاخيرة من حياته ، وذلك في بعض العقود الاربعة الأوائل من القرن السابع الهجري .

---

(١) الأهواني : ابن سناء الملك ص ١٩٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٩٩ .

الف المتصوف المذكور في هذه الفترة « الديوان الاكبر » سنة ٦٢٩ هـ وهو ثاني ديوان له . وجدير بالذكر أن ديوانه الاول « ترجمـان الاشواق » وضعه في مكة سنة ٥٩٨ بعد أن توثقت علاقته بأسرة أبي خاشة ، امام مقام إبراهيم ، وتعلق بحب ابنته الحسناء نظام (١) .

يحتوي ديوانه الاكبر على ست عشره موسحة وزجـل واحد . وقد نوه استاذي عبدالعزيز الأهواني بأهمية موسحاته فذكر أن بعضها « توغل في المعاني الصوفية ، وتستخدم من الالفاظ والتراكيب مالا ستطيع فهمه الا من عرفوا مذهب ذلك الصوفي في وحدة الوجود ، وقـد ترق وتخف ويكثر فيها الغزل الذي يحتمل الرمز والتوجيه بحيث تصبح قريبة من كل نفس » (٢) .

اما النوع الاول من هذه الموشحات فنعثر فيه على الطابع الشخصي لابن عربي في فنه ، ونستطيع القول انه كان الرائد الاول في المشرق والمغرب على السواء ، فهو الذي وجهها وجهتها الصوفية،ووشحها بالمعاني الرمزية وبذلك ادى خدمة كبـيرة لجماهير الفقراء الذيـن يلحنونها وينشدونها في حلقاتهم الخاصة ، ويتخذونها سبيلا يصلهم بالعالم العلوي بعد أن يتجردوا من ادران العالم الدنيوي ، ويعوجوا بأرواحهم على السموات العـلا ليتحدوا بالذات الالهية ، وذلك بالفناء فيها . نقرأ هذه المعاني في موشحه ذي الراس :

اطـوِ إلـى المهيمـنِ الطُرّقـا عسـاك يومـاً نحـوها ترقـى

غربـةُ الإنسـانِ قـد ذلّتْ
عسـاكر الأحـوالِ قـد حلّتْ
أهلّـةُ الأسـرارِ قـد جلّتْ

وصـيرّت قلبـي لهـا شـرقا واضلعـي لبدرنـا أفقـا

اخـرقْ سفينَ الحسِّ يا نائمْ
واقتـلْ غلامـاً إنّـك الحاكـمْ
ولا تكـنْ للحـائطِ الهـادمْ

---

(١) آنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٣٧٤ .
(٢) الأهواني : ابن سناء الملك ، ص ١٩٧ .

وافتـقْ سمـواتِ العـلا فتقـا   وارتـقْ أراضـي جسمِهـا رتقـا

سفينـةُ الإحسـاسِ اخرِقهـا
وعـروةَ الشيطـانِ أوثقهـا
وصـورةَ الإنسـانِ أطلِقهـا

وهِـمْ في ذاتِـه عشقـا   ونـاده : رفقـاً بهـا رفقـاً

خليفـة الرحمـن قـد جلـى
عن أن يرى بالسجن قـد حلاّ
أو مدبـراً عنـه إذا ولـى

قـد أحكـم اللهُ بـه الخلقـا   فجـلّ أن يحـول أو يشقـى

يا سائلـي عـن كنـه ما أجمـلْ
منْ حبّ مولـىً لـم يزلْ يُحمـلْ
فقمـت أشـدوه كمـا أنـزلْ

القـى الهـوى بالقلـب مـا القـى   فـلا تسـلْ عـن كنـهِ ما القى(١)

كما نطلع على المعاني الصوفية ذاتها في موشح آخر مشهور مطلعه قوله :

تـدرّعَ لاهـوتي بناسوتـي   وحصـّل موسـى اليـمّ تابوتـي

فمَـنْ قال عنـّي : إنـني العبـدُ
وقـد صـحّ انـي الملـك الفـرْدُ
فربّ عليـم غـرّه الجَحْـدُ (٢)

يصرح في هذه الموشحة أيضا عن وحدة الوجود وعـن فنائه واتحاده في الذات الإلهية ، وقد وفق في إبراز هذه المعاني في موشحاته أكثر منه في شعره .

---

(١) ديوان عربي ، ص ٢١٣ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٣٨٩ .

وأما النوع الثاني منها فقد عبر فيه عن معانيه الصوفية بطريق غير مباشر، فاستخدم الغزل الصوفي الرقيق الذي تستسيغه النفس الانسانية ، وتتعشق ما فيه من رمزية عجيبة ورقة مستساغة ، وموسيقى مطربة . يضاف الى ذلك ان هذا الغزل المصعد يعمد على ينبوع ثر من عشق حقيقي ، صعده الى الحب الالهي . ويظهر أن حب نظام ، ابنة إمام مقام إبراهيم ، قد زاد من لوعة الشاعر واضفى على موشحاته العذوبه . وهذا يدفعني للقول ان كل ما في ديوانه الاكبر بما فيه من موشحات استمد وحي غزله من ابنة الامام الحسناء المكية نظام . ولا ضير في ذلك لان عشق الجمال في مذهب المصوفة مباح ، اذ إنه قبس من نور الله ، وهو كما يقول الشرف الانصاري سحر الهـي . فلا غرابة ان رأينا الشاعر يستهل مطلع موشحة له باسم ديوانه الاول الذي خلد فيه ذكر نظام :

ترجمـــان الاشـــواقِ عرّفنـي بالكريـم الخلاقِ
لـــلاله الحـــقّ
همّنـي في السّبـقِ
بخيـولِ الصّدقِ (١)

اتخذ الشاعر حب نظام تكأة له في عشقه الالهي واستوحى من جمالها الانساني معاني الجمال الالهي،لانه يعتقد أنه فيض من جماله الخالد ،وعشقه هذا الجمال إنما هو النفحة القدسية التي تكشف أمام وجدانه أنوار الجمال الابدي في الذات الالهية الخالدة .

وجدير بالذكر والملاحظة هنا ان هذا النوع من موشحاته بعضه مبتكر في معانيه ، وبعضه الآخر عارض به بعض الموشحات الاندلسية المشهورة التي حفظها أيام صباه في اندلسه ، وحملها معه الى بلاد الشام ، نذكر من النوع الاول موشحه الاقرع الذي يقول فيه :

---

(١) المصدر السابق ص ٤٤٦ .

مُتيَّمٌ بالجمال قد شغفا
قد امتطى السُّهد فيه والأسفا
حتى إذا ما انتهى له وقفا
يشكو الجوى والسُّهادَ والخَبَلا ودمعُه فوق خدِّهِ انهملا سالا

يا حسنَه والظلام قد نَزلا
يتلو كتابَ الحبيبِ مُبتهلا
ودمعُه لا يزال منهملا
حتى إذا ما صباحُه اتصلا بليلِه والظلام قد رحَلا مالا

لا عذر في عذابي يا كبدي
اذا لقيت الحبيب في الخلَدِ
وأنت تشكو صبابة الكمدِ
ولم تذوبي شوقاً إليه ولا وكلّ مَنْ ذاب فيه إذ وصلا غالا

عجبت مِنْ لوعتي ومِن كمدي
ومِنْ عنادي ومن قُوى جَلدي
ومَنْ به قد شغفت في خلدي
فصِلْ به يا فؤاد إنْ وصلا فكلّ من بالمهيمنِ(١) اتصلا صالا

إنْ كان لا بُدَّ بينه المحتومْ
حسبي اتصال العلوم بالمعلومْ
فاستمعوا جيرتي شدا المحرومْ
أودعَني يوم بينِه خبَلا لاصبر لي بعده وقد رحلا لالا(٢)

أما النوع الثاني من موشحاته فهي التي قلد بها معارضاً بعض الموشحات الاندلسية المشهورة التي حملها معه من الاندلس ، وكانت معروفة في المشرق

---

(١) المهيمن والمهيمن من أسماء الله تعالى ، بمعنى المؤمن من آمن غيره من الخوف وهو مؤأمن بهمزتين ، قلبت الهمزة الثانية ياءً ثم الاولى هاءً أو بمعنى الأمين أو المؤتمن أو الشاهد.

من قبل . اشار استاذي الدكتور عبـد العزيز الاهواني الـى اثنتين منها ؛ أولاهما الموشحة التي مطلعها قوله :

عندمــا لاحَ لعينــي المُتكـــا ذبت شوقــا للــذي كان معـى (١)

وقد عارض بها ابن زهر في موشحته المشهورة :

أيهــا الســافي إليــكَ المُشتكــى قــد دعونــاك وإنْ لــم تسمــع

وثانيتهما الموشحة التي مطلعها قوله :

سرائرْ الاعيانْ لاحتْ على الأكوانْ للنــاظــرينْ
والعاشق الغيرانْ مِن ذاك في بحرانْ(٢) يهدي الأنين (٣)

عارض الشاعر في هذه الموشحة ابن بقي في موشحته المشهوره . ومطلعها:

بالله يــا جنـّانْ اجـن من البستان اليـاســمين
وخلّ ذا الريحان بحــرمةِ الرحمــنْ للعاشــقين

وجدير بالذكر ان ابن عربي جعل مطلعى الموشحين اللذين عارضهما خرجبين في موشحيه المذكورين آنفاً . بيد أنه غير فيهما بعض التغيير لتلائم معانيه الصوفية الرمزية . ومهد لهما . ففي ختام موشحه الاول قوله :

ايُّهــا الساقي اسقني لا تأتلي (٤)
فلقــد اتعــبَ فكــري عَذّلــي
ولقــد أنشــده ما قيـــل لــي :

---

(١) ديوان ابن عربي ، ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

(٢) بحران : في اللسان أن الاطباء يسمون التغير الذي يحدث للعليل دفعة في الامراض الحاده بحرانا ، ويقولون : هذا يوم بحران ، ويوم باحوري على غير القياس ، فكأنه منسوب الى باحور وباحوراء مثل عاشور وعاشوراء ، وهو شدة الحر في تموز ، وجميع ذلك مولد .

(٣) المصدر السابق ، ص ٨٥ ، ٨ .

(٤) ألا وألى وائتلى في الامر قصر وأبطأ يقال : لم يأل جهداً .

أيهــا الساقي إليــكَ المشتكــى ضاعت الشكــوى إذا لــم تنفــع (١)

وفي ختام موشحه الثاني قوله :

وغلــت في بستـــانْ الأنســِ والقـــرب لمكنســهْ
وفقــام لــي الريحــانْ يختــال مــن عجــب في سندسـهْ
أنــا هـــو يا إنســانْ مطيـّــب العـــبّ في مجلسهْ
جنـّـان يا جنـّــانْ اجــن مــن البستـــانْ الياسمــينْ
وحلـّــلِ الريحـــانْ بحرمــةِ الرحمـــن للعاشقين (٢)

ثمة موشحة ثالثة في ديوانه ، ومطلعها :

حقائق القــربِ رؤيــة الْمَلــكِ
وهــو حجاب المُهيمــن الملـكِ
اذا انجلــى عنــك غيهــبُ النفسِ
وهبَ عرفٌ مِــن روضه القدســي
فأنت الحــانْ بــلا لحــن
على الاوثــانْ ولــم تثــن (٣)

عارض بهــا ابن بقي ، الوشاح الاندلسي ، في موشحته التي مطلعهــا :

الحــبّ يجنيك لــذةَ العــذلِ
واللومُ فيــكَ أحلى مــن القُبَــلِ
وإن لو كانْ جَــدٌ يُغني
كان الإحسانْ مِن الحسنِ (٤)

استخدم ابن عربــي خرجة ابــن بقي نفسها في المقطوعــة الاخيرة من موشحه ففال :

---

(١) ديوان ابن عربي ، ص ٩٣ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٨٦ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٢١٠ .
(٤) ابن سناء : دار الطراز ، ص ٨١ .

يا عـودَ الزّانْ　　قـمْ ساعدْني

طـاب الرّمانْ　　لِمَن يجني(١)

جمع ابن عربى في موشحاته بـين المعاني الرمزيةالمغرقة في صوفيتها ، والاوزان الموسيقية الراقصة . فأخرجها بأسلوب عذب رقيق جمع بين جمال الطبيعة الشامية . والطبيعة الاندلسية في تقليـده وتجديده . يضاف الى ذلك غزل صوفي رقيق الحواشي يستمد معينه مـن عشق حقيقي مصعد ، فيضفي عليه طابعا رمزيا فريداً قل أن نجد له نظيراً في أدبنا العربى . ويجدر بنا أن نلاحظ هنا ان ابن عربي وفق في موشحاته أكثر منـه في شعره . لكنه يكن ليتقيد تماما بما تقيد به غيره مـن الوشاحين الاندلسيين . فلم يجعل خرجاته عامية . كمـا فعل ابن سناء الملك . ولعلـه تسامح في هذا الشرط الواجب . واوردها سهلة فصيحة معربـة لان « الفاظها غزله جدا ، هزازه سحارة خلابة بينها وبين الصبابة قرابة » (٢) .

لم ينافس ابن عربي كابن سناء الملك في الزيادة على ما عرف عند مشاهير الوشاحين الاندلسيين ، من حيث عدد الاقفال والابيات والفقرات . ويجب الا ننسى انه كان اول من اكثر في الموشحات مـن تضمين الايات القرآنية أو الاشارة الى القصص الدينية المعروفة أو الكلمات الدالة على بعض الآيات ، كما في قوله في : « سبح اسم ربك الاعلى(٣) » و « ارني انظر اليك(٤)»و«مطلع الفجر(٥)» و « الشفع والوتر(٦)» و « لم يكن(٧)» و « فالق الإصباح (٨) » .

(١) ديوان ابن عربي ، ص ٢١١ .
(٢) ابن سناء الملك : دار الطراز ، ص ٣١ .
(٣) ديوان ابن عربي ، ص ٨٧ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٤١٤ .
(٥) المصدر السابق ، ص ٣١٣ .
(٦) المصدر السابق ، ص ٨٩ .
(٧) المصدر السابق ، ص ٤٥٢ .
(٨) المصدر السابق ، ص ٤١٤ .

وقد يقتضيه الامر في بعض الاحيان تفسير نص الآية كما في قوله : « النصر والفتح(١) » و « عند ذي حجر(٢) » ... كما كان يستخدم أسماء السور القرآنية ، من ذلك قوله : « في النجم(٣) » و « في الطور(٤) » و « في سورة القدر(٥) » .

لا نشك أن هذا التضمين الكلي والجزئي ، والكامل والمعدل لآيات القرآن وسوره كان بحق عاملا من عوامل الرمزية الصوفية في موشحاته ـ اذ انها نوجد فيها رقة الديباجة ورشاقة الالفاظ وموسيقى الوزن الراقص .

الموشحات في بلاد الشام

اتضح مما تقدم معنا أن التصوف في بلاد الشام كان له اثره البين في انتشار فن التوشيح على نطاق واسع في الاوساط الادبية ، فاقبل عليه الناس بعد ان استمعوا اليه وعرفوه من خلال الاناشيد الدينية ، وقد اجتمع لهم فيها الغزل والغناء والالحان ، وهي ما تسعى اليه دوما الفئات الشعبية المختلفة وغيرها في مجالسها الخاصة .

عرفت الموشحات في بادىء امرها على افواه فقراء المتصوفة ، وسمعوها من الاندلسيين الكثيرين الذين يؤمون بلاد الشام كما ذكر ابن جبير ، وقد اخذت عن طرق اخرى ، فأحبتها العامة ، وانشدتها في مجالس الانس والسمر . ولا شك ان الشعراء احبوا ان يقلدوا الموشحات كفن جديد لقي رواجا كثيرا لدى العامة والخاصة ، فعمدوا الى التعبير عن اغراضهم الخاصة بهم ، بالاضافة

---

(١) المصدر السابق ، ص ٤١٣ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٨٨ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٨٩ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٨٨ .
(٥) المصدر السابق ، ص ٤١٤ .

الى المعاني والاغراض الاصلية التي وضع من أجلها .

يبدو لي أن القرن السادس لم يشهد محاولات ناجحة في بلاد الشام ، حتى اذا شارف هذا القرن على الانتهاء رأينا ابن سناء الملك يبسط في مصر أمام الشعراء أساليب هذا الفن . ورأينا ابن عربي من بعده يبسط في بلاد الشام أمام الشعراء نماذج من الموشحات ، ويلفت أنظارهم الى مواطن الجمال في التعبير الصادق عن النفس والوجدان بعيدا عن مغريات الحياة .

انتشرت الموشحات ببلاد الشام في القرن السابع الهجري . ومن أقدم ماوصلنا منها بعد ابن عربي موشحة نظمها الشهاب التلعفري في مدح الاديب شهاب الدين العمادي العزازي(١) جوابا عن الموشحة التي كتبها اليه :

ليس يروي ما بقلبي مِنْ ظَمَا　　غيرُ برقٍ لائحٍ من إضمِ

إنْ تبدّى لكَ بانُ الأجرعِ
وأثيلات النقا من لَعْلَعِ
يا خليلي قفْ على الدار معي
وتأمَّلْ كم بها من مصرع

واحترزْ واحذرْ فأحداقُ الدُّمى　　كم أراقتْ في رباها من دمِ

حظُّ قلبي في الغرام الولَهُ
فعذولي فيكَ مالي ولهُ
حسبيَ الليلُ فما أطولَهُ !
لم يزلْ آخرُه أوَّلَهُ

في هوى أهيفَ معسولِ اللمى　　ريقُه كم قد شفى من ألمِ

---

(١) شهاب الدين ، أحمد بن عبد الملك العزازي ، وكان بزازا في قيسارية جركس في القاهرة توفي سنة ٧١٠ هـ . (ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ٣٤٥ – ٣٥١).

سائلي عن أحمدٍ مما حوى
مِنْ خلالٍ هي للداء دوا
ما سواه وهو يا صاح سوى
ناشرٍ من كلّ فنٍ ما انطوى

بحرُ آدابٍ وفضلٍ قد طما   فاخشَ مِنْ تيّارِهِ الملتطمِ

العماديّ الشهابُ الثاقبُ
شكرُهُ فرضٌ علينا واجبُ
فهو إذ تبلوه نعم الصاحبُ
سهمُهُ في كلّ فنٍ صائبُ

جائلٌ في حلبةِ الفضل كما   جالَ في يوم الوغى شهمٌ كمي

شاعرٌ أبدعَ في أشعارِهِ
ومتى أنكرتَ قولي بارِهِ
لو جرى مهيارُ في مضمارِهِ
والخوارزميّ في آثارِهِ

قلتُ : عودا وارجعا ، مَنْ أنتما ؟   ذا امرؤ القيسِ إليه ينتمي ! (١)

هكذا اسهمت مصر والشام معا في ازدهار هذا الفن الجديد ، ومهما يكن من أمر فقد تطور الفن المذكور ، وأخذ به شعراء كثر . نذكر منهم السراج المحار ، وصدر الدين محمد بن الوكيل . وأحمد بن حسن الموصلي ولا بد لنا من وقفة عند أولهم الذي لقبه القدماء دون غيره بصاحب الموشحات (٢) .

---

(١) ابن تغرى بردي الديوان ص ٤٠ ، والنجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، وابن شاكر : فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٥٠ ، ٣٥١ .

(٢) ابن شاكر : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ١٢٩ .

موشحـات السراج المحّار

أكثر السراج (١) من نظم الموشحات حتى عرف بها . وقد استخدمها في المدح بعد استخدامها في الغزل . فمن غزل صوفي الى غزل مادى . ومنه بعد ذلك الى المدح وسائر الفنون الشعرية المشهورة التي تتلاءم مع هذا الفن المستحدث . فاذا كان ابن عربى الرائد الاول ، فلا شك أن السراج المحار كان الثاني . وكان نقطة التحول . اذ كان يتنازعه اسلوبان : أسلوب ابن عربي الرقيق الرشيق . وأسلوب مدرسة العصر في التصنع البديعى . فهو في موشحاته يجمع بين تيارين :

نراه تارة برق ويلين ، وأخرى يصعب ويتعقد . وسوف نعرض لهذين الامرين بعد بحث الغزل والمدح في موشحاته .

الموشحات الغزلية

لاشك أن الشعراء عامة اتخذوا من هذا الفن سبيلا يعرضون فيه أغزالهم . فهم قد وجدوا فيه منطلقا أمامهم اذ رأوا فيه طريق الافلات من أسر القافية والتحرر من عبوديتها .

أعرض السراج المحار بدوره عن الشعر القريض . واتخذ هذا الفن سبيله . وسخره لاغراضه الخاصة . وكان الغزل أحدها وأهمها . لكن المعاني كانت في

---

(١) أبو الخطاب ، سراج الدين ، عمر بن مسعود ، الحلبي الكناني ، المعروف بالمحار وقد لقب بذلك لانه كانت له بالمحار خصوصيه . سكن هذا الوشاح حماه ، ونشأ فيها ومدح ملوكها الايوبيين ، نخص بالذكر منهم المنصور الثانى ، والمظفر الثالث ، والافضل والد المؤيد أبي الفداء ، واخاه بدر الدين حسنا وغيرهم . توفى بدمشق سنه ٧٠٠ هـ . (ابن تغرى بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٢ و ٤٨٧ ، وابن شاكر : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ١٣٩) .

معظم الاحيان هى نفسها التى عرفناها في أشعار المعاصرين . بيد أن مجال التعبير عنها أرحب . وأوسع مدى . يقول في موشح له :

تُرى دهرٌ مضى بكمْ يؤوبُ شبيبا
ويُضحي روضُ آمالي الجديبُ خصيبا
عسى صبٌ تملكه هواه
يعاودُ جفنَ مقلته كراهُ
ويبلغُ من وصالكمُ مُناهُ
ويرجعُ دهرُنا عمّا جناهُ
ويجمع شملنا حسنٌ وطيبُ قريبا
ويصبحُ حيث أدعوه الحبيبُ مجيبا
أرى أمدَ الصدود بكمْ تمادى
وكم لَمَّتْ الفؤاد فما أفادا
وتأبى عبرتي إلا اطّرادا
ونارُ صبابتي إلا اتقادا
فخدي ردّهُ الدمعُ السكوبُ خضيبا
وقلبي كاد أشواقاً يذوبُ لهيبا
وبي رشأٌ بناظره يصولُ
حُسامُ في ضرائبه العقولُ
على وجناته لدمي دليلُ
ولكنْ ما إلى قودٍ سبيلُ
حَبَتْه منْ ضمائرِها القلوبُ نصيبا
فكانَ لها وإنْ كرهَ الرقيبُ حبيبا
غزالٌ وهو في المعنى هلالُ
قريبٌ وصلُهُ ما لا يُنالُ

وغصنٌ راحَ يعطفُــه الدَّلالُ

كذا الأغصــانُ تثنيها الشـَمالُ

إذا مالــتْ بعطفيــــهِ الجنــوبُ ۔هبوبا

تثنّـــى في غلائلِـــه القضيـــبُ رطيبا

كلِفتُ بحبـّــهِ حلـو المعانـي

أعانـى في هــواهُ مــا أعانـى

أراهُ وإنّ تباعَدَ عـن عيانـى

كبدرِ التمّ ِ قاصٍ وهــو دان

إذْ ۔برينا حـين تُطلعُــهُ الجنــوبُ عجيبا

جمـــالاً لا يكلِفُـــهُ الغـروبُ مغيبا (١)

لم تبلغ الصنعة البيانية في هذه الموشحة مبلغها مــن غيرها . فهي تجنح بشكل عام الى الافلات من بعض القيود . بيد انها تتعثر احيانا أمام ما تعوده الشاعر من اساليب وتراكيب كما في الموشح الذي استهله بهذا القفل :

ما ناحــت الوُرْقُ في الغصونِ إلاّ

هاجتْعلىتغريد هالوعةَالحزين

وجاء في سمطيه الاخيرين قوله :

السمط او المقطوعـة	القفل	تفتــرّ عــن جوهــرِ تمــين جــلا	
		أن ۔يجتلى بحمي لعضْـبٍ في الجفون	
	الغصن أو البيت	أحببتُه ناعم الشـمائلْ مائــلْ	في بردِهِ
		في أنفسِ العاشقين عامل عاملٌ	من قدّهِ
		يرنو بطرفٍ إلى المقاتلْ قاتلٌ	في غمدِهِ

(١) ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، مخطوط ، ج ٣ و ٤٨٧ ، وابن شاكر : فوات الوفيات ج ١ ص ١٣٩ .

امطاعنَ الأسـدِ في العربـن فعـلا
وأقتـلا لعاشقيـهِ مـن المنـونِ
علقتُهُ كامـلَ المعانـى عانـي   قلبي بهِ
مبلبل البال قـد جفانـى فانـي   في حبّهِ
كم بتّ من حيثُ لا براني راني   لقربهِ (١)

نلاحظ أن الساعر قد نصنع في هذه الموتسحة ، واستنفد فيها جهده حتى استقام له هذان البنيان من أبياتها الخمسة ، اذ استطاع أن يشتق الاجزاء التالية من بعضها ، فاشتق (مائل ، عامل ، فائل ، عان ، فان ، ران) من أعجاز الكلمات التي سبقتها وهي على الترتيب (السمائل ، عامل ، المقائل ، المعاني ، جفاني ، يراني) . أما بقية الابيات فلم يفلح في كل أجزائها لكون الاشتقاق والتوليد كما يريد ، وكان بامكانه أن يوغل في تكلفه وتصنعه حتى يستقيم له الوزن والصيغة كما يرغب . ولكنه آثر أن يبقى على بعض خفقات قلبه في هذه الموشحة .

هكذا كان السراج المحار يتردد بين طبعه وتصنعه في مذهبه الفني ، وقد يتضاءل التصنع احيانا في موشحاته ، فيجنح الى اللين كما في هذه الموشحة :

مذ شمتُ سنا البروقِ مِنْ نعمانِ   باتت حدقي
تذكـى بمسيـل دمعهـا الهتـان   نـارَ الحرقِ
ما أومضَ بارقُ الحمـى او خفقـا
إلا وأجـدّ لـي الأسـى والأرقـا
هـذا سببٌ لحيني قـد خلقـا
أمسـي ووميضـه بقلبـي العـاني   بادي القلق
لا أعـرفُ في الظـلامِ ما يغنـاني   غـير الأرقِ

---

(١) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٢ و ٤٨٧ - ٤٨٩ .

أضنى جسدي فراقُ إلفٍ تَرَحا

أفنى جَلَدي ودمع عيني نَزَحا

كم صِحنَ وزَنْدُ لوعتي قد قَدَحا

لم تبقِ يدُ السَّقامِ من جثماني غيرَ الرمق

ما أصنعُ والسلوّ منّي فانِ والوجدُ بقي

أحوى قمرٌ أحلو مذاق القبلِ

لن يكحلَ طرفه بغيرِ الكحلِ

تركي باللحظاتِ بابليّ المقلِ

زاهي الوجناتِ زائدُ الإحسانِ حلوُ الخلقِ

عذبُ الرشفاتِ ساحرُ الأجفانِ ساجي الحدقِ

ما ماط لثامه وأرخى شعرَه

أو هزّ معاطفاً رشاقاً نضره

إلا ويقولُ كلُّ رأى نظرَهُ :

هذا قمرٌ بدا بلا نقصانِ تحت الغسَقِ

أو شمسُ ضحاً في غصنِ فتّانِ غصنٍ ورقِ

ما أبدع معنىً لاح في صورتِه

ريحانُ عِذاره على وجنتِه

لما سقى الحيا من ريقتِه

فاعجبْ لنباتِ صدغه الريحاني من حيث سقى

يضحي ويبيتُ وهو في النيرانِ لم يحرقِ (١)

نلاحظ أن الوشاح المذكور لم يتخل قط عن تصنعه ، فقد تكلف التصنع البديعي كما في قوله : (أضنى جسدي) و (أفنى جلدي) .

---

(١) النواجي : عقود اللآل (مخطوط) و ١٥ .

استخدم الوشاحون المعاني والصور التقليدية في أغزالهم ، فكانوا يحاولون جهدهم أن تكون ذات طابع غنائي ، وهي الميزة الوحيدة التي بقيت سالمة لهم ، حتى ان بعض الوشاحين كشمس الدين الدهان كان يجيد فن الايقاع الموسيقي والضرب على القانون ، وكان ينظم قصائده ويلحنها بالايقاع على الضروب المختلفة : لقد ساعدتهم انطلاقتهم من اسر القافية الى جمع مزيد من الصور والمعاني اكثر مما كانوا يستطيعون إيراده في الشعر القريض ، كما سنرى ذلك في الوشحات المدحية .

الموشحات المدحية

لم يقتصر السراج المحار على الغزل في موشحاته ، فهو شاعر الملوك الايوبيين بمملكة حماة ، ومفروض عليه أن يقدم لهم المدح في المناسبات المختلفة ليجري عليه رزقه ، ويظهر أن هؤلاء الملوك قد أحبوا هذا الفن الجديد بعد أن طربوا له في مجالس أنسهم وسمرهم ، وعلى الشاعر الذي أطربهم بأغزاله أن يمدحهم ، وهكذا تتم نقلة الموشحات من حلقات الذكر الى مجالس الانس حتى ينتهي مطافها الى قصور الامراء والملوك . وقد حفظت لنا بعض هذه الموشحات التي استخدمها الشعراء في المدح ، نذكر منها موشحة السراج المحار المشهورة التي مدح بها الملك المنصور الثاني محمداً ، وقفل مطلعها :

جسمي ذوى ، بالكمدِ ، والسهرْ ، والوصبِ ، من جان

ذي شنبِ ، كالبردِ ، كالدررِ ، كالحببِ ، جماني

استنفد الشاعر الاسماط الاوائل الاربعة في النسيب ، وانتقل في خامسها لبمدح قائلاً :

إن صالَ بالهجرِ وصدْ	رُحتُ بصبري مرتدي
عنه وإن طالَ الأمدْ	إلى ذرا محمدِ
وكيف تختى مَنْ قَصَدْ	ملكاً كريمَ المحتِدِ
الملك المنصور قد	سما سماءَ السؤددِ

ثم استوى ، بأجرد ، مضمر ، ومقتضب ، عاني
ذي شطب ، مهند ، وسمهري ، مضطرب ، مرّاني
ملكاً علت همانه   من فوق هام المشتري
وبخلت راحاته   سح السحاب المطر
وعوذت راياته   بمحكمات السور
بدر بدت هالاته   من الصباح المسفر
تحت لوا ، منعقد ، بالظفر ، في موكب ، فرساني
كالأشهب ، في الأسعد ، كالأقمر ، في أعذب ، سبحاني
يا مالكاً دون الورى   تخطبه الممالك
ومالكاً إذا سرى   تحجبه الملائك
بعض عطاك هل ترى   جادت به البرامك ؟
فاسجلها من عمرا   نفر مناها ضاحك
لا تجتوى ، كالتشهد ، كالسكر ، كالضرب ، معاني
كالسحب ، كالعسجد ، كالجوهر ، من حلب ، كناني(١)

يلاحظ ان الشاعر ضيق على نفسه في أقفال الموشحات . ويلاحظ انه كان يحاول أن يجري مع الطبع في أبياته اكثر من اقفاله . ففيها تكلف الاجزاء . وتكلف القوافي ، وهو يحاول أيضاً أن يجعل كل قفل مؤلفا من شطرين مجزوءين . وفي كل شطر خمسة أجزاء ، ولكل منها قافية على نمط قافية الجزء الذي يناظرها من أقفال الموشح وأشطاره واجزائه . كما يلاحظ أن الشاعر لم ينه الموشح بالغزل على عادة الموشحين الاندلسيين وانما استغرق في مدحه الاسماط الثلاثة الاخيرة بالاضافة الى الخرجة .

حاول المتأخرون من شعراء المشارقة أن يوفقوا بين المذاهب الشعرية المعاصرة وفن الموشحات . وما كان هذا الامر ليتم لهم ، وقد اثر عن ابن حزمون الاندلسي قوله : « ما الموشح بموشح حتى يكون عاريا من التكلف » (٢) .

---

(١) ابن شاكر : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ١٣٩ .
(٢) الصفدي : أعيان العصر (مخطوط) ج ٦ ق ١ و ١١٣ .

كان ابن عربى يدرك هذا الاتجاه في الفـن المذكور بسليقته لانـه ربيب الاندلس، فلا غرابة ان وجدنا موشحاته تفيض رقة وعذوبة ، وهي ــ بالاضافة الى ما ذكر ــ تمثل المذهب الصوفي الرمزي في أدبنا العربي من بعض وجوهه .

اشار الصفدي الى انتشار فن نظم الموشحات بـين الشعراء ، وذكر ان بعضهم اخذ قول ابي نواس :

امـا ترى الشمسَ حلـتِ الحمـلا وطـابَ وزنُ الزمـانِ واعتـدلا

فجاء الى آخره ، وذيله بتوشيحة على روّي الباء ، فقال : « فاشربْ »

كنا نود لو ذكر لنـا اسم صاحب الموشح الذي ضمـن قول ابي نواس المذكور ، واغلب ظننا أنه مغربي، ومما يؤكد لنا ذلك أن لابن سهل الاندلسي(١) موشحة على هذا الوزن، ختمها بالتوشيحة المذكورة، ومما قاله في سمط المطلع:

روضٌ نضيرٌ وشادنٌ وطِـلاً فاجنِ زهـرَ الربيعِ والقُبَلا واشربْ

يـا ساقيـاً مـا وُقيـتُ فتنتَـهُ

جلـتْ كؤوسُ الرحيـقِ صورتَـهُ

فمثّلـتْ ثغـرَهُ ووجنتَـهُ(٢)

وصف الصفدي اقبال الشعراء على هذا الاسلوب . وذكر انه « لما فتح هذا الباب لاهل النظم طاروا اليه زرافات ووحدانا ، ودخلوه أرسالا لخفته وعذوبته ، وغالب من نظم فيه لزم الباء في التوشيحة ، وبعضهم عملها دالا ، وبعضهم عملها فاء » (٣) .

فمن لزم الباء من شعراء الشام الشاب الظريف في موشحة له، يقول فيها:

---

(١) أبو اسحق ابراهيم بن سهل الاشبيلي، ولد سنة ٦٠٩ هـ، ومات غريقا سنة ٦٤٩ هـ .
(٢) ديوان ابن سهل ، ص ٣٤ ، والصفدي أعيان العصر (مخطوط) ج ٦ ق ١ و ١٤٤ ،
(٣) الصفدي : أعيان العصر (مخطوط) ج ٦ ق ١ و ١١٣ .

بدرٌ عن الوصلِ في الهوى عدلا   مالي عنه إنْ جارَ أو عدلا   مذهبْ

مُترِّكُ اللّحظِ لفظُهُ خَنِثُ

إليه تصبو الحشى وتنبعثُ

اشكو إليه وليس يكترثُ

دعا فؤادي بأن يذوبَ قِلاَ   الموتُ واللهِ مِنْ مقالي : لا أقربْ

لم يبقَ لي مقلةٌ ولا كبدُ

والقلبُ فيه أودى به الكَمَدُ

وليس يلقى لهجره أمدُ

لا تعجبوا إنْ غدوتُ محتملا   قلبي إن كان عنه سلا   أعجبْ

بالحسنِ كلَّ العقولِ قد نهبا

والحزنِ كلَّ القلوبِ قد وهبا

شمسٌ ولكنني لديهِ هَبَا

وممن لزم في التوشيحة الفاء الوشاح المشهور شمس الدين الدهان(٢) ، يقول فيها :

يا يابي غصن بانةٍ حملا   بدر دجا بالجمالِ قد كملا   أهيفْ

فريد حسنٍ ما ماسَ أو سَفَرا

---

(١) ديوان الشاب الظريف ، ص ٨٦ ، وابن شاكر : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ٢٦٧ ، وابن تغري بردى : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ٢٢١ ، والصفدي : أعيان العصر (مخطوط) ج ٦ ق ١ و ١٦٦ .

(٢) شمس الدين محمد بن عمر المارني الدهان ، كان يعاني صناعة الدهان ، وقد عرف عنه أنه كان ينظم الشعر ويلحنه بالايقاع على الضروب المختلفة ، وكان يجيد فن الايقاع والضرب على القانون . وعرف عنه أنه عمر في ربوة دمشق مكانا جميلا ، واتخذه مجلسا للهو والطرب ، اذ يجتمع فيه أصحابه ، ويأخذون عنه الالحان ، وقد توفي بدمشق سنة ٧٢١ هـ (الصفدي : أعيان العصر (مخطوط) ج ٦ ق ١ و ١٠٤ ، وابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و٢٢١ .

إلا أغـــارَ القضيـــبَ والقَمَـرا
يبـــدي لنـــا بابتســامـه دُرَرا
في شهدٍ لـذَّ طعمُـه وحـلا كـأنَّ انفاسَـه نسيـمُ طِلا قرقفُ

مـوردُ الخــدِّ فاتـرُ المقـــلِ
يفـوق ظبـى الكِنـاسِ بالكَحَـلِ
وينثنـــى كالقضيـبِ في الميَـــلِ
من فوقِ ردفٍ مثل الكثيبِ علا نبط بخصـر كأضلعـي نحـلا مُختطَفُ

ظبيٌ مــن التركِ يقنِصُ الأُسُـدا
مقرطق(١) قــد أذابنـي كمـدا
حــاز بديـــعَ الجمـالِ فانفـردا
واهاً لــه لو أجـارَ أو عـدلا لمستهـامٍ بهجـرهِ نحــلا مُدنفُ

غــزالُ سـربٍ جمـــالهُ شَـرَكْ
ستـرُ اصطبـاري عليـه مُنهتـكُ
لكـلِّ قلـبٍ هـواه مُنهتـكُ
علّمَ قلبـي الولـوعَ والغـزلا طرفٌ له بالفتورِ قـد كحـلا أوطفُ

للهِ يـومٌ بـــهِ الزمـــانُ وفـــى
إذْ مــنَّ بالوصلِ بعد طـولِ جفـا
حتـــى إذا ما اطمـــأنَّ وانعطفـا
أسفرَ عنــهُ اللثــامُ ثم جـلا ورداً بغيرِ اللحـاظِ منـه ولا يقطَفُ

فظِلْتُ مِـنْ فرطِ شـدة الترحِ
إذ زارنـي والرقيـبُ لـم يَلُـحِ
الثـمُ اقدامَـــه مـن الفـــرحِ

---

(١) مقرطق : مشتقة من القرطق ، وهو القبـاء ، معرب كرته الفارسي ، وقرطقته بقرطق اى ألبسته اياه فلبسه .

وقلتُ إذْ عن صدوده عــدلا : أهلاً مِــن بعدِ جفوةٍ وقِيــلاً اسعفُ(١)

هذه صورة واضحة عن الموشحات في بلاد الشام ، وكنا لاحظنا أن بعضها كان يتسم بالعذوبة والخفة في أوزانها الراقصة كموشحات ابن عربي والشاب الظريف وغيرهما . وبعضها الآخر كــان يتسم بالاغراق في الصنعة والتكلف كموشحات سراج الدين المحار وشمس الدين الدهان وغيرهما .

اطلع المغاربة على ثمرات هذا الفن في بلاد الشرق ، وقارنوها بما عندهم ، فوجدوا تباينا كبيرا بينهم وبين المشارقة ؛ اذ لمسوا في موشحاتهم اثر التكلف. وهو ــ في حقيقة الامر ــ متوقع حدوثه ؛ ذلك أن المذاهب الشعرية البديعة. لا بد لها من أن تؤثر قليلا أو كثيرا في هذا الفن الجديد . ولم يعد ابن سعيد الاندلسي (المتوفى سنة ٦٨٥ هـ) الحقيقة حين قال في كتابه « المقتطف من ازاهر الطرف » :

« أما المشارقة فالتكلف ظاهر على ما عانوه من الموشحات » (٢) .

استرعت هذه الظاهرة الهامة انتباه هذا الناقد ، لكــن ذلك لا يعني أن المشرق ما عرف في ادبــه بعض الموشحات الصوفية أو الغزليــة او الخمرية انعدم فيها التصنع ، وظهرت في بعضها نفحات أندلسية شذية .



(١) الصفدي : أعيان العصر (مخطوط) ج ٦ ق ١ و ١١١ ، وابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ٢٢١ ، والنواجي : عقود اللآلي (مخطوط) و ١٠ .

(٢) الاهواني : ابن سناء الملك ، ص ١٩٣ .

(٢)

الأزجال العامية

انتقل فن الزجل من مغرب العالم الاسلامي الى مشرقه ، وقد لقي اقبالا عليه من الجماهير بعامة ، واستحسانا من الادباء الذين قلدوه بخاصة .

عرفت بلاد الشام هذا الفن ، فلقي رواجا ، فاشتهر أمره ، وظهرت طبقة شعبية من الادباء الزجالين ، وجعلوا المبرز بينهم قيما او اميرا عليهم ، وشرعوا يتحدون الشعر العربي نفسه .

أبرز من درس هذا الفن الجديد استاذي الكريم الدكتور عبد العزيز الاهواني في كتابه عن الزجل في الاندلس ، فهو يعتقد « أن الشبه كبير بين التوشيح والزجل في أكثر من ناحية ، وخاصة في الشكل الخارجي وفي الاوزان ونظام القوافي ، وكذلك في بعض موضوعات القول والمعاني »(٢)، وهو ـ بالاضافة الى ذلك ـ يعتقد ، ويذهب « الى القول بوجود أصل مشترك ، ظهر في البيئة الاندلسية منذ عهودها القديمة ، كان له الفضل في ظهور التوشيح . وكان له أثر في استقلال الزجل وتطوره . ذلك الاصل هو الاغنية الشعبية »(٣) .

ظهر الزجل بعد الموشح ، على الارجح ، في أواخر القرن الرابع الهجري ، وتطور على أيدي زجالين مشهورين ، ولعل أبرز من أسهم في تخليص الزجل من التوشيح في القرن الخامس الهجري الزجال المشهور أخطل بن نمارة ، حتى اذا جاء القرن السادس ، بلغ الزجل عصره الذهبي على يد أبي بكر بن قزمان شيخ الصناعة . وقد عاش في النصف الاول من هذا القرن في عهد دولة

---

(١) الاهواني : الزجل في الاندلس ، ص ٢ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٣ .

المرابطين ، وعلى يد خليفته من بعده مدغّيس أحمد بن الحاج ، وقد عاش في النصف الثاني من هذا القرن في عهد دولة الموحدين .

اما في القرن السابع الهجري فقد حاقت المصائب بالاندلس . واتجهت الازجال نحو التصوف ، وبدات تنحدر في طريق الضعف . اما في المشرق فقد شهدت رواجا وازدهارا ، وبخاصة في الشام ومصر على السواء . اذ اقبلت عليه الفئات الشعبية المختلفة . ذلك أنه كان يتصف بالسهولة أولا ، ويتحلل من قيود الاعراب واللغة ثانيا ، ويعبر عن نفسياتها تعبيرا مباشرا باللغة العامية التي ينظم فيها .

انتشار الازجال في بلاد الشام

لقد بدأ الزجل في المشرق من النقطة التي وقف عندها في المغرب ، ويظهر ان التصوف الذي كان منتشرا على أوسع نطاق كان احد عوامل انتشاره سريعا وبخاصة على يد أقطاب المتصوفة في هذا العصر كابن عربي وغيره من الزجالين الذين اشتهروا في بلاد الشام . وكالششتري الذي تأثر بابن عربي، وخلفه في مذهبه الصوفي ، واستقر بعد ذلك في مصر .

لعل أقدم ماوصل الينا من الازجال الشامية التي مهدت الطريق لمن جاء بعد ذلك الزجل الرمزي الوحيد الذي عثرنا عليه في ديوان ابن عربي ضمن موشحاته ، وقد اورد فيه الفاظ الجواهر لأبي حامد الغزالي :

مطلع { يا طالب التحقق انظر وجودك
ترى جميع الناس عبيد عبيدك

المقطوعة {
قعدت في ساحل البحر الأخضر
الغصن { ارمت لي أمواجه الدر الأزهر
فقلت : لا تفعلي يا قوتي الاصفر

القفل { وارم فيه تطلع إلى محيدك

* * *

ارمات لي فا لحين مع در اكهب
فقلت : افيني عنبرك الأشهب
قالت : نعم إن كان تعمل لي مركب
من عودك الفواح وخذ نزيدك

* * *

زبرجدك اخضر ومسك أذفر
ودرياقك الأكبر (١) الله اكبر !
فأنا والمطلوب وقال وعزّر
لمن تردني قل إليك نزيدك

* * *

وامشي على الساحل واطلب وافتش
فان لقيت إنسان أعمى وأعمش
وقال : لمن تطلب ؟ فقل : لسيدك

* * *

يا طالب الصنعة دبّر حياتك
وانظر إلى الإكسير على صفاتك
تجده من ذاتك يسري لذاتك
مربع التركيب على وجودك

* * *

---

(١) نظن أنه يقصد على الاغلب الترياق .

كُبريتــك الأحمــر لقــد معلــوم
وهــو علــى التحقيــق أجــل معــدوم
خفــي ظهــر للعــين مرمــوز ومفهــوم
فــذاب قــد بانــت حــوار وزبــدك
وعمــت أســراره أركــان جديــدك

* * *

العبــد إذا فــرط لا بــد بنــدم
ويعمــل الحيلــة ولا يفيــد نــم
فقلــت : قــال قبلــك مــن قــدم تقــدم
مــن أول العاشــور انظــر فعيــدك
الحيلــة وقــت الضيــق ما ليــس يفيــدك(١)

* * *

يظهر أن ابن عربي رمز في هذا الزجل الى ما جـاء في كتاب احياء علوم الدين للغزالي عن ألفاظ الجواهر في معرض حديثه عن الحور والجنان يوم القيامة . وهذا الزجل مؤلف مـن المطامع وسبع مقطوعات ، وكـل مقطوعة مؤلفة من غصن وقفل . وقد جعل قفلي المقطوعتين الاخيرتين مزدوجتين كما جاء في قفل المقطع،وخالف بذلك سائر المقطوعات السابقة التي جاءت رباعية، ويظهر أن هذا الاسلوب الرباعي ساد فيما بعد بدليل أن قفل المقطوعة الرابعة:

مــربــعْ التركيــبْ علــى وجــودكْ

يشابه كثيرا قفل زجال كبير هو علاء الدين بن مقاتل ، وقد ظهر أمره في أواخر القرن السابع . ومما قاله يخاطب أبا الفداء في مجلس اجتمع فيه ابن نباتة المصري وصفي الدين الحلي :

---

(١) ديوان ابن عربي ، ص ٢١٤ ، ٢١٥ .

من كـــل بيـــت مربَّـــعْ   ملحـــونٌ بألف معـــربٌ (١)

مهما يكن من أمر فجدير بالذكر أن الزجل انتشر في بلاد الشام في مجالس المتصوفة . ولا يمنع هذا انه كانت قبل ذلك محاولات مبدئية . ويظهر أنها لم تشتهر ويكتب لها النجاح . اذ اننا لم نعثر على أقدم من زجل ابن عربي .

درس المتشارقة هذا الفن كالموشح ، وحاولوا أن يتعرفوا أسراره ويقلدوا أساليبه . وكما فعل ابن سناء الملك في كتابه « دار الطراز » لشرح طريقة عمل الموشحات . وايراد نماذج مختاره منها ، فان الشاعر صفي الدين الحلي قام بالدور نفسه بالنسبة لفن الزجل في كتابه الهام : « العاطل الحالي والمرخص الغالــي » .

وضح لنا الفرق بين الموشح والزجل ، فذكر انه سمّى « كل ما أعرب موشحا ، وكل ما خلا من الاعراب زجلا . وما اشترك فيه الاعراب واللحن مزنما في أي فن قصد الناظم »(٢). كما فرق الشاعر بين الزجل والبليق فقال: « وقد قسموه الى أربعة أقسام ،يفرق بينهما بمضمونها المفهوم لا بالاوزان واللزوم ، فلقبوا ما تضمن الغزل والنسيب والخمري والزهري زجلا ، وما تضمن الهزل والخلاعة والاحماض بليقا . وما تضمن الهجاء والثلب قرقيا ، وما تضمن المواعظ والحكمة مكفرا ، وأطلقوا على كل ما أعرب بعض ألفاظه، من هذه الفنون لقب المزنّم (٣) » .

يظهر أن النوع الثاني من الزجل المعروف بالبليق نشأ في مصر والشام ، بدليل أن اسمه مستق من اسم طائر جميل يدعى بالطائر الابلق ، وهو معروف بكثرة في بلاد الشام بأبي بلبق . ويجمع ريشه بين اللونين الاسود والابيض . حاول الحلي في كتابه المذكور أن يقتصر على الحديث عن أسلوب الزجل ما

---

(١) النواجي : عقود اللآلي (مخطوط) و ٢٠ وابن حجة : الخزانة ، ص ٤١ .
(٢) الحلي : العاطل الحالي ، ص ١٢ .
(٣) الحلي : العاطل الحالي ، ص ١٠ .

يجوز فيه وما لا يجوز ؛ وأهمل التحدث عن الزجالين انفسهم ، فأشار الى اسماء بعضهم . واكتفى بشواهد قليلة من ازجالهم . كنا نود لو ذكر شيئا عن نضج فن الزجل في المشرق، ولا سيما انه كان معاصرا لفترة الازدهار. بيد أنه لم يفعل . ونحن نجد بين أيدينا ما يؤكد اشتهار هذا الفن . لكننا لا نملك دواوين شعرائه لنعرضها على بساط البحث . وجدير بالذكر أن مشاهير الزجالين كانوا من الطبقات الشعبية الكادحة التي تعمل في الصناعة أو التجارة.

لا نعرف من زجالي هذا العصر غير اثنين أدركا من القرن السابع شطرا منه وافيا . فقضى أحدهما جل حياته . وقضى ثانيهما شرخ شبابه وهما الامشاطي وابن مقاتل .

أما الامشاطي(١) فلا نعرف عنه الا قليلا ؛ وهو أنه كان « قيم وقته في الازجال والبلاليق »(٢) . كما ذكر صفي الدين الحلي أنه كان « قيم الشام »(٣) في الزجل . وأشار الى أنه أرسل اليه زجلا مديحا . وقد أجابه على الوزن والقافية بزجل مطلعه قوله :

أش تجد لك بقتلي غبطه يا الذي نعشقو

لو ندع ما تبقى من عمري كان عليك ننفقو

وجاء بعد ذلك قوله :

لس لنا إلا أن نسير الأزجال للأديب الأجلّ

أحمد الأمشاطي أديب الشام وإمام الزجلّ

من إذا ما مدحتو قال الناس : يا ما تلقى خجل

---

(١) شهاب الدين ، احمد بن عثمان الامشاطي ، ولد سنة ٦٦٥ هـ تقريبا ، وكان قيم الشام في وقته في الازجال والبلاليق وغير ذلك من الفنون . توفي في شهر رمضان سنة ٧٢٥ هـ .

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ١ ص ٢٠١ .

(٣) الحلي : العاطل الحالي ، ص ١٠٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ون طلب وصفو شعري قال فكري : صب لذا محمقّـو
أش تصفـ خلقـو أو سمـاح كفـو أو درر منطفـو

* * *

يا بن عثمان أت هو ابن قزمان بل هـو إليك اعتـزى
لو أقـاموا القـاف مقـام العـين وأبدلـوا الشابـزا
كان يقولوا الصحيح ، وكان من قـال لن يخب لو جزى
إنمـا النـاس في اكثـر الألفـاظ بالصـواب بزهقـو
وأنـا ما كـان درت بـذا المعنـى قبـل نتحققـو (١)

أشار الحلى في المقطوعة الاخيرة من زجله الى ان هذه الخرجة « هي مطلع زجل ابن قزمان الذي نظم الاديب احمد الامساطي زجله تبعا له(٢)» .

لا نعرف من أزجال الامنـاطى قيم الزجالين في عصره غير المقطوعة الاولى من زجل يقول فيه :

لـك خـد مـا آحْ   قـد حـاز ملـحْ
روضـو اصطبـحْ   فيـه واغتبـقْ
خـال مـن سبـج   اسبـى المهـجْ
زهـرو خـرجْ   واظهـر فـرجْ

من هام به ليس يلامْ (٣)

وقد ذكر عنه أنه عايا بهـذا الزجل ابن مقاتل . وأول زجله قوله في المقطوعة الأولى منه أيضا :

---

(١) الحلي : العاطل الحالي ، ص ١٠٥ – ١٠٨ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٨ .
(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ١ ص ٢٠١ .

طـــرفي لمـــح بــــدر اتضـــحْ
لي فيـــه ملـــــح مـــا هـــو حـــدقْ
إذا اختلــــجْ قبـــه الدعـــجْ
يسبى المهــــجْ ولا نســــــحْ
قـــام عـــــذار ولام (١)

وأما ابن مقاتل (٢) ، فهو أمر الزجل في عصره ، وهـو بعـد بمثـل عصره الذهبي وقد ذكره ابن حجـة كثيراً في خزانـه . ونوه بأمره ، فقال : « إذا ذكر الزجل كان ابن بجدنه ، وأبا عذرته ، وممن سلمت إلـه مقالبـد هذا الفن (٣) » .

كان حظنـا من هذا الزجال في العصر الذي ندرس شبابه وفرة نضجـه ذلك أنه قضى شطر حياته الأوفى في العصر الذي يلـه ، ولا بأس أن نقف فنره عنده ، إذ إنه يمثل في الواقع مرحلة ختامية متممة للادب في هـذا العصر . وجدير بالذكر أنه اتجه بهـذا الفن نحو الاساليب البديعيـة كما رأينا الاتجاه نفسه من قبل في فن التوشيح .

ذكر ابن حجة عدة ازجـال له ، فأورد منها في باب الجناس اللفظي زجله الذي جانسه بالظاء والضـاد وذكر أنه لم يسبق إليه ، ومطلعه قوله :

إن مــع معنــوفي جفـــون ولحاظْ
لو رآهـم عابـــد لهـــام وحاض (٤)

وهو مؤلف من أربع مقطوعات بالاضافة الى المطلع ، ان كان ما أورده ابن حجة كاملا . وذكر منها ايضا في الجناس اللفظي المقلوب الذي التزمـه

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٠١ .
(٢) علاء الدين ، علي بن مقاتل بن عبـد الخالق الحموي : الـاجر الزجال ، ولد بحماه سنة ٦٧٤ هـ ، وغلب عليه نظم الازجال دون غيرها ، فاشـهر بها وأسـح أمامها ، وقد توفي سنة ٧٦١ . (ابن تغري بردي ، المنهل الصافي (مخطوط) ، ج ٢ و ٤٥١ ، وابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٣ ص ١٣٣) .
(٤) المصدر السابق، ص ٣٨ ، ٣٩ .

في جمبع الخرجات ، وقد مدح به الملك المؤيد ابا الفداء ومطلعه قوله :

قلبي بحب نيـــاه　　لبس بعتق إلا إبـــاه

وختامه قوله المشهور الذي يتحدى به اللغة الفصحى :

كم خصم في المقاتل　　صابوا ابن مقاتل
وكم ذا في المحافل　　قد أنسالو جحافل
من كل بيت مربع　　ملحون بألف معرب (١)

ونقف عند زجل غزلي أورده ابن مبارك شاه في سفنته ، ورنه مستفعلاتان ، ومطلعه قوله :

محبوبي يهنيك جماله　　وتملك شيئين لغيرك ما تليق

الله يهنيك

ما عدت تقرأ جوى حوى　　در الحقائق
ولك عيون سيفين جوا　　هو لا بوارق
لكن وحياتك حواليها طوا　　رق لها طوارق (٢)

ونذكر له أخيراً زجلا مشهوراً ايضا ، قاله في مليح خياط ، وقد التزم فيه التوجيه بصناعة الخياطة (٣) ، ويبلغ عدد مقطوعاته إحدى عشرة ، ومطلعه قوله :

نهوى خياط سبحان تبارك من　　بالجمال جملو
بالمفصل وآية الكرسي　　نرقي شكلو الحلو

---

(١) النواجي : عقود اللآلي : (مخطوط) و ٢٠ ، وابن حجة : الخزانة ، ص ٤٠ ، وابن مبارك شاه : السفينة (مصورة المخطوطة) ل ٥٧٥ .

(٢) ابن مبارك شاه : السفينة (مصوره المخطوطة) ل ٥٧٥ .

(٣) النواجي : عقود اللآلي (مخطوطة) و ٢٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتعرض في المقطوعة الاخيرة بذكر اضداده وخصومه في دمشق :

ذا الزجــل قاسيـــون على الاعــدا جد ما فيه سخفا
وعلى أربـــاب المعـــرفـــة رشن النعــامــات أخفا
للصغــبر والكبـــير ففـــل عنـي واحذر أحذرنخفا
كـم زيــادة على وإن كـــــــان شتهوا نعمـــلوا
هذا الأبلق والشقـرا والميـــــدان اركبوا وادخلوا (١)

أورد ابن حجة هذا الزجل في باب التوجيه . واشار الى أن بعض من أدركه من الاعيان اخبره « أن هذا الزجل دخل إلى بلاد المغرب وعاد مخلقا بالزعفران (٢) » .

حكم المغاربة على الموشحات الشرقية بانها متكلفة يغلب عليها التصنــع ، واليوم يشهد مسرفى على الزجل المترقي . ويبين أن بضاعتهم من هـــذا الفن دخلت بلاد المغرب ، وردت اليهم ، فاعجبتهم . وعادت بعدها إلينـــا مخلقـــة بالزعفران .

ضاعت معظم أزجــال هـــذا الزجال الكبير ، وهي كثيرة . كانت مجموعة في ديوان كبير مؤلف من مجلدين (٣) . لقى هذا الفن إقبالا كبيرا من الطبقات الشعبية ومن جمهور الادباء والنقاد ، وجدير بالملاحظـــة أن كتب الأدب أدخلت هـــذا الفن في شواهدها ، حتى إن الشيخ شمس الدين بن الصائـــغ أورد في شرحه الذي سماه « رقم البردة » شيئاً من محاسن الزجال عصره على بعض أنواع البديع (٤) . ونجـــد الأمر نفسه عند ابن حجة : فقد أورد كثيرا من أزجال ابن مقاتل في حديثه عن الجناس اللفظي والمقلوب (٥) ، وعن

(١) ابن حجة : الخزانة ، ص ١٤٢ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٤١ .
(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٣ ص ١٣٤ .
(٤) ابن حجة : الخزانة ، ص ٥ ، ٣٨ .
(٥) المصدر السابق ، ص ٣٨ — ٤٠ .

التوجيه (١)، وعن ذكر العكس (٢) ، وغير ذلك. وقد أورد بعض هذه الأزجال كاملة ، وهي التى اعتمدنا عليها في هذه الدراسة .

كما أشار خلال ذلك إلى طرق قراءة الزجل وكتابته . فذكر قوله « كأني بمتأمل نظر في رسم كتابة هذا الزجل ، فأنكره لبعده عن رسم الألفاظ المعربة الخالية من اللحن ، ويعذر في ذلك من ليس له إلمام بمصطلح رسمه ، ومن رسمه على غير هذا الطريق لم ينفذ له مرسوم فانه يؤديه الى خطأ وزنه وإعراب لحنه » (٣) .

تطور فن الزجل ، فقد كان الزجالون ينظمونه دون ان يتكلفوا فيه التصنع البديعى ، وقد أشار صفى الدين الحلى إلى هذا الامر ، واظهر فضل المتأخرين منهم على المتقدمين بسلامة النظم ورقة اللفظ ، والبعد عن الركاكة ، وتتبع صنائع البديع ، واستطرد بعد ذلك قائلا : « تتبعت ازجال المتقدمين ، ولم أجد لهم لفظة تجنيس ولا تطبيق ، ولا تورية ولا توجيه ، ولا لفظة واحدة قصد بها الناظم صنعه من صنائع البديع ، فمثل ازجالهم عندي لرقة الفاظها ومثل أزجال المتقدمين كمثل أشعار المولدين وأشعار الجاهلين في رقة الالفاظ ووحشيها ، لا في الصحة والسقم ، ولقد رأيت جماعة منهم يعيبون الفاظ القدماء لبعدها عن الصنائع وسلامة الالفاظ ، وأنا على مذهبهم ، وللناس فيما يعشقون مذاهب » (٤) .

* * *

نخلص مما تقدم معنا الى القول ان الزجل أصبح فناً مستقلا يجمع بين طبقة من الادباء والفئات الشعبية المختلفة ، فهو أولا صورة عن الادب

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٤١ ، ١٤٢ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٦٣ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٤٢ .
(٤) الحلي : العاطل الحالي ، ص ٩٨ ، ٩٩ .

الشعبي الذي فرض على طبقة الادباء بحكم انتشاره الكبير ورواجه بين الناس ، وكان معظم المبرزين من رجاله هم من أصحاب الحرف كالتاجر ابن مقاتل ، والامشاطي شهاب الدين احمد . وهو بعد ذلك صورة عن بعض الاتجاهات الادبية الجديده في هذا العصر ، فاخذت بزمامه فئة من الادباء والمثقفين ، فطبعته بطابع العصر ، وادخلت فيه المذاهب البيانية والبديعية والاسلوبية ، وحسبت ، أنها تستطيع ان تتفوق على ازجال المغاربة ، وفي هذا القول نظر .

* * *

(٣)

الرّباعيّات أو الدّوبيتات

فن شعري جديد عرفه العرب في المشرق ، وانتشر في بلاد الشام ومصر وغيرهما ، وكان معروفا من قبل عند الفرس باسم « الدوبيت » ، ينظمونه بلغتهم الخاصة . ومعروف أن الجزء الاول من اسمه معناه اثنان ، وهو مؤلف من بيتين اثنين ، وقد سماه العرب باسم الرباعي لكونه مؤلفا من اربعة مصاريع ، وسموا الواحدة منه (رباعية) . وأوزانه كثيرة اشهرها :

(فعلن متفاعلن فعولن فعلن)(١)

واما انواعه فثلاثة : اولها يكون بأربع قواف كالمواليا ، وثانيها يكون بثلاث قواف ، ويدعى اعرج ، وثالثها يكون بأربع ايضا ، ويسمى مردوفا ، وهي كلها على وزن واحد ، ويتميز من غيره لتحليه بالاعراب ونسجه على منوال لفظ الاعراب (٢) .

ادخل الدكتور جوده الركابي قضية الزحاف الذي يطرا عليه ، فوجد ان عددها قد بلغ اربعة وعشرين نوعا (٣) .

انتشر هذا الفن الاعجمي ، وأكثر الشعراء من نظمه ، وخصصوا له دواوين مستقلة لاهميته في هذا العصر ، ونذكر من ذلك أن الشهاب

---

(١) : العاطل الحالي ، ص ٦ .

(٢) الرجوي : بلوغ الامل (مخطوط) و ١٩ .

(٣) الركابي : Rikabi : Poesie Prophane, P 186 .

الشاغوري الشاعر المار ذكره، نظم ديوانا خاصا « جمع ما فيه دوبيت » (١) ، وقد رآه ابن خلكان ونقل منه قوله :

الـوردُ بوجنتيـك راهٍ زاهـــرْ والسحرُ بمقلتيـكَ وافٍ وافـــرْ
والعاشقُ في هواكَ ساهٍ ساهر يرجو ويخافُ ، فهو شاكٍ شاكرْ (٢)

كما أشار ابن ابي اصيبعة في ترجمة حكيم الزمان عبد المنعم الجلياني خلال ذكره تصانيفه الى « ديوان الغزل والتشبيب والموشحات والدوبيتي وما يتصل به » (٣) .

وللعماد الكاتب ايضاً « ديوان صغير ، جمعه دوبيت » (٤) . وقد روى أبو شامة امثلة منه في معنى الجهاد ، قالها على لسان الملك العادل نور الدين . وهي قوله :

للغـزوِ نشـاطي ، وإليـه طَربي مالي في العيشِ غيره مِنْ اربِ
بالجـدِّ وبالجهـادِ نجحُ الطـلبِ والراحـةُ مستودعـةٌ في النعبِ

وقوله :

لا راحةَ لي في العيشِ سوىأن اغزو وسيفي طربـاً إلى الطِلى يهـتزُّ
في ذلِّ ذوي الكفرَ يكونُ العـزُّ والقـدرةُ في غيرِ جهـادٍ عجزُ

وقوله :

أقسمتُ سوى الجهادِ ما لي أربُ والراحـةُ في سـواه عنـدي تعبُ
إلاّ بالجـد لا يُنـالُ الطـلبُ والعيشُ بلا جهـادِ جـدَّ لعبُ (٥)

---

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ١ ص ٤٠٨ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ١ ص ٤٠٨ .
(٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الانباء ، ج ٢ ص ١٦١ .
(٤) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ١ ص ٧٧ .
(٥) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٠٧ .

كما عثرنا على مقطوعتين رباعيتين من الديوان المذكور ، إحداهما قالها في رثاء الناصر صلاح الدين :

قالَ الملكُ النــاصرُ : مَنْ كلّفني في الجودِ بغيرِ صفتي فما أنصفنــي
مــا يعــلمْ أنّ ذلــك الملك فنــي لم يبقَ مِنَ الجــودِ إلا كفني (١)

والرباعية الثانية قالها يتشوق اوان المشمش في دمشق :

المشمش لانتظـــارنــا مصفــرْ والــروض إلــى لقائنــا مفــترْ
فمْ نغتنمِ الوقتَ فهــذا العمــرُ لا لبث لــه فمــن بــه يغتــرّ (٢)

وجدير بالذكر أن الرباعيات الست هي كل ما وصلنا من الديوانيين المذكورين آنفا ، ويلاحظ انها من النوع الاول :

ومن هذا النوع ايضاً قول ابن قسيم :

يا منْ سلبَ الفؤادَ ، أين العوض ؟ اصميتَ ، وقلّما أصيب الغــرضُ
إن كانَ بكيــدهِ لــك المعتــرضُ فالجوهرُ انتَ، والأنامُ العرَضُ (٣)

ومنه قوله الكلبي :

ويــلاهُ على المهفهفِ الميّـــاسِ ما احسنَه ، وهــو بقلبٍ قــاسِ
يهتـــز كـأنــه قضيبُ الآسِ سكران ، لم يذقْ حمياّ الكأسِ (٤)

ومنه قول التلعفري :

---

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢١٤ .
(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ٢١١ .
(٣) العماد الكاتب : الخريدة ، ح ١ ص ٤٥٤ .
(٤) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٤٥٤ ، وقد أورد شواهد مختارة من رباعيات عرقلة ، نشير منها الى مقطوعاته الواردة في الصفحة ١٨٩ ، ١٩٤ ، ٣١٨ من الجزء الاول .

ما أحسنَ ما يكونُ منْ تهـــواه ... في حضنـكَ والنعـاسُ قد غشّـاه
أوصيـكَ إذا تنرجستْ عينـاهُ ... قـمْ مصّ لسـاته وقبِّل فاه (١)

ومنه قول الوداعي :

لمـا حجبَ الكرى عـن الآمـاقِ ... ما احسنَه ، وهـو بقلب قـاس
ناديتُ وقـد تزايـدتْ اشـواقي : ... يا غصنُ رضيتُ منك بالأوراقِ (٢)

لاحظنا في الرباعيات المذكورة آنفا ان حرف الروي في قوافي المصاريع الاربعة واحد لم يتغير . ويظهر ان الشعراء اكثروا من هذا النوع .

ومن النوع الثاني قول الوداعي نفسه :

يا غصنَ نقـاً اينـعَ بالأزهـارِ ... يا الطفَ من نسيمةِ الأسحـارِ
ريحـانُ عذارِك الذي تيمـني ... مَنْ ولّده مِن قـلمِ الأشعارِ (٣)

ومنه قول ابن دمرتاش (٤) :

الصبُّ بك المنعوبُ والمنصـوبُ ... والقلبُ بـك المسوبُ والمسلوبُ
يا من طلبتْ لحاظُه سفـكَ دمي ... مهلا ، ضعفَ الطالبُ والمطلوبُ (٥)

ومنه قول الشاب الظريف :

قاسيتُ بك الغرامَ والهجرَ سنـينْ ... ما بـين بكـا وأنـينِ وحنـينْ

(١) ديوان التلعفري ، ص ٦ .
(٢) ابن حجة : الخزانة ، ص ٢٨٢ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٢٨٢ .
(٤) محمد بن محمد بن مكي بن عيسى بن دمرتاش الدمشقي ، العدل شهاب الدين ، أبو عبد الله . كان في شبيبته جنديا في حماة ، وخدم ملكها المنصور ، وكان صديقا للشاعر محيي الدين محمد بن نميم ، وهو الذي دخل بسببه الجندية ، وبقي في حماة عشرين عاما ، ولما أسن ترك الجندية ، ودخل في ري العدول ، وجلس بمركز الرواحية حتى توفي سنة ٧١٣ هـ . اشتهر هذا الشاعر بنظم المقطوعات الصغيرة ، وقد وصفها الصفدي بقوله : « اذا دعا المعنى الغامض كان له مجيبا ، واذا نظمه كان عجيبا . له غوص على المعاني ، وألفاظه أطرب من المثالث والمثاني ، له مقاطيع أعذب من أيام الوصال ، واشهى من حبيب كرمت منه الخصال » (الصفدي أعيان العصر (مخطوط) و ٢٨٢) .
(٥) الصفدي : أعيـان العصر (مخطوط) و ٢٨٧ ، والوافي بالوفيـات ، ج ١ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٦ .

ارضيـــك ولا تزدادُ إلا غضبـــــاً ... الله ــ كما أبلى بك القلبَ ــ يعينْ (١)

ومنه قول التلّعفري :

لـــو باتَ بمـــا اجنْــه مكتــرثـــا ... ما خانَ . ولا كان لعهدي نكثـــــا

يبـــدو فيقول كـــلُّ من ينظــرُهُ : ... سبحانكَ ما خلقت هـــذا عبثا (٢)

نلاحظ في معظم الرباعيات التي اوردناها ان السعراء يحاولون ان يعطونا صورة عن المحبوب . ويعبرون عن عواطفهم ومشاعرهم ، فهي بحق ومضة صادرة من اعماق النفس . وكثرا ما كان الحوار بارزا فيها ، وكأنها ترمز لنا بايجاز خلال قوافيها الرباعية والثلاثية لما يريد أن يعرفنا به من صورة المحبوب أو حواره أو احواله . نضاف الى ذلك ظهور التصنع البديعي في بعض الاحيان .

كما كان للمتصوفة نصيب ايضا في الدوبيت . فنظموا فيه كثيرا من معانيهم ، فهو بأسلوبه وشكله يلائم تماما المعاني الرمزية والتعابير الخاصة التي نعثر عليها في كتب المتصوفة .

ترجع اهمية هذا الفن الذي حدا بالعماد الكاتب والشهاب الشاغوري أن ينظما فيه ديوانين . الى انه يعبر عن رغبة اكيدة لدى طائفة من الناس الذين تقبلوه وطائفة من الشعراء الذين استهواهم للتحرر مـــن قيود الوزن والقافية في الشعر العربى .

يضاف الى ماذكر أن هذا النمط الاعجمى يحمل طابعا غنائيا محببا ، ولا اعدو الحقيقه إن قلت إن هذا الفن وجد ليكون مادة غنية بالعواطف والاغزال، ويستمد منه المغنون ما يريدون غناءه وتلحينه من مقطوعاته .

---

(١) ابن شاكر : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ٢٦٧ .

(٢) ديوان التلعفري ، ص ٦ .

(٤)
المواليات الشعبية

فن مشرقي آخر جديد ظهر بين الطبقات الشعبية ، وقد ذكر في نشوئه ان اول من نطق بــه اهل واسط (١) ، وقــد ذكر صفي الدين انه « سمي بهــذا الاســم لأن الواسطيين لمــا اخترعوه ، وكان ســهل التناول لقصره ، تعلمه عبيدهم المتسلمون عمارة بساتينهم ، والفعول ، والمعامرة ، والاباارون، فكانوا يغنون به في رؤوس النخيل ، وعلى سقي الميــاه ، ويقولون في آخــر كل صوت مع الترنم : ياموا ليا ! إشارة إلى ســاداتهم فغلب عليه هــذا الاسم » (٢) .

المعروف ان هذا الفن كان في بدئه معرباً ، وله وزن واحد ، وأربع قواف على روي واحد ، وقد اقتطعه الواسطيون من بحر البســيط ، وجعلوه بيتين وقفوا شطر كل بيت منها ، وسموا الأربعة صوتاً (٣) ، واستخدموه في الغزل والمــدح والهجــاء (٤) .

انتقل هذا الفن الى بغداد، فاستعمله عامتهم(٥)، فلطّفوه ونقّحوه ورقّقوه ودقّقوه ، وحذفوا منه الاعراب ، واعتمدوا على سهولة اللفظ ورشاقــة

---

(١) وضح الرجوي الخلاف حول تسمية هذا الفن ، فذكر أنه سمي به لموالاة بعض قوافيه بعضا ، وقيل : لان أول من نطق به موالي بني برمك ، أو لانه كان أحدهم اذا نعى مواليه يقول : يامواليا ، ياموا ليا ، كمــا نقل عن الجلال ، فهو على الاول (موالي) بضم الميم وفتح الواو وكسر اللام على صيغة الجمع ، أو (مواليــا) بزيادة ياء المكلم ، وادغام الياء في الياء ، ولحوق الالف للاشباع ، ويحتمل عدم شديد الياء تخفيفا فاني لم أر نصــا على ضبطه ، (الرجوي : بلوغ الامل ، و ٢٠) .

(٢) الحلي : العاطل الحالي ، ص ١٣٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٣٣ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٨ .

(٥) ابن خلدون : المقــدمة ، ص ٥٥٧ .

المعنى ، ونظموا فيه الجد والهزل ، والرقيق والجزل [١] . ويظهر أن حادثة البرامكة ساعدت على سرعة انتشاره بين الناس ، فقد ذكر أن هرون الرشيد لما أمر بقتل جعفر البرمكي أمر الا برتى بشعر ، فرنته جارية له بهذا النوع من الشعر ، وجعلت تنشده وتقول : « ياموّاليا » كما كان يقول أهل واسط ، وكانت تنشد بعد ذلك :

يا دارُ ، أين ملوكُ الارضِ ؟ أينَ الفرسْ ؟

أين الذين حموها بالقنا والنرسْ ؟

قالتْ تراهمْ رممٌ تحتَ الاراضي الدرسْ

سكوتٌ بعدَ الفصاحةِ ، السنتهم خرسْ [٢]

ومن بغداد انتقل هذا الفن فشاع في سائر الامصار ، وقد عرف في مصر والشام وغيرهما .

ذكر ابن خلدون أنه عرف في مصر بين اهلها ، وانهم « أتوا فيه بالغرائب ، وتبحروا فيها في اساليب البلاغة بمقتضى لغتهم الحضرية . فجاؤوا بالعجائب » [٣] .

وعرف هذا الفن في بلاد الشام ، وقد نظمه الشعراء ، ولحنه المغنون ومن الشعراء الذين عثرنا لهم على بعض المواليا الحكيم [٤] ابن السويدي [٥] [٦] ، وكان أسرع الناس بديهة في قول الشعر ، ومما قاله في هذا الفن :

---

(١) الحلى : العاطل الحالي ، ص ١٣٣ .

(٢) الرجوي : بلوغ الامل (مخطوط) و ٢٠ .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٥٥٧ .

(٤) عز الدين ، أبو اسحق ابراهيم بن محمد بن طرخان الحكيم الانصاري ، المعروف بابن السويدي ، شيخ أطباء دمشق . ولد سنة ٦٠٠ هـ ، وكان بالاضافة الى تضلعه من الطب اديبا مشهورا ، وقد ذكر معاصروه أنه كان أسرع الناس بديهة في قول الشعر وأحسنهم انشادا . ومن مؤلفاته « الباهر والجواهر » و « التذكرة الهادية » في الطب (ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ١ و ٣٢ ، ٣٣ ، والنجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٢٨) .

(٥) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي (مخطوط) ج ١ و ٣٢ ، ٣٣ ، والنجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٢٨ .

(٦) السويدي نسبة الي السويداء وكان أبوه تاجرا بها . انظر تاريخ الاسلام الذهبي .

البدرْ والسعدُ ، ذا شبهكْ ، وذا نجمكْ

والقــدْ والحُسن : ذا رمحكْ ، وذا سهمكْ

والبغض والحبْ : ذا قسمى ، وذا قسمكْ

والمسكْ والحسن : ذا خالك . ودا عمك (١)

والطريف عند ابن السويدي أنه حاول أن يتهكم على اللغة الفصحى . كما رأينا عند الزجال ابن مقاتل . وذلك على لســان فتاة حدثت أختهــا ، وغرضها أن تعبث به :

ذي قايلة لأختها ، والقصد تسمعنا : ما النحو ؟ قالت لها : نحنا بأجمعنا

الرفع النصب : نا وانت ومن معنا للجر ، والزوج حرف جاء للمعنى(٢)

يلاحظ في هذه المقطوعة التعبير الساذج عن نفسية فتاة عابثة ، حاولت أن تداعب حبيبهــا وهى تتعرض له وتسمعه صوتها ، وما عرفنا في الشعر العربى مثل هذا الاسلوب في مخاطبة الفتاة من تحبه الا نادراً .

لم يقصر شعراء المواليا هذا الفن على الغزل ، وإنما استخدموه في بعض الاغراض الاخرى . نذكر من ذلك المواليات التي نظمها الشيخ رشيد الدين سعيد بن علي البُصراوي في الزهد :

كيف اعتمدتَ على الدنيا وتجريبكْ أراكَ فلْك تراها كيف تجري بكْ

ما زالت الخادعة تدنو فتغري بكْ حتى رمتك بابعــادكْ وتغريبكْ (٣)

ذكر السيوطي أنه يجب في هذا الفن اللحن ، وعليه فتجوز فيه استعمال الالفاظ الجارية في تخاطب العوام من الناس لفظاً وخطاً معاً لانك نظمت

---

(١) ابن تغري بردي : المهل الصافي (مخطوط) ج ١ و ٣٢ ، ٣٣ ، والنجوم الزاهرة : ج ٨ ص ٢٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ و ٣٢ ، ٣٣ .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهره ، ج ٧ ص ٣٦٧ .

به حسب التخاطب، وأخذت تكتب على قوانين الرسم المقيدة مراعيا الحروف لغيرت وضع ما نطقت به، وخالفت حروفه، وكسرت وزنه، وفوت غرض الناظم عليه من تجنيس وغيره (١).

أورد ابن حجة في خزانته بعض مقطوعات المواليات في معرض حديثه عن التوجيه (٢) وغيره، واختار للمعمار عدة مقطوعات أخرى من هذا الفن (٣).

تلك هي صورة عن هذا الفن المستحدث، وقد لقي إهمالا ممن تصدوا لدراسة الشعر الايوبي، فهو معروف حتى الآن بين الفئات الشعبية المختلفة في البلاد العربية، ينظمونه ويغنونه.

* * *

---

(١) الرجوي: بلوغ الامل (مخطوط) و ٢١.
(٢) ابن حجة: الخزانة: ص ١٧٤، ١٧٦، ٢٥٢، ٢٩٠، ٤٢٩، ٤٩١.
(٣) المصدر السابق، ص ٢٩٠.

(٥)

المسمطات والمخمسات

ظهر فن التمسط في اواخر القرن الرابع الهجري . وانتشر في القرن الخامس ، ولا يعرف على الضبط من هو أول من اخترع هذا الفن الجديد ، ونظم فيه أوائل المسمطات الشعرية . ولعل أول من تحدث عنه ابن رشيق في عمدته . وذلك في باب التقفية والتصريع ، فتحدث عن نوع غريب من الشعر سماه الناس « الفوادبسي » (١) وتحدث بعد ذلك عن الشعر المسمط .

نشأ هذا الفن نشأة شعبية بادىء أمره بدليل أن ابن رشيق ذكر أنه لم ير فيه متقدماً حاذقاً صنع شيئاً منها « لأنها دالة على عجز الشاعر وقلة قوافيه ، وضيق عطنه » (٢) .

والغريب أن النقاد ينسبون الى امرىء القيس قصيدة مسمطة (٣) شك بعضهم في نسبتها إليه ، واغلب الظن أن منتحلها حاول من خلال ذلك أن يرفع من قيمة القصائد المسمطة بعد أن لقيت مقاومة فحول الشعراء .

مهما يكن من أمر ذلك ، فقد انتشر هذا الفن في بلاد الشام . وعرف عند أسامة بن منقذ وغيره .

أما تسمية هذا الفن فيذكر ابن رشيق أن اشتقاقه من السمط ، وهو أن تجمع عدة سلوك في ياقوتة او خرزة ما ، ثم تنظم كل سلك منها

---

(١) ابن رشيق : العمدة ، ج ١ ص ١٥٤ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٥٧ .
(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٥٧ .

على حدته باللؤلؤ سيراً ، ثم نجمع السلوك كلها في زبرجدة أو شبهها أو نحو ذلك . ثم تنظم ايضا كل سلك على حدته ، وتصنع به كما صنعته أولا إلى أن يتم السمط (١) .

وضح أبو القاسم الزجاجي سبب هذه التسمية ، وعلل التشابه بين الاسم والمسمى بقوله « وإنما سمي بهذا الاسم تشبيها بسمط اللؤلؤ ، وهو سلكه الذي يضمه ويجمعه مع تفرق حبه ، وكذلك هذا الشعر لما كان متفرق القوافي متعقبا بقافية تضمه ونرده الى البيت الاول الذي بنيت عليه في القصيدة ، صار كأنه سمط مؤلف من أشياء متفرقة » (٢) .

والقافية المقررة في السمط تسمى عمود القصيدة (٣) ، وهو بعد هذا على انواع تختلف باختلاف عدد الاقسمة زيادة ونقصانا ، واستهلالها بالابيات ، وأفضلها في نظر ابن رشيق ما توخى الشاعر فيه الاعتدال .

أما أشهر هذه الانواع فهو المنسوب الى امرىء القيس ، وهو أن يبتدىء الشاعر ببيت مصرّع ، ثم يأتي بأربعة أقسمة على غير قافيته ، ثم يعيد قسماً واحداً من جنس ما ابتدأ به ، وهكذا إلى آخر القصيدة (٤) .

كثرت في هذا العصر المسمطات وتعددت انواعها ، فقد عرف منها المخمسات وهي أشهرها ، والمربعات وهي غير الرباعي المار ذكره ، والمسبعات .

نظم أسامة أربع قصائد في فن المسمطات ، أفردها عن أبواب ديوانه ، وألحقها به ، وقد اتخذها أسلوبا خاصا ، وهو أنه كان يختار قصيدة لشاعر معروف ، ويجعل أبياتها أو بعضها الوحدة الثانية التي تشترك في سمط القافية الموحدة . وأما الاقسمة الثلاثة التي تسبق البيت فهي على قافية

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٥٧ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٥٤ .
(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٥٥ .
(٤) ابن رشيق : العمدة ، ج ١ ص ١٥٤ .

الشطر الاول ، كما يتضح لنا ذلك في القصيدة التى سمط بها ميمبته المشهورة (١) وجاء في مقطوعتها الاولى قوله :.

توهمٌ ما أراني الدّهرُ أم حُلُمُ
وصبوةٌ كل هذا الوجد أم لَممُ
أحبَبتُ قوماً، وإفراطُ الهوى ندمُ
ولّوا ، فلمّا رجونا عدلهم ظلموا   فليتهم حكَموا فينا بما علموا

كم رُضتُ نفسي بالسلوان ؛ فامتنعتْ
وكم اضاعوا موانيقَ الهوى، ورَعتْ
فما نقمتُ عليهم غَدْرةً فضَعضَتْ (٢)
ولا أضعتُ لهم عهداً ولا اطّلعتْ   على ودائعهم في صدريَ التُهَمُ (٣)

يتألف هذا السمط من خمس وأربعين مقطوعة ، تتألف كل واحدة من وحدتين : أولاهما تشمل الاقسمة الثلاثة الاوائل ، وهي على قافية الشطر الاول من البيت الذي يؤلف الوحدة الثانية . ويلاحظ أن الشاعر في المقطوعة الاولى جعل القافية في الاقسمة مصرعة ليلائم بينها وبين بيت القصيدة التي ضمن بها مسمطه . ويلاحظ كذلك أنه استوفى معظم أبيات قصيدته المشار إليها في المسمط المذكور ، وأهمل منها بيتين اثنين ؛ وهذا يعنى أن الشاعر لم يكن في مسمطاته ليستوفي القصائد المضمنة كاملة ؛ وانما كان يختار منها ما يلائم أغراضه ، وينسجم مع أسلوبه وقوافيه .

سمط الشاعر بالاضافة الى هذا المسمط قصائد غيره من الشعراء ،

---

(١) ديوان اسامة بن منقذ ، ص ٤٠ .
(٢) ضعت : أي اختبأت واستترت .
(٣) المصدر السابق ، ص ٣٢١ .

فنحن نعثر على ثلاثة مسمطات أخرى ، سمط في أحدها قصيدة لمهيار الديلمي (١) وفي ثانيها قصيدة لقيس بن الملوح (٢) . وفي ثالثها قصيدة لقيس ابن ذريح (٣) وهي كل مافي ديوانه من هذا الفن .

نقف أخيراً عند نوع آخر من المخمسات لم يعتمد فيه الشاعر على تضمين بعض شعر القدماء ، وانما كان يأتي في المسمط بخمسة اقسمة تم بخمسة اخرى في وزنها على قافية غيرها ، وتتحد القسيم الخامس مع القسيم الخامس من المقطوعة الاولى في القافية . وأكثر ما تستعمل في بحر الرجز (٤)، وقد تكون من غيره كما في المخمس الذي اقترح على الشرف الانصاري نظمه . وجاء فيه قوله :

أكابدُ وجداً في هواكَ مجدّدا وأخفى عن الواشينَ دمعاً مردّدا
واظهر للعذّالِ عنكَ تجلّدا « نهاري نهارُ الناسِ حتى إذا بدا
لىَ الليلُ هزتنى إليك المضاجعُ »

حلفتُ بثغرٍ منكَ لي نهبةٌ وعذبُ رُضابٍ ليس لي منه نُغبةٌ
وتلكَ يمينٌ عند مثلي صعبةٌ « لقد ثبتتْ في القلبِ منكَ محبّةٌ
كما ثبتت في الراحتينِ الاصابعُ »

وفي ديوان ابن الساعاتي مخمس مدح به الملك العزيز عثمان ، وهو الذي اقترحه عليه ، فاستهله بقوله :

خليليّ مِنْ سعدٍ قفا فتأملا بقيّةَ ما أضنى الفراقُ وانحلا
وجسماً مقيماً بعد صبرٍ ترحّلا أما واللتمى وجداً بساكنةِ الملا
لقد ضاقَ باعُ الصبّرِ أنْ اتحملا

---

(١) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٣١٦ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٣١١ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٣١٤ .
(٤) ابن رشيق : العمدة ، ج ١ ص ١٥٦ .
(٥) مصوره مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٥٠ ، والديوان ص ٣١٣ ، ٣١٤ .

وختمه بالمقطع الحادي عشر الاخير ، وهو قوله :

أجاز فأضحى كلُّ نادٍ بــه نــدِ   فما طالَ منــهُ عمر وَغَدٍ إلى غدِ
وأغنتْ أيادي كفّــهِ كلَّ ذي يدِ   فلولا انقطــاعُ الوحي بعــد محمّــدِ

لكان نبيــاً في السَّمــاحة مرسلا (١)

لاحظنا في المخمسين السابقين أنهما نظما تلبية لاقتراحين عرضــا على الشاعرين ، فلبيا الرغبتين ، وسوف نلاحظ أن الشاعر في هذا العصر كان يستجيب لكل مايطلب منه ، ولا سيما القصائد التي يشترط فيها بعض الشروط كما سنرى في بحث خصائص الشعر الاسلوبية . ولاحظنا أيضاً محاولات الانطلاق في القوافي والاوزان ، ورأينا أنها كانت بعيدة المدى في بعض الفنون المستحدثة ، حتى إن الشعراء جنحوا إلى تنويع القوافي غير ماورد منها في آخر كل مقطع ، وهو ما سماه ابن رشيق عمود القصيدة .

نخلص من حديثنا عن الفنون المستحدثة الى القول ان بعضها كالموشح والدوبيت حافظ على قواعد الاعراب . واقتصر على مخالفة العرب في أوزانه وقوافيه ، وبعضها الآخر أهمل قواعد الاعراب تماماً كما هو الحال في الزجل والمواليا والقوما والكان كان .

تحدث الصفي الحلي عن الفنون الاخــيرة فذكر أن « إعرابهــا لحن ، وفصاحتها لكن ، وقوة لفظها وهن ، حلال الاعراب بهــا حرام ، وصحــة اللفظ بها سقام ، يتجدد حسنها إذا زادت خلاعة ، وتضعف صنعتها إذا أودعت من النحو صنــاعة ، فهي السهل الممتنــع ، والادنى المرتفــع . طالما أعيت بها العوام الخواص ، وأصبح سهلها على البلغاء يعتاص ، فان كلف البليغ منها فناً تراه يريغه ، ويتجرع ولا يكاد يسيغه ، فمعرفتها بالطبــع

---

(١) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ٢٩٠ .

السليم ، وآفتها من الفهم السقيم (١) » .

نلاحظ في هذا القول الصراع بين الشعر الملحون والشعر القريض إذ « حلا لحنه على كل معرب ، وصــار حفظه الى الافهــام أدنى وأقرب » (٢) ، كما زعم أصحابه . وقد تطور هذا الامر في القرن الثامن الهجري ، فبــدا الصراع سافراً بعد أن لقيت هذه الفنون إقبالا عليها من الطوائف الشعبية ، وادى الى ظهور جيل من الادباء الذين أسهموا بنصيب وافر في تطور هذه الفنون تطوراً باعد كثيراً بينها وبين اللغة العربية الفصحى .

* * *

(١) الحلي : العاطل الحالي ، ص ٦ .
(٢) النبواني : دفع الشك والمين في تحرير الفنين (مخطوط) و ٢ .

الفصل الثالث

الأساليب والمذاهب الفنية

شهد الشعر في هذا العصر تطوراً خرج به في بعض الاحيان عن أساليبه التقليدية ، اذ انه لم يبق ملكا للطبقة المثقفة ، وانما سعى الى العوام من الناس ، فكان ذلك بدء انطلاقة جديدة ، فرضت وجودها على الادب ، وكان لابد للنقاد من الوقوف امام هذه التيارات الجديدة ، ووضعها موضع الاعتبار ، وقد دفعت بعض كبار الادباء والنقاد الى تبنيها والاستشهاد بها جنباً الى جنب مع المأثور من الشعر والنثر .

ولقد تنازع الشعراء مذاهب فنية متباينة في الصناعة الشعرية ، سادت في هذا العصر ، وبلغت مرحلة نضجها الفني ، لكن الذي يجب ان نقف عنده ونشير اليه ، هو أن البديع طغى على كل المذاهب الفنية المعاصرة . فأصبح هذا العصر يعرف بعصر البديع ، وليس من باب العبث اللفظي قول ابن حجة : « إن لكل زمان بديعاً تمتع بلذة الجديد » (١) .

ذلك هو داء العصر إن صحت هذه التسمية ، وقد سرت عدواه بين الشعراء ، فكانت بين أيدينا دواوينهم ناطقة ، نشهد لنا فيها أساليبهم ومذاهبهم الفنية .

---

(١) ابن حجة : الخزانة ، ص ٥ .

عرف البديع في أواخر القرن الثالث الهجري ، وابن المعتز أقدم من الف في هذا العلم . ففد وضع فيه كتابه المشهور «البديع» سنة ٢٧٤ هـ ، وجاء فيه قوله : « فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ، ولا يدرون ما هو ، وما جمع فنون البديع ولا سبقني اليه أحد » (١) .

وفي هذا القول كما يبدو بعض المبالغة والاعتداد ، اللهم الا اذا قصد ابن المعتز الجمع في إطار علم ، إذ إن العلماء من عرف شيئاً من ذلك . بله أن ابن المعتز نفسه استمد كثرا من أنواع البديع والبيان ممن سبقه .

مهما نكن من امر هذا وذاك ، فالجدير بالذكر أنه أختار خمسة أنواع ، وافرد لكل منها باباً خاصا في مؤلفه ، وجعل ما عداها وجوها مستحبة من محاسن الكلام .

جاء صاحب الصناعتين ، أبو هلال العسكري (المتوفى سنة ٣٥٩ هـ) ، وجمع في كتابه سبعة وثلاثين نوعا ، وخلفه صاحب العمدة ابن رشيق (المتوفى سنة ٤٥١ هـ) ، وجمع مثلها في كتابه المذكور ، غير أن معاصره عبد القاهر الجرجاني (المتوفى سنة ٤٧١ هـ) لاحظ ازدياد التكلف البديعي بين الشعراء المتأخرين فندد بذلك : « وقد تجد في كلام المتأخرين الآن كلاماً ، حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع الى ماله في البديع الى أن ينسى انه يتكلم ليفهم ، ويقول ليبين ، ويخيل اليه انه اذا جمع بين أقسام البديع في بيت فلا ضير أن يقع ما عناه في عمياء ، وأن يوقع السامع من طلبه في خبط عشواء » (٢) .

ازدادت الانواع البديعية في القرنين السادس والسابع الهجريين وما بعدهما ، ففى مصر ظهر زكى الدين بن أبي الاصبع (المتوفى سنة ٦٥٤ هـ) فوضع كتابه المشهور « تحرير التحبير في علم البديع » ، وقد رفع أنواعه إلى التسعين ، وذكر أن كتابه المذكور ليس له نظير . أما في بلاد الشام فقد

---

(١) ابن المعتز : البديع ، ص ١٠٦ .
(٢) الجرجاني : أسرار البلاغة ، ص ٦ .

بلغ علم البديع ذروته في أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن على يد خطيب دمشق وقاضيها جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني (المتوفى سنة ٧٣٩ هـ) وقد صنف كتابه « تلخيص المفتاح » ، وهو تلخيص كتاب « مفتاح العلوم » للسكاكي . ثم شرحه بعد ذلك بكتاب آخر سماه « الإيضاح » ، وهو كما نعته السيوطي من أجل المختصرات . وأهمية هذا الكتاب ان مؤلفه لم يزد عدد الأنواع البديعة . وإنما قصرها على سبعة وأربعين .

فتن الشعراء بعلم البديع : وباروا بما صنفه علماء البلاغة من أنواعه حتى إذا شارف القرن السابع على الانتهاء تمخض عن ظهور فن جديد هو البديعات النبوية ، وكان صفى الدين الحلى رائد الشعراء في هذا المضمار ، فنظم بديعته المشهورة ، واستهلها بقوله :

إن جئت سلعاً فسل عن جيرة العلم   وافرا السلام على عرب بذي سلم

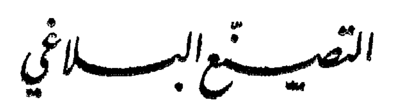
وهى بديعة نبوية على بحر البسيط . رويها الميم . وقد جمع فيها مائة وأربعين نوعا من أنواع البديع . وجعل كل بيت منها شاهدا على نوع منه . قلد الشعراء الحلي ، وسماهم ابن حجة نظّام البديعيات . وذكر انهم «التزموا ان يكون كل بيت منها شاهدا على نوعه بمجرده ، ليس له تعلق بما قبله ، ولا بما بعده » (١) .

هذا التكلف البديعي ، وهذا التصنع الأسلوبي مظهران هامان من مظاهر المذاهب الفنية في الشعر العربي في عصور الدول المتتابعة ، ومن حق البحث علينا أن نفيها قسطها من الدراسة . فنتحدث عن التصنع البلاغى ، ثم نوضح هياكل القصائد وقوافيها وأوزانها ، ونعرض أخيراً لدراسة عامة تتناول الألفاظ والتراكيب والأساليب .

---

(١) ابن حجة : الخزانة ، ص ١٦٠ .

القسم الأول



تصنع الشعراء في أشعارهم الصور البلاغية ، فهي في نظرهم مجال التنافس وسبيل الابتكار، والحاذق منهم من يقع على صورة جديدة يخترعها، أو صورة يستمدها من غيره ، يزيد عليها ما يزينها، أو ينقص منها ما يشينها، ولا بد لنا لتوضيح صنعة الشاعر في هذا العصر من وقفة عند تصنع الصور البيانية والزخارف البديعة .

(١)

تصنع الصور البيانية

تحدث البلاغيون كثيراً عن علم البيان ، أحد علوم البلاغة الثلاثة ، إذ إنه يمثل في نظرهم الأداة الأسلوبية التي تنفث السحر في الصورة الجمالية التى يبدعها الشعراء ، ورأوا أن هذه الصورة تتجلى فيما يبرزونه فيها من ضروب القول وأفانين الكلام .

---

(١) الجرجاني : أسرار البلاغة ، ص ٢٠ .

بين الجرجاني أهمية القول في التشبيه والتمثيل والاستعارة ، فذكر «أن هذه أصول كثيرة ، كأن جل محاسن الكلام — إن لم نقل كلها — متفرعة عنها، وراجعة إليها ؛ وكأنها أقطاب تدور عليها المعاني في متصرفاتها ، وأقطار تحيط بها من جهاتها »(١) . بيد أن علماء البلاغة البديعيين رأوا أن هذه المظاهر الفنية الثلاثه لا يمكن باية حال أن تكون الصورة الجمالية المثلى ، إذ لا فائدة منها ما لم تكن وسيلة للابانة عن النفس الإنسانيه . ويعود الفضل في ذلك إليهم ، ففد خرجوا بهذا العلم من حيزه الضيق ليعبروا عن المشاعر دون تكلف أو تصنع ، وسموا ذلك حسن البيان ، وهناك فرق بينه وبين البيان نفسه . وقد استخدم ابن حجة هذه التسمية أكثر من مرة في خزانته (٢) . ومما قاله : « حسن البيان قالوا : هو عبارة عن الإبانة عما في النفس بعبارة بليغة بعيده عن اللبس . إذ المراد منه إخراج المعنى الى الصورة الواضحة ، وإيصاله الى فهم المخاطب بأسهل الطرق . وقد تكون العباره عنه تارة من طريق الإيجاز . وطوراً من طريق الاطناب بحسب ما تقتضيه الحال . وهذا بعينه هو البلاغة وحقيقتها » (٣) .

هكذا يتضاءل في نظر البديعيين علم البيان ، فيدرجونه ضمن أنواع البديع ، ويكتفون منه بحسنه . ومن خلال هذا الفهم الجديد نجد الجاحظ وابن رشيق يظهران عجزهما عن الإحاطة به (٤) .

يتضح مما تقدم معنا حقيقة الصراع بين البلاغيين من أرباب الصنعة البيانية وبين البديعيين الذين الحقوا علم البيان بمذهبهم بعد أن غيروا مفهومه التقليدي ، ونحوا فيه منحى جديداً . وكان أولى بهم أن يخرجوا علم البديع نفسه من ربقة التكلف . مهما يكن من أمر هذا التباين ، فسوف نعرض للصور البيانية المعروفة من تشبيه ومجاز وكناية .

---

(١) الجرجاني : أسرار البلاغة ، ص ٢٠

(٢) ابن حجة : الخزانة ، ص ٥٨ ، ٤٥٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٥٦ .

(٤) ابن رشيق : العمدة ، ج ١ ص ٢٢٧ .

التشبيه

هو الدلالة على مشاركة امر لآخر في معنى(١) ، وقد ميز الجرجاني بين التشبيه العادي الموجود في كلام العامة ، والتشبيه الفني الذي لا نراه إلا في الآداب والحكم المأثورة (٢) .

عرف التشبيه عند الاقدمين في شتى الأمم ، فهو — في حقيقة الامر — صادر بشكل عفوي عن النفس بحكم علاقتها بالأشياء ومقارنتها بها ، ولذلك كان أبسط البلاغية المعروفة لدى الشعوب في مختلف آدابها .

اشار ابو هلال العسكري الى اهمية التشبيه فذكر انه « يزيد المعنى وضوحا ، ويكسبه تأكيدا ، ولهذا ما اطبق جمع المتكلمين من العرب والعجم إلا عليه ، ولم يستغن أحد منهم عنه »(٣) .

وطبيعي ان نجد في شعر هذا العصر صورا من التشبيه، فذلك امر فطري في النفس الإنسانية . وقد قلد الشعراء ايضا من سبقهم ، فجاؤوا بصورة متكلفة بعيدة عن نبضات الحياة ، ولكنهم — بالاضافة إليها — ولدوا صورا جديدة في التشبيه ، نلحظ فيها إبداع خيالهم وغرابة تفكيرهم .

لن نستطيع استيعاب صور التشبيه التقليدية ، فهي كثيرة جداً في شعر هذا العصر ، وبخاصة ماجاء منها في المدح والاغزال . يقول عرفلة في مدح بني السلار :

معشرٌ كالغيوث في حلبة السِلمِ	وفي الحربِ كالليوث الضواري
بقلوبٍ كأنها من جبالٍ	واكفٍ كأنها من بحارِ
وكأنَّ الإلهَ ، جلَّ ، براهمْ	من فخارٍ ، والناسَ من فخّارِ (٤)

---

(١) القزويني : الايضاح ، ج ٢ ص ٧ .
(٢) الجرجاني : أسرار البلاغة ، ص ٧٥ .
(٣) العسكري : الصناعتين ، ص ٢٤٣ .
(٤) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٢٠٨ .

ويهجو الشاعر إنساناً وعده بخروف وما وفى بوعده فيقول :

لــك وجــه" كــأنه الــ بدرُ ، لكـــن إذا كُسِــف
وقـــوام" كأنـــــه الـ غصـــنُ ، لكـــن إذا قُصِفْ
وعـــذار" كـأنــــه الــ نمــلُ ، لكــن ، إذا نُتِفْ
وبنـــانٌ كأنـــــه الـ بحر ، لكـــن إذا نُسِـــفْ(١)

اما في الغزل فقد كثرت فيه التشبيهات المعروفة منذ القدم ، ومما قاله ابن قسيم الحموي :

سفرتْ فخلتُ سوادَ معجرها (٢) ليــلاً تقنــع جنحــــه بــــدرُ
برزتْ لنـــا يـــوم الـــوداعِ وقــد بهـــر الكواعـــب حولهـــا الخطْرُ
فكأنّهـــا شمسُ الضحـــا طلعـــت وكأنهـــن كواكـــب" زُهْـــرُ (٣)

لم يقتصر الشعراء على هذا النوع من تشبيه صورة حسيه بأخرى ، وإنما كانوا يحاولون تشخيص المعاني المجرده ، فتبدو كأنها حقيقة ملموسة كما في قول ابن منير :

زعم كمنبلـــج الصبـــاح وراءه عزم كحد السيف صادف مقتلا(٤)

تحدث ابن حجة عن هذا النوع من التشبيه التقليدي ، وذكر أنه أعرض عنه في خزانته ، واكتفى من التشابيه بما خف على السمع ، وعذب في الذوق، وارتاحت له النفس ، وسبب ذلك عنده « أن التشابيه التـي تقادم عهدها للعرب رغب المولدون عنها ، فانها مع عقادة التركيب لم تسفر عن بديع معنى إلا ما قل وندر » (٥) .

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢١٥ .
(٢) المعجر : ثوب تشده المرأة على رأسها .
(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٥١ .
(٤) ابن حجة : الخزانة ، ص ١٨٣ .
(٥) ابن حجة : الخزانة ، ص ١٧٤ .

نلمح في قوله ثورة على ماورثه الشعراء من صور تقلبدية ، تقادم عهدها واخلقت جدتها ، ويظهر أن المولدين مـن الشعراء نهجوا في التشبيه سبلا يلائم مذهبهم الفني .

لن نفصل في انواع التشبيه كلها ، وإنما نحب ان نسير في هذه الدراسة الى اهم مانراه بارزاً في شعـر العصر . فنعرض لبعض التشبيهات الغريبـة المولدة وبخاصة ما ورد منهـا في التشبيه البليغ . والتمثيلي ، والضمني ، والمعكوس .

فمن التشبيهات الغريبة قول ابـن الساعاتي يصف اصحابه وهم على النياق ، وقد اخذتهم سنة من الكرى .

وصحبي نشاوى ِمنْ نعـاسٍ كأنهم ... على شُعَبَ الأكوار انملُ حاسب(١)

ومنها قوله ايضاً :

وقالوا : هجـاك الصديقُ الصدوقْ ... وذلـك عـينُ العجيـبِ العُجـابْ

فقلتُ لهـمْ : إنّ هجـوَ الحبيـب ... لكابن الغمـامِ ببنـتَ الحبـابْ (٢)

لم يكتف الشعراء بالسعي وراء الاغراب في المعاني ، وإنمـا عمدوا ايضا الى تشخيصها في صور مبتكرة . كما في صورة الورد التي رسمها مجير الدين بن تميم :

سبقتْ إليـكَ مـن الحدائقِ وردةٌ ... واتتْـكَ قبـل اوانهـا تطفيـلا

طمعتْ بلثمـك إذ راتـك فجمّعت ... فمهـا إليـكَ كطالـبٍ تقبيـلا(٣)

ومن لطائف التشبيه الغريب قول ابن قرناص :

منْ لقلبي ِمـنْ جورِ ظبيٍ هـواهُ ... ليَ شُغلٌ عـن حاجرٍ والقويق (٤)

---

(١) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ٢٥٧ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٣ .

(٣) ابن حجة : الخزانة ، ص ١٧٦ .

(٤) القويق : نهر مدينة حلب الشهباء ، ومخرجه من قرية تدعى (سبتات) ، (ياقوت ؛ معجم البلدان ج ٤ ص ٤١٧) .

خصرُهُ تحتَ أحمرِ البند يحكي　　خنصراً فيه خاتمٌ من عقيق (١)

وعمد الشعراء ـ بالاضافة الى الاغراب والتشخيص ـ الى صور جديدة من التشبيه منتزعة من حياتهم الخاصة أو بيئتهم العامة ، نذكر من ذلك صورة الأصل ، وقد رسمها الشاعر بدقة متناهية :

ونهرٍ إذا ماالشمسُ حان غروبها　　ولاحت عليه في غلائلها الصفرِ
رأينا الذي أبقتْ به من شعاعها　　كأنا أرقنا فيه كأسا من الخمرِ (٢)

كانت هذه الصور المبتكرة منتزعة من حياتهم ، ومما يحيط بهم من طبيعة ، ولا نستغرب وصف الناعورة لشاعر حموي هو ابن تميم :

وناعورةٍ قد ألبستْ لحيائها　　من الشمسِ ثوباً فوقَ أثوابها الخُضرِ
كطاوسِ بستانٍ تدورُ وتنجلي　　وتنفضُ عن أرياشها بلل القَطرِ (٣)

أكثر الشعراء من صور التشبيه البليغ ، فهو الوجه المختار في مذهب جمهور البلاغيين ، ولعل اطرف صورة من هذا التشبيه ما ذكره ابن الساعاتي لما مر بنواحي صيداء ، فرأى مروجا كثيرة نباتها النرجس ، واتفق أن هرب بعض الأسرى منها ، ولحقته الخيل ، فردته من الموضع الذي كان فيه فقال :

للهِ صيداءُ من بلادٍ　　لم تُبقِ عندي هماً دفينا
نرجسُها حليةُ الفيافي　　قد طبّقَ السهلَ والحزُونا
وكيفَ ينجو بها هزيمٌ　　وأرضُها تنبتُ العيونا (٤)

ومن التشبيه البليغ قول الشاعر نفسه في وصف روضة :

ولقد نزَلتُ بروضةٍ حزنيّةٍ　　رتعتْ نواظرُنا بها والأنفسُ
ما الجو إلا عنبرٌ ، والدّوحُ إلاّ　　جوهرٌ ، والأرضُ إلا سندسُ

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٧٨ .
(٢) ابن حجة : الخزانة ، ص ١٧٨ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٧٨ .
(٤) ديوان ابن الساعاتي ، ج ١ ص ١٦٨ .

سفرتْ شقائقُها فهمَّ الأقحوا ... نُ بلثمِها فرنا إليهِ النَّرجسُ
فكأنَّ ذا ثغرٌ . وذا خدٌ يحا ... ولُهُ . وذا أبداً عيونٌ تحرس(١)

ومن ذلك قول ابن فرناص الحموي :

لقد عقدَ الربيعُ نطاقَ زهرٍ ... يضمُّ لغصنه خصراً نحيلا
ودبَّ مع العشيِّ عذارُ طلٍّ ... على نهرٍ حكى خداً أسيلا (٢)

ومن ذلك قول مجير الدين بن تميم :

غديرٌ دارَ نرجسهُ عليه ... ورقَّ نسيمُه وصفا وراقا
تراهُ إذا حللت به لورْدٍ ... كأنَّ عليه من حدقٍ نطاقا (٣)

تفنن شعراء هذا العصر في رسم صور جديدة من التشبيه . وقد مر معنا شيء منها . ولاحظنا في بعضها التكلف والإغراق في الصنع البياني .

فرق الجرجاني في أسراره بين التشبيه والتمثيل . وعقد لهما فصلا مطولا وذكر أن التشبيه عام.والتمثيل أخص منه.وليس كل تشبيه تمثيلا(٤). كما أنه بين أهمية هذا النوع . وبخاصة ما جاء لتصوير الشبه بين المختلفين في الجنس مما يحرك قوى الاستحسان . ويثير الكامن من الاستظراف(٥) . وينتهي من ذلك ليذكر لنا « أنه يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين . حتى يختصر ما بين المشرق والمغرب . ويجمع ما بين المشئم والمعرق . وهو يريك للمعاني الممثلة بالأوهام شبهاً في الأشخاص الماثلة والأشباح القائمة . وينطق لك الأخرس . ويعطيك البيان من الأعجم . ويريك الحياة في الجماد » (٦) .

أكثر الشعراء في التشبيه التمثيلي من استخدام الصور المستمدة من

---

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٦٤ .
(٢) ابن حجة : الخزانة ، ص ١٧٩ .
(٣) ابن حجة : الخزانة ، ص ١٧٩ .
(٤) الجرجاني : أسرار البلاغة ، ص ٧٥ .
(٥) المصدر السابق ، ص ١١١ .
(٦) المصدر السابق ، ص ١١١ .

الطبيعة ، فقد وصف عرقلة الكلبي سماء ازهرت كواكبها في دجا الحندس :

كأنّ السماءَ وقد ازهرتْ كواكبُها في دجى الحِندسِ
رياضُ البنفسج محميّة نفتحُ فيها جنى النرجس (١)

ووصف ابن الساعاتي البدر وقد جلاه الغدير :

أما ترى البدر يجلوهُ الغديرُ وقد جفت به قُضُبُ بالنَّور في لثم
كخوذةٍ فوق درعٍ حولها اسلٌ سمرُ أسنتها مخضوبة بدمٍ (٢)

يلاحظ في هذه الصورة استخدام الصور الحربية بشكل يلفت النظر . وهذا معروف بكثرة في هذا العصر كما رأينا ذلك في دراسة الغزل .

ووصف عرقلة البدر بغير هذه الصورة . فاستمد صوره من الحياة الاجتماعية في عصره :

أما ترى البدرَ في السماءِ وقد حاولَ من بعدِ تمّه نقصَهْ
بينا تراهُ كخشكنانكةٍ (٣) حتى تراهُ كأنه قرصهْ (٤)

أكثر الشعراء من وصف البدر . وقد ذكر ابن حجة كثرة الاوصاف والصور التي دارت حوله.واشار الى انهم وصلوا في تشبيهه الى السبعين(٥).

لم يكتفوا في اوصافهم بما اخذوه من صور معروفة ومتداولة بين الناس عامة . وإنما استمدوا بعضها من اضطراب الحياة السياسية . ومن تجاربهم في الحياة . رُوي عن أسامة بن منقذ أنه رأى معشر النمل يتجاذب زهرة . كلما اخذتها نملة انتزعتها منها أخرى :

شاهدتُ نملا قد تجاذبَ زهرةً ذا قد تملكها . وهذا يسلبُ
مثلَ الملوكِ تجاذبوا الدّنيا ، فما حصلتْ لمغلوبٍ . ولا مَنْ يغلبُ(٦)

---

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٢٠٩ .
(٢) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ١٦٣ .
(٣) الخشكنانكة نوع من الحلوى ، والقرصة : حلوى من العجين والسكر والنشاء .
(٤) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٢١١ ، وديوان عرقلة ، ص ٥٧ .
(٥) ابن حجة : الخزانة ، ص ١٧٥ .
(٦) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٢٤٦ .

وهذه صورة أخرى لاسامة منتزعة من صميم حياته ، يقول فيها :

قَسمَ الهوى دهـرَ المروّع بالنّوى   شطرين بـينَ شؤونِه وشجونِـه
هو في الدّجا كالشمّع يقطرُ دمعُه   ناراً ، فنحـرقُه مياهُ جفونِه
فإذا بدا وَضَحُ الصّبـاح رأيتَـهُ   مثلَ الحَمام ينوحُ فوق غصونِه (١)

أما التشبيه الضمني فهو أدق من التشبيه التمثيلي ، ويختلف عنه أن ملامح الشبه تفهم من قرائن الكلام،إذ إنها لا تعتمد على صور التشبيهالمعروفة وإنما نلمحها من خلال معانيها الخفية . والغاية من هذا التشبيه الدلالة على أن المشبه ممكن . فكان لا بد من الاعتماد على سند عقلي أو برهان منطقي يسد الفراغ الذي أحدثه هذا الأسلوب الجديد .

عقد الجرجاني فصلا في مواقع التمثل وتأثيره . وذكر أنه « إذا جاء في أعقاب المعاني ، أو برزت هي باختصار في معرضه،ونقلت عن صورها الأصلية الى صورته كساها أبهة ، وكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستثار له من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفا ، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً (٢) .

وعقد القزويني فصلا في اغراض التشبيه وذكرفيتعريف التشبيه الضمني أنه يكون في كل أمر غريب يمكن أن يخالف فيه ويدعى امتناعه (٣) . من ذلك وصف ابن الساعاتي حياته بين بدايتها ونهايتها،وشبهها ، في الحالين بالخمر، وأوجد من صورة هذا التشبيه علاقة منطقية للدلالة على صحةالمشبهوامكانه، ، وأخرج هذا التشبيه من نطاق التقليد الى الجدة والإبداع :

لا تعجبنّ لطالب بلـغ المنـى   كهلا ، وأخفق في الشباب المقبل

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٠٤ .
(٢) الجرجاني : أسرار البلاغة ، ص ٧٢ ، ٩٣ .
(٣) القزويني : الايضاح ، ج ٢ ص ١٥٠ .

فالخمرُ تحكمُ في العقولِ مُسنَّةً ... وتداسُ أولَ عصرِها بالأرجلِ (١)

استخدم الشعراء هذا التشبيه المنطقي في بعض الحكم والأمثال لأن ما فيها من حجاج وجدال يجعلها ملائمة لينقبلها العقل، كما في قول ابن العيسراني:

إذا ما خدمتَ كبارَ الملوكِ ... فأولُ ما تشربُ الحاشيَه
فكنْ جاريَ الماءِ يسقي الرياضَ ... فأولُ ما تشربُ الساقيهْ (٢)

وتحدث ابن الساعاتي عن صاحب المجد الرفيع ، وأوصاه أن يبعد الكبر عن نفسه ، ويطلب إليه أن يكون سخيا بلين عطف جوده :

إذا كنتَ ذا مجدٍ رفيعٍ فلا تَهُن ... بكبرٍ ، فربَّ الكبرِ سوف يهونُ
ولِنْ عطفَ جودٍ ، إن هززت فإنه ... على الهزِّ أعطافَ الرِّماحِ تلينُ
فإنَّ أعالي الدَّوحِ تهصرُها الصَّبا ... فتخضعُ في عليائها وتدينُ (٣)

استخدم أسامة هذا النوع من التشبيه كثيراً في شعره ، وبخاصة منه ما ورد في باب الشواهد والأمثال ، كما في حديثه عن الصبر والفرج :

اصبِرْ إذا نابَ خطبٌ ، وانتظِرْ فرَجاً
يأتي به اللهُ بعدَ الريثِ والباس
إنَّ اصطبارَ ابنة العنقودِ ، إذْ حبستْ
في ظلمةِ القارِ ، أدّاها إلى الكاس (٤)

نقف أخيراً عند نوع غريب من التشبيه وهو المعكوس ، ويؤتى بهذا النوع لإبهام أن المشبه به أتم من المشبه في وجه الشبه ، وقد يؤتى به لبيان الاهتمام به ، وإظهاراً لشأنه ، وقد سماه القزويني إظهار المطلوب (٥) .

---

(١) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ١١٧ .
(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ١٥٦ .
(٣) ديوان ابن الساعاتي ، ج ١ ص ١٢٧ .
(٤) ديوان أسامة بن منقذ ، ج ١ ص ٢٧٥ .
(٥) القزويني : الايضاح ، ج ٢ ص ٦٦ .

فتن الشعراء بهذا النوع من التشبيه . إذ هو في الحقيقة مظهر من مظاهر تصنعهم البلاغي ، فكل غريب بديع ، وكل جديد فن . والعبقري منهم من سلك في أسلوبه مذهباً لم يسبق إليه ، حتى ولو أدى به ذلك الى التكلف والإبهام والاغراب .

جرت العادة — كما رأينا — أن يشبه وجه الكاعب الحسناء بطلعة البدر ، بيد أن ابن الساعاتي على غير العاده عكس هذه الآية . وشبه البدر نفسه بخريدة حسناء :

ولقد رأيتُ البدرَ تحت غمامةٍ يخفى ، ويبدو حيثما يتقشّعُ
فكأنهُ خلل السحابِ خريدةٌ حسناءُ تحجبُ وجهها وتطلّع (١)

وجرت العادة أن تشبه النهود بالرمان،لكن ابن قسيم عكس التشبيه فقال:

ومحمرهٍ من بنات الغصو نِ يمنعها ثِقلُها أن تميدا
منكّسة التاج في دستها تفوق الخدود ،وتحكي النهودا
تغضّ فنعرّ عن مبسمٍ كأنّ به من عقيقٍ عقودا
كأنّ المقابل من حبّها ثغورٌ تُقبّلُ فيها خدودا (٢)

تلك هي نظرة على صور التشبيه اقتبسناها من شعر هذا العصر وقد حاولنا من خلالها أن نبرز ما فيها من تجديد وغرابة وتصنع . ولن تتم لنا هذه الصورة ما لم نتعرض للاستعارة لانها ذات علاقة وثيقة بالتشبيه .

الاستعارة

اللغة في صراع دائم بين الحقيقة والمجاز ، فمنها تتولد المعاني الجديدة، وتتطور في مداها الواسع مع الزمن، وتعتمد أكثر ماتعتمد على المجاز لأن « المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة » (٣) . فالمعانى لا تقنع بالبقاء في حقيقتها ،

---

(١) ديوان ابن الساعاتي ، ج ١ ص ٢٧٥ .
(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٤٤٣ ، ٤٤٤ .
(٣) الجرجاني : دلائل الاعجاز ، ص ٤٣ .

إذ النفس الإنسانية تضيق بهـا . وتتوق الى الخروج بهـا عن مصطلحاتها المحدودة الى آفـاق ممتدة من المعاني التي تتصـور في أطر جديدة من التعبير الفني المجازي .

عرّف الجرجاني الاستعارة فذكر أنه يكون للفظ أصـل . ثم ينتقل عن ذلك الأصل (١) . ويوضح هذا الحد العـام . فيذكر أن الاستعارة ليست نقل اسم من شيء الى شيء . ولكنها ادعاء معنى الاسم لشيء (٢) .

أما القزويني فقد اعتبرها الضرب الثاني مـن المجاز . وذكر أن علاقته تشبيه معناه بما وضع له » (٣) .

إن الاستعارة اذا ضرب من ضروب المجاز . فكل استعارة مجاز حكما ؛ ولكن ليس كل مجاز استعارة(٤) . وقد عدها ابن رشيق أول أبواب البديع(٥) وليست كما ذكر . وذكر أنها أفضل المجاز . وليس في حلى الشعر أعجب منها . وهي من محاسن الكلام اذا وقعت موقعها . ونزلت موضعها(٦) . وهي بطبيعة الحال ذات علاقة وثيقة بالتشبيه كما ذكرنا . ويرى الجرجاني أنك كلما زدت إرادتك التشبيه إخفاء . ازدادات الاستعارة حسنا . حتى انك تراها أغرب ما تكون اذا كان الكلام قد ألف تأليفا . ان أردت أن تفصح فيـه بالتشبيه . خرجت الى شيء تعافه النفس . ويلفظه السـمع (٧) .

عرفت الاستعارة في الشعر سليقة وطبعا . ولكنها بعد نضج علوم البلاغة أصبحت غاية في ذاتها . يفتش عنها الشعراء . ويتعمدونها في صورهم ومعانيهم ليزيدوها شرفا . وكثيراً ما كانوا يضلون السبل اليها . فتبدو مبتذلة تنحط

---

(١) الجرجاني : أسرار البلاغة ، ص ٢٠٧ .
(٢) الجرجاني : دلائل الاعجاز ، ص ٢٣٢ .
(٣) القزويني : الايضاح ، ج ٢ ص ١٥٠ .
(٤) الجرجاني : دلائل الاعجاز ، ص ٢٤٨ .
(٥) ابن رشيق : العمدة ، ج ١ ص ٢٣٩ .
(٦) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٩ .
(٧) الجرجاني : دلائل الاعجاز ، ص ٢٤١ .

عن قمنها الجمالية . أشار الجرجاني الى الاستعارة في حالبها فذكر قوله : « ترى في الاسنعارة العامي المبتذل ، والخاصي النادر الذي لا تجده في كلام الفحول ، ولا يقوى علـه الا أفراد الرجال » (١) .

كما لاحظنا فيما أوردناه من شواهد شعرية أنماطا مختلفة من الاستعارات منها العامي المبتذل ، والخاصي النادر . فنراها مطبوعة تاره . ومتكلفة أخرى ونادرا ما تخلو منها قصائدهم .

وصف ابن منير الطرابلسي الكتاب الـذي بعث بـه صديقه زين الدين بن حليم يستدعيه من شيزر . ويستنهضه للرجوع الى دمشق ومما قاله :

وردَ الكتابُ ، فداهُ أسودُ ناظرٍ　　عكفتْ ذخائرُه عليه تبدَّدُ
ليلٌ من الألفاظِ يشرقُ تحتَه　　فلقُ المعاني ، فهو أبيضُ أسودُ
يفترُّ عن دررٍ يكادُ عقودُها　　من لين أعطافٍ تَحلّ وتُعقدُ (٢)

وتحدث عرقلة عن صاحبته صفية الكردية ، وقد عزمت على السفر :

تقولُ صفيةٌ ، والصفوُ منها　　لغيري حين قرّبت الجمالا
وقد سفرتْ لنا عن بدرِ تمٍّ　　غداةَ البين وانتقبتْ هلالا
أتصبرُ إن هجرنا أو بعُدنا ؟　　فقلتُ : نعم ، وقال القلبُ : لالا (٣)

ووصف ابن قسيم طيف خيال زاره سحراً . فقال فيه :

أهلاً بطيفِ خيالٍ زارني سحراً　　فقمتُ ، والليلُ قد شابت ذوائبُه
أقبّلُ الأرضَ إجلالاً لزَورتهِ　　كأنما صدَقتْ عندي كواذبُه
وكِدتُ لولا وشاةُ الصبحِ تُزعجُه　　بالبينِ أصغي لما قالتْ خوالبُه (٤)

نخلص مما أوردناه من ضروب التشبيه الى القول ان الشعراء يصنعوا الصور التشبيهية المختلفة في اشعارهم ، وأغربوا فيها كل الاغراب ، ولم يقفوا عندهم ، وانما شفعوها بأساليب أخرى من علم البيان كما هو الشأن في الكناية .

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٣٤ .
(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٩٢ .
(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢١٩ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٤٥ .

الكناية

ضرب ثالث من ضروب البيان . وقد أعجب بها القدماء كثيراً ، فذكروا انها فن من القول دقيق المسلك لطيف المأخذ ، فيها محاسن تملأ الطرف ، ودقائق تعجز الوصف(١) .

عرفها البلاغيون فذكروا أنها ارادة المتكلم اثبات معنى المعاني ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء الى معنى هو ردفه في الوجود فيومىء اليه ، ويجعله دليلا عليه (٢) . ولعل مصدر اعجابهم بها أن الكناية عن المعنى ابلغ من الافصاح ، والتعريض أوقع من التصريح(٣) ، ويظهر من تتبع سور الكناية أن العرب استمدوا بعض أصولها من آداب اللغتين السريانية والفارسية .

يقول ابن الأثير الكاتب : « واعلم أن هذين القسمين من الكناية والتعريض قد وردا في غير اللغة العربية ، ووجدتهما كثيراً في اللغة السريانية ، فان الإنجيل الذي في ايدي النصارى قد اتى منهما بالكثير »(٤) وأشار الى ما وجده من الكناية في لغة الفرس(٥) ، وهذا يدلنا على تمازج الثقافات الإنسانية في كل زمان ومكان ، ويرفض بالتالي راي من يذهب بأن اللغة العربية وآدابها كانت نسيج وحدها لم تتأثر كثيراً بما حولها من ثقافات متباينة .

لن نتحدث عن اقسام الكناية المعروفة ، فهذه موطنها كتب البلاغة ، وإنما نكتفي منها بما طرأ عليها في هذا العصر من مفاهيم جديدة ادخلها عليها ائمة البديع ، وهي موضوع اهتمامنا الآن .

---

(١) الجرجاني : دلائل الاعجاز ، ص ١٦٥ .
(٢) ابن حجة : الخزانة ، ص ٣٦٠ .
(٣) الجرجاني : دلائل الاعجاز ، ص ٤٣ .
(٤) ابن الاثير : المثل السائر ، ج ٢ ص ٢١٥ .
(٥) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢١٥ .

يرى علماء البيان أن الكناية هـي الإرداف بعينه كما هـو في التعريف السابق ، بيد أن علمـاء البديع كقدامة والحاتمى والرمانى افردوا الإرداف عنها ، وذكروا أن الفرق بينهما جليّ ظاهر . كما يرون أن الإرداف عبارة عن تبديل كلمة بردفها،والكناية هيالعدول عنالتصريحبذكر النسىء الىمايلزم(١).

دافع ابن حجة عن ائمة البديع ، اصحاب مذهب التفريق بـين الكناية والإرداف،وذكرفيتبيان ذلك أنهما اذا كانا شيئآ واحدا،فالواجباختصارهما. ولكن فات ابن حجة ما قرره مـن قبل : وهـو أن لكل زمـان بديعا ، وأن البديعيين من اصحابه كانوا يتنافسون في توليـد الانواع البديعة المخترعة . وأن التفريق بينهما كان بدافع الإكثار . حتى ولو كانا سيئا واحدا ليكون لهم في ذلك فضيلة إيجاد نوع جديد . كما فات ابن حجة انه يتحدث من خلال بديعية خزانته ، وأنه كان يتقيد بأسلوبه .

أورد الشعراء صورا مختلفة من الكناية . وقد استمدوا بعضها مما عرفوه من سابقيهم ، وبعضها الآخر نلمح فيـه آثار الابتكار والتوليد . مـدح ابن رواحة(٢) صلاح الدين الأيوبي في عيد النحر سنة ٥٧٢ هـ . وقد عرض فيها بالفرنجة المقيمين بين مصر والشام :

تملّـك حولهـم شرقـاً وغربـاً فصاروا لاقتنـاص تحـتَ رهـنِ
أطـاف عليهـمْ مِـن كـل فـجٍ قبـائل يقبلـون بكـلّ وهـنِ

---

(١) ابن حجة : الخزانه ، ص ٣٧٦ .

(٢) أبو علي الحسين بن عبد الله بن رواحه ، المعروف بابن خطيب حماه ، وهـو من نسل عبد الله بن رواحه شاعر النبي (ص) . ولد سنة ٥١٥ هـ ونشأ في حمـاة ، وتصدر بعد ذلك للاحتساب واقراء الادب وفقه الشافعي فيها . كان يتردد على نور الدين كل عام وينشده قصائده فيما يتفق من الوقائع ، وقد جعل له من انعامه ادرارا يكفيه ، وكان يقبله ويقبل عليه . سافر الى مصر فى زمان الصالح بن رزيك ، وأسر وهو فى طريق العودة من قبل فرنج صقلية ، فبقى عنده مدة . وسعى في اطلاق سراحه ، فأفلح فى ذلك وعاد الى حماة . سافر الى مصر ثانية في عهد الناصر صلاح الدين ، فمدحه ونال عطاءه وأصابه كثير من الاماء والعبيد . ذكر أنه حصلت له الشهادة علي عكا سنة ٥٨٥ هـ .

اقـامَ بـآلِ أيـوبٍ رباطـا رأتْ منه الرّنـجُ مضيـقَ سجنِ
فهـمْ للديـنِ والدّنيـا جبـالٌ رواسٍ لا نـرى ابـدا كعهنِ
وخافتهـمْ ملـوكُ النـاسِ جمعـاً فلـم تقلبْ لهـم ظهـرَ المِجَنّ(١)

ومما جاء في الكنايه في شعر عرقلة فوله بمدح ابن نيسان :

في حصنِـه غيـثٌ ، وفوقَ حصانه ليثٌ بكَرّ على الكماةِ بمسحلِ (٢)
متبسـمٌ لعفـاتِه قبـلَ النـدى كالبرقِ يلمـعُ للبشـارةِ بالولي (٣)
بعطـي المحجّلة الجيـادَ وكـم لـه في الجـودِ من يومٍ اغـرَّ محجّلِ (٤)

ومن ذلك قول فـيان النـاغوري بمدح العماد الكاتب :

كأنّ فارات مسكٍ وسطها فريت (٥) فنشرُهـا بأمانـي النفس منتشـرُ
شـقّ النسيـمُ على رفق سفائقهـا فضُرّجـت بـدمٍ لكنّـه هـدرُ
فضبُ الزّبرجدمنها حمّلت صدف ال ياقوتِ، فيها فتيتُ المسك لادرر(٦)

نكتفي بهذا القدر من شواهد الكنابة في هـذا العصر ، ونكون بذلك قد اتينا على ذكر أبرز الصور البيانية التي تهمنا ، بيد اننا كنا نلمح في خلال ما مر معنا إكثار الشعراء من ايراد الزخارف البديعية موضوع بحثنا الآن .

(٢)
تصنّع الزخارف البديعية

تحدثنا عن أهمية علم البديع في هذا العصر ، وقلنا عنه إنه عصر البديع، وأشرنا الى ظهور فن البديعيات بعد ذلك كمظهر مستحدث من مظاهر الاغراض الشعرية. لن نأتي على ذكر الانواع البديعية كلها، إذ ليس قصدنا استقصاءها، وسنكتفي منها بذكر أبرز ما فيها من محسنات معنوية ولفظية .

---

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٤٩٣ .
(٢) المسحل : العزم الشديد الصارم .
(٣) الولي : المطر يسقط بعد المطر .
(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٢١ ، والديوان ص ٨١ .
(٥) رواية الديوان « قرنت » والمثبت روايه الخريدة .
(٦) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٥٥ ، والديوان ص ١٩٧ .

المحسنات المعنوية

اشار ابن حجة في خزانته الى الشاعر المعنوي الذي يهم بإبراز معانيه ونوشيحها ببعض الزخارف الملائمة . واصطلح على سميها بالمحسنات المعنوية كالتورية ، والطباق . وحسن التعليل . ومراعاة النظير .

التوريـة

كثرت التورية في هذا العصر حتى غدت هدف كل شاعر . وقد كثر التاليف حولها . نذكر من ذلك كتاب الصفدي (فض الختام عن التورية والاستخدام) وكتاب ابن حجة (كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام) وكتاب ابن خاتمة (رائق التحلية في فائق التورية) . يضاف الى هذه الكتب بعض الابحاث المختلفة الموجودة في شروح البديعيات كبديعية ابن حجة والنابلسي وغيرهما .

دعاها البلاغيون بأسماء شتى : منها الإيهام ، والتوجيه ، والتخيير والمغالطة ، والاشارة ، وهي أن يؤتى بلفظ يدل على معنيين : احدهما ظاهر قريب ، وهو غير مقصود ، وثانيهما خفي بعيد ، وهو المراد المطلوب .

تحدث ابن حجة عن اهمية التورية ، وذكر انها « من أعلى فنون الأدب ، وأعلاها رتبة ، وسحرها ينفث في القلوب،ويفتح بها أبواب عطف ومحبة[١]» . كما نوه بعد ذلك بفضل المتأخرين من حذاق الشعراء وأعيان الكتاب ، واشار الى أنه « سموا الى أفق التورية ، واطلعوا شموسها ومازجوا بها أهل الذوق السليم لما أداروا كؤوسها[٢] » .

---

(١) ابن حجة : الخزانة ، ص ٢٣٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٤١ .

مبز ابن حجة في مذهب التورية ثلاثة اتجاهات فنية انتشرت خلال ثلاثة قرون متوالية في مصر والشام . ففي القرن السادس برز المذهب الفاضلي وكان إمامه القاضي الفاضل . وفي القرن السابع برز المذهب الأنصاري . وكان إمامه الشرف الأنصاري . وفي القرن الثامن برز المذهب النباتي . وكان إمامه جمال الدين بن نباتة المصري ، وقد استطاع أن يوحد المذهبين المصري والشامي في مذهب شعري موحد . وسنقتصر في هذه الدراسة على المذهب الأنصاري ، موضوع بحثنا الآن ، وننوه بالشعراء الذين نهجوا نجهه ، ممن جاؤوا بعده ، كمجير الدين بن تميم ، وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي ، ومحيي الدين بن قرناص الحموي ، والشاب الظريف شمس الدين بن العفيف ، وسيف الدين بن المسد ، والوداعي علاء الدين علي بن الكندي وغيرهم كثير .

نبدأ بإمام المذهب الشامي شرف الدين الانصاري ، فنختار من محاسن تورياته قوله :

أفدي حبيباً منذ واجهتُهُ ... عن وجهِ بدرِ التمِّ أغناني

في خدِّهِ خالانِ لولاهما ... ما بِتُّ مفتوناً بعمّانِ(١)

وقوله :

لنا مِنْ ربةِ الخالينِ جارَهْ ... تواصلُ تارةً وتصدُّ تارهْ

وتعلقني بما يُحلي سلوّي ... ولكنْ ليس في جوفي مرارهْ(٢)

وقوله :

يانظرةً ما جلتْ حسنَ طلعتِه ... حتى انقضتْ وأدامتني على وَجَلِ

---

(١) ذكر ابن تغري بردي أن الشاعر كان مع الناصر يوسف في عمان عندما أنشده هذين البيتين ، فاعترض عليهما ابن العجمي أحد كتاب الدرج ، وقال هذان البيتان ما تخدم فيهما التورية ، ولا يتفق ان يكون المراد الا اسم المكان ، ودخول حرف الجر مانع من غرضه . وقد رد عليه شرف الدين ردا مفحما في قصة نكتفي بالاشارة اليها . (المنهل الصافي (مخطوط) ج ٢ و ٣٣٠) .

(٢) مصورة مخطوطه ديوان الشرف الانصاري ، ل ٣٠ ، والديوان ص ٥٧١ .

عاتبتُ إنســانَ عينـي في تسرعِـهِ ‏ فقالَ لي «خُلِقَ الإنسانُ مِنْ عجَلِ »(١)

وقوله في مغن رومى :

سبحانَ مورثهِ منْ حسنِ «يوسفَ» ما ‏ لم يَبقَ في «الحجر» لي والصبر من حَصص
أقــام « للشعراءِ » العذرَ عارضُــه ‏ فكم لهم في دبيب «النمل» من «قصص »(٢)

وقوله موريا في (سطرى) و (سهم) من متنزهات دمشق :

قالـوا : أمــا في جلّــقٍ نزهـــةٌ ؟ ‏ تنسيــكَ مَــنْ أنــتَ بــهِ مُغْرى
يا عاذلـي دونــكَ مــن لحظِـــهِ ‏ سهمــاً ومــن عارضِــه سطــرا(٣)

وممن انبع هذا المذهب مجير الدين بن تميم(٤)، وقد حاول أن يبعد التعقيد والإغراب عن التورية . ذكر ابن حجة أنــه « أجار رقيق التورية مــن غلظ العقادة(٥) » ، ومن أسهر توريانه التي اخذها منها غيره من الشعراء قوله في وصف دولاب الناعورة :

أيا حسنَها مِنْ روضةٍ ضاعَ نَشرُها ‏ فنــادتْ عليــهِ في الرياضِ طيــورُ
ودولابُهــا كــادتْ تعـــد ضلوعُــه ‏ لكثــرة ما يبكــي لهـــا ويــدورُ (٦)

ومنها ايضا قوله ، وقد تلاعب به الناس :

وساقيــةٍ تــدورُ عــلى النــدامى ‏ وتنهرُهــمْ لســرعةِ شــربِ خمــرِ

---

(١) المصدر السابق ، ل ٦٧ ، والديوان ص ٤٠٠ .
(٢) المصدر السابق ، ل ٤٥ ، والديوان ص ٢٨٧ .
(٣) المصدر السابق ، ل ٣٨ ، والديوان ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .
(٤) مجير الدين محمد بن يعقوب بن علي بن محمد بن تميم الاسعردي ، سبط فخر الدين ابن تميم . كان أديبا مجيدا ، وقد أقام في حماه ، وخدم ملكها المنصور ، وكان جنديا في حاشيته برع في نظم الشعر وأحسن نظمه في المقاطيع الصغيرة دون القصائد . توفي بحماة سنة ٦٤٨ هـ (ابن تغرى بردى : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ٣١٤ ، والكتبي : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ٢٤٣ ، وابن حجة : الخزانة ، ص ٢٧٧ ، وفيها وفاته سنة ٦٨١ هـ) .
(٥) ابن حجه : الخزانة ، ص ٢٥٨ .
(٦) المصدر السابق ، ص ٢٦٠ .

سنشكرُ يومَ لهوٍ قد تقضّى ... بساقيةٍ تقابلُنا بنهرِ (١)

ومن شعراء هذا المذهب الذهبي(٢) وهو « ممن ابدر في افق النورية ونظم عقود لآلئها(٣) » ، ومما قاله في هذا الباب :

وتنبّهت ذاتُ الجناح بسحرةٍ ... بالوادبين فنبّهت اشواقي

ورقاءُ قد اخذتْ فنون الحزن عن ... بعفوبَ ، والألحانَ عن إسحقِ

قامتْ تطارحُني الغرامَ جهالةً ... مِنْ دونِ صحبي بالحِمى ورفاقي

انّى باريني جوى وصبابة ... وكآبةً واسىً وفيضَ مآقِ

وأنا الذي املى الجوى مِن خاطري ... وهي التي تملى من الأوراقِ (٤)

ومن الشعراء ايضا محيي الدين بن قرناص(٥) ، وهو « ممن أحيا مادرس من رسوم التورية »(٦) ، ومما قاله :

ووجنةٍ قد غدتْ كالوردِ حمرتُها ... واشبهَ الآسَ ذاك العارضُ النضِرُ

كأنّ موسى كليمَ اللهِ اقبسَها ... ناراً وجرّ عليها ذيلهُ الخضرُ (٧)

ومن الشعراء الذين اعتنقوا مذهب التورية الشاب الظريف، ومما انشده على لسان الكأس :

---

(١) ابن حجة : الخزانه ، ص ٢٥٨ ، والكتبي : فوات الوفيات ، ج ٢ص ٢٤٣ .

(٢) الذهبي : بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي ، وكان والده عتيق بلدرم صاحب تل باشر . برع في النظم ، واتصل بالملك الناصر بن العزيز فمدحه ، كما مدح جماعة من الامراء ، وكان له دكان يعمل فيه صائغا ، وله فيها قفص على العادة فيه خواتم وحلي ، وقيل : انه هو الذي علم الناس (المخيش) بدمشق ، وهو تلبيس الذهب للفضة ، وجعله شريطا . توفي بدمشق سنة ٦٨٠ هـ (ابن تغري بردي ، المنهل الصافي (مخطوط) و ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، وابن حجه : الخزانة ، ص ٢٧٧) .

(٣) ابن حجة : الخزانة ، ص ٢٦٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٦٦ .

(٥) ابن قرناص : محيي الدين ، ابراهيم بن محمد بن هبة الله بن قرناص الحموي ، له ديوان شعر مشهور . توفى سنة ٦٧١ هـ (ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ١ و ٣٢) .

(٦) ابن حجة : الخزانة ، ص ٢٦٧ .

(٧) ابن حجة : الخزانة ، ص ٢٧٠ .

أدورُ لتقبيلِ الثَّنايا ولم أزلْ … أجودُ بنفسي للنَّدامى وأنفاسي
واكسو اكفَّ الشَّربِ ثوباً مذهَّباً … فمِنْ اجلِ هذا لقَّبوني بالكاسي (١)

ومما قاله أيضا :

قامت حروبُ الزَّهرِ ما … بينَ الرياضِ السندسيَّهْ
واتتْ بأجمعِها لتفـ … ـزوَ روضةَ الورد الجَنيّهْ
لكنَّها انكسرتْ لأنَّ الـ … ـوردَ شوكتُه قويّهْ (٢)

ومن الشعراء سيف الدين المشد (٣) ، ومما قاله :

وشادنٍ أوردَ في هجرِه … لهيبَ حرِّ الشوقِ والفرقَهْ
أصبحتُ حرانَ إلى ريقِهِ … فليت لي من قلبِه رِقَّهْ (٤)

ومنهم علاء الدين الوداعي (٥) ، وقد ذكر أنه توجه من دمشق الى البلقاء لزيارة صاحب له يلقب بالتمس ، فلما وصل إلى مكانه وجده قد توجه إلى حسبان ، فكتب إليه :

---

(١) ديوان الشاب الظريف ، ص ٤٦ ، وابن حجة : الخزانة ، ص ٢٧١ .

(٢) ديوان الشاب الظريف ، ص ٨٦ ، وابن حجة : الخزانة ، ص ٢٧١ .

(٣) الامير سيف الدين علي بن عمر بن قزعل بن جلدك التركماني الباروقي ، ولد بمصر سنة ٦٠٢ هـ ، ونشأ بدمشق ، وتولى فيها شد الدواوين للملك الناصر يوسف بن العزيز مدة من الزمن ، وتوفي سنة ٦٥٦ هـ ، ودفن بسفح قاسيون . (ابن شاكر : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ٧٩ ، وابن حجة : الخزانة ، ص ٢٧٧) .

(٤) ابن حجة : الخزانة ، ص ٢٧٦ .

(٥) الوداعي : علاء الدين علي بن المظفر بن ابراهيم الكندي الوداعي ، المعروف بكاتب ابن وداعه . ولد سنة ٦٤٠ هـ وكان عالي الهمة في تحصيل العلوم ، سمع الحديث ، وتضلع من الادب ، ثم تولى عدة ولايات ، وكتب بديوان الانشاء في دمشق وتولى مشيخة دار الحديث النفيسه ، وجمع التذكرة الكنديه ، وهي تزيد على خمسين مجلده ، وله ديوان شعر في ثلاث مجلدات ، وتوفي ببستانه سنة ٧١٦ هـ ، ودفن بالمزة . (ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ٢٣٥ ، وابن حجه : الخزانة ص ٢٧٧ ، وابن شاكر : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ١٠٩) .

أتبتُ إلى البلقاء (١) أبغي لقــاءكم فلم أركمْ فازداد شوقي وأشجــاني
فقالتْ لي الأقوامُ : مَنْ انتَ قاصدٌ لرؤياه؟ قلت: الشمس، قالوا: بحسبان(٢)

ومن تورياته المشهورة قوله :

روِّ بمصــــرٍ وسكــــانهـــــا شوقي وجدِّدْ عهـــــديَ الخالي
وارو لنا ياسعدُ عن نيلهـــــا حديث صفـــوان بن عسّال (٣)

تلك هي إلمامة عامة ببعض شعراء المذهب الانصاري في مدرسة التورية السامية . وقد حاولنا من خلالها أن نختار شواهد توضح لنـا الاساليب المختلفة التي اخذ بها ارباب هذا المذهب البديعي الهام انفسهم . ولاحظنـا تنافس الشعراء في اختراع التوريات وتوليدها . ورغبتهم في إيجـاد صور جديدة لم يسبقوا إليها . واختراع معـان غريبة لم تعرف من قبـل وفقـاً لموازين النقد البلاغي في هذا العصر . فاذا ما أفلح الشاعر في رسم الصورة أو الوصول إلى المعنى المبتكر ، فسرعان ما يتهافت عليه الشعراء الآخرون يتناقلونه ، ويتلاعبون به ، كانهم يدورون في حلبة سباق . وسبب هذا كله ظهور معان مشتركة تنحدر من مصدر واحد ، وقـد عرفت في مذهب التورية وحدها ، واصطلح البلاغيون على تسميتها بأسماء خاصة ، فقـالوا مثلا : تورية الدور (٤) وتورية الراووق والصليب (٥) ، وتورية السيف (٦) .

---

(١) البلقاء : ذكر ياقوت انها واقعة بين دمشق ووادي القرى ، قصبتهـا عمـان ، وفيهـا قرى كثيرة ومزارع واسعـة ، ويضرب المثـل بجوده حنطتهـا . (معجم البـلدان ، ج ١ ص ٤٨٩) .

(٢) ابن حجة ، ص ٢٨٤ ، وابن شاكر : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ١١٠ حسبان : يلاحظ أن الشاعر ورى بهذه الكلمة ، فالمعنى الاول هو اسم المكان ، والثاني اشارة الى قوله تعالى « الشمس والقمر بحسبان » أى بحساب . سورة الرحمن ٥٥\٥ .

(٣) ابن حجة : الخزانة ، ص ٢٨٣ ، وابن شاكر : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ١١٠ .

(٤) ابن حجة : الخزانة ، ص ٢٦٠ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٦٥ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٧٢ .

ونوربة الشامات (١) ، وتوربة النبت والرعى (٢) ، وغير ذلك من المعـانى المخترعة المشتركة التي تداولها شعراء المذهب الشامي من انبـاع السرف الأنصـاري .

الطبـاق

هو الجمع بين المتضادين سواء أكان بين لفظين من نوع واحـد ، أم من نوعين مختلفين (٣) . فاذا جـاوز الطبـاق ضدين كان مقابلة (٤) وقـد نبلـغ إلى الجمع بين عشرة أضداد . خمسة في الصدر . وخمسة في العجز ، إذ إن علماء البديع يرون أنـه كلمـا كثر عـددها كانت أبلـغ (٥) . ولـو أمكن للشـاعر أن يحمل بيتـه أكثر من ذلك لزاد عددهـا عما وصل إليه .

والمقابلة نوعان : مقابلة معنوية ، ومقابلة لفظية . فأمـا ما كان منهـا في المعنى فهو مقابلة الفعل بالفعل (٦) . وهي كثيرة بالقرآن الكريم . وأما ما كان منها باللفظ فقد تبلغ الى الجمع بين عشرة أضداد .

عرف شعراء هذا العصر عناية من سبقهم بالطباق والمقابلة ، فنهجـوا نهجهم . وغالوا في تكلفه وتصنعه . وبخاصة منهم شعراء القرنين السـادس والسابع الهجريين ، فقد عرف كثيرا في شعر ابن القيسراني كما في قصيدته التى مدح بها عماد الدين زنكي ، وجاء فيها قوله :

فيا ظفراً عمّ البـلادَ صلاحُـه ... بمـنْ كانَ قد عمّ البـلادَ فسادُهُ
فما مُطلقٌ إلا وشُدّ وثاقُـه ... ولا مُوثقٌ إلا وحُلّ صِفـادُهُ
إلى أينَ يا أسرى الضلالةِ بعدَها ؟ ... لقـد ذلّ غاويكم وعزّ رشادُهُ (٧)

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٧٦ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٢٦٤ ، والقزويني : الايضاح ، ج ١ ص ١٨ .
(٣) خالف قدامه البلاغيين في نقده فنعته بالتكافؤ (نقد الشعر ص ١٤١) .
(٤) ابن رشيق : العمدة ، ج ٢ ص ١٥ .
(٥) ابن حجة : الخزانة ، ص ٥٧ ، ٥٨ .
(٦) العسكري : الصناعتين ، ص ٣٣٧ .
(٧) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ١٥٥ .

كما قال مجير الدين بن تميم :

أجريتُ واقف مدمعي من بعده	وغدوتُ من ثوب اصطباري عاريا
لما لبستُ لبعده ثوبَ الضنى	وجعلته وقفاً عليه جاريا (١)

ويزداد الطباق مع الزمن تعقيدا . فهذا ابن الساعاتي يصف لنا ثلوج الشام :

لله يومُك إذ نبلّجَ وجهُهُ	والشمسُ مُغضبةٌ فليست تنظرُ
تبكي وتبسمُ مزنُهُ وبروقُهُ	والسُحبُ تطوى تارةً وتنشَرُ
والثلجُ يبكى ذائباً كافورُهُ	والأرض تكفر مِسكها والعنبرُ
في الجوّ تحسبه جراداً طائرا	وإذا تدانى خلت ورداً ينثرُ (٢)

ومما قاله أيضا بعد وصف الربيع تتحدث عن الزمان :

عجباً تخافُ الفقر أو ترجو الغنى	وبداك تأخذُ ما تشاءُ وتتركُ
سخط الأنامُ على الزّمانِ وصرفِهِ	ورضا الخلائقِ غايةٌ لا تُدركُ
ونهايةُ الدُنيا وغايةُ أهلِها	مُلكٌ يزولُ وسِترُ قومٍ يُهتكُ
تحلو فتُعقِبُ غصةً ومرارةً	وتُحبّ وهي بنا تدورُ وتفتكُ
فاعجبْ لهذا الكون منْ متحرِّكٍ	يلقى السُكونَ وساكنٍ يتحرّكُ
من نُطفةٍ تُمنى ومولود بها	يلقى وحيّ بعد ذلك يهلكُ (٣)

ومن ذلك قول الشرف الانصاري :

ما أقبحَ الصبرَ الجميـ	ـل بعاشقيكَ ، وأجملك ! !
ما أنقص اللوام فـي	ولهي عليك . وأكملك ! ! (٤)

نكتفي بهذا القدر من شواهد الطباق ، ونحب أن نشير إلى انه يؤلف والجناس الذي سيأتي ذكره في بحث المحسنات المعنوية الدعامة الاساسية

---

(١) ابن حجة : الخزانة ، ص ٧٤ .
(٢) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ١٥٤ .
(٣) ديوان ابن الساعاتي ، ج ١ ص ٢٠٦ .
(٤) مخطوطة مصورة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٦٣ ، الديوان ص ٣٧٨ .

التي يقوم عليها مذهب التطبق والتجنيس . أحد المذاهب الادبية الهامة في هذا العصر .

حسن التعليل

أجمل المحسنات البديعية المعنوية . فيه حسن وابتكار ، إذ يكشف عن طبع شاعري أصيل وروح شعرية مبدعة . وذوق فني رفيع . وقد فطن إليه من شعراء هذا العصر المتأخرون منهم . بعد أن أعجبوا بما ورد منه في الشعر العربي القديم والقرآن الكريم دون تكلف أو تصنع . ونحسب انه استمد كثيرا من مؤثرات أجنبية .

عرفه القزويني بقوله : هو أن تدعي لوصف علة مناسبة له باعتبار لطيف غير حقيقي (١) . وهو على اربعة أقسام باعتبار الوصف المعلل : ثابت قصد بيان علته . فاما أن يظهر له في العادة علة . أو يظهر له علة غير المذكورة . وغير ثابت . وهو إما ممكن في ذاته أو غير ممكن الا بالادعاء .

وجدير بالذكر أن القزويني شرح بالتفصيل أقسامه الاربعة ، ومثل لكل منها بما اختاره من شواهد مأثورة . بيد أنه في شاهد القسم الرابع ذكر أنه كمعنى بيت فارسي ترجمته :

لو لم تكنْ نيةُ الجوزاء خدمَتَه   لما رأيتَ عليها عقدَ منتطق (٢)

هل يعني هذا القول أن حسن التعليل مستمد من البلاغة الفارسية ، والا فهل ضاقت اللغة وبلاغتها حتى يجعل شاهد حسن التعليل الرئيسي ترجمة بيت فارسي ؟ مهما يكن من أمر فلن نجزم بما ذهبنا إليه من القول ما لم نملك بينة أخرى تؤكد ذلك التأكيد كله .

يحتاج هذا النوع البديعي الجديد الى لفظ رشيق وأسلوب رقيق ومعنى دقيق ودراية تامة في ايراد العلة المقبولة ، والا غدا مظهرا من مظاهر التكلف ،

---

(١) القزويني : الايضاح ، ج ١ ص ١٦٩ .

(٢) القزويني : الايضاح ، ج ١ ص ١٧٤ .

فيزيد المعنى سوءا وفسادا ، ويبدو حينئذ الخيال مبهما . فمن شعراء العصر الذين وشحوا شعرهم بحسن التعليل ابن القيسراني ، ومما قاله :

وسلاهُ ممنْ قلبُه صخرةٌ | في زند قلبي أبداً قادحَه
تالله هل في خدّه حمرةٌ ؟ | أم خمرةٌ ؟ أم جمرةٌ لافحهْ ؟
لو لم تكنْ مقلتُه في الحشا | جارحةً ما سمّيتْ جارحَهْ
تمضي صلاتي كلُّها باسمها | فلا نسلْ عن سورةِ الفاتحَهْ (١)

ومن ذلك قول الشواء الحلبي (٢) :

ومُعذّرٍ نقش الجمالُ بوجهه | خطأً غدا بدمِ القلوب مضرّجا
لمّا تيقّن أن سيفَ جفونه | من نرجسٍ جعل العِذارَ بنفسجا (٣)

ومن ذلك قول ابن الساعاتي . وقد مر بنواحي صيداء فرأى مروجا كثيرة نباتها النرجس ، واتفق أن هرب بعض الاسرى منها . فلحقته الخيل . وردته من الموضع الذي كان فيه :

لله صيداءُ مِنْ بلادٍ | لم تُبق عندي هماً دفينا
نرجسُها حليةُ الفيافي | قد طبّق السّهلَ والحزونا
وكيفَ ينجو بها هزيمٌ | وارضها تنبتُ العيونا (٤)

نظن مما مر معنا من شواهد حسن التعليل ان هذا النوع مستحدث في البلاغة العربية ، وانه ثمرة من ثمار التصنع البديعي ، ونتيجة لامتزاج

---

(١) ديوان ابن القيسراني (مخطوط) و ٨٣ ، ٨٤ .

(٢) ابو المحاسن ، شهاب الدين يوسف بن اسماعيل بن علي بن احمد بن الحسين بن ابراهيم ، الملقب بالشواء الحلبي ، وهو كوفي الاصل . ولد بحلب سنة ٥٦٢ هـ ، وكان أحد ادباء عصره متقنا لعلمي العروض والقوافي ، وله ديوان شعر كبير يدخل في اربع مجلدات ، وقد عرف عنه انه كان يقع له في النظم معان بديعة ، يسكبها في مقطعات شعرية صغيرة مؤلفة من بيتين أو ثلاثة . نوه ابن خلكان كثيرا بذكره ، وأشار الى أنه كانت بينهما مودة ، وأنه كان من المغالين في التشيع . توفي بحلب سنه ٦٣٥ هـ ، ودفن بمقبرة باب انطاكيه (ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٢ ص ٤١١ ، ٤١٢ ، والطباخ : أعلام النبلاء ، ج ٤ ص ٣٩٨) .

(٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٢ ص ٤١٢ .

(٤) ديوان ابن الساعاتي ، ج ١ ص ١٦٨ .

الثقافة العربية بغيرها من الثقافات الاجنبية ، لاننا سوف نجد أن بعض الفنون البديعية كان معروفاً في اللغات الاخرى قبل وجوده في اللغة العربية .

مراعـاة النظير

هذا النوع البديعي الجديد مظهر من مظاهر الزخارف البديعيـة في هذا العصر وكان معروفاً على نطاق واسع بدليل أنه سمى بأسماء متعددة : منها التناسب ، والمؤاخاة (١) . والنوافق . والائتلاف (٢) . واعتبره ابن حجة من المناسبات البديعية . وقال : « نعم هذه غاية الغايات التى تقف عندها فحول الشعراء » (٣) .

وفي الاصطلاح أن يجمع في الكلام بين أمر وما يناسبه . لا بالتضاد (٤) . ليخرج الطباق . وكيلا بكون تنافر بين الاجزاء . ولعل سبب التسمية ما نراه في هذا الجمع من رعاية النظير لنظيره في النعوت والاوصاف .

ثمة نوع آخر من مراعاة النظير يسمى تشابه الاطراف وهـو أن يختم الكلام بما يناسب أوله في المعنى . اكثر بعض شعراء العصر من اسـتخدام مراعاة النظير في أشعارهم . نذكر منهم ابن الساعاتي . ولا نغالي ان قلنا : انه كان إمـام الشعراء في هذا الباب من ذلك قوله في وصف يوم قضـاه في أسيوط :

لله يومٌ في سيـوطَ وليـلـةٌ ... صَرْفُ الزمانِ بأختهـا لا يغلطُ
بتنـا وعمـرُ الليـلِ في غلوائـه ... وله بنـورِ البـدرِ فرعٌ أشمطُ
والطلُّ في سلكِ الغصونِ كلؤلؤٍ ... نَظْمٍ يصافحه النسيمُ فيسقطُ
والطيرُ تقرأ والغديرُ صحيفـةٌ ... والريحُ تكتبُ والغمامةُ تنقطُ (٥)

---

(١) ابن الاثير : المثل السائر ، ج ٢ ص ٢٩٢ .
(٢) العسكري : الصناعتين ، ص ٤٠١ .
(٣) ابن حجة : الخزانة ، ص ١٣٢ .
(٤) المصدر السابق ، ص ١٣١ .
(٥) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ٤ .

وقوله ايضا في وصف مجلس شراب بالنرب ، وقد جاء فجأة مطر ورعد وبرق :

لله يومُ النيربَين ووجهه طلقٌ ونغرُ اللهو ثغرٌ أشنبُ
وكأنّما فننُ الأراكةِ منبرٌ وهزارُها فوق الذؤابةِ تخطبُ
والرّعدُ يشدو والحيا يسقي وغصـ ـنُ البانِ يرقصُ والخمائلُ تشربُ
وكأنّما السّاقي يطوفُ بكأسِهِ بدرُ الدُّجى في الكفّ منهُ كوكبُ
بكرٌ بها نقعُ الغليل ومعجبٌ نقعُ الغليل بجذوةٍ تتلهّبُ
حمراءُ حاربنا الصروف بصرفها فزجاجها بدم الهُموم مُخضّبُ
والقطرُ نبلٌ ، والغديرُ سوابغٌ موضونةٌ ،والبرقُ سيفٌ مذهبُ(١)

ومن مراعاة النظير قول مجير الدين بن تميم :

لو كنتَ تشهدُني وقد حَمِيَ الوغى في موقفٍ ما الموتُ فيه بمَعزلِ
لترى انابيبَ القناة على يدي تجري دما من تحت ظلّ القسطل (٢)

ويظهر أن ابن حجة كان من المعجبين كثرا بهذا النوع البديعي . فبعد أن أورد هذين البيتين قال : « انظر ايها المتأمل إلى حسن ما ناسب بين الانابيب والقناة . والجريان والقسطل ... فانى أنا محقق أن الامير مجير الدين بن تميم من فرسان هذا الميدان (٣) » .

يلحق البلاغيون بمراعاة النظير نوعا سموه « التفويف » (٤) ، وجعله البديعيون مستقلا عن غره . فلقد مرت معنا بعض شواهده في شعر ابن الساعاتي ، وهو أن يؤتى في الكلام بمعان شتى متلائمة في جمل متساوية المقادير (٥) ، ويكون في الجملة الطويلة او المتوسطة أو القصيرة . ويرى

---

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٦٨ .
(٢) ابن حجة : الخزانة ص ١٣٣ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٣٣ .
(٤) التفويف مشتق من قولنا : فوف الثوب ، ومنه الثوب المفوف . وهو ما فيه من خطوط بيض ، والمراد تلوينه ونقشه .
(٥) ابن حجة : الخزانة ، ص ١١٢ .

البديعيون أنه كلما قصرت الجملة غدت أصعب مسلكا ، واشد عقادة ، وهي — في نظر أصحاب هذا المذهب — منتهى البلاغة وآية الابداع .

المحسنات اللفظية

خلصنا في ختام حديثنا عن مراعاة النظير الى القول ان من شعراء هذا العصر من كان يسلك في مذهبه البديعي السبيل المعنوي ، ومنهم من كان يسلك السبيل اللفظي ، فيؤدي به الى الابهام والتعقيد والاغراب .

هاجم ابن حجة في معرض حديثه عنه أرباب المذهب اللفظي ، وذكر أنه كان يود لو يستغني عنه ، ولكن شروع المعارضة ملزم به ، ورأى ان الفرصة سانحة ليشرح رأيه في الصراع بين الالفاظ والمعاني ، ويبين بعد ذلك أسباب العقادة في المذاهب الفنية المعاصرة ، ثم قال : « وتأملته فوجدته نوعا لم يفد غير ارشاد ناظمه الى طرق العقادة ، والشاعر اذا كان معنويا ، وتجشم مشاقه ، تقصر يده عن التطاول الى اختراع معنى من المعاني الغريبة، وتجنوه حسان الالفاظ ولم يعطف عليه برقة ، وتأنف كل قرينة صالحة أن تسكن له بيتا (١) » .

ومن أهم المحسنات اللفظية التي أخذ بها هؤلاء الشعراء الجناس ، والاقتباس وحسن التخلص والابتداء .

الجناس

هو نوعان : لفظي ومعنوي ، فالاول ما تشابهت فيه الكلمتان لفظا واختلفتا معنى . وهو قسمان : تام وغير تام ، فالاول ما اتفق فيه اللفظان في انواع الحروف ، وأعدادها ، وهيئتها ، وترتيبها . وغير التام ما اختلف فيه اللفظان في أعداد الحروف (٢) .

---

(١) ابن حجة : الخزانة ، ص ١١١ .

(٢) القزويني : الايضاح ، ج ١ ص ٢٣٨ .

أما الجناس المعنوي فهو على ضربين . تجنيس اضمار ، وتجنيس اشارة، وقد ذكر ابن حجة ان هذا النوع « طرفة من طرف الادب عزيز الوجود جدا (١) » .

اختلفت نظرة البلاغيين الى الجناس وبيان قيمته الفنية كأحد مقومات الفنون الاسلوبية . فمنهم من أبدى اعجابه به ، ومنهم من عده « من ابواب الفراغ وقلة الفائدة . وهو مما لا يشك في تكلفه (٢) » .

شغف قسم من ادباء العصر بهذا النوع البديعي فكان في القرن السادس الهجري يؤلف والطباق مذهبا اسلوبيا خاصا ، يتصنعه الشعراء كثيرا ، وقد تعددت اشارات العماد الكاتب في الخريده الى ذلك ، فذكر في معرض ترجمته لابن القيسراني « صاحب التطبيق والتجنيس » (٣) . ونعت احدى قصائده بقوله : « مجنسة سلسة ، للقلوب مختلسة ، وللعقول مفترسة » (٤) ، ونعت اخرى بقوله : قطعة مجنسة في لطافة الهواء . مالكة رق الاهواء ، خلصت من كلفة التكلف ، وصف مشربها عن قذى التعسف (٥) . ومما يوضح لنا غلبة التصنع الجناسي ما جاء في جواب ابن قسيم جوابا على كتاب بعث به الى ابن منير الطرابلسي ، وجاء فيه قوله :

بعثتَ الكتابَ فأهلا بهِ يسرُّ النواظرَ تنميقُهُ
غريبُ الصناعةِ تجنيسه نفيسُ البضاعةِ تطبيقُهُ (٥)

أما في القرن السابع الهجري فقد أهمل الطباق بعض الاهمال . واشتدت العناية بالجناس ، حتى إن ابن الأثير نوه به ، فذكر انه « غرة شادخة في وجه الكلام » (٧) . كما كثرت حوله المؤلفات من أرباب هذا المذهب ، نذكر منها

---

(١) ابن رشيق : العمدة ، ج ١ ص ٢٩٧ .
(٢) ابن حجة : الخزانة ، ص ٤١ .
(٣) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٩٦ .
(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٢١ .
(٥) المصدر السابق ، ج ١ ص ٩٨ .
(٦) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٥٩ .
(٧) ابن الاثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٤٥٩ .

مثلا كتاب « جنان الجناس » ، ومؤلفه الصفدي من رجال القرن الثامن الهجري ، وقد وضع فيه اسس المذهب البديعى السائد في هذا العصر ، وجاء في مقدمته : « الحمد لله الذي رفع في فن البديع جناب جناسه ، وملك من شاء من البشر قياد قياسه ، وأعلى مقداره للادبب الى أن قاس المسك الأذفر بأنفاسه » (١) . ثم ختم مقدمته بقوله : « وانا أعلم أن الواقف ثلاثة : اما عالم معاند يجعل محاسنه مساوىء او جاهل بمواقع فضله فيستوي عنده حسنه وقبح غيره . أو عالم خال من الحسد سلك محجة الانصاف ، واعترف بقيمة الدرة لغواصها » (٢) . ونوه خلال هذه المقدمة بأهمية الجناس . وذكر انه اساس كلام المتكلم، وقال: « ومتى طاف بالبلاغة متكلم كانت اركان كعبته، وحجابه حجازه، ومتى كان السحر الحلال باباً كان في الحقيقة اليه مجازه(٣)» .

غير ان بعض ادباء هذا العصر اوضح أن الاعتدال في المذهب الجناسي افضل ، فقد كرهوا الاكثار منه . ذكر السهاب محمود أنه « يحسن إذا قل واتى في الكلام عفوا من غير كد ولا استكراه ، ولا بعد ولا ميل الى جانب الركاكة » (٤) . وعلى الرغم من أن التصنع الجناسي بلغ الذروة ، الا أن هناك فئة ثانية أعرضت عن الجناس اعراضا كليا كما رأينا عند شعراء المعاني، واتخذت لها مذهبا خاصا . هو مذهب التورية والانسجام ، أو مذهب السحر الحلال كما اصطلح على تسميته .

أشار ابن حجة الى شواهد كثيرة على ذلك . وتحدث عن جماعة هذا المذهب المعنوي ، وقد وقفت نعارض هذا الاتجاه ، ومما قاله في هذا الصدد:

اما الجناس فإنه غير مذهبي ، ومذهب من نسجب على منواله من أهل الادب وكذلك كثرة اشتقاق الالفاظ فان كلا منهما يؤدي الى العمادة ،

---

(١) الصفدي : جنان الجناس ، ص ٦ ، ٧ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٣٦ .
(٣) الصفدي : جنان الجناس ، ص ٧ .
(٤) ابن حجة : الخزانة ، ص ٢٠ .

والتقييد عن اطلاق عنان البلاغة في مضمار المعاني المبتكرة (١) .

لن نتحدث عن أنواع الجناس الكثيرة التي شققها علماء البلاغة ، وتكلفها الشعراء وغيرهم ، فهي متشعبة الفنون ، اذ انهم لم يكتفوا بالانواع المعروفه ، وانما كثروها حتى نيفت على العشرين .

فمن الشعراء الذين شغفوا بالجناس مذهبا ابن القيسراني ومما قاله بتغزل :

سقى اللهُ بالزوراءِ مِنْ جانبِ الغرب ... مهاً وردَتْ عينَ الحياةِ من القلبِ
عفائف إلا عن معاقرةِ الهوى ... ضعائفُ إلا في مغالبةِ الصبِ
عقائلُ تخشاها عقيلُ بنُ عامرٍ ... كواعبُ لاتعطي الذِّمامَ على كَعبِ (٢)

ويقول في القصيدة نفسها :

ولما دنا التوديعُ قلتُ لصاحبي ... حنانيكَ : سِرْبي عن ملاحظةِ السِّربِ
إذا كانتِ الأحداقُ نوعا من الظُبا ... فلاشكَّ أن اللحظ ضربٌ من الضَّربِ
فمالي إذا ناديتُ يا صبرُ منجداً ... خَذلتْ ، ولبَّي إنْ دعا حرقةُ لبِّي
إذا لم يكنْ في الحبِّ عندي زيادةٌ ... تُرجَّى ، فما فضلُ الزيارةِ عن غبٍّ (٣)

هذا بعض مافي القصيده من تصنع جناسي ، وسوف نعرض من بعض انواعه الرئيسية ما يوضح لنا شطرا من اساليبه التعبيرية ، ولا سيما منه التام وغير التام ، والاقتصار عليهما دون سائر فنونه فمن التام البسيط قول ابن الساعاتي :

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٠ .
(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ١٢٤ .
(٣) المصدر السابق : ج ١ ص ١٢٤ .

أمهى الفتونُ سيوفَ الحاظِ المهـا   فأطعتهنَّ لما نهى عنه النُّهى (١)

ومنه قول ابن قسيم الحموي :

يبرينَ افئدةَ الرجالِ بما حوتْ   اغطافهنَّ وليس من (٢) يبرين (٣)

ومن التام المركب قول الشاب الظريف :

إنَّ الـذي منـزلُـه   مِنْ سحبِ دمعي امرعا
لم ادرِ مِنْ بعـدي هـل   ضيّعَ عهدي أم رعى ؟ (٤)

ومنه قوله أيضا :

اسرعْ وسرْ طالب المعالي   بكلِّ وادٍ وكلٍّ مَهْمَهْ
وإن لحا عاذلٌ جهولٌ   فقلْ له : يا عذولُ مَهْ مَهْ (٥)

ومنه قول ابن عنين :

خبّروها بأنه ما تصدّى   لسلوٍ عنها ولو ماتَ صدا (٦)

ومن غير التام قول الشرف الانصاري :

لعيني كلَّ يومٍ منهُ عَبْرَهْ   تصيّرني لأهلِ العشقِ عِبره (٧)

ومنه قوله :

أقسمتُ مافي ضروبِ السكرِ ابلغ من   سكري بريقٍ له احلى من الضَّرَبِ (٨)

ومنه قوله :

---

(١) ديوان ابن الساعاتي : ج ١ ص ١٢٤ .
(٢) يبرين : قرية من نواحي عزاز .
(٣) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٤٧٨ .
(٤) ابن حجة : الخزانة ، ص ٢٣ .
(٥) المصدر السابق ، ص ٢٣ .
(٦) المصدر السابق ، ص ٢٧ .
(٧) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٣٧ ، والديوان ص ٢٢٦ ؛
(٨) المصدر السابق ، ل ٦ ، والديوان ص ٩٢ ؛

وفي الوصفين مـن كحـل وكُحْلٍ   حوَتْ حسنَ البداوةِ والحضارَه(١)

ومنه قول ابن الساعاتي :

يُبيـحُ فؤادي قـدّ هنـدٍ ونهدُها   وبمنعُه نهدٌ(٢) ، وما تطبعُ الهند(٣)

ومنه قول ابن عنين ، وقد اجتـاز بالزبداني لزيارة صديقـه الشهاب الشاغوري ، فلم يجده ، فتناول لوحاً من أحد الصبيان ، وكتب فيه :

اتيـتُ فما حظيتُ لسـوء بختـي   بخدمة سيـدي ، ورجعتُ خائـبْ

إمـامٌ مـا تيممنـاهُ إلاّ   رجَعْنـا بالرّغائـبِ والغرائبْ (٤)

تلك هي مقتطفات مـن الجناس ، وقد لاحظنا مـن خلالها ان الشعراء اعتنقوا هذا النوع البديعي سعياً وراء التصنع اللفظي ، وسوف يتضح لنا ذلك في معرض حديثنا عن الاقتباس .

الاقتباس

هو أن يتضمن الكلام شيئاً من القرآن والحديث لا على أنه منه ، وهو على ثلاثة أقسام : مقبول ، ومباح ، ومردود .

أما الاقتباس المقبول فهو ما كـان في الخطب والمواعظ والعهـود والمدح النبوية ، وأما المباح فهو ما كان في الأغزال والرسائل والقصص ، وأما المردود فهو ما كان على لسان الله ، ويحرم أن ينقله المتكلم الى نفسه ، أن يعرضه في معرض الهزل والمجون (٥) .

---

(١) المصدر السابق ، ل ٣٠ ، والديوان ص ٢٠٠ .
(٢) نهد : اسم قبيلة الفتاة التي يتغزل بها الشاعر .
(٣) ديوان ابن الساعاتي ، ج ١ ص ٥٩ .
(٤) ديوان ابن عنين ، ص ١١٩ .
(٥) ابن حجة : الخزانة ، ص ٤٤٢ .

أكثر الشعراء من الاقتباس في قصائدهم ، وساعدهم على ذلك امران : أولهما الثقافة الدينية التي كان المثقفون ينالونها منذ حداثتهم ، كما رأينا في معرض ذكر الحياة العامه ، وثانيهما الأحداث الكبرى المعاصرة .

يرى الدكتور جودة الركابي ان الاقتباس في هذا العصر أصبح نوعاً من الضرورة في الشعر الذي يمجد الانتصارات الاسلاميةفي الحروب الصليبية(١).

لم يغال شعراء القرن السادس الهجري في استخدام الاقتباس ، نذكر منه مثلا قول ابن القيسراني يمدح نور الدين :

كأنيّ بهذا العزم لافلّ حدّهُ
واقصاهُ بالاقصى وقد « قُضي(٢) الأمرُ »(٣)
وقد أصبحَ البيتُ المقدسُ طاهراً
وليس سوى جاري الدماء لهُ طُهرُ(٤)

اما شعراء القرن السابع الهجري فقد بالغوا في استخدامه ، وكان على راسهم الشرف الانصاري ، فمن ذلك قصيدته التي جاء فيها قوله :

قسماً بشمسِ جبينه «وضحاها(٤)» ونهارِ مبسمِهِ « إذا جلاّها »(٥)
وبنارِ خديه المشعشعِ نورُها وبليلِ صُدغيه « إذا يغشاها »(٦)
لقد ادعيتُ دعاويا في حبهِ صدَقتْ و«أفلحَ» فيهِ «من زكّاها»(٧)

---

(١) الركابي : Rikabi : Poesie Profone P . 270.
(٢) العماد الكاتب : الخريده ، ج ١ ص ١٥٨ .
(٣) سورة مريم ١٩ \ ٣٩ .
(٤) سورة الشمس ٩١ \ ١ .
(٥) السورة نفسها ٩١ \ ٣ .
(٦) السورة نفسها ٩١ \ ٤ .
(٧) السورة نفسها ٩١ \ ٩ .

فنفوسُ عذّالي عليــه وعـــذري ... قد الهمت بفجورها « تقواها » (١)

فالعذرُ اسعدهـا يقيـمُ دليلــه ... والعذلُ منبعـثٌ لـه « أشقاها »(٢)

يامــنْ بخوفني كــلامُ وشــاتِه ... مهلاً فما أنذرتَ « مَن يخشاها »(٣)

وأراكَ مرتقبـاً لســاعةِ سلوتـي ... دعهـا ف « فيمَ انت من ذكراها(٤) »(٥)

لاحظنا أن الشاعر استخدم في هذه القصيدة فواصل ست آيات من ست عشرة آية تؤلف سورة الشمس ، وقد صرح بها في شطر بيته الأول ؛ ولاحظنا أيضا أنه ختم قصيدته ببيتين اقتبس فيهما آيتين من سورة النازعات .

أعجب التلعفري بهذا الاسلوب من الاقتباس ، فنظم مقطوعة مشابهة على ذات الوزن والروي . ويكاد يكون المطلع هو نفسه . وإنما يتميز عنه انه ختمها باقتباس بعض الآية من سورة البقرة :

قسماً بشمس جبينها « وضُحاها » ... وبليـلِ طُرتهــا « إذا يغشاهــا »

إن النفــوس كغيرهـــا لا تنتهـــي ... أبداً ولا تهـوى القلـوبُ سواهـــا

لـمـا رنَتْ نحـو السمـاءِ بطرفِها ... ورأت « تقلب » طرفِ من يهواهـا

قالتْ محاســنُ وجههـا لمحبّهـا : ... « لنولينك قبـلةً نرضاها (٦) » (٧)

نلاحظ أن هذا النوع من الاقتباس مردود عند البلاغيين كما رأينا ، إذ جاء في القرآن الكريم على لسان الله تعالى ، ونلاحظ أيضا أنه مهد لاقتباسه هذا باستخدامه لفظة « تقلّب » من الآيــة نفسها ، بيد أنه نقلهــا من تقلب

---

(١) السورة نفسها ٩١ \ ٨ .
(٢) السورة نفسها ٩١ \ ١٢ .
(٣) سورة النازعات ٧٩ \ ٤٥ .
(٤) السورة نفسها ٧٩ \ ٤٣ .
(٥) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٨٩ ، والديوان ٥١٥ ، ٥١٦ .
(٦) سورة البقرة ٢ \ ١٤٤ .
(٧) ديوان التلعفري ، ص ٥ ، ٦ .

الوجه كما في أصل التنزيل الى تقلب الطرف ليستقيم له المعنى الذي اراده.
ومن ذلك أيضا قول الشرف الانصاري :

إن دمعتْ عينى فمن أجلِها ... بكى على حالى مَنْ لا بكى
أوقعني إنسانُها في الهوى ... « يا أيُّها الإنسانُ ما غرَّكا(١) »(٢)

وقوله أيضا :

بانظرةً ماجلتْ لى حسنَ طلعتِه
حتى انقضتْ ، وادامتنى على وجلي
عاتبتُ إنسان عينى في تسرّعِه
فقالَ لي : « خُلِقَ الإنسانُ مِنْ عجلِ(٣) »(٤)

ومن ذلك قول محيي الدين بن قرناص :

إنَّ الذيـن ترحلـوا ... نزلـوا بعيـنٍ باصـرَهْ
انزلتُهم في مقلتي ... « فإذا هـمْ بالساهِـرَهْ » (٥)(٦)

لم يقتصر الاقتباس على القرآن والحديث ، وإنما تجاوزهما الشعراء الى بعض مسائل الفقه ومصطلحات علوم اللغة والنحو والعروض والقوافي والتصوف والمنطق وغير ذلك . فمن الاقتباس المنطقي قول النساب الظريف :

للمنطقيينَ أشتكى ابداً ... عينَ الرقيبَ فليتَه هجعا
صادَرها مَنْ أحبُّه فأبى ... أن نختلي ساعةً ونجتمعا

---

(١) سورة الانفطار ٨٢ \ ٦ .
(٢) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصارى ، ل ٦٤ ، والديوان ص ٣٨١ .
(٣) سورة الانبياء ٢١ \ ٣٧ .
(٤) مصوره مخطوطة ديوان الشرف الانصارى ، ل ٦٧ ، والديوان ص ٤٠٠ .
(٥) سورة النازعات ٧٩ \ ١٥ .
(٦) ابن حجة : الخزانة ، ص ٤٤٣ .

كيفَ غدت دائماً وماانفصلت   مانعة الجمع(١) والخلوّ معا(٢)

ومن الاقتباس المنطقي الجدلي قوله ايضا :

وما بالُ برهانِ العذار مسلّما   ويلزمُه دورٌ . وفيه تسلسلُ
وعنديَ أنّ الشمس بالصحوِ آذنتْ   وسكري أراهُ مِنْ محياكَ يقبلُ (٣)

اما الاقتباس النحوي فقد بالغوا فيه كثيرا . واتسع مجالهم فيه حتى غلب على غالبهم التوجيه(٤) . فمن هذا النوع قول ابن القيسراني :

أبا جعفرٍ اشرقتْ دولةٌ   أضاءَ لها بدرُكَ الكاملُ
فإما نصبتَ لرفعِ اسمِها   فإنكما الفعلُ الفاعلُ (٥)

وقوله في مدح نور الدين :

تلك الصوارمُ أيّ أفعالِ العدا   ما سكّنتْ حركاتُها بجوازمُ (٦)

ومن شعراء القرن السابع ابن عنين ، وقد بالغ في استخدام الاقتباس النحوي وروى عنه انه مرض ، فكتب الى الملك المعظم هذين البيتين :

انظرْ إليّ بعينِ مولىً لم يزلْ   يولي النّدى وتلافَ قبلَ تلافي
انا كـ(الذي) احتاجَ ما يحتاجُه   فاغنمْ ثنائيَ والدعاءَ الوافي (٧)

فجاءه الملك المعظم بعوده ، ومعه ألف دينار ، وقال له : أنت (الذي) ،

---

(١) شرح ابن حجة قول الشاعر « مانعة الجمع والخلو معا » فذكر أن هذه القضية موجودة مستعملة ، وذلك قوله : العدد اما زوج واما فرد ، فهذه القضيه مانعة الجمع ، لان الزوجية والفردية لاتجتمعان ، ومانعة الخلو ، فان العدد لايخلو من احداهما . (الخزانة ، ص ٤٥٢) .

(٢) ابن حجة : الخزانة ، ص ٤٥٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٥٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٥٢ .

(٥) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ١٠٩ .

(٦) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ١١٤ .

(٧) ديوان ابن عنين ، ص ٩٢ .

وأنا (العائد) ، وهذه (الصلة)(١) .

وكتب الى صدر جيهان :

لِمَ أخَّرْتَنـي وقدمـتَ غـيري ؟ — أنـا حـالٌ وغـبريَ استفهـام ؟(٢)

وكتب الى ابن شكر :

ولأنتَ إنْ رُفعَ امـرؤ من غـيرهِ — كالمبتدا سببُ ارتفاعِكَ معنـوي (٣)

وله أيضا :

فداؤكَ كـلٌ مِنْ أمسـى لبخـلٍ — نـداهُ ، كأنـه علـمٌ منـادَى (٤)

وله في عامل صرف عن عمله :

ولا تغضَبَـنَّ إذا مـا صُرِفْـت — فـلا عـدلَ فيكَ ولا معرِفَـهْ (٥)

ومن الاقتباس النحوي قول ابن الساعاتي :

نصبنَ رماحَ الخطِّ وهي خوافضٌ — وما انتصبتْ إلا لأنَّـكَ فاعـلُ (٦)

وقول الشواء الحلبي :

وكنـا خمسَ عشـرةَ في التئـامٍ — على رغـمِ الحسـود بغـيرِ آفـهْ

فقـد أصبحـتُ تنوينـاً وأضحـى — حبيبـي لا تفارقُـهُ الإضافهْ(٧)

وقول الشاب الظريف :

يا ساكنـاً قلبـيَ المعنّى — وليس فيـهِ سـواكَ ثـانِ

---

(١) اعجب احد شعراء القرن الثامن الهجري ، وهو الشاعر جمال الدين بن نباتة المصري بهذا الاقتباس ، فقال مشيرا الى قول ابن عنين السابق ذكره :

مولاي دعـوه مُعَجِبٍ — يَدّعَى به ــ مُشَدَّدِ

أنا كالذى هـو قائـلٌ — في شعره : « أنا كالذى »

(ديوان ابن نباتة المصري ، ص ١٧٨) .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٩٢٤ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٢٩ .

(٦) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ٢٢٩ .

(٧) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٢ ص ٤١٢

ثمة نوع آخر من الاقتباس يدعى التضمين(١) . ولعل أول من فطن اليه ابن المعتز ، وعده من محاسن البديع ، فسماه حسن التضمين(٢) ، وهو أن يودع الشاعر في شعره بعض ما يستملحه من شعر غيره بيتاً تاماً أو نصفه أو ربعه ، بعد أن يمهد له بروابط متلائمة ، تجعله منسجماً مع ما قبله ومابعده. أما ابن الاثير فقد سمى الاقتباس من القرآن تضمينا ، وذكر أنه قسمان : كلي وجزئي ، فالكلي أن تذكر الآيـة أو الخبر بجملتهما ، والجزئي أن تدرج بعض الآية أو الخبر في ضمن الكلام(٣). لم تفرق ابن الاثير بين الاقتباس والتضمين، وإنما جمعها معاً في باب التضمين .

يرى علماء البلاغة أن أحسن التضمين مما صرف فيه البيت عـن معناه الاصلي ليلائم المعنى الجديد ، وبخاصة اذا كـان المعنى في غرض جديد غير الغرض الذي وضع لاجله . وهـم يجيزون عكس البيت المضمـن ، فيجعل صدره عجزاً ، وعجزه صدراً ، وقد تحذف صدور قصيدة بكاملها ، وينظم الشاعر المضمن صدورا جديدة للغرض الـذي اختاره ، وقـد تكون طريقة التضمين على عكس ما ذكر (٤)

عرف التضمين في هذا العصر على شكل واسع ، واتخذته جماعة مذهباً خاصاً بها ، وكان على رأسها الامير مجير الدين بن تميم الذي شغف به كثيراً،

---

(١) سماه ابن حجة « الايداع » وذكر ان هذا النوع يطلق عليه التضمين ، والتضمين غيره ، فانه معدود من العيوب ، وهو أن يكون البيت مفتقرا في معناه على البيت الذي بعده، كما هو معروف عند العرب (ابن حجة : الخزانة ، ص ٣٧٧ ، وابن الاثير : المثل السائر ، ج ٢ ص ٣٤٢) .

(٢) ابن المعتز : البديع ، ص ١١٤ .

(٣) ابن الاثير : المثل السائر ، ج ٢ ص ٣٤١ .

(٤) ابن رشيق : العمدة ، ج ٢ ص ٨١ .

وقد ذكر ابن حجة انه « اتى فيه بالعجائب والغرائب »(١)، واعرف بأن نصف شعره مقتبس من شعر غيره :

أطالعُ كلَّ ديوانٍ أراهُ ولم أزجرْ عن التضمين طيري
أضمّنُ كلَّ بيتٍ فيه معنى فشعري نصفه من شعر غيري(٢)

اشار ابن تغري بردي الى مذهب التضمين في هذا العصر في معرض ترجمته للشاعر المذكور . وذكر انه « في التضمين الذي عاناه فضلاء المتأخرين آية . في صحة المعاني والذوق اللطيف غاية ، لانه يأخذ المعنى ويحل تركيبه . وينقله بألفاظه الاولى الى معنى ثان . حتى كأن الناظم انما أراد به المعنى الثاني »(٣).

فمن تضامنه المشهورة قوله في زهر اللوز :

أزهرَ اللوزِ انت لكل زهر من الأزهار يأتينا إمامْ
«لقد حسنتْ بك الأيامُ حتى كأنكَ في فم الدهر(٤) ابتسامْ »(٥)

ومنها قوله :

أفدي الذي أهوى بفيه شارباً من بركةٍ راقتْ وطابت مشرعا
أبدتْ لعيني وجههُ وخيالهُ « فأرتنيَ القمرين(٦) في وقتٍ معا»(٧)

ومنها قول الشاب الظريف :

جلا ثغراً ، واطلعَ لي ثنايا يسوقُ بها المحبَّ إلى المنايا
لأيّ شيءٍ كسرْتَ قلبي ؟ وما التقى فيه ساكنانِ(٨)

---

(١) ابن حجة : الخزانة ، ص ٣٨٦ .

(٢) ابن تغري بردى : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ٢١٤ . توجد نسخة مخطوطة من ديوان الشاعر المذكور بخط الصفدي في مكتبة جامعة القاهرة .

(٣) ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ٣ و ٢١٤ .

(٤) البيت الثاني المضمن من شعر ابي الطيب المتنبي .

(٥) ابن حجة : الخزانة ، ص ٣٨٨ .

(٦) عجز البيت الثاني مضمن من بيت ابي الطيب المتنبي ، وصدره : « واستقبلت قمر السماء بوجهها » .

(٧) ابن حجة : الخزانة ، ص ٢٧٨ .

(٨) ابن حجة : الخزانة ، ص ٤٥٢ .

وانشــد نفــره يبغــى افتخــاراً : « انا ابنُ جلا(١) وطلاعُ الثنايا »(٢)

لم يقتصر الشعراء على اقتباس الشعر القديم وتضمينه، وإنما تجاوزوه — كما فعلوا في الاقتباس — إلى غيره . ولم يجدوا غضاضة في اخذ أقوال مأثورة وحكم مشهورة كما في قول الشاب الظريف :

قالــوا : غــداً تنــدمُ عــن لثمــه في خــدهِ إذ يغلــبُ السكــرُ
فقــال لــي مبسمُـــهُ ، دعهـــمُ «اليوم خمــر(٣) وغــداً أمــرُ» (٤)

ومن التضامين المشهورة في هذا العصر قول اسامة بن منقذ لما نبت بـه دمشق ، فغادرها متجها الى مصر . وقال يخاطب معين الدين أنر :

لكــنْ ثقاتك ، ما زالــوا بغشهمُ «حتى اسنوت عندك الأنوارُ والظلمُ»(٥)
لكــنَّ رأيَــك أدناهــمْ وأبعدنــي «فليت أنا بقدر الحبّ نقتسمُ» (٦)
وما سخطتُ بعادي إذْ رضيت به « وما لجرحٍ إذا أرضاكمُ ألمُ » (٧)
ولستُ آسى على الترحالِ مِنْ بلدٍ «شهبُ البزاة سواءٌ فيه والرخم»(٨) (٩)

حسن الابتداء

اهتم البلاغيون الأقدمون بمطالع الكلام ، وبخاصة منها القصائد الشعرية

---

(١) ضمن الشاعر عجز بيته الثاني صدر بيت سحيم بن وثيل .

(٢) ابن حجة : الخزانه ص ٣٨٨ م .

(٣) ضمن الشاعر عجز بيته الثاني بعض قول امرىء القيس للرسول الذي ابلغه مقتل أبيه : « ضيعني أبي صغيرا ، وحملني دمه كبيرا ، لاصحو اليوم ، ولا سكر غدا ، اليوم خمر وغدا أمر » .

(٤) ابن حجة : الخزانة ، ص ٣٨٨ .

(٥) ضمن الشاعر عجز بيته بعجز بيت المتنبي ، وصدره « وما انتفاع أخي الدنيا بناظره » .

(٦) ضمن الشاعر عجز بيته ببيت المتنبي ، وصدره « ان كان يجمعنا حب لغرته » .

(٧) ضمن الشاعر عجز بيته بعجز بيت المتنبي ، وصدره «ان كان سركم ما قال حاسدنا» .

(٨) ضمن الشاعر عجز بيته بعجز بيت المتنبي، وصدره «وشر ما قنصته راحتي قنص» .

(٩) ديوان اسامة بن منقذ ، ص ١٤٦ — ١٤٨ .

لأنه أول ما يطرق السمع من الانسان ، واشترطوا على الشاعر التقيد بكثير من الشروط ليجيده كل الإجادة ، وبعده عن الابهام والتعقيد . كما طلبوا منه أن يجعله مناسبا لغرضه وموافقاً لمقتضى الحال(١) :

ولعل ابن المعتز أول من فطن اليه ، ونبه عليه في بديعه وعده من محاسن الكلام والشعر ، وسماه « حسن الابتداء »(٢) :

أما البديعيون في هذا العصر فقد بالغوا في العناية بمطالعهم ، وتأنقوا في تجويدها ، وخصوا بها أنفسهم دون غيرهم من الشعراء ، واختاروا لها تسمية جديدة سموها « براعة الاستهلال »(٣) .

فرق ابن حجة بين الامرين بدقة ، فقصر التسمية الاولى على الاقدمين ومن جاء بعدهم ، والثانية على المتأخرين والمولدين . يؤكد ذلك ويوضحه قوله : « وقد فرع المتأخرون منه براعة الاستهلال بالنظم والنثر ، وفيها زيادة على حسن الابتداء ، فانهم شرطوا في براعة الاستهلال أن يكون مطلع القصيدة دالا على ما بنيت عليه ، مشعراً بغرض الناظم من غير تصريح ، بل باشارة لطيفة تعذب حلاوتها في الذوق السليم ، فاذا جمع الناظم بين حسن الابتداء وبراعة الاستهلال كان من فرسان هذا الميدان »(٤) .

لاحظنا أن شعراء العصر عنوا بالابتداء والاستهلال ، نخص بالذكر منهم الشرف الانصاري ومما قاله ابتداء :

ويلايَ مِنْ غمضيَ المتشرِّدْ   فيكَ ومن دمعيَ المشرَّدْ

(١) ابن رشيق : العمده ، ج ١ ص ١٩١ ، والعسكري : الصناعتين ، ص ٤٣١ ، وابن الاثير : المثل السائر ، ج ٢ ص ٢٣٦ ، والقزويني : الايضاح ، ج ١ ص ٢٤٠ .

(٢) ابن المعتز : البديع ، ص ١٣٢ .

(٣) ابن حجة : الخزانة ، ص ٨ .

(٤) ابن حجة : الخزانة ، ص ٨ .

يا كامِلَ الحسنِ ليس يُطفي ... نَاري سوى ريقِكَ المُبرَّدْ (١)

ومن ذلك قوله :

أهلاً بطيفكم وسهلا ... لو كنتَ للأغفاء أهلا

لكنَّه وافى وقد ... حلف السهادُ عليَّ الاَّ

إنْ لم تزوروا فاجمعوا ... بحياتِكم في النوم شملا(٢)

ومن ذلك قول ابن عنين في مطلع قصيدة له :

ماذا على طيفِ الأحبةِ لو سَرى ؟ ... وعليهمُ لو سامحوني في الكرَى ؟

جنحوا إلى قول الوُشاةِ واعرضوا ... واللهُ يعلمُ أنَّ ذلك مُفترى (٣)

ومن ذلك قول الشاب الظريف في مستهل قصيدته التى بعث بها الى أبيه ، وقد طبعه بطابع رمزي صوفي :

أبداً بذكركَ تنقضي أوقاتي ... ما بينَ سمَّاري وفي خلواتي

يا واحدَ الحسنِ البديعِ لذاته ... انا واحدُ الأحزانِ فيك لذاتي(٤)

حسن التخلص

عرف عن شعراء العرب الاقدمين أنهم كانوا يستهلون قصائدهم بالنسيب، فيذكرون الديار والاطلال ، ويبكونها ويستبكونها ، ويتحدثون عن وجدهم وشوقهم وما الى ذلك ، ثم ينتقلون بعدئذ الى ذكر غرضهم الخاص دون أن

---

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٢٠ ، والديوان ص ١٤٧ .

(٢) ابن حجة : الخزانة ، ص ٦ .

(٣) ديوان ابن عنين ، ص ٣ .

(٤) ديوان الشاب الظريف ، ص ٢٣ .

يمهدوا له ، وإنما يكتفون بذكر بعض الاساليب التقليدية المعروفة عندهم[١] .

وجد علماء البلاغة فراغاً في ذلك ، وعدوه نقصاً في هيكل القصيدة العربية فسماه بعضهم طفرا وانقطاعاً[٢] . وسماه آخرون اقتضاباً[٣] .

حاول الشعراء أن يوجدوا سبيلا ينتقلون به من مطالعهم الى أغراضهم التى تعنيهم ، ويظهر أن أول من أشار اليه وبين حسنه ابن المعتز ، فقد عده من محاسن الشعر ، وسماه « حسن الخروج »[٤] ، وسماه غيره « التخلص والتوسل »[٥] .

وجد المحدثون من شعراء هذا العصر الباب مفتوحاً أمامهم ، فتسابقوا الى حسن التخلص ، واكثروا منه [٦] ، وتصرفوا فيه فأبدعوا ، واظهروا كل غريبة [٧] .

وضع ابن حجة أهمية هذا النوع البديعى ، فذكر أنه « نوع من السحر يدل على رسوخ القدم في البلاغة »[٨] . ومن شعراء هذا العصر الذين عنوا بحسن التخلص ابن قسيم ، ومما قاله بعد استهلاله بالنسيب :

أ ألومُ دهراً ما لحادثِهِ نهيٌ عليَّ ولا لهُ أمرُ ؟
أم كيفَ أشكو صَرْفَ نائبةٍ ونوالُ نصرِ اللهِ لي نصرُ ؟[٩]

ومما قاله الشرف الانصاري في مطلع نبوية استهلها بالنسيب ، وتخلص منه إلى مدح الرسول (ص) .

---

(١) ابن رشيق : العمده ، ج ١ ص ٢١٠ ، والعسكرى : الصناعتين ، ص ٤٥٢ .
(٢) ابن رشيق : العمده ، ج ١ ص ٢١٠ .
(٣) ابن الاثير : المثل السائر ، ج ٢ ص ١٥٩ ، وابن حجة : الخزانة ، ص ١٥٠ .
(٤) ابن المعتز : البديع ، ص ١٠٩ .
(٥) ابن رشيق : العمده ، ج ١ ص ٢٠٨ .
(٦) العسكري : الصناعتين ، ص ٤٥٤ .
(٧) ابن الاثير : المثل السائر ، ج ٢ ص ٢٥٩ .
(٨) ابن حجة : الخزانة ، ص ١٥٠ .
(٩) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٤٥١ .

ويـلايَ مِـنْ غمضـي المتـرّدْ ... فبـكَ ومـن دمعـى المـردّد
يا كامـلَ الحسـن لبـس لطفـي ... نـاري سـوى ريقـك المبـرّدْ
اكسبنـي نشـوةً بطـرفٍ ... سكـرْتُ مـن خمـره فعـربَدْ
غصـنُ نقـا حـلّ عقـدَ صبري ... بلـين خصـرٍ بكـادُ ينعقـدْ
فمـنْ راى ذلـك الوشـاحَ الـ ... ـصـائمَ صلـى علـى محمّـدْ (١)

ومما قاله يمدح الملك الناصر بعد استهلاله بنسيب تحدث فيه عـن ربة الخالـين :

وقالوا : قـد خسرتَ الروحَ فيهـا ... فقلـتُ : الربحُ في تلـك الخسارَهْ
بأسـرِ نظـرةٍ اسـرتْ فـؤادي ... كمـا نشـأ اللهيـبُ مـن الشرارَهْ
وبفتكُ طرفُهـا ، فيقولُ قلبـي : ... اشنّ ، ترى ، صلاحُ الدينِ غارَهْ ؟
إذا ما حـج بيـتَ نـداه وفـدٌ ... رَمى في قلبِ حاسِده جمـارَهْ (٢)

تلك هى صورة عن التصنع البلاغى في هذا العصر ، المعنوي منه واللفظي، وقد حرصنا على رسمها بصدق وامانة ، واستطعنا مـن خلالها ان نعرض لاتجاهين سادا المذاهب الشعرية المعاصرة ، لكن الذي يجدر التنبيه عليه هو ان الاتجاه الاول الذي ساد في القرن السادس الهجري كان لفظيا ، ظهر على اتمه في مذهب التطبيق والتجنيس ، والاتجاه الثانـي الذي ساد في القرن السابع الهجري كان معنوياً ظهر على اتمه في مذهب التورية والانسجام .

وسواء في ذلـك الاتجاهان اللفظي والمعنوي ، فهمـا سبيلان في التصنع البديعي الذي ساد هذا العصر ، فنحن في عصر البديع،ولان لكل زمان بديعاً .

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٢٠ ، والديوان ص ١٤٧ – ١٤٩ .
(٢) المصدر السابق ، ل ٣٠ ، والديوان ص ٢٠١ – ٢٠٣ .

الفن الثاني

هيكل القصيدة العربية

تؤلف القصيدة العربية هيكلا شعريا كاملا لا يتجزأ ، على الرغم من تعدد الموضوعات التى تعالجها الشعراء، وقد مر معنا موقف النقاد في حسن التخلص، ومحاولتهم إبعاد الانقطاع الكائن بين جزءين من أجزاء القصيدة التقليدية ، وملء هذا الفراغ بايجاد حسن التوسل أو حسن الخروج .

اورد ابن رشيق قول الحاتمي في وحدة هيكل الشعر العربي ، واشار الى موقف المحدثين من كل خلل يطرأ عليه ، ومما قاله : « إن القصيدة مثلها مثل خلق الانسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر، وباينه في صحة التركيب ، غادر بالجسم عاهة ، تتخوّن محاسنه ، وتعفى معالم جماله، ووجدت حذاق الشعراء وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون في مثل هذه الحال احتراسا يحميهم من شوائب النقصان ، ويقف بهم على محجة الإحسان (١) .

قد يكون هذا الامر صحيحا لو قصرناه على المحدثين من الشعراء الذين عناهم الناقد ، ولكن المتأخرين منهم ، وهم شعراء هذا العصر ، بذلوا كل جهودهم للمحافظة على صون هيكل القصيدة العربية التقليدي ، ولكنهم

---

(١) ابن رشيق : العمدة ، ج ١ ص ١١١ ، ١١٢ .

أسقط في يدهم امام التيارات الشعرية القادمة من المغرب الاندلسي والمشرق الفارسي .

فمن الاندلس وصلهم نمط جديد يتعارض مع الهيكل التقليدي من الموشحات والأزجال ...

ومن المشرق وصلهم نمط آخر يتعارض كذلك مع الهيكل التقليدي من المواليا والدوبيت ...

حاول الشعراء بعد هذه التطورات الطارئة على الاساليب الشعرية ان يطبعوا شعرهم بطابعها ، ويستخدموها في معالجة اغراضهم الخاصة سعياً وراء الكسب وزلفى لذوي الجاه والسلطان .

اغلب الظن ان نجاحهم مشكوك فيه ، لان الاساليب الجديدة مظهر هام من مظاهر الحياة الشعبية ، وهي في حقيقة الامر التعبير الصادق عن نفسية الشعب المنطلقة لما فيها من أفراح واتراح وآمال وآلام .

كان لا بد لهذه التطورات الجديدة في هيكل القصيدة العربية من ان تتبعها انماط جديدة في التعبير ، كان لها اثرها في بنية الالفاظ والتراكيب ، والخروج الاوزان الشعرية المعروفة ، والتحرر من وحدة القافية .

الألفاظ والتراكيب

اهتم العرب بقدسية الحرف ورمزيته ، وجمال الكلمة وشرف التعبير وبلاغة التركيب . وبخاصة منها ماورد في الشعر ، واجود الكلام عندهم السهل الممتنع(١) والبليغ الموجز ، واشترطوا في اللفظ ، أن يكون شريفاً عذبا ، وفخماً

(١) العسكري : الصناعتين ، ص ٦١ .

سهلا(١) ، وكرهوا ان نكون وحشباً بدوياً ، ومبتذلا سوقيـاً(٢) ، أو يشوبه شيء من كلام العامه والفاظ الحشوية (٣) .

هاجم العسكري أرباب التكلف، ونعتهم بالجهل، وذكر انهم لايستجيدون الكلام إذا لم يقفوا على معناه إلا بكد الذهن وانهم « يستحقرون الكلام إذا راوه سلساً عذباً وسهلا حلواً» (٤) . أما التراكيب فقد اشترطوا فيها الانسجام ، فتكون كل كلمة موضوعة مع اختها ومقرونة بلفقها (٥) .

تلك هي النظرية العربية في البلاغة والبيان عندما كانت القرائح صافية ، والألسنة فصيحة ، لاتلوكها عجمة أو لحن . جاء هذا العصر ، وتتابعت فيه الأسر الحاكمة من غير العرب ، ووطئت أرض البلاد جحافل غازية من الغرب والشرق ، وقد لاحظنا تطورات جديدة في اللغة واساليبها .

ففي اللغة نشهد وفراً في الألفـاظ التي تسربت إليهـا ، إذ إن الأحداث الكبرى التي شهدها هذا العصر كانت عاملا مـن عوامل هذا الوفر اللغوي في الألفاظ الغريبة المعربة. وفي الأسالب نشهد انحدارا نحو الانسجام والسهولة المتناهية وعدم التحرج مـن استخدام التعابير العامية في كثـير من الأغراض المعروفة ، فلا غرابة إن رأينا ابن منير الطرابلسي يكثـر الفحش في شعره ، ويستعمل فيه الألفاظ العامية(٦) ، ولا غرابة أيضاً إن رأينا النـاب الظريف يشتهر أمره بين الناس ، لا لسبب ، وإنما لأن « اكثر شعره ، بل كله رشيق

---

(١) لعسكري : الصناعتين ، ص ١٤٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٤٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٦٠ .

(٦) ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج ٢ ص ٩٧ .

الألفاظ ، سهل على الحفاظ ، لا يخلو من الألفاظ العامية وما تحلو به المذاهب الكلامية (١) » .

ويلاحظ في ديوان ابن عنين بعض الألفاظ الشائعة والتراكيب العامية انتشرة ببلاد الشام في هذا العصر ، مثل « العواني » و « العلق » و « النصب » و « دق حنك » و « ما قصر » و « ذقن »(٢) .

أما الصورة التامة في هذه الفنون الشعرية المستحدثة التي أتينا على بحثها من قبل ، وذكرنا أن مصدرها الرئيسي كان الأغنية الشعبية ، واعتمدنا في ذلك على النظرية الجديدة الهامة التي صرح بها أستاذي الدكتور عبد العزيز الأهواني . ففي الموشحات والأزجال كثير من الألفاظ والاساليب العامية ، وهي مستمدة من هذه الطوائف المختلفة الكثيرة ، وقد يصعب في بعض الأحيان على العربي الصميم أن يفهم لغات بعض الشعوب الواقعة تحت سيطرة الحكم الإسلامي .

ذكر أن أسامة بن منقذ اجتاز بقرية له تسمى « لغى كوم » من اعمال « بالوا »(٣) ، وجميع فلاحيها ارمن لا يعرفون العربية ، فأنشد :

نزلتُ بأرضِ « بالوا » وهي حِصن علا ، حتى تمنطقَ بالنجومِ
بروم ، لا تلائمُهم طباعي وما العربيّ ذو إلف بِرُومِ
سلامُهُم « هزارُ باريك » (٤) ماذا ؟ شبيهُ سلامُ خُزانِ النَّعيمِ

---

(١) ابن شاكر : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ٢٦٣ .

(٢) ديوان ابن عنين ، ص ٨٥ ، ٢٠٣ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢٣٨ .

(٣) سماها ياقوت « بالو » وذكر انها قلعة حصينة ، وبلدة من نواحي ارمينية بين أرزن الروم وخلاط . (معجم البلدان ، ج ١ ص ٣٣٠) .

(٤) هزار باريك : معناها في اللغة الارمنية الف تحية مقرونة بتمني الخير ، واصل معنى « هزار » ألف ، و « باريك » القصود منها « باريف » وهي التحية .

وإنْ كلّمتهمْ قالوا : « اشكديمْ »(١) ولستُ بعالمٍ معنى « اشكديم »
وما تسوى « لغى كومٍ » وإن هيْ سجا ليلي بها ، وصفا نسيمي
وبردُ مياهها وجنى جنان تحبطُ بها ، وبانعةُ الكرومِ
مقامي بينَ قومٍ إن تداعوا سمعتَ دعاءَ أصداءٍ وبومٍ(٢)

تلك هي صورة واضحة عن التفاعل اللغوي في هذا العصر بين اللغة العربية ولغات الطبقة الحاكمة ، والشعب المحكومة التي كانت نعيش في أطراف البلاذ أو تقع تحت الحكم الإسلامى ،ومن المحم عليها أن تستمد منها قليلا أو كثيراً من مختار ألفاظها وأساليبها التعبيرية بحكم عاملي الزمان والمكان والعرق .

استمدت اللغة العربية من اللغة الفارسية كثيراً من ألفاظها قديماً وحديثاً وظهرت بشكل جلي في شعر هذا العصر ، فمن ذلك فول السهاب الساغوري في وصف دمشق :

مدينة أحسنُ بها مدينة كأنما الجنّاتُ مِن رُذْداقِها (٣) (٤)

وقوله أيضاً :

وشادنٍ ، صبغةُ شُرّبُوشِه (٥) في لونها والفعلِ ، كالنّهْدَمِ (٦)

وقوله في قصيدة أخرى لم ترد في مصورة ديوانه :

يا مطلعَ البدرِ فوق الغصنِ معتدلاً يلوحُ ما بينَ شَربوشٍ وطوقِ قبا (٧)

يبدو أن جل الألفاظ الدخيلة على الشعر القديمة منها والحديثة،كانت بشكل عام ذات صلة ماسة بالحياة الاجتماعية والسياسية . من ذلك مثلا قول

---

(١) أشكديم : ضبطها « جەكديم» ، ومعناها في اللغة الارمنية لست ادري .
(٢) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ١٥٩ .
(٣) رذداق : السواد والقرى ، وهي معرب « وستا » .
(٤) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٢٤٨ .
(٥) الشربوش : قلنسوة طويلة ، وهي معرب « سربوش » : ذكرها اديشير في كتابه « الالفاظ الفارسية المعربة » وذكرها دوزي في معجمه (ج ١ ص ٧٤٢) .
(٦) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٢٥٩ .
(٧) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٥٤ .

عرقلة يصف القمر في حاليه : كونه بدراً وهلالا ، وهو مستمد من أسماء المأكولات المعربة المعروفة في هذا العصر :

أما ترى البدرَ في السماءِ وقد حاولَ من بعد تمّه نقصَه
بينا تراه كخُشْكنانكةٍ (١) حتى تراه كأنّه قُرصَه (٢) (٣)

ومن ذلك قوله في وصف أطباق الطَّطماج :

الا ربّ طاهٍ جاءنا بعد فترةٍ بأطباقِ طُطْماجٍ(٤) أشفّ من الثلجِ
وقد غارتِ السيخاتُ(٥) فيها كأنها يفالقُ(٦) تركٍ في طوارق(٧) إفرنج(٨)

ومن ذلك قوله في طغريل السياف :

قالوا : يسبّكَ طغريلُ ، وتهمله ؟ فقلتُ: أخشى على عِرضي من الواشي
كنا نحاذرُ منه، وهو مرْشَحة (٩) فكيفَ لا نتقيهِ، وهو جُوباشي؟(١٠)

كان للألفاظ العامية مكان لدى بعض شعراء العصر ، كما رأينا ذلك مراراً ويظهر أنهم لم يكونوا يتحاشونها، فمن ذلك قول عرقلة في غلام كمراني :

وكيف يرانيَ الرقبا ءُ من سقمٍ بجُثماني ؟

(١) الخشكنان : في المعرب للجواليقي نوع من الحلوى (ص ١٣٤) ، وعند دوزي الخشكنانكة (ج ١ ص ٣٧٣) ، وعند الخفاجي : معروف تكلمت به العرب قديما (شفاء الغليل ، ص ٨٧ .) .

(٢) القرصة : حلوى من العجين والنشاء والسكر (معجم دوزي ، ج ٢ ص ٣٢٨).

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٢١١ .

(٤) الططماج : عند الخفاجي نوع من الطعام معروف (شفاء الغليل ، ص ١٥١) .

(٥) سيخات : جمع سيخ ، وهي سكين كبيرة ، مستمدة من أصل فارسي (معجم دوزي ج ١ ص ٧١١) .

(٦) اليفالق : نوع من السلاح عرف به الاتراك .

(٧) الطوارق : نوع من الاتراس (معجم دوزي ، ج ١ ص ٤٠) .

(٨) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ١٩٠ .

(٩) المرشحة : ما يوضع تحت السرج وعلى ظهر الدابة ليمتص العرق .

(١٠) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢١١ .

وجسمي مثل ما يحوي كمـران(١) الكمـراني (٢)

يضاف الى ماتقدم التكلف اللغوي والأسلوبي أحياناً ، كأن نجرد كلمات القصيدة من حروف معينة زيادة في التصنع ، فيتجنب الشاعر مثلا بعض الأحرف كالسين والطاء . أو على العكس يتعمد ألا تخلو كلمة من صاد أو سين . نذكر من ذلك قصيدة ابن قسيم وقد حاول الا تخلو كلمة من صاد ، وكلمة بعدها من سين ، ولم يرق للعماد الكاتب ذلك ، فنعت ما جاء فيها من التكلف تعسفاً :

تُصغـي لتستمـعَ اصطخـابَ لسـانِه الصمُّ السّوادِرْ
وَصَـلَ السجـاحة بالصبـاحةِ سالبٌ بالصوتِ ساحِرْ (٣)

واقترح فخر الدين الرازي على ابن عنين أبياتاً ، في كل كلمة منها سين فقال :

مَرْسى السّيـادةِ سـدّةٌ سيفيّةٌ محروسـةٌ مسعـودةُ التأسيسِ

ومنهـا :

آنسـتُ مِنْ أستـارِ سدّتِهِ سنا قبسٍ فسُقتُ نفيسـةً لنفيسِ
وسقيتُها سلسالَ سِحـرٍ مُسكـرٍ للسامعـينَ وسقتُهـا كعـروسِ (٤)

واقترح عليه أخرى مثلها ، تشتمل كل كلمة على الحاء ، فقال :

حيّـا محـلَّ الحاجبيـةِ بالحِمـى والسفحِ سفحُ مدّلحٍ سحّـاحِ

ومنهـا :

فلأحسِمنّ الحاسديـنِ بمدحـةٍ لمـدّحٍ نحـو الحِبـا مُرتـاحِ
متحمّلٍ حيفَ الحمبـمِ لحـاجةٍ فدحت وحتفٍ للحسودِ مُتـاحِ (٥)

---

(١) الكمران والكمر : حزام من جلد ، واللفظة الثانية هي المعروفة في بلاد الشام (معجم دوزي ، ج ٢ ص ٥٠٣) .
(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٢٢٦ .
(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٤٧ .
(٤) ديوان ابن عنين ، ص ٩٧ ، ٩٨ .
(٥) المصدر السابق ، ص ٩٨ ، ٩٩ .

ومن هذا التكلف القصائد العواطل ، وهي القصائد التي يتجنب الشاعر فيها كل الحروف المعجمة ، ويقتصر فيها علـى الحروف المهملة . نذكر من ذلك قول الشاعر الانصاري ، وقد افترح الملك الامجد عليه نظم قصيدة عاطلة من التنفيط ، فاستهلها بقوله :

مولهٌ لعهودِ اللهوِ مدّكرُ ... لولا مدامعُه ما أهمل المطرُ
لكلّ ممكورة لو راى ساحرُها ... سحّارُ سحرٍ اطاعوه وما سحرُوا(١)

يلاحظ أن بعض الشعراء يتكلفون هذا النوع من التصنع اللغوي والتكلف الأسلوبي سعياً وراء الإغراب والتعقيد لاظهار مقدرتهم ، ووضع منافسيهم موضع التعجيز والتحدي ، وان بعضهم الآخر كان مكرهاً على سلوك هذه الطريق استجابة لطلب ممدوحيهم . وسواء أكان هذا ام ذاك ، فلا شك أن القصائد الموجهة ، والقصائد العواطل ، مظهر من مظاهر الكلف والتصنع في العصر الذي ندرسه ، بيد أنها بطبيعة الحال ، قليلة العدد ، إذ لا نعتر في معظم الأحيان للشاعر إلا على قصيدة واحدة او اثنتين على أبعد تقدير والخطأ كل الخطأ أن نقوم الأدب بالشاذ النادر .

(٢)
الأوزان الشعرية

المعروف قديماً أن أكثر الابحر الشعرية شيوعاً ودوراناً عند العرب هي الطويل والبسيط والكامل ، وقد استخدموها بكثرة في أغراضهم . والمعروف ايضاً أن بعضها الآخر كالخفيف والسريع والوافر والمنسرح تتميز بخفتها ورشاقتها كما صرح بذلك الخليل بن أحمد نفسه (٢) .

ومن المؤكد بعد ذلك أن الدراسات الموضوعية حول الأغراض والمعاني الشعرية وعلاقتها بالاوزان العروضية ، ما زالت كما عرفت عند الاقدمين ،

---

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٣٦ ، ٣٧ ، والديوان ص ٢٣٠ .
(٢) ابن رشيق : العمدة ، ج ١ ص ١٤٤ .

وهي كما نرى ، بحاجة ماسة للبحث ، إذ إنه يبرز ناحية أساسية في مفهوم الشعر العربي .

ولعل أول من أسار الى هذا الاتجاه النقدي في البحث العروضي هو ابو العلاء المعري في رسالة الغفران ، فقد أورد أبياتاً تنسب للخليل بن أحمد ، وهي من البحر المجتث ، وذكر « أنها تصلح لأن يرقص عليها » (١) .

توجد أربعة أبحر شعرية معروفة،هي المجتث والمقتضب والمضارع والهزج لا تستعمل تامة ، وإنما قرر العروضيون أن الجزء فيها واجب لا محالة . ننتهي من قصة مجتث الخليل لنقول إن أبا العلاء أول ناقد عروضي لفت نظرنا إلى الأمر الهام بالنسبة للأبحر المجزوءة الرافصة،سواء منها أكان الجزء فيها واجباً كما في الابحر المذكورة آنفاً ، أم كان فيها جائزاً ، وذلك فيما عدا ذلك .

أشار العسكري الى العلاقة بين المعنى من جهة ، والوزن والقافية من جهة أخرى ، وطلب من الشاعر أن يسعى وراء المعاني أولا ، ثم يطلب لها وزناً يتأتى فيه إيرادها وقافية يحتملها . فمن المعاني ما نتمكن من نظمه في قافية، ولا نتمكن منه في أخرى . كما أن العسكري لم يقتصر على الملائمة بين اللفظ والمعنى ، وإنما أدخل القافية الموائية التي تسهم الى حد كبير في موسيقى القصيدة بالاضافة الى الوزن (٢) . يضاف الى ما تقدم معنا أن قدامة عرض لائتلاف المعنى والوزن ، واشترط أن تكون المعاني مستوفاة ، ولم نضطر فيها لاقامة الوزن أن ننقص منها أو نزيد عليها (٣) .

تلك هي صورة عن الاوزان الشعرية التي عرفها الشعراء المعاصرون ، فمنهم من حافظ عليها،ومنهم من ضاق بها ذرعاً،فحاول الافلات من قيودها.

حاول الشعراء المحافظون أن ينظموا معانيهم ضمن الأوزان التقليدية في الأبحر الستة عشر المعروفة ، فنجدهم في الغالب يستخدمون الأبحر الطويلة

(١) المعري : رسالة الغفران ، ص ١٨٢ ، ١٨٣ .
(٢) العسكري : الصناعتين ، ص ١٣٩ .
(٣) قدامة : نقد الشعر ، ص ١٩٥ .

في المدح والرثاء وغيرهما ، والأبحر الخفيفة في الأغزال والخمريات وغيرها ، بيد أننا لا نجزم بما نقدم معنا ، إذ لا نستطيع قصر بحر معين على غرض معين، وكذلك فإن لكل شاعر نهجه وأسلوبه في استخدام الأبحر الشعرية .

أما الشعراء المجددون فقد نظموا في الأبحر المعروفة ، ولكنهم تركوا لأنفسهم العنان ، لينطلقوا من قيود الأوزان في بعض الأحيان .

لم تكن هذه المحاولات جديدة في الشعر العربي ، فقد عرف عن المولدين والمحدثين منهم أنهم كانوا يزيدون أعاريض بعض الابحر مما لم يرد عن العرب، كما فعل أبو العتاهية بزيادة عروض جديدة على البحر الخفيف ، فلما اعترض عليه قال قولته المشهورة : « أنا أكبر من العروض » ، وله أوزان أخرى لا تدخل في العروض(١) .

اتجه الشعراء بفطرتهم وسليقتهم الشعرية نحو بعض الأعاريض ذاتالوزن الموسيقي،فاقتصروا من البحر المنسرح على المقطوع الضرب لا تساقه وعذوبته في الوزن واللحن(٢) ، كما حاولوا كذلك أن يفلتوا من قيود الوزن والروي ، وذلك بالابقاء ، ولو من حيث التشكل ، على الوحدة المعروفة في القصيدة العربية ، فنظموا القصائد التي عرفت باسم « ذوات الاوزان » ، وهي نوع جديد ، تتألف كل قصيدة فيه من عدد غير محدود من الابيات ، وكل بيت فيها يتكون من اجزاء ، يترك أمرها للشاعر نفسه ، وهي تتبع البيت الاول في قوافيها وعددها ، ويشترط في الجزء الاخير من الابيات أن يكون على روي البيت الاول كما هو الحال في نظام القصيدة التقليدي .

والمهم في القصائد ذوات الاوزان قراءتها ، فهي اما تقرأ قراءة عادية ، فلا نجد بينها وبين القصيدة التقليدية أي فرق ، اللهم الا التصنع والتكلف ، واما أن تقرأ قراءة خاصة بصورة أفقية أو غير أفقية ، وفي كل وجه من وجوه القراءة نجد قصيدة جديدة ، بقافية جديدة ، وأسلوب جديد .

---

(١) ابو الفرج الاصفهاني : الاغاني ، ج ٤ ص ١٥ .

(٢) محمود مصطفى : اهدى سبيل ، ص ٧٠ .

ذكر صلاح الدين الصفدي أن الشعراء نظموا في هذا النوع قديماً وحديثاً، وأكثروا منه « وأحسنه ما لم تظهر الكلفة عليه ، و يكون عذباً منسجماً » (١).

لا نعرف على الضبط متى ظهرت القصائد ذوات الاوزان الكثيرة ، فمن قائل : إن لأبي العلاء قصيدة تقرأ على عدة وجوه ، لكن الصفدي شك في نسبة ذلك إليه ، وذكر أن أقدم ما عرف من هذا النوع قول أبي الحسين أحمد بن سعد الكاتب الأصفهاني ، وكان بعد العشر والثلاثمائة (٢) .

انتشر هذا النوع من القصائد الشعرية في بلاد الشام خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، وأقدم ما وصلنا ثلاثة أبيات لابن قسيم الحموي، وهي على خمسة أوزان وخمس قواف .

قل للامير أخي الندى والنائلِ ... الهطالِ للشعراءِ والقصادِ
لا زلتَ تنتهكُ العدا بالذابلِ ... العسالِ فيالأحشاءِ والأكبادِ
ووقيتمن صرف الردى والنازلِ ... المُغتال بالأعداء ووالحساد (٣)

كما أثر عن حكيم الزمان عبد المنعم الجلياني السابق ذكره أنه كان يألف كثيراً هذا النمط من النظم ، وقد لقيه ياقوت في دمشق ، فوقفه على أشياء كثيرة من قصائده ذوات القوافي المُتَعدّدة ، وذكر أنه « كان عجيباً في عمل الاشعار التي تقرأ القطعة الواحدة بعدة قوافٍ وبستخرج منها الرسائل والكلام الحكمي" مكتوباً في خلال الشعر ، وكان يعمل من ذلك دوائرَ وأشجاراً وصوراً (٤) » .

بلغ هذا الفن الشعري ذروته على يد الشاعر البعلبكي صلاح الدين القواس (٥) وله قصيدة مشهورة سائرة ، اسمها ذات الاوزان ، يقال إنها تقرأ

(١) الصفدي : أعيان العصر (مخطوط) ج ٣ ق ١ و ٨٩ .
(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ق ١ و ٨٩ .
(٣) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٤٤٤ .
(٤) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ص ١٥٧ .
(٥) صالح بن أحمد بن عثمان ، صلاح الدين القواس ، الشاعر البعلبكي ، ولد سنة ٦٣٨ هـ وكان رجلا صالحا ، يعبر الرؤيا ويفسرها ، وقد صحب فقراء المصوفة ، وحفظ أقوالهم وطاف في البلاد ، وقد توفي سنة ٧٢٣ هـ (الصفدي : أعيان العصر (مخطوط) ج ٣ ق ١ و ٨٨) .

على ثلاثمائة وستين وجهاً وهي قوله :

داءٌ ثَوى بفؤادٍ شفّه سقمٌ ... لمحنتي من دواعي الهم والكمدِ

بأضلعي لهبٌ تذكو شرارته ... من الضنى في محل الروح من جسدي

يوم المنى ظل في قلبي به ألمٌ ... وحرقتي وبلائي فيه بالرّصدِ

توجّعي من جوىً شبت حرارته ... مع العنا قدرتى لي فيه ذو الحسدِ

أصل الهوى ملبسي وجداً به عدمٌ ... لمهجتي من رشا بالحسن منفردِ

تتبّعي وجد من نزهو نضارته ... لما جنى مورثي وجداً مدى الامدِ

هدّ القوى حسن كالبدرِ مبتسمٌ ... لفتنتي موهن عند النوى جلدي

مودعي قمرٌ تسبي إشارته ... اذا رنا ساطعُ الانوار في البلدِ

مهدي الجوى مولع بالهجر منتقمٌ ... ماحيلتي قد كوى قلبي مع الكبدِ

لمصرعي معتدٍ تحلو مرارته ... ياقومنا آخذٌ نحو الردى بيدي

قلبي كوى مالك في النفس محتكمٌ ... لغصتي وهو سؤلي ومعتمدي

مروّعي سارٌ لا شطّت زيارته ... لما انثنى قاتلي عمداً بلا قودِ(١)

لو قرأنا الأبيات المذكورة قراءة عادية لوجدنا أنها من البحر البسيط، ولو قرأنا التفعيلة الاولى من مطلع شطر أول كل بيت لوجدنا أنها من بحر الرجز . وهكذا تختلف أعاريضها بحسب توجيهها . بيد انني على الرغم من كل ذلك لست قانعا بقراءتها على مئات الاوجه ، الا اذا أعرضنا عن المعنى ، وعبثنا بالالفاظ كما نشاء ، وفي هذا ــ كما نرى ــ منتهى التكلف العروضي والتعسف اللفظي والمعنوي . ويبدو أن ذوي الذوق السليم في هذا العصر لم يرضوا البتة عن هذا التصنع الغريب في الاوزان ، وانما عدوه ضربا من الهذيان . يقول ابن الاثير في المثل السائر : « رأيت رجلا أديبا من اهل المغرب ، وقد تغلغل في شيء عجيب ، وذلك انه شجر شجرة ، ونظمها شعرا ، وكل بيت من ذلك الشعر يقرأ على ضروب من الاساليب اتباعاً لشعب تلك الشجرة وأغصانها ، فتارة تقرأ كذا ، وتارة تقرأ كذا ، وتارة يكون جزء منه هاهنا ، وتارة يقرأ

---

(١) الصفدي : أعيان العصر (مخطوط) ج ٣ ق ١ و ٨٨ .

مقلوباً ، وكل ذلك الشعر وإن كان له معنى يفهم ، الا أنه ضرب من الهذيان، والاولى به وبأمثاله أن يلحق بالشعبذه والمعالجة والمصارعة ، لا بدرجة الفصاحة والبلاغة » (١) .

كانت القصائد ذوات الاوزان محاولة عقيمة للانطلاق من قيد الاوزان ، لانها لا تحقق لشعرائها النتيجة المرجوة ، ويلتفتون الى المغرب ليأخذوا منه الموشحات والازجال، ففيها ما يبتغون من تحرر الاوزان والقوافي . أما الموشحات فيجدونها « تنقسم قسمين : الأول ما جاء على أوزان أشعار العرب ، والثاني ما لا وزن له فيها ، ولا إلمام له بها(٢)» . وأما الأزجال فقد وجدوا فيها متنفساً كما رأينا ، ففي الاوزان حرية ، وفي القوافي انطلاق، وفي اللغة والتعبير رخص، حتى : قيل : صاحب ألف وزن ليس بزجال .

ويلتفتون بدورهم الى المشرق الفارسي، فيأخذون منه الرباعي وينسجون على منواله ، والى بغداد فيأخذون منها المواليا ، وهو من البسيط ، الا أن له ضروبا متعددة تخرجه عن وزنه الاصلي .

ليست محاولة اقتباس الاوزان بجديدة في الشعر العربي ، فمن قبل اقتبسوا بحري المضارع والمقتضب، وسلكوهما في الابحر الستةعشر المعروفة، ولكنهالم تنسجم مع الذوق العربي ، فلم تستسغها الشعراء العرب ، وبقيت شواهدها نادرة في الشعر العربي .

تلك هي نظرة عامة على المجالات المختلفة للتحرر من قيود الاوزان ، وثمة أساليب أخرى أحدثها المولدون من قبل: هي البحور الجديدة التي استنبطوها من عكس دوائر البحور التقليدية المعروفة، ويظهر أن هذه المحاولة لم تلق النجاح .

(٣)

دراسة القوافي

القافية ركن هام من أركان القصيدة العربية لانها شريكة الوزن في الاختصاص

---

(١) ابن الاثير : المثل السائر ، ج ٢ ص ٣٥٤ .

(٢) ابن سناء الملك : دار الطراز ، ص ٣٣ .

بالشعر(١) . وقد أهتم بها الأقدمون كثيراً ، فمنهم من جعل البيت كلـه هو القافية ، ومنهم من اتسع في ذلك ، فجعل القافية القصيده كلها (٢) .

تحدث النقاد عن جمال القافية وانسجامها مع المعاني ، وكرهوا فيها اللين والضعف ، حتى ان عبد الملك عاب على ابـن قيس الرفات قوافي قصيدنه ، فقال له : « أحسنت الا أنك تخنثت في قوافيك »(٣) .

اهتم الأقدمون أيضا بالتصريع في مطلـع القصيدة ، كما صرعوا في غير المطلع ، إما للدلالة على قوة الطبع وإما للاشارة الى الانتقال من غرض لآخر ، حتى كثر بشكل غريب ، وغدا مظهراً من مظاهر التكلف الذي لاغناء فيه .

شهدنا في هذا العصر محاولات الانطلاق ، ولا شك أن الشاعر يجد المجال أرحب في الافصاح عن نفسه والتعبير عن شتى معانيه ، وذلك حـين تتعدد القوافي الشعرية في القصيدة الواحدة . وأغلب الظن أن شرط القافية الموحدة وجد قبل الاسلام بقرن ونصف القرن تقريبا ، وأنـه إنما قصّد الشعر على عهد هاشم بن عبد مناف ، وكان أولَ من قصّده مهلهلٌ وامرؤ القيس كما يزعم الرواة(٤) ، ومن الطبيعي أن يقف الباحث والناقد من أمثال هذه الاخبار موقف المتشكك أو المنكر .

اتسمت الحياة في العصر العباسي ، وتأثر الشعراء بالاساليب الشعرية التي عرفوها عند الامم الاخرى ، ورأوا حاجتهم للانطلاق مـن أسر القافية الموحدة ، وحاول أحدهم أن يفلت منها ، فنظم قصيدة ، بيد أنـه لم يفلح في محاولته لان النفوس لم تتهيأ بعد لمثل هذه الانطلاقة الجريئةفيالنسعر العربي. وثمة محاولة أخرى قام بها طلحة بن عبيد الله العوني ، وكان يتعمد في شعره الإقواء والايطاء ، وهما من عيوب القافية . سمى الناس هذا النوع الغريب

---

(١) ابن رشيق : العمدة ، ج ١ ص ١٢٩ .
(٢) لمصدر السابق ، ج ١ ص ١٣١ .
(٣) العسكري : الصناعتين ، ص ٤٥٠ .
(٤) ابن رشيق : العمدة ، ج ١ ص ١٦٤ .

بـ « القواديسي » تشبيهاً لها بقواديس السانية (١) ، لارتفاع بعض قوافيه في جهة وانخفاضها في الجهة الثانية (٢) .

لم تجد هذه المحاولة الفردية استحساناً عاماً لدى الشعراء والنقاد ، إذ إن الذين قاموا بها لم يكونوا من الاعلام المشهورين ، حتى اذا جاء المحدثون آمنوا بضرورة الانطلاق من عبودية القافية، وكان من ثمرة ذلك ظهور المزدوجات والمسمطات . أما المزدوجات فقد أكثر الشعراء المحدثون من الأراجيز المشطورة واستخدموها في نظم علوم اللغة والنحو والقراءات وغير ذلك ليسهل عليهم حفظها ، ويجمع شتاتها ضمن قصيدة أو أرجوزة واحدة . لقد أكثروا في الاراجيز المشطورة من الازدواج ، وهو أن يتحد كل بيتين من مشطور أي بحر القافية ، ويؤتى بعدهما بغيرهما من قافية أخرى . وأول من نظم فيه أبو العتاهية وبشار الذي كان يعتقد أنه قد سبق العروض . فأرجوزة أبي العتاهية ذات الأمثال الحكمية مظهر من مظاهر هذه الانطلاقة الجريئة ، إذ فيها أربعة آلاف مثل ، عبر عنها في مزدوجته المذكورة . وهكذا أصبح هذا الاسلوب الشعري الجديد مستخدماً في نظم القصص والاساطير والحكم والأمثال والمواعظ وغير ذلك بالإضافة إلى ما ذكرناه من العلوم المختلفة .

لم يرق للنقاد المحافظين هذا الاسلوب الجديد، فاستصغروا شأنه وسموه حمار الشعراء .

أما المسمطات فقد سبقت دراستها في بحث الفنون الشعرية المستحدثة، ورأينا أيضاً أنها مظهر من مظاهر الإفلات من وحدة القافية في الشعر العربي .

تلك هي بعض محاولات السابقين من الشعراء المحدثين ، أما المتأخرون المولدون منهم ، فقد جروا على سنن من سبقهم في القصائد التقليدية والفنون المستحدثة . ففي القصائد نراهم يتقيدون بوحدة القافية ، ويحاولون أن يتصنعوها في بعض الاحيان ، فقد التزموا أن تكون كل قافية أو الكلمة الاخيرة

---

(١) السانية : هي الناعورة أو الساقية .

(٢) ابن رشيق : العمدة ، ج ١ ص ١٥٤ .

التي توجد فيها صفة لون واسمه كما في القصيدة التي بعث بها ابن الساعاتي الى الفاضي الفاضل(١) . والقصيدة مؤلفة من تسعة ابيـات والالوان التي ختمها بها هي على التوالي : بيضاء ، وخضراء ، وصفراء ، وغبراء ، وشهباء ، وغراء ، وحمراء ، ودهماء .

* * *

نخلص من دراسة الاساليب والمذاهب الفنية الـى القول إن الشعراء قد بذلوا في مذاهبهم المختلفة جهداً ذهنياً جبـاراً ، حتى يكـاد يطغى في بعض الأحيان على عواطفهم وشعورهم ، فكانوا يبذلون كـل طاقاتهم وإمكاناتهم الاسلوبية في اقتناص المعاني والاغراب فيها ، لتكون لهم الصورة مزخرفة كما يريدونها . ولو تتبعنا فعالياتهم الذهنية ، وراقبناها بدقة تامـة لرأينا أنهم كانوا ينقادون وراء المعاني،كما تتداعى في أذهانهم،أو كما تستدعيهاخواطرهم، وتستوحيها قرائحهم ، وانهـم كانوا عبيد الفاظهم وتراكيبهم واساليبهم ، يستلهمونها وينقادون إليها ويتبعون سننها .

هكذا استطعنا من خلال عرضنا الأغراض التقليدية والفنون المستحدثة أن نرصد جانباً كافياً مما أخذوه من معاني القدماء ومما طوره منها ، أو مما ابتكروه من معان جديدة أو صور غريبة،أبدعتها قرائحهم ، ودبجتهايراعتهم.

لاحظنا ــ بالاضافة الى ذلك ــ علاقة ما مر معنا بالحياة الثقافية وغيرها في هذا العصر،ورأينا آثار الاساليب التعليمية المنهجية المتبعةفيتطورالاساليب الشعرية وطبعها بطابعها الخاص .

كما لاحظنا من خلال دراستنا أعلام الشعراء أن ابن القيسراني وابن منير الطرابلسي كانا يعنيان بالجناس والطباق وسائر الفنون البديعية،وأن الشرف

(١) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ٢٨٨ .

الانصاري والشاب الظريف كانا يعنيان بالتورية والانسجام ، وأن أسامة وابن قسيم كانا من أصحاب الشعر الذاتي والوجداني ، وأن عرقلة والتلعفري كانا من شعراء الخمر والمجون ، يضاف الى ذلك أن الشعراء كانوا يتوخون ارضاء أذواق الصفوة المختارة من عشاق الشعر في بيئات علمية خاصة ، نخص بالذكر منهم السلاطين والامراء والقضاة وكتاب الدواوين وأصحاب الرسائل. فلا بدع إن رأينا ظهور الفنون الشعرية المستحدثة في الاوساط الشعبية أو في بيئات زهدية تصوفية ، أو في بيئات ماجنة عابثة،وكان بالطبع ظهورها نتيجة حتمية ، اقتضاها الفراغ الكبير الذي أحدثته اتجاهات الشعر التقليدي نحو طبقة معينة من الناس ، هي في معظم الاحيان الطبقة الحاكمة التي بيدها الامر والسلطان . ولا نكون مغالين إن قلنا إن الشعراء الجدد استطاعوا أن يسدوا بعض الفراغ الحادث. فكان حقاً صورة من صور الحياة الادبية في هذا العصر. وطبيعي جداً أن نجد أنفسنا أمام هذين التبارين المتعارضين ، ولكن يستحيل أن ينفصل أحدهما عن الآخر لاننا لاحظنا بعض التأثير العامي والاسلوب الشعبي في شعر الاعلام الكبار من شعراء هذا العصر كما توضح أمامنا ذلك بكل دقة وتفصيل .

يبقى علينا أخيراً أن نذكر مدى هذا التداخل بين التيار الجديد ، وبين السنن الموروثة لدى الفصحاء ، فقد لا حظنا أن هذا المدى يختلف بين بيئة وأخرى وبين شاعر وآخر ، وكنا وضحنا كل ذلك وخلصنا إلى القول إن شعر هذا العصر كان متعدد النزعات متباين الاتجاهات ؛ وكان على هذا الشكل صورة واضحة عن الحياة .

* * *

الباب الثالث

الكتابة والكتاب في بلاد الشّام



أعلام الكتّاب

قدمنا بحث الشعر على النثر ، وبينا سبب هـذا التقديم ، وقلنا : إن الشعر ديوان العرب ، يعبرون به عما يعترض سبيلهم في حياتهم . أما النثر فكان لغة الدواوين . وبه تسير امور الدولة إذ كان السلاطين يعتمدون كل الاعتماد على كبار الكتاب ليتولوا وزارتهم ، ويتصدروا دواوينهم ، وينوبوا عنهم في إنشاء الكتب الى الأقطار المختلفة . ولسنا بمبالغين إن قلنا : إن النثر ضرورة حتمية اقتضتها طبيعة الحكم ، وأساليب الحياة السياسية والدينية والفكرية . بيد أنه كان أضيق نطاقا من الشعر . فلا غرابة إن رأينا النثر محدود المدى من حيث الكثرة ، ورأينا بالتالي قلة الكتاب في هذا العصر بالنسبة إلى هذا العدد الضخم من الشعراء.

يضاف الى ما ذكر أننا نشهد جمع الصناعتين : الشعر والنثر ، وهذا امر متعارف عليه ، فكان يتحتم على الشاعر أن يجيد النثر ، وعلى الكاتب أ نينظم الشعر أو يكون له به إلمام ، على الرغم من أن هـذا العصر عصر تخصص ، لكن الموسوعية في مفهوم الادباء ، والرغبة في جمع فضيلتي الشعر والنثر تقرباً من ذوي السلطان ساعدا بلا شك على ذلك ، وسوف نرى أن اعلام الكتاب كانوا شعراء مجيدين كالقاضي الفاضل والعماد الكاتب وابن سناء الملك والشهاب محمود وغيرهم ، وأن أعلام الشعراء كانوا كتاباً حاذقين كابن القيسراني وابن منير الطرابلسي وأسامة بن منقذ وغيرهم .

لعلنا نتساءل عن بواعث الجمع بين صناعتي الشعر والنثر ، ويبدو لنا أن مفهوم البلاغة والإبداع فيهما كانا العامل الرئيسي في ذلك ، سئل ابن

المقفع عن البلاغة في الكلام فقال : « اسم لمعان تجري في وجوه كثيرة ، فمنها ما يكون بالسكوت ، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون في الإشارة ، ومنها ما يكــون شعراً ، ومنها ما يكون سجعاً ، ومنها ما يكون ابتــداء ، ومنها ما يكون جواباً . ومنها ما يكون في الحديث ، ومنها ما يكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكو نخطباً . ومنها ما يكون رسائل ، فعامة هذه الأبواب الوحي فيها ، والإشارة الى المعنى والايجاز هو البلاغة » (١) .

لاحظ ابن الأثير ان قلة النثر بالنسبة للشعر ترجــع إلى أن العــرب كانوا يعنون بنقل الشعر وروايته وتدوينه . لكن عنايتهم بالنثر تضاءلت كثيرا لأسباب أفصح عنها بقوله : « ولا نجــد الكلام المنثور في كلامهم إلا يسيراً ، ولو كثر فإنه لم ينقل عنهم ، بل المنقول عنهم هــو الشعر ، والكلام المنثور بالنسبة إليه قطرة من بحر » (٢) . هــذا عن العرب الأولين قبــل شيوع الكتابة ، فلما شاعت وكثرت رأينا النثر اكثر من ذي قبــل ، ولكنه يبقى أقل من الشعر كثيراً .

يتحتم علينا بعد هذه المقدمة أن نعرض للنثر في هذا العصر فنبدأ بذكر أعلام الكتاب ، ثم نخلص من ذلك إلى دراسة النثر دراسة موضوعية .

سوف نتحدث في باب النثر عن سبعة اعلام . وقد ترجمنا لأربعة منهم في هذا الفصل هم : الخطيب الحصكفي ، والعماد الكاتب وابن الأثير الكاتب ، والشهاب محمود . كما اشرنا في الفصل الثاني الى ثلاثة آخرين : هم ابن ظفر الصقلي وابن غانم المقدسي وابن محرز الوهراني ، وذلك خلال دراسة الفنو نالنثرية .

---

(١) ابن رشيق : العمدة ، ج ١ ص ٢٤٣ .

(٢) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٨٥ .

الخطيب الحصكفي

(٤٦٠ – ٥٥١ هـ = ١٠٦٨ – ١١٦٥ م)

القسم الأول

حياته وآثاره

(١)
مراحل حياته

ولد معين الدين ، أبو الفضل ، يحيى بن سلامة بن حسين بن عبد الله ، الملقب بـ « الخطيب الحصكفي » (١) ، في مدينة طنزة (٢) ، سنة ٤٦٠ هـ .

نشأ وترعرع في حصن كيفا (٣) ، وإليه نسب ، ثم قدم بغداد واشتغل في الأدب على الخطيب التبريزي ، وبرع في فقه المذهب الشافعي والفرائض . ولما استكمل ثقافته الأدبية والدينية قفل راجعا الى بلاد الشام ، فنزل ميافارقين ، واستوطنها ، وولي الخطابة فيها (٤) ، وصار إليه أمر الفتوى ، فكان مفتي تلك البلاد في عصره (٥) . وجدير بالذكر أنه اختار ميافارقين ليقيم فيها لأنها أشهر مدينة بديار بكر (٦) ، ولأنها كانت

---

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٥٦١ .

(٢) بليدة بجزيرة ابن عمر من ديار بكر (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ص ٤٣) .

(٣) بلدة وقلعه عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ص ٢٦٥) .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ٢٣٧ ، وياقوت : ارشاد الأريب ج ٢٠ ص ١٨ ، والعماد الكاتب : الخريدة ، ج ٢ ص ٤٧٢ ، والسبكي : طبقات الشافعية ج ٤ ص ٣٢٢ ، وابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ١ ص ٦٠ والذهبي سير النبلاء (مصورة) ج ١٢ ل ٢١٨ .

(٥) الذهبي : سير النبلاء (مصورة) ج ١٢ ل ٢١٨ .

(٦) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ص ٢٣٥ .

عكف على عمله في هذا البلد ، وذاع صيته في البلاد ، والغريب انه «ما فارق ميافارقين، بل كان منزله محط رحال المسترشدين المستعيدين»(١). وكان العماد الكاتب يرغب أن يكون أحد هؤلاء المستفيدين ، لكنه لم يتيسر له لقاءه : كنت أحب لقاءه ، واحدث نفسي عند وصولي إلى الموصل في شرخ عمري ، واما سغف بالاستفادة ، كلف بمجالسة الفضلاء للاستزاده ، فعاق دون لقائه بعد الشقة ، وضعفي عن تحمل المشقة » (٢) .

كثرت تلامذته ، واشتغل عليه العلماء ، وانتفعوا به ، واصبح منزله كعبة القاصدين المستفيدين ، فتناقلوا اخباره ورسائله ، وذاعت شهرته في غير بلاد الشام وتجاوزتها إلى غيرها من الأمصار .

عرف الأقدمون منه تشيعه ، وتناقلوا شعره في مدح آل البيت ، فذكر العماد منه « قصيدة شيعية شائعة ، رائقة رائعة » (٣) ، فالتشيع « في شعره ظاهر » (٤) كل الظهور .

اما التصوف فقد اتضح لنا من شعره ونثره أنه كان يكثر من استخدام المصطلحات الصوفية المعروفة ، وقد اشار العماد إلى قصيدة كتب بها إلى كمال الدين الشهروزي وهي « مشتملة على معاني اهل التصوف » (٥) ، ولم يكن ذلك ليقتصر على القصيدة المذكورة ، وإنما تراه منتشرا في رسائله بشكل واضح .

ويظهر أن هذين الاتجاهين ألبا من حوله عليه اعداءه وحساده ، وقد عرض بهم في الرسالة التي أنشأها على لسان القصار والصياد ، وكتب بها إلى بعض القضاة ، واستخدم فيها التعبير الرمزي ، وأتى فيها على ذكر من وقعوا في سيرته : « أأكون خائناً ، وأحلف مائناً ، فأجمعَ بين الحِنْثِ

---

(١) العماد الكاتب : الخريده، ج ٢ ص ٤٧٢ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٧٥ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٣٩ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ٢٣٩ .

(٥) العماد الكاتب : الخريده ، ج ٢ ص ٤٩٥ .

والخيانةِ ، وانسلخَ من الديانة : لكنْ تقوّل عليَّ فما نسبَهُ إليَّ (١) .

لم يزل على رئاسته وجلالته وإفادته حتى وافه منيته بحصن كيفا سنة ٥٥١ هـ (٢) .

(٣)
آثاره الأدبية

يبدو أن للحصكفى تصانيف كثيرة ، لا يعرف عنها إلا القليل . وقد ذكر الذهبي أنه « صنف التصانيف وله ديوان خطب ، وديوان نظم وترسل » (٣) .

اطلع العماد خلال وجوده في مصر على بعضها . فقال : « ثم وقع الىّ قطعة كبيرة من شعره ورسائله . وذلك بمصر ، فلمحتُها ، فرأيتُ فيها كلَّ مُلحةٍ ، ذكيةٍ من نشرها بأطيب نفحة ، فنسخت منها ما نسخ فخرَ مساجيله ، ورسخ فضله على مُماثليه » (٤) .

توجد في دار الكتب المصرية نسخة مخطوطة من نثر الحصكفى ، وتضم بعض شعره . ونظن أنها هي نفسها التى اطلع عليها العماد . واقتبس منها . وله بالإضافة إلى ديواني خطبه ورسائله ، ديوان شعر (٥) وهو مفقود .

يضاف إلى هذه التصانيف مؤلفات أخرى نحوية ولغوية ، منها « عمدة

---

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٢٦ .

(٢) العمادالكاتب : الخريدة ، ج ٢ ص ٥١٥ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ٢٣٩ ، والذهبي : سير النبلاء (مصورة) ج ١٢ ل ٢١٨ .

(٣) الذهبي : سير النبلاء (مصوره) ج ١٢ ل ٢١٨ .

(٤) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ٢ ص ٤٩٤ .

(٥) ياقوت : ارشاد الأريب ، ج ٧ ص ٢٨١ .

الاقتصاد » (١) في النحو والصرف ؛ وقصيدة في اللغة أسمها « الضادية » تشمل على الكلمات التي تقرأ بالضاد . وما عداها يقرأ بالظاء . وهي مشروحة شرحاً وجيزاً . وأولها قوله :

خذ من الضاد ما تداوله النا س ؛ وما يكون عنه اعتياض

وهذه القصيدة ما تزال مخطوطة (٢) .

عثرنا على نص القصيده المذكوره في رسائله بغير شرح . وقد ذكر انه نظمها في آمد سنة ٥٠٧ هـ . وانه جمع فيها أكثر ما نطق به الناس من حرف الضاد الجارية في اللغة العربية (٣) .

كما تضمنت رسائله أبياتاً تجمع الشهور والأيام نظمها سنة ٥٢١هـ (٤)، وأبياتاً أخرى اقترحها عليه طاووس الحرمين . تنقط جميع حروفها ، فتحاشى ذلك لأنه لا يكون إلا مكلفا (٥) .

* * *

(١) السبكي : طبقات الشافعية ، ج ٤ ص ٣٢٢ .
(٢) الزركلي : الأعلام ، ج ٩ ص ١٨٤ .
(٣) رسائل الحصكفي ، (مخطوط) و ١٣١ .
(٤) رسائل الحصكفي ، و ٢٤٨ .
(٥) رسائل الحصكفي ، و ١٦٠.

القسم الثاني

نثره ومذهبه الفني

(١)
فنون نثره

لا شك أن الخطيب الحصكفي يمثل مرحلة هـامة من مراحل تطور النثر الفني في هـذا العصر بعد أبي العلاء المعري ، وقد أشار إلى ذلك الأستاذ الدكتور شوقي ضيف في معرض حديثه عن تصنعه وتعقيده ، فذكـر أن نثره « ينساق جملة في طريق أبي العـلاء ، وحتى ما عند أبي العـلاء من تشاؤم نجـده عند الحصكفي ، وقد أهّل له تشيعه ، كما أهلت له وظيفة الخطابة ، وما تجر إليه من وعظ ديني » (١) . يؤيد هـذا القول ما نلاحظ من تشاؤم في الرسالة التى سماها الكدرية ، وقـد تخيل فيها حواراً جرى على لسان قطاتين تتناجيان ، إحداهما أسيرة « كدّر البين متساربها ، وابهم الحين مساربها ، عضها بالسخط ولم تخط ، وغضها بالسجن ولم تجن ، تصبح كالكبة بضيق القبة » ، وثانيتهما طليقة « سقطت حيالها ، وانكرت حالهـا » (٢) .

نلاحظ أن الحصكفي حـاول في رسائله المخلفة أن يتصل بمشاهير أدباء عصره ، وكان يتخذها في بعض الأحيان ذريعة يعرب فيها عمـا في نفسـه من تأملات وخواطر ، وهكذا نستطيع أن نتبين في نثره الفني غرضين اثنين . اما أولهما فهـو نثره العام ، وكان يراسل به أصدقاءه ، نذكـر من ذلك

(١) شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العـربي ، ص ١٥٢ .
(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ٢ ص ٥٢٨ .

رسالـه المعروفة بالصورية (١) . وقد كتب بها عند دخوله آمد إلى الشيخ أبى الحسن بن سعيد بن بكرون يستدعى بها ألفاظه . ويظهر أن هذا النوع من الرسائل كان صورة عن الصلة الأدبيه بين أدباء العصر . كما كان أكبر الأدباء ينطق بلسان جماعته بدليل أنه ذكر في مطلع الرسالة المذكورة أن ابن بكرون فسر أكثر ألغاز الرسالة . « وأجابه عنها برسالة شحنها ألغازاً حسب اقتراح الجماعة ليكون بينهم يتحاجون بها بجد منها وبهزل أيضا »(٢). ومن ذلك رسالته التى افتتح بها جواب اسامة بن منقذ . وقد ابتداه بمكاتبة يتشوق بها إليه . ويستدعي ألفاظه (٣) .

أما نثره الذاتى فنلحظه في بعض الرسائل التي أنشأها لنفسه ؛ نشير من ذلك إلى الرسالة التى وضعها بغير نقط (٤) أنشأها في شهور سنة ٤٩٧هـ ، ويظهر أنه كان يتكلفها ليبرز مقدرته في العبث بأساليب النثر المختلفة ، وجاء فيها قوله :

« ممّ عراه الملل ، وما عداه الأمل ؛ حرس الله سموّه ، وأدام علوّه ، وحاطه وكلاه ، وأكرمه ورعاه . وما أحال العهدَ ــ واللهِ ــ دهرٌ ، ولا كدّرَ صحةَ الموده أمرٌ . ولا أعلم حالاً أحل الصد لها ، وطلّ الدم الحرام طلها ، وما لمؤمله بعده سواه ، ولا عمده إلاّه ، حل محل الروح ، والدمع أمارة الطموح . أأطاع حاسداً اكمده الله . أم صار مُلك حدسه وهواه » .

نلاحظ أن الحصكفى في هذين الفنين يبتعد شوطاً بعيداً عن العاطفة الإنسانية ويغلب عليه التصنع الذي كان ثمرة الإجهاد الفكري .

(٢)
مذهبه الفني

سلك الحصكفي في كل رسائله وخطبه الأسلوب المسجع ، وتكلف

---

(١) رسائل الحصكفي ، و ٤٠ .
(٢) المصدر السابق ، و ٥٦ .
(٣) المصدر السابق ، و ٢٤٨ .
(٤) المصدر السابق ، و ١٢٢ .

مختلف الصور البيانية والزخارف البديعية. وقد أعجب القدماء كل الإعجاب بهـذا التصنع في النثر العـربي . إذ إنه يعد دلالة على المقدرة الفنية في صوغ الأساليب وتعقدها وتقاس مكانة الأدب ومقدرته . بما يتفوق فيه من هـذا المجـال .

وصف العماد أسلوبه ، وتحدث عن صاحبه ، فذكـر أنه « علامـة الزمان في علمه ، ومعري العصر في نثره ونظمه ، بل فضل المعـري بفضله وفهمه ، وبـذ الحريري برقة طبعـه ، وقـوة سجعه ، وجوده شعره ، وغزارة أدبه ، وانفراده بأسلوبه في الشعر ومذهبه . لـه الترصيع البديع والتجنيس النفيس ، والتطبيق والتحقيق ، واللفظ الجزل الرقيق ، والمعنى السهل العميق والتقسيم المستقيم ، والفضل السائر المقيـم ، والمذهب المذهّب والقول المهذب والفهم النـهم ، والفكر البكر ، والقافية النافية ، كأنها العافية ، والمعيشة الصافية ، والروي الرويّ ، الجامع في الوزن بين د رالحـزن ودر المزن ، تود الشعرى أنها شعار شعره ، والنثره أنها نثار نثره ، والزهرة أنها كوكب سمائه ، والمشتري أنه مشتري ثنائه ، غنيت الغانيات عن قلائدهن بفرائده ، وأحبت الخصور أن توشح عوض مناطقها بدر منطقه ، وحسدت عيون الغواني عيون معانيه ، وغبطت أحداق الحسان أحداق محاسنه وحدائق قوافيه » (١) .

كما وصف العماد أيضاً أسلوبه في معرض ذكر أحـد كتبه التي أعجب بهـا ، وكان مؤلفه قد بعث به إلى مؤيد الدين بن الأنباري ، وجاء في وصفه : « كأنه الوشي المدبج ، والروض المبهج ، والديباج الخسرواني رونقا وجمالاً ، والعضب الهندواني فرنداً وصقالاً . يجمع در النظام ودر الغمام ، ودراري الظـلام في سلك الكلام ، وتعرب عربيته عـن الغريزة الغزيرة ، والروية الروية ، والذكاء الذكي ، والبيـان الوائلي ، والخاطر الخطير ، والفضـل الكثير ، والحكم المحكمة ، والفصاحة المفحمة ، بحروف للظرف ظروف ، ومعان للطف مغان ، وفصول للحسن فصوص ، وكلمات عِذاب جزلة ،

---

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ٢ ص ٤٧٢ .

كَلِمَّاتٍ عذارى جنلة ، والفاظ ساحرة ، كألحاظ فاترة » (١) .

نلاحظ أن العماد بنبر من خلال وصف أسلوبه العام والخاص إلى أمور ثلاثة هامة ، ينصنعها في مذهبه الفني وهي السجع الجناس والإغراب .

أما السجع فإننا نلاحظ أنه كان يكثر من ضربه القصير ، كما في قوله :

« للقلوب من دون أستار الغيوب ، أطال الله بقاء القاضي ، حواس سلمت مطالعها وعدمت موانعها ، فلا يوقر سامعها ، ولا يعشى طامعها لأنها صفت فوصفت ، وسرحت فشرحت ، فهى تستمد القوى من أنوار ذواتها ، وتتلقاها من فيض أدواتها ، وتلك لأهل الأحوال وانا منها على الأقوال . وأخرى تطالعها الأنوار من مظانها في مكامنها ، وتتصل بها القوى لدى مساكنها من معادنها ، لأنها قصرت فنصرت ، وحصرت فبصرت » (٢) .

استخدم الحصكفي هذا النوع من السجع لأنه في عرف أرباب البلاغة أوعره مذهباً ، وأبعده متناولا . وكلما قلت الألفاظ كان أحسن لقرب الفواصل المسجوعة من سمع السامع (٣) . فمن سجعه الذي تكلف فيه تقليل الفاظ فواصله قوله :« ماكل عبرة نسفح ،عن زفرة تلفح ، قلبى الوطيس ، ونحن العيس ، وعندي اللاعج ، ونرزم النواعج ، فعد عن دفع النفاق ،ودعوى الإشفاق ، إنما كمون الداء ، حيث تنفس الصعداء » (٤) .

وأما الجناس فقد تصنعه وتكلفه ، ليظهر براعته ومقدرته ، وقد أشار العماد في تقديم رسالة القصار والصياد إلى أنها مقامة مصنوعة مجنسة على الفضل والبراعة مؤسسة (٥) ، ويقول في مستهلها . « كنت لفرط

---

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٧٧ .
(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٩٧ .
(٣) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٢٤٠ .
(٤) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ٢ ص ٥٠٠ .
(٥) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥١٥ .

الهدام في بعض الأبـام ، وصدري ضيق ، وفؤادي شيق ، فاجتزت في الخروج ببعض المروج ، ودجلة قـد تسلسل ماؤها . وصلصل حصباؤها ، وصفا شفقها وطفا غلفقها . وسما حبابها ، وطما عبابها ، وغدا نونها ، وبدا مكنونها ، فوقفت انني على باريها . واكاد بالدمع اباريها . اسفا على طيب المشاهد بتلك المعاهد » (١) .

نلاحظ تكلف الجناس في هذه المقامة بشكل واضح : ولم يكن الحصكفي ليقتصر على الجناس العادي البسيط . وإنما « يجنح إلى الجناس الصناعي الملفق الذي تستخدم فيه الصور المعقدة (٢) . أشار العماد إلى مقطع من رسالة له في التجنيس المنعكس ، وذكر أن كل كلمة فيه مشتقة من أختها « فالنفس بعقود التذرع حالية . ولعقود التعذر حائلة ، ومن الودائع المعجزة مالية ، وإلى الدواعي المزعجة مائلة ، وفي بحار الحمد راسيه وفي رحاب المدح سائرة . تجمح إلى مواصلة القمر . وتحجم عن مصاولة القرم ، لتكف بإظفار الأمل ، وتفك بأظفار الألم ، فهل كامل يعني ومالك يعين ، ومقتصد يدني ومتصدق يدين ، فالرغبة إلى الشهب من القربة في التشبه ، رغبة من قصد بالإلهام . مواقع السحاب الهام . وورد شريعة الإفهام لظمأ الإبهام (٣) » .

يلاحظ أن كل فاصلة قصيرة مسجوعة . يعبث بها تصنع البديع المنعكس ، فكل كلمة في السجعة الثانية مشتقة ومولدة من السجعة الأولى ، ويستمر على هذا الاسلوب في كل هذا المقطع من الرسالة المذكورة .

لم يكتف الحصكفي بما بلغه في أسلوبه من تكلف لفظي وسجعي ، وتصنع بديعي جناسي ، وإنما تجاوزه إلى المزيد من التعقيد في أسلوبه . فأنشأ خطبة أهمل فيها الحروف المنقوطة ، ومما قاله في مستهلها : « ألا مسدد أراد وصل الآراد ، ودوام مواصلة الأوراد . وأعد صلاة الأسحار ،

---

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥١٥ .
(٢) شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ص ١٥٣ .
(٣) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ٢ ص ٤٩٧ ، ٤٩٨ .

لحصول صلة المحار ، وحاول دار السلام ومحل الإكرام ، دار سر أهلهـا ودا مأكلها ، لا همّ ولا هرم ، ولا علل ولا ألم (١) » .

أوضح الأستاذ الدكتور شوقي ضيف « أنه كان يتأثر بالحريري ، كما كان يتأثر بالمعري ، إذ نراه يقلده في صنع رسالة سينية ، وأيضاً فإنه صنع رسالة ألفها من الحروف المهملة ، ولبس ذلك كل ما نلاحظه عند الحصكفي من تأثر بالحريري ، فإن في رسائله رسالة فقهية ، وقد قلد بهـا المقامة الفقهية عند الحريري وهي التي تسمى المقام الطيبية » (٢) .

أما الرسالة السينية التي قلد بها المعري ، فقد كتب بها من حصن كيفا إلى قاضي آمد أبي على سعيد بن أحمد بن الحسن بن إسماعيل سنة ٥٠٩هـ، واستهلها بقوله : « باسم السميع الساتر ، أسأل الله ممسك السماء ، ومرسل الماء ، الحسن الأسماء ، حراسة مجلس سيدنا الرئيس ، السيد السديد النفيس ، فنفسي سكرى بسلاف الأسى ، متماسكة لسوى بسوف وعسى » (٣) .

وأما الرسالة الثانية التي أنشأها بغير نقط ، فقد أوردنا بعضها فيما تقدم معنا من نثره ، واستهلها بقوله : « مما عراه الملل ، وما عداه الأمل ، حرس الله سموه ، وأدام علوه ، وحاطه وكلاه ، وأكرمه ورعاه » (٤) .

أما الإغراب فكان صفة مميزة ثالثة تميز بهـا تصنعه في مذهبه الفني ، فهو يتكلف استعمال غرائب الألفاظ وشواردها في نثره ، كما فعل في إحدى مقاماته ، فأدخل فيها مائة وأربعين كلمة غريبة (٥) . وهو يتكلف الإغراب في الأسلوب ، فيخلق صلة بين الشعر والنثر ، فهو كلام منثور إن قرىء طرداً ، وكلام منظوم إن قرىء عكسا ، كما ورد في رسالة القصّار والصياد :

---

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٨٥ ، ٤٨٦ .
(٢) شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ص ١٥٣ ، ١٥٤ .
(٣) رسائل الحصكفي ، و ١٠٩ ، ١١٠ .
(٤) المصدر السابق ، و ١٢٢ .
(٥) المصدر السابق ، و ٥٠ .

« ثم إن الشيخ رجع ، فنثر بعد الإنشاد وسجع ، وذكر كلمات استغربتها، واستعدتها منه وكتبتها ، وهي : الأيام تكدر ، لكن المرء يقدّر ، أحلام سعودها ، دار المين وعودها . فقلت : اراك قد تكلفتها ، ففيم هكذا الفتها ؟ قال : لأنها در منظم إن قلّبت ، وشعر منظوم إن قلبت ، وشحنتها بزينتين، وصححتها كل بيت من قرينتين » (١) .

لو قلبت ، فقرئت عكساً لكانت ـ كما قال ـ قصيده من بحر المجتث ، مؤلفة من اثني عشر بيتاً :

يَقَدِّرُ المرءُ لكنْ تُكَدِّرُ الأيامُ
وعودُها المينُ دارٌ سعودُها أحلامُ (٢)

هكذا نلاحظ ان العماد الكاتب كان يحاول أن يجعل معانيه مرنبة ، وكان يغلب عليه في اسلوبه الحجة والمنطق . أما الانفعال العاطفى ، والسعور الذاتى فكانا يتضاءلان كثيراً في أدبه .

* * *

ننتهي من دراسة نثره الفني ومذهبه الأدبى لنؤكد انه كان يمثل مرحلة تطورية في أسلوب التصنع . ونؤكد من خلال ذلك انه كان نفطة تحول وانطلاق في النثر العربي نحو التعقيد والتصنع الشديدين .

هكذا كان صلة وصل بين السابقين واللاحقين ، وقد استطاع بما تعمده من تكلف أن يسير قدماً في الطريق التي مهدها له من قبله المعري والحريري ، وهو بدوره ينمق الطريق لمن جاء بعده كالقاضي الفاضل وابن سناء الملك والعماد الكاتب .

---

(١) العماد الكاتب :الخريدة ، ج ٢ ص ٥٢١ .

(٢) جاء في هامش الحريدة تعليق الاستاذ الدكتور شكرى فيصل ، وهو قوله : « تؤول الى أن تكون قصيدة مؤلفة من اثني عشر بيتاً ... والى ذلك الاشارة فى قوله بعد : « وأنت في عدة النقبا » مستفيداً من الآية الكريمة : « ولقد أخذ الله ميثاق بنى اسرائيل ، وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً » هامش ١٠ ص ٥٢١ .

العماد الكاتب

(٥١٩ – ٥٩٧ هـ = ١١٢٥ – ١٢٠١ م)

القسم الأول

حياته وآثاره

(١)

مراحل حياته

في أصفهان ، ولد عماد الدين ، أبو عبد الله ، محمد بن محمد بن حامد بن آله (١) ، المعروف بابن أخي العزيز (٢) ، يوم الاثنين ثاني جمادى الآخرة سنة ٥١٩ هـ (٣) .

نال العماد ثقافته الأولى ، وأتقن العربية والفارسية ، لكنه لم يطل فيها مقامه ، لأن السلاجقة قتلوا عمه عز الدين ، فاستدعى الخليفة الرشيد أباه صفي الدين ليوليه الوزارة ، فتعلل عليه (٤) لأنه كان يخاف شر

---

(١) ضبطها ابن خلكان بفتح الهمزه وضم اللام (وفيات الأعيان ، ج ٤ ص ٩٧) ، وضبطها بروكلمان بعد الهمزة وضم اللام (Brok. S I : 532) . وضبطها السبكي بضم الهمزة واللام (طبقات الشافعية ، ج ٢ ص ٧٤) ، واختار الأستاذ الدكتور شوقي ضيف في مقدمه للقسم المصري من الخريدة الرأى الثالث (خريده العصر ص ك) واختار الأستاذ محمد بهجت الأثرى في مقدمته للقسم العراقي من الخريدة رأي ابن خلكان (الخريدة ، قسم شعراء العراق ، ج ١ ص ٩) . وهي لفظة فارسية معناها العقاب .

(٢) نسب العماد الى عمه العزيز ، وكان مقدماً في العهد السلجوقي ، لكن السلطان محموداً قبض عليه بهمذان ، وصادر أمواله . وقبض عليه مرة ثانية بالعراق ، وحبس بقلعة تكريت ، وقتل فيها ، وقد حاول الأمير نجم الدين وأخوه أسد الدين شيركوه الدفاع عنه ، لكنهما لم يفلحا في انقاذه من الموت .

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ج ٢ ص ٢٣٠ .

(٤) العماد الكاتب : الخريدة : قسم شعراء العراق ، ج ١ ص ٣٤ .

السلاجقة الذين لم يتورعوا عن إلحاق الأذى بعمه وأبيه ، وصادروا أموالهما. فلما أطلق سراحهما قـرر والده أن يرحل بأسرته إلى بغـداد ليعيش في حماية الخليفة المقتفي سنة ٥٣٤هـ ، وكان ابنه العماد إذ ذاك في الخامسة عشرة من عمره ، وهو ينحدر من سلالة أسرة فارسية عريقة ، كان سرواتها يتولون في أصفهان وغيرها اهم المراتب السياسية والعلمية . وغريب جـداً أن ينسبه ابن القوطى في مجمع الآداب إلى فرس . ثم يأتي الأستاذ محمد بهجت الأثري . فيتابعه على رأيه ويقول : « فإذا صح ما ذكره ، ولا إخـاله إلا صحيحاً . كان هذا البيت في الصميم من النسب العربي » (١) .

نلاحظ أن الناقد المذكور يشك حينا . ثم تبنى شكه ويخال أن نسبه عربي ، وليس بصحيح البتة .

دخل المدرسة النظامية المشهورة ، وتفقه فيها . ونهض علوم اللغـة العربية ، واشتغل في إقليدس (٢) . أشار العماد إلى هـذه المرحـلة من حياته فقال : « اجتمعنا في بغـداد في المدرسة النظامية سنة ست وثلاثين شريكين في الفقـه موسومين بالإعزاز عند شيخنا ابن الرزاز » (٣) . وكان العماد قد أشار أيضاً إلى وصوله إلى بغداد واستقراره فيها بقوله : « وكان وصولي إلى بغـداد في الأيام المقتفوية وفي ظلها المنشأ ، وفي فضلها المربى وفي جوارها حصل الأمن، ووصل المن ، وبخدمتها عرفت، وبنعمتها تعرفت. وفي جنابها حلا الجنى ، وعلا السنا » (٤) . كما انتسب للمدرسة الثقتية(٥). وقد أقـام بها « ثلاث سنين للتفقه » (٦) .

هكذا أنفق العماد أيام شبابه في بغـداد مكباً على التحصـل والدرس

---

(١) العماد الكاتب : الخريدة : قسم شعراء العراق ، ج ١ ص ١٠ .

(٢) الصد والسائق ، ج ١ ص ٣٦ .

(٣) العماد الكاتب : الخريدة : ج ٢ ص ٢٣٠ .

(٤) العماد الكاتب : الخريدة ، قسم شعراء العراق ، ج ١ ص ٣٦ .

(٥) تقع على شاطىء دجلة ببغداد تحت دار الخلافة ، بناها ثقة الدولة بن الدريني ، وهو من أركان دولة المقتفي ، وسلمها الى الشيخ شرف الدين يوسف الدمشقي .

(٦) العماد الكاتب : الخريدة ، قسم شعراء العراق ، ج ١ ص ١٤٥ .

في اشهر مدارسها ، وكان ينتقل في حلقـات العلماء سعياً وراء المعرفـة والتعلم . وصف دابه وجده في المراحل الأولى من حياته بقوله : « وكنت مع صغري كبير الهمة ، كثير الاهتمام بإنشاد أبيات تنشد ، وتطلب ضالة فاضل تنشد ، اوثر سماع ما يؤثر عنهم رواية ، واختار كتب ما أستحسنه حديثاً ونظماً وحكاية » (١) .

بدا له بعـد استكمال ثقافته ان يعود إلى أصفهان صحبة أبيه سنة ٥٥٢ هـ « عقيب انكشـاف كربة الحصار برحيل محمد شاه عن بغداد » (٢) ، وقد صرح الخليفة بعقيده استحسنها كثيرا ، وكانت سبيله إلى المستقبل الـذي ينتظـره .

وصف العماد حيـاته في هـذه المرحلة بقوله : « ووليت بعـد ذلك الأعمال الجليلة ، ووليت بواسط نيابة وزيره معين الدين بن هبيرة ، فانحدر إليها الخليفة مع الوزير ، وانا هناك في دست التصدير ، فخرجت للاستقبال وجئت أسعى معفرا خـد الضراعة ، موغرا حـد الطاعة ، فلما بصر بي الإمام امسك عنانه فوقف ، واستوقف موكبه الشريف وشرف ، فلم يبرح حتى وصى الوزير بي ، وعرفه بيتي ومحتدي وحسبي (٣) .

كان العماد إذا موضع ثقة الوزير المذكور ، فأضاف له الهمامية مـن اعمال واسط ، ثم ناب عنه في البصرة سنة ٥٥٧ هـ . بقي العماد على عمله حتى وفاة مولاه الوزير وأعوانه ، فاخذ يستعطف الخليفة المستنجد بالله ، وكتب إلى عماد الدين بن عضد الدولة ابن رئيس الرؤساء ، وكان إذ ذاك استاذ الدار المستنجدية ، ومدحـه بقصيدة ، فامر بإطلاق سراحه وتوفير أرزاقـه (٤) .

خرج العماد من سجنه ، وأقام مـدة في عيش منكد ، ورأى أن يترك

---

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ٢ ص ٤٧٣ .
(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٣٠ .
(٣) العماد الكاتب : الخريدة ، قسم شعراء العراق ، ج ١ ص ٣٩ ، ٤٠ .
(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٦٣ .

بغداد،ولا سيما بعد أن سدت في وجهه سبل الرزق ، فتوجه إلى بلاد الشام ، وبلغ دمشق في شعبان سنة ٥٦٢ هـ في عهد حكم نور الدين (١) .

اشار العماد إلى ذلك ونوه بفضله ، وقال : « لما وصلت إلى دمشق سعى لي بكل نجح وفتح عليّ باب كل منح » (٢) .

تعرف عماد الدين بادىء الأمر بقاضي دمشق ومدبر امورها كمال الدين ابن الشهروزي ، فأنزله بالمدرسة النورية الشافعية عند باب الفرج (٣) ، وأكرم وفادته ، وكان يحضر مجالسه ، ويناقشه في بعض مسائل الخلاف والفروع ، ولما سمع الأمير نجم الدين والد الملوك الأيوبيين بقدومه سعى إليه، وأسرع للقائه لأنه كان يعرفه من قبل ، وكان صديق عمه العزيز ، وهو الذي حاول إنقاذه بعد أن اعتقل في قلعة تكريت ، فسر العماد بقدومه ، ومدحه بقصيدة ، وتعرف صلاح الدين ، وكان هذا التعارف بدء مودة بينهما ، فأحبه وغدا أثيراً لديه يلازمه في مجالسه الخاصة .

عرض كمال الدين على نور الدين امر العماد ، فعدد عليه فضائله ، ونوه بذكره عنده ، واهله لكتابة الإنشاء في الديوان بدمشق ، قدم له قصيدة في مدحه فرتبه منشئاً عوضاً عن كاتبه أبي اليسر شاكر بن عبد الله المعري سنة ٥٦٣ هـ ، وكان الكاتب المذكور قد استعفى من الخدمة ولزم بيته . أشار العماد إلى ذلك بقوله : « فلما توليت كتابة نور الدين ، وجئت في صحبته إلى حلب سنة ثلاث وستين ، في زمن الشتاء الكالح ، والبرد القارح والقر النافح ، كتبت إلى الشيخ ابن أبي عصرون (٤) أبياتاً » .

ويظهر أن العماد تهيب دخول ديوان الإنشاء بادىء الأمر لأنه لم يتعود أساليب كتابة الإنشاء الخاصة ، وقد وصف حاله يومئذ ، فقال : « فبقيت

---

(١) الذهبي : سير النبلاء (مخطوطة مصورة) ج ١٢ ل ٧٩ .
(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ٢ ص ٣٢٤ .
(٣) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ص ٢٠٨ .
(٤) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ٢ ص ٣٥٢ .

متحيراً فيما ليس من شأني ولا وظيفتي ، ولا تقدمت لي بــه دراية (١) » . بيد أن ثقافته الواسعة ، وتمكنه من الكتابة ، وثقته بنفسه ، جعلته يجيد كل الإجــادة ، فينال استحسان سادتــه وإعجابهم ، ولا سيما أنــه كان ينشىء بعض الرسائل الهــامة باللغــة الفارسية (٢) فيجيد فيها كل الإجادة كما يجيد اللغــة العربية نفسها .

علت منزلة العماد لدى نور الدين ، وصار مدبر امــره ، فلما وجــه أسد الدين إلى مصر للمرة الثالثة صحبه، كما سيره رسولاً عنه الى المستنجد بالله ، وناب عنه في المثول بين يديه . فوض إليــه بعــد عودته التدريس في المدرسة النورية الشافعية سنة ٥٦٧ هـ وقد دعيت فيما بعــد باسمه لكثرة إقامته بهــا وتدريسه فيها (٣) ، كما كانت له حلقة خاصة بجــامع دمشق للمناظرة .

زاد نور الدين رتبته ، فجعله مشرفاً عامــاً على الديوان سنة ٥٦٨ هـ بالإضافة الى عمله في ديوان الإنشاء والتدريس في المدرسة النورية ، وقد بقي في هذه المنزلة الرفيعة حتى وفاة نور الدين سنة ٥٦٩ هـ .

خلف الصالح إسماعيل أباه نور الدين ، وكان حدثاً ، فاضطرب امــر ملــكه ، وعبثت به جماعة أوصيائه ، وكان العماد غــير راض عن تصرفه وبخاصة بعد أن جردوه من وظائفه ، ولم يبقوا له إلا الكتابة في الديوان ، ولم يكتفوا بذلك ، بل أخــذوا يضايقونه ويتهددونه ، وأكرهوه على التخلي عما بيــده ، فقرر أن يسافر إلى بغــداد على الرغم من مرضه ، واضطر أن يتوقف في الموصل بعــد أن بلغ به المرض مبلغاً حمله على البقــاء فيها والإخلاد الى الراحــة .

وسرعان ما جــاءته الأخبار عن خروج صلاح الدين بجنــده من مصر ،

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيــان ، ج ٢ ص ٧٤ .

(٢) الذهبي : سير النبلاء (مخطوطة مصورة) ج ١٣ ل ٧٩ .

(٣) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ص ٤١٦ .

فثنى عزمه عن متابعة السير ، وعاد ادراجه سنة ٥٧٠ هـ ، وكان السلطان إذ ذاك على حصار حلب ، وما لبث حتى أدركه ، واجتمع به في قلعة حمص ، ومدحه بقصيدة طويلة ، وبقي يلازمه في حله ونرحاله ، وينشده في كل مناسبة غر قصائده ، ويذكره ملمحاً ومصرحاً بصداقته القديمة .

يظهر أن السلطان تجاهل بادىء الأمر أمر صديقه العماد ، إذ إن منافسيه ، زينوا له أنه يطمح إلى منصب القاضي الفاضل نفسه ، بيد انه لم يكف عن سعيه ، واتخذ من ابن مصال المصري شفيعاً له لدى القاضي الفاضل نفسه ، وكان من أعيان الأمراء الأيوبيين ، وأقرب الناس إلى صلاح الدين ، فدخل عليه القاضي الفاضل ، وعرض عليه أمره ، وبيّن له محاسنه، ولا سيما انه يجيد اللغة الفارسية ، وديوان السلطان بحاجة إلى من هو مثله في حاشيته ، فقبل رأيه ، ورسم باستكتابه ، واصبح في منزلة مرموقة لأنه اصبح الوزير الثاني ينوب عن السلطان في بلاد الشام ، فكان القاضي الفاضل ينقطع بمصر لمهمات ، فيسد العماد في الخدمة مسده (١) .

حفظ العماد جميل القاضي الفاضل ، وقد نوه بذكره في الفتح القدسي عندما أقبل إلى بلاد الشام : « وفي هذا الشهر كان قدوم القاضي الأجلّ الفاضل ، رب الفضائل والفواضل من مصر ، فأشرقت المطالع ، واشرفت الصنائع ، وبشرت المطالب بنجاحه ، وغزرت المواهب بسماحه ، وغابت بحضور مكارمه المكاره ، ونزع بلبسة أفضاله لباس الخمول ذو الفضل النابه ، وأعاد روح السلطان بإعادة الروح إلى سلطانه ، وسر بمكانه ، واقترن إحسانه بإحسانه ، وظهرت في وجهه به الطلاقة ، وفي قلبه العلاقة ، وروى رأيه بري رأيه ، وتلقن آيات النصر من نص آيه ، وانتعش عثاري بمقدمه ، وانتقش خط فخاري بكرمه ، وحلى عطلى ، وحيا أملي ، وقوى عملي ، ووضع منهاج مناي ، وصح مزاج غناي ، ونبه قدري ، ونوه بذكري ، وسعى في رفع رتبتي ، وزيادة راتبي ، وسن غربي ، وأسنى غاربي ، وأقرني وقربني ، واستكملت الخطوط بالحظوظ ، كما كان استكتبني ، فعشت ونعشت ، وفرشت بساط الغنى فرشت ، ولولا أنني

---

(١) الذهبي : سير النبلاء (مخطوطة مصورة) ج ١٣ ل ٧٩ ؛

قويت به لأقويت ، ولولا أنه أولاني عارفته لما عُرفت و لاتوليت ، فأنا شاكر نعمه عمري ، وعامر كرمه بشكري » (١) .

بقي العماد في هذه المكانة الجليلة حتى وفاة مولاه صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ ، فكتب من بعده لابنه الملك الأفضل نور الدبن علي ، أكبر أبنائه الذي تولى الملك مكانه ، وكان يملك دمشق ، وما يتبعها من البلاد بالإضافة إلى الطراز الأخضر الساحلي .

تحدث العماد الكاتب عن الملك الأفضل واشاد بمكانته عنده ، وأشار إلى حاجته وافتقاره إلى معرفته وادبه ، ومما قاله : « تولى الملك الأفضل بدمشق مقام أبيه ، وقام بالأمر بعزم تأتيه ، وحزم تأنيه ، وعز تأبيه ، فعرف افتقاره إلى معرفتي وفقري ، وإلى عطل الملك ومحله من غزارة حلب دري ونضارة حلى دري ، فكتبت له ، وحليت من الملك عطله ، ووشيت الكتب ووشعتها ، وجليت الرتب ووسعتها ، وهززت اليراعة ، وهجرت الجماعة ، ولزمت القناعة » (٢) .

يلاحظ أن العماد اقتصر في عمله على الكتابة ، لأنه رأى الدسائس والمؤامرات تكتنف البيت الأيوبي المالك في دمشق ، ولا سيما أن الملك الشاب اتخذ ضياء الدين بن الأثير وزيراً له ، واوكل إليه كل شيء من أمور الدولة ، ولعله كان يريد الانفراد بالسلطان وإبعاد الأمراء وأكابر الدولة عن أمور الملك ، وساعده في متابعة هذه الخطة انه رآه راضياً عنها ، ففارقه قسم كبير من أمراء أبيه بعد طردهم إلى أخويه : الظاهر ملك حلب ، والعزيز ملك مصر .

لم يرض العماد بالبقاء في عمله بعد تجريده من معظم وظائفه الهامة التي كان يشغلها منذ زمن بعيد ، وآثر الارتحال ، فاستأذن ملكه بالذهاب

---

(١) العماد الكاتب : الفتح القدسي ، ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٥٦ .

إلى مصر ، فوافقه على ذلك ، وحمله رسالة الى أخيه . وهكذا يدخل العماد للمرة الثانية ، ويؤثر الإقامة فيها والإخلاد إلى السكينة في أواخر حياته

كان الخلاف يشتد بين الأخوين ملكي مصر والشام ، وساءت الأمور بينهما ، فقرر العزيز أن يقوم بحملة بمساعدة عمه العادل سنة ٥٩٢ ﻫ لعزل أخيه وطرد وزيره ابن الأثير .

وجد العماد الفرصة المناسبة للعودة إلى دمشق صحبة هذه الحملة ، ويظهر أنه قرر في هذه المرة اعتزال العمل الديواني ، والعكوف على التصنيف والتأليف ، بعد أن استلم الملك العادل دمشق نيابة عن العزيز .

وبدا له أن يرحل إلى مصر للمرة الثالثة صحبة الكامل محمد ، إذ إن أباه الملك العادل استدعاه إلى مصر ليستنيبه عنه سنة ٥٩٨ هـ ، ولكن سرعان ما انتشر في هذا العام الوباء والجوع ، فهرب العماد مع من هرب إلى بلاد الشام .

بلي في اواخر عمره بابن شكر ، وقاسى منه مهانات كثيرة (١) ، ولا نعرف على الضبط سبب هذه العداوة الشديدة ، لكنها كانت عاملاً من عوامل شقائه في ختام حياته الحافلة .

لم يلبث إلا قليلا بعد عودته حتى وافته منيته بدمشق ، يوم الاثنين في مستهل شهر رمضان سنة ٥٩٧ هـ ، ودفن خارج باب النصر بمقابر الصوفية .

(٢)

آثاره الأدبية

لم ينشغل العماد الكاتب في حياته الحافلة بالأعمال الرسمية كل الانشغال ، فينصرف عن التصنيف ويعزف عن التأليف ، وإنما عكف على إنجاز ما فكر فيه أو ما اتمه في أواخر حياته . وله مؤلفات متعددة نثرية وشعرية ، فمن آثارة النثرية :

---

(١) الذهبي : سير النبلاء (مصورة) ج ١٣ ل ٨٠ .

١ ـ خريدة القصر وجريدة العصر : لا شك أن هـذا الكتاب الهـام مصدر رئيسي من مصادر بحثنا ، وهو أحدث كتب ثلاثة ارخت القـرن السادس الهجري ، فقد اثنان منها ، وهما « زينة الدهر » للحظيري الوراق (المتوفى سنة ٥٦٨هـ) و «وشاح الدمية » للبيهقي (المتوفى سنة ٥٦٥هـ)، ولم يبق إلا كتاب خريدة القصر ، يمد الباحثين بأشياء كثيرة هـامة عن هذا العصر الذي نؤرخه . ومما يجبان نشير إليه أن الكتاب المذكور حلقة من سلسلة كتب تناولت التاريخ الأدبي في مختلف عصور اللغـة العربية ، وقد ذكر ابن خلكان أن العماد جعل كتابه خريدة القصر ذيلاً على « زينة الدهر » للحظيري الوراق المار ذكره ، والحظيري جعل كتابه ذيلاً على كتاب « دمية القصر وعصرة أهل العصر » للباخرزي (المتوفى سنة ٤٦٧ هـ) ، والباخرزي جعل كتابه بدوره ذيلاً على « يتيمة الدهـر في محاسن أهـل العصر » للثعالبي (المتوفى سنة ٤٢٩ هـ) والثعالبي جعل كتابه ذيلاً على كتاب « البارع في أخبار السعراء المولدين » لهارون بن علي المنجم (المتوفى سنة ٢٨٨ هـ) . أما الذين جاؤوا بعده ، فقد تابعوا هذه السلسلة مـن المؤلفات ، نكتفي بالإشارة إليهـا . ولعل إيمانهم بوحدة التاريخ الأدبي في العـالم الإسلامي كله ، هو الذي حفزهم على هذا التأليف الموسوعي الذي أغنى أدبنا كل الغنـاء .

مهما يكن من أمـر فجدير بالذكر أن العماد تحدث في مقدمة كتـابه عن البواعث التي حثته على تأليفه ، فذكر أن الباعث الأول هو ذكر الشعراء المعاصرين لعمه عز الدين لأنهم « ما فيهم إلا من أم قصده ، وطلب رفده ، ووفد عليه بمدحـه ، واسترفده من منحة » (١) ، كما ذكـر انه اراد بهذا الكتاب إحياء ذكرهم ، إذ إنهم خصوا عمـه بمدح كثيرة مجموعة في مجلدات كثيرة ، نهبها العدو عندما نكبه . غير أنه لم يقتصر على الشعراء الـذين وفدوا على عمـه ، وإنما وجد من واجبه أن يكـون جامعاً لمشرق العـالم الإسلامي ومغربه على السواء . ورأى ضرورة تخليد هذه الفترة الهامة من

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، قسم شعراء العراق ، ج ١ ص ٧ ، ٨ .

التاريخ الإسلامى ، ومما قاله : « لما رأيت الفضل في عصرنا هذا قد ضاع عرفه ، كما أنه ، وإن زان ضعفه فقد زاد ضعفه ، لفساد أمره ، وكساد سعره ، وهبوط نجمه ، وسقوط رسمه ، وحط حظه ، وقلة عناية أهله بحفظه ، آثرت أن آثر من مآثر أهل العصر ما يخلد آثارهم ، ويجدد منارهم » (١) .

ذكر العماد في الخريدة أهل عصره ، وأهل عصر آبائه وأعمامه (٢) ، « من الشعراء الذين كانوا بعد المائة الخامسة » (٣) . وقسمهم بحسب أقاليمهم إلى اربعة أقسام : تحدث في القسم الأول منها عن شعراء العراق وأدبائه ، لأنه « مزكى عرقه ، ومنشأ حفه ، وموطن أهله ، ومجمع شمله » (٤) . وتحدث في القسم الثاني عن شعراء العجم وفارس وخراسان، وفي الثالث تحدث عن شعراء الشام والموصل وجزيرة بني ربيعة وديار بكر وما يجاورها من البلاد ، والحق به شعراء الحجاز وتهامة واليمن ، وفي الرابع تحدث عن شعراء مصر وأعمالها وبلاد المغرب والأندلس ، وابتدأ فيه بذكر مصر لامتزاجه بأهلها ، وابتهاجه بفضلها (٥) .

يلاحظ في هذا التقسيم أن العماد قصر كل قسم على عدة أقاليم إلا الأول فقد قصره على واحد . لم يكن تقسيمه موضوعياً ، لأنه لم يكن صورة عن الحياة السياسية والاجتماعية في هذا العصر .

حكم سلاطين الدول الثلاث المتتابعة مصر والشام ، وكانتا تؤلفان أوثق وحدة فكرية شاملة في تاريخهما القريب والبعيد ، وكان من حقنا على العماد ، وهو الوزير الأول في عهد نور الدين ، وثاني اثنين في عهد صلاح الدين ، أن يجعل تقسيمه للحياة الفكرية صورة صادقة عن الحياة السياسية .

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣ ، ٤ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٧ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ٧٥ .

(٤) العماد الكاتب : الخريدة ، قسم شعراء العراق ، ج ١ ص ٨ .

(٥) العماد الكاتب : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج ١ ص ٢ .

٢ ــ السيل على الذيل : وهو ذيل خريدة القصر السابق ذكره ، اطلع عليه ابن خلكان ، ونفى ما كان معروفاً عنه أنه كان ذيلاً على الذيل لابن السمعاني ، وقد سماه مرة « السيل » (١) ، وثانية « السيل والذيل » (٢)، وثالثة « السيل على الذيل » (٣) .

٣ ــ نصرة الفترة وعصرة القطرة : يدور موضوعه حول تاريخ السلاجقة ووزرائهم ، وهو في الأصل تاريخ فارس لشرف الدين أنوشروان اسمه « فتور زمان الصدور ، وصدور زمان الفتور » (٤) وقصد منه مؤلفه التشفي والانتقام ممن أورد ذكرهم . ترجم العماد هذا الكتاب من اللغة الفارسية ، وأضاف عليه ما وجده ناقصاً من بدء العهد السلجوقي ، واستهله بوزارة عميد الملك أبي نصر الكندري(٥)، ثم وصله بمبتدأ أنوشروان، فتحدث عن السلاجقة حتى دخول السلطان طغرل سنة ٤٤٧ هـ ، وانتقل إلى ذكر من جاء بعده حتى وفاة السلطان أرسلان (٦) .

٤ ــ كيمياء السعادة : ترجم العماد هذا الكتاب خلال وجوده بمصر من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية سنة ٥٧٦ هـ ، وهو من تصنيف الإمام أبي حامد الغزالي ، وذلك لتلبية طلب القاضي الفاضل . يقول العماد : « وفي هذه السنة بمصر عربت كيمياء السعادة ، تصنيف الإمام أبي حامد الغزالي في مجلدين ، وفزت من تعريبه وعلم ما فيه بسعادتين ، وذلك بأمر فاضلي لزمني امتثاله ، وشملني في إتمامه إقباله (٧) .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٥٣ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٧٠ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٧٥ .

(٤) العماد الكاتب : الخريدة ، قسم شعراء العراق ، ج ١ ص ٧٤ .

(٥) زيدان : آداب اللغة العربية ، ج ٣ ص ٢ .

(٦) زيدان : آداب اللغة العربية ، ج ٣ ص ٦٢ .

(٧) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ٢٠ .

٥ ــ الفتح القسي في الفتح القدسي : وهو كتاب هـام ، تحدث فيـه عن انتصارات صلاح الدين ، واستهله بعـام فتح بيت المقدس ، وختمه بوفـاة محرره . بيَّن العماد في مقدمته أهمية الفتح القدسـي في التاريخ الإسلامي ، وذكـر مخالفته للمؤرخين القدامى الذين يتخذون من الهجرة الأولى بدء تاريخهم ، وقال : « وانا ارخت بهجرة ثانية هي هجرة الإسلام إلى بيت المقدس » (١) . ثم أورد بعد ذلك سبب تسميته وذكر أنه عرضه بعد الانتهاء منه على القاضي الفاضل فقال له : « سمه الفتح القسي في الفتح القدسي ، فقد فتح الله عليك فيه بفصاحة قس وبلاغته ، وصاغت صيغة بيانه فيه ما يعجز ذوو القدرة في البيان عن صياغته » (٢) .

٦ ــ البرق الشامي : وهو في سبع مجلدات ، وقد استهله بالتحديث عن حياته ، فذكر نشأته ورحلته من العراق إلى الشام، واتصاله بنور الدين، ثم بصلاح الدين من بعـده ، ومكانته عندهما ، وتعرض لبعض الفتوح في بلاد الشام وأطرافها (٣) . وختمه بقصيده طويلة رثى بها صلاح الدين ، عددها مائتان واثنان وثلاثون بيتاً (٤) .

وصفه ابن خلكان بأنه من الكتب الممتعة ، وذكـر أنه سماه « البرق الشامي لأنه شـبه أوقـاته في تلك الأيام بالبرق الخاطف لطيبها وسـرعة انقضائها » (٥) ، ولا يعرف منه الآن غـير الجزء الخامس ، وهو مخطوط بأكسفورد (٦) .

صنف العماد في أواخر حيـاته كتباً أخرى تصور اضطراب الأمـور بعـد موت صلاح الدين ، نذكـر منهـا كتـابه « عتبى الزمان في عقبى

---

(١) العماد الكاتب : الفتح القدسي ، ص ٥ .
(٢) ياقوت : ارشاد الأريب ، ج ١٩ ص ١٩ .
(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ٢١٥ .
(٤) ابن خلكان : وفيات الاعيـان ، ج ٢ ص ٧٥ .
(٥) بروكلمان : Brock. S. I. P. 549
(٦) أبو شامة : الروضتين ، ج ٣ ص ٢١٤ ، ٢٢٨ .

الحدثان » (١) ، و « نحلة الرحلة وحيلة العطلة » (٢) ، و « خطفة البارق وعطفة الشارق « (٣) ، وله من الآثار الشعرية ديوان كبير في أربع مجلدات كبيرة (٤) ، وقيل في مجلدين (٥) ؛ وهو مفقود الآن . لكن الذي استرعى انتباهنا وجود ديوان صغير آخر ، أشرنا إليه في بحث الفنون الشعرية المستحدثة ، و « جميعه دوبيت » (٦) ، وهو مفقود ، وقد طلب نور الدين منه أن يعمل دوبيتات في معنى الجهاد على لسانه (٧) .

بقي لنا من هذا الديوان ثلاث قطع شعرية في معنى الجهاد أوردها أبو شامة في الجزء الأول من الروضتين ، وقطعة رابعة في رثاء صلاح الدين ، أوردها في جزئه الثاني ، وقد تعرضنا لكل ذلك من قبل بالتفصيل .

يضاف إلى ما تقدم أن العماد جمع رسائله الديوانية التي أنشأها باسم الملوك الأيوبيين في مجموع خاص سماه « رسائل بين الملوك الأيوبيين » (٨) ، وهو مخطوط في مكتبة نور عثمانية ، وفي معهد مخطوطات الجامعة العربية نسخة مصورة عنه .

* * *

(١) ياقوت : ارشاد الأريب ، ج ١٩ ، وأبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ٢٣١ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٢٣ ، وبروكلمان : Brock. S. I. P. 549

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ٧٥ ، والنعيمي : الدارس في تاريخ المدارس، ج ١ ص ٤١١ ، وأبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ٢١٥ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٠ .

(٥) ياقوت : ارشاد الأريب ، ج ١٩ ص ٢٠ .

(٦) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٠٧ ، وياقوت : ارشاد الأريب ، ج ١٩ ص ٢٠ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ٧٥ ، والنعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٤١١ .

(٧) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٠٧ ، و ج ٢ ص ٢١٤ .

(٨) توجد هذه المصورة في معهد مخطوطات الجامعة العربية ،(ميكروفيلم) رقم ٤١٩ أدب .

القسم الثاني

شعره ومذهبه الفني

(١)

فنون نثره

يلاحظ أن نثر العماد الكاتب ينقسم إلى ثلاثة أنواع : النثر الديواني ، والنثر الأدبي ، والتاريخ المسجع .

النثر الديواني

تحدثت عن تهيب العماد الكاتب دخول ديوان الإنشاء ، وبقائه متحيراً فيما ليس من شأنه ولا وظيفته لأنه لم يسبق له به دراية ، ولكنه ما إن بدأ الكتابة حتى فتح الله له أمامه سبلها ، ففاق المتقدمين .

أورد العماد الكاتب كثيراً من رسائله الديوانية في مختلف تصانيفه التي وصفها وبخاصة التآليف التاريخية .

نذكر من ذلك بعض ما جاء في رسالته التي كتبها إلى الديوان العزيز في بغداد للبشارة بفتح بيت المقدس وبعث بها مع الرسول ضياء الدين الشهروزي :

« وقد رجع الإسلام الغريب منه إلى داره ، وخرج قمر الهدى به من سراره ، وذهبت ظلم الضلالة بأنواره ، وعادت الأرض المقدسة إلى ما كانت موصوفة به من التقديس ، وأمنت المخاوف فيها وبها ، فصارت صباح السرى ومناخ التعريس ، وفد أقصي عن المسجد الأقصى الأقصون من الله الأبعدون ، وتوافد إليه المصطفون الأقربون والملائكة المقربون ، وخرس الناقوس بزجل المسبحين ، وخرج المفسدون بدخول المصلحين ، وقال

المحراب لأهله : مرحباً وأهلاً ، وشمل جماعة المسلمين من إقامة الجمعة والجماعة ، جمع الإسلام فيه شملاً ورفعت الأعلام العباسية على منبره ، فأخذت من بره أوفى نصيب ، وتليت بالسنة عذبها : نصر من الله وفتح قريب ، وغسلت الصخرة المباركة بدموع المتقين دنس المشركين ، وبعد أهل الأحد من قربها بقرب الموحدين » (١) .

لن نتحدث عن أساليب الرسائل الديوانية ، فلها مكانها من هذا البحث، ونكتفي بالقول هنا إنها كانت ذات نمط موحد تقليدي ، يتقيد به كتاب الدواوين والموقعون .

النثر الأدبي

أوردنا في بحثنا نصوصاً مختارة كثيرة من تراجم الخريدة ، وقد أنشأها العماد بأسلوب واحد متشابه ، واستخدم في بعضها التعابير نفسها . كما لفظت نظرنا شدة تصنعه في نثره الأدبي فنراه يتكلف مختلف انواع السجع والجناس والطباق وغيرها ، وسوف نوضح ذلك بالتفصيل لدى دراسة مذهبه الفني .

التاريخ المسجع

أوردنا أيضاً نماذج مختارة في وصف كثير من الأحداث الكبرى ، وقد لاحظنا أن العماد استخدم أسلوبه المسجع في مصنفاته التاريخية بشكل يلفت النظر ، كما في كتابيه « الفتح القدسي » و « البرق الشامي » ، وغايته من ذلك وصف الحوادث المعاصرة بأسلوب أدبي مسجع ، كيما تجتمع للقارىء متعتان بآن واحد : متعة معرفة الأحداث الكبرى المعاصرة ، ومتعة الاطلاع على براعته الفائقة في تصنع الأسلوب المسجع . عبر العماد عن هذه الحقيقة بقوله في مقدمة الفتح القدسي : « هذا كتاب أسهمت فيه بين الأدباء الذين يتطلعون إلى الفرر المتجلبة ، وبين المستخبرين الذين يستشرفون إلى

---

(١) العماد الكاتب : الفتح القدسي ، ص٥٨ ، ٥٩ .

السير المتحلية ، يأخذ الفريقان منه على قدر القرائح والعقول ، ويكون حظ المستخبر أن يسمع والأديب أن يقول ، فإن من الألفاظ ما صار معدناً من معادن الجواهر التي نولدها ، ومن غرائب الوقائع ما صار به لساناً من السنة العجائب التي نوردها » (١) .

أما المستخبرون الذين يستشرفون إلى السير المتحلية ، فلم يعجبوا بصنيع العماد ، وقد عبر أبو شامة عن ذلك . وذكر لنا « أن العماد في كتابيه طول النفس في السجع والوصف . يمل الناظر فيه ، ويذهل طالب معرفة الوقائع عما سبق من القول وينسيه ، فحذفت تلك الأسجاع إلا قليلا منها ؛ استحسنتها في مواضعها . ولم تك خارجة عن الغرض المقصود من التعريف بالحوادث والوقائع ، وانتزعت المقصود من تلك الرسائل الطوال ، والأسجاع المفضية إلى الملال ، وأدت أن يفهم الكلام الخاص والعام » (٢) .

نذكر مثلاً أن العماد أنشأ فصولاً متعددة في الأسطول المصري حين مجيئه من مصر ، وكانت عدته خمسين شينياً ، وقد وصفه في أحد فصوله بقوله : « ولما رأينا أمدادهم في البحر متضاعفة ، وجموعهم متكاثفة ، استدعينا الأسطول المصري المنصور ، فجاءها فجاءة ، وامتد أسطراً على طرس البحر أعيت متأملها قراءة ، وأقبلت جواريه جوارح من قنائصها القوامص ، وصدمت شوانيه شواني الشناة ، فعادت مراكبهم وهي نواكص، وطارت غرباناً بين أحبة الكفر أعداء الإسلام ناعبة ، واطردت على طرائد الفرنج فطردتها غالبة لا لاغبة ، وظفرت أول يوم الورود بسفن للعدو معمرة، والهبت في الماء على أهل النار كل نار للنكال مسعرة ، وانقطعت طرق الفرنج البحرية ، فاستطالت بها أساطيلنا فذهبت وجاءت وعملت ما شاءت ،

---

(١) العماد الكاتب : الفتح القدسي ، ص ٣ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٥ .

وتبعتهم مراراً وبالغنائم فاءت ، واعشت أعين الرائين كلما تراءت ، فضاقت بها العداة ذرعاً ، ولم تجد من بعدها مطمعاً ولا مرعى » (١) .

نكتفي بهذا القدر من عرض فنونه النثرية الثلاثة ، وسوف نوضح ما أوجزناه ، وما أشرنا إليه في بحثنا عن مذهبه الفني واتجاهه الأدبي .

(٢)

مذهبه الفني

اهتم العماد بالتصنع في معظم فنونه النثرية ، وعني بأسلوبه كل العناية كما هو معروف في هذا العصر ، وكنا قد ذكرنا أنه ثقف علومه الأولى ببغداد في مدرستيها المشهورتين ، النظامية والثقتية ، وثقف أصول مذهب التصنع عن كبار أساتذته الذين تتلمذ عليهم . ومعروف عنه منذ صباه ولوعه بفن المقامات ، وبخاصة منها مقامات الحريري ، فقد ذكر عنه أنه لقي ابنه زين الإسلام بالمشان ، وسمع « عليه من مقامات والده أربعين مقامة » (٢) .

وكان معجباً كثيراً بالقاضي الفاضل ، يجله ويفضله ، لأنه الذي أفسح له السبيل من جديد بعد موت مولاه نور الدين ، واظهر من الحدب عليه ما بعده مزيد ، فلا غرابة إن رأيناه يسهم مع مولاه في التقيد بالتصنع مثله ، ويسير بالمذهب الفاضلي خطوات جديدة إلى الأمام ومما قاله عنه : « فهو كالشريعة المحمدية التي نسخت بها الصنائع ، يخترع الأفكار ، ويفترع الأبكار ، ويطلع الأنوار ، ويبدع الأزهار (٣) » .

تلك هي نظرة العماد إلى القاضي الفاضل الذي جعل لهذا المذهب مدرسة خاصة في البيان ، وكان فيها التلميذ النجيب الذي اختاره لأنه رآه أنجب من يأتمنه على متابعة السير بالأسلوب العربي في الطريق التي

---

(١) العماد الكاتب : الفتح القدسي ، ص ١٨١ ، ١٨٢ .
(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، قسم شعراء العراق ، ج ١ ص ٢٨ .
(٣) العماد الكاتب : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج ١ ص ٣٦ .

مهدها له من قبل . وصف العماد بكل وضوح مذهبه في التصنع الأسلوبي في معرض حديثه عن رسالة بعث بها إلى القاضي الفاضل شكره فيها على إهدائه له تسع مجلدات من اشعار أهل المغرب ، ومما قاله : « وأنا مورد رسالة جامعة مانعة ناصعة ، قد وفيتها حقها من التجنيس ، والتطبيق والترصيع ، والمقابلة ، والموازنة ، والتوشيع » (١) .

يلاحظ في قوله إشارته إلى الوان التصنع البديعي التي اخذ بها العماد نفسه في أدبه ، شعره ونثره ، وكل ما ذكره إنما هو بعض الألوان البديعه المعروفة التي كثر استخدامها في هـذا العصر البديعي . ولو طالعنا كتاب الخريدة أو غيره لرأيناه يستخدم الفنون المذكورة، وبخاصة الجناس والطباق في اسلوبه المسجع .

تحـدث السبكي في طبقاته عن تكلفـه الجناس والطبـاق وغيرهما في خريدته فقال : « ولقد فتح سمعي فواتح ابواب الخريدة ، لما يكثر فيهـا من الجناس، ورد العجز على الصدر ، ولكن قد يقع له الجناس المطبوع »(٢).

لاحظ الأقدمون التكلف الذي ظهـر في أسلوبه ، وقد تحدث الصفدي عـن هـذا الأمر ، وذكـر انه كان يتضايق من الوزن الشعري في نظـم القصائد (٣) ، لأنه يحول بينه وبين مبتغاه من الجناس بصورة خـاصة . وجـدير بالذكر هنـا انه كانت لشعره اهمية كبرى بالإضافة إلى نثره ، فقصيدته في فتح بيت المقدس تعـد من روائع الشعر العـربي ، كذلك مرثيته لصلاح الدين ، وعـدد أبياتها اثنان وثلاثون بعد المائتين ، وقـد سجل انتصارات صلاح الدين ، والغريب أنه كان يكثر في نثره من الجناس بخلاف الشعر .

ثمـة مظهر آخـر من مظاهر التصنع في الأساليب ، وهو ما يسميه البلاغيون « ما لا يستحيل بالانعكاس » . فمن ذلك ما ذكر عن العماد أنـه

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٤ .

(٢) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٤ ص ٩٨ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٤ ص ٩٨ .

قال ذات مرة للقاضي الفاضل ، وهو راكب على فرسه : « سر فلا كبا بك الفرس » ، فأجابه : « دام علا العماد » (١) ، وهذا الأسلوب عرف في هذا العصر وهو كما نرى ، يقرأ طرداً وعكساً .

نخلص مما تقدم معنا إلى القول إن العماد لم يكن نائب القاضي الفاضل في بلاد الشام فحسب ، وإنما كان أحد أقطاب المدرسة البيانية الفاضلية وكان من انصارها المتشددين . وهذا يؤكد بمنتهى الوضوح أن هذا العصر شهد وحدة أدبية كانت مرآة صادقة تعكس الوحدة السياسية القائمة،ودليل ذلك أن العماد ألح إلى ذلك في إحدى رسائله « فالخادم عراقي المنشأ والمربى، مصري المنحى والملجأ ، ناصريّ العلاء ، فاضليّ الولاء » (٢) .

يلاحظ أن العماد يعبر عن الوحدة الأسلوبية في هذا العصر ، ويؤكد بالتالي أن الأقاليم الجغرافية في العالم العربي لم تحل أبداً دون وحدة أدبية ، ودون وجود مذهب بياني خاص ، هو نفسه في دمشق ، وفي القاهرة ، وفي بغداد ، وفي غيرها من العالم العربي والإسلامي .

ونحن لن نأتي بجديد إن قلنا إن العماد الكاتب كان ركناً اساسياً في مدرسة القاضي الفاضل ، وإنهما يمثلان معاً الوحدة الفكرية والتصنع الأسلوبي في أدب هذا العصر، وكلاهما كان معجباً بصاحبه يتباريان في مضمار الإنشاء الديواني ، ويتعاونان في وضع أسس مذهب أدبي امتد اثره إلى زمن بعيد جداً في أساليبنا النثرية في المشرق والمغرب على السواء .

* * *

---

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٧٥ .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج ١ ص ٥٢ .

ابن الأثير الكاتب

(٥٥٨ – ٦٣٧ هـ = ١١٦٣ – ١٢٣٩ م)

القسم الأول

حياته وآثاره

(١)
مراحل حياته

ولد الوزير الصاحب ابو الفتح ، ضياء الدين ، نصر الدين ، نصر الله بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد النسيباني ، الحراني (١) ، المعروف بابن الأثير الكاتب ، يوم الخميس العشرين من شعبان ، سنة ٥٥٨ هـ في جزيرة ابن عمر (٢) ، الواقعة أقصى الشمال الشرقي من بلاد الشام .

وهو أصغر أبناء الأثير الثلاثة بعد المبارك وعلي ، قضى طفولته الأولى في هذه الجزيرة ، وتحول عنها مع أبيه وإخوته (٣) ، فانتقل إلى الموصل ، ونشأ فيها ، وتلقى علومه الأولى ، فحفظ القرآن الكريم ، وروى الأحاديث

(١) المقريزي : السلوك ، ج ١ ق ١ ص ١١٥ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ، ص ١٦١ ، وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٣١٨ ، وابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص ١٣٦ ، والذهبي : سير النبلاء ، (مصورة) ج ١٣ ل ٢٣٧ ، ومقدمة المثل السائر ، ج ١ ص ٣ – ٣٢ .

(٢) بلدة فوق الموصل ؛ لها رساق مخصب واسع الخيرات ، شبه الهلال ، ثم عُمل هناك خندق ، أجري فيه الماء فأحاط بها الماء من جميع نواحيها (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ص ١٣٨) .

(٣) الذهبي : سير النبلاء (مصورة) ج ١٣ ل ٢٣٧

النبوية الشريفة ، وقد اشار إلى ذلك بقوله : « وكنت جردت من الأخبار النبوية كتاباً يشتمل على ثلاثة آلاف خبر ، كلهـا تدخل في الاستعمال ، وما زلت أواظب على مطالعته مدة تزيد على عشر سنين ، فكنت انهي مطالعته في كل أسبوع مرة ، حتى دار على ناظري وخاطري ما يزيد على خمسمائة مرة ، وصار محفوظاً لا يشذ عني منه شيء (١) » . كما نال حظاً وافياً من اللغـة والنحو والبيان ، وحفظ كثيراً من دواوين الشعر ، يؤكد ذلك قوله « ولقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع ، وانفدت شطراً من العمر في المحفوظ منه والمسموع ، فألفيته بحراً لا يوقف على ساحله ،وكيف ينتهي الى إحصاء قول لم تحص أسماء قائله ، فعند ذلك اقتصرت منه على ما تكثر فوائده ، وتتشعب مقاصده » (٢) .

ويبدو أن ابن الأثير رأى ان يختار عـدداً محدوداً من الشعراء ممن يعجب بهم فيحفظ دواوينهم ، وذكر أنه عـدل إلى هـذه الطريقة نظـراً واجتهاداً ، وقد وضح لنا كل ذلك في كتابه الوشي المرقوم : « وكنت حفظت من الأشعار القديمة والمحدثة ما لا أحصيه كثرة ، ثم اقتصرت بعد ذلك على شعر الطائيين : حبيب بن أوس وأبي عبادة البحتري ، وشعر ابي الطيب المتنبي ، فحفظت هذه الدواوين الثلاثة، وكنت اكرر عليها بالدرس مدة سنين حتى تمكنت من صوغ المعاني ، وصار لي الإدمان خلقاً وطبعاً » (٣) .

استكمل ابن الأثير ثقافته الأدبية في وقت مبكر ، وعكف على الاستزادة من المعارف بعد ذلك ، لكنه لم يرتحل إلى مكان آخر ليلقى غير الذين عرفهم من علماء الموصل ، ولا نعرف عنه أنه ولي عملاً هناك بعد بلوغه العشرين من عمره ، ويظهر أن والده كان في بسطة من العيش واليسار أفسحا أمامه إتمام تحصيله وإغناء ثقافته قبل أن يتحمل وحده أعبـاء الحياة .

---

(١) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ١٢٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٦٨ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ١٥٨ .

ذكــر الذهبي أنه « كان بينه وبين أخيه عــز الدين مقاطعة ومجانبة شـديدة » (١) ، فترك الموصل في شهر ربيع الأول سـنة ٥٨٧ هـ (٢) ، وقصد بلاد الشـام ليلتحق بخدمة الناصر صلاح الدين ، وتم له ما أراد على يــد الفاضل الذي نوه بذكره في حضرته ، فوافق على طلبه ، والحقه بخدمـه في شهر جمادى الآخرة من العام نفسه .

توثقت عرا الصداقة بين المــلك الأفضل نور الدين علي ، أكبر أبنــاء صلاح الدين ، وهو المشار إليه في أيام أبيه ومن بعده (٣) ، وابن الأثير ، ويبدو أنه كان يهدف من وراء هذه الصداقة إلى أمــر بعيد ، إذ إنه كان يطمح إلى الوصول للوزارة والرئاسة ، فهو عارف أن الأمر صائر حتماً إلى مولاه عاجلاً أو آجــلاً . وذلك حينما يخلف أباه في الملك . ولم يمض على وجوده في خدمته غير خمسة أشهر فقط حتى راينا الأفضل يطلب إلى أبيه أن يلحقه بخدمته لحاجته إليــه ، فاستشاره في أمره ، وخيّره بين الإقامة عنــده أو اللحاق بابنه ، على أن يبقي عليه المعلوم المقرر له . لكنه سرعان ما فضل الانتقال إلى خدمة ابنه ، فالتحق به في شوال من العام نفسه ، وأصبح وزيراً له ، ولما يمض بعد عام واحــد على خروجه من الموصل ، وتحقق بسرعة ما كان ينتظره ، فتوفي صلاح الدين وصار ابنه « السلطان الأكبر » (٤) ، واستقل بملك دمشق ، واشتغل بلهوه (٥) . آلت الأمــور كلها إلى وزيره ضياء الدين ، فاستقل بالوزارة ، وأصبح بيده الأمر والنهي ، وصار الاعتماد عليــه في تصريف شؤون المملكة كلهــا . استبد ابن الأثير بالحكم بعــد أن لزم مولاه الأفضل الزهد بعــد اللهو (٦) ، وأقبــل على

(١) الذهبي : سير النبلاء (مصورة) ج ١٣ ل ٢٣٧ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ١٥٨ .
(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ١٢٠ .
(٤) المصدر السابق ، ج ٦ ص ١٢٠ .
(٥) المصدر السابق ، ج ٦ ص ١٢٠ .
(٦) المقريزي : السلوك ، ج ١ ق ١ ص ١٢٩ .

العبادة ، واصبح وزيره الآمر الناهي ، فاختلت أحواله غاية الاختلال ، وكثر شاكوه من المتظلمين (١) .

وفي ابن الأثير الكاتب يقول الشهاب فتيان الشاغوري :

متى أرى وزيركم ومـالـه مـن وزر ؟
يقلعـه الله فـذا أوان قلـع الجـزر !

هكذا يسهم وزيره في ضياع ملكه بسوء سياسته ، فأساء معاملة الناس وحسن له طرد أمراء أبيه وأكابر أصحابه ، وأشار عليه أن يستجد أمراء غيرهم ، فنفروا منه ، وفارقه جماعة من كبارهم ، منهم فخر الدين جهاركس ، وفارس الدين ميمون القصري ، وشمس الدين سنقر الكبير ، والتحقوا بخدمة أخيه العزيز ملك مصر (٢) . فرحب بقدومهم وأكرمهم غاية الإكرام تأليفاً لهم وتقريباً .

لم يرض القاضي الفاضل وهو في دمشق ، عن سيرة الأفضل ، وساءته سيرة وزيره وآلمته المعاملة التي يلقاها كبار الأمراء الصلاحية ، وهم الذين شيدوا دعائم الدولة الأيوبية ، فغادر دمشق أيضاً مثلهم وقصد القاهرة ، فخرج العزيز إلى لقائه ، وأجل قدومه وأكرمه (٣) .

بدأت الوحشة بين الأخوين سنة ٥٩٠ هـ ، « وأخذ الأمراء بالإغراء بينهما ، وحسنوا للعزيز الاستبداد بالملك ، والقيام مقام أخيه ، فبلغ ذلك الأفضل » (٤) .

اجتمعت الأمراء الصلاحية ، وأجمعت أمرها على أن يكون الأمر كله للعزيز فاضطربت أحوال الأفضل كثيراً ، ويبدو أنه « همّ بمراسلة اخيه واستعطافه ، فمنعه من ذلك وزيره وعدّة من أصحابه ، وحسنوا له محاربته ، فمال إليهم » (٥) .

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ق ١ ص ١٢٤ .
(٢) المصدر السابق ، ح ١ ق ١ ص ١١٥ .
(٣) المصدر السابق ، ج ١ ق ١ ص ١١٥ .
(٤) المصدر السابق ، ج ١ ق ١ ص ١١٦ .
(٥) المصدر السابق ، ج ١ ق ١ ص ١١٦ .

خرج من القاهرة الملك العزيز يريد الشام لينتزعها من أخيه الأفضل ، فهاجمه سنة ٥٩٢ هـ ، واتفق مع عمه الملك العادل على الاستيلاء على دمشق لتكون له ، وتكون الخطبة والدعاية للعزيز ، ثم لهما ما أراداه ، فاستوليا عليها . وتركا له صرخد ، فارتحل عن دمشق وانتقل إليها . أما وزيره ابن الأثير فقد همّ أعداؤه بقتله لإساءته معاملتهم . لكن حاجبه محاسن بن عجم ، أخرجه مستخفياً في صندوق مقفل عليه [1] . فنجا بروحه من غضبة الناس .

استدعي الأفضل إلى مصر فيما بعد ليلي نيابةابن أخيه الملك المنصور ، فطلب وزيره ابن الأثير ، فلما صار إليه صحبه إلى مصر ، وبقي في خدمته حتى جاء الملك العادل ، فأخرج الأفضل من مصر ، وعوضه بالدبار المشرقية سنة ٥٩٦ هـ ، بيد أن ابن الأثير لم يخرج صحبته ، لأنه خشي على حياته أيضاً من جماعة كانوا يقصدونه ، فخرج متستراً ، وله في خروجه مستخفياً رسالة مسهبة ، شرح فيها حاله ، وهي موجودة في ديوان رسائله . تخلف ابن الأثير عن ملكه مدة من الزمن حتى تمكن من الوصول إليه سالماً بعد استقراره في سميساط ، فرجع إلى خدمته ، ويظهر أنه اختلف معه في بعض شأنه ، ففارقه سنة ٦٠٧ هـ ، وكان هذا الفراق آخر عهده به .

اتصل ابن الأثير بالظاهر غازي ملك حلب ، لكنه لم يجد في خدمته ما يرغبه في البقاء عنده طويلاً ، إذ اختلف معه أيضاً ، واضطرب أمره وخرج مغاضباً ، وقرر العودة إلى الموصل ، فانتقل إلى إربل أولاً ، ثم إلى سنجار ، وفضل أخيرا الإقامة في الموصل نهائيا سنة ٦١٨ هـ [2] ، ليكتب الانشاء فيها لصاحبها ناصر الدين محمود بن مسعود بن أرسلان شاه ، والأتابك يومئذ الأمير بدر الدين أبو الفضائل لؤلؤ . ذكر ابن الفوطي أنه « ورد إلى بغداد مراراً في رسائل من بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل » [3] ، وأشار إلى أنه ورد عام وفاته رسولاً من قبله ، فمرض في بغداد ، وتوفي

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ١٦٨ .
(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٥٨ .
(٣) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص ١٣٦ .

يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ٦٣٧ هـ (١) ، وصلي عليه من الغد بجامع القصر ، ودفن بمقابر قريش في الجانب الغربي ، في صحن مشهد موسى بن جعفر (٢) .

(٢)

آثاره الأدبية

خلف ابن الأثير تصانيف أدبية هامة ، على الرغم من اشتغاله في أمور الوزارة ، ومما أصابه في حياته من عدم الاستقرار في بعض فتراتها ، وقد تحدث عن رسائله ومكاتباته ، وذكر أنها تقع في عدة مجلدات (٣) .

أهم تصانيفه كتابه « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر » ، وهو في مجلدين « جمع فيه فأوعى ، ولم يترك شيئاً يتعلق بفن الكتابة إلا ذكره » (٤) . وجدير بالذكر أن ابن الأثير لم يتعبد آراء من سبقه ، وإنما اختط لها طريقاً جديدة ، فأبدى آراءه فيها بكل صراحة وجرأة ، وتصدى لمن سبقه أو عاصره ، فبيَّن مثالبهم . وحاول أن يضع للنثر أسلوباً جديداً ، يعتمد في أصوله على كل ما يبعد الكتاب عن التقليد الأعمى ، ويخفف من غلوائهم في التصنع والتكلف .

يظهر أن اطلاعه على الأساليب النثرية في غير اللغة العربية ، قد أفسح أمامه هذا المجال الهام ، ويؤكد لنا ذلك اطلاعه على اللغة السريانية والفارسية واليونانية . يقول : « واعلم أن هذين القسمين من الكتابة قد وردا في غير اللغة العربية ، ووجدتهما كثيراً في اللغة السريانية فإن الإنجيل

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ١٦١ ، وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٣١٨ ، وابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص ١٣٦ .
(٢) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص ١٣٦ .
(٣) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ٢ ص ٣١١ .
(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ١٥٩ .

الذي في أيدي النصارى ، قد أتى منهما بالكثير . ومما وجدته في لغة الفرس (١) » .

أحدث هذا الكتاب ثورة أدبية كبرى بين طبقة المتقفين ، وأثار نقاشاً أدبياً حاداً بين المؤيدين الذين تعصبوا له ، والمعارضين الذين هاجموه هجوماً عنيفاً ، أعجب به في بادىء الأمر أدباء الموصل ، وفضلوه على أكثر الكتب المصنفة في هذا الفن ، وأوصلوا نسخاً منه معدودة إلى بغداد ، وأشاعوه بين طبقاتها المثقفة ، وتداوله كثير من أهلها سنة ٥٣٣ هـ .

ولم يرض الكتاب في بغداد عن انتشار هذا الكتاب في حاضره الخلافة العباسية ، فتنقصوه وأظهروا مثالبه ليثنوا الناس عن الاشتغال به ، والتهافت على نسخه والاستفادة منه . ويظهر أن الوزير مؤيد الدين العلقمي انتدب صديقه عز الدين بن أبي الحديد ليتصدى لمؤاخذته والرد عليه ، فقرأه ، ونقده في خمسة عشر يوماً ، وهو مشغول في أعماله الديوانية ، وجمع ما فيه من مؤاخذات في كتاب سماه « الفلك الدائر على المثل السائر »(٢) . ولما فرغ منه قدمه وتقرب به إلى الخزانة الإمامية المستنصرية .

تناول نقد هذا الكتاب والتعلبق عليه كتاب آخرون في هذا العصر والعصر الذي يليه ، منهم الركن السنجاري (المتوفى سنة ٦٤٠ هـ) ، والصلاح الصفدي (المتوفى سنة ٧٦٤) وغيرهما .

ومن تصانيفه « الوشي المرقوم في حل المنظوم » (٣) ومما قاله في مقدمته « ولما ألفت كتاب المثل السائر قصرت فصلاً منه على ذكر هذه الطريقة ، وأتيت فيها بالمعاني الجليلة التي تفتقر إلى الفهم الدقيق » (٤) .

---

(١) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٢١٥ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ١٥٩ .
(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٥٩ .
(٤) ابن الأثير : الوشي المرقوم ، ص ١ .

ومنها « ديوان الترسل » (١) ، وهو في عدة مجلدات (٢) ، و « المختار من ديوان الترسل » (٣) وهو في مجلد واحد (٤) . و « المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء (٥) ، و « الجامع الكبير في صناعة المنظوم والمنثور » (٦) ، وهو مخطوط ، و « البرهان في علم البيان » (٧) ، وهو مخطوط أيضاً ، كما يضاف إلى ما ذكر مجموع اختار فيه من شعر أبي تمام والبحتري وديك الجن ، وهو في مجلد واحد كبير (٨) .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ١٥٩ .

(٢) يوجد الجزء الثاني من هذا الديوان في الجامعة الاميركية ببيروت ، وقد كتب سنة ٦٥٦ هـ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ح ٢ ص ١٥٩ .

(٤) يوجد مخطوطة هذا الكتاب من رسائله في مكتبة أحمد الثالث باستنبول ، كتبت سنة ٦٥٥ هـ وفي معهد المخطوطات العربية نسخة مصورة (ميكرو فيلم) ، وقد قام أخيراً الدكتور أنيس المقدسي ، فحررها وحققها ونشرها .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ١٥٩ .

(٦) الزركلي : الأعلام ، ج ٨ ص ٣٥٤ .

(٧) المصدر السابق ، ج ٨ ص ٣٥٤ .

(٨) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ١٥٩ .

القسم الثاني

نثره ومذهبه الفني

(١)

فنون نثره

لا شك أن ابن الأثير كان يحمل في عصره راية التجديد في النثر الفنى ، ولقد أحدث ثورة أدبية كبرى بكتابة المثل السائر ، إذ إننا لا نجد كتابا نظيره ، أحدث مثل هذه الضجة في الأوساط الأدبية والديوانية في الشام ومصر والعراق .

خالف الأساليب المتبعة التي عرفها الناس في مدرسة التصنع النثرية ، وهاجم روادها الكبار أمثال الحصكفي والقاضي الفاضل والعماد الكاتب وغيرهم .

يلاحظ أن فنون نثره متعددة ، وأبرزها نثره الديواني ، ونثره الذاتي والإخواني ، ونثره التأليفي . أما نثره الديواني فيضم مكاتباته الرسمية ، وتقاليده الكثيرة ، كما في التقليد الذي أنشأه لخطابة المسجد الجامع (١) ، والتقليد الذي أنشأه لنقب الأشراف العلويين (٢) ، والتقليد الذي أنشاه لمنصب الحسبة (٣) ، وتوقيعاته الديوانية (٤) ، كما في التوقيع الذي كتبه عن الملك العادل نور الدين أرسلان شاه لأولاد بعض أصحابه لإبقاء ما كان له من الإقطاع ، وتوقيعات أخرى مختلفة (٥) .

---

(١) رسائل ابن الأثير ، ص ١٢٤ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٢ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٣٩ .
(٤) المصدر السابق ، ص ١٢٨ .
(٥) المصدر السابق ، ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

أما نثره الذاتي فيضم كتبه الإخوانية الكثيرة ، ورسائله الذاتية التي أنشأها في مناسبات خاصة اعترضته في حياته كالتهنئة بشعبان ، ورمضان، وعيد الفطر ، وعيد الأضحى ، وأعياد النوروز والمهرجان وغيرها (١) . وكان يحاول في بعض الأحيان أن يعرب فيها عما يجول في خاطره من معان غريبة أو مولدة ، وأوصاف مبتكرة أو مأخوذة ، نشير من ذلك إلى رسالة له في صيد السمك (٢) ، ورسالة في صيد الفهود (٣) ، ورسالة في الصيد بالفهود والبزاة (٤) ، ورسالة في صيد الشواهين (٥) ، ونشير منها أيضاً إلى كتابين ، بعث بهما عاشق إلى معشوق (٦) ، ورسالة في وصف مجلس شراب في زمن الربيع (٧) ، ورسالتين تضمنتا وصف شمعة (٨) ، وغير ذلك كثير .

وأما نثره التأليفي فقد قصره على كتابه حسن التوسل ، وأرسل أسلوبه على سجيته دون تكلف أو تصنع إلا ما ندر ، كما سنرى تفصيل ذلك في حديثنا عن مذهبه الفني واتجاهه الأدبي الجديد .

(٢)

مذهبه الفني

عبر ابن الأثير عن مقاصده الخاصة والعامة في مختلف فنونه النثرية باستخدامه أسلوبين : الأسلوب المسجع ، والأسلوب المطلق .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٨٠ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٩ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٩٥ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٩٧ .
(٤) المصدر السابق ، ص ١٠٠ .
(٥) المصدر السابق ، ص ١٠٦ .
(٦) المصدر السابق ، ص ٢١٩ ، ٢٢١ .
(٧) المصدر السابق ، ص ٧٢ .
(٨) المصدر السابق ، ص ٩١ ، ٩٢ .

ألنثر المسجع

أستخدم الأسلوب المسجع في نثره الديواني وكتبه الأخوانية ، إذ إنه كان رئيس الكتاب والوزير الصاحب ، وهو المفوض في إنشاء الرسائل إلى العمال والنواب والملوك والسلاطين والخلفاء ، وكان يتعمد إتقانها ، وبخاصة الكتب التي يبعث بها إلى الديوان العزيز في بغداد لينحدى بها المنشئين من كتاب الخليفة . ولم يكتف بتحديهم، وإنما عارض وتحدى القاضي الفاضل نفسه ، إذ كانت بينهما مكاتبات ومجاوبات ، ويظهر أن العلاقة بينهما كانت بادىء الأمر علاقة حب ومودة ، فنحن نعثر على ثلاث رسائل بعث بها إلى القاضي المذكور : الأولى كتبها في التعزية بأخت القاضي الفاضل (١) ، والثانية كتبها جواباً على كتاب ورد منه (٢) ، والثالثة كتبها جواباً على رسالة وردت منه يسأله فيها أن يرسل إليه شيئاً من مكاتباته (٣) ، وهي بشكل عام تصور لنا وجهاً من وجوه العلاقة بين الكاتبين الكبيرين . أما الوجه الآخر من وجوه العلاقة بينهما فيتجلى لنا في المنافسة الأدبية التي ظهرت بينهما فيما بعد ، وقد لمحناها في الكتاب الذي بعث به إلى معين الدين بن سكينة شيخ الشيوخ ببغداد جواباً على كتاب ، كان المذكور قد أرسله إليه وضمنه ضرباً من الوصف والمدح والإطراء ، وقال لابن الأثير فيه : إنك في الكتابة كفلان الكاتب يعني به القاضي الفاضل . ويظهر أن هذا التشبيه لم يكن ليرضي غروره ، فعرّض بذلك في الجواب قائلاً : « أما تشبيهه إياي بفلان الكاتب ، فرب كلمة لصاحبها : دعني ، ولقد وضعني بقوله هذا ، وهو يرى أنه رفعني . لكن بغفر له ذلك لسلامة قصده ، ويحمل على أنه اشتبه الذهب والنحاس على نقده ، وما أراد إلا أن يبلغ بفضيلتي فوق طوقها ، فلم يبلغ بها طوقها ، وقد تأسيت في هذا المقام بضرب الله مثلاً

---

(١) رسائل ابن الأثير ، ص ١٩٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٣٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٢٧ .

ما بعوضة فما فوقها . ولو انصفنى لقال : إن الحى خـير من الميت ، وفرق بين خاطر يضيء زيته ، وخاطر يضيء بلا زيت ، في طلعة البدر ما يغنبك عن زحـل . وإن قبل : إن الأول أفضـل من الاواخر فإن الأواحر هاهنا أفضل من الأول . وقـد علم أن ذلك الرجـل رزق دولة سيفها أفصح من كتابه ، وخطبها أعظـم أن بفتقر إلى تزوبر خطـابه ، فكان بقول عنها بعض ما برى ، ولا فضـل للقلم إذا جرى بحكاية ما جرى . فتفضل بامولاي ، وأعطني دولة كتلك حتى أخطب عنها خطابة تكسوها فوق مجدها مجداً ، وتكره ألسنة الأعداء أن تنطلق لها حمدا ، وتتمثل على وجهها غرة وفي جيدها عقـداً . ولو نظرت إلى كلمي حـق النظر لعلمت أني لم أترك لأحـد من الفصحاء بقية ، وإن جيء إليك بكلم غيري فألقها وقل : والله لقد جاءكم بهـا بيضاء نقيـة » (١) .

أقر ابن الأثير بذلك في معرض آخر من رسائله فقال : « وعرض عـلى كتاب كتبه عبد الرحيم بن علي البيساني عن الملك صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى ديوان الخلافة ببغداد ، وضمنه ما أبلاه في خدمة الدولة مـن فتح الديار المصرية ومحو الدولة العلوية وإقامة الدعـوه العباسية ، وشرح ما قاساه في الفتح من الأهوال . ولما تاملته وجدته كتاباً حسنا ، قد وفى الخطابة حقها ، إلا أنه أخل بشيء واحد ، وهو أن مصر لم تفتح إلا بعد أن قصدت من الشام ثلاث مرات ، وكان الفتح في المرة الثالثة . وسألني بعض الأخوان في ذلك كتابا إلى ديوان الخلافة معارضاً للكتاب الذي أنشأه عبـد الرحيم ، فأجبته إلى سؤله ، وعددت مساعى صلاح الدين » (٢) .

قال الذهبي : « وله يد طولى في الترسل ، كان يجاري القاضي الفاضل ويعارضه ، وبينهمامكاتبات ومجاوبات » (٣) .

---

(١) رسائل ابن الأثر ، ص ٣١٢ ، ٣١٣ .
(٢) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٢٥ ، ٢٦ .
(٣) الذهبي : سير النبلاء (مصوره) ج ١٣ ل ٢٢٧ .

لم يكتف بمعارضة القاضي الفاضل وإنما اخذ بمعارضة مشاهير كتاب الديوان العزيز ببغداد وغيرهم ، وهو إنما بهدف إلى إيجاد نظرية جديدة في السجع العربي ، فهو يؤكد لنا أولاً السجع غير منهي عنه شرعاً (١) ، وإنما المنهي عنه هو الحكم المنبوع في قول الكاهن سطيح ، ويطلب منا الاعتدال منه في مقاطع الكلام ، وأن يتوخى فيه معرفة سره ، وهذا الذي بنى عليه صرح نظريته الجديدة في البيان العربي ، بقول مخاطباً القارىء : اعلم أن للسجع سراً ، هو خلاصته المطلوبة . فان عري الكلام المسجوع منه ، فلا يعتد به أصلا . وهذا شيء لم ينبه عليه أحد غيري ، وسأبيّنه هاهنا ، وأقول فيه قولاً هو أبين مما تقدم ، وأمثل لك مثالاً إذا حذونه أمنت الطاعن والعائب ، وقيل في كلامك لبيلغ الساهد الغائب . والذي أقوله في ذلك : هو أن نكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملة على معنى غير المعنى الذي اشتملت عليه أختها . فإن كان المعنى فيهما سواء ، فذاك هو التطويل بعينه ، لأن التطويل إنما هو الدلالة على المعنى بألفاظ يمكن الدلالة عليه بدونها . وإذا وردت سجعتان تدلان على معنى واحد ، كانت إحداهما كافية في الدلالة عليه ، وجل كلام الناس المسجوع جار عليه . وإذا تأملت كتابة المفلقين ممن تقدم كالصابي وابن العميد وابن عباد وفلان وفلان ، فإنك ترى أكثر المسجوع منه كذلك ، والأقل منه على ما أشرت إليه . ولقد تصفحت المقامات الحريرية والخطب النباتية ، على غرام الناس بهما ، وإكبابهم عليهما ، فوجدت الأكثر من السجع فيهما على الأسلوب الذي أنكرته » (٢) .

والظاهر انه أراد من تعريضه بفلان وفلان القاضي الفاضل نفسه وغيره من الكتاب الفاضليين المعروفين في هذا العصر . لم يكتف بذلك ، بل أورد رسائل مختارة من نثر ابن عباد والصابي ، وبيّن صحة ما ذهب إليه في نظريته الجديدة لئلا يتهم بالتعصب والتحامل أو محاولة الوضع من قيمة غيره ، وإنما ذكر ما ذكره لبيان موضع السجع الذي يثبت على المحك ، وذكر أن هذا النوع المسجع لم يكن مقصوداً لذاته في الزمن القديم ، وذلك إما

(١) ابن الاثير : المثل السائر ، ج ١ ص ١٩٦ .

(٢) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ١٩٨ .

لمكـــان عسره ، أو لأنه لم يتنبه له (١) . وخلص من كل ذلك إلى التحدث بالتفصـل عن السجع وأقسامه وفنونه ، وسوف نشير إلى ذلك في الفصل المقبـــل .

استخدم ابن الأثير الأسلوب المسجع الجديد في رسائله الديوانية وتقاليده السلطانية التى أنشأها ، وقد وجـــد للصابي تقليداً كتب للناصر صلاح الدين من الخليفة المستضيء بالله ، فعرض عليه ، فوجد فيه « كلاماً نازلاً بالمرة(٢) » وسأله بعض أخـــوانه بمدينة دمشق أن يعارضه بتقليد في معناه ، فأنشأ تقليداً معارضاً ومتحدياً : « وقد قلدك أمير المؤمنين البلاد المصرية واليمنية غوراً ونجداً ، وما اشتملت عليه رعية وجنداً ، وما انتهت إليـــه أطرافها براً وبحـــراً ، وما يستنقذ من مجاوريها مسالمة وقهراً ، وأضاف إليها بلاد الشام ، وما تحتويه من المدن الممدنة والمراكز المحصنة » (٣) . وهو بعـــد هذا وذاك معتد بأسلوبه ومعانيه ، يعرض بذلك حيناً ، ويصرح حيناً آخر ، كما يظهـــر في الرسالة التي بعث بها إلى الديوان العـــزيز : « ودولته هي الضاحكة ، وإن كان رعاياها خير أمة أخرجت للناس ، ولم يجعل شعارها من لون الشباب إلا تفاؤلاً بأنها لا تهزم ، وأنها لا تهرم ، وأنها لا تزال محبوة من أبكار السعادة بالحب الذي لا يسلي ، والوصل الذي لا يصرم . وهـــذا معنى غريب اخترعه الخادم للدولة وشعارها ، وهو ما لم تخطه الأقلام في صحفها ، ولا أجالته الخواطر في أفكارها » (٤) .

نلاحظ أن ابن الأثير مغرور كل الغرور ، يرى أنه فوق الكتاب جميعاً بأسلوبه المسجع الجديد ، وأنه بلـــغ فيه درجة الاجتهاد ، فأصبح متبوعاً لا تابعاً . ولم يكتف ابن الأثير بتحدي الصابي ، وإنما أراد أن يظهر تفوقه على القاضي الفاضل ، فقد ذكـــر الذهبي أنه كان يجاري القاضي الفاضل

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢١٥ .

(٣) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .

(٤) ابن خلكان : وفيـــات الأعيان ، ج ٢ ص ١٥٩ .

ويعارضه ، وبينهما مكاتبات ومجاوبات (١) ، وقد وقفنا عند ذلك طويلاً في مستهل هذا البحث .

استخدم أسلوبه المسجع في وصف حياته الخاصة ، فقد وضع رسالة شرح فيها حاله ، وهو مستخف من أعدائه ، وصور خروجه مستتراً لئلا تدركه العيون (٢) .

نثره المطلق

لم يلتزم اسلوبه المسجع في كل فنونه ، وإنما قصره على السلطانيات والأخوانيات وغيرها من الرسائل التي انشاها ، بيد انه لم يحجم عن التخلي من السجع كلياً أو جزئياً في بعض تصانيفه وإيماناً منه ان البلاغة في الأسلوب وليست في السجع كله أو في النحرر منه تماماً ، وإنما يجدر بالمنشيء أن يستخدم السجع في اماكنه الخاصة المناسبة ، ويتخلى عنه في اماكن اخرى ، وذلك جرياً على الأسلوب القرآني الذي جمع بين هذين الاتجاهين .

لاحظنا انه استخدم هذا الأسلوب المطلق في أهم تصانيفه كما رأينا ، وهو المثل السائر ، ومما قاله : « وبلغني عن الشيخ أبي محمد عبد الله بن الخشاب النحوي ، رحمه الله انه كان يقول : « إن الحريري رجل مقامات »، أي : أنه لم يحسن من الكلام المنثور سواها ، وإن أتى بغيرها لا يقول شيئاً ، فانظر أيها المتأمل إلى هذا التفاوت في الصناعة الواحدة من الكلام المنثور ، ومن أجل ذلك قيل : شيئان لا نهاية لهما : البيان والجمال » (٣) . هذا شاهد بيّن على أسلوبه المطلق ، ونراه في مواطن أخرى يجمع بين الاتجاهين ، دون أن يكثر منه أو يتكلفه ، إذ إنه يشترط في الأسلوب أن يكون فيه اللفظ

---

(١) الذهبي : سير النبلاء (مخطوطة) ج ١٣ ل ٢٣٧ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ١٥٩ .

(٣) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .

تابعاً للمعنى (١) ، وهذا تطور خطير في الأسلوب العربى في هذا العصر .

تحدثنا عن نظريته الجديدة في السجع العربى وعن رأيه في العلاقة بين المبنى والمعنى ، وأشرنا من خلال ذلك إلى معارضته أساليب الأعلام من الكتاب .

يرى ابن الأثير « أن الأصل في السجع إنما هو الاعتدال في مقاطع الكلام (٢) » ، ثم يستطرد قائلاً : « وينبغي أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة ، حادة ، طنانة ، رنانة ، لا غثة ، ولا باردة » (٣) . ويشترط فيه شرطاً آخر « وهو أن يكون المعنى فيه تابعاً للفظ ، فإنه يجيء عند ذلك كظاهر مموه على باطن مشوه » (٤) . وهو بعد هذا يعتقد أنه يجب الا يستخدم السجع في الكلام كله كما يفعل كتاب عصره ، وقد تحدث عن وجود السجع في القرآن ، وذكر أنه تضمن ايضاً غير المسجوع ، لأن ورود غير المسجوع معجزاً أبلغ في باب الإعجاز من ورود المسجوع ، ومن أجل ذلك تضمن القرآن القسمين جميعاً (٥) .

أهمل ابن الأثير استخدام غرائب الألفاظ كما رأينا عند الحصكفي وغيره ، وهذا في نظرنا تطور جديد أيضاً في الأسلوب العربى ، فقد نسب المغربين في الألفاظ إلى غلظ الطبع وفجاجة الذهن (٦) ، ورد على القائلين إن العرب كانت تستعملها ، وقال : « رأيت جماعة من الجهال ، إذا قيل لأحدهم : إن هذه اللفظة حسنة ، وهذه قبيحة أنكر ذلك ، وقال : كل الألفاظ حسن ، والواضع لم يضع إلا حسناً ، ومن يبلغ جهله إلى أن لا يفرق بين لفظة الغصن ولفظة العسلوج ، وبين لفظة المدامة ولفظة الخنشليل ، وبين لفظة الأسد ولفظة الفدوكس ، فلا ينبغي أن يخاطب بخطاب ، ولا يجاوب

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٧ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٦ .
(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٦ .
(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٧ .
(٥) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٨ .
(٦) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ١٥٠ .

بجواب » (١) . ويخلص بعد ذلك إلى القول : « ومن له أدنى بصيرة يعلم أن للألفاظ في الأذن نغمة لذيذة كنغمة أوتار ، وصوتاً منكراً كصوت حمار ، وأن لها في الفم حلاوة كحلاوة العسل ، ومرارة كمرارة الحنظل » (٢) .

تقيد ابن الأثير بما اعتقده ، فلم يغرب في كتابته ، ولم يعقدها ، وإنما بقيت على الرغم مما فيها من سجع واضحة كل الوضوح ، وبعيدة عن الإغراب والتعقيد اللذين نلمحهما في نثر الحصكفي وتابعيه .

آمن ابن الأثير إذاً بالتصنع المنسجم مذهباً في أسلوبه ، ولكنه كره فيه التكلف ، إذ إنه يؤمن « أن الكلفة تذهب برونق الصنعة » (٣) ، وقد استغرب ما رآه عند قوم سلكوا في منثور الكلام طرقاً خارجة عن موضوع علم البيان ، وهي بنجوة عنه لأنها في واد وعلم البيان في واد آخر (٤) .

يقول في هذا الصدد : « فممن فعل ذلك الحريري صاحب المقامات ، فإنه ذكر تلك الرسالة التي هي كلمة معجمة وكلمة مهملة ، والرسالة التي حرف من حروف ألفاظها معجم ، والآخر غير معجم ، وكل هذا ، وإن تضمن مشقة من الصناعة ، فإنه خارج عن باب الفصاحة والبلاغة ، وهذا الكلام المصوغ بما أتى به الحريري في رسالته يأتي ومعانيه غثة باردة ، وسبب ذلك أنها تستكره استكراهاً وتوضع في غير مواضعها ، وكذلك ألفاظه فألفاظه تجيء مكرهة أيضاً ، غير ملائمة لأخواتها » (٥) . يوضح لنا هذا الرأي أن ابن الأثير غير راض عن مذهب التصنع الذي أخذ به كبار كتاب العصر ، وهو إنما يحاول أن يرجع إلى مذهب التصنع المنسجم البعيد عن الإغراب والتكلف . كما نلاحظ أنه كان يجنب الناشئين من الكتاب الوقوع في مذهب

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٤٩ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٥٠ .
(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٦٩ .
(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٥٣ .
(٥) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٥٣ .

التصنع ، وبوصيهم بالابتعاد كليـاً عن أساليب الكتاب الكبار المتقدمين ، وبطلب إليهم الاقتصار على « حفظ القـرآن الكريم ، وكثير من الأخبـار النبوية ، وعدة من دواوين فحول الشعراء ممن غلب على شعرهم الإجادة في المعاني والألفاظ حتى يستقيم على طريقة يفتتحها لنفسه ، واخلق بتلك الطريق أن تكون مبتدعة غريبة ، لا شركة لأحد من المتقدمين فيها ، وهـذه الطربق هي طريق الاجتهاد ، وصاحبها يعد إماما في الكتابة » (١) .

تلك هي مميزات مذهبه الفني كما أراده أن يكون ثورة عارمة على أئمة المترسلين المتقدمين كابن العميد وابن عبـاد والصابي ، وإزراء على الحريري صاحب المقامات وابن نبـاتة خطيب الخطباء ، وثورة على أعـلام الكتاب الكبار الذين عرفهم كالحصكفي والقاضي الفاضل والعماد الكاتب وغيرهم من كتاب الدواوين في الديوان العزيز ببغداد .

يقابل كل ذلك محاولة منه يائسة في العودة بالكتاب إلى المناهل الصافية مما لم تعبث بهـا الزخارف البديعية أو الصور المتكلفة ، وحاول أن يدخل على الأسلوب العربي الجدل المنطقي ، والتفريق العلمي ، وهذان واضحان كل الوضوح في مناقشاته المطولة .

أحدث هـذا المذهب الجديد ثورة أدبيـة كبرى في دمشق والقاهرة وبغداد ، فألفت كمارأينا مختلف الكتب للرد عليه ومهاجمته ، إذ إنه كان يتحداهم ، ويعتد بأسلوبه العتيد ، وينسب القصور والضعف إليهم ، بله السابقين المتقدمين الذين لم يسلموا من تجريحه .

ويؤكد ما نذهب إليه قوله : « وهداني الله لابتداع أشياء لم تكن قبلي مبتدعة ، ومنحني درجـة الاجتهاد التي لا تكون أقوالها تابعة ، وإنما هي متبعة ، ولقد مارست الكتابة ممارسة كشفت لي عن أسرارها ، وأظفرتني بكنوز جواهرها إذ لم يظفر غيري بأحجارها » (٢) .

---

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٥٣ .

(٢) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٧٧ .

مهما يكن من أمر هذا الغرور والاعتداد والتحدي ، فمما لا شك فيه أن مذهبه الأدبى كان مطبوعاً بطابع ذاتي ، يرفده عنصر شخصي اصيل ، كان يهدف إلى تحرير الأسلوبالعربي في هذا العصر وإطلاقه من قيود الصنع والنكلف مع المحافظة على الصنعة المطبوعة والتصنع المنسجم الذي لا يختل معه المعنى ، ولا يتعقد فيه الأسلوب .

لا غرابة إن رأينا هـذه الثورة عليه تعلن في بغداد ومن ديوان الخليفة بالذات ، وكان من نتائجها أن انقسم الأدباء قسمين : القسم الأول منهم مؤيدوه مـن أدباء الشام والموصل ، والقسم الثاني منهم معارضوه الذين عرض بهم، ونسب كتابتهم إلى الوهن والضعف، وسماهم جماعة من متخلفي الصناعة ، يجعلون همّهم مقصوراً على الألفاظ التي لا حاصل وراءها ولا كبير معنى تحتها ، وذكر أنهم أحوج من صبيان المكاتب إلى التعليم (١) .

نخلص مما تقدم معنا إلى التأكيد أن ابن الأثير حاول أن يثير ثورة ادبية كبرى ، فتم له ما أراده ، وسار بالنثر الفني في غير مجـراه المعروف ، ولكن طغيان التصنع بعده أفقد النثر عنصراً هاماً من عناصر تطوره في سبيل أسلوب أصلح وادب جديد أمثل .

* * *

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٥ .

الشهاب محمود

(٦٤٤ ـ ٧٢٥ هـ = ١٢٤٧ ـ ١٣٢٥ م)

القسم الأول

حياته وآثاره

(١)

مراحل حياته

ولد أبو الثناء ، شهاب الدين ، محمود بن سلمان بن فهد بن محمود [1] في شهر شعبان سنة ٦٤٤ هـ بدمشق الفيحاء .

عكف منذ طفولته على طلب العلم ، ثم لقى بعدئذ مشاهير علماء عصره ، فأخذ عنهم ثقافته الدينية والأدبية . اشتغل في النحو على ابن مالك وتأدب بالمجد بن الظهير ، ولازمه ، وسلك طريقه ، وحذا حذوه في الشعر والنثر ، فبرع في الأدب وتضلع من الفقه ، وفاق أقرانه في عصره حتى اختير ، وهو شاب ، ليلي قضاء الحنابلة ، على الرغم من صغر سنه بعد أن أجازه يوسف بن خليل .

---

(١) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ٣٤١ ، وابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٢٤ ، وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ٢٦٤ ، وابن شاكر : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ٣٥٨ ، والنعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ٢ ص ٢٣٦ ، وابن كثير : البدايه والنهاية، ج ١٤ ص ١٢٠، وزيدان : آداب اللغة العربية ، ج ٣ ص١٣٢ ، والزركلي : الاعلام ج ٨ ص ٤٨ ، وبروكلمان : (Brock 2 . 52,42)

عرف الشهاب محمود بحسن الخلق ، فكان هادىء الطبـع ، وجـم التواضع ، وعرف بالمقدرة والعلم ، فعين لكتابة الإنشاء ، وهو في الثلاثين من عمـره تقريباً ، لأنه « كان من أئمة الكتاب ، وراس البلغاء في عصره ، وكانت له معرفـة بأيام الناس وتراجمهم ومعرفة بخطوط كتاب الخـط المنسوب ، وكانت بينه وبين أهل عصره مكاتبات ومراجعات » (١) .

استمر على كتابة الإنشاء في دمشق حتى سنة ٦٩٢ هـ ، وقد اشار إلى ذلك في مقدمة كتابه « حسن التوسل » ، فقال : « جعل الله لي في كتـابة الإنشاء رزقاً ، باشرت بسببه من وظائفها ما باشرت ، وعاشرت من أجـله من اكابر أهلها وائمتها من عاشرت » (٢) .

أعجب به الصاحب الوزير شمس الدين بن السعلول ، واحبه كثيراً ، فنقله إلى مصر عقب موت محيي الدين بن عبد الظاهر ، فكتب بها في ديوان الإنشاء ، فتقدم ببلاغته وبديع كفايته وإنشائه (٣) ، حتى أصبح صاحب ديوان الإنشاء عند السلطان بيبرس البندقداري سنة ٧٠٨ هـ . بقي مستمراً في منصبه حتى وفاة شرف الدين بن فضل الله ، فأعيد إلى دمشق سنة ٧١٧ هـ ، وولي مكانه ، نظر ديوان الإنشاء وكتابة السر فيها .

ترجم له الشاعر جمال الدين بن نباتة المصري في كتابه «سجع المطوق»(٤) ووصف مكانته في الشام ومصر ، ومما قاله : « كتبت الأنداءَ براعته وكتبت بمصر والشام يراعته ، فكلا الإقليمين اثبت لأقلامه فضلها ، وكلتا الجنتين آتت أكلها ، حللت بهذا حلة ثم بهذا حلة ، فطاب الواديان كلاهما ، لا زالت همم فضائله تبغي صعوداً ، ونعيي جاحداً ، وتتعب حسوداً ، وتعلم الشهب من سنانه وسناه أن ليس كل شهاب محموداً » (٥) .

---

(١) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ٣٤٣ .

(٢) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ٢ .

(٣) ابن شاكر : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ٢٥٨ .

(٤) ذكرنا في كتـابنا « ابن نبـاتة المصري » أنه ترجـم في كتـابة « سـجع المطوق » للفضلاء الذين قرظوا كتـابه « مجمـع الفـوائد » وأورد بعـد ذلك نبـذة من مكاتباته . ينظر في كتابنا المذكور آنفا ، ص ١٣٩ .

(٥) ابن نباتة المصري : سجع المطوق (مخطوط) و ٦٦ .

لم يفتر الشهاب محمود بما بلغه من منزلة سامية ومكانة مرموقة في دواوين الإنشاء قرابة خمسين عاماً ، وإنما كان دمث الخلق مستقيماً في عمله ، أحسن معاملة الناس جميعاً ، فاحبوه واحترموه ، كما كان « محباً لأهل الخير ، ومواظباً على التلاوة والأدعية والنوافل » (١) . فلا عجب إن رأينا تنكز نائب السلطنة بدمشق يحترمه ويجله شأنه في ذلك شأن من سبقه ، فلم نعرف عنه أنه عزل أو طرد من عمله طوال حياته المديدة ، ولكن شأنه شأن كل ذي نعمة أن يكون محسوداً على ما حباه الله به من منزلة تطمح إليها الأبصار . وقد توضح لنا ذلك في عتابه لعلاء الدين بن غانم حين بلغه أن جماعة الديوان يذمونه ،وهو حاضر لا يرد غيبته (٢) .

أقام بعد عودته من مصر في منصبه ثمانية أعوام إلى أن توفي ليلة السبت الثاني والعشرين من شعبان سنة ٧٢٥ هـ ، في منزله (٣) ، ودفن في تربته التي انشأها في سفح جبل قاسيون بالقرب من اليغمورية .

(٢)

آثاره الأدبية

أشار الأقدمون إلى أنه كان شيخ صناعة الإنشاء في عصره ، وأن نثره كثير جداً يبلغ أضعاف نظمه (٤) ، وذكروا أن له « تصانيف تملأ الأذهان فهماً ، وتسع فنون الآداب علماً ، ومواقع أقلام تخرس الأفواه ، والأفواه توسعها رشفاً ولثماً » (٥) .

أشهر تصانيفه بدون شك « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » (٦) ، وقد أشار إليه ابن نباتة ، ونوه به في كتابه « سجع المطوق » (٧) ، وذكر أنه نقل منه رسالة البندق ، وأوردها كاملة في كتابه المذكور (٨) .

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٤ ص ٣٢٤ .

(٢) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ٣٤٢ .

(٣) هو منزل القاضي الفاضل نفسه في دمشق ، ويقع بالقرب من النطفانيين . .

(٤) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ٣٣٢ .

(٥) ابن نباتة : سجع المطوق (مخطوط) و ٣٨ .

(٦) ابن شاكر : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ٣٥٨ ، وابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٤ ص ٣٢٤ ، وزيدان : آداب اللغة العربية ، ج ٣ ص ١٣٢ .

(٧) ابن نباتة : سجع المطوق (مخطوط) و ٦٩ ، ٧٠ .

(٨) المصدر السابق ، و ٦٩ ، ٧٠ .

استهل الشهاب محمود مقدمة الكتاب المذكور بالتحدث عن مكانته في كتابة الإنشاء ، وذكر العوامل الشخصية التي حدت به إلى تأليف الكتاب المذكور ، ومما قاله في خطبته : « أما بعد ، فإنه لما جعل الله لي في كتابة الإنشاء رزقاً ، باشرت بسببه من وظائفها ما باشرت ، وعاشرت من أجله من أكابر أهلها وأئمتها من عاشرت ، ورأيت من مذاهبها في أساليبها ما رأيت ، ورويت عنهم من قواعدها بالمجاورة والمحاورة ما رويت . واطلعت فيها بكثرة المباشرة على طرائق ، وألجئت فيها باختلاف الوقائع إلى مضائق أي مضائق ، ونشأ لي من الولد وولد الولد من عاناها وترشح لها من بنيّ من لم أرض بالتلبس بصورتها دون التحلي بمعناها ، فأحببت أن أضع لهم ، ولمن يرغب في ذلك ، في هذه الأوراق من فصولها قواعد ، وأقيم لهم فيها على ما يسع الجهل به من أصولها وفروعها شواهد ، ليأتوا هذه الصناعة من أبوابها ، ويعلموا من طرقها ما هو الأخص بأوضاعها والأولى بها ، وسميته « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » (١) . تحدث بعد ذلك عن أمور كلية (٢) ، لا بد للترشيح لهذه الصناعة من التصدي لها والاطلاع عليها ، وعن أمور خاصة (٣) في علوم المعاني والبيان والبديع ، ثم ختمها بذكر بعض ما يتصل بخصائص الكتابة (٤) : كالاقتباس والاستشهاد ، والحل . وشفعها بمجموعة قيمة من رسائله ، اختارها مما أنشأه بحكم عمله الرسمي ، أو مما أنشأه » رياضة للخاطر لصعوبة مسلكه (٥) ، وهي تبرز لنا مختلف فنون نثره .

من تصانيفه « مقامة العشاق » (٦) ، وهي مفقودة ، ومنها أيضاً

---

(١) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢ — ١١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٩٠ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١١٦ .

(٦) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ، ج ٣ و ٣٤٢ ، وابن شاكر : فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٥٨ ، والزركلي : الأعلام ، ص ٤٨ .

« منازل الأحباب ومنازه الألباب » (١) ، وهي في الهوى العذري ، وما زال مخطوطاً (٢) . وله أيضاً كتاب « ذيل على الكامل لابن الأثير » (٣) ، وهو مخطوط (٤) ، و « الذيل على ذيل القطب اليونيني » (٥) ، وهو مفقود .

يضاف إلى هذه التصانيف النثرية تقاليده الرسمية وتواقيعه الكثيرة ورسائله الإخوانية التي كان ينشئها ، وقد أشار الصفدي إلى أنها تدخل في ثلاثين مجلدة (٦) ، جمع منها بعض الفضلاء الراغبين مجلدين (٧) ، أما قصائده فكثيرة تدخل في ثلاث مجلدات ، ولم تجمع في ديوان شعر مستقل ، وأما المقاطيع فقليلة (٨) .

أفرد الشهاب محمود من شعره المدح النبوية ، وجمعها في ديوان خاص سماه « أهنا المنائح في أسنى المدائح » (٩) ، وعدد أبياته ألفا بيت وثلثمائة وخمسة وستون بيتاً ، وقد سمعه أستاذه يوسف بن خليل من لفظه ، وذكر الذهبي أنه لم يخلف في معناه مثله .

* * *

---

(١) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ، ج ٣ و ٣٤٢ ، وابن شاكر : فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٥٨ ، والزركلي : الأعلام ، ج ٨ ص ٤٨ ، وزيدان : آداب اللغة العربية ج ٢ ص ١٣٢ .

(٢) توجد من هذا الكتاب نسخة مخطوطه في برلين ولندن والمتحف البريطاني ودار الكتب المصرية .

(٣) زيدان : آداب اللغة العربية ، ج ٣ ص ١٣٣ ، والزركلي : الأعلام ج ٨ ص ٤٨ .

(٤) توجد منه نسخه مخطوطة في برلين .

(٥) الزركلي : الأعلام ، ج ٨ ص ٤٨ .

(٦) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٤ ص ٣٢٥ .

(٧) المصدر السابق ، ج ٤ ص ٣٢٥ .

(٨) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ٣٤٢ ، وابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٢٥ .

(٩) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٤ ص ٣٢٥ ، وابن شاكر : فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٥٨ ، وزيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٣ ص ١٣٣ ، والزركلي : الأعلام ج ٨ ص ٤٨ .

القسم الثاني

نثره ومذهبه الفني

(١)

فنون النثر

اجمع معاصرو الشهاب محمود على أنه كان راس بلغاء عصره (١) ، وشيخ صناعة الإنشاء (٢) دون منازع . وذكروا أنه اربى على كثير ممن تقدمه ، واصبح المنظور إليه في البلاد الشامية والمصرية على السواء (٣) ، وقد بقي في ديوان الإنشاء بدمشق والقاهرة قرابة نصف قرن من الزمن ، لأن له خصائص ليست لغيره .

اشار الشاعر جمال الدين بن نباتة المصري إلى هذه المنزلة الكبيرة التى عرف بها الشهاب في الأوساط الثقافية والسياسية في كتابه (سجع المطوّق) الذي ترجم فيه الشاعر لكل من زكّى كتابه (مطع الفرائد ومجمع الفوائد) ومما قاله :

« ما أبرع محاسنه ، وأبدع فنونه ، التي كمّ بها عن الفكر محاسنه ، وما شئت من عربية تفرّد فبها فكره الذّرب ، وانتسبت زهرتها إليه انتساب ريحانة لابن معدي كرب ، وجاورت من فكره لثث غابٍ أشب ، اذ جاورت

---

(١) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ٣٤٢ .

(٢) ابن كثير : البدايه والنهاية ، ج ١٤ ص ١٢٠ .

(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٤ ص ٣٢٤ .

من غيره جحر ضبٌ خَرِب ، ولغةٍ هو جوهريٌ تنكيتها ، ومعاني نطقٍ هو المفصح فيها ، تطوي الطائي فلا ينفع عندنا ذكرى حبيب ، ولا يُستحسن عبث الوليد ، وتصانيف تملأ الأذهان فهماً ، وتسع فنون الآداب علماً ، ومواقع أقلام نخرس الأفواهَ والأفواه توسعها رشفاً ولثماً . كتبت الأنداءَ براعته ، وكتبت بمصر والشام يراعته . فكلا الإقليمين أثبت لأقلامه فضلها ، وكلتا الجنتين آتت أكلها » (١) .

ولا بد لنا في هذه الدراسة من عرض فنونه النثرية المختلفة ، لكي ندرك خصائصه المميزة التي أشار إليها ابن نباتة وغيره ، ونقرر بعد ذلك مذهبه الفني واتجاهه الأدبي .

كتب الحروب والفتوح والتهاني

أشار الشهاب محمود إلى الكتب التي كان ينشئها في أوقات الحروب إلى نواب الملك عنه ، وإلى مقدمي الجيوش والسرايا ، وذكر أنها تتميز بالإيجاز والألفاظ البليغة ، فمن ذلك قوله : « أصدرناها إليه نحثه على الركوب بطليعة أعجل من السيل ، وأهول من الليل ، وأيمن من نواصي الخيل ، وليكن كالنجم في سراه وبعد ذراه ، إن جرى فكسهم ، وإن خطر فكرِهم (٢) ، وإن طلب فكالليل الذي هو مدرك ، وإن طلب فكالجنة التي لايجد ريحها مشرك ، حتى يأتي على عدو الدين من كل شرف ، ويرى جمعهم من كل طرف » (٣) .

وأشار إلى الكتب التي كان ينشئها في أوقات الحروب إلى نواب الملك يعلمهم بالحركة للقاء عدوهم ، وقد ذكر أنها تتميز بالبسط في القول في وصف العزائم ، فمن ذلك قوله إلى بعض نواب الثغر عند حركة العدو : « أصدرنا ومنادي النفير قد أعلن بيا خيل الله اركبي ، ويا ملائكة الرحمن

---

(١) ابن نباتة : سجع المطوق (مخطوط) ورقة ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) الرهمة : بالكسر المطر الضعيف الدائم الصغير القطر والجمع رِهَم ورِهام ، والرهمة أشد وقعا من الديمة وأسرع ذهابا .

(٣) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ٩٣ .

أصحبي ، وبأ وفود التأييد والظفر أقربي ، والعزائم قد ركضت على سوابق الرعب إلى العدا ، والهممُ قد نهضت إلى عدو الإسلام ، فلو كان في مطلع الشمس لاستقربت ما بينها وبينه من المدى » (١) .

أما كتب التهاني والفتوح ، فيشترط فيها الشهاب محمود أن يبسط الكلام في مضمونها ، فتتصف بالإطناب في الأوصاف ، وبخاصه إن كان المكتوب إليه ملكاً صاحب مملكة . فمن ذلك رسالة كتبها « في جواب ابن الأحمر ، صاحب حمراء غرناطة من الأندلس : « أما بعد حمد الله . . . فإنا أصدرناها ، ونعم الله بنا مطبقة ، ومواقع نصره عندنا لطبقة ، ونبدي لعلمه الكريم ورود كتابه الجليل مسفراً عن لوامع صفائه ، مبيناً بجوامع وده ووفائه ، مشرقاً بلآلىء فرائده ، محدقاً بروض كرمه الذي سعد رأي رائده ، بما بلغه من أنباء النصرة التي سارت بها إليه سرعان الركبان . وذلت بعز ما تلي عليه منها عباد الصلبان ، وطبق ذكرها المشارق والمغارب ، ومزقت أعداء الله التتار ، وهم في رأي العين أعداد الكواكب ، وخلطت التربة بدمائهم حتى لم يَبَحْ بها التيمم ، ومزجت بها الفرات حتى ما تحل لشارب ، فإن التتار المخذولين أقبلوا كالرمال ، واصطفوا كالجبال ، وندفقوا كالبحار الزواخر ، وتوالوا كالأمواج التي لا يعرف لها الأول من الآخر ، فصدمتهم جيوشنا المنصورة صدمة بددت شملهم ، وعلمت الطير اكلهم .. ونحن على ما نحن عليه من الأهبة لغزوهم في عقر دارهم ، وانتزاع مواطن الخلافة وغيرها من ممالك الإسلام من نيوبهم وأظفارهم ، مستنصرين بالله على من بقي في خط المشرق منهم ، قائمين فيهم بفرض الجهاد الذي لولا دفاع الله لم يمتنع خط المغرب عنهم » (٢) .

نلاحظ أهمية هذا النص ، إذ إنه يوضح لنا بجلاء علاقة المشرق بالمغرب وموقف الأخير من الأحداث الكبرى الطارئة في فترة اكتنفتها الحروب في الشرق والغرب عى السواء ، كما يوضح لنا تصميم المسلمين على دحر التتار وإرجاع الخلافة العباسية إلى بغداد .

---

(٤) المصدر السابق ، ص ٩٤ .

(١) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ٩٥ ، ٩٦ .

كتب التقاليد والتواقيع والمناشير

تحدث الشهاب محمود عن هذا النوع من الإنشاء في عصره ، وأشار إلى كثرة ما أنشأ منها ، فقال : « وفي أيدي الناس مما كتبت فبه شيء كثير » (١) . فمن تقليد كتبه لصاحب سيس بإقرار على ما قاطع النهر من بلاده قوله في خطبة التقليد : « الحمد لله الذي خص أيامنا الزاهرة باصطناع ملوك الملل وفضل دولتنا القاهرة بإجابة من سأل بعض ما أحرزته لها البيض والأسل ،وجعل من خصائص ملكنا إطلاق الممالك وإعطاء الدول .. وبعد ، فإنه لما آتانا الله ملك البسيطة ، وجعل دعوتنا بأعنة ممالك الأقطار محيطة ، ومكّن لنا في الأرض ، وانهضنا من الجهاد في سبيله بالسنة والفرض ، وجعل كل يوم تعرض فيه جيوشنا من أمثلة يوم العرض ، واظلتنا بوادر الفتوح ، وأظلت على الأعداء سيوفنا التي هي على من كفر بالله وكفر بالنعمة دعوة نوح ، وأيدنا بالملائكة والروح ، على من جعل الواحد سبحانه ثلاثه ، فانتصر بالأب والابن والروح ... » (٢) .

تطالعنا هذه الرسالة ببعض المعاني الدينية التي كانت معروفة في أدب هذا العصر ، وقد حاول الكاتب أن يبرز لنا من خلالها صورة جمعت بعض المعاني الإسلامية والنصرانية .

الطرديات

يرى الشهاب محمود أن الكاتب يكون مقيداً في نثره الرسمي بقيود يجب عليه أن يرعاها ويطبقها في إنشائه ، غير أنه حينما يتحدث عن الطرديات من ذكر أوصاف الخيل والجوارح والسلاح وآلات الحرب وأنواع الرياضات من لعب الكرة والصيد ورمي البندق ، كان يشير إلى أن الكاتب مطلق العنان ليبرز مهارته وبراعته بالأسلوب الذي يشاء .

---

(١) المصدر السابق ، ص ١١٠ .

(٢) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ١١٢ ، ١١٣ .

أورد في طردياته رسالة البندق ، وهي تشتمل على أنواع من الأوصاف وفنون النظم والنثر ١٧ يستعين بها الكاتب على ما يشاء من إنشاء قدمه في أي نوع أراد من الطير الواجب . ومنها قوله : « فبرزنا ، وشمس الأصيل تجود بنفسها ، وتشير من الأفق الغربي إلى جانب رمسها ، وتغازل عين النور بمقلة أرمد ، وتنظر إلى صفحات الورد نظر المريض إلى وجوه العوّد ، فكانها كئيب اضحى من الفراق على فرق ، أو عليل يقضي بين صحبه بقايا عمر بالرمق ، وقد اخضلت عين الورد لوداعها ، وهمّ الروض بخلع حليته المموهة بذهب شعاعها (١) .

عرفنا الطرديات في أدب هذا العصر كثيراً ، ولم تكن من مبتكراته ، فقد الم بهـا السابقون وتفنن فيها من بعدهم اللاحقون ، ولم تكن قاصرة على النثر ، وإنما تجاوزته إلى الشعر .

الأخوانيـات

انتشرت الاخوانيات في هـذا العصر شعراً ونثراً ، وقد عدها الشهاب محمود من الكتب التي يكون الكاتب فيها مطلق العنان ، مخلى بينه وبين قـوته أو ضعفه .

أورد من أخوانياته صورة كتاب إلى إنسان يتضمن مخاطبته تزويج أمه (٢) . وذكر أنه عمله رياضة للخاطر لصعوبة مسلكه ، واورد منها ما انشأه إلى من هـزم هو وجيشه (٣) ، وما أنشأه في ذم المهزوم وذم جيشه (٤) ، وما كتبه على لسان المهزوم نفسه (٥) ، وكل ذلك فعله تجربة للخاطر ورياضة للفكر . وانهى لنا ما اختاره من أخوانيات بذكر رسالة أنشأها لما بلغـه ان بعض نواب السلطنة جـاءه ولد ، وهو مسافر في الصعيد « فاقترح عليه ان

---

(١) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ١٠٤ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١١٦ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١١٧ .
(٤) المصدر السابق ، ص ١١٨ .
(٥) المصدر السابق ، ص ١١٩ .

يكتب على لسان المولود إلى والده ، فقال : « يقبل الأرض ابتداء بالخدمة من حين ظهر إلى الوجود ، وشوقاً إلى امتطاء صهوات الجياد بين يدي سيده قبل المهود ، وتمنياً أن يكون أول شيء يقع عليه نظره من الدنيا وجه مولانا الذي تعلو بنظره الجدود ، ويتيمن برؤية كواكب السعود ، وينهي أنه نعجل التشوق على صفره ، وكان كمال المسرة به أن يقع نظر مولانا الشريف عليه قبل البشرى بخبره ، لتلقى عليه أشعة سعادة مولانا في ساعة ظهوره ويكسى قبل أن تلقى عليه الملابس من إشراق محياه الكريم حلل نوره ، ويكون أول ما يلج مسامعه صوت مولانا يحمد ربه على الزيادة في خدمه ، وتكثير من يضرب بين يديه في الحرب بسيفه ، ويقف في السلم أمامه على قدمه ، فإن من يكون نجل مولانا تنطق بالنجابة مخايله ، وتدل على النجاعة سماته قبل أن تدل عليه شمائله ، والهلال سيصير في أفقه بدراً منيراً ، والشبل سيعود كأبيه أسداً هصوراً ، والله تعالى يهب العبد عمراً ، ويبلغ به من طاعة مولانا ما يجب عليه ، ويرزقه عملاً صالحاً يتقرب به إلى ربه ، وإليه بمنّه وكرمه » (١) .

نلاحظ فيإخوانياته أنه كان يتوخى إيجاد المعنى الغريب والموضوع المبتكر ، أما الشعور الإنساني النبيل ، وأما العاطفة المتقدة ، فنجدهما يتضاءلان كثيراً في نثره .

بحثنا فنون نثره الأربعة ، واستعرضنا خلال ذلك بعض الشواهد المختارة من أدبه ، واستطعنا من خلالها أن نتعرف على أسلوبه ، وندرك مميزاته الفنية كما سنوضحها في بحث مذهبه الفني .

(٢)

مذهبه الفني

أوردنا فيباب الشعر بعض قصائد الشهاب محمود في وصف الحروب التترية ، وقد رأينا أنه كان شاعراً مجيداً ، شأنه في ذلك شأن العماد

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٢٠ .

الكاتب ، إذ جمعا الصناعتين ، فكان شاعر المعارك التترية ، بينما كان العماد شاعر المعارك الصلاحية .

كما اتضح مما تقدم معنا أن الشهاب محموداً كان شيخ الكتاب وإمام البلغاء في عصره بالشام ومصر ، وقد قال عنه معاصروه : « انه لم يكن بعد القاضي الفاضل مثله » (١) ، وذكروا عنه انه كان يقيم في دار القاضي الفاضل نفسه بدمشق قرب باب الناطفيين (٢) .

جرى الشهاب محمود في إنشائه على سنة من سبقه من الكتاب ، وعلى رأسهم العماد الكاتب وابن الأثير الكاتب ، فاستخدم الأسلوب المسجع ، وضمنه دون تكلف وتصنع ما راقه من الزخارف البديعية والصور البيانية . أما السجع فقد لاحظنا انه كان يستخدمه في اسلوبه خلال رسائله وكتبه الرسمية والذاتية ، كما رأينا منه شواهد مختارة ، بيد أنه ، كابن الأثير من قبله ، كان يحاول أن يتحرر من قيود السجع في بعض تصانيفه ، وقد لاحظنا ذلك في كتابه حسن التوسل ، ما عدا خطبة الكتاب فقد جاءت كالعادة مسجعة . أما الفنون البلاغية ، فقد نعتها بالأمور الخاصة ، لأنها « من المكملات لهذا الفن ، وإن لم يضطر إليها ذو الذهن الثاقب ، والطبع السليم ، والقريحة المطاوعة ، والفكرة المنقحة ، والبديهة المجيبة ، والروية المتصرفة » (٣) . وهو يرى أن الأديب والكاتب العاريين من هذه الفنون قاصران عن أدنى رتب الكمال ، لأنهما يجيدان ولا يدريان (٤) .

أشار الشهاب محمود في الأمور الخاصة إلى « الإبداع » : « وهو أن يأتي في البيت الواحد من الشعر أو القرينة الواحدة من النثر عدة ضروب من البديع بحسب عدد كلماته أو جمله ، وربما كان في الكلمة الواحدة المفردة

(١) ابن كثير : البداية والنهاية، ج ١٤ ص ١٢٠، والنعيمي : الدارس ، ج ٢ ص ٢٣٦ .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ١٢٠، والنعيمي : الدارس، ج ٢ ص ٢٣٦.
(٣) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ١١ .
(٤) المصدر السابق ، ص ١١ .

ضربان من البديع ، ومتى لم تكن كل كلمة بهذه المثابة ، فليس بإبداع » (١) .

يلاحظ أن الكتاب لم يكتفوا بالزخارف البديعية التي عرفناها في هذا العصر في أساليبهم ، وإنما أضافوا إليها تصنعاً بديعياً جديداً ، سموه فن الإبداع ، وقد ابتكر ابن أبى الإصبع هذا المذهب الجديد ، واستخرجه من تدبره قوله تعالى : « وقيل ، يا أرض ابلعي ماءك ، ويا سماء أقلعي ، وغيض الماء ، وقضي الأمر ، واستوت على الجودي ، وقيل بُعداً للقوم الظالمين » (٢) فهذه الآية سبع عشرة لفظة ، تضمنت واحداً وعشرين ضرباً من البديع غير ما تكررمن أنواعه فيها (٣) . ننتهي من ذلك لنقرر أن مذهبه الأدبي يعتمد على الأسلوب المسجع الموشى بالزخارف البديعية ، بيد أنه تصنع فيها ، فكان لنا من ثمرة ذلك فن الإبداع .

* * *

(١) المصدر السابق ، ص ٨٨ .

(٢) هود ٤٤/١١ .

(٣) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ٨٨ .

الفصل الثاني

الفنون النثريّة

استوفينا فيما مر معنا ذكر الكتاب الأعلام في القرنين السادس والسابع الهجريين ، وأشرنا إلى فنونهم النثرية المختلفة ، ومذاهبهم الأدبية المتشعبة ، ورأينا أن لكل كاتب شخصيته الفنية المميزة واسلوبه الأدبي الذي مكنه من التعبير عما يريده على الرغم من التصنع الذي تعمده . يقول الدكتور شوقي ضيف : « ويظن كثيرون أن النثر جمد في هذا العصر جموداً شديداً لما ساد في بعض جوانبه من تكلف في تحرير معانيه ، ومن سجع مثقل بأصداف البديع وخاصة في الرسائل الديوانية ... كل ذلك لم يحل بين كتّاب الدواوين وبين التعبير عن واقع الحياة السياسية تعبيراً كانوا فيه ألسنة ناطقة عن أهل مصر والشام،وعن أهوائهم السياسية ومطامحهم الحربية»(١).

ولا بد لنا بعد هذه الدراسة المستفيضة من الوقوف عند الفنون النثرية لبحثها بحثاً موضوعياً ، يوضح معانيها العامة ، ويجلي خصائصها الخاصة . وينبغي علينا توضيحاً لما قدمنا أن يشتمل بحثنا عن الفن الخطابي ، ومختلف ضروب النثر : من ديواني ووجداني ووصفي وغيرها مما هو معروف في هذا العصر .

---

(١) انظر مقالة الدكتو رشوقي ضيف عن (عصر احياء التراث العربي وتجديده) ، المجلة : العدد ١٢٢ (شباط) ١٩٦٧ .

القسم الأول

الفن الخطابي

عرفت الخطابة عند العرب منذ اقدم عصورهم ، ونبغ فيهم خطباء لسن ، وقد حبروا خطبهم ، واتبعوا فيها اساليب مختلفة ، وكانوا يشترطون في الخطيب المفوه شروطاً كثيرة تعتمد غالباً على شخصيته وعلى قوة بلاغته .

هكذا نرى بعض الكتاب يتحدثون عن الفن الخطابى ، ويشيرون إلى صفات الخطيب المصقع ، كما هو معروف عند الجاحظ وغيره .

تطورت الخطابة كبقية الأنواع الأدبية المعروفة ، وابرز ما نلاحظه انها اتجهت اتجاهين اثنين : الاتجاه الديني الذي عرفناه كمظهر من مظاهر إقامة الشعائر الدينية ، والاتجاه السياسي الذي ظهر ونما بتأثير الأحداث الكبرى والظروف الاجتماعية قديماً وحديثاً .

(١)

الخطب الدينية

أسهمت الخطب الدينية ،ولاسيما الخطب الجمعية منها ، بدور هام في الدعوة إلى الجهاد ، وحث الناس على التضحية والبذل والفداء ، وذلك لإنقاذ البلاد وثغورها وتحريرها من حكم الفرنجة والتتار .

ذكر ابن سداد قاضي صلاح الدين ومؤرخ سيرته أنه كان يقصد بوقعاته أيام الجمع ، ولا سيما أوقات صلاة الجمعة ، تبركاً بدعاء الخطباء على المنابر ، فربما كانت أقرب إلى الإجابة (١) .

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٦١ .

.تتميز الخطب الدينية بأسلوبها التقليدي الخاص ، فهي تبدأ بحمد الله ، ويشرع الخطيب بإلقاء الخطبة الأولى موجهاً كلامه إلى الناس ، ثم يجلس ليستريح بعض الوقت ، ويتأهب ليقوم بعد قليل للخطبة الثانية ، كما جرت العادة ، ويدعو بعد ذلك للخليفة أولاً ، وللملك او السلطان ثانياً ، ثم يختتم خطبته بالدعاء لسائر المسلمين .

أبرز خطباء هـذا العصر في هذا المضمار محيى الدين بن الزّكيّ ، قاضي دمشق ، وهو الذي تولى إلقـاء خطبة الجمعة بعد فتح ببت المقدس ، وقد ذكر عنه أنه اجتمع عدد كبير من المصلين ، وحضر السلطان إلى قبة الصخرة ، وكانت جماعة من العلماء والأكابر قد رشحوا أنفسهم للخطبة في جمعة الفتح نظراً لأهميتها كخطبة خالدة في التاريخ الدينى والسياسى ، ومنهم من عرض للسلطان يطلب منـه ذلك ، ومنهم من صرح ، والسلطان صامت لا يبدي سره . ولما حان وقت الخطبة نص على القاضي محيي الدين (١) ، وهو يومئذ قاضي القضاة بدمشق ، وقدمه لهـذا الأمر الجليل ، فرقي المنبر ، وهـو متشح بالأهبة العباسية السود ، وكانت زي الخطبـاء الدينيين في هـذا العصر . خطب في الناس خطبة بليغة ، فاستهلها بما اختاره من آيات بينات تضمنت ذكر الحمد لله ، ثم الحمد المطول ، حتى بدأ الخطبة الأولى ، فأتمها وجلس ، ثم قام وخطب الثانية كما جرت العادة ، ثم دعا للخليفة الإمـام الناصر لدين الله أمير المؤمنين ، واختتمها للبطل الناصر صلاح الدين يوسف.

أعجب القدماء بهذه الخطبة البديعة البليغة الهامة ، ونرى وفاءً منـا للبحث أن نورد ما وقع بين أيدينا منها كاملاً :

« فقُطع دابرُ القـومِ الذينَ ظلَموا ، والحمد لله ربّ العالمين » (٢) .

---

(١) أبو المعالي محيي الدين محمد بن ابي الحسن علي بن محمد القرشي ، المعـروف بابن الزكي يصعد نسبه الى عثمان بن عفان الفقيه الشافعي قاضي القضاة . ولد بدمشق سـنة ٥٥٠ هـ وتوفي سـنة ٥٩٨ هـ بدمشق ودفن بسفح جبل قاسيون (ابن خلكان : وفـات الأعيـان ج ١ ص ٤٧٠ ، وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٨١).

(٢) النمـل ٢٧/١٩ .

« الحمدُ للهَ الذي خلَق السموات والأرضَ ، وجعلَ الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربّهم يعدِلون » (١) .

« وقل : الحمدُ لله الذي لم يتّخذْ ولداً ، ولم يكنْ له شريكٌ في المُلكِ ، ولم يكنْ له وليٌّ مِن الذلّ وكبِّرْهُ تكبيراً » (٢) .

« الحمدُ للهِ الذي أنزلَ على عبدِه الكتابَ ، ولم يجعلْ له عِوَجاً ، قيّماً لينذرَ بأساً شديداً مِنْ لدُنْهُ ، ويبشّر المؤمنين الذين يعملونَ الصالحاتِ أنّ لهمْ أجراً حسناً ماكثينَ فيه أبداً ، وينذرَ الذين قالوا اتخذَ اللهُ ولداً ، ما لهمْ به مِنْ علمٍ ، ولا لآبائهم . كبُرتْ كلمةً تخرجُ مِنْ أفواهِهم ، إنْ يقولونَ إلا كذِبا » (٣) .

« قل الحمدُ للهِ ، وسلامٌ على عبادِه الذينَ اصطفَى اللهُ خيرٌ أمّا يُشرِكون » (٤) .

« الحمدُ للهِ الذي لهُ ما في السمواتِ وما في الأرضِ ، ولهُ الحمدُ في الآخرةِ ، وهو الحكيمُ الخبير . يعلمُ ما يلجُ في الأرضِ ، وما يخرجُ منها ، وما يَنْزِلُ مِنَ السماءِ ، وما يعرجُ فيها ، وهو الرحيمُ الغفور » (٥) .

« الحمدُ لله فاطرِ السمواتِ والأرض ، جاعلِ الملائكةِ رُسُلاً » (٦) .

* * *

الحمدُ للهِ معزّ الاسلامِ بنصره ، ومذلّ الشِركِ بقهرهِ ومصرّف الأمورِ بأمره ، ومديمِ النعمِ بشكره ، ومستدرجِ الكافرينَ بمكره ، الذي قدّر الأيامَ دولاً بعدلِهِ ، وجعلَ العاقبةَ للمتقينَ بفضلِهِ ، وأفاء على عبادِهِ مِنْ ظلّهِ ، وأظهرَ دينَهُ على الدين كلّه القاهرِ فوقَ عبادِهِ فلا

---

(١) الأنعام ٦/١ .
(٢) الاسراء ١٧/١١١ .
(٣) الكهف ١٨/١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ .
(٤) النمل ٢٧/٥٩ .
(٥) سبأ ٣٤/١ ، ٢ .
(٦) فاطر ٣٥/١ .

يمانعُ ، والظاهرِ على خليقتهِ فلا ينازعُ ، والآمرِ بما يشاءُ فلا يراجعُ ، والحاكمِ بما يريدُ فلا يدافعُ .

أحمــدهُ على إظفارهِ وإظهــارهِ ، وإعزازهِ لأوليائه ونصرهِ لأنصاره وتطهير بيتــه المقدسِ مِنْ أدناسِ الشركِ وأوضارهِ ، حَمْدَ مَنْ استشعرَ الحمدَ باطنُ سرهِ وظاهرُ جهارهِ .

وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ « لا شريكَ له » (١) الواحدُ الأحد ، الفردُ الصمدُ ، الذي « لم يلدْ ولم يولد ، ولم يكنْ له كفُواً أحــدٌ » (٢) شهادةَ من طهرَ بالتوحيدِ قلبه ، وأرضى به ربّهُ .

واشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسوله ، دافعَ الشرك ، وداحضَ الإفكِ « الذي أسرى بعبدهِ ليلاً مِن المسجدِ الحرامِ » (٣) إلى هــذا المسجدِ الأقصى ، وعرّج به مِنه إلى السمواتِ العلا إلى « سِدرةِ المنتهى ، عنــدها جنةُ المأوى ، إذ يغشى السِدرةَ ما يَغْشى ، ما زاغَ البصرُ وما طغى » (٤).

صلى اللهُ عليه ، وعلى خليفتــهِ أبي بكرِ الصّديقِ ، السابق إلى الإيمانِ ، وعلى أميرِ المؤمنين عمر بنِ الخطابِ ، أولِ منْ رفعَ مِنْ هذا البيت شعارَ الصُلبانِ ، وعلى أميرِ المؤمنين عثمانَ بن عفّان ذي النورينِ جامعِ القرآن ، وعلى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ، مزلزلِ الشركِ ومكسرِ الأوثانِ ، وعلى آلــهِ وأصحابهِ والتابعينَ لهم بإحسان .

أيّها الناسُ ، أبشِروا برضوانِ اللهِ الذي هو الغايةُ القصوى والدرجة العليا لِما يسّرَه اللهُ على أيديكم مِنْ استردادِ هذه الضالةِ مِنْ الأمــةِ الضالةِ ، وردّها إلى مقرها من الإسلام ، بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مائةِ عام ، وتطهيرِ هذا البيتِ الذي أذِنَ اللهُ أنْ يُرفعَ ويذكرَ فيها اسمُه ، وإماطةِ الشركِ عن طرقهِ بعد أن امتد عليها رواقه واستقرّ

(١) الأنعــام ٦/١٦٣ .
(٢) الاخــلاص ١١٢/٣ ، ٤ .
(٣) الاســراء ١٧/١ .
(٤) النجــم ٥٣/١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ .

فيها رسمَه ، ورفعَ قواعدَه بالتوحيد فإنه بنى عليه ، وإنه أسِّسَ بالتقوى مِنْ خلفِه ومن بين يديه ، وهو موطنُ أبيكم ومعراجُ نبيكم محمد عليهما السَّلامُ وقبلتكمُ التي كنتمْ تصلّون إليها في ابتداءِ الإسلامِ ، وهو مقرّ الأنبياءِ ، ومقصدُ الأولياءِ ، ومقرّ الرسُلِ ، ومهبَطُ الوحي ، ومنزلُ تنزلِ الأمرِ والنّهي ، وهو أرضُ المحشرِ ، وصعيدُ المنشرِ ، وهو في الأرض المقدسةِ التي ذكرها اللهُ في كتابِه المبين ، وهو المسجدُ الذي صلّى فيه رسولُ الله (ص) بالملائكةِ المقربين ، وهو البلدُ الذي بعثَ اللهُ إليهِ عبدَه ورسوله ، وكلمتَهُ التي ألقاهــا إلى مريم ، وروحَه عيسى الذي شرّفهُ اللهُ برسالتِهِ ، وكرّمه بنبوتِه ، ولم يزَحزِحْهُ عن رتبةِ عبوديتهِ ، فقال تعالى : « لن يستنكفَ المسيحُ أن يكونَ عبداً لله (١) » ، وقال : « لقد كفرَ الذين قالوا إن اللهَ هو المسيحُ بنُ مريم » (٢) ، وهو أوّلُ القِبلتين ، وثاني المسجدينِ ، وثالث الحرمين ، لا تشدّ الرّحال بعد المسجدينِ إلا إليــهِ ، ولا تُعقدُ الخناصرُ بعد الموطنين إلا عليهِ ، ولولا أنكم ممنْ اختارَهُ مــنْ عبــادِه ، واصطفاهُ منْ سكانِ بلادِه ، لمــا خصّكم بهذه الفضيلةِ التي لا يُجاريكم فيها مجــارٍ ، ولا يُباريكم في شرفِها مُبارٍ ، فطوبى لكمْ منْ جيشٍ ظهرتْ على أيديكم المعجزاتُ النبوية، والوقعاتُ البدريّةُ، والعزماتُ الصدّيقية ، والفتوحُ العُمرية ، والجيوشُ العثمانيةُ ، والفتكاتُ العلوية . جددتم للاسلامِ أيامَ القادسيةِ ، والوقعاتِ اليرموكيةَ، والمنازلاتِ الخيبرية، والهجماتِ الخالديةَ ، فجزاكمْ اللهُ عــن محمدٍ نبيِهِ أفضلَ الجــزاءِ ، وشكرَ لكمْ ما بذلتموهُ مِنْ مهجِكمْ ، مقارعةِ الأعداءِ ، وتقبّل منّا ومنكم ما تقربتمْ به إليهِ منْ مُهراقِ الدماءِ ، وأثابكم الجنّةَ فهي دارُ السعداءِ ، فاقدُروا ـ رحمكم اللهُ ـ هذه النعمةَ حقّ قدرِها ، وقوموا لله بواجبِ شكرِها ، فلهُ النّعمةُ عليكمْ بتخصيصكم بهذه النّعمةِ ، وترشيحكمْ لهذه الخِدْمةِ ، فهذا هو الفتحُ الذي فُتحتْ لهُ أبوابُ السّماءِ ، وتبلّجَتْ

---

(١) النساء ٤/١٧١ .

(٢) المــائدة ٥/١٩ .

بأنوارِه وجوهُ الظلماءِ ، وابتهجَ به الملائكةُ المقرّبون ، وقرَّ به عينا الأنبياء والمرسلون ، فإذا عليكمْ من النعمةِ بأن جعلكم الجيشَ الذي يُفتحُ عليه البيتُ المقدّسُ في آخرِ الزّمانِ ، والجندَ الذي تقومُ بسيوفهِم بعد فترةٍ من الرّسُلِ قواعد الإيمانِ ، فيوشك أن تكونَ التّهاني به بينَ أهلِ الخضراءِ ، أكثرَ مِنَ التهاني به بين أهلِ الغبراءِ .

أليس هو البيتُ الذي ذكرَهُ اللهُ في كتابهِ ، ونصَّ عليه في خطابهِ ، فقال تعالى : « سبحانَ الذي أسرى بعبدِه ليلاً من المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى (١) » ؟

أليس هو البيت الذي عظّمته الملل ، وأثنتْ عليه الرّسُل ، وتليت فيه الكتبُ الأربعةُ المنزّلةُ من إلهكمْ عزَّ وجلَّ ؟

أليس هو البيتُ أمسكَ اللهُ ـ عزَّ وجل ـ فيه الشمسَ على يوشعَ لأجلِهِ أن تغرُبَ ، وباعدَ بين خطواتِها ليتيسر فتحُه ويقربَ ؟

أليس هو البيت الذي أمرَ الله تعالى موسى أن يأمرَ قومَه باستنقاذهِ ، فلم يُجِبْهُ إلا رجلان ، وغضبَ عليهم من أجلِه وألقاهم في التيهِ عقوبةَ العصيانِ ؟

فاحمَدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما نكلَتْ عنه بنو إسرائيلَ ، وقد فضّلهم على العالمينَ ، ووفقكم لِما خذلَ عنه أممٌ مما كان قبلكم من الأمم الماضية ، وجمع لأجلِه كلمتكم وكانتْ شتّى ، وأغناكم بما أمضتْه (كأنَّ) و (قد) عن (سوف) و (حتى) .

فليهنِكم أنَّ الله قد ذكرَكم به فيمنْ عندَه ، وجعلكم بعد أن كنتم جنوداً لأهويتكم جندَه ، وشكرَ لكم المنزّلون على ما أهديتم إلى هذا البيت من طيب التوحيدِ ، ونشرِ التقديسِ والتحميدِ ، وما أمطتم فيه عن طرقِه من أذى الشركِ والتثليثِ ، والاعتقادِ الفاسدِ الخبيث ، فهو الآن يستغفرُ لكم أملاكَ السمواتِ ، ويصلّي عليكم الصلواتِ المباركاتِ .

---

(١) الإسراء ١/١٧ .

فاحفظوا ـ رحمكم الله ـ هذه الموهبةَ فيكم ، واحرُسوا هذه النعمةَ عندكمْ بتقوى اللهِ التي من تمسَّكَ بها سلمَ ، ومن اعتصمَ بعُرونها نجا وعُصِمَ ، واحذروا من اتباعِ الهوى ، ومواقفِ الرَّدى ، ورجوعِ القهقرى ، والنكولِ عن العدا ، وخذوا في انتهازِ الفرصةِ ، وإزالة ما بقي من الغصةِ ، وجاهدوا في اللهِ حقَّ جهادهِ ، وبيعوا أنفسكم ـ عبادَ الله ـ في رضاه ، إذ جعلكم من عبادهِ ، وإياكم أن يستذلكم الشيطانُ ، وأن يتداخلكم الطغيانُ ، فيُخَيِّلَ إليكمْ أن هذا النصرَ بسيوفكم الحِداد . وبخيولِكم الجيادِ ، وبجلادِكم في مواضع الجِلاد . واللهِ « ما النَّصرُ إلا منْ عندِ الله ، إن الله عزيزٌ حكيمٌ (١) » .

واحذروا ـ عبادَ الله ـ بعد أنْ شرَّفكمْ بهذا الفتحِ الجليل ، والمنحِ الجزيلِ ، وخصَّكم بهذا النصرِ المبينِ ، وأعلقَ أيديكم بحبلهِ المتين ، أن يقترفوا كبيراً من مناهيه ، وأن تأتوا عظيماً من معاصيه ، ف « تكونوا كالتي نقضتْ غزلها مِن بعدِ قوةٍ أنكاثاً » (٢) ، و « الذي آتيناه آياتنا ، فانسلخَ منها ، فاتَّبعه الشيطانُ ، فكانَ منَ الغاوين » (٣) .

والجهادَ الجهادَ ، فهو أفضلُ عباداتِكم ، وأشرف عاداتِكم ، انصُروا اللهَ ينصرْكم ، اذكروا الله كثيراً يذكرْكم ، اشكرُوا الله يزِدْكم ويشكرْكم ، جِدّوا في حسمِ الداءِ ، وقطع شأفة الأعداءِ ، وتطهيرِ بقية الأرض التي أغضبَتْ اللهَ ورسولَه ، واقطعوا فروعَ الكفرِ ، واجتثوا أصوله ، فقد نادتْ الأيامُ بالثاراتِ الإسلامية والملةِ المحمديّةِ .

اللهُ أكبرُ ، فتحَ اللهُ ونصَرَ ، وغلَبَ وقهَرَ ، وأذَلَّ اللهُ منْ كفَرَ ، واعلموا ـ رحمكمُ اللهُ ـ أنَّ هذه فرصةٌ فانتهزوها ، وفريسةٌ فناجِزوها ، ومهمةٌ فأخرجوا إليها همَمكمْ وأبرزوها ، وسيِّروا إليها سرايا عزماتِكم وجهِّزوها ، فالأمورُ بأواخرِها ، والمكاسبُ بذخائِرها ، فقد أظفرَكم الله بهذا العدو المخذولِ ، وهم مثلكم أو دون ، فكيف وقد أضحى في قبالةِ

(١) الانفـال ٨/١٠ .
(٢) النحـل ١٦/٩٢ .
(٣) الأعـراف ٧/١٧٥ .

الواحدِ منهم منكمْ عشرونَ ، وقد قال تعالى : « إنْ يكنْ منكم عشرونَ صابرونَ يغلِبوا مائتين » (١) .

أعانَنا الله وإياكمْ على اتباعِ أوامره، والازدجارِ بزواجرِه ، وأيّدنا ـ معشَرَ المسلمينَ ـ بنصرٍ مِنْ عندهِ « إن يَنْصُرْكم اللهُ فلا غالبَ لكمْ ، وإنْ يخذلكمْ فمَنْ ينصُركم مِن بعدِهِ » (٢) .

* * *

اللهمّ ، وأدِمْ سلطانَ عبدِك الخاضعِ لهيبتِكَ ، الشاكرِ لنعمتِكَ ، المعترفِ بموهبتِك ، سيفِكَ القاطعِ ، وشهابِك اللامعِ ، والمحامي عن دينكَ الدافعِ ، والذابِّ عن حرمِكَ وحرمِ رسولِك المانعِ ، السيّدِ الأجلِّ الملكِ الناصرِ ، جامعِ كلمة الإيمانِ ، وقامعِ عبدةِ الصلبان ، صلاحِ الدّنيا والدينِ ، سلطانِ الإسلام والمسلمين ، مطهّرِ البيتِ المقدّس ، أبي المظفّرِ يوسفَ صلاح الدين بن أيوبَ ، محيي دولةِ أميرِ المؤمنين .

اللهمّ ، عمّ بدولتِهِ البسيطةَ ، واجعلْ ملائكتكَ براياتهِ محيطةً ، وأحسنْ عن الدينِ الحنيفيّ جزاءه ، واشكرْ عن الملّة المحمديةَ عزمَه ومضاءَه .

اللّهمّ ، أبقِ للاسلام مهجتَه ، ووقِّ للاسلام حوزتَه ، وانشرْ فى المشارقِ والمغاربِ دعوتَه .

اللّهمّ ، فكما فتحتَ على يديه البيتَ المقدس بعد أنْ ظُنّتْ بهِ الظنون ، وابتُلي المؤمنون ، فافتحْ على يديهِ داني الأرضِ وقواصيها ، وملّكْهُ صياصيَ الكفرِ ونواصيها ، فلا يلقى منهم كتيبةً إلاّ مزّقها ، ولا جماعةً إلا فرّقها ، ولا طائفةً بعد طائفةٍ إلاّ ألحقها بمَنْ سبقَها .

اللّهم ، ذلّلْ معاطسَ الكفّارِ ، وأرغمْ به أنوفَ الفجارِ ، وانشرْ ذوائبَ ملكِهِ على الأمصارِ ، وأثبتْ سرايا جنودِهِ في سبيلِ الأقطار .

---

(١) الأنفال ٨/٦٥ .

(٢) آل عمران ٣/١٦٠ .

اللّهمّ ، ثبّت الملكَ فيه وفي عقبه إلى يوم الدين ، واحفظه في بنيه وبني أبيه الملوك الميامين ، واشدد عضدَهُ ببقائهم ، وافض بإعزار أوليائه وأوليائهم .

اللّهمّ ، فكما أجرَيْتَ على يده في الإسلام هذه الحسنةَ التي تبقى على الأيام ، وتتخلّدُ على مرور الشهور والأعوام ، فارزقه الملكَ الأبديّ الذي لا ينفدُ في دار المتقين ، واجبْ دعوته ودعاءَهُ في قوله : « ربِّ أوزعْني أن أشكر نعمتكَ التي أنعمتَ عليَّ وعلى والديَّ ، وأنْ أعملَ صالحاً ترضاهُ ، وأدْخِلْني برحمتِكَ في عبادِكَ الصالحين (١) » (٢) .

* * *

وجديرٌ بالذكر أن خطيب الفتح محيي الدين بن الزكي خطب بالبيت المقدس بعد هذه الخطبة ثلاث خطب في الموضوع نفسه ، وكلها من إنشائه .

تطرق الخطباء في خطبهم إلى معان ومواضيع دينية شتى ، فمن ذلك خطبة أنشأها الشهاب محمود في وصف الرمي بالنشاب ، وفيها يقول : « وبعد : فإن الرمي افضل ما أعد للعدا ، وأكمل ما أفيض به على أهل الكفر رداء الردى ، وأبلغ ما بعث إلى المقاتل من رسل المنون ، وانفع ما يقتضى به في الوغى من أعداء الدين الديون ، وأسرع ما تبلغ به المقاصد فيما يرى قريباً وهو أبعد ما يكون ، ومن شرف قدره الذي دل عليه كلام النبوة أن النبي (ص) نبه على انه المراد لقوله تعالى : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة » (٣) ، ومما يرفع قدر السهم على غيره ويفضله ، ما روي عنه صلى الله عليه وسلم من انه يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه يحتسب في صنعته الخير ، وراميه ، ومنبله . ومن خصائص القوس انهما عقيم ذات بنين ، صامتة وهي ظاهرة الأنين ، لها كبد وهي غير مجوفة ، ويد لا تملك شيئاً وهي في الأرواح متصرفة ، ورجل ما نقلت قدماً ، وقبضة

---

(١) النمل ١٩/٢٧ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٢١٨ — ٢٢٨ ، وأبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ١١٠ ، وابن شداد : الأعلاق الخطيرة ج ١ ص ٢١١ — ٢٢٠ .

(٣) الانفال ٦٠/٨ .

ما عرفت أثراً ولا عدماً ، فهي نون ما ألف ألماء ، وهلال ما سكن السماء ، وقافية ما باشرت الدمـاء » (١) .

نلاحظ أن الخطب الدينية تميزت بالتقسيم المنطقي ، فهي تبدأ عـادة بحمد الله ، وتتلوه الخطبتان : الأولى فالثانية ، وتختتم بالدعاء وإقـامة الصلاة . كما نلاحظ أن الخطباء كانوا يلجؤون إلى الأسلوب المسجع ، وهذه الظاهرة التقليدية هي التي طبعت بها الخطب الدينية في هذا العصر .

(٢)

الخطب الحـربية

لا شك أن الأحـداث الكبرى في هذا العصر استدعت ازدهار الخطب الحربية لإنارة الحمية في قلوب الجند ، وهي تمتاز بالإيجاز والبعد عن التكلف والسجع وغير ذلك من الزخارف الأسلوبية المعروفة في هذا النوع من الخطب الحماسية . ويظهر أن الظروف الطارئة والحوادث المفاجئة كانت تستدعى إنشاء الخطب الحربية وارتجالها لتلبي الأغراض التي أنشئت من أجلهـا والدواعي التي قيلت خلالها . ذكر القاضي بهاء الدين بن شداد أن السلطان أمر جنـده بالانتقال إلى الخروبة ، وكان من جملتهم ، فخطبهم قـائلاً : « باسم الله ، والحمد لله ، والصلاة على رسول الله . اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا ، قد نزل بلدنا ، ووطىء أرض الإسلام ، وقد لاحت لوائح النصر عليهم ، إن شاء الله تعالى ، وقد بقي العدو في هذا الجمع اليسير ، ولا بد من الاهتمام بقلعه ، والله قـد أوجب علينا ذلك ، وأنتم تعلمون أن هـذه عساكرنا ، ليس وراءها نجدة ننتظرها سوى الملك العادل ، وهو راحـل ، وهذا العدو ، وإن بقي وطال أمره إلى أن ينفتح البحر ، جاءه مدد عظيم ، والرأي كل الرأي عندي مناجزته ، فليخبرنا كل منكم ماعنده في ذلك » (٢) .

---

(١) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب، ج ٢ ص ٣٠٤، وأبو شامة : الروضتين، ج ٢ ص ١٤٦.

تلك هي أنماط من فن الخطابة في هذا العصر : بعضها مسجع ، وبعضها مطلق ، وبعضها التزم السجع حيناً ، ونجرد منه حيناً آخر ، وذلك طبقاً للظروف الطارئة التى يكون فيها الخطيب . فإن سبق له إعدادها جاءت مسجعة ، وإن ارتجلها جاءت جامعة للأسلوبين معاً .

ظهرت في هذا العصر الخطب التدريسية ، نشير من ذلك إلى الخطب التي كان الفقهاء يفتتحون بها مواسم الدراسة في المساجد أو المدارس التي يسند إليهم التدريس أو التحديث فيها ، وظهرت أيضاً الخطب الدفاعية ، ولنا في مناقشات ابن تيمية خلال مجالس الحكم التي عقدت من أجله لمناقشته ومناظرته خير شاهد على أهمية هذا النوع من الخطب المستحدثة في هذا العصر .

* * *

القسم الثاني

النثر الديواني

تحدث القلقشندي عن ديوان الإنشاء والمكاتبات ، فذكر « أنه لا يتولاه إلا أجل كتاب البلاغة ، ويخاطب بالأجل ، وكان يقال له عندهم : كاتب الدست الشريف » (١) ، وهو الذي تسلم إليه المكاتبات الواردة مختومة ، فيعرضها على الخليفة أو السلطان ، ويتولى حفظها والإجابة عنها .

يشتمل النثر الديواني على كتب التقاليد والتواقيع والمناشير ، وكتب الفتوح والتهاني ، وكتب الجهاد والنفير . ازدهر هذا النوع من النثر لأنه لغة التخاطب بين الحكام وعمالهم ونوابهم ، ولأن الأحداث الكبرى التي مرت على البلاد في هذا العصر استدعت تطور النثر الديواني ، وسوف نعرض في هذه الدراسة لمختلف أنواعه المعروفة .

(١)

كتب التقاليد والتواقيع والمناشير

انتشرت هذه الكتب بين أيدي الناس ، واحتفظوا بها لأهميتها ، إذ إنها مظهر من مظاهر الصلة بين الحاكم والمحكوم ، وقد أشار الشهاب محمود إلى هذا النوع من النثر الديواني ، وذكر أن في أيدي الناس مما كتبه فيه الشيء الكثير (٢) ، ثم تحدث لنا عن هذا النوع من النثر ، فهو يرى أن

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٢ ص ٤٩٠ .

(٢) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ١١٠ .

« الأحسن فيها بسط الكلام ، وتعتبر كثرته وقلته بحسب الرتب » (١) .
وطلب أن يراعى فيها أمور كثيرة : منها براعة الاستهلال ، ومراعاة المناسبة ،
وما تقتضيه الحال ، واختيار الكلام والمعاني ، فإنه مما يشيع ويذيع ، ولا
يعذر المقصر في ذلك بعجلة ولا ضيق وقت (٢) .

يقسم التقليد عادة إلى أربعة أقسام متقاربة المقادير : فالأول مخصص
لخطبة التقليد ، وهي حمد الله على إنعامه ، وتكون مطولة لا تقل عن سائر
أقسام التقليد ، والثاني مخصص لذكر مواقع الإنعام في حق المقلد ، وذكر
الرتبة وتفخيم أمرها ، والثالث « في أوصاف المقلد ، وذكر ما يناسب تلك
الرُتبة ، ويناسب حالة من عدل وسياسة ومهابة ، وبُعد صيت وشجاعة
إن كان نائباً ، ووصف العدل والرأي وحسن التدبير والمعرفة بوجوه الأموال،
وعمارة البلاد واصلاح الأحوال ، وما يناسب ذلك إن كان وزيراً ، وكذلك
كل رتبة بحسبها » (٣) ، والربع مخصص للوصايا التي يجب على المقلد
أن يوصي بها المقلّد .

نذكر من ذلك كتاب السلطان صلاح الدين إلى الخليفة لضم الموصل
بعد موت صاحبها غازي بن مودود بن زنكى ، وهو من إنشاء العماد الكاتب :
« قد عرف اختصاصنا من الطاعة والعبودية ، للدار العزيزة النبوية ، بما
لا يختص به أحد ، وامتدت اليد منا في إقامة الدعوة الهادية بمصر واليمن
والمغرب ، بما لم تمتد إليه يد ، وأزلنا من الأقاليم الثلاثة ثلاثة أدعياء ،
وخلفناهم للردى حيث دعوا بلسان الغواية خلفاء ، ولا خفاء أن مصر إقليم
عظيم ، وبلد كريم ، حتى أنقذها الله من عَبيد بني عُبيد ، وأطلقها بمطلقات
أعنتنا إليها من عناء كل قيد ، وفيها شيعة القوم ، وهم غير مأموني السرّ
إلى اليوم ، وطوائف أقاليم الروم والفرنج بها مطبقة ، فمن حقها أن يتوافر
عسكرها ، فلو حصل ، والعياذ بالله ، بها فتق لأعضل رتقه ، واتسع على

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٠٩ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١١٠ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٠١ .

الراقع خرقه ، واحتجنا لحفظ بلاد الشام وثغور الإسلام إلى استصحاب العسكر المصري إليها ، وله خمس سنين في بَيكارها(١) ، منتقماً من كفارها ، متحملاً لمشاقها ، على غلاء أسعارها ، وإنما احوج إلى ذلك أن بلاد هذا الثغر قد اقتطعت عنه ، وعساكرها اخذت منه » (٢) .

وجاء في توقيع انشأه خالد بن القيسراني ، ابن الشاعر المتقدم ذكره ، لنور الدين بإلغاء الضرائب التي كانت تؤخذ من المواطنين بغير وجه حق ، ومما قاله : « وقد علمتم معاشر الرعايا ، وفقكم الله ورعاكم ، ما كان مرتباً من المظالم المجحفة بأحوالكم ، والمكوس المستولية على شطر اموالكم ، والرسوم المطبقة عليكم في ارزاقكم ، والمؤن التي تساهمكم في منافع أملاككم . واستمرار ذلك عليكم ، إلى أن فوض الله عز وجل إلينا تدبير أموالكم ، واسترعانا على كبيركم وصغيركم ، فأمرنا بإزالة ذلك عنكم أولاً فأولاً ، وقد كان بقي من رسوم الظلم ومعالم الجور في سائر الأعمال بولايتنا ما أمرنا بإزالته الآن ، واضفنا إلى ذلك ما كنا اسقطناه أولاً ، رأفة ولطفاً ، وتخفيفاً عليكم وعطفاً ، « الآن خفف الله عنكم ، وعلم أن فيكم ضعفاً (٣) » (٤) .

وجاء في تقليد كتبه الشهاب محمود لسلامس بمملكة الروم حين ورد كتابه قبل حضوره قوله بعد خطبة التقليد : « وليعلم أن جيوشنا في المسير إليه ، متى قصد عدواً سابقت خيولنا خيالها ، وجارت جيادنا ظلالها ، وأبت سنابكها أن تجعل غير جماجم الأعداء نعالها ، وها هي قد تقدمت وأقدمت ، ونهضت لإنجاده ، فلو سامها أن تخوض البحار في سبيل الله لخاضت ، أو تصدم الجبال لصدمت » (٥) .

وجدير بالذكر أن كتب التواقيع وغيرها كانت تجهز إلى البلاد كلها ،

---

(١) بَيكار : لفظة من أصل فارسي ، ومعناها الحرب (Dozy. S. Dic Vol I.P 136)

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب : ج ٢ ص ٩٤ ، ٩٥ .

(٣) الانفال ٨/٦٦ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٩٤ ، ٩٥ .

(٥) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ١١٤ .

وتحمل منها نسخ كثيرة لتوزع فيها ، وهي صورة طبق الأصل عن التوقيع الأصلى . ويلاحظ أنها توضح لنا بعض مظاهر الحياة الهامة ، وهى بنصوصها تسجل لنا مظهراً من أدب هذا العصر وعلاقته الوثيقة بالحياة السياسية ، بيد أنها تبدو بعيدة الصلة عن الحياة النفسية والعاطفية بعض البعد ، فهي ذات طابع رسمي وظيفي أكثر منها ذاتية أو تأملية ، بيد أننا يجب الا نفقدها أهميتها ، إذ إننا نعرف منها صورة الحاكم المثالى كما يفترض أن تكون ، وصورة القاضي النزيه العادل ، وصورة الخطيب المفوّه ، وهكذا نستطيع أن نتبين بدقةأهمية كتب التقاليد التي توضح الآداب السياسية والسلوك الأمثل الذي يجب أن يتمسك به الإنسان الفاضل .

(٢)

كتب التهاني والفتوح

شهدت بلاد الشام في هذا العصر أحداثاً سياسية وحربية كبرى ، لم تشهد لها مثيلاً من قبل، وكانت الفتوح تتوالى ، وتشهد البلاد الاحتفالات بما تحرزه الجيوش من ظفر ، وكانت كتب التهاني المبشرة بهذه الفتوح تحملها الركبان إلى كل مكان .

جاء في كتاب السلطان صلاح الدين إلى أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن قوله بعد فتح اللاذقية بإنشاء العماد الكاتب : « وهذه اللاذقية مدينة واسعة ، وخطة جامعة معاقلها لا ترام ، وأعلاقها لا تُستام ، وهي أحسن بلاد الساحل وأحصنُها ، وأزيدها أعمالاً وصناعاً وأزينُها ، وما في البحر مثلُ ميناها ، ولا للمراكب الواردة إليها مثلُ مرساها ، وهي جنة كان يسكنها أهل الجحيم ، وطالما مكثت بالكفر دار بؤس ، فعادت بالإسلام دار نعيم » (١) .

وجاء في كتاب صلاح الدين إلى الخليفة الإمام الناصر لدين الله بإنشاء عمادي قوله بعد خطبة الكتاب ، وذكر الفتوح التي أفاءها الله على المسلمين :

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٢٦٠ .

« وتلك سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ، سخرها الله على الكفار ، فترى فيها القوم صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية ، وإذا رأيت ثم رأيت البلاد على عروشها خاوية ، ورأيتها إلى الإسلام ضاحكة ، وكانت من الكفر باكية » (١).

ثم قال : « وقد أصدر هذه المطالعة ، وصليبُ الصلبوت مأسور ، وقلبُ ملك الكفر الأسير بجيشه المكسور مكسورٌ ، والحديدُ الكافر الذي كان في يد الكفر يضرب وجه الإسلام ، قد صار حديداً مسلحاً يعوق خطوات الكفر عن الإقدام ، وانصارُ الصليب وكبارُه، وكلٌ من العمودية عمدتهُ والديرُ دارُه ، قد أحاطت به القبضة ، وغلق رهنه ، فلا بقبل فبه القناطيرُ المقنطرة من الذهب والفضة ، وطبرية قد رفعت أعلام الإسلام عليها ، ونكَصَت من عكا مِلةُ الكفر على عقبيها ، وعمرت إلى أن شهدت يوم الإسلام وهو خير يومها ، وقد صارت البيعُ مساجد يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر ، وصارت المذابح مواقف لخطباء المنابر ، واهتزت أرضها لموقف المسلم فيها وطالما ارنجت لموقف الكافر » (٢) .

نلاحظ أن النثر كالشعر يصف لنا الأحداث الكبرى ، ويبرز دقائقها ، وهو كما رأينا يغلب عليه الطابع الديني والحربي .

لم تكن التهاني لتقتصر على الفتوح ، وإنما كانت تبعث لأغراض مختلفة ، نذكر من ذلك ما كتبه ابن الأثير في صدر كتاب بعث به إلى الملك الأفضل يهنئه بملك مصر سنة ٥٩٥ هـ ، وجاء فيه قوله : « المملوكُ يهنيء مولانا بنعمة الله المؤذنة باستخلاصه واحتبائه حتى بلغ أشده ، واستخرج كنوز آبائه ، ولو أنصف لهنأ الأرضَ منه بوابلها ، والأمةَ بكافلها ، وخصوصاً أرضُ مصر التي خصت بشرف سكناه ، وغدت بين بحرين من فيض البحر وفيض يمناه » (٣) .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، وأبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ٨٩ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٢٠٣ — ٢٠٥ ، وأبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ٨٩ .

(٣) المصدران السابقان .

كانت هذه الكتب تسيَّر إلى الجهات في أيام الحرب إثر الفتوح والظفر ، وفي أيام السلم للتهنئة بملك أو سلطان أو ما إلى ذلك .

(٣)
كتب الحرب والنفير والجهاد

أسهم كتاب هذا العصر في وصف الحروب ، وكان لكتاب الإنشاء أوفر نصيب في هذا المضمار ، نورد من ذلك مثلاً ما ذكره العماد الكاتب في وصف الأساطيل المنصورة التى استدعاها السلطان من مصر ، ومما قاله : « فجاءت كالفتح بالفلك المواخر ، وجاءت كأنها أمواج تلاطم امواجاً ، وأفواج تزاحم أفواجاً ، تدِبّ على البحر عقاربها ، وتجف كقطع الليل سحائبها ، والحاجب لؤلؤ مقدّمها ومقدامها ، وضرغامٌ غايتها وهمامها ، فطفِق يكسِر ويكسَب ، ويسْل ويسلب ، ويقطع الطريق على سفن العدو ومراكبه ، ويقف له في جزائر البحر على مذاهبه » (١) .

ومن ذلك أيضاً قول ابن الأثير الكاتب في وصف القتال : « وأقبلت أحزاب الكفر ، وهي معتصمة بصليبها ، ورفعته على أعواد عالية كهيئة خطيبها ، ولم تعلم أن الله كتب عليه الهوان بعد تلك الكرامة ، وانه ذو شعب أربع ، والتربيع نحس في حكم النجامة ، وكيف نرجو بكفرها ظهوراً ، ولها منه معنى الاختفاء ، وللاسلام معنى السلامة » (٢) .

ومن ذلك قوله أيضاً في وصف النفير للجهاد : « فسرنا في غمامة من الكتائب ، تظلها غمامة من الطيور الأشائب ، فهذا يضمها بحر من حديد ، وهذا يضمها بر من صعيد ، وما مرت ببلد إلا أزالت أرضه من سمائه ، وألبست نهاره ثوب ظلمائه ، وبدّلت أحراره بعبيده ، وحرائره بإمائه » (٣).

نخلص من ذلك إلى القول إن هذا النوع من النثر شأنه شأن سابقه ،

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٢١١ .
(٢) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٩١ .
(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٨ .

فهو يعتمد أكثر ما يعتمد على الوصف الدقيق ، وإيراد كل صغيرة وكبيرة ، بيد أنه يفتقر إلى الحرارة العاطفية ، وينقصه الشعور الذاتي ، وبنضاءل فيه الانفعال النفسي ، وهي التي سوف نجدها في بحث النثر الوجداني والذاتي .

(٤)
كتب الوثائق المعربة

لاحظنا في الكتب التاريخية وثائق هامة مترجمة كانت مظهراً من العلاقات السياسية بين الدول الإسلامية والأجنبية المجاورة ، وقد ترجم هذه الكتب المتبادلة الكتاب المختصون في ديوان الإنشاء ، وقد رأينا أعلام الكتاب في هذا العصر كالعماد الكاتب وابن الأثير يجيدون الإنشاء في بعض اللغات الأجنبية المنتشرة في هذا العصر كالفارسية وغيرها .

نذكر من ذلك كتاب « كاغيلوس » الأرمني صاحب قلعة الروم إلى الناصر صلاح الدين : « كتاب الداعي المخلص كاغيلوس ، مما أطالع به علوم مولانا ومالكنا السلطانِ الملكِ الناصرِ ، جامع كلمة الإيمان ، رافع علم العدل والإحسان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطانِ الإسلام والمسلمين ، من أمر ملك الألمان ، وما جرى له عند ظهوره . وهم أجناس متفاوتة وخلق غريبة ، وهم على قصد عظيم ، وجد وسياسة هائلة ، حتى إن من جنى منهم جناية ليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاة ، وقد حرموا الملاذّ على أنفسهم ، وكل ذلك كان حزناً على بيت المقدس ، ولقد صح عن جمع منهم أنهم هجروا الثياب مدة طويلة ، وحرموها على أنفسهم ، ولم يلبسوا إلا الحديد ، حتى أنكر عليهم الأكابر ذلك : وهم من الصبر على الذل والشقاء والتعب في حال خظيم » (١) :

وكان بين الناصر صلاح الدين وملك القسطنطينية مراسلة ومكاتبة ، وكان لديه رسول من قبله ، ولما مات أنفذ رسولاً آخر ، وحمله رسالة إليه

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٢٢٠ — ٢٢٢ .

يقول فيها : « من إيساكيوس ، الملك المؤمن بالمسيح الإله ، المتوج من الله ، المنصور العالي أبداً ، افغقوس المدبر من الله ، القاهر الذي لا يغلب ، ضابط الروم بذاته انكلوس ، إلى النسيب سلطان مصر صلاح الدين والحمية والمروءة . وقد وصل خط نسبتك الذي انفذت إلى ملكى ، وقرأناه من أن رسولنا توفي ، وحزنا عليه ، حيث إنه نوفي في بلد غريب ، وما قدر أن يتم كل ما رسم له ملكي ، وامره ان يتحدث مع نسبتك ، ويقول في حضرتك ، ولا بد لنسبتك أن تهتم بإنفاذ رسول إلى ملكي مع رسول المتوفى ، والقماش الذي خلفه ، ويوجد بعد موته لنعطيه أولاده وأقاربه ، وما أظن انه يسمع من نسبنك أخباراً ودية ، وأنه قد سافر في بلاد الألمان ، ولا عجب فإن الأعداء يرجفون بأشياء مكذوبة على قدر أغراضهم ، ولو تشتهي أن تسمع الحق فإنهم قد تأذوا وتعبوا كثيراً أكثر مما تعب فلاحو بلادك ، وقد خسروا من المال والدواب والرجال ، ومات منهم وقتلوا ، وبالشدة قد تخلصوا من أيدي أجناد بلادي ، وقد ضعفوا بحيث أنهم لا يصلون إلى بلادك ، فإن وصلوا ضعافاً بعد شدة كبيرة ، لا ينفعون جنسهم ، ولا يضرّون نسبتك . وبعد ذلك : كيف نسيت الذي بيني وبينك ؟ كيف ما عرفت لملكي شيئاً من المقاصد والمهمات ؟ وما ربح ملكي من محبتك إلا عداوة الإفرنج وجنسهم » (١) .

وقف صلاح الدين على هذه الترجمة ، واكرم الرسول ، واحسن مثواه ، وكان شيخاً عارفاً بالرومية والفرنجية .

نخلص من كل ذلك إلى أن نقرر أن النثر الديواني يختلف في أساليبه قوة وضعفاً ، وسجعاً وانطلاقاً ، بحسب الموضوع المطروق أولاً ،وبحسب المنشىء أو المترجم ثانياً . وسوف نعرض لكل ذلك خلال حديثنا في الفصل المقبل عن الأساليب النثرية ومذاهبها الأدبية وانجاهاتها المتباينة .

يضاف إلى ما تقدم أن الكتاب كانوا يكتبون هذه الرسائل بحكم واجبهم الديوانى كعمل منوط بهم ، ويكاد يكون عقيماً أن نعثر في هذه الرسائل

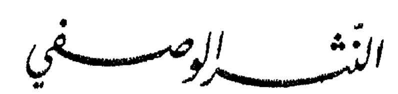
---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية ، ص ١١٥ - ١١٧ .

على حرارة تنبض بها ذواتهم وعواطفهم، إذ إن النفوذ العقلي والتصنع البلاغي كانا بارزين فيهـا كل البروز حتى ليستحيل علينا أن نجد بين سطورها العاطفـة الصادقة والشعور الإنساني المتقد . كان هم الكتاب أن يظهروا براعتهم البيانية ، ومهارتهم الأسلوبية لكي يشعروا السلاطين والحكام أنهم وحدهم الذين يقام بالاعتماد عليهم دعائم الملك والسلطان ، وأن أساليبهم هي التي ملكتهم البلدان ، وهم فيذلك يحاولون الهيمنة على عقولهم ليعتقدوا أنهم سحرة البيان وأربابه .

* * *

القسم الثالث



يتضمن النثر الوصفى كتب التاريخ المسجع ، وكتب التراجم والرحلات وأوصاف الرياضات المعروفة في هذا العصر ، وشتى الأوصاف الأخرى ، وهو ــ على الغالب ــ مسجع الفواصل متوازن الفقرات .

(١)

التاريخ المسجع

لاحظنا أن بعض الكتاب قد استخدموا الأسلوب المسجع في التصانيف التاريخية ، نذكر مثلاً العماد الكاتب ، وقد صنف كتابين مسجوعين : أحدهما الفتح القدسي ، وثانيهما البرق الشامي ، وسبق لنا أن ذكرنا رأي أبى شامة المقدسي في هذا السجع ، ورأينا أنه يمل القارىء ، ويخرجه عن الحوادث التاريخية التي يتقصاها ، وأشرنا إلى أنه حذف معظم الأسجاع ، وأبقى منها ما استحسنه لكي يفهم الكلام الخاص والعام .

يبدو أن الكتاب ، أصحاب مذهب الأسلوب المسجع ، حاولوا أن يطبعوا مؤلفاته بطابعها الخاص ، بيد أن الآخرين من المؤرخين ، وهم الكثرة ، لم يلتزموا السجع هذا الالتزام ، وإنما تركوا لعنانهم القلم ، فكان أسلوبهم طليقاً في معظم الأحيان :

(٣)

التراجم والرحلات

رأينا أن اغلب كتب الرحلات والتراجم كانت لا تلتزم الأسلوب المسجع المعروف في هذا العصر ، فنرى مثلاً القاضي ابن شداد يؤرخ ترجمة مولاه صلاح الدين في النوادر السلطانية بأسلوب طليق مجرد من أي زخارف بديعية أو تصنع بياني . نذكر منه قوله : « وكان الله قد أوقع في قلبي محبته منذ رأيته ، وحبه الجهاد ، فأحببته لذلك ، وخدمته من تاريخ مستهل جمادى الأولى سنة أربع وثمانين ، وهو يوم دخول الساحل ، وجميع ما حكيته إنما هو روايتي عمن أثق به ممن شاهده ، ومن هذا التاريخ ما سطرت إلا ما شاهدت ، أو أخبرني به من أثق خبره يقارب العيان » (١). ونجد الأمر نفسه عند أسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار وقد رأينا أنه تحرر مثله من قيود السجع وتكلف الزخارف البديعية .

كانت الترجمة الذاتية ذات شأن كبير في ادب هذا العصر ، فقد كثرت الرحلات في المشرق والمغرب ، وقد حاول الرحالة أن يعرضوا لنا جانباً من حيواتهم ، وبصوروا لنا ما حصل لهم ، وكانت هذه المؤلفات بحق كسباً أدبياً كبيراً لتراجم الذاتية ، نشر من ذلك إلى رحلة ابن جبير ، وهي ذات أهمية كبرى ، إذ هي صورة عن الحياة الاجتماعية ، وهي تعد صورة واقعية صادقة عن مراحل حياة الرحالة الكبير . يضاف إلى ذلك كتب المتصوفة ، فهي في الحقيقة تحتوي عى جانب كبير من تراجم التصوف وذكر أحوالهم المادية والروحية ، ويبدو ذلك واضحاً عند ابن عربي في ترجمان الأشواق وغيره من مؤلفاته الصوفية .

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٧١ .

(٣)

أوصاف الرياضات والطرديات

تحدث الشهاب محمود بالتفصيل عن هذا النوع من النثر الذاتى ، وذكر أنه « مما يحسن بسط الكلام فيه ، وبكون الكاتب مطلق العنان ، مخلى بينه وبين فصاحته ، موكولاً إلى اطلاعه وبلاغته » (١) .

يتضمن هذا النوع وصف الخيل والجوارح والسلاح وآلات الحرب ، وأنواع الرياضات المختلفة من لعب الكرة ورمي البندق ، ولا نبالغ إن قلنا : إن الرياضة الأخيرة أصبحت مع الزمن موضوعاً رئيسياً في أدب هذا العصر ، طرقه الكتاب والشعراء على السواء . أورد الشهاب محمود رسالة في البندق « تشتمل على أنواع من الأوصاف ، وفنون من النثر والنظم ، يستعين بها الكاتب على ما يشاء من إنشاء قدمه في أي نوع أراد من الطير الواجب » (٢). يقول في مقدمتها : « الرياضة نبعث النفس على مجانبة الدعة والسكون ، وتصونها عن مشابهة الحمائم في الركون ، وتحضها على أخذ حظها من كل فن حسن ، وتحثها على إضافة الأدوات الكاملة اللسن ، وتأخذ بها طوراً في الجِد وطوراً في اللعب ، وتصرفها عن ملاذ السمو في المشاق التي يستروح إليها النصب » (٣) . ثم ينتهي من هذه المقدمة ليصف لنا بروزه للصيد في وقت الأصيل ، فيتحدث عن الطبيعة والجداول والطيور والنسائم ، يستطرد بعد ذلك ليعرض مجموعة منها ، وقد « أصبحت أشلاؤها على وجه الأرض كفرائد خانها النظام » (٤) .

---

(١) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ٩٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠٣ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٠٤ .

أختار هذه الرسالة صديقه جمال الدين بن نباتة المصري أمير شعراء المترق ، وأوردها كاملة في كتابه « سجع المطوق » (١) :

(٤)
المقامات الفنية

يبدو أن فن المقامات لم يزدهر كثيراً في هذا العصر ، ولم بهتم به أدباؤه ، ولم يستخدموه في المعاني والأغراض التي أنشىء من أجلها على يد الهمذاني والحريري . كما أن قلة النصوص النبي وصلتنا عن هذا الفن تحول بيننا وبين الحكم عليه حكماً موضوعياً قائماً على البحث والدراسة . ومن بين المقامات التي وصلتنا بعض ما جاء في « مقامة مرصعة نصف فيها الحال بعد وقعة حلب مع التتار » (٢) ، وقد الفها الشيخ جمال الدين عمر ابن الحسين الرسعني ، وذكر فيها وقعة حلب المذكورة ، وعدها ابن الوردي من أحسن ما قيل في ذلك : « هذا وقد نزلت فنون البلاء بالشام ، وهملت عيون العناء كالغمام ، وصار شام الإسلام كالوشام ، وعرام الأنام في عزام ، وخفيت آثار المآثر ودرست وأطفئت أنوار المنابر وطمست ، وحلبت العيون ماءها على حلب ، وسكبت الجفون دماءها من الصلب ، والنف عليها الختل والاختلال، واحتف بها القتل والوبال، واختطف من أعبانها عرائس الشموس والأقمار ، واقتطفها من اغصانها نفائس النفوس والأعمار ، فستر سفور السرور ، ونشر ستور الشرور ، وتخربت الدور والقصور ، ونحرت الحور في النحور ، وجرت عيونها عى أعيانها ، وهمت جفونها على شبابها ، بدموع جرت نجيعاً ، لفظوع طرت سريعاً ، ونما الطغيان والغش في روضة الشام ، وسما العدوان في عش بيضة الإسلام ، ورفعت الصلبان على المساجد ، ووضعت الأديان والمعابد ، حتى بكى على الوجود الجلمد ، وشكا إلى المعبود السرمد ، ولما تعظم العدو وتكبر ، وتقدم بالعتو وتجبر ، وبسط سيفه على

---

(١) ابن نباتة : سجع المطوق (مخطوط) و ٦٩ .

(٢) ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٢١٥ .

الخافقين ، وهبط خوفه على المشرقين ، أطلع الله طلائع اللواء المظفر ، وأبدع مطالع السناء الأنور ، وخفقت السرايا والبنود ، وشرقت الآيات والسعود بانجذاب الكفار إلى كنعان ، وانسحاب الفجار إلى الهوان » (١) .

نلاحظ في هذا النص الذي اقتطفه ابن الوردي في مقامة الرسعني الطويلة أن هذه المقامة لم تحتفظ من صفات المقامات إلا بأسلوبها المرصّع المملوء بالزخارف البديعية والصور البيانية. أما البطل الأسطوري والراوية التقليدي والقصة المحبوكة ، فلا نجد لها أثراً أبداً .

وجدير بالملاحظة والذكر أن الحسن بن صافٍ (المتوفى سنة ٥٦٨ هـ) أنشأ مقامات حذا فيها حذو الحريري ، وأن الشاب الظريف أنشأ مقامات العشاق ، وفيها يصف حبه وخروجه لرياض والتقاءه بعاشقين وحديثه معهما ، وقد استهلها بقوله :

« لم أزلْ مذ بلغتُ سنَّ التمييزِ ، أتولعُ بنظمِ الأراجيزِ ، ومذ شبَّ عمري عن الطوقِ ، مغرى بالغرامِ والتوقِ ، أعتمدُ خلعَ العِذارِ ، في حبِّ السالفِ والعِذارِ ، وأهيمُ بالشَّمولِ والشَّمائلِ ، وأشربُ في زجاجةٍ صفراءَ كالأصائلِ ، وأقدمُ على رشفِ ثغورِ البيضِ ، وأتوجّه لضمِّ أعطافِ السُّمرِ ، ولا أتوجّع لضيمِ انعطافِ السُّمرِ ، وأتنزّه في كلِّ نادٍ ووادٍ ، وأتنزّهُ عن كلِّ معاندٍ ومعادٍ ، فخرجتُ بعضَ الأيامِ إلى الفياض ، وولجت بين حياضٍ ورياض ... » (٢) .

واختتمها بقوله :

« فما بقي أحد حتى رقَّ له ، وودَّ لو حملَ وجدَهُ ونقله ، ثم عزمنا على التّفريقِ ، وذهب كلٌّ من الجماعةِ في طريقٍ ، فأُبتُ وقد ملِئتُ ومُلِئتُ

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢١٥ ، ٢١٦ .

(٢) الشاب الظريف : مقامات العشاق ، ص ١ .

من الطرب ، ودُهِشْتُ لما شهدتُ في يومي من العجب » (١) .

يضاف إلى ذلك مقامة الشهاب محمود التي صنّفها باسم « مقامة العشاق » (٢) . ذكر صاحب كشف الظنون أنه تأثر بمقامات العشاق للتاب الظريف ، ونسج على منوالها (٣) . كما كثر التأليف حول شرح المقامات ، نشير من ذلك إلى شرح ابن ظفر لمقامات الحريري المعروف بـ « المطوّل في شرح المقامات » ، وكتابه الآخر الذي سماه « التنقيب على ما في المقامات من الغريب » (٤) .

يضاف إلى ذلك أيضاً شرح مقامات الحريري لعبد الكريم البعلبكي (المتوفى سنة ٦٠٠ هـ) ، وقد شرحها « شرحاً جيداً في الغاية » (٥) .

أما سائر الأوصاف فكثيرة ، نعثر عليها في الرسائل النثرية ، وكان الكتاب يحاولون أن يبرزوا فيها مقدرتهم . يقول ابن الأثير في وصف الربيع : « فصل الربيع هو أحد ميزاني عامه ، والمستقيد لسامه من حامه ، وقد وصف بأنه ميعاد نطق الأطيار ، وميلاد أجنة الأزهار ، والذي تستوفى به حولها سلافةُ العقار ، فإذا سلت السحب فيه سيوفها ، كان ذلك للرضا لا للغضب ، وإذا خلعت على الأرض غلالتها الدكناء ، لبست منها ديباجة منسوجة من الذهب » (٦) .

ويقول الشهاب محمود في وصف حصن : « قد تقرط بالنجوم ، وتقرطق بالغيوم ، وسما فرعه إلى السماء ، ورسا أصله في التخوم ، تخال الشمس إذا علت أنها تنتقل في أبراجه ، ويظن من سما إلى السها أنه في ذبالة سراجه ،

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٢ .

(٢) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ج ٢ ص ٥٦٥ .

(٣) السيوطي: بغية الوعاة ، ج ١ ص ٦٠ .

(٤) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ٢ ص ١٧٨٦ .

(٥) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ٢ ص ١٧٨٩ .

(٦) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ١٠٧ .

لا يعلوه من مسمى الطير غير نسر الفلك ومرزمه (١) ، ولا يرمق مبرجات بروجه غيرُ عين شمسه ، والمقل تَطرَف من أنجمه ، وحوله من الجبال كل شامخ ، تتهيب عقاب الجو قطع عقابه ، وتقف الرياح حسرى إذا توقلت في مصابه ، وتخاف العيون إذا رمقته سلوك مادونه من المحاجر ، ويتخيل الفكر صورة الترقي إليه ، ثم لا يبلغها حتى تبلغ القلوب الحناجر ، وحوله من الأودية خنادق لا تعلم منها الشهور إلا بأنصافها ، ولا تعرف فيه الأهلة إلا بأوصافها » (٢) . نكتفي بصورتي الربيع والحصن الوصفيتين لندلل على شدة عناية كتاب هذا العصر برسم الصور المختلفة بدقة تامة ، ومبالغتهم في معانيها ، وذلك كله ضمن إطار فني من التكلف اللفظي المسجع والتصنع البديعي المزخرف . هكذا كان النثر الوصفي ، شأنه شأن الديواني ، تنعدم فيه الأصالة الذاتية والنبضات الوجدانية ، نستثني من ذلك بعض كتب التراجم التي تكاد تكون غريبة بين أقرانها .

* * *

---

(١) مرزمه : أي أسده ، والمقصود هنا برج الأسد .

(٢) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ١٠١ .

القسم الرابع

النثر الذاتي والوجداني

لا شك أن النثر الديوانى كان يحتل الصدارة في نثر هذا العصر وذلك لضرورته وحاجة الدولة إليه في شؤونها وأعمالها . ولا يعني ذلك انه لا يوجد نثر ذاتي ، يعبر فيه الكتاب عن وجدانهم وعواطفهم مجردين عن كل صلة بالمنفعة أو الضرورة .

اشترط الشهاب محمود في ذلك شروطاً متعددة نذكر منها ما جاء في قوله : « فأما الكتب الإخوانية ، والكتب التي تعمل رياضة للخاطر ، فيما يقلّ وقوعه لاحتمال أن يقع ، أو فيما تمتحن به قوة القريحة ، ويعتبر به تصرف الفطنة ، ويسبر به غور الذهن ، ويعلم به استعداد الفكر ، فإن الكاتب في ذلك مطلق العنان ، مخلى بينه وبين قوته فيه أو ضعفه ، لكن على كل حال يراعى كل مقام بحسبه » (١) .

ونرى توضيحاً لهذا النوع من النثر أن نتحدث عنه خلال دراسة الرسائل الإخوانية ، والخواطر التأملية ، والقصص الوعظية .

(١)
الرسائل الأخوانية

يبدو موضوع هذه الرسائل حول التحدث عن الصداقة والصلة بين الأخوان والأقرباء والأصدقاء ، وتمتزج بالعتاب والاعتذار والحب ، إذ إن

---

(١) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٨٦ .

الكاتب يحاول أن يظهر شعوره ، ويعرب عما في قلبه من حب ومودة ، ويزيل ما علق في نفس صديقه من ريب أ وما حدث من جفاء وقطيعة .

كتب ابن الأثير في فصل كتاباً يتضمن معاتبة أخ لأخوته ، وجاء فيه قوله « جرحوا قلبي ، وحبهم يذهب بألم الجراحة ، وطرفوا عيني ، وهم يزيدون في نظرها ملاحة ، وإذا صدرت الإساءة عن الأحباب لم يكن وقرها وقراً ، وأصبحت وهي منسية إذا تجددت الإساءة بالذكرى ، وما منهم إلا من سبط دمي بدمه ، ولحمي بلحمه ، ولولا أن الأسماء معارف الأشخاص لكان اسمي وارداً على اسمه ، وكيف أخشن عليهم ، وقد جعلني الله لهم على اللين ؟ أم كيف أذود النفس عنهم وهي مشتقة منهم ، وآدم بين الماء والطين ، ومتى أؤمل من شجرتي أغصاناً كهذه الأغصان ، وقد أصيبت جرثومتها بالجداد ، ولهذا قيل : إن الأخوة يتعذر الاعتياض عنهم ولا يتعذر الاعتياض عن الأولاد » (١) .

وكتب الحصكفي إلى أسامة بن منقذ رسالة يتشوق فيها إليه سنة ٥٢٦هـ، ويستدعي ألفاظه:« أناط من ألفاظ حضرة الأمير مؤيد الدولة سعد الملك شرف الأمراء بين السُور العاصم وسُور المعاصم ، أدّخر ذا الشرف للباس ، وافتخر بالشرف من اللباس ، سورُ ضرب وله باب بين أهل الرحمة وأهل العذاب ، وسورٌ حلت عندها الألباب ، وتحلت بها الأحباب ، وهلا زدت هاءً فازددت بها بهاءً ، ففلت بين سورة فضلها لا يُكذّب ، وسوره كل ملك دونها ينذبذب ، فالحق بمن بنر به خطبب إياد . وأسبق ممدوح إلى ثمامة زياد ، ولما نبّهنى من رقدة الذهول ، ونبهني عن وحدة الخمول ، رفعتني النباهة ونفعتني الانتباهة . فلبيت نداءه عجلا ، وقد جعلت فداءه مرتجلاً :

أُسامةُ أعدْلٌ أنْ أسامَ تجلّدي؟ متى لم تكن لي مرشداً يابن مرشد؟(٢)

يلاحظ أن الرسائل الإخوانية كانت منتشرة على نطاق واسع ، على

---

(١) رسائل الحصكفي (مخطوط) و ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

(٢) رسائل الحصكفي (مخطوط) و ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

الرغم مما فيها من تصنع بلاغي وتكلف لفظي ، فإننا نحس بالعاطفة الصادقة والشعور الإنساني النبيل الذي يربط بين الصديقين أكثر مما عرفنا في الرسائل الماضية . ويلاحظ من طرف آخر أن العاطفة كانت تحاول أن تبرز من خلال هذه الرسائل ، إلا أن التصنع والتكلف كانا يحجبانها عنا قليلاً ، فيحاول الكاتب من خلال هذا الجهد الفني الذي كان يبذله أن يصعدها . وهكذا نجد العاطفة تتفاوت بمقدار ما يغلب التصنع على الكاتب لكن هذا لا يعني أنها انعدمت تماما ، فنكون بذلك قد ظلمناه .

(٢)
الخواطر التأملية

حاول الكتاب من خلال هذا النوع من الكتب الإخوانية أن يروضوا خواطرهم فيما يقل وقوعه أو فيما تمتحن فيه قوة القريحة ويعلم به استعداد الفكر (١) ؛ وقد ترك الكتاب العنان لأنفسهم ، وعبروا عما في نفوسهم ، ولكنهم لم ينخلوا عن الأسلوب الذي عرفناه في النثر الديواني .

أشار الشهاب محمود إلى بعض خواطره التي دوّنها رياضة للخاطر لصعوبة مسلكه في الكتاب الذي أنشأه إلى إنسان تخيله ، يتضمن مخاطبته في تزويج أمه (٢) ، وفي الكتاب الذي أنشأه إلى من هزم هو وجيشه (٣) ويتضمن إقامة عذره ووصف اجتهاده ، ويحثه على معاودة عدوه والأخذ بثأره ، وفي الكتاب الذي أنشأه أيضاً في ذم المهزوم وتقريعه (٤) ، وفي الكتاب الذي أنشأه على لسان المهزوم ، يتضمن الاعتذار ، ويصف الاحتفال بأخذ الثأر ، ومما قاله : « إلى فلان أتبع الله ما ساءه من أمرنا مع العدو بما يسرّه ، وبلغه عنا من الانتصاف والانتصار ما يظهر من صدور الصفاح

---

(١) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ١١٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١١٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١١٨ .

والسنة الرماح سره ، وأراه من عواقب صنعه الجميل بنا ما يتحقق به أن كسوف الشمس لا ينال طلعتها ، وأن سرار القمر لا يضره (١) » . كان من المفروض في مثل هذه الخواطر أن يبعث الكاتب فيها حرارة العاطفة ، بيد انه رضي لنفسه طرافة الموضوع وغرابته ، أما العناصر الذاتية والتأملات الباطنية فتكاد تضيع بين فقرات الأسجاع .

(٣)
القصص الوعظية

ظهر نوع جديد من النثر الوجداني التأملي في هــذا العصر ، التزم في بعض فصوله السجع أحياناً . أشار العماد الكاتب إلى هذا النوع من القصص الوعظية عرضاً خلال ترجمته للمهذب الدمشقي ، ومما قاله فيه « له الفصول المسجوعة ، والكلم المطبوعة بكــل حسن ، وكلامــه بضاعة وعاظ دمشق وقصاصها ، ونثره كالدر النظيم يرصعه بالنطق الإيادي ، في نطــاق كلام العباديّ » (٢) .

ويظهر أن قصاص دمشق ووعاظها لم يوردوا مواعظهم مجردة ، وإنما كانوا يوردونها في معرض قصص رمزية رائعة ، فقد أشار العماد الكاتب إلى رسالة للمهذب الدمشقي اسمها « النسر والبلبل » ، وهي طويلة جداً ، تحدث فيها الكاتب عن كثير من الأوصاف ، وأورد حــواراً جميلاً بين هذين الطائرين اللذين يمثلان القوة والضعف ، ومن هذا الحوار الجميل ووصف الطبيعة ، كان المهذب يضمن وعظه في رسالته . نذكر منها قوله : « فبينا هو صاف الأجنحة عليها ، ينظر من الأفق بعين التعجب إليها ، إذ ســمع صوتاً من بلبل سحريّ على وكر شجريّ ، يرجّع قراءة مكتوب غرامه ، ويتلو آيات حــزنه من مصحف آلامه ... فقال : هــذه غريبة أخرى من غرائب القدر ، وعجيبة ثانية لم ترها العين ولا هجست في الفكر ، وكاسات

---

(١) المصدر السابق ، ص ١١٦ .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٣٤٦ .

خمر تدار في الخمر ، وعقود سحر تحل في السحر ، ونغمة لم أسمعها من ذي منقار ، والحان ما رئي مثلها لسار ولا قار ، كأنها ما قيل عن مزامير داود ، وتسابيحهم في الركوع والسجود ، أو معبد والفريض ، يتباريان في الطويل والعريض ، أو إسحق الفريد ، يعدّل عوده عند الرشيد ، أو هزج شداة العجم ، او رجة حداة العرب في الظلم ، أو أصوات رهبان الصوامع ، او تلاوة من تتجافى جنوبهم عن المضاجع ... ثم هوى إلى القرار ، لينظر من النافخ في المزمار ، فرأى البلبل يتلو سور بلباله ، في محراب وباله ، ويرجّع سجع الحانه ، في ربع أحزانه (١) » .

قصة وعظية جميلة أوردها العماد ، وانتهى منه بذكر بعض الوصايا والحكم الوعظية ، وختمها بقوله : « واتم هذه الرسالة بفصل وعظي ليس من شرط الكتاب » (٢) .

يتضح لنا أن الأدب الوعظي قد ازدهر في هذا العصر كل الازدهار ، وقد ذكر أن صلاح الدين تقدم إلى الواعظ زين الدين بعد صلاة الجمعة في بيت المقدس عام الفتح الأغر ، فجلس عنده ، واستمع مع الناس إلى ذكر الفتح ، وفضائل الأرض المقدسة والصخرة ، وما ورد فيها من الأخبار والآثار « فجلب بعباراته العبرات واشار العسل بمعسول الإشارات » (٣) .

ولما بلغ الناصر داود اتفاق عميه الكامل والأشرف على خلعه واخذ دمشق منه بعد اتفاقهما مع الفرنجة وتسليمهما القدس إليهم ، طلب من سبط ابن الجوزي ، « وكان واعظاً ، وله قبول » (٤) أن يعمل مجلس وعظ ، ففعل ما أمره به ، وذكر فيه فضل بيت المقدس ومصيبة المسلمين بتسليمه

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٤٦ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٥٣ .
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٢٢٨ .
(٤) ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ١٥٠ .

إلى الفرنجـة ، وانشد قصيدة من شـعر دعبـل ، فارتفع بـكاء الناس وضجيجهم [١] .

يجب أن نفرق بين الواعظ والقاص ، فقد تحدث تاج الدين السبكي عن الواعظ وطلب منه أن يذكـر الناس بأيام الله ، وينبئهم بأخبـار السلف الصالحين وما كانوا عليـه ، وخلص إلى القول : « واعلم أن الكلام إذا لم يخرج من القلب لم يصل إلى القلب » [٢] .

ووصف القاص ، وذكـر أنه « من يجلس في الطرقات ، ويذكر شيئاً من الآيات والأحاديث وأخبار السلف » [٣] ، وذكر أنه ينبغي الا يذكر إلا ما يفهمه العـامة ، ويشتركون فيه من الترغيب في الصلاة والصوم وإخراج الزكاة ونحـو ذلك .

يؤكد لنا هذا القول ان الفن القصصي استقل في هذا العصر عن الوعظ الديني ، لأن الوعاظ كانوا يعقدون مجالسهم في المساجد وغيرهـا ، امـا القصاص فكانوا يجلسون في الطرقات ولا يذكرون إلا ما تفهمه العامة .

عرف الادب القصصي إذاً في هذا العصر ، ولقي رواجاً كبيراً لدى العامة أكثر منه لدى الخاصة ، وقد اشار ابن الأثير إلى ذلك في معرض حديثه عن ابن الخشاب البغـدادي ، وكان إماماً في عـلم العربية ، فقيل : إنه كان كثيراً ما يقف على حلق القصاص والمشعبذين ، وإذا اتاه طلبة العلم لا يجدونه في أكثر أوقاته إلا هنـاك ، فليم على ذلك ، فأجابهم « لو علمتم ما أعـلم لمـا لمتم ، ولطالما استفدت من هـؤلاء الجهال فوائد كثيرة ، فإنهم تجري ضمن هذيانهم معـان غريبة لطيفة ، ولوأردت انا وغيري أن نأتي بمثلهـا لما استطعنا ذلك » [٤] .

---

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٥٠ .

(٢) السبكي : معيد النعـم ، ص ١١٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١١٣ .

(٤) ابن الأثير : المثل السائر ج ١ ص ٥٧ .

أمر هام جـداً جدير بالبحث والنظر ، بيد أننا لا نملك من آثار هؤلاء القصاص والوعاظ والمشعبذين ما يمكننا من دراسة هـذا الفـن القصصي الشعبى الذي أعجب به منذ القديم ابن الخشاب البغدادي وابن الأثير الكاتب دراسة موضوعية ، نبين أصوله واضحة على الوجه الأتم في هذا العصر ، وعلى الرغم من هـذه الصعوبات فاننا نستطيع أن نلقي بعض الضوء على هـذا الفن القصصي من خلال عرض كتابين اثنين ، نبهني إلى أهميتهما أستاذي الكريم الدكتور عبد العزيز الأهواني ، أحدهما : « سلوان المطـاع في عدوان الأتباع » (١) لابن ظفر الصقلي ، أحد أدباء القرن السادس الهجري، وثانيهما : « كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار (٢) » لابن غانم المقدسي أحـد وعاظ القرن السابع الهجري .

سلوان المطـاع في عـدوان الأتبـاع

صنف ابن ظفـر (٣) كتابه هذا سنة ٥٥٤ هـ لأحـد قواد صقلِّيَّة ، « سائد السادة وقائد القادة أبي عبـد الله محمد بن القسم بن علي بن علويّ القرشي » (٤) .

---

(١) ترجم المستشرق الايطالي أماري ميكليه (Michele Amari) هـذه القصة الى اللغة اللاتينية وطبعها في فلورنزا سنة ١٨٥١ م .

(٢) ترجم المستشرق الفرنسي دوتاسي (Garcin de Tassy) هذه القصة الى اللغة الفرنسية وطبعها بعنوان (Les oiseaux et les Fleurs) في باريس سنة ١٨٨٢ م .

(٣) حجة الدين : أبو عبد الله ، محمد بن أبي محمد عبد الله بن محمد بن ظفر الصقلي، ولد بجزيرة صقلية ، وكانت نشأته في مكه ، ثم تنقل في البلاد ، ورحل الى مصر وافريقية ، وأقام في المهدية مدة من الزمن ، شهد فيها حروب الفرنجة الذين أخذوها عنوة من المسلمين وهو مقيم فيها فاضطر الى الارتحال عنها الى مسقط رأسه في صقلية لقربها من مكان وجوده ، لكنه قفل عائداً منها الى مصر ثانيه وقصد بعدها بلاد الشام فوصل حلب ، وحل مقيماً في مدرسة ابن أبي عصرون ، فلما جرت فيها الفتنة الكبرى بين السنة والشيعة ، نهبت كتبه فيما نهب ، فقصد حماة ، ولقي فيها قبولاً كبيراً ، فهرع اليه طلبة العلم ، ونشط للتأليف بعد أن أجري عليه راتب من ديوانها ، وبقي مقيماً فيها حتى وفاته سنة ٥٦٥هـ (السيوطي : بغية الوعاه ، ج ١ ص ٥٩ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٦٦٠ ، وياقوت : ارشاد الاريب ، ج ٣ ص ١٠٢ ، والدلجي : الفلاكة والمفلوكون ، ص ١٠٣) .

(٤) ابن ظفر : سلوان المطاع ، ص ٣ .

وقد ذكر حاكم مدينة أسيوط وخطيبها أبو البركات محمد بن على بن محمد الأنصاري أنه قرأ هذا الكتاب على مؤلفه « من أصله بخطه بثغر حماة ، صانه الله وحماه ، في شهر رجب سنة ٥٦٥ هـ » (١) .

يحتوي هذا الكتاب على خمس سلوانات : السلوانة الأولى في التفويض ، والثانية في التأسي ، والثالثة في الصبر ، والرابعة في الرضا ، والخامسة في الزهد . صدر المؤلف كل سلوانة بذكر ما ورد في موضوعها من الآيات القرآنية ، وشفعها بذكر الأحاديث النبوية الملائمة ، ضمنها ذكر منثور الحكم وموزونها ، لكن أهم ما في هذا الكتاب القصص الشائقة والسير الجميلة التي كان يتمثل بها في سلواناته المختلفة ، ويستهلها بهذا العنوان المسجع « روضة رائقة ، ورياضة فائقة » (٢) على الرغم من أن أسلوبها كان في أغلب الأحيان حراً طليقاً ، عدا الحكم والأمثال وخطبة الكتاب ، فقد التزم فيها السجع . أما سائر القصص بما فيها من سرد وحوار ، فقد كانت بعيدة عن هذا التكلف ، وجاء الأسلوب حراً طليقاً .

أما موضوع القصص فيختلف بحسب السلوانة التي يتحدث عنها ، وهي بشكل عام وعظية تستهدف النصح والإرشاد ، وتقدم للقارىء ثمرة الحكم وتجارب الحياة . ويظهر أنه كان يستهدف نصح الملوك وإرشادهم ليسلكوا في حياتهم سواء السبيل . ففي سلوانة الصبر قوله : « والنوع اللائق بكتابنا منها هو صبر الملوك » (٣) . وفي خطبة الكتاب قوله : « نفثت في صورها أرواح الأخلاق الزكية ، وكسوت جسومها حلل الآداب الملوكية ، وتوجت رؤوسها بتيجان الهمم الأدبية ، وقلدت عوانقها سيوف المكايد الحربية » (٤) .

---

(١) ابن ظفر : سلوان المطاع ، ص ٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١ ، ٢٣ ، ٣٨ ، ٦٨ ، ٨٨ ، ١٢١ ، ١٢٧ ، ١٣٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٦٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص .

وجدت الطبقات الشعبية أيضاً إلى هذا الكتاب سبيلها ، إذ آنست منطلقاً ومتنفساً جديداً في هذه القصص المسلية التي لا تقتصر موضوعاتها على الملوك والطبقة الحاكمة ، وإنما تجاوزتها إلى آفاق أخرى ، حتى إن أحد العلماء نظمه شعراً (١) لكثرة الإقبال عليه . نعتقد أن من أسباب شيوع هذا الكتاب وانتشاره تلك الروح القصصية التي يندر أن نجد لها نظيراً في أدب هذا العصر ، فلقد استطاع أن يورد انماطاً شتى من هذا الفن في السلوانة الواحدة ، بله القصص المتعددة التي تحتوي عليها كل سلوانة . ويلاحظ أن بعض القصص يدور على لسان الحيوانات أو حولها ، كما هو الحال في كتابه كليلة ودمنة ، ولكنه يتميز عنه أنه كان ذاتياً يختار القصة أو وصف الحيوان من خلال تجاربه الشخصية (٢) وواقعه الخاص . أما أشهر القصص المذكورة فهي قصة « الجرذ والفأر واليربوع الهرم » (٣) ، وقصة « الكلبين والذئب » (٤) ، وقصة « الثعلب والأفعى » (٥) ، وقصة « الفرس والخنزير »(٦)، وقصة « الدب والقردة »(٧)،وقصة « الفيلين »(٨). وكان في معظم الأحيان يجعل قصصه مترابطة فيما بينها ، كما هو حال أسلوب قصة الف ليلة وليلة .

نلاحظ في هذا الكتاب أيضاً أنه كان يستمد عناصر سلواناته من مصادر متعددة منها الإسلامية والنصرانية والفارسية واليونانية ، وهي تدل بشكل عام على موسوعية الثقافة العربية والحضارة الإسلامية في هذا العصر .

---

(١) ذكر ابن تغري بردي أن القاضي تاج الدين عبد الله بن علي السنجاري (المتوفى سنة ٨٠٠ هـ) نظم شعراً كتاب سلوان المطاع (النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ص ١٦٣) .

(٢) اعتمد أسامة بن منقذ في حديثه عن الببر في كتابه الاعتبار على ما أورده ابن ظفر عند رؤيته له مع صاحبه (الاعتبار ص ١١٢) .

(٣) ابن ظفر : سلوان المطاع ، ص ٧٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٧٦ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٧ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٥٠ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٩٦ .

(٨) المصدر السابق ، ص ١٣٠ .

استمد من التاريخ الإسلامي كثيراً من قصصه ، نذكر منها مثلاً قصة اجتماع رؤساء قريش في دار الندوة للتشاور في أمر النبي (ص) ، وقد جاءهم إبليس في صورة شيخ أعرابي من أهل نجد (١) ، وقصة عثمان بن عفان « وهو محصور في الفتنة » (٢) ، وقصة الأمين والمأمون (٣) ، وقصة عبد الملك بن مروان حين خروجه لقتال عبد الله بن الزبير (٤) . كما استمد من الحديث النبوي الشريف ، فقد أورد حديث ابن مسعود في زهد الملوك ، وجاء فيه خبر ملك قديم ، أعرض عن ملكه متزهداً ، وساح في الأرض حتى أتى الليل ، وشرع بضرب اللبن ويقتات من ذلك ، فلما سمع به الملك الذي كان بأرضه ترك ملكه أيضاً ولحق به . وقد أورد المؤلف ما ذكره لنا ابن مسعود : « لو كنت بمصر لأريتكم قبرهما بالنعت الذي نعتهما لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٥) .

يضاف إلى ذلك ما استمده من الجاهلية كما في قصة عدي بن زيد رسول ملك الفرس إلى الروم (٦) ، والخبر الذي أورده عن زهد النعمان ابن المنذر (٧) .

استمد المؤلف من التاريخ الفارسي أيضاً كثيراً مما أورده من قصص في كتابه ، نذكر من ذلك إشارته إلى الصحيفة الصفراء المعلقة في أعظم هياكل الفرس (٨) ، ونخص بالذكر قصة سابور بن هرمز عندما دخل بلاد الروم متنكراً ، وحيلة وزيره في إنقاذه خلال توجه قيصر إلى احتلال جنديسابور حاضرة ملكه (٩) ، وقصة كسرى أنوشروان وطمعه في أرض من

---

(١) المصدر السابق ، ص ٦٢ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٨٨ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٢٣ .
(٤) المصدر السابق ، ص ١٢ .
(٥) المصدر السابق ، ص ١١٧ .
(٦) المصدر السابق ، ص ١٣٣ .
(٧) المصدر السابق ، ص ١٢٣ .
(٨) المصدر السابق ، ص ٦٤ .
(٩) المصدر السابق ، ص ٣٨ .

النجوم الهندية (١) ، وكان في معظم الأحيان يشير إلى ذلك كأن يقول : « ذكروا عن الفرس » أو « وذلك فيما ذكره المعنون بأخبار ملوك الفرس »(٢) أو « وقد دوّن الفرس أخباراً عجيبة نادرة » (٣) .

استمد المؤلف أيضاً من النصرانية بعض قصصه وأقواله ، فهو يحدثنا عن الأب لوقا (٤) ، وعن المطران والبطريق (٥) ، وأبرز ما لاحظناه قصة راهب من « الرهبان ، وكان متبتلاً في قلاية له بظاهر اللاذقية ، وكان شيخاً فانياً (٦) ، وقصة الراهب وراعي البقر (٧) ، وقصة ملك من ملوك اللان كان كافراً عتياً والتحدث عن إيمانه بشرائع المسيح عليه السلام بوساطة وزيره (٨) .

واستمد من اليونانية أيضاً ، نشير من ذلك إلى قصة ملك من ملوك اليونانين وابنته التى أصيبت بهياج المرة السوداء (٩) ، وقصة ملك « من ملوك اليونانيين ، قام من منامه في بعض الغدوات ، فأتته قنة كانت قيمة له تلبسه ثيابه ، فلبسها ثم ناولته المرآة ، فنظر فيها فرأى شيبة في لحيته ، فقال : هاتي المقراض يا جارية ، فأتته ، فقص الشيبة ، فتناولتها وكانت أديبة لبيبة ، فوضعتها في كفها ، وأصغت إليها أذنها ساعة ، والملك ينظر إليها ويتأملها معجباً ، فقال لها : ما تصنعين ؟ فقالت : أسمع لما تقول هذه الشعرة التي عظم مصابها بمفارقة الكرامة العظمى حين سخطها الملك وكرهها وأقصاها ، فقال لها الملك : ما الذي سمعت من قولها ؟ فقالت : زعم قلبي

---

(١) المصدر السابق ، ص ٦٨ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١١٢ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١١٦ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٥١ .
(٥) المصدر السابق ، ص ٤٧ .
(٦) المصدر السابق ، ص ٩٧ .
(٧) المصدر السابق ، ص ١٣١ .
(٨) المصدر السابق ، ص ١٢٧ – ١٣٠ .
(٩) المصدرالسابق ، ص ١٠٣ .

أنها سمعها تقول كلاماً لا يجترىء لساني على النطق به لاتقاء سطوة الملك ، فقال لها : قولي آمنة ما لزمت أسلوب الحكمة . . . » (١) .

ذلك بعض ما لاحظناه في هذا الكتاب الهام ، وجدير بالذكر أنه روى كل قصة دون أن يلتزم أو يتعمد الأسلوب المسجع المعروف في عصره ، وإنما اقتصر منه على ما أورده من الأمثال والحكم أحياناً ، وكذلك الأمر نفسه في خطبة الكتاب . وتلك ظاهرة هامة نسجلها لهذا الكاتب الذي خالف أساليب الوعاظ والقصاص الذين أسرنا إليهم من قبل ، فكان حقاً صاحب مذهب أدبي خاص في أدب هذا العصر . والمهم أن نذكر أن هذا الكتاب اشتهر به فذاع بين الناس كيراً ، وقرىء في حلقات العلم ونظم شعراً ، كما أثر عن السلطان أبي حمو موسى بن يوسف الزياني أنه لخص هذا الكتاب ، وزاد عليه فوائد كثيرة وأموراً جرت له مع معاصريه من ملوك بني مرين وغيرهم ، وصنفه برسم ولي عهده أبى تاشفين ، وسماه « نظم السلوك في سياسة الملوك » (٢) .

أشار المؤلف في كتابه المذكور إلى كتاب قصصي آخر، يظهر أنه أكبر منه ، سماه « درر الغرر »، وضمنه « أنباء نجباء لأبناء » ، وقد ذكر أكثر من مرة (٣) ، وتحدث عن محاورة ضمنها كتابه ، ونوه بخبرين نادرين رواهما في الكتاب المشار إليه (٤) .

* * *

(١) ابن ظفر : سلوان المطاع ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٢) المقري : أزهار الرياض ، ج ١ ص ٢٤٩ .

(٣) ابن ظفر : سلوان المطاع ، ص ٩٣ ، ١١٦ .

(٤) هذا الكتاب مطبوع بصورة مستملة .

كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار

صنف الشيخ الواعظ ابن غانم المقدسي (١) كتاباً هاماً سماه « كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار » ، وقد أعرب في مقدمته عن غرضه في تأليفه ، فقال : « وقد صنفت كتابي هذا مترجماً عما استفدته من الحيوان برمزه ، والجماد بغمزه ، وما خاطبتني به الأزاهير بلسان حالها ، والشحارير عن مقار ارتحالها .. وجعلته موعظة لأهل الاعتبار ، وتذكرة لذوي الأبصار والاستبصار » (٢) .

استهل الكاتب قصته الرمزية الفريدة بوصف حاله ، وما أقل ما تحدث الكاتب عن أحوالهم ، وذكر أن فكره أخرجه يوماً ينظر « ما أحدثته يد القدم في الحدث ، وأوجدته الحكم البالغة للجد لا للعبث » (٣) ، وانتهى إلى روضة قد رق نسيمها ، وغنى عندليبها ، وتمنى أن يصطحب في هذه الخلوة الفكرية والعزلة النفسية صديقاً حميماً ، فناداه لسان حاله : « أتريد نديماً أحسن مني ، أو مجيباً أفصح مني ؟ وليس في حضرتك شيء إلا وهو ناطق بلسان حاله ، مناد على نفسه بترحاله » (٤) . فأول ما سمع

---

(١) عز الدين ، عبد السلام بن أحمد بن غانم بن علي بن عساكر بن حسن الأنصاري المقدسي ، وقد اشتهر أمره بالوعظ ، وطبق في الآفاق ذكره ، وهو ينزع في أسلوبه الى مدرسه وعظية ظهرت في هذا العصر ونسجت على منوال ابن الجوزي وأمثاله . لقي قبولاً كثيراً عند الناس ، وقد حضر وعظه في المجلس الذي عقده مرة تجاه الكعبة كثير من الناس بالاضافة الى الصفوة من العلماء الكبار أمثال تقي الدين بن دقيق العيد ، وتاج الدين الفزاري وابن العجيلي وغيرهم . توفي بالقاهرة سنة ٦٧٨ هـ (اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٤ ص ١٩٠ ، وابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ص ٣٦٢ ، وابن كثير : البدايه والنهايه ج ١٣ ص ٢٨٩ ، وبروكلمان : ج ١ ص ٤٥٠ ، والزركلي : الأعلام ، ج ٤ ص ١٢٨) .

(٢) ابن غانم : كشف الأسرار ، ص ٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣ .

(٤) المصدر السابق ، ص٣ .

همهمة النسيم ومجاوبة الشحارير لها ، وأبصر الورد يخبر عن طيب وروده ويقول : « فبينا أنا رافل في حلل النضارة ، اسلبتني يد من الأزاهير إلى ضيق القوارير ، فيذاب جسدي ، ويحترق كبدي ، ويمزق جلدي ، ولا يقام بأودي (١) » ، فأجابه النرجس من حاضره ، وناداه النيلوفر طالباً إليه أن يأخذ العبرة من اصفراره والرضا بما قسم له . ثم ينتقل ابن غانم ليتحدث لنا عن مروره بين أشجار الروضة ، ويصف لنا تمايل شجر البان وطربه دونها ، فحنقت عليه ، ولامته على كثرة تمايله ، وعنفنه على عجبه بشمائله ، فأجابها البان على لومها ، وختم إجابته بقوله : « واعلم أن خالقها أحد ، وصانعها صمد ، وموجدها بالقدرة قد انفرد ، لا يشاركه في ملكه أحد ، ولا يفتقر هو إلى أحد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » (٢). وينهي الكاتب قصة البان المتمايل بذكر اتفاقه مع الورد قائلاً له : « إذا صحّ الائتلاف ، ورضيت لنفسك بالتلاف ، فليس للخلاف خلاف ، فيقطع على حكمه الوفاق ، ويقتطف من بين الرفاق ، فتصعد أنفاسنا بالاحتراق ، وتقطر دموعنا بالإشفاق ، فإذا فنينا عن صور أشباحنا بقينا بمعاني أرواحنا » (٣) .

ينتقل الكاتب بعدئذ ليتحدث عن إشارة البنفسج، وقد تنفس الصعداء ، ثم يذكر لنا تأوه المنثور (٤) ، وفصاحة الياسمين الذي تمثلت فيه شخصية المؤلف اللغوية ، فتحدث عن اسمه « فأول اسمي ياس ، وآخره مين ، والياس شين ، والمين شين »(٥) ، وأورد بعد ذلك إشارة الريحان والأقحوان، ووقف عند الخزامى ، وقد شهد ما تكابده الأزهار قيداً والتزاماً ، فتحدث

---

(١) المصدر السابق ، ص ٥ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٦ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٧ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٨ .
(٥) المصدر السابق ، ص ٩ .

بلسان حـالـه قائلاً : « ما لي والزِحام ؟ أنا أوافق الوحش في النِقار (١) ، وسكنى البوادي والقفار ، رضيت بالبر الفسيح ، وقنِعت بمجاورة الشيح ، لا ينشق نشري إلا من له شوق صحيح وذوق صريح ، ومن هو على زهـد المسبح وصبر الذبيح . فأنا رفيق السواح في الغـدو والرواح ، فأفوز بالأجور ، وأسلم مِن حضور أهل الفجور ، ومَن يقترف المعاصي بالفجور ، لا أحضر على منكر ، ولا أجلس عند من يشرب ويسكر ، فأنا الحر الـذي لا يباع في الأسواق ، ولا ينادى عليّ بالنَفاق في بيوت النِفاق ، ولا يحضرني الفساق ولا ينظرني إلا من شمر على ساق ، وركب على جـواد العزيمة وسـاق » (٢) .

ووقف أخراً عند الشقيق المضرّج بدمائه ، واختتم إشارته بقـوله : « فلما رأيت باطني محشواً بالعيوب ، وقلبي مسوداً بالذنوب ، علمت أن الله لا ينظر إلى الصور ، ولكن ينظر إلى القلوب » (٣) .

وختم المؤلف بعـد هـذا الوصف الرائع والحوار الحي حديثه بوصف السحاب الذي كان يشهد كل هذه الحوادث على مسرح الطبيعة ، فسمع العتاب ، ووعى الخطاب فسح دمعه ، وساح في الرحاب ، وقال مخاطباً أزهار الرياض : « سبحان الله ! أينكر فضلي عليكم ، وانا الباعث طـلي ووبلي إليكم ؟ وهـل أنتم إلا أطفال وجودي ونسل وجودي ؟ » (٤) .

أما القسم الثاني من هذه القصة فقد تحدث فيه المؤلف عن الاطـار قائلاً « فبينا أنا مصغ إلى منادمة أزهارها على حافات أنهارها ، إذ صاحت فصاحة أطيارها » (٥) . وأول ما صوت الهزار ، وتحدث بلسان حاله قائلاً :

---

(١) النقار : جمع نقرة ، وهي الوهـدة الصغيرة المستديرة في الأرض .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١١ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٢ .

« أنا العاشق الولهان .. وأنا أنوح حزناً لا طرباً ، وأبوح ترحاً لا فرحاً ، ولا أجد روضة إلا نحت على اضمحلالها ، ولا خضرة إلا تبلبلت على زوالها ، لأني ما رأيت قط صفو إلا تكدرت ، ولا عيشة حلوة إلا تمرمرت ، فقرأت في تمثال العرفان : كل من عليها فان » (١) . أجابه البازي وناداه (٢) ، ورأى الكاتب ، وهو مستغرق في لذة كلامه ، ومعتبر في حكمه وأحكامه « حمامة قد جعلت طوق العبودية في عنقها » (٣) ، فسألها عن حكمة تطويقها ، فأجابته أنها المطوقة طوقَ الأمانة المقلدةُ تقليدَ الصيانة (٤) ، ثم انقلبت إلى شكر الله تعالى وتسبيحه .

وتحدث الكاتب بعد ذلك عن خطاف كان ينظر إليه ، فسأله عن سبب مفارقته أبناء جنسه ، ورضاه البقاء في البيوت بحبسه ، فلما سمع البوم جوابه اعترضه ، وطلب منه الا ينق بمقالة الخطاف ، وأعلمه أن السلامة في العزلة ، وينهي الكاتب مقال البوم بفصل وعظي كعادته (٥) ، والتفت الكاتب في روضته فرأى طاوساً ، قد شرب من خمرة العجب كؤوساً ، فخاطبه قائلاً : « ويحك ! كم بينك وبين البوم من الحظ المقسوم ، أنت أيها العاني نظرت إلى الصور وهو نظر إلى المعاني » (٦) . فأجابه : « يا عاني ! يا من بالشماتة نعاني ! لا تظهر لي الشماتة ، وتذكرَ الحزين ما فاته ، فقد قيل في الخبر : ارحموا عزيز قوم ذل ، وغني قوم فقر . أين كنت يا مسكين ، وأنا في الجنان أطوف بين الظلال والقطوف ؟ أدور دورها ، وأزور حورها ، وأتخلل قصورها ، وشرابي التسبيح ، وطعامي التقديس ، حتى ساق لي القدر إبليس ، وعوضني بالخسيس عن النفيس ، ولو كنت لمرادي الكاره ، ولكن القضاء والقدر يوقع في المكاره .. ولقد كان إبليس يسعى في حلل حبه

(١) المصدر السابق ، ص ١٢ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٣ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٣ .
(٤) المصدر السابق ، ص ١٣ .
(٥) المصدر السابق ، ص ١٦ .
(٦) المصدر السابق ، ص ١٦ .

وخِلّل قُربه ، فما تركه شؤم رأيه حتى تاه على آدم بعجبه ، فأوقعني في الخطية ، وما اطلعني على ما له في الطوية ، غير أنني كنت له دلالة ، وكانت الحية في دخوله محتالة ، فأخرجت معهم من دار الهوان والإذلال ، وهذا جزاء من عاشر الأنذال (١) » .

ورأى الكاتب الى جانب الطاوس درة لبست ثياباً خضراً ، فخاطبت بفصاحة لسانها الطاوس ، ثم انتقل فتحدث عن الديك ، وأورد ما قاله له : « هأنذا في نادبك اناديك ، وأنت في تعاميك وتعاشيك . جعلت الأذان لي وظيفة ، أوقظ به من هو نائم كالجيفة » (٢) ، وأورد بعده حديث البط إلى الديك ، ثم ذكر نداء النحلة ، ووقف عند الشمع والفراش ، وصورهما تصويراً رائعاً ، فقد سمع النحل استغاثة شمعه ، فأصاخ بسمعه ، فإذا هو يحترق بالنار ، ويبكي بدموعه الغزار ، ويقول : أيتها النحل ، أما يكفيني أن رميت ببيني ، وفرق بينك وبيني ، وأنت في الوجود أبي وفي الإيجاد سببي » (٣) . ويحوم الفراش حول الشمع ، ويذكر مصابه ، ويحدثه قائلاً : « بالله العجب ! أبذل نفسي في هواك ، وتسومني سوم عداك » (٤) . ويرق الشمع للفراش العاشق ، ويخاطبه : « أيها العاشق الصادق ، لا تعجل فإني موافق » (٥) . وبينما كان المؤلف في سبحات فكره يستمع إلى خطاب الشمع ، سمع فجأة صوت غراب ينعق ، فكدر عليه خلوته في روضته ، وختم بعد ذلك القسم الثاني من حديث الطيور بإشارة الهدهد قائلاً : « فلما كدر الغراب عليّ رقتي ، وحذرني مقتي ، انصرفت من حضرتي إلى خلوة فكرتي ، فهتف بي هاتف من سماء فطرتي : أيها السامع منطق الطير ، المتأسف على فوات الخير ، تالله لقد صفت الضمائر ، واهتدى السائر ، وما ضل الحائر » (٦) .

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٦ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٨ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٢١ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٢١ .
(٥) المصدر السابق ، ص ٢٢ .
(٦) المصدر السابق ، ص ٢٤ .

وأما القسم الثالث من كشف الأسرار فقد تحدث فيه المؤلف عن بعض الحيوانات ، إذ انتقل إليها بعد حديثه عن الهدهد قائلاً : « ناداني كلب على الباب يلتقط على المذابل ما سقط من دقيق اللباب : يا من هو وراء حجاب محجوباً عن الأسباب ، ويا مسبلاً كتاب الإعجاب ، تأدب بآدابي ... » (١) . واستطرد الكاتب يحدثنا بلسان كل حيوان يختاره ، فيورد حديث الجمل إليه ، وطلبه منه تعلم الصبر والجلد ، وحديث الفرس إليه ، وطلبه منه تعلم صدق الطلب وحسن الأدب لبلوغ الأرب ، وحديث الفهد وطلبه منه تعلم الألفة والأخلاق الصلفة ، وعلو الهمة وسمو العزمة ، ومراقبة المطلوب ومجالسة المحبوب ومراوغة الصبر (٢) ، ويطلب من المؤلف أن يخالف طبيعة الأسد والفرس .

يورد بعد ذلك حديث دودة القز ، وقولها : « تالله ليست الرجولية بالصور والهياكل ، والفحولية بترك المشارب والمآكل ، كلا ! ولا الإيثار ببذل الآثار ، وإنما الجود من جاد بوجوده ، ثم آثر بحياته موجوده » (٣) .

ويتخيل المؤلف العنكبوت تخاطب دودة القز التي قالت : إن بيتها أوهن البيوت ، وإن حبلها مبتوت ، وتذكر أن فضلها عليها مذكور في سجل الكتاب (٤) ، ويختتم القسم الثالث بإشارة النملة ، وقد نادته ، وطلبت منه أن يعتبر بها ، ويتعلم منها قوة الاستعداد وتحصيل المعاش والزاد .

تلك هي فصول القصة الثلاثة ، لاحظنا من خلال عرضها أن الشاعر قام برحلة خيالية ، ودخل فيها روضة غناء ، فاستمع فيها إلى أحاديث أزهارها ، ثم أشار إلى السحاب وهو يبكي ، ثم انتقل إلى حافات أنهار هذه الروضة الفكرية الحية ، فاستمع إلى أطيارها ، حتى إذا انتهى من

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٧ .

(٣) ابن غانم : كشف الأسرار ، ص ٢٨ .

(٤) اشارة الى قوله تعالى : « كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ، وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » . العنكبوت ٤١/٢٩ .

حديثه عنها انتقل فجأة ليصحو من حلمه على صوت كلب على الباب، وسرعان ما أغفى قليلاً ليتابع حلمه ، فيستمع إلى حكم الحيوانات وهي تحدثه ، وكان النمل آخر المتحدثين .

لاحظنا في هذه القصة الرمزية عبقرية ابن غانم المقدسي ، فقد وفق في تسلسل حوادثها في فصولها الثلاثة ، كما تخللها حوار شيّق بين الأزهار والطيور بالإضافة إلى الحوار الشخصي بينه وبينها .

يضاف إلى ما تقدم ذكره أن المؤلف استمد عناصرها الأولى وحكمها المتناثرة من القرآن الكريم والحديث النبوي ، ومن التصوف والزهد اللذين انتشرا في هذا العصر كثيراً . وإن كنا نؤاخذ المؤلف على شيء فإننا نأخذ عليه استخدامه الأسلوب المسجع الذي لم يتقيد به سابقه ابن ظفر .

القول النفيس في تفليس إبليس

ثمة كتاب آخر للمؤلف المذكور ، وهو ــ على الرغم من صغره ، إذ لا يتجاوز عشرين صفحة ــ بالغ الأهمية ، لأنه لم يكتف بعرض فكرته عن إبليس كما انطق بها الطاوس في قصته السابقة ، وإنما أعجبه هذا الموضوع الذي راق لابن الجوزي من قبله أن يضع كتاباً فيه أسماه « تلبيس إبليس »، وفرق بين الكتابين ، فالأول يتحدث فيه مؤلفه عن كثير من الأمور الصوفية التي تخرج عن الدين بسبب إيحاء إبليس وتضليله ، أما كتاب ابن غانم هذا فيدور حول محاورات ومناظرات جرت بينه وبين إبليس كما تخيلها ، وقد استهله ذاكراً أنه نظر في دائرة الشقاء والسعادة ، فإذا هي دائرة على خط الأمر ومركز السعادة (١) ، ثم شرع يوضح لنا السبيل الذي سلكه قائلاً : « لما كان إبليس أول من أيس من رحمة الله تعالى ، ولبّس على عباد الله ، ودنّس الطريق إلى الله بمعصية الله تعالى ، احببت أن أوقفه موقف الجدال ، وأناقشه بلسان الحال الذي لا يدنسه محال ، فأناظره

---

(١) ابن غانم : تفليس ابليس ، ص ٣ .

بلسان الحقيقة لسلوك الطريقة ، فإذا أفلس ، ومن الخير أبلس ، علم متابعه ومبايعه حجنه الزائفة ، فيتجنبه من يجري مجراه ، ويسري مسراه ، فإن كان نفذ حكم الله فيه ، وجرى عليه قلم الشقاوة ببعده من الله ، لكن شياطين الأنس وأبالسة الجن أشد بأساً وأصعب مراساً » (١) .

انتقل المؤلف بعد هذه المقدمة ليتحدث عن لقائه إبليس ، وذكر أنه أوقفه موقف الجدال ، ونازله في معارك النزال ، وابتدره قائلاً : « يا لعين ! اسلك سبيل العدل في الجدال ، والإنصاف في السؤال ... » (٢) . فأجابه إبليس ، وطلب منه أن يورد ما عنده من أقوال ، فاستجاب له المؤلف ، وقص عليه قصته المشهورة منذ قديم الأزل ، وندد بعصيانه ربه ، وآخذه على إغوائه البشر وسعيه في ضلالهم ، فأثار سخطه عليه ، ولم يتمالك نفسه عند سماعه مقاله المؤلف ، « فتميز هناك تميز الذيب ، وتغبر تغير المريب » (٣) ، فرد عليه رداً قوياً ، يقارعه الحجة بالحجة والقول بالقول ، ثم أنشده بعض شعره ، وقال له : « أنا صفوة الملائكة المقربين يا هذا ، أتظن أني أخطأت التدبير ، أو رددت التقدير ..؟؟ ولقد لقيت موسى على عقبة الطور ، وهو بما أوتي مسرور ، فقال لي : ما منعك من السجود ..؟ فقلت : منعني من السجود الوارد ، نوديت الدعوى لمعبود واحد ، ولو سجدت لآدم لكنت مثلك ، لأنك نوديت مرة واحدة : « انظر إلى الجبل » ، فنظرت ، وأنا نوديت مرة : اسجد لآدم ، فما سجدت لدعواي بمعناي .. فقال لي موسى : هل تذكره الآن بعد طردك ؟ فقلت : يا موسى ! لا أعرف غيره ، ولا أذكر غيره أبداً ، ولو عذبني بنار الأبد . يا موسى ! أنا في الخدمة أقدم ، وفي الفضل أعظم وفي العلم أعلم ، أنا أعلمهم بالسجود ، وأقربهم إلى الوجود ، وأوفاهم بالعهود ، وأدناهم إلى المعبود ، ولكن سيدي قال : لي الاختيار ولا لك ، فقلت : سيدي ! لك الاختيارات كلها ، فاختياري إليك ، فإن أهبطتني فأنت الرفيع ، وإن أخطأت في المقال فأنت السميع ، وإن أردت أن أسجد له فأنا المطيع » (٤) .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٧ ، ٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٩ .

(٣) المصدرالسابق ، ص ١٥ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٩ ، ٢٠ .

تلك هي نظرة عامة على هذه القصة الرمزية الفريدة في نوعها . وقد تناولت موضوعاً دينياً هاماً وشيقاً ، ولو أن ابن غانم وسع مداها المسرحي لكان لنا منها أثر أدبي عظيم ، ولا سيما أنه أوتي عبقرية قصصية حية ، نظهر لنا في هذا التصوير الجميل والتخيل الموفق . ولا يمنعنا ذلك أن نسجل له توفيقه في اختياره المعاني الدينية التي عرضها في قصته هذه ، يضاف إلى ذلك خيال خصب امده بهذه الصور التي مرت معنا ، وحوار موفق حي يبرز لنا موهبته القصصية .

ننتهي مما تقدم معنا لنؤكد أخيراً أن الأدب الوعظي قد أثمر أطيب الثمار على يد الواعظين الكبيرين : ابن ظفر الصقلي وابن غانم المقدسي ، وأنه نشأ بعيداً عن قصور السلاطين والأمراء ، واستمد معينه من مصدرين اثنين : أولهما حاجة الفئات الشعبية المختلفة لأدب جديد حي يعبر عن مشاعرها الخاصة ، ويقدم لها آثاراً قصصية ، تسد به الفراغ الكبير الذي كانت تعانيه في حياتها الضيقة ، وثانيهما اتصال هذا الأدب بالدين والزهد والتصوف ، وكان الفن الوعظي هو السبيل الهام الذي جعله يتطور هذا التطور الكبير ليصبح بعد ذلك أدباً قصصياً جميلاً ، تقبل عليه الفئات الشعبية ، وتستمع إليه في حلقات خاصة بعيدة عن قصور الأمراء وحلقات العلم في المساجد وغيرها ، وإنما تجدها منتشرة في الطرقات والمجتمعات العامة .

(٤)

المنامات الأدبية

ظهر في هذا العصر فن المنامات الأدبية ، وكان الفضل في ابتداعه يعود إلى محمد بن محرز الوهراني (١) أحد أدباء المغرب الذين ارتحلوا إلى

---

(١) محمد بن محرز بن محمد الوهراني ، أصله من وهران ، وقد زار دمشق في أيام نور الدين ، وتنقل مدة فمر بصقلية وقدم الديار المصرية في أيام صلاح الدين ، وزار بغداد ، ثم أقام في دمشق ، فولي خطابة مسجد داريا وبقي فيها حتى وفاته سنة ٥٧٥ هـ . له مجموعة (الرسائل) المعروفة بـ « منشآت الوهراني » وهي في تسعة كراريس و (المنامات) ، وقد طبعت مناماته ومقاماته ورسائله مجموعة . (ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥١٨ ، ومجلة المجمع العلمي العربي المجلد ٤٠ ج ١ ؛ والزركلي : الاعلام ج ٧ ص ٢٤١) .

المشرق في عهد حكم السلطان نور الدين والسلطان صلاح الدين .

كان ابن خلكان أقدم من ترجم للوهراني . ومما قاله فيه : « أحد الفضلاء الظرفاء قدم من بلاده إلى الديار المصرية في أيام السلطان صلاح الدين ، وفنه الذي يمتّ به صناعة الإنشاء . فلما دخل البلاد ورأى بها القاضي الفاضل وعماد الدين الأصفهاني الكاتب وتلك الجلبة علم من نفسه أنه ليس من طبقتهم ، ولا تنفق سلعته مع وجودهم . فعدل عن طريق الجد وسلك طريق الهزل » (١) .

كما أشار أستاذي الدكتور عبد العزيز الأهواني إلى أهمية فنوّه به ومما قاله في تصديره كتاب (منامات الوهراني) :

« يكاد ركن الدين الوهراني أن يكون مجهولا لدى جمهرة المتأدبين في العصر الحاضر ، والمتخصصون في تاريخ الأدب العربي لا يعرفون عنه إلا القليل ، ولا يجدون فرصة متاحة للاطلاع على شيء من آثاره الأدبية . وعذر هؤلاء جميعاً أن ما وصل إلينا من آثار الوهراني لا يتجاوز عدداً محدوداً من الرسائل والمنامات والمقامات » (٢) .

لفت نظرنا إلى هذا الأديب لأول مرة الدكتور صلاح الدين المنجد في بحثه القيّم عن الوهراني ورقعته عن مساجد دمشق . وأشار إلى أن المؤلف جمع في كتابه (جليس كل ظريف) الكثير من رسائله ومناماته وفصوله الهزلية .

يهمنا في هذه الدراسة أن نقف عند منامه الكبير فقد أعجب به ابن خلكان كل الإعجاب وقال : « لو لم يكن فيها إلا المنام الكبير لكفاه » (٣) ، فقد ذكر الأقدمون أنه سلك فيه مسلك أبي العلاء في رسالة الغفران لكنه كان

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥١٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٥١٨ .

(٣) مقدمة (منامات الوهراني) ص هـ .

الطف مقصداً واعذب عبارة ، وجمع فيه انواعاً من المزاح والأدب . وخلاصة هــذا المنام ان الوهراني تخيل في حلمه يوم نفخ في الصور ، فقامت القيامة ، ونادى فيها المنادي ليوم العرض أمام الله ، وجاء دوره فقــام من جدثه ، واتجه نحو هول يوم المحشر ، فرأى الناس هناك ، واستطاع ان يتعرف على كثير ممن عاصرهم ، أو لقيهم في الحياة الدنيا ، او ماتوا قبله . فأظهر سخريته منهم ، وتحدث عما يحاسبون عليه في هذا المحشر العظيم .

ولا بأس ان نقف عند بعض ما جاء في هذه الرقعة الهامة التي كتبهــا الوهراني باسم مساجد دمشق لترفع إلى مسجد بني أمية الجامع . وقــد استهلها المؤلف بقــوله :

« لما تحكمت يد الضياع في مسجد الضياع . وارتج باب العدل واغلق ، ونبذ كتاب الله وخلق ، فزعت المساجد إلى جامع جلق . وهو يومئذ أميرها ، عليه مدار امورها ، فلما وصلوا إلى بابه ، واجتمعوا تحت قبته ومحرابه ، فكانت الرقعة مسطورة على هذه الصورة » (١) .

اما هذه القصة فقد ذكر المؤلف ما تلقــاه المساجد من جور العمال ، وتضييع الأعمال ، ونهب الوقوف ، وخراب الحيطان والسقوف ، وانتقل بعد ذلك إلى كلام جامع المزة حين ابتدر للمقال حتى أنهى كلامه وجلس ، « فبرز بعده مشهد برزة ، متوكئاً على مسجد الأرزة ، وهــو يصلصل ويصول ، ويلطم وجهه ويقول .. » (٢) .

أشــار مسجد دمشق عليهم أن يبعثوا بشكواهم إلى قاضي القضــاة شرف الدين ابن أبي عصرون قائلاً « والرأي عندي أن تكتبوا للشيخ قصة ، ولا تتركوا في صدوركم غصة ، وأن تجعلوا في الكتاب أنواعاً من العتاب ، فإن النأم رأيه برأيكم ، وإلا فالسلطان من ورائكم . أقول قولي هذا ، وأستغفر الله العظيم لي ولكم » (٣) .

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي ، المجلد الأربعون : ج ١ ص ٢٤٣ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٢٤٦ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٢٤٩ .

اطلــع قاضي القضاة على هذه الرقعة ، وقرأ ما انطوت عليه ، وشتم المساجد ، وقلب الرقعة ، وكتب على ظهرها رداً عنيفاً يهجو فيه مسجد دمسق الجامع ، فلما وقف عليها ، ورأى ما فيها من رقاعة قاضي القضاة رفع أمره إلى السلطان « فلما وقف نورالدين على كتابه ، وتجرع ألبم عتابه، التفت إلى المساجد ، فرثى لهـم ، وسدّد احوالهم ، وأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم .

ثم نظر إلى ابن أبي عصرون فأنزله واعتزله ، وحجبه عن بابه واختزله ، والقاه في سجن الصدود ، وخلوه فيه إلى يوم الخاود ، وقرأ عليه : لا بُعداً لمدين كما بعُدت ثمود ، والسلام » (١) .

هذا بعض ما جاء في هذه الرقعة النقدية الهامة ، وكان الكاتب الوهراني موفقاً كل التوفيق في هـذا الأسلوب الجديد الذي اختطه لنقـد بعض ما لا يعجبه في مجتمعه ، وقد ذكرنا في حديثنا عن ابن عنين أنه استطاع بمهارته النقدية وقوته في أسلوبه الهجائي كما في مقراض الأعراض أن يصور هذه الأمور من الزاوية نفسها التي صورها الوهراني المذكور .

أشار أستاذي الدكتور الأهواني إلى اهمية هذا الأسلوب بقوله :

« وفي الحق إن منامات الوهراني ومقاماته واسلوبه يضيف إلى النثر العربي ثروة ، ويفتح للدارسين آفاقاً ويقـدّم للقرّاء مادة شيقة ممتعة لا تقل عما اشتهر من عيون النثر العربي » .

ولم يقتصر على ذلك وإنما ذكر أيضاً أننا « لا نكاد نجد في النثر العربي القديم نصوصاً فيها ما في كتابات الوهراني من حبوية وذكاء ولمحات تعبّر عن شخصية الكاتب ، وتصوّر في دقة وبلاغة بعض جوانب الحياة الفكرية والاجتماعية في عصر من عصور التحوّل في المجتمع العربي » (٢) .

إن الوهراني كان نقطة تحوّل في الموضوعات التي اختارها والمعاني التي عرضها بأسلوب جديد ، خـرج فيه عما تآلفه الناس في عصره من صنعة وتصنّع وتصنيع .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٥٤ .

(٢) مقدمة (منامات الوهراني) ص و .

الفصل الثالث

المذاهب الفنية والأساليب النثرية

لاحظنا خلال حديثنا عن الفنون النثرية والخطابية تفاوت ما فيها من تصنع بلاغي ، وأدركنا من خلال كل ذلك بنية النثر الفني ، وتوضحت أمامنا سبله المختلفة واتجاهاته المتباينة . وسوف نجمع في هذا الفصل شمل ما تقدم معنا ، فنوضح بدقة المذاهب الأدبية التي طبعت النثر الفني بطابعها الخاص .

القسم الأول

المذاهب الأدبية

لفت نظرنا خلال بحثنا ظهور ثلاثة مذاهب أدبية في هذا العصر ، ظهر أولها في القرن السادس الهجري ، وكان على رأسه الخطيب الحصكفي ، وظهر ثانيها في القرن السابع الهجري ، وكان على رأسه ابن الأثير الكاتب ، أما المذهب الثالث فقد شهدنا ظهوره وتطوره خلال القرنين المذكورين .

يبقى علينا الآن ، ونحن في مستهل هذا الفصل ، أن نجمل بحث النثر ،

ونذكر أهم ما تميز به من خصائص أسلوبية ، وذلك لندرك التيارات الأدبية المختلفة التى طبعت أدب هذا العصر بطابعها الخاص .

(١)
المذهب الحصكفي

لا سك أن الخطيب الحصكفى كان صاحب مدرسة كبرى أسهمت في تطوير النثر العربي ، وأثرت تأثيراً كبيراً في التصنع البلاغي والتكلف البديعي اللذين طبعا الأساليب البيانية بطابعها الخاص ، كانت هذه المدرسة بطبيعة الحال ذات صلة وثيقة بما سبقها وبما لحقها من مدارس أدبيـة ومذاهب فنيه ، فهي منحدرة من أسلوب المقامات ، أخذت منها ما فيها من إغراب وسجع وتعقيد . جرى الكتاب على اختلاف اتجاهاتهم وبخاصة منهم كتّاب الدواوين في هذا المضمار ، وكان من أبرز رواد هذه المدرسة القاضي الفاضل والعماد الكاتب وغيرهما من أعلام كتاب القرن السادس الهجري .

(٢)
المذهب الأثيري

ظهرت المدرسة الأثيرية في القرن السابع الهجري ، وكان ظهورها تطوراً حتمياً ، وضروره استلزمتها طبيعة الصراع الأدبي بين القديم والجديد .

أما سبب ظهورها فيرجـع في حقيقة الأمر إلى هـذا التقليد الأعمى للأسلوب الحصكفى ، وقد لاحظ ابن الأثير رائد هذا المذهب تقليد كتاب الدواوين في دمشق والقاهرة وبغـداد لهـذا الأسلوب المتكلف والمغرق في إغرابه وتعقيده وتصنعه ، حتى خرج به عن كونه إحدى وسائل التعبير ، وغـدا مظهراً من مظاهر العبث اللفظي بين أيدي صغار الكتاب وكبارهم من الأعـلام المنشئين .

اعتمدت هذه المدرسة الجديدة على محاولة هدم أركان المدرسة الحصكفية التي مثلها في هذا العصر القاضي الفاضل والعماد الكاتب ، فهي تحاول بعـد

هذا الهــدم أن توجد نظرية جديدة في جوهر السجع العربي ، وتعترض على طبــع البيان العربى كله بطابع التصنع السجعي ، حتى إن العماد الكاتب استخدمه في تصانيفه التاريخية كما رأينا ، وتطلب الحــد من استفحاله والاقتصار منه على ما يلائم الطبع وما تقبله النفس وتشترط على كل كاتب ان يبتعد عن كل أساليب الكلف والتعقيد والإسراف في الإغراب .

أحدثت هذه المدرسة ضجة كبرى في عهد رائدها، ووجدت لها أنصارها، ولكن لم يتسن لها مع الأسف أن تتابع طريقها أو نجد لها أتباعاً بعد وفاة صاحبها ، وذلك لأن الطبائع البشرية تبقى زمناً طويلاً محافظة على ما ورثته قبل أن تقبل على الأساليب الجديدة ، ولو قيض الله لهذه المدرسة من أكمل ما بدأه مؤسسها لرأينا أن الأسلوب العربي شرع يتحرر شيئا فشيئاً، ويسير في طريق الانطلاق من عبودية السجع والإغراب والتكلف . مهما يكن من أمر فقد ظهر الشهاب محمود . وكان سبيلاً وسطاً بين المدرستين المذكورتين اللتين تصوران لنا بعض مظاهر أدب هذا العصر .

(٣)

المذهب الظفري

أحــدث ابن ظفر طفرة جديدة في الأساليب التعبيرية العربية ، فلقد تحرر في قصصه ومواعظه من السجع المعروف في هذا العصر واقتصر منــه كما رأينا على خطبة كتابه سلوان المطــاع وما ورد في قصصه من الحــكم والمواعظ . أما سرد القصص والحوار فقدأطلق المؤلف لنفسه فيه العنان ، وهذا يدفعنا لمخالفة معظم الذين أرخوا آداب هذا العصر ، أو لمحوا إلى ذلك من خــلال دراساتهم ، فذكروا أن الأسلوب المسجع كان وحــده المعروف والمنتشر في هذا العصر . لقد تحدثنا عن ابن الأثير ، وأشرنا من خلال بحثه إلى اعتقاده أن ورود غير المسجوع في القرآن معجزاً أبلغ في باب الإعجاز من ورود المسجوع نفسه ، وهذا تطور جذري خطير في الأسلوب العــربي . هكذا نشهد اثنين من الأدباء يؤلفان كتابين هامين ، يعرضان فيهما عــن

استخدام السجع إلا في النادر ، ونظن أن ابن الأثير قد اطلع على كتاب ابن ظفر المذكور ، فلا غرابة إن رأيناه بعد ذلك يحاول في كتابه المثل السائر أن يدافع عن الأسلوب الحر الطليق ، كما ورد في القرآن إلى جانب الأسلوب المسجع جنباً إلى جنب .

كان ابن ظفر حقاً رائداً من رواد هذا المذهب الجديد ، ولو قيض الله له من عني به وسلك سننه لكان لنا فن قصصي رائع ، إذ إن الثقافة الموسوعية التي اتسم بها هذا العصر كانت على استعداد كبير لكي ترفد هذا الأدب بعناصر أجنبية كثيرة من فارسية ويونانية وسريانية ، وهي كما نعلم غنية بهذا الفن ، وما فيه من أساطير وقصص دينية كثيرة ، مهما يكن من أمر ، فإننا نسجل لابن ظفر أنه كان أحد الرواد الأوائل الذين أسهموا بنصيب كبير في تحرير الأسلوب العربي وفي ظهور الفن القصصي .

* * *

القسم الثاني

التصنع البلاغي

(١)
تصنع الصور البيانية

استخدم الكتاب في هـذا العصر كسابقيهم مختلف الصور البيـانية المعروفة من تشابيه واستعارات وكنايات ، وقد أشار إلى ذلك الذين تحدثوا عن أساليب الكتابة والترسل ، فلم تقتصر على الشعراء كما وضحنا ذلك في مكانه من هذا البحث ، وإنما تناولها الكتاب ، ولم يقلوا عنهم تصنعاً إن لم يتفوقوا عليهم فيهـا .

التشبيه

تحدث الشهاب محمود في كتابه حسن التوسل عن التشبيه ، وذكر أنه « ركن من أركان البلاغـة لإخراجه الخفي إلى الجلي وإدنائه البعيد مـن القريب » (١) . ولا يهمنا هنا أن نتحدث عن التشبيه كفن بلاغي ، وإنمـا نريد أن نعرف تطوره في هذا العصر من خلال نظرة البلاغين ومفهوم الكتاب .

إن التطور الذي طرأ على التشبيه ظاهر كل الظهور ، وذلك أن الكتاب كرهوا التقسيمات الكثيرة التي فرعها عنه البلاغيون . فهذا مثلاً ابن الأثير ينقد تقسيم علماء البيان وتفريقهم بين التشبيه والتمثيل ، وجعلهم لكل

---

(١) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ١٣ .

منهما باباً منفرداً « وهما شيء واحد من اصل الوضع » (١) ؛ ووقف الشهاب محمود ايضا الموقف نفسه من هذه التقسيمات ، فاشار إلى المتأخرين الذين صنفوا في التشبيه سبعة أنواع ، وقال : نحن نوردها ، وإن لم نكن كلها منها » (٢) .

لم يقتصر النقد البلاغي على علماء البلاغة وحدهم ، وإنما تعداهم إلى الكتاب أنفسهم ، فنقدت تشبيهاتهم . قال ابن الأثير : « إن من شرط بلاغة التشبيه أن يشبه الشيء بما هو أكبر منه وأعظم ، ومن هنا غلط بعض كتاب أهل مصر في ذكر حصن من حصون الجبال منبها له فقال : « هامة عليها من الغمام عمامة ، وأنملة خضبها الأصيل فكان الهلال منها قلامة ؛ وهذا الكاتب حفظ شيئاً ، وغابت عنه أشياء ، فإنه أخطأ في قوله أنملة ، وأي مقدار من أنملة بالنسبة إلى تشبيه حصن على رأس جبل ، وأصاب في المناسبة بين ذكر الأنملة والقلامة وتشبيهها بالهلال » (٣) . كما انتقد بعض الشعراء والكتاب الذين أكثروا من التشبيه ، فأشار إلى ابن المعتز وابن وكيع ، وقال : « إنما أكثروا من ذلك ، لا سيما في وصف الرياض والأشجار والأزهار والثمار ، ولا جرم أنهما أتيا بالغث البارد الذي لا ينبت على محك الصواب » (٤) . كما يعتقد أنه من بين أنواع البيان مسوعر المذهب ، وهو مقل من مقاتل البلاغة ، وقلما أكثر منه أحد إلا عثر (٥) . ولا شك أن ابن الأثير كان على حق في نقد الذين بالغوا وأوغلوا في تصنع الصور البيانية ، ويرى أيضاً أن التشبيه لا يخلو من أربعة أقسام : إما تشبيه مفرد بمفرد ، وإما تشبيه مركب بمركب ، وإما تشبيه مركب بمفرد . فمن تشبيه مفرد

(١) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٣٨٨ .
(٢) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ١٦ .
(٣) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٣٩٥ .
(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٩٤ .
(٥) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٩٤ .

بمفرد قول الشهاب محمود في كتاب انشأه إلى مقدم سرية : « أصدرناها إليه نحثه على الركوب بطلبعة اعجل من السيل واهول من الليل ، وأيمن من نواصي الخيل ، واقدم من النسر ، وأوقع على المقاصد من الغبث المنهمر ، وأروع في مخاتلة العدا من الذئب الحذر ، على خيل تجري ما وجدت فلاة ، وتطبع راكبهما مهما اراد منها سرعة أو أناة تتسنم الجبال الصم كالوعل ، وإذا جارتها البروق عدت وراءها تمشي الهوينى كما يمشي الوجي الوحل . وليكن كالنجم في سراه وبعد ذراه ، إن جرى فكسهم ، وإن خطر فكرهم ، وإن طلب فكالليل الذي هو مدرك ، وإن طلب فكالجنة التي لا يجد ريحها مشرك ، حتى يأتي على عدو الدين من كل شرف ، وبرى جمعه من كل طرف » (١) .

ومن تشبيه المركب بالمركب قوله في رسالة يصف البر والمسير : « لم أزل أصل الذميل بالذميل ، وألف الضحا بالأصيل والأرض كالبحر في سعة صدره ، والمطايا كالجواري راكدة على ظهره ، فمكان الركب فيها كمكانهم من الأكوار ، ومسيرهم فيها على كرة لا تستقر بها حركة الأدوار » (٢) .

ومن تشبيهاته في كتاب كتبه إلى ديوان الخليفة ، ذكر فيه نزول العدو على ثغر عكا سنة ٥٨٥ هـ : « وأحاط بها العدو إحاطة الشفاه بالثغور ، ونزل عليها نزول الظلماء بالنور . لقد اصطدم من الإسلام والكفر ابنا شمام (٣) ، والتقى من عجاجتهما ظلام ، وعند ذلك أخذ العدو في التحيز إلى جانب ، وكان كحاجب على عين فصار كعين في حاجب ، وإذا تزعزع البناء فقد هوى ، وإذا قبض من طرف البساط فقد انطوى » (٤) .

---

(١) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ٩٣ .

(٢) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٤٠٥ .

(٣) ابنا شمام : شمام اسم جبل لباهله ورد ذكره في شعر جرير ، وله رأسان يسميان ابني شمام ، ورد ذكرهما في شعر لبيد .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٠٧ .

ومن ذلك قوله في تشبيه المفــرد بالمركب في فصل من كتاب يتضمن استنجاداً :« وهو إذا استصرخ أصرخ بعزم كالسـهاب في رجمه، وهم كالقوس المتلىء بنزع سهمه . ويرى أن صريخه لم يخب ، وانه إذا لم يجبه بالسيف فكأنه لم يجب ، فهو مغري جواده وحسامه ، ومسمع العدو صرير رمحه قبل قعقعة لجـامه » (١) .

ومن هذا النوع قوله في كتاب إلى بعض إخوته يذم الفراق : « والفراق شيء لا كالأشياء ، وصاحبه ميت لا كالأموات ، وحي لا كالأحياء ، وما أراه إلا كنار الله الموقده التي تطلع على الأفئدة ، وما يجعل صاحبها في ضحضاح منها إلا تواتر الكتب التي تقيه بعض الوفاء ، وتقوم له وإن لم يسنق مقام الإسقاء » (٢) .

أما القسم الرابع فهو تشبيه المركب بالمفرد فإنه قليل الاستعمال بالنسبة إلى الأقسام الثلاثة الآنفة الذكـر .

الاستعارة

تحدثنا في باب الشعر عن الاستعارة ، ووفيناها حقها من البحث ممـا يهمنا أمره ، ونتحدث عنها الآن في باب النثر ، فقد عقــد ابن الأثير فصلاً طويلاً فيها ، تعرض لكثير من امورها ، وذكر خـلال ذلك انه ورد في كتابه ما استخرجه من قواعد ، لم يسمع فيه قولاً لغيره (٣) ، ثم أورد بعد ذلك شواهد مما تصنعه من الاستعارات في رسائله الكثيرة .

نذكر من ذلك ما جاء في رسالة ، سأله بعض أصدقائه أن يصف له غلامين تركيين كان يهواهما ، وكان أحدهما يلبس قباء أحمر ، والآخر قباء أسود ، ومما قـاله : « إذا تشعبت أسباب الهوى كانت لسره أظهـر ، واضحت أمراضه خطراً كلها ، ولا يقال في أحدهما هذا أخطر ، وقد هويت بدرين على

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤١٢ .
(٢) المصدر السابق ، ح ١ ص ٤١٢ .
(٣) ابن الأثير : المثل السائر ، ح ١ ص ٣٥٥ .

غصنين ، ولا طاقة للقلب بهوى واحد ، فكيف إذا حمل هوى اثنين ؟ ومما شجاني أنهما يتلونان في اصباغ الثياب ، كما يتلونان في فنون التجرم والعتاب ، وقد استجدا الآن زياً لا مزيد على حسنهما في حسنه ، فهذا يخرج في ثوب من حمرة خده ، وهذا في ثوب من سواد جفنه ، ولا أدري من دلهما على هذا العجيب ، غير أنه ليس فتنة المحب أهدى من حبيب »(١).

أشار ابن الأثير إلى أن هذا الفصل بجملته مما تواصفه الناس واغروا بحفظه (٢) ، وإن صح ما يزعمه ، فهذا يعني أن التصنع البلاغي ، ولا سيما الاستعارة ، أغرى الناس بتواصفه وحفظه ، ولعله يقصد الطبقة المختارة من المثقفين الذين كانوا يغرمون بهذا النوع من التكلف البياني ، وهذا بالطبع أدى إلى حصول تباين في الأذواق بين المولعين بالصنعة والمعجبين بالقصص الوعظية ، وسوف يتضح صدق نظرتنا لدى عرضنا الزخارف البديعية .

(٢)

تصنع الزخارف البديعية

أشرنا في حديثنا عن الشعر إلى علم البديع وازدهاره في هذا العصر ، وذكرنا ان الزخارف البديعية طغت على الأدب شعره ونثره ، وليس من باب العبث اللفظي قول ابن حجة : « إن لكل زمان بديعاً تمتع بلذة الجديد »(٣).

يبقى علينا الآن ان نوضح اهم ما في نثر هذا العصر من زخارف بديعية طبعت النثر بطابعها الخاص . بيد أن الكتاب لم يكتفوا بما بلغه الشعراء من تصنع لهذه الزخارف البديعية ، وإنما اغرقوا في هذا التصنع ، فأوجدوا فناً جديداً سموه فن الإبداع (٤) .

تحدثنا عن هذا المذهب في معرض دراستنا مذهب الشهاب محمود الأدبي ، وقلنا آنئذ : إنه استخرج ذلك من اتجاه ابن أبي الإصبع خلال

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٧٥ ، ٣٧٦ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٧٦ .
(٣) ابن حجة : الخزانة ، ص ٥ .
(٤) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ٨٨

تبيان ما في بعض الآيات القرآنية من ضروب البديع . هكذا تصنع الكتاب الزخارف البديعية المختلفة في أساليبهم التعبيرية ، وسوف ندرس منها أبرز ما يتصل بباب النثر خاصة من محسنات بديعية ؛ لفظية ومعنوية .

السجع

أعجب العرب بالسجع منذ جاهليتهم الأولى ، فكثر في أمثالهم وخطبهم ونثرهم ، وغدا مظهراً من مظاهر طقوسهم الدينية ، ولما أنزل الله القرآن الكريم على نبيه رأوا السجع في كثير من فواصله وفقراته ، فقلدوه في نثرهم ، وبلغ بهم إعجابهم حداً يجعلهم يكثرون من استخدامه ، « حتى استعملوه في منظوم كلامهم » (١) .

أما في هذا العصر فقد روى ابن الأثير أن بعض أصحابه من أرباب هذه الصناعة تنقصه وعابه ، فاعترض على ذلك ، لأنه لا يرى لهذا الرأي الحر وجهاً مقبولاً عنده ، « وإلا فلو كان مذموماً لما ورد في القرآن الكريم » (٢) .

انتشرت الأسجاع انتشاراً كبيراً ، وغدت ضرورة أسلوبية لا بد منها عند أرباب البلاغة ، لأنهم جعلوها من مقومات النثر الرئيسية في هذا العصر . يقول أبو يعقوب السكاكي أحد علماء البلاغة الأفذاذ في هذا العصر : « ومن جهات الحسن الأسجاع ، وهي في النثر كالقوافي في الشعر » (٣) . كما عدّه البلغاء فضيلة من فضائل الكلام على شرط البراءة من التكلف ، والخلو من التعسف (٤) .

أبرز من بحث السجع في هذا العصر هو ابن الأثير ، وقد حاول أن يوجهه كما رأينا وجهة جديدة ، ليتفوق على من سبقه من الكتاب . بدا بالسجع ، فعرفه بقوله : « وحده أن يقال : تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد » (٥) وجاء بعده الشهاب محمود ، فذكر « أن كلمات

---

(١) العسكري ، الصناعتين ، ص ٢٦٤ .
(٢) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ١٩٣ .
(٣) السكاكي : مفتاح العلوم ، ص ٣٢٨ .
(٤) العسكري : الصناعتين ، ص ٢٦١ .
(٥) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ١٩٣ .

الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الأسجاع موقوفاً عليها ، لأن الغرض أن يجانس بين القرائن ويزاوج بينها ، ولا يتم ذلك إلا بالوقف » (١) .

قسم ابن الأثير السجع إلى ثلاثة أقسام : أولها أن يكون الفصلان متساويين ، لا يزيد أحدهما على الآخر ، وأمثلة كثيرة في القرآن الكريم ، وهو أشرف السجع منزلة للاعتدال الذي فيه ، فمن ذلك قول الشهاب محمود في رسالة البندق : فبرزنا وشمس الأصيل تجود بنفسها ، وتشير من الأفق الغربي إلى جانب رمسها .. إلى حدائق ملتفة ، وجداول محتفة ، إذا خمش النسيم غصونها اعتنقت كالأحباب ، وإذا ركب من المياه متونها انسابت في الجداول انسياب الحُباب . ورقصت في المناهل رقص الأحباب ، وإن لثم ثغورَ نَوْرِها حيته بأنفاس المعشوق . وإن أيقظ نواعس وُرْقها غنته بألحان المشوق ، فنسيمها دان ، وشميمها لعَرْفِ الجنان عنوان ، وورقها من نرجسها غيران ، وطلها من خدود الورد منبث ، وفي طرر الريحان حيران ، وطائرها غرد وماؤها مطرد ، وغصنها تارة يعطف النسيم إليه فينعطف ، وتارة يعتدل تحت ورقائه فتحسب أنها همزة على ألف . مع ما في تلك الرياض من توافق المحاسن وتباين الترتيب ، إن كلما اعتل النسيم نشر الروض ، وكلما خر الماء شمخ القضيب » (٢) .

والقسم الثاني أن يكون الفصل الثاني أطول من الأول قليلاً ، وإلا استكره وعد عيباً ، فمن ذلك قول ابن الأثير في وصف صديق : « الصديق من لم يعتض عنك بخالف ، ولم يعاملك معاملة حالف ، وإذا بلغته أذنه وشاية أقام عليها حد سارق أو قاذف » (٣) . فالأولى والثانية أربع لفظات في كل منهما ، لأن الأولى « لم يعتض عنك بخالف » ، والثانية « ولم يعاملك معاملة حالف » ، وجاءت الثالثة عشر لفظات .

والقسم الثالث من السجع أن يكون الفصل الآخر أقصر من الأول ، وقد عده ابن الأثير عيباً ، وسبب ذلك أن السجع يكون قد استوفى أمده

---

(١) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ٤٩ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٤ .
(٣) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٢٣٩ .

في الفصل الأول بحكم طوله ، ثم يجيء الفصل الثاني قصيراً عن الأول فيكون كالشيء المبتور (١) . ويظهر أن ابن الأثير لم يرقه هذا التقسيم ، ورأى أن ينظر إلى السجع نظرة كلية ، فاقتصر منه على ضربين : أحدهما سماه السجع القصير ، وهو أن تكون كل واحدة من السجعتين مؤلفة من ألفاظ قليلة ، وكلما قلت الألفاظ كان أحسن لقرب الفواصل من سمع السامع ، وهذا الضرب أوعر السجع مذهباً ، وابعده متناولاً ، ولا يكاد يقع استعماله إلا نادراً (٢) . والضرب الثاني سماه السجع الطويل وهو أكثر استعمالا وأسهل متناولاً .

تحدثنا من قبل عن نظرية ابن الأثير الجديدة في السجع العربي ، وأشرنا من خلال ذلك إلى السر الخاص الذي اكتنفه ، وهو خلاصته المطلوبة ، وذكرنا أنه صرح بأن هذا الشيء لم ينبه عليه أحد غيره ، وذلك أن تكون كل واحدة من السجعتين مشتملة على معنى غير المعنى الذي اشتملت عليه اختها . وقد نظر في كتابة المفلقين ممن تقدموه كالصابي وابن العميد وابن عباد والحريري والخطيب ابن نباتة وغيرهم ممن عرض به من معاصريه ، ورأى أن القليل النادر من سجع بعضهم وقع لهم عرضاً ، لكنه عرف هذا السر فكان له الفضل في اكتشافه .

يبقى علينا بعد أن عرضنا للسجع ، وبينا من خلال ذلك كل أقسامه العامة أن نتحدث عن مبنى الفواصل المسجعة ، وما يطرأ عليها من تصنع ، ولا سيما الكلمتين الأخيرتين في فواصل السجعتين . ونرى توضيحاً لذلك أن نتحدث عن السجع المرصع والمتوازي والمطرف والمتوازن .

أما السجع المرصع فهو أن تكون الألفاظ مستوية الأوزان متفقة الأعجاز (٣) أو متقاربتها (٤) وقد اشتق اسمه من ترصيع العقد ، وذلك أن

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٤٠ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٤٠ .
(٣) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ٥٠ .
(٤) السكاكي : مفتاح العلوم ، ص ٢٢٩ .

يكون في أحــد جانبي العقد من اللآلىء مثل ما في الجانب الآخر ، وكذلك نجعل هذا في الألفاظ المنثورة من الأسجاع (١) . فمن ذلك قول ابن الأثير في جواب كتاب إلى بعض أخوانه : « قد أعدت الجواب ولم أستعر له لفظاً ملفقــاً ، ولا جلبت إليه حسناً منمقاً ، بل أخرجته على رسله ، وغنيت بصقال حسـنه على صقله ، فجاء كما تراه غير ممشوط ولا مخطوط ، فهو يرفل في أثواب بذلته ، وقد حــوى الجمال بجملته ، والحسن ما وشته فطرة التصوير ، لا ما حشته فكرة التزوير » (٢) . والترصيع ظاهر كما نرى في قوله : « وشنه فطــرة التصوير » و « حشته فكرة التزوير » . ومنه قوله أيضاً في تثقيف الأولاد في فصل من نثره : « من قدّم أود أولاده ؛ ضرّم كمد حساده » (٣) . ف (قوم) بإزاء (ضرم) ، و (أود) بإزاء (كمد) ، و (اولاده) بإزاء (حساده) .

وأما السجع المتوازي فهو أن يراعى في الكلمتين الأخيرتين من القرينتين الوزن مــع اتفاق الحرف الآخر منهما . فمن ذلك قول المهذب الدمشقي في رسالة النسر والبلبل : « كأنما أجنحته رُكّبت من العواصف ، واستلبت من البروق الخواطف ، وأُخذت من رمز الألفاظ ، واستعيرت من غمــز الألحاظ » (٤) . وقوله أيضاً في الرسالة نفسها : « السلام عليك من طائر صغير حقــير ، يظهر في صورة كبير خطير ، وشاد ظريف طريف ، بغــير اليف ولا حليف » (٥) .

وأما السجع المطرف فهو أن يراعى الحرف الأخير في كلتا قرينتيه من غير مراعاة الوزن . من ذلك قول أسامة في رسالة بعث بها إلى الناصر صلاح

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٦٤ .

(٢) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٢٦٥ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٦٥ .

(٤) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٣٤١ .

(٥) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٤٧ .

الدين ، وقد طلب القاضي الفاضل من العماد ان يأخذها ويوردها في الخريدة : « المملوك لبعده عن خدمة مولاه قد أنكر الزمان ، فما هو الذي كان ، وأوهت الأيام ما أبقته من يسير قوته ، واسترجعت ما أعارته عن ضعيف نهضته ، وأذاقته طعم الاغتراب ، وأدخلت عليه الهم من كل باب ، فهو في زاوية المنزل عن كلمات الناس فيه بمعزل » (١) .

التزم الكتاب في اسجاعهم لزوم ما لا يلزم ، وعد ذلك « من اشق الصناعة مذهباً وأبعدها مسلكاً » (٢) . فمن ذلك قول ابن الأثير في صدر كتاب يهنىء فيه الملك الأفضل بملك مصر : « المملوك يهنىء مولانا بنعمة الله المؤذنة باستخلاصه واحتبائه ، وتمكينه حتى بلغ اشده واستخرج كنز آبائه ، ولو أنصف لهنأ الأرض بوابلها ، والأمة بكافلها ، وخصوصاً أرض مصر التي خصت بشرف سكناه ، وغدت بين بحرين من فيض البحر وفيض يمناه (٣) .

لا شك أن تصنع السجع أبرز ما في النثر من فنون البديع ، وعليه كان اعتماد جل الكتاب ، إذ كل كلام يخلو منه ، ولا يأخذ كاتبه منه بحظ قليل أو كثير ، خارج في عرف نقاد هذا العصر عن أساليب البلاغة الصحيحة . ولم يكن السجع كل شيء ، فإن الكتاب كانوا يعتمدون تكلف الطباق والجناس والتوازن واللزوم وغيرها من فنون البديع .

الجناس

تحدثنا في باب الشعر عن الجناس ، وذكرنا أهميته الكبرى كأحد مقومات المذهب الأدبي في عرف الأدباء ، لأنهم كانوا يعتقدون أنه « غرة سادخة في وجه الكلام (٤) » ، فلا غرابة إن رأينا الكتاب أيضاً يتكلفونه ويتصنعونه ، لأنه لا بد منه ليحوز على رضا البديعيين من علماء البلاغة ،

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٥٤٦ .
(٢) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٢٦٧ .
(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٦٨ .
(٤) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٢٤٦ .

بله أذواق العصر التي كانت تقدر مكانة الأديب بما يجري في اسلوبه من هذا التأنق البديعي ، وكنا قد لاحظنا أن الحصكفي الخطيب كان يتصنعه ليظهر براعته ومقدرته ، وقد أشرنا إلى ذلك في رسالة القصار والصياد وأوردنا ما فيها من صور الجناس المختلفة والمتكلفة . فمن الأسلوب المجنس قول ابن منير الطرابلسي في رسالة له : « إلامَ العب والتسيب يجد ؟ وعلام اخلق والدهر يجد ؟ اما انظر المصارع في سواي ، والمقصود به (١) شواي » (٢) . ومنه قول ابن الأثير في مطلع كتاب بعث به إلى بعض أخوانه : « الكتب وإن عدها قوم عرضاً من الأعراض ، وتقالوها حتى قالوا هي سواد في بباض ، فإن لها عند الأخوان وجهاً وسيماً ، ومحلاً كريماً ، وهي حمائم القلوب إذا فارق حميم حميما » (٣) . وذكر لنا أنه مضى على هذا النهج من الجناس إلى ختام الكتاب . ومنه قوله أيضاً في وصف كريم : « وقد جعل الله حرمه ملقى الجِفان ، وملتقى الأجفان ، فهي حمى لمن جنى عليه زمانه ، وجار لمن بعد عنه جيرانه » (٤) .

وصف ابن الأثير بعض ما أورده من سجعه أن « عليه خفة الطبع لا ثقل التطبع » (٥) ولكننا لاحظنا في أسجاعه ثقل التطبع لا خفة الطبع ، ومردّ ذلك أن ابن الأثير يدرك في قرارة نفسه أن التصنع والتطبع قلما يجتمعان ، كما رأينا أكثر من مرة فيمثله السائر .

الطبــاق

تحدثنا أيضاً عن الطبــاق في باب الشعر وذكرنا أهميته الكبرى في المذاهب الفنية في هــذا العصر ، بدليل أنعلماء البلاغة سموه البديع (٦) .

---

(١) شواي : جمع شواة ، وهي جلدة الراس .
(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٩٤ .
(٣) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٢٥٦ .
(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٥٦ .
(٥) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٥٥ .
(٦) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٧٩ .

ذكر ابن الأثير أن هذا النوع من الكلام لم تختص به اللغة العربية دون غيرها من اللغات ، واشار إلى انه وجد في لغة الفرس ، وأن « أول كتاب الفصول لأبفراط في الطب قوله : العمر قصير والصناعة طويلة ، وهـذا الكتاب على لغـة اليونان » (١) .

أوردنا قريباً من هذا المعنى في حديثنا عن الكناية في باب الشعر ، وهذا يؤكد لنا أن الأدب العربي في هذا العصر كان على صلة بالثقافات الأخـرى المعروفة كالفارسية واليونانية والسريانية وغيرها .

اقترن الجناس والطباق في مذهب أدبي واحـد ، اشار إليه العمـاد الكاتب كثـيراً في خريدته ، وأورد شواهد كثيرة نثرية وشعرية من آداب هـذين القرنين .

نذكر من ذلك قول ابن الأثير في صدر كتاب بعث به إلى بعض اخوانه : « صدر هذا الكتاب عن قلب مقيم وجسد سائر ، وصبر حليم وجزع عاذر ، وخاطر أدهشـنه لوعة الفراق فليس بخاطر (٢) » . ومن ذلك قوله يصف المسير من دمشق إلى الموصل : « ثم نزلت أرض الخابور فغرّبت الأرواح وشرّقت الجسوم، وحصل الإعدام من المسار والإنزال من الهموم ، وطالبتني النفس بالعود والقدرة مفلسة ، وأويت إلى ظل الآمال والآمال مشمسة » (٣). ومن ذلك قول بعض الأخوان : « صدر هذا الكتاب عن قلب مأنوس بلقائه ، وطرف مستوحش لفراقه ، فهـذا مروع بكآبة إظلامه ، وهذا ممتنع ببهجة إشراقه ، غير أن لقـاء القلوب لقاء عنيت بمثله خواطر الأفكار ، وتتناجى به من وراء الأستار ، وقد احذّ الطيف المسلم في المنام ، الذي يموه بلقاء الأرواح على لقـاء الأجسام » (٤) .

---

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٨١.

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٨١ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٨١ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٨١ .

نكتفي بهذا القدر من عرض ما يتصل بالتصنع البلاغي في هـذا العصر ونخلص من كل ما تقدم معنا إلى القول : إن الأساليب النثرية في الشعر العربي شهدت نضج العلوم البلاغية ، وكان حظها كالشعر منها كبيراً جـداً ، فاستمدت منها صورها البيانية وزخارفها البديعية في عصر أضيف إليـه البديع ، فكان بحـق عصر البديع .

* * *

القسم الثالث

بنية النثر الفني

طبع النثر الفنى في عصر البديع بطابع خاص ، وظهر لنا ذلك في بنيته ونرى ، توضيحاً لذلك أن نقوم بدراسة الألفاظ والتراكيب ، وننتقل منها لنبين الرسائل واقسامها وأساليبها .

(١)
الألفاظ والتراكيب

لاحظنا أن بعض الكتاب كان يميل إلى استعمال غرائب الألفاظ ، لكن الذين تصدوا للتحدث عن خصائص الكتابة وشرائطها تطلبوا من الكتاب أن يختاروا الفاظهم وينمقوا أساليبهم وتراكيبهم ، واشترطوا على الكاتب أن تكون اللفظة مما رقت حروفها ، وحلا جرسها وطلبوا منه أن يتجنب منها « ما يضيق به مجال الكلام في بعض الحروف كالثاء والذال والخاء والشين والصاد والطاء والظاء والغين ، فإن في الحروف الباقية مندوحة عن استعمال ما لا يحسن من هذه الأحرف » (١) .

برزت في هذا العصر مشكلة الألفاظ والأساليب العامية بشكل جلي ، ولا سيما أن الأدب الشعبي كان أظهر في هذه الفترة منه في غيرها ، ووقف الأدباء حيارى أمام هذه الألفاظ المستحدثة والمولدة ، وبحث بعضهم هذا الأمر الهام ، إذ ليس من المعقول أن يتخلوا البتة عما تولده العامة من معان جديدة للألفاظ العربية الفصحى .

---

(١) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ١٧٨ .

ذكـر ابن الأثير أن من أوصاف الكلمة ألا تكون مبتذلة بين العـامة ، وذلك ينقسم إلى قسمين : الأول ما كان من الألفاظ دالاً على معنى وضع له أصل في اللغـة ، فغيرته العامة . وجعلته دالاً على معنى آخر ، وهو ضربان : الأول ما يكره ذكره ، والثانى أنه وضع في أصل اللغة لمعنى ، فجعلته العامة دالاً على غيره ، إلا أنه ليس بمستقبح ولا مستكره ، كتسميتهم الإنسان ظريفاً إذا كان دمث الأخلاق حسن الصورة ، أو اللباس ، أو ما هذا سبيله . والظرف في أصل اللغة مختص بالنطق فقط (١) .

والقسم الثاني مما ابتذلته العـامة ، وهو الذي لم نغيره عن وصفه ، وإنما أنكر استعماله لأنه مبتذل بينهم ، لا لأنه مستقبح ، ولا لأنه مخالف لمـا وضع له .

وقف ابن الأثير عند هذا القسم وناقشه ، وأبدى فيه نظره ، وذكـر أنه إن كان عبارة عما يكثر تداوله بين العامة ، فإن من الكثير المتداول بينهم ألفاظاً فصيحة ، وقـد نطق بها القرآن في مواضع كثيرة منه ، وجاءت في كلام فصحاء العرب . وخلص اخيراً إلى القول إنه ترجح في نظره ان المراد بالمبتذل من هذا القسم إنما هو الألفاظ السخيفة الضعيفة ، سواء اتداولتها العـامة أم تداولتها الخاصة (٢) .

أورد المقري الفيومي في المصباح المنير ذكـر بعض ما أنكر على العـامة استعماله في أماكن كثيرة من معجمه ، نذكر من ذلك مثلاً ما أورده في بحث النسب « وقول العـامة شفعوي خطأ ، إذ لا سماع يؤيـده ، ولا قياس يعضده » (٣) . وتحدث في الفصل ذاته عن « قول العامة : الأموال الزكاتية والخليفيتية بإثبات التـاء خطـأ ، والصواب حـذفها وقلب حرف العـلة واواً » (٤) . وأشار في معجمه إلى استعمال لفظة مقراض بالمفرد « كما تقول

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٨١ .

(٢) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ١٨١ .

(٣) الفيومي : المصباح المنير ، ج ٢ ص ٢٣١ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٣٢ .

العـامة » (١) وأورد في معجمه أيضاً آراء أهل العلم في كثير من الألفاظ التى يكثر تداولها بين الناس بعد أن غيروا معانيها أو اطلقوها على غير ما وضعت له ، نذكر من ذلك قوله حول اختلاف اللغويين في كلمة النزهة ، فنقل أولاً قول ابن السكيت في فصل تحدث فيه عما تضعه العـامة في غير موضعه ، ثم شفعه بقول ابن قتيبة « ذهب بعض أهل العلم في قول الناس : خرجوا يتنزهون إلى البساتين ، أنه غلط وهو عندي وليس بغلط لأن البساتين في كل بلد إنما تكون خارج البلد . . . » (٢) .

نلاحظ في هذا العصر ـ بالإضافة إلى المشكلة السابقة ـ اتجاهين لدى الكتاب ومن خلالهما نتمثل الصراع بين القديم والجديد . أما أنصار القديم فقد حمل عليهم ابن الأثير ، ونعتهم بأنهم جماعة من مدّعي هذه الصناعة يعتقدون أن الكلام الفصيح هو الذي يعز فهمه ،ويبعد متناوله ، وإذا رأوا كلاماً غامض الألفاظ يعجبون به ، ويصفونه بالفصاحة وهو بالضد من ذلك ، لأن الفصاحة هي الظهور والبيان ، لا الغموض والخفاء (٣) .

وأما أنصار الجديد فهم الذين ضاقوا ذرعاً بهذه القيود ، وكان ابن الأثير على رأس هذه الجماعة التي عزفت عن الغموض والخفاء ، ورأت أن الألفاظ يجب أن تكون رقيقة جزلة ، ولكل موضوع ألفاظه الخاصة به .

استخدم كتاب هـذا العصر كثيراً من الألفاظ العامية كما مر معنا ، أو المعـربة مما طـرأ على اللغـة العربية الفصحى ، واقتبسته من اللغات الأخرى. وكانت الحروب المتواصلة في هذا العصر وأحداثه الكبرى والعلاقات التجارية المتبادلة التي كانت تربط بين الأمم المتنازعة أو المتباعدة وغير ذلك ، من أهم العوامل التي ساعدت على امتزاج الثقافات المختلفة ، وأدت بالتالي إلى انتشار كثير من الألفاظ العامية والأساليب المعربة في النثر الفني .

---

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٩٠ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٣) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ١٦٨ .

لو تصفحنا كتاب الاعتبار أحد تصانيف أسامة لوجدنا فيه كثيراً من الألفاظ المعربة ، نذكر منهـا قوله : « هذا رجل برجاسي (١) (أي تاجـر) لا يقـاتل ولا يحضر القتـال (٢) » وقـوله : « ووراءهـم الشواهين (٣) الكوهية »(٤) ، وقوله : « فرأى ظل تركشة(٥) أجفل منه فرماه وانفلت »(٦)، وقوله : « فقبض في يده مثل البرجم (٧) » (٨) ، وقوله : « وما سمعت وما رأيت أن في السباع الببر (٩) » (١٠) .

ومن ذلك قول نور الدين في كتاب بعث به إلى الخليفة الفاطمي العاضد : « ويعلمه أنه ما أرسلهم ، واعتمد عليهم إلا لعلمه بأن قنطاريات (١١) الفرنج ، ليس لها إلا سهام الأتراك » (١٢) . ومنه قول العماد الكاتب : « وله خمس

---

(١) لفظـه مأخـوذة من اللغـة الفرنسية وتـدل على الطبقـة الوسـطى مـن الناس (Bourgeoisie) .

(٢) أسامة بن منقـذ : الاعتبار ، ص ١٤١ .

(٣) الكوهـة : وهي من أصل فارسي ، ومعناها الجبل ، ويظهر أن أصلها القوهية ، وفي المعرب « قيل هي منسوبة الى قوهستان ص ٢٦٤ » .

(٤) أسامة بن منقـذ : الاعتبـار ، ص ١٦٢ .

(٥) تركشة : وهي من أصل فارسي ، ومعناها الكنانة وجعبة السهام . وعنـد دوزي تركاش (ج ١ ص ١٤٥) ، وعند الخفاجي « تركش جعبة مقـر السهام ، عـربه المولدون وتصرفوا فيه ، وهو عامي » (ص ٦٥) .

(٦) أسامة بن منقـذ : الاعتبار ، ص ٢١٤ .

(٧) البرجم : وهي من أصل فارسي ، ومعناها ذنب عجل البحر .

(٨) أسامة بن منقـذ : الاعتبار ، ص ١٥٩ .

(٩) الببر : وهي من أصل فارسي ، ومعناها الفهد المخطط ، ويقول الخفاجي : انـه جنس من السباع (شفاء الغليل ص ٤٠) ، وعند دوزي (ج ١ ص ١٤٥) .

(١٠) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١١٠ .

(١١) القنطاريات : وهي من أصـل يوناني ، ومعنـاها الرماح أو نوع منها (دوزي ج ٢ ص ٤١٢) .

(١٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١٨٣ .

سنين في بيكارها (١) » (٢) . ومنه قول ابن غانم في كشف الأسرار « مارستان التقوى » و « إهليلج (٣) الالتجاء » (٤) .

تلك هي صورة عن الألفاظ الكتابية المعربة منهاوالعامية ، تأثرت بهـا أساليب النثر ، فرأيناها تنطبع بطابع العصر فلا غرابة إن عثرنا في الأدب : شعره ونثره على السواء ، على ألفاظ استحدثت لهـا الطبقات الشعبية مدلولات جديدة لكي توسع مدى التعبير في الأسلوب العربي ، وهذا أسلوب معروف في سائر اللغات ، لأن دواعي الحياة وضروراتها تتطلب إيجاد معان جديدة للألفاظ تنسجم معها .

أما التراكيب فقد تحدثنا عن أساليب الكتاب بالتفصيل ، وشرحناها بوضوح لدى دراسة الكتاب الأعلام وبيـان مذاهبهم الأدبيـة ، وأوردنا بعض مظـاهر التصنع البلاغي والتكلف البدبعي اللذين طبعـا هـذا النثر الفني بطابعهما الخاص .

(٣)
مقـادير الرسائل

تختلف مقـادير قطـع الورق المستعملة في دواوين الإنشاء في المكاتبات والولايات الصادرة عن النواب بالممالك ، وقـد ذكر القلقشندي أن المقادير المستعملة بالممالك الشامية في هـذا العصر لا تخرج عن أربعـة مقادير : المقدار الأول ، وهو قطع التـامي الكامل ، وهو الذي يكون عرضه عرض الطومار الشامي الكامل في طوله ، وفيه يكتب عن النواب لأعلى الطبقـات

(١) بيكار : وهي من أصل فارسي ، ومعناها الحرب (دوزي ج ٢ ص ٤١٣) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٩٥ .

(٣) اهليلج : ذكـر الفيومي أنها بكسر الهمزة واللام الأولى ، وأما الثانية فتفتح ، وهي معربة ، وفي لغة أخرى بغير ألف : هليلج (المصباح المنير ، ج ٢ ص ١٨٩) .

(٤) ابن غـانم : كشف الأسرار ، ص ٢٤ .

من أرباب التوقيع . والمقدار الثاني قطع نصف الحموي ، وعرضه درجة عرض نصف الطومار الحموي ، وطوله بطول الطومار ، وفيه يكتب للطبقة الثانية من أرباب التوقيع . والمقدار الثالث قطع العادة من الشامي ، وعرض درجة سدس الذراع بذراع القماش المصري في طول الطومار أو دونه ، وفيه يكتب للطبقة الثالثة من أرباب التوقيع والمراسيم الصادرة عن النواب إلى السلطان فمن دونه من أهل المملكة وغيرهم (١) . كما أشار القلقشندي إلى أن نائب الشام ونائب الكرك قد جرت عادتهما بصدور المكاتبات عنهما في الورق الأحمر دون غيرهما من النواب ، وهذا يوضح أهمية الإقليم الشامي بالنسبة لغيره من الأقاليم . يضاف إلى ذلك أن مقادير الورق تختلف أيضاً بحسب نوع الخط ، وكان الكتاب يراعون ترك بياض في أول الدرج وحاشيته ، ويناسبون ما بين السطور من بعد ، ويختلف مدى الحاشية وما بين السطور بحسب الشخص الذي يكتب إليه ، فتارة تضيق وتارة تتسع .

(٣)

بنيـة الفنون النثرية

تختلف الأنواع الأدبية والفنون النثرية : من خطب ومقامات ورسائل ديوانية ورسائل أخوانية في هيكلها العام . ففي الخطب نجد كل خطبة تتألف من أربعة أقسام : أولها يقتصر فيه الخطيب على حمد الله ، فنجد مثلاً في مطلع خطبة الفتح التي ألقاها الخطيب بحضور الناصر صلاح الدين أنه قد استنفد تقريباً ما جاء في القرآن من آيات ورد فيها ذكر حمد لله ، فكانت عدتها ثماني مرات ، لم يذكر فيها كلمة من إنشائه ، وإنما اقتصر على تلاوة آيات مختارة ليؤدي من خلالها معنى الحمد . لم يكن هذا الأسلوب عاماً إذا جرت العادة أن ينشىء الخطيب فاتحة حمد الله في مستهل الخطبة إما بدعاء تقليدي معروف أو يستخدم دعاء مبتكراً في تحميد جديد . والقسم

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٦ ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

الثاني وهو الخطبة الأولى ، وتكون مستهلة بقوله : « أيها الناس » ويتحدث فيها عن أمور الناس وشؤونهم العامة ، مما يهم أمر المسلمين جميعاً ثم يمضي فاصل زمني ، يستريح خلاله الخطيب ، والقسم الثالث وهو الخطبة الثانية ، فلا تخرج في معانيها عن الأولى ، لكنها تكون في العادة أكثر توضيحاً وتبياناً ، والقسم الرابع وهو الدعاء للخليفة أولاً ، وللسلطان أو الحاكم أو النائب ثانياً ، وينتهي هذا الدعاء بتعميمه على سائر المسلمين .

* * *

أما الرسائل الديوانية : من تواقيع ومناشير وتقاليد ، فيحسن فيها التطويل ، وتعتبر كثرتها وقلتها بحسب الرتب (١) ، ويرى الشهاب محمود انه يجب أن يراعى فيها أمور كثيرة ، منها براعة الاستهلال بذكر الرتبة أو الحال ، وعدم المبالغة في مدح المتولي الجديد وذم المعذول ، ويطلب من المنشيء أن يتخير الكلام والمعاني ، فإنه مما يتسيع ويذيع ، إذ لا يعذر المقصر بعجلة ولا ضيق وقت (٢) . ويرى أن يكون الكلام في التقليد على أربعة أقسام متفاوتة المقادير ، فالربع الأول مقصور على الخطبة ، والثاني ذكر موقع الإنعام في حق المقلد ، وذكر الرتبة وتضخيمها ، والثالث في أوصاف المقلد ، وذكر ما يناسب تلك الرتبة من عدل وسياسة ومهابة وبعد صيت وشجاعة إن كان نائباً ، ووصف العدل والرأي وحسن التدبير والمعرفة بوجوه الأموال وعمارة البلاد وصلاح الأحوال ، وما يناسب ذلك إن كان وزيراً ، وكذلك في كل رتبة بحسبها ، والرابع في الوصايا ، وهذه هي القاعدة في ذلك (٣) .

جرى كتاب الإنشاء في مكاتباتهم على إفراد البسملة في سطر واحد تبجيلاً لاسم الله تعالى وإعظاماً له وتوقيراً ، وقد ذكر أبو هريرة أن الرسول (ص) « نهى أن يكتب في سطر بسم الله الرحمن الرحيم غيرها »(٤) .

---

(١) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ١٠٩ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١١٠ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٠٩ ، ١١٠ .
(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٦ ص ٢٢٤ .

وتتلو الحمدلة البسملة طلباً للتيمن والبركة ؛ فقد روى ابو هريرة أيضاً : « كل امر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم » (١) ، بيد أن الكتاب زادوا كثيراً من ذكر الحمد فكرروه « المرات المتعددة آلى السبع في الخطبة الواحدة » . وقد يستعمل الحمد بصيغة الفعل « فإني أحمد الله إليك » (٢) .

ذكر القلقشندى أن له في الاستعمال ثلاث صيغ ؛ أولاها « يحمده » ، وثانيها « نحمده » . وثالثها « أحمده » . ولكل منها استخدام خاص في صناعة الإنشاء .

أضاف في هذا العصر المتأخرون تعابير التشهد في الخطب والرسائل ، واعتمدوا في ذلك على حديث البيهقى أن الرسول (ص) قال : « كل خطبة ليس فيها تشهد فهي كاليد الجذماء » (٣) .

نتجاوز البسملة والحمدلة والتشهد لنقف عند عبارة التخلص المأثورة : « أما بعد ف . . » (٤) ، ونادراً ما يخلو منها الكلام .

يضاف إلى ذلك في بعض الأحيان عبارة الاستثناء بالمشيئة الإلهية ، فيكتب « إن شاء الله تعالى » . ذكر القلقشندي « أنها أول خاتمة تكتب من خواتم المكتوب فمحلها من الدرج إلى أسفل المكتوب في وسط الوصل مكتنفة ببياض عن يمينها وشمالها ، وبينها وبين السطر الآخر من المكتوب كما بين سطرين أو دونه » (٥) .

جرت عادة الكتاب في كتابتها بأن تكتب بقلم الرقاع كما في القطع الصغير ،

---

(١) المصدر السابق ، ج ٦ ص ٢٢٤ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٦ ص ٢٢٥ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٦ ص ٢٢٦ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٦ ص ٢٣١ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٦ ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

وكانت تكتب معلقة مسلسلة وفق صورة تقليدية معروفة . وإن كانت بقلم كالثلث كتبت واضحة مبينة ، وتكون وفق صورة تقليدية معروفة .

تلك هي أهم الأساليب العامة في الخطب والمقامات والرسائل الديوانية ، وضحنا جزئياتها من قبل ، وبينا مميزاتها وخصائصها الكلية .

* * *

أما الرسائل الإخوانية أو الوجدانية فإنها تتخلى عن كثير من هذه الأمور المتبعة ، وقد ذكر الشهاب محمود أن الكاتب في ذلك مطلق العنان مخلى بينه وبين قوته أو ضعفه (١) .

يلاحظ أن طابع الإجلال والاحترام في آداب المخاطبة والكتابة يظهر بجلاء ووضوح في مخاطبة الأصدقاء والأقرباء للدلالة على صدق الأخوة والولاء . فالمفروض مثلاً في رسالة ابن إلى أبيه أن تكون معبرة عن الحب والعاطفة والمودة دون أن تحجب وراء الستار التقليدي من آداب المخاطبة ، وقد لاحظنا في الرسالة التي أنشأها الشهاب محمود باسم مولود إلى والده الغائب طابع العبودية للسيد المولى ، لا للأب الرحيم العطوف .

مهما يكن من أمر ذلك فإنها في نظرنا تعبر عن الشخصية الذاتية في أدب هذا العصر ، وتصوّر المفاهيم الاجتماعية السائدة والتيارات الأدبية المعروفة في هذا العصر أياً كان شكلها أو طابعها .

* * *

---

(١) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ١١٦ .

خاتمة البحث

نخلص مما تقدم معنا في حديث النثر بعد حديث الشعر إلى القول : إن أهم ما يتميز به هو أن بعضه كان مقصوراً على طبقة الحكام وتابعيهم ، ولذلك كان الكتاب على صلة وثيقة بهم إذ إنهم كانوا مصدر رزقهم ، وكانوا يحاولون أن يظهروا براعاتهم لبشعروهم بعبقريتهم ، وأنهم لا غنى لهم ، وأنهم وحدهم الذين تقام عليهم دعائم الملك والسلطان ، حتى إننا نجد مثل صلاح الدين يقول : إنه لم يقم دولته بسيوف الناس ؛ وإنما أقامها بقلم القاضي الفاضل .

نحن نعتقد أن هذا النوع يفتقد بعض الأصالة الذاتية ، ويفتقر إلى حرارة العاطفة الإنسانية الحية ، فقد تشابه الكتاب في تكلف الأساليب وتصنعها ، ولكننا بالإضافة إلى ذلك نحس بنداء قلوبهم يحاول أن يبلغ قلوبنا ضمن أساليب التصنع المعروفة . إنها المشاعر المكبوتة تريد لنفسها الانطلاق والتخلص من عبودية الألفاظ والأساليب . فلا غرابة بعد ذلك كله إن شهدنا ميلاد أدب قصصي وعظي جديد بعيداً عن القصور والدواوين ، يستمد وجوده من الطبقات الشعبية التي أقبلت عليه لأنه منها وإليها ، وقد حاول هذا الأدب الجديد أن يتخلى عن التصنع متابعاً الخطة التي بدأها بعض الكتاب ليحرروا أسلوب الدواوين ، ولكنهم لم يبلغوا ما يصبون إليه ، حتى قام بعض الأدباء والوعاظ ، فسلكوا في قصصهم هذه الطريق ، واستطاعوا أن يخلفوا لنا آثاراً أدبية مختلفة لها أهميتها الكبرى في أدب هذا العصر . أضيف إلى ذلك فن المنامات الأدبية الذي ظهر على يد الأديب المغربي الوهراني ، وقد وقفنا عند هذا الفن الذي يتميز بالطابع الإنساني ، ووضّحنا أهميته لأنه يذكرنا بالمعرّي ورحلته السماوية في رسالة الغفران ، والغريب بعد ذلك كله أن يضل كثيراًمن أرخوا آداب هذا العصر ، فيحكموا على النثر الديواني وحده ، وأما النثر الوجداني الذي يتمثل لنا في هذا الأدب القصصي الوعظي الجديد وغيره مما مرّ معنا على الرغم من كثرته ، فيهملون أمره لعدم وجوده بين أيديهم أو عدم القيام بتحقيقه ونشره .

هكذا كان النثر ، شأنه في ذلك شأن الشعر نفسه ، كما رأينا ذلك من قبل ؛ وهذا الأدب جدير بعناية الباحثين المنصفين ، لا هؤلاء الذين يجردونه من أية قيمة ، فلا يقيمون له وزناً ، وإنما يجعلونه عقيماً يمثل الجدب والانحطاط ، وينعتونه بأدب الظلام والتأخر ، وهم بالتالي يهملون أمره ، ويتجاهلون خطره ، وهو الذي خلّد لنا أجلّ الملاحم وأهم الأحداث في تاريخنا البعيد ، ووشّى كتبنا القديمة بأرق الشعر وأعذب الموشحات الصوفية ، وزيّنها بأجمل النثر الوجداني والقصص الوعظية ، وكما لاحظنا عناية القدماء بالديباجة والأساليب ، وهذه الظاهرة معروفة في أدبنا منذ أقدم عصوره ؛ وهي أصيلة فيه ولا تقلل من أهميته في نظرنا ابداً ، فنحن نعرف جيداً ان المذاهب الأدبية نفسها في الآداب الأجنبية القديمة والمعاصرة تعتمد أول ما تعتمد على هذه النظريات الأسلوبية ، بيد أن نقادهم على تفاوت آرائهم النقدية والأدبية ، لم ينعتوا آدابهم بالعقم والجمود ، ولم يسموها بالتأخر والانحطاط كما فعل أدباؤنا ونقادنا ، وإنما رأوا في ذلك مذاهب فنية وتيارات أدبية اقتضاها التطور الزمني والتدرج الحتمي في بيئات مختلفة ، ومجتمعات متباينة امتزجت بها الثقافات المختلفة من شرقية وغربية .

هكذا نجد الأمر نفسه في أدب هذا العصر الذي كشفنا عن بعض صفحاته المطوية وجوانبه المنسية وأبرزناها لأول مرة كما هي في ثوبها القشيب ، وقد لاحظنا فيه كغيره من الآداب العالمية الأخرى تيارات أدبية ومذاهب بيانية ، لها مفاهيم خاصة ، ونظرات عميقة تتناول مختلف مظاهر الحياة الفكرية ، رزينها وماجنها ، وقد استطاع أن يعطينا مرآة صادقة عما في جوهره وعرضه . هذه الصورة التي حاولنا إبرازها من خلال دراسة الأدب في بلاد الشام ، هي الحياة الإنسانية الحقيقية المتمثلة في الأدب الذي نؤرخه شعره ونثره ، فهو أدب الحياة الإنسانية ، ولا أدب بغير الإنسان والحياة .

الفهرس



الفهرس الاول
فهرس مصـــادر البحث

(١)
المصادر المخطوطة والمصورة

١ ـ **ابن تغري بردي** (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي المتوفى سنة ٨٧٤هـ) .

※ المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقم ١١١٣ تاريخ ، وهو مؤلف من ثلاثة أجزاء . طبع منه القسم الأول من الجزء الاول .

٢ ـ **ابن حجـر العسقلاني** (شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ) .

※ رفع الاصر عن قضاة مصر . مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١٠٥ تاريخ .

٣ ـ **الحـريري** (أحمـد بن عـلي) .

※ الاعلام والتبيين في خـروح الفرنج الملاعين مخطوطة بخط المؤلف نفسه في المكتبـة الوطنية بباريس رقم ٢٢٣٤ مجموع .

٤ ـ **الحصكفي** (معين الدين أبو الفضل يحيى بن سلامة المتوفى سنة ٥٥١ هـ) .

※ رسائل الحصكفي . محطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٥٢٦ أدب .

٥ ـ **الذهبي** (أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان المتوفى سنة ٧٤٨ هـ) .

※ سير النبلاء . مصورة مخطوطة موجودة في المجمع العلمي العربي بدمشق رقم ٢٠٩ .

٦ ـ **الرجوي** (محمد بن مرزوق الرجـوي) .

※ بلوغ الأمل في بعض أحمال فن الزجل . مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١١٨٢ .

٧ ـ **سبط ابن الجـوزي** (يوسف بن قزعلي بن عبـد الله أبو المظفر شـمس الدين المتوفى سـنة ٦٥٤ هـ) .

※ مرآة الزمان في معرفة الخلفاء والاعيان . مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٩٢٧٦ ج .

٨ ـ **الشهاب الشاغوري** (فتيان بن علي بن فتيان بن ثمال المتوفى سنة ٦١٥ هـ) .

※ ديوان الشهاب الشاغوري . مصورة مخطوطة بالمجمع العـلمي العـربي بدمشق .

٩ ـ **الشرف الانصاري** (عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن المتوفى سنة ٦٦٢ هـ) .

※ ديوان الشرف الأنصاري . مصورة مخطوطة ، تم الحصول عليهـا وتصويرها من استنبول ، وهي النسخة الوحيدة المخطوطة الموجودة في مكتبة ولي الدين المضمومة الى مكتبة بيبازيد الثاني رقم ٢٦٦٩ .

١٠ ــ **الصفدي** (صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي المتوفى سنة ٧٦٧ هـ) .

* أعيان العصر . مصورة مخطوطة موجودة في دار الكتب المصرية رقم ١٠٩١ تاريخ ، ويوجد منها الجزء الثالث والسادس والسابع ، وكل جزء مؤلف من قسمين .

* الشعور بالعور . مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية رقم ١٨٣٤ تاريخ .

١١ ــ **ابن عساكر** (ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة بن عبد الله بن الحسين بن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ هـ) .

* تاريخ دمشق . مخطوطة بدار الكتب الظاهرية بدمشق رقم ٣٣٦٦ ــ ٣٣٨٤ .

١٢ ــ **العماد الكاتب** (عماد الدين محمد بن محمد بن محمد بن حامد المتوفى سنة ٥٩٧ هـ) .

*رسائل بين الملوك الأيوبيين . مخطوطة مصورة (ميكروفيلم) في معهد المخطوطات بالجامعة العربية رقم ٤١٩ أدب ، وهي مأخوذة من مكتبة نور عثمانية .

١٣ ــ **ابن القيسراني** (أبو عبد الله ، شرف الدين محمد بن نصر المتوفى سنة ٥٤٨ هـ) .

*ديوان ابن القيسراني . مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١٤٨٤ أدب .

١٤ ــ **ابن مبارك شاه** (أحمد بن مبارك شاه المصري ، ويسمى محمد بن حسين بن ابراهيم بن سليمان السيفي يشبك الحنفي الصوفي المتوفى سنة ٨٦٢ هـ) .

* سفينة ابن مبارك شاه . مخطوطة مصورة (ميكروفيلم) في معهد المخطوطات بالجامعة العربية ، رقم ٤٧٥ و ٤٧٧ أدب .

١٥ ــ **الناصر** (داود بن المعظم بن العادل المتوفى سنة ٦٢٦ هـ) .

* الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية . مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية رقم ٢٢٩٣ أدب .

١٦ ــ **ابن نباتة** (جمال الدين محمد بن محمد بن محمد بن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨ هـ) .

* سجع المطوق . مصورة مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٣٣٨٣ أدب .

١٧ **النبواتي**

* دفع الشك والمين في تحرير الفنين، مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٣٢٥ أدب تيمور.

١٨ ــ **النواجي** (أبو عبد الله محمد شمس الدين بن بدر الدين المتوفى سنة ٨٥٩ هـ) .

* عقود اللآل في الموشحات والأزجال . مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٧١٠٠ أدب .

١٩ ــ **اليونيني** (قطب الدين موسى بن محمد بن أبي الحسين المتوفى سنة ٧٢٦ هـ) .

* ذيل مرآة الزمان في معرفة الخلفاء والأعيان . مخطوطة بالمكتبة الأحمدية المضمومة الى مكتبة الأوقاف بحلب رقم ١٣١٢ .

(٢)
المصادر المطبوعة

٢٠ ــ **ابن الأثير** (جمال الدين علي بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ) .

* الكامل في التاريخ . طبع مطبعة التحرير ١٣٠٣هـ بالقاهرة .

٢١ ــ **ابن الأثير الكاتب** (ضياء الدين نصر الله بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧ هـ) .

* المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر . طبع مطبعة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة سنة ١٣٥٨ هـ ــ ١٩٣٩ م .

* رسائل ابن الأثير . حققها ونشرها الدكتور أنيس المقدسي طبع مطبعة دار العلم للملايين ببيروت سنة ١٩٥٩ .

٢٢ ــ **الأفغاني** (الأستاذ سعيد الافغاني) .

* في أصول النحو طبع مطبعة جامعة دمشق سنة ١٣٧٠هـ ــ ١٩٥١م .

٢٣ ــ **أسامة بن منقذ** (مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد المتوفى سنة ٥٨٤ هـ) .

* الاعتبار . تحقيق فيليب حتي . طبع مطبعة جامعة برنستون بالولايات المتحدة الاميركية سنة ١٩٣٠م

* ديوان أسامة بن منقذ . تحقيق الدكتور أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد . طبع المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٥٣ م .

* لباب الآداب . تحقيق أحمد محمد شاكر . طبع المطبعة الرحمانية بالقاهرة سنة ١٣٥٤ هـ ــ ١٩٣٥ م .

* المنازل والديار . حققه ونشره المستشرق الروسي أنس خالدوف ، وصدر عن دار النشر للآداب الشرقية . طبع في موسكو سنة ١٩٦١ م .

* البديع في نقد الشعر . حققه الدكتور أحمد أحمد بدوي والدكتور حامد عبد المجيد ، ونشرته وزارة الثقافة والارشاد القومي في القاهرة سنة ١٣٨٠هـ ــ ١٩٦٠م .

٢٤ ــ **ابن أبي أصيبعة** (موفق الدين ، أبو العباس ، أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي المتوفى سنة ٦٦٨ هـ) .

* عيون الأنباء في طبقات الأطباء.طبع المطبعة الوهبية بالقاهرة سنة ١٢٩٩هـ ــ ١٨٨٢م.

٢٥ــ **الآمدي** (أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الآمدي المتوفى سنة ٣٧١ هـ) .

*الموازنة بين أبي تمـام والبحتري . طبـع بالقـاهرة .

٢٦ ـ **آنخـل جنثالث بالنثيا** .

* تاريخ الفكـر الأندلسي . ترجمه حسين مؤنس ، وطبـع مكتبـة النهضة المصريـة بالقاهـرة سنة ١٩٥٥ م .

٢٧ ـ **الأهـواني** (للدكتور عبـد العزيز الأهـواني) .

* الزجل في الأندلس . نشره معهد الدراسات العربية العالية بجامعة الدول العربية. طبع مطبعه الرسالة بالقاهرة سنة ١٩٥٧ م .

* ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر . طبع مكتبة الأنجـلو المصريـة بالقاهـرة سـنة ١٩٦٢ م .

٢٨ ـ **ابن اياس** (أبو البركات محمد بن أحمد بن اياس المتوفى سنة ٩٣٠ هـ) .

* بدائع الزهور في وقائع الدهور . طبـع المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٣١١ هـ .

٢٩ ـ **بـدوي** (الدكتور أحمد أحمد بدوي) .

* الحيـاة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشـام . طبـع مكتبة نهضة مصـر بالقـاهرة .

* الحيـاة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام . طبـع مكتبة نهضـة مصـر بالقاهـرة .

٣٠ ـ **ابن بطوطـة** (محمد بن عبد الله بن ابراهيم الطنجي المتوفى سنة ٧٧٩ هـ) .

* تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . طبع المطبعة الأزهرية بالقاهـرة سـنة ١٣٢٦ هـ .

٣١ ـ **بيـلي** (الدكتور أحمد بيـلي) .

* حياة صلاح الدين الأيوبي . طبع المطبعة الرحمانية بالقاهرة سنة ١٣٤٥ هـ .

٣٢ ـ **بيطـار** (الشيخ محمد بهجت البيطار) .

* حياة شيخ الاسلام ابن تيمية . نشره المكتب الاسلامي بدمشق للطباعة والنشـر سـنة ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦١ م .

٣٣ ـ **التلعفـري** (شهاب الدين محمد بن يوسف بن مسعود بن بركة الشيباني التلعفري المتوفى سـنة ٦٧٥ هـ) .

* ديوان التلعفري . طبع مطبعة المعارف ببيروت سنة ١٣٢٦هـ ، وطبع في المطبعـة الأدبية ببيروت سنة ١٣١٠ هـ .

٣٤ ـ **التميمي** (محيي الدين أبو محمد عبد الواحد علي التميمي المراكشي) .
* المعجب في تلخيص أخبار المغرب . طبع مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٢٤ هـ .

٣٥ ـ **ابن تغري بردي** (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي المتوفى سنة ٨٧٤هـ).
* النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . طبع مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٣٤٩ هـ ـ ١٩٣٠ م . الطبعة الأولى .

٣٦ ـ **تيمور** (أحمد بن اسماعيل تيمور المتوفى سنة ١٣٤٨ هـ) .
* اليزيدية ومنشأ نحلتهم. طبع المكتبة السلفية بالقاهرة . الطبعة الثانية سنة١٣٥٢هـ.

٣٧ ـ **الجاحظ** (أبو عثمان عمرو بن بحر المتوفى سنة ٢٥٥ هـ) .
* الحيوان . تحقيق عبد السلام محمد هارون . طبع مكتبة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة سنة ١٣٥٧ هـ .

٣٨ ـ **ابن جبير** (أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير المتوفى سنة ٦١٤ هـ) .
* رحلة ابن جبير . طبع المكتبة العربية ببغداد سنة ١٣٥٦ هـ ـ ١٩٣٧ م .

٣٩ ـ **الجرجاني** (عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ) .
* أسرار البلاغة . تحقيق محمد رشيد رضا . طبع دار المنار بالقاهرة سنة ١٣٦٧ هـ ـ ١٩٤٧ م . الطبعة الرابعة .

٤٠ ـ **الجواليقي** (أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد الخضر الجواليقي المتوفى سنة ٥٤٠هـ).
* المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم . تحقيق أحمد محمد شاكر . طبع مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٣٦١ هـ . **الطبعة الأولى .**

٤١ ـ **ابن الجوزي** (جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ) .
* تلبيس ابليس . طبع مطبعة النهضة بالقاهرة سنة ١٩٢٨ م .

٤٢ ـ **حاجي خليفة** (مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة وبكاتب جلبي المتوفى سنة ١٠٦٧ هـ) .
* كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. طبع المطبعة البهية باستنبول سنة١٣٦٠هـ.

٤٣ ـ **حبشي** (حسن حبشي) .
* نور الدين والصليبيون. حركة الافاقة والتجمع الاسلامي في القرن السادس الهجري. طبع دار الفكر العربي بالقاهرة سنة ١٩٤٨ م ـ ١٣٦٧ هـ .

٤٤ ـ **ابن حجر** (شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ) .
* الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة . طبع مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية في الهند بحيدر آباد سنة ١٣٥٠ هـ .

٤٥ ــ **ابن حجة** (تقي الدين أبو بكر المعروف بابن حجة الحموي المتوفى سنة ٨٣٧ هـ) .
* خزانة الأدب . طبع المطبعة الخيرية بالقاهرة سنة ١٣٠٤ هـ . الطبعة الأولى .

٤٦ ــ **حسين** (الدكتور محمد كامل حسين المتوفى سنة ١٩٦١ م) .
* دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين . طبع دار الفكر العربي بالقاهرة سنة ١٩٥٧م .

٤٧ ــ **حسين** (محمد أحمد حسين) .
* أسامة بن منقذ . طبع مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٤٦ م .

٤٨ ــ **الحلي** (صفي الدين أبو الفضل عبد العزيز بن سرايا الحلي المتوفى سنة ٧٤٩ هـ) .
* العاطل الحالي والمرخص الغالي . عني بتصحيحه ولهام هونرباخ Wilhelm Hoener Bach طبع مطبعة فرانتز شتاينر ويسبان بألمانيا سنة ١٩٥٥ م باشراف مجمع العلوم والآداب ، لجنة الاستشراق ، المؤلف رقم ١٠ .

٤٩ ــ **حمزة** (الدكتور عبد اللطيف حمزة) .
* الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول .
* أدب الحروب الصليبية . طبع مطبعة الاعتماد بالقاهرة سنة ١٩٤٩ م .

٥٠ ــ **ابن خلدون** (عبد الرحمن بن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ) .
* المقدمة . طبع المطبعة البهية بالقاهرة .
* العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر . طبع المكتبة التجارية بالقاهرة ، ودار الطباعة الخديوية ببولاق سنة ١٢٨٤ هـ .

٥١ ــ **ابن خلكان** (شمس الدين أبو العباس أحمد المتوفى سنة ٦٩١ هـ) .
* وفيات الأعيان . طبع المطبعة الميمنية بالقاهرة سنة ١٣١٠ هـ .

٥٢ ــ **ابن الخياط** (أحمد بن الخياط الدمشقي المتوفى سنة ٥١٧ هـ) .
* ديوان ابن الخياط . طبع المجمع العلمي العربي بدمشق . المطبعة الهاشمية سنة ١٣٧٧ هـ ــ ١٩٥٨ م .

٥٣ ــ **الخفاجي** (شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ) .
* شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل . طبع المطبعة الوهبية بالقاهرة سنة ١٢٨٢ هـ . الطبعة الاولى .

٥٤ ــ **الدلجي** (شهاب الدين أحمد بن علي الدلجي المتوفى سنة ٨٣٨ هـ) .
* الفلاكة والمفلوكون . طبع مطبعة الشعب بالقاهرة سنة ١٣٢٢ هـ .

٥٥ ــ **دوايت م . دونلدسن** .

* عقيدة الشيعة . طبع مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٦٥ هـ . ـ ١٩٤٦ م .

٥٦ ـ **ابن رشيق** (أبو على الحسن بن رشيق القيرواني المتوفى سنة ٤٥٦ هـ) .

* العمدة في محاسن الشعر وآدابه . طبع مطبعة حجازي بالقاهرة سنة ١٣٥٣ هـ ـ ١٩٣٤ م . صدر عن المكتبة التجارية الكبرى . الطبعة الاولى .

٥٧ ـ **زامباور** .

* معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي . ترجمه للعربية زكي محمد حسن وحسن احمد محمود . وطبع مطبعة جامعة القاهرة سنة ١٩٥١ م .

٥٨ ـ **الزركلي** (خير الدين الزركلي) .

* الأعلام . طبع مطبعة كوستا توماس وشركاه بالقاهرة سنة ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٤ م .

٥٩ ـ **ابن الساعاتي** (بهاء الدين أبو الحسن على بن رستم بن هردوز المتوفى سنة ٦٠٤ هـ).

* ديوان ابن الساعاتي. تحقيق أنيس المقدسي. طبع المطبعة الاميركانية ببيروت سنة ١٩٣٨م.

٦٠ ـ **سبط ابن الجوزي** (يوسف بن علي قزعلي بن عبد الله المتوفى سنة ٦٥٤ هـ) .

* مرآة الزمان في تاريخ الاعيان . الجزء الثامن من سنة ٤٩٥هـ الى ٦٥٤هـ حققه الدكتور جيمس ريشارد جويت (Games Richard Jwett P,H,O) ونشرته جامعة شيكاغو سنة ١٩٠٧م

٦١ ـ **السبكي** (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي المتوفى سنة ٧٧١ هـ).

* طبقات الشافعية الكبرى . طبع المطبعة الحسينية بالقاهرة سنة ١٣٢٤ هـ .

* معيد النعم ومبيد النقم . طبع دار الكتاب العربي بالقاهرة سنة ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م .

٦٢ ـ **ابن سعيد** (أبو الحسن علي بن موسى الأندلسي المتوفى سنة ٦٨٥ هـ) .

* الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة . تحقيق ابراهيم الأبياري . طبع دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٤٥ م .

٦٣ ـ **سعيد عبد الفتاح عاشور** .

* دراسات في الحياة الاجتماعية في مصر في عصر سلاطين المماليك . طبع مكتبة النهضة بالقاهرة سنة ١٩٥٩ م .

٦٤ ـ **ابن سهل** (أبو اسحق ابراهيم بن سهل الاشبيلي الأندلسي المتوفى سنة ٦٤٩ هـ) .

* ديوان شعر ابن سهل. تحقيق بطرس البستاني. طبع مكتبة صادر ببيروت سنة ١٩٥٣م.

٦٥ ـ **السكاكي** (أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي المتوفى سنة ٦٣٦ هـ).

* مفتاح العلوم . طبع المطبعة الأدبية بالقاهرة سنة ١٣١١ هـ . الطبعة الاولى .

٦٦ ـ **ابن سناء الملك** (أبو القاسم هبة الله بن جعفر بن سناء الملك المتوفى سنة ٦٠٨ هـ).
* دار الطراز في عمل الموشحات . تحقيق الدكتور جودة الركابي طبع المطبعة الكاثوليكية بيروت سنة ١٣٦٨ هـ ـ ١٩٤٩ م .

٦٧ ـ **السيوطي** (جلال الدين عبد الرحمن السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ) .
* حسن المحاضرة . طبع المطبعة الشرقية بالقاهرة سنة ١٣٢٧ هـ .
* بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة . طبع مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٢٦ هـ . الطبعة الاولى .

٦٨ ـ **ابن شاكر** (محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ) .
* فوات الوفيات . طبع مطبعة بولاق بالقاهرة سنة ١٨٨١ م .

٦٩ ـ **ابن شداد** (بهاء الدين بن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ هـ).
* النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية. طبع مطبعة صبيح بالقاهرة سنة ١٣٤٦ هـ.

٧٠ ـ **ابن شداد** (عز الدين ، أبو عبد الله ، محمد بن علي بن ابراهيم ابن شداد المتوفى سنة ٦٨٤ هـ) .
* الأعلاق الخطرة . طبع المطبعة الكاثوليكية ببيروت سنة ١٩٥٣ ، وصدر عن المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية .

٧١ ـ **الشرف الأنصاري** : (عبد العزيز بن محمد المتوفى سنة ٦٦٢ هـ) .
* تحقيق الدكتور عمر موسى باشا . منشورات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٦٧ م ـ ١٣٨٧ هـ .

٧٢ ـ **الشهاب محمود** (شهاب الدين أبو الثناء محمود بن سلمان الحلبي المتوفى سنة ٧٢٥هـ).
* حسن التوسل الى صناعة الترسل . طبع المطبعة الوهبية بالقاهرة سنة ١١٩٨ هـ .

٧٣ ـ **الصابوني** (أحمد الصابوني المتوفى سنة ١٣٣٤ هـ) .
* تاريخ حماة . طبع المطبعة الأهلية بحماة سنة ١٩٥٦ م . الطبعة الثانية .

٧٤ ـ **الصفدي** (صلاح لدين خليل بن أيبك المتوفى سنة ٧٦٤ هـ) .
* الوافي بالوفيات . تحقيق هـ . ريتر . طبع مطبعة الدولة باستنبول سنة ١٩٣١ م .
* جنان الجناس في علم البديع . طبع مطبعة الجوائب باستنبول سنة ١٢٩٩ هـ . الطبعة الاولى .

٧٥ ـ **ضيف (الدكتور شوقي ضيف)** .
* الفن ومذاهبه في الشعر العربي . طبع مطبعة دار الكتب ببيروت سنة ١٩٥٦ م . الطبعة الثالثة .

* الترجمة الشخصية . طبع دار المعارف ببيروت سنة ١٩٥٦ م .

٧٦ ـ **الطباخ** (محمد راغب بن محمود بن هاشم الطباخ الحلبي) .

* أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء . طبع المطبعة العلمية بحلب سنة ١٣٤٣ هـ .

٧٧ ـ **الطرابلسي** (الدكتور أمجد الطرابلسي) .

* النقد واللغة في رسالة الغفران . طبع مطبعة جامعة دمشق سنة ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م .

٧٨ ـ **ابن ظفر** (حجة الدين أبو هاشم محمد بن أبي محمد بن ظفر الصقلي المتوفى سنة ٥٦٥هـ) .

* سلوان المطاع في عدوان الاتباع . طبع مطبعة جمعية الفنون ببيروت سنة ١٣٠٠ هـ .

٧٩ ـ **ابن عربي** (محيي الدين بن عربي المتوفى سنة ٦٣٨ هـ) .

* ديوان ابن عربي . طبع دار الطباعة ببولاق سنة ١٢٧١ هـ بالقاهرة .

* فصوص الحكم . تحقيق الدكتور أبي العلاء عفيفي . طبع دار احياء الكتب العربية في القاهرة سنة ١٣٦٥ هـ ـ ١٩٤٦ م .

٨٠ ـ **عرقلة الكلبي** (حسان بن نمير المتوفى سنة ٥٦٧ هـ) .

* ديوان عرقلة الكلبي . تحقيق أحمد الجندي . مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م .

٨١ ـ **عزاوي** (عباس عزاوي) .

* تاريخ الأدب العربي في العراق . طبع المجمع العلمي العراقي في بغداد سنة ١٩٦١ م ـ ١٣٨١ هـ .

٨٢ ـ **عوا** (الدكتور عادل عوا) .

* منتخبات اسماعيلية . طبع مطبعة جامعة دمشق سنة ١٣٧٨ هـ ـ ١٩٥٨ م .

٨٣ ـ **ابن عساكر** (ثقة الله أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين بن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ هـ) .

* التاريخ الكبير المعروف بتاريخ دمشق . الأجزاء الخمسة الأولى منه بتحقيق الاستاذ عبد القادر بدران ، والجزءان السادس والسابع بتحقيق الأستاذ أحمد عبيد . طبع مطبعة روضة الشام بدمشق سنة ١٣٢٩ هـ .

* تاريخ مدينة دمشق . تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجّد . مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٥٤ م جزءان .

٨٤ ـ **العسكري** (أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ هـ) .

* كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر . تحقيق الاستاذين علي محمد البجاوي ومحمد

أبو الفضل ابراهيم طبع دار أحياء الكتب العربية بالقاهرة سنة ١٣٧١ هـ ـ ١٩٥٢ م.
الطبعـة الاولى .

٨٥ ـ **ابن العفيف** (شمس الدين محمد بن عفيف الدين المعروف بالشاب الظـريف المتوفى سـنة ٦٨٨ هـ) .

* ديوان الشـاب الظريف . طبـع المطبعـة الأهليـة ببيروت .
* ديوان الشـاب الظريف . تحقيق شـاكـر هادي شكـر . مطبعة النجف ـ النجف الأشرف ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م .
* مقامات العشـاق . نشرت هـذه المقامات كاملة في ملحق مطبوع مع ديوان التلعفري . طبـع المطبعة الأدبية ببيروت سـنة ١٣١٠ هـ .

٨٦ ـ **عفيفي** (الدكتور أبو العـلاء عفيفي) .

* الملامتية والصوفية وأهـل الفتوة . طبـع دار احياء الكتب العربية بالقاهـرة سـنة ١٣٦٤ هـ ـ ١٠٤٥ م .

٨٧ ـ **ابن العمـاد** (أبو الفلاح عبد الحي بن العماد المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ) .

* شذرات الذهب في أخبار من ذهب . طبع مطبعة القدس بالقاهرة سنة ١٣٥١ هـ .

٨٨ ـ **العمـاد الكاتب** (عماد الدين محمد بن محمد بن حامد المتوفى سنة ٥٩٧ هـ) .

* خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء مصر . تحقيق الدكتور شوقي ضيف والاستاذ أحمد أمين والدكتور احسان عباس . طبع مطبعة لجنة التاليف والترجمـة والنشر بالقاهرة سـنة ١٩٥١ م .
* خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء الشـام . تحقيق الدكتور شكري فيصل. نشره المجمـع العـلمي العـربي ، وطبع في مطبعـة المكتبة الهاشمية بدمشق سـنة ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٥ م .
* خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء العراق . تحقيق الدكتور جميل سعيد والاستاذ محمد بهجت الأثري . طبع مطبعة المجمع العلمي العراقي ببغـداد سـنة ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٥ م .
* الفتح القسي في الفتح القدسي . طبع المطبعة الخيرية بالقاهرة سنة ١٣٢٢ .
* تاريخ دولة آل سلجوق . طبع مطبعة الموسوعات بالقاهرة سنة ١٣١٨هـ ـ ١٩٠٠م .

٨٩ ـ **ابن عنـين** (أبو المحاسـن شـرف الدين محمد بن نصر الله بن نصر بن عنـين المتوفى سـنة ٦٣٠ هـ) .

* ديوان ابن عنين . تحقيق خليل مردم . طبع مطبعة دمشق سنة ١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٦م . صدر عن المجمـع العلمي العـربي بدمشق .

٩٠ ـ **ابن غـانم** (عز الدين بن عبد السلام بن أحمد المقدسي المتوفى سنة ٦٧٨ هـ) .

* كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار. طبع المطبعة الزاهرة بالقاهرة سنة ١٢٩٠هـ .
* القول النفيس في تفليس ابليس . طبع في القاهرة سنة ١٢٧٧ هـ .

٩١ ـ **الفارقي** (احمد بن يوسف بن علي بن الأزرق الفارقي) .
* تاريخ الفارقي أو تاريخ ميافارقين وآمد . تحقيق الدكتور بدوي عبد اللطيف عوض. طبع الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية بالقاهرة سنة ١٣٧٩ هـ .

٩٢ ـ **فتيان الشاغوري** (فتيان بن على الأسدي المتوفى سنة ٦١٥ هـ) .
* ديوان فتيان الشاغورى . تحقيق أحمد الجندي . مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧ م .

٩٣ ـ **أبو الفداء** (المؤيد عماد الدين اسماعيل بن أيوب المتوفى سنة ٧٣٢ هـ) .
* المختصر في أخبار البشر . طبع دار الطباعة العامة باستنبول سنة ١٢٨٦هـ .

٩٤ ـ **ابن فضل الله** (شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله المتوفى سنة ٧٤٩ هـ) .
* مسالك الابصار في ممالك الأمصار . طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٣٤٢هـ .

٩٥ ـ **ابن الفرات** (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات المتوفى سنة ٨٠٧ هـ) .
* تاريخ ابن الفرات . تحقيق الدكتور قسطنطين زريق والدكتورة نجلاء عز الدين . طبع المطبعة الأميركانية ببيروت سنة ١٩٣٩ م .

٩٦ ـ **ابن الفوطي** (كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق بن الفوطي المتوفى سنة ٧٢٣ هـ) .
* الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة . تحقيق الاستاذ مصطفى جواد . طبع المكتبة العربية ببغداد سنة ١٣٥١ هـ .

٩٧ ـ **الفيومي** (أبو العباس احمد بن محمد بن علي الفيومي المتوفى سنة ٧٧٠ هـ) .
* المصباح المنير في غريب الشرح الكبير . طبع المطبعة الوهبية بالقاهرة سنة ١٣٠٠هـ.

٩٨ ـ **القزويني** (جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني المتوفى سنة ٧٣٩ هـ) .
* الايضاح ، تحقيق الاستاذ عز الدين التنوخي . طبع مطبعة جامعة دمشق سنة ١٣٦٧ هـ ـ ١٩٤٨ م .

٩٩ ـ **ابن القلانسي** (أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد المتوفى سنة ٥٥٥ هـ) .
* تاريخ أبي يعلى حمزة بن القلانسي المعروف بذيل تاريخ دمشق . طبع مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت سنة ١٩٥٨ م .

١٠٠ ـ **القلقشندي** (أبو العباس احمد القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١ هـ) .
* صبح الأعشى في صناعة الانشا. طبع المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة١٣٣٢هـ ـ ١٩١٥م.

١٠١ ـ **ابن كثير** (أبو الفداء عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ).

* البداية والنهاية . طبع مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٥٩ هـ .

١٠٢ ـ **كرد علي** (محمد بن عبد الرزاق بن محمد المتوفى سنة ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٣ م) .

* خطط الشام . طبع المطبعة الحديثة بدمشق سنة ١٣٤٣ هـ ـ ١٩٢٥ م .

١٠٣ ـ **مبارك** (الدكتور زكي بن عبد السلام بن مبارك المتوفى سنة ١٣٧١ هـ) .

* التصوف الاسلامي في الأدب والاخلاق . طبع مطبعة الرسالة سنة ١٣٥٧ هـ .

١٠٤ ـ **ابن المعتز** (عبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ) .

* البديع . طبع مطبعة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة سنة ١٣٦٤ هـ ـ ١٩٤٥ م .

١٠٥ ـ **أبو شامة المقدسي** (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي الملقب بأبي شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ) .

* كتاب الروضتين في أخبار الدولتين . طبع مطبعة وادي النيل بالقاهرة سنة ١٢٨٧ هـ .

* ذيل الروضتين . طبع مكتب نشر الثقافة الاسلامية بالقاهرة سنة ١٣٦٦ هـ .

١٠٦ ـ **المقري** (شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني المتوفى سنة ١٠٤١ هـ) .

* أزهار الرياض في أخبار عياض . حققه الأساتذة مصطفى السقا وابراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي . طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة ١٣٥٩ هـ ـ ١٩٤٠ م .

١٠٧ ـ **المقريزي** (تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد المتوفى سنة ٨٤٥ هـ) .

* السلوك لمعرفة دول الملوك . طبع مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٣٤ م .

* المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . طبع مطبعة وادي النيل بالقاهرة سنة ١٣٢٤ هـ .

* اغاثة الأمة بكشف الغمة . تحقيق الاستاذين محمد مصطفى زيادة وجمال الدين محمد الشيال . طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة ١٣٥٩ هـ .

١٠٨ ـ **مندور** (الدكتور محمد مندور المتوفى سنة ١٩٤٦ م) .

* النقد المنهجي عند العرب . طبع مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة سنة ١٩٤٨ م .

١٠٩ ـ **موسى باشا** (الدكتور عمر موسى باشا) .

* ابن نباتة المصري أمير شعراء المشرق . طبع مطابع دار المعارف بالقاهرة سنة ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٣ م .

١١٠ ـ **النعيمي** (عبد القادر محمد النعيمي المتوفى سنة ٩٢٧ هـ) .

* الدارس في تاريخ المدارس . تحقيق الأستاذ جعفر الحسني . طبع مطبعة الترقي بدمشق سنة ١٣٦٧ هـ ـ ١٩٤٨ م . صدر عن المجمع العلمي العربي .

١١١ ـ **نورمان هـ** . بينز

* الامبراطورية البيزنطية . تعريب الدكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد . طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٥٠ م .

١١٢ ـ **نيكلسون** (الدكتور ر . ا . نيكلسون) .

* الصوفية في الاسلام . تعريب الأستاذ نور الدين شريبة . طبع مكتبة الخانجي بالقاهرة سنة ١٩٥١ م ـ ١٣٧١ هـ .

١١٣ ـ **ابن واصل** (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل الحموي المتوفى سنة ٦٩٧ هـ).

* مفرج الكروب في أخبار بني أيوب . تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال . طبع الجزء الأول في القاهرة سنة ١٩٥٣م، الجزء الثاني بالمطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٥٧م.

١١٤ ـ **ابن الوردي** (عمر بن مظفر بن عمربن محمد أبي الفوارس المتوفى سنة ٧٤٩ هـ) .

* تتمة المختصر في أخبار البشر . طبع المطبعة الوهبية بالقاهرة سنة ١٢٨٥ هـ .

١١٥ ـ **الوهراني** (ركن الدين محمد بن محرز المتوفى سنة ٥٧٥ هـ) .

* منامات الوهراني ومقاماته ورسائله . تحقيق ابراهيم شعلان ومحمد نغش ومراجعة الدكتور عبد العزيز الاهواني . طبع دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٨ م .

١١٦ ـ **اليافعي** (عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي المتوفى سنة ٧٦٨ هـ) .

* مرآة الجنان وعبرة اليقظان. طبع دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد سنة ١٣٣٧هـ .

١١٧ ـ **ياقوت الحموي** (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ) .

* ارشاد الأريب لمعرفة الأديب المعروف باسم معجم الأدباء . تحقيق المستشرق د . س. مرغوليوث . طبع مطبعة هندية بالقاهرة سنة ١٩٢٥ م .

* معجم البلدان . طبع دار صادر ودار بيروت سنة ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٥ م .

(٣)
المجلات الدورية

١١٨ ـ مجلة المجمع العلمي العربي ـ دمشق . المجلد ٤٠ الجزء الأول سنة ١٩٦٥م ـ ١٣٨٤هـ .

١١٩ ـ محاضرات المجمع العلمي العربي . صدر عن المجمع بدمشق .

١٢٠ ـ المجلة ـ القاهرة العدد ١٦٧ شباط ١٩٦٧ .

(٤)

المصـــادر الأجنبيـــة

BIBLIOGRAPHIE

121 - **Brockelman** :

* Geschichte des Arabischen Literatur Weimar et Berlin 1828 - 1202. 2 vol

122 - **R. Dozy** :

* Supplement aux dictionnaires Arabes 2 Vol . Leide 1927 .
* Dictionnaire détaillé des noms des vetements chez les Arabes Amsterdam 1845

123 - **Hartwig Derenbourg** :

* Ousama Ibn Mounkidh 2 Vol. Paris Ernest Leroux Editeur 1889 .

124 - **Jawdat Rikabi** :

* La poèsie Profane Des Ayyubides et ses principaux Representants :
Damas . Libraire Oriantale et Americaine O-P . Maisonneneuve et co . 1949 .

125 - **E . I** :

* Encyclopédie de L'Yslam . Version Francaise . Leide 1913-1938 4 Vol .
* Supplement . I Vol .



الفهرس الثاني

أ
فهرس أعلام الأشخاص

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(س)

(ش)

(ص)

(غ)

(ف)

(م)

(هـ)

(و)

(ي)

الفهرس الثالث

فهرس أعلام الطوائف والقبائل والشعوب

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

الفهرس الرابع

فهرس أعلام المناطق الجغرافية

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)



الفهرس الخامس

فهرس التصويبات المستدركة

الصفحة	السطر	الصواب أو الاستدراك
١٨	٦	نظـام الملك
٢٥	١٩	Conrad
٢٧	٦	دار البطيـخ
٣٣	٤٤	غازي بن زنكي
٩٤	٥	حيـاة بن قيس
٩٩	١٧	شرف الدين بن الحسن
١٠٧	١٠	وأبا حيـان
١١٤	٢٠	وأما الشامية البرانية فهي مـن أكبـر المـدارس وأكثرها فقهـاء
١٢٩	٢	موسى بن عبـد القادر
١٢٩	٩	وست العـرب بنت يحيى بن قايمـاز أم الخـير الدمشقية ، وزينب
١٢٩	٩	وزينب بنت علي بن أحمد
١٣٥	١٩	خـالويه
١٣٩	٥	أبو حيـان المغـربي
١٤٩	٢	عـلي بن محمود
١٦١	٣	سـديد الدولة
١٦٤	١٢	ويلاحظ في هذه القصيدة أن الشاعر سطا على معاني ابي تمام في قصيدته التي خلّد فيها فتح عمورية
٢٠٣	١	ووصف السوالف وقد خاطت رقية على وجناته
٢٠٩	١٨	منتقـاه
٢١٠	٤	اغـراض
٢٢٣	١٩	بقلـبي
٢٢٤	١	الشيب
٢٢٤	٥	نور الـدين
٢٢٤	١٧	يا صـاح
٢٢٥	٦	إيلغـازي

الصفحة	السطر	الصواب أو الاستدراك
٢٢٦	٦	المتوفى
٢٢٦	١٨	الخصيب
٢٢٩	١٤	يسير
٢٢٩	١٨	دار الحكمة
٢٢٤	١٧	العادل بن السلار
٢٤٤	١٨	نصر بن عباس
٢٦٠	٦	بعث بها
٢٧٨	١٤	الظافر مظفر
٢٨٤	٢٠	عبد العزيز
٢٨٤	٢٠	إلا على
٨٩٢	٨	لا رضوى
٢٩٢	١٠	فيكف عن
٣٢٠	١٧	جيهان
٣٢٨	١٤	فما لنبي أيوب ملك مساجل ولا في بني ايوب ملك يساجله (٢) ملك بساجله (٢)
٣٤٧	١٥	مع لقبه
٣٧٩	١٣	شمس الدين
٤١٩	١٢	ومن كان
٤٢٤	١٢	والاستشارة
٤٧٥	٢٤	يجري بسعدك
٤٧٥	ها ١	حناك
٤٨٧	١٣	البروق ابتسامها
٥١٠	١٧	ليسكبوا
٥١٨	٨	المتنزهات
٥٤٠	١٠	ابن سناء الملك
٦٠٧	١	الفرنج
٦٤١	٤	المنتشرة
٧٠٩	١٠	السعلوس

الفهرس السادس

فهرس محتويات الكتــاب



آثار المؤلف المطبوعة

الدراسات الأدبية :

١ ـ ابن نباتة المصري ـ أمير شعراء المشرق

منشورات دار المعارف بمصر .

سلسلة مكتبة الدراسات الأدبية رقم ٣١

الطبعة الأولى سنة ١٩٦٣ . الطبعة الثانية ١٩٧٢ .

٢ ـ ابن النقيب ـ شاعر الطبيعة الدمشقي في العصر العثماني .

منشورات المكتبة العباسية بدمشق سنة ١٩٧٠ .

٣ ـ الأدب في بلاد الشام ـ عصر الزنكيين والأيوبيين والمماليك .

الطبعة الأولى ـ دار الفكر الحديث ـ دمشق سنة ١٩٦٧

الطبعة الثانية ـ المكتبة العباسية ـ دمشق سنة ١٩٧٢

المخطوطات المحققة :

٤ ـ آداب المؤاكلة ـ لبدر الدين الغزي .

مطبوعات مجمع اللغة بدمشق سنة ١٩٦٧ .

٥ ـ آداب العشرة ـ لبدر الدين الغزي .

مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٦٨ .

٦ ـ ديوان الصاحب شرف الدين الأنصاري .

مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٦٧ .

٧ ـ مطلع الفوائد ومجمع الفرائد ـ لجمال الدين بن نباتة المصري .

مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٧٢ .



هـذا الكتاب مرجـع اساسي مقـرر
لطـلاب السنـة الرابعـة في قسم
اللغـــة العـربية في كليـــة الآداب
بموجب قرار مجلس جـامعة دمشق
رقم ١٣٩ والمؤرخ في ٢٩/١١/١٩٦٥



OMAR MOUSSA PACHA

Docteur ès - Lettres

Professeur à la Faculté des Lettres

Université de Damas

LA LITTERATURE ARAB EN CHAM

sous

les Zinguides , les Ayyubides et les Mamluks

Libraire Abbassié

Damas 1972







